أغنس نيوتون كيث

أهلُ الله

مُذكّرات أميركيّة في ليبيا

CHILDREN OF ALLAH: BETWEEN THE SEA AND SAHARA

مذكرات

ترجمة | فرج الترهوني

دار الفرجاني

أغنس نيوتون كيث

أغنس نيوتن كيث (1901-1982) كاتبة أمريكية اشتهرت بسيرتها الذاتية عن الحياة في شمال بورنيو (صباح الآن) قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية والتي نشرت في ثلاث أجزاء، فاز الجزء الأول المعنون (أرض تحت الريح) عام 1939 بجائزة أتلانتيك الشهيرة عن الكتب غير الروائية، وتحول الجزء الثاني (ثلاثة عادوا إلى الوطن) إلى فيلم سينمائي العام 1950 ويحكي عن الوقت الذي قضته كأسيرة حرب في معتقل للجيش الياباني في شمال بورنيو. عاشت في ليبيا رفقة زوجها الذي عمل كخبير لمنظمة الأغذية والزراعة العالمية الفاو بين عامَيْ 1955 و1964 وجمعت مشاهداتها عن الحياة اليومية في ليبيا في كتاب (أهل الله) والذي صدر العام 1965.

فرج الترهوني

ولد فى مدينة المرج فى ليبيا عام 1948. تخرج من الأكاديمية البحرية الملكية البريطانية العام 1971، شغل مناصب عديدة في القوات البحرية حتى العام 1999. نُشرت له عدة ترجمات من الآداب العالمية والتاريخ السياسي والعام. يكتب المقالات بصورة دورية فى صحف عدة. من ترجماته رواية (كثبان النمل فى السافانا) لتشنوا أتشيبى و(الحرب فى زمن السلم) لديفيد هالبرستام، و(الشاطئ الرابع) لفرجينيا بايلي.

أغنس نيوتون كيث

أهل الله

مُذكِّرات أميركيَّة في ليبيا

ترجمة: فرج الترهوني

دار الفرجاني

دار الفرجاني

الطبعة العربية الأولى 2022

نشر لأول مرة باللغة الانكليزية العام 1965

ترجم عن الانكليزية

Children of Allah - Michael Jospeh Ltd - UK - 1966

جميع الحقوق محفوظة للكاتبة أغنس نيوتون كيث ©

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة لفرج الترهوني ©

ردمك ISBN 9789775496911

رقم الإيداع: 21706 / 2022

9 ميدان الذهبي

منشية البكري

القاهرة

جمهورية مصر العربية

Tel: +201001619295

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

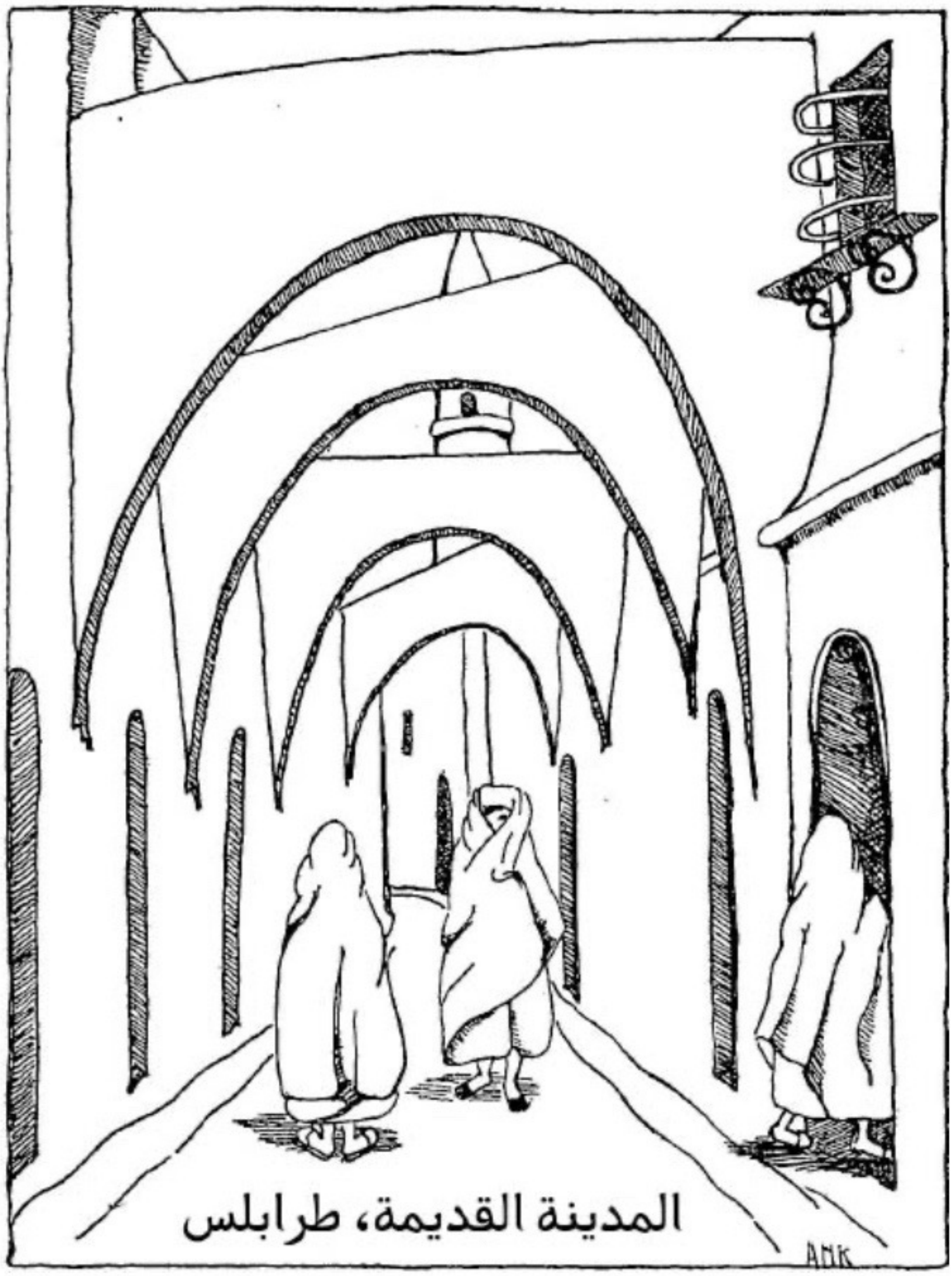

المدينة القديمة، طرابلس

الإهداء

إلى هاري جي كيث:

«فيك حياتي وفيك مماتي».

ملاحظة المؤلفة

لأنهم وُلِدوا في أرضٍ قاحلة جرداء؛ يجد الليبيون أنفسهم محكومين بثنائية البحر والصحراء، بهطل المطر أو بحدوث الجفاف، بانطلاق زوابع الرمال أو بفيضانات السيول، بمواسم حصاد الحبوب، أو القحط وتَعرُّض ماشيتهم للمجاعة. والآن، في هذا القرن الذي يشهد ظهورَ ثروات باطن الصحراء، يجدون أنفسهم محكومين بتدفُّق النفط من تحت رمالهم.

لمدَّة شهرٍ من كل عام، يصومون طوال ساعات النهار، ويحتفون بالطعام خلال الليل، ويولُّون وجوههم شطر مكَّة للصلاة خمسَ مرات في اليوم، مُردِّدين أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، في خضوعٍ تام لمشيئته. يقودون سيارات الجاغوار، وألفا روميو، كما يركبون الإبل والحمير. البعض منهم لديه في بيوتهم أثاثٌ من طراز لويس الخامس عشر، بينما آخرون يقطنون الكهوف أو الخيام السوداء. كما يذهب البعض منهم إلى روما لتمضية العطلة، وفي الوقت نفسه يُخفون زوجاتهم في الجُرود والفرَّاشيات وتحت النقاب، بعضهم يحصل على منح للدراسة الجامعية، بينما الكثيرون لا يعرفون حتى كتابة أسمائهم.

هذه قصةُ شعبٍ مسلم فخور بنفسه، يناضل ليحظى بحياة عصرية في مملكة حديثة التكوين، وفي أرض لها الكثير من سِمات العصر الحجري. كل ما سيُروَى من أحداثٍ في هذا الكتاب حقيقيٌّ، أمَّا الأسماء والشخصيات الليبية المذكورة فهي -في بعض الأحيان- من نسج الخيال.

أغنس نيوتون كيث

أغسطس 1965

البحر المتوسط
المتوسط
الجزائر
ليبيا
الكفرة
مصر
النيجر
تشاد
السودان
ابولونيا
البيضاء
شحات
درنة
الجبل الأخضر
بنغازي
طبرق
برقة
اجدابيا
مرسى البريقة
خط انابيب
العقيلة
مرادة
اوجلة
جالو
الجغبوب
حقل زلطن النفطي
ش
غ
ش
ج
LIBYA
20
ليبيا
مصر
تازربو
الكفرة
ربيانة بحر الرمال
واو الناموس
الجوف
السودان

تونس
الجزائر
زوارة
طرابلس
لبدة الكبرى
مصراتة
نالوت
جادو
يفرن
غريان
جبل نفوسة
مزدة
سيناون
اقليم طرابلس
سرت
درج
غدامس
الحمادة
الحمراء
صحراء سرت
هون
ودان
سوكنة
عوينات ونين
الهروج السوداء
ادري
براك
أم العبد
جبال
الهروج
ادهان اوباري
سبها
اوباري
العوينات
ام الارانب
تراغن
مرزق
فزان
غات
واو الكبير
القطرون
الحدود الدولية
طرق
مسارات صحراوية
النيجر

مُقدِّمة التَّرجَمة

«كيف حدث ووقعتُ في حالة حبٍّ جارفةٍ مع بلاد الله هذه، هذا الموقعِ الجغرافيِّ الذي يصعُب العيش فيه؟ (لكن... الله أكبر!)».

هذه الفقرة مُقتَبَسة من الكتاب، تُعبِّر من خلالها الكاتبة عن الارتباط العميق والمحبَّة التي شعرت بها تجاه ليبيا وأهلها، وأيضًا هذه قصة امرأة أميركية ذكية وعطوفة، تروي من خلالها كيف انجذبت إلى مُواطِني دولة عربية ناشئة، تمرُّ بصعوبات التأسيس، وقد مزَّقتها الحرب. بلادٌ عالقة بين البحر والصحراء، وتكافح من أجل اللحاق بالعالم الحديث.

يمكن اعتبار هذا الكتاب أقربَ لأن يكون مذكِّرات وانطباعات امرأة أجنبية عاشت في ليبيا نحو تِسع سنين متَّصِلة، كزوجةٍ لأحد خبراء منظمة الأغذية والزراعة (الفاو) بين عامَيْ 1955 و1964، وهي الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد التي شَهِدَت بداية تأسيس الدولة الليبية الحديثة بعد عهودٍ من الاستعمار والهيمنة الأجنبية، وما مرَّت به الدولة الناشئة وشعبها من أحداث مهمَّة شكَّلَت بالتالي مسارَ ما سيلي من وقائع جِسام.

يَلزَمُ في البداية تسليطُ قَدْرٍ من الضوء على مؤلِّفة هذا الكتاب، وتَتبُّع مسيرة حياتها التي قادتها إلى المجيء إلى ليبيا والعيش فيها قُرابةَ عَقدٍ من الزمن...

وُلِدَت أغنس كيث عام 1901، في ولاية إلينوي بالولايات المتحدة، وفي عام 1934 تزوَّجَت من هاري كيث، وهو خبيرٌ زراعيٌّ إنكليزي. رافَقَت أغنس زوجها إلى ولاية بورنيو في الشرق الأقصى بعد زواجها بقليل، حيث تعرَّفَت على الحياة في مجتمعٍ استعماريٍّ بريطاني مُنعَزِل في أرض غريبة. وعلى مدى السنوات الخمس التالية، وثَّقَت ملاحظاتها وخبراتها في سلسلة مقالات شخصية تمَّ نشرُها في كتابها الأول «أرض تحت الريح» الذي فاز في عام 1939 بجائزة أتلانتيك الشهيرة عن الكتب غير الروائية. ويُعَدُّ الكتابُ سجلًّا حقيقيًّا للمجتمع والثقافة آنذاك، ولوصف الجمال الطبيعي الآسِر لمقاطعة صباح. وتميَّزَت أغنس أنها تكتب بحساسية وبروح الدُّعابة أيضًا، ولها مهارة

في التقاط جوهر الحياة الاستعمارية من منظور المغتَرِبين الأميركيين، وكذلك في وصف السُّكَّان المحلِّيِّين بمَوَدَّة وتعاطُف.

ثم تعرَّضَت بورنيو للهجوم من قِبَل الجيش الياباني، وتمَّ احتجازُ عائلة كيث هناك من يناير 1942 إلى سبتمبر 1945 في معسكر اعتقال، مع زوجها وابنها الرضيع چورچ، طوال فترة الحرب العالمية الثانية، حيث عانت أغنس من الملاريا والتيفوئيد، واحتُجِز زوجها في معسكرٍ مُنفَصِل للرجال. وكان على النساء أن يعملن بجدٍّ في أوضاع بالغة السُّوء من تردِّي الصرف الصحي ونقص الغذاء المناسب، وهناك أَخَذَت تُدوِّن ملاحظاتها ويوميَّاتها بشكلٍ خَفيٍّ، وهو ما أوردته في كتابها «ثلاثة عادوا إلى الوطن»، الذي تحوَّل إلى فيلم سينمائي Three Came Home

(يمكن مشاهدته على موقع يوتيوب)، ثم كتَبَت مرَّةً أخرى بعد انتهاء الحرب وعودتها مع زوجها إلى بورنيو، وجمَعَت مذكِّراتها في كتاب بعنوان «الرجل الأبيض يعود».

وهكذا يعرف القارئ الآن أن أغنس كيث لديها خبرات وتجارب سابقة في الكتابة بأسلوبها التقريري الخاص عن البلدان والشعوب التي عاشت بينها، وبالطبع يندرج كتاب «أهل الله» في السياق نفسه؛ فهو يجمع حصيلة تجارب الكاتبة في ليبيا في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي.

وتجدُر الإشارة في البدء -كذلك- إلى تفسير عنوان الكتاب كما في جاء في الأصلِ، وهو «Children of Allah» وللوهلة الأولى تبدرُ إلى الأذهان الترجمة البسيطة المقابِلَة وهي «أبناء الله»، ومَن يقرأ هذا العمل التوثيقي لفترة إقامة الكاتبة في ليبيا، وأسلوب فهمها لطبيعة الليبيِّين وعاداتهم وطُرق معيشتهم؛ سيعرفُ على الفور أنَّ الكاتبة تلاحظ في مواضِعَ عديدةٍ ارتباطَ سلوك وثقافة الليبيين -وجُلِّ حياتهم- بمشيئة الله وفقًا لمنظورهم الإيماني، وأنهم يُسلِّمون بهذه الإرادة في معظم أحاديثهم وشؤون حياتهم اليومية؛ وبالتالي خرج الكتاب بهذا العنوان. وتعبير «أهل الله» في الثقافة الليبية والعقل الجمعي يشير إلى ارتباط شخصٍ أو مجموعة من الناس وإيمانها بالقدرة الإلهية العظيمة والتسليم لمشيئتها بشكل مُطلَق، وهذا الارتباطُ يحكمُ كلَّ

تصرفات المجموعة وأفعالها وقناعاتها، وأيضًا تقول الكاتبة عن الليبيين: «هذا الشعب الوَرِع التَّقيُّ الذي أُحِبُّه...».

ما تحويه انطباعاتُ الكاتبة عن ليبيا هو سردٌ رائع للغاية، فأغنس كيث كاتبة متميِّزة، ماهرة للغاية في الوصف بطُرُقٍ مُبسَّطة، مُذهِلة، ومُرعِبة أحيانًا، وكل شيء يقع ما بين الأماكن والأحداث في هذا الكتاب وغيره من كُتبها؛ فخلال فترة وجودها في ليبيا أُتيحَت لها الفرصة للسفر إلى الدواخل، حيث نادرًا ما يذهب الزُّوَّار الأجانب، بل وحتى الليبيون، كما سيظهر في السَّرد.

لكن السنوات الطويلة التي قضتها الكاتبة في ليبيا مكَّنتها من رسم صورة دقيقة لمن خالَطَتهم من الليبيين، ولطبيعة البلاد أيضًا، ولم تتوانَ عن إبداء آرائها مهما بدَت قاسيةً أو مُختلَفًا عليها في قضايا السياسة الداخلية والخارجية لليبيا، وفي قضايا اجتماعية شائكة مثل وضع المرأة والتعليم والسُّفور، في هذا البلد الذي يتَّسِم بتقاليدَ غير قابِلَةٍ للنِّقاش أو التَّحدِّي، حسب وصفها.

قد يجدُ بعض القُرَّاء عديدًا من الملاحظات حول ما يَرِدُ في هذا الكتاب عن ليبيا، وبالأخص أنها تبدي في عديد المواضع رؤيتها حول الشخصيات العامة والخاصة، ولا تتردد حتى في إعلان موقفها من بعض القضايا والسياسات الخارجية والمحلية، وربما يستشعرُ البعض أن لها رأيًا حادًّا يتعلَّق بموقف القيادة المصرية من النظام الملكي، الذي تتَّهِمها -ضِمنًا- بسوء النِّيَّة، وبحَبكِ المؤامرات ضد ليبيا.

لكن من المهم في هذا السياق الإقرارُ أن أغنس كيث كانت تدوِّن بصِدقٍ، وبعيون امرأةٍ تنتمي إلى الحضارة الغربية ما عاصرته خلال سنوات إقامتها المتواصلة في ليبيا، وأنَّ ما قد يبدو للبعض غيرَ حقيقيٍّ أو حتى بعيدًا عن المنطق، كانت الكاتبة تشاهده رؤيا العين، أو أنها تستقيه من أجانِبَ مثلها، أو من ليبيين ثُقاةٍ، تتعامل معهم وتأخذ رواياتهم وآراءهم على محمل الثقة والصدق، مع الإشارة إلى احتمال كون الرواية التي تُنقل إليها مُبالَغًا فيها أو بعيدة عن الواقع، وقد أحجمتُ عن التَّدخُّل في بعض الروايات، تارِكًا للقارئ المهتمِّ والناقد بحثَها وتمحيصها. ومن الملاحظ أيضًا أنه لم يَبدُ خلال سردها أيُّ تَحامُل أو بُغضٍ أو ضغينة تجاه البلادِ وأهلها، ولا بُدَّ أن السيدة أغنس كانت

تتمتَّع بمزايا مُحبَّبة تجعل من بعض مَن خالطتهم من الليبيِّين ينادونها بـ «أمِّي» كما سيردُ في الكتاب، وما انفكَّت تردِّدُ بكل وضوحٍ وجهات نظرها حول ما تراه سببًا لتعثُّر الأُمَّة الليبية، مثل أن تقول: «يتعيَّن هدمُ الجدران، وفتحُ الأبواب، وترك ضوء الشمس يغمر المكان، وتحطيم سطوة الطقوس القديمة، وإعمال العقل للتعايُش مع العقائد القديمة»، وتؤكِّد في السياق نفسه أنه تبيَّن لها أن «الأُمَّة الليبية غير عنيفة، وأنها مُتحضِّرة بكل المقاييس، باستثناء موقفها من نسائها؛ لأن النساء هُنَّ أعظم مورد طبيعي لأيِّ أمَّة، ومع وجود نسائها في عزلةٍ إجبارية؛ فإن خمسين بالمائة من هذه القوة الكامنة في ليبيا غير مُستغَلَّة».

ومع كل ما دوَّنَته في الكتاب من إيجابيَّاتٍ عن البلاد وعن الليبيين، إلَّا أن خبرتها وبصيرتها الثاقبة لم تملك إلا أن تلاحظ بأسفٍ أنَّ ليبيا ليست وحدةً جغرافيَّةً ولا عِرقيَّة، وأن ولاياتها الثلاث مُلتَصِقة ببعضها البعض بسبب الكراهية المتبادَلة أكثر ممَّا هو بسبب الحب المشترك. وتشيرُ في موقع آخر إلى أن القواعد العسكرية في ليبيا إلى جانب مردودها الماديِّ لدولةٍ فقيرة، فقد وُجِدَت لتحصين وحماية استقلال المملكة الناشئة حديثًا ضدَّ أي عدوان مُحتَمَل من الجيران أو غيرهم، وللمساعدة في الحفاظ على الأمن الداخلي في دولة ذات سيادة تمَّ إنشاؤها بشكل اصطناعيٍّ من ثلاث مجتمعات مُعادِيَة لبعضها البعض، وهي: طرابلس وبرقة وفزان. وتؤكِّد أن طرابلس تزدري برقة، وبرقة لا تَثِقُ في طرابلس، وكلاهما يزدريان فزَّان… وتُرجِع الكاتبة أسباب العداء المستتر بين طرابلس وبرقة إلى العداء القديم والضغينة بين الكيانين المستعمِرَيْن: الرومان والإغريق، الذي يستمرُّ حتى يومنا هذا، وتُبدي بوضوحٍ تامٍّ رؤيتَها لمستقبل ليبيا فترى أن السِّرَّ لا يكمن في النفط، ولا المال، ولا بالهدايا، أو بتقديم النصيحة، ولا في خبراء أجانب يبذلون الجهد والعرق، ولا تحتاج لعبد الناصر، أو للجامعة العربية، وإنما هي بحاجة إلى الجهد البشري. وتُقرِّرُ أن ما جعل روما عظيمةً هم الرومان أنفسهم. وفقط الليبيون وحدهم بإمكانهم استعادة عَظَمَة ليبيا. لم يَفُت الكاتبة ملاحظة أن جامعة ليبيا هي فريدة من نوعها؛ فهي لا تكتفي بمجَّانيَّة الدراسة، بل تمنح علاوةً شَهريَّةً خاصَّةً لكل طالبٍ مُسجَّل، حتى المقيم في بيته. ومع ذلك فهي تلاحظ في مرَّاتٍ عديدة عدم استفادة البلاد من الخبراء التقنيين التابعين للأمم المتحدة،

الذين يغادرون البلاد بتشاؤم، وقد شعروا بالإحباط لأنهم لم يتمكَّنوا من تحقيق ما كانوا يأملونه في استغلال خبراتهم.

ولا يفوتني أن ألفِتَ كذلك إلى أن الكاتبة تشير في معظم أجزاء الكتاب إلى الليبيِّين بالعَرَب، ولم يَرِد تعبيرُ «ليبيٍّ» أو «ليبيَّة» إلَّا نادرًا، وكذلك فقد صنَّفَت الليبيِّين بتحَدُّرهم من ثلاثة أعراق مختلفة، هم ذوو السِّحنة الحنطيَّة (الذين تُطلِق عليهم «ساميِّين») ويُشكِّلون الغالبية، وهناك بِيضُ البشرة، وهم إمَّا من أصولٍ بَربريَّة أو من أثر الغزوات الأوروبية، ثم العِرق الزِّنجي من ذوي البشرة السوداء، الذي تعطي أصحابه لقب «الفزَّاني»، وقد اتَّبَعتُ في هذا السياق تصحيحَ هذا التصنيف غير الدقيقِ تمامًا.

وبسبب تعاطُفها وتَفَهُّمها وبساطتها؛ تمَّ قبولُ الأميركية أغنس كيث في بيوت الليبيين، وأنصَتَت إلى الأسرار التي نادرًا ما يستمعُ إليها الأجنبي. كما رافَقَت زوجها في رحلاته الميدانية إلى الصحراء، التي ترى فيها لوحاتٍ فنِّيَّةً تَصِفُها ببراعةٍ مُنقَطِعة النَّظير، وكتبت أيضًا عن الآثار الرومانية والإغريقية الرائعة، التي لا تزال تتعرَّض للرياح المدمِّرة وعوامل الطبيعة القاسية. هناك تعرَّفَت على البدو الطوارق، أحفاد المحاربين العِظام، الذين يحتقرون العمل ويعيشون في خيامٍ سوداءَ مُمزَّقة، وعيونهم باهتة بسبب «التراخوما». وهناك أيضًا رأت حقول النفط، وتكهَّنَت بما ستعنيه الثروة الجديدة لليبيا.

تأتي رواية أغنس كيث الحيَّة هذه عن شعبٍ ضاربٍ في التاريخ، يكافح من أجل إنجاح تجربةِ وحدةٍ ناشئة لبلادٍ منقسمة على نفسها، ويناضل من أجل تحقيق الذات، في ظلِّ مَلِكٍ عجوز وحكيم.

المترجم

1 .مدينة الله

أطفال يصرخون، وأمهات يُعانين من دُوار الطيران، وآباء خَجِلون من هذا الوضع يحاولون ألَّا يظهر عليهم أنَّ لهم علاقة بالأمر، وآباء غيرهم يحومون حول مَن أصابه الغثيان من أهلهم، مُحرِّضين إيَّاهم على تناوُل كوبٍ من عصير البرتقال وحلوى الكراميل الناعمة، إنَّما ليعاودهم الإحساس بالغثيان. كما يطرأ تبدُّلٌ على الألوان الطبيعية لبشرة الرُّكَّاب وتصبح أميَلَ إلى الاخضرار، فأقول لنفسي: «هذا كابوس ليبيٍّ بالفعل!».

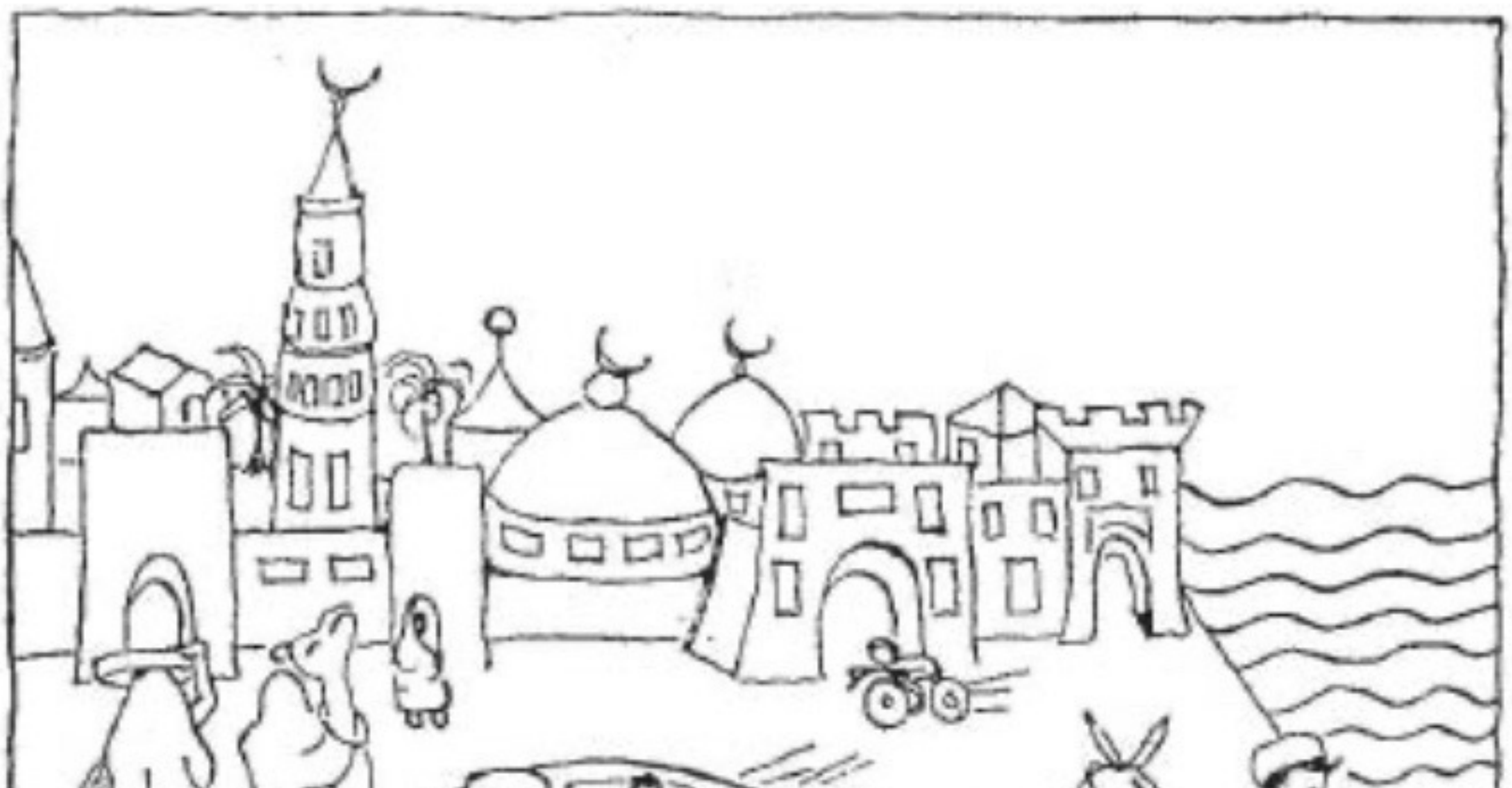

«أخشى أننا -أهل الشرق- لسنا مسافرين جيِّدين» همس السيد أبو بهاء، بنبرةٍ اعتذاريَّة في أذن زوجي «هاري»، ولم نَرَ حاجةً للإضافة إلى هذا التصريح.

قبل هبوط الطائرة حاوَلتُ زيارة دورة المياه، لكنني وجدتُ المرحاض يفيض بالماء. كان هاري على حَقٍّ حينما قال: «على شركات الطيران في الشرق الأوسط أن تُزوِّد الرُّكَّاب بأحذية مطاطية عالية».

الطائرة الآن تحوم فوق مطار إدريس، فتبدأ الأمهات في ترتيب أوضاعهنَّ، من مسحِ وجوه الأطفال، وإلقامهم الملهِّيات، وجمع الحفَّاضات الملوَّثة وقشور البرتقال، والتخلُّص من أكياس القيء في الممر، وأن يرسمن على وجوههن الأمل في الهبوط بسلام.

الهواءُ داخل الطائرة شديد السخونة، مشبَّعٌ بروائح العطور النفَّاذة المشتراة من القاهرة، وبقشور الفواكه، وروائح الرُّضَّع. شرَع الأزواج في جمع ما يخصُّهم من حُزم وأكياس ورقيَّة، وحقائب صغيرة، وسِلال الخوص الملأى بالفواكه والسُّكَّريات، وكرتونات السجائر المُعفاة من الجمرك، وأخَذَت بعض الأمهات في لفِّ أنفسهنَّ بقماشٍ أبيض من الرأس حتى القدمين، وقلَّل الأطفالُ بعض الشيء من صراخهم الذي تحوَّل إلى نشيج، بينما وصل الآباء إلى قناعة بألَّا يكرِّروا هذه التجربة ثانية.

أخيرًا، وبعد وثبة قصيرة فوق المهبط حطَّت بنا الطائرة في ليبيا.

كنَّا قد التقينا بالسيد «أبو بهاء» في مطار روما حينما كان ينتظر الطائرة نفسها، ومِثْل هاري، كان متوجِّهًا إلى ليبيا كخبيرٍ فنِّيٍّ في «منظمة الأغذية والزراعة» التابعة للأمم المتحدة. الاختلافُ هو أن «أبو بهاء»، سبق له الذهاب إلى ليبيا، وبالتالي يعرف كل شيء عنها. هو أردني الجنسية، وعربي، ومسلم. لم أعتقد في البداية أنه عربيٌّ، وهو يرتدي بدلة رسميَّة أنيقة، لكنني آنذاك لم أكن أعرف كيف يبدو الشخصُ العربيُّ.

أوَّل سؤال وجَّهَه إليه هاري هو: «كيف تبدو البلاد بالفعل؟».

«صحراء!» كان ردَّه المباشر.

تساءلتُ في نفسي عمَّا يمكن أن يفعله خبيرٌ زراعيٌّ في الصحراء. يزرع الأشجار على ما أعتقد. ظننتُ في السابق أن عِلم

الحَراجَة له علاقة بالغابات؛ فذلك ما كان عليه الأمرُ في «بورنيو» وفي الفليبين. لكن ربما كلَّما قلَّ وجود الأشجار في بلدٍ ما؛ كلَّما كانت الحاجة إلى وجود الخبير.

«ليبيا بلدٌ إسلاميٌّ متشدِّدٌ كثيرًا» تابع أبو بهاء، «هل تعرف أركان الإسلام؟».

«نعم، وكدتُ أذهب إلى مكة ذات مرة».

رفع أبو بهاء حاجبيه متعجِّبًا، «أنا ذهبتُ إلى الحج، وكذلك زوجتي».

تعجَّبتُ للمعلومة وتساءلتُ: «لم أعرف أنَّ بإمكان المرأة الحجَّ أيضًا».

«أووه، نعم؛ إن كانت تتمتَّع بقوة جسمانية مناسبة، فزوجتي أكثر قوَّةً مني. هل هذا غير معتاد عند النساء يا سيدة كيث؟».

«حسنًا، نحن النساء نعيشُ لفترة أطول» ونظرتُ نحوه بتعجُّبٍ متزايدٍ، في محاولةٍ منِّي للربط بين هذا الرجل الذي يبدو غربيَّ المظهر، بالصورة التي أعرفها عن الحاج المرتدي ثيابًا بيضاء بسيطة.

«هل هناك الكثيرون من خبراء الأمم المتحدة في ليبيا؟» أراد هاري أن يعرف.

قهقه أبو بهاء، «دعني أخبرك أمرًا. حينما تقود في الصحراء وتوقِف سيارتك، ولا ترى مخلوقًا من حولك، حينذاك تحدث ثلاثة أشياءُ متعاقِبَة: أولها يظهر أمامك شخص ليبيٌّ، ثم تظهر ذبابة ما، ثم يظهر لك خبيرٌ ما!»، وأثارت هذه الرواية إعجابَهما لبعض الوقت.

أخبرنا صديقنا الجديد بمعلومات متفرِّقة عن البلد: عن الشاي الليبي القويِّ الذي يُسبِّب قرحة المعدة، وأنه لا يجب أن تشرب الماء من الصنبور، وأن نكون حَذِرين من القمل (يوجد في الجرود والفرَّاشيَّات)، وأنَّ الليبيَّات مُلزَمات بتغطية وجوههنَّ والعيش في عزلة. وأنَّ الملك يُنظرُ إليه كقدِّيس. وأن الملكة الأولى امرأة صالحة وجميلة

للغاية، وتصغُر الملك بكثير، لكن لسوء الحظ لم تنجب أطفالًا، وكذلك الملكة الثانية لم تُنجِب وليًّا للعهد بعدُ. وأنَّ اغتيال «الشلحي» في العام الماضي أرعب العائلة المالكة. أمَّا مسألة قيام ثورة، فذلك غير ممكن في حياة الملك...

فتحت المضيفة باب الطائرة فهبَّ إلى الداخل هواءٌ ساخن، بإمكاني الإحساس بحبَّات الرمال بين أسناني.

«يا إلهي! إنه يوم القبلي!» مال السيد أبو بهاء ناحية الممر ونظر بقلقٍ إلى الهواء الأصفر في الخارج. «آملُ أن تكون ثيابُكِ مناسبة لهذا الجوِّ الساخن يا سيدة كيث!».

التاريخ هو سبتمبر 1955، وأتيتُ مع هاري من لندن عن طريق روما، ولا نزالُ نرتدي ثيابنا الصوفية الدافئة.

تذكَّرتُ تلك الكلمة «القبلي» من تقريرٍ للأمم المتحدة يتحدث عن الظروف التي قد يواجهها الموظَّف المعيَّن في بلدٍ ما: «القبلي هو هبوبُ رياح ساخنةٍ وجافة من الصحراء، ومحمَّلة بالرمال التي قد تَدفنُ أحيانًا قُرًى بأَسْرها، وقد يستغرق هبوبها من يومٍ واحد إلى تسعة أيام في كل مرة. وتُسمَّى أيضًا برياح السيروكو وبالخماسين». ليطلقوا عليها ما شاؤوا من التسميات، لكنني لم أرَ من قَبلُ قطُّ شيئًا مثلها يُحدث خدوشًا في الثياب التي نرتديها.

ونحن نغادرُ الطائرة لم نر أثرًا للسماء، وإنما لونٌ مُمعنٌ في الصُّفرة يحيط بنا. وذلك المسيرُ من الطائرة إلى مبنى الجوازات الذي استغرق ثلاث دقائق، علَّمَني عن ظروف الصحراء أكثر ممَّا علَّمني تقرير الأمم المتحدة. كان الهواء شديد الجفاف ويلسعنا، والرملُ يصفع وجهي، وأردت أن أغطِّي أنفي وفمي وعينيَّ بالكامل. في الحقيقة ما أحتاجه الآن هو ذلك الرداء الصوفي الأبيض الذي يلفُّه أحد الليبيين بالكامل حوله ويغطي وجهه كله، بينما هو يسير منحنيًا ومترنِّحًا في مواجهة الريح. «هذا هو 'الجرد' الليبي» قال السيد أبو بهاء. أمَّا السيدات الملفوفات في الفرَّاشيات فتعذَّرَت عليهنَّ الرؤية، وكانت تقودُهنَّ مضيفة مصرية أنيقة الملبس.

مكتب الجوازات كان بحجم صندوق كبير ازدحم فيه أربعون مسافرًا، باستثناء السيدات المنقَّبات اللاتي اختفين فجأة وكأنَّهنَّ نُقِلنَ فجأة إلى الفردوس، أو تمَّ شَفطُهنَّ بواسطة أنبوب ما، تارِكاتٍ أزواجَهنَّ للتعامل مع مسؤولي الجوازات. وقلتُ لنفسي لو أن هناك عملية تهريبٍ تجري هنا؛ ستكون ناجحةً تمامًا تحت هذه الطيَّات من الثياب.

وقف ثلاثة موظفين ليبيين خلف مكتبٍ، يجمعون جوازات السفر والإقرارات التي كانوا يفحصونها. نظرتُ باهتمامٍ إلى الشباب الثلاثة، آمِلةً أن أجد دليلًا ما يقودني إلى معرفة شكل وطبيعة السَّحنة الليبية، وربما وجدته الآن؛ لأن أحدهم زنجيٌّ، والآخر أبيض البشرة، بينما الثالث يبدو حنطيَّ البشرة.

دائمًا هناك العدد المعهود من الأشخاص الذين لا يحوزون تأشيرة دخول، أو الذين انتهت صلاحية جوازاتهم، أو ممَّن لديهم ختم دخول لإسرائيل (مَن لديه هذا الختم ممنوع من دخول الدول العربية (أو الذين لا يملكون شهادة تطعيمات، أو أي خطأ ما آخر. كل شيء كان قانونيًّا بالنسبة لي ولهاري، لكن المسؤول لم يعثر على جوازَيْ سفرنا. لقد وافق على أنه استلمهما منَّا، كانت يداه مُثقَلتَيْن بجوازات السفر، لكنه لم يجد ما يخصُّنا.

«لقد اختفى الجوازان!» قال باكيًا بدون دموع، «جوازاكما لا يمكنني العثور عليهما! أين ذهبا؟ ومَن أخذهما؟ لقد ضاعا! ضاعا! لكنها ليست غلطتي! لم تكن غلطتي!» وحملق تحت في يديه بنظرة اتهام، وكأنَّه يرى أنَّ يديه قد تلاعَبَتا به، ثم أخذ يتفحَّص الجوازات من جديد. كان بحاجة إلى شخص ما لتهدئته، ولكن ليس نحن.

السيد أبو بهاء الذي تحصَّل على ختم دخول بفضل لغته العربية، ويقوم الآن بشرح قضيتنا بالعربية إلى أحد المسؤولين الشباب، الذي كان يعصر يديه بقوَّةٍ ويذكر اسم الله أحيانًا. عندها يربِّتُ السيد أبو بهاء على كتفه ويقول «معليش!»، وكان ذلك أول لقاء لي مع الكلمة الليبية الشهيرة بمعنى: لا بأس، أو لا تهتم!

«يا هارى، اطلب من المسؤول أن يسمح لك بالتفتيش في الجوازات» همستُ له، «أنا متأكِّدة أنه لا يستطيع قراءة الإنكليزية!».

«سيجدُهما بعد أن يتسلَّم الآخرون ما يخصُّهم» ردَّ هاري بهدوء. ثم يخبرنا الشاب الحزين «سنعثر عليهما، وستلتحقان بالبقية».

نظَرتُ نحو هاري بإعجاب وقلت: «أن تظل بهذا الهدوء، أخشى أنك قد بدأتَ تتقدَّم في العمر يا عزيزي!».

في تلك اللحظة يودِّعنا السيد أبو بهاء ويطلب منَّا -دون داعٍ- «احتَفِظا بهدوئكما»، ويقول إنه يأمل أن يجدوا جوازاتنا، بمشيئة الله! ثم يصافح المسؤولين ويختفي عن نظرنا. لم أكتشف حينذاك الأهمية الكبيرة للسيد «أبو بهاء» ولأمثاله؛ باعتبارهم جسرًا بين «أمثالنا» وبين الليبيين. كان يمتلك ناصية عالمَيْن رهنَ إشارته: الشرق والغرب.

نستندُ إلى طاولة صغيرة، شاعِرَيْن بالحرارة والجفاف، ونتطلع إلى الحصول على شربة ماء. «لا تشربا من ماء الصنبور!» في جميع الأحوال ربما لا يوجد صنبور مياه في هذا المكان. كل المسافرين غادروا المكتب الآن، ويمكنني أن أراهم عبر الباب المفتوح وهم يتلقَّون الأحضان والقُبلات من مستقبليهم الليبيين، وكلهم من الرجال الذين يرتدون الجرود، أو بدلات كاكي قديمة جدًّا. وأظن أن السيدات قد وصلن الآن إلى بيوتهن، إلى مقرِّ الحريم.

في الأثناء يتقدَّم إلينا المسؤول الشاب في زهو وهو يمسك جوازَيْنا، واحدُ أخضر، والآخر أزرق، وأخذ يقول بسعادة: «كما ترون، فلم يضيعا في النهاية! حمدو لله!».

بالرغم من عدم وجود أحدٍ ليحضننا ويقبِّلَنا بعد خروجنا من مكتب الجوازات، إلَّا أننا وجدنا في انتظارنا جيمي تايلور، ممثِّل منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة. كانت معه سيارة مُغلَقة

-وهي أكثر أهمية لنا من القبلات- لنقلنا إلى طرابلس التي تبعد 32 كيلومترًا من المطار.

بينما نحن نتحرك على طريقٍ مُمهَّد بالحصى، ضغطتُ أنفي على زجاج النافذة لأراقب، ولم يَكُن الريف الذي رأيتُه صحراء، ولا هو أخضر تغطِّيه الزراعات. أيمكنُ أن تكون هذه هي الواحة المحيطة بطرابلس التي استصلحها الإيطاليون، والتي قرأتُ عنها؟ في هذا القِبلي ليس هناك شيء أخضر، وإنما توجد مَزارِعُ لأشجار زيتون ولوز مُغطَّاة بالأتربة، وشجيرات الكاكاوية المائلة تحت ثِقَل الرمال، ومن خلال الهواء الأصفر كنتُ أحيانًا أرى بيتًا مُشيَّدًا بالحجر الأبيض. بعد مسيرة نصف ساعة دخلنا إلى شارع طويل مُحاطٍ بنظامٍ على جانبيه بأشجار الأوكالبتوس، وهو مشهدٌ اعتدتُ تقديره أكثر بعد سنين من الإقامة في ليبيا. لكن بالنسبة لي هذا اليوم لم تكن سوى أشجارٍ طويلة مُغطَّاة بالأتربة.

لكن ليس ذلك كما يراها هاري. «لقد زرعها الإيطاليون» قال بإعجاب، «لا بُدَّ وأنهم زرعوا كل شجرة في إقليم طرابلس!».

دخلنا إلى متاهةٍ من شوارع المدينة أغلبها ضيقة وملتوية، لكنها نظيفة ومُرتَّبة، لونها أبيض، لا يشوبها سوى الهواء الملوَّث بالرمال.

«إنها أنظف مدينة في الشرق الأوسط!» قال جيمي تايلور، بنبرة فخرٍ وكأنه قد فرغ لتَوِّه من تنظيف الشوارع بنفسه، وسرعان ما بدأتُ في استيعاب هذه الرؤية؛ لأنَّ كل من في المدينة -مُواطِناً كان أم أجنبيًا- يشعر بفخرٍ هائل بسبب جَمال هذه المدينة ونظافتها.

ليست هناك أبنيةٌ عالية في المدينة، بل كان خط السماء يُختَرَق أحيانًا بواسطة مآذن تعلوها أهلَّةٌ لمساجدها العديدة، وكذلك بواسطة القباب العالية لأضرِحَة الأولياء. الأشخاص القليلون في الشارع أغلبهم من الرجال، يتحرَّكون منفردين، يحنون رؤوسهم في مواجهة الرياح، ويلتحفون ببقايا قديمة من بدلات الكاكي العائدة للحرب العالمية الثانية، أو يتدثرون بجرودٍ مثل التي رأيتها في المطار. النساءُ

القليلات اللاتي ظهرن لنا كُنَّ ملفوفاتٍ بأردية بيضٍ من قِمَّة رؤوسهن إلى أقدامهن، ويشملُ ذلك الوجهَ، وهذا الرداء هو الفرَّاشية التي تُثبَّت في مكانها بواسطة الفم، وتظهر منها عينٌ واحدة، وحتى هذه العين تظهر في حال الطوارئ فقط. هاته النسوة الملفوفات بالأردية البيض هُنَّ أوَّل ما يلحظهُ المرء في شوارع طرابلس، وهو منظر لا يمكن نسيانه أبدًا. سيمثِّل هذا المشهد تضادًّا مع آخر مكانٍ أقمنا فيه، وهو الفيليبين، حيث كانت النساء يَقُمن بدور حيوي في حياة الأمَّة هناك، وكذلك في حياة العائلة.

سرعان ما توغَّلنا في طريق محفوف بأشجار النخيل يمرُّ مُوازيًا للبحر، بالرغم من أن المرء لا يكاد يرى الماء بفعل ثوران الرمال. «النسيم القادم من البحر باردٌ ونظيف» يقول التقرير، لكن اليوم، البحر المتوسط غارقٌ في الصحراء.

الآن دخلنا في ممرٍّ على شكل هلال، ثم وصلنا إلى فندق المهاري. كانت لديَّ أمنية وحيدة: كوبٌ كبير من الماء البارد، سواء كان من الصنبور، أو من الدوش، أو حتى من حوض الاستحمام. وبينما كنَّا نُنزِل أمتعتنا انطلق فجأة صوتٌ حادٌّ من مكبِّرات الصوت فوق رؤوسنا، يرسلُ الصَّدى ورَجعَه بالعربية في أنحاء المدينة- إنه صوت المؤذِّن يدعو المسلمين للصلاة.

هذا وقت الغروب، والبحر المتوسط يمتدُّ أمامنا مثل رداء أصفر، والشمس تسقط فيه مثل ثمرة برتقال إفريقية حمراء ناضجة، لها حواشٍ مذهَّبة. حينما نظرتُ إلى هاري كان وجهه أسمر مُصفرًّا، وأعرف أن وجهي يبدو كذلك أيضًا. طرابلس المذهَّبة هنا لتبقى في ثيابنا، وفي جلودنا، وفي ذكرياتنا أيضًا.

في اليوم التالي أَخَذَت الصحراء في التراجع، لكنَّ الغبار الأصفر لا يزال مُعلَّقًا في الجوِّ. كانت عاملة التنظيف في المهاري مصدومةً في الصباح حينما وجَدَت نافذتنا مفتوحةً والغبار يغطِّينا ويغطِّي كل شيء. أنا أيضًا صُدِمتُ، لكن الأمر يتطلَّب بعض الوقت ليتعلَّم المرءُ ألَّا يترك نافذة مفتوحة.

«الآن أعرفُ ماذا يعني حينما يقولون إن الصحراء لا تتوقّف عن الحركة أبدًا» قال هاري وهو ينفض الصحراء عن شَعره، وعن سرواله، ويمسحها من حذائه. «أنا على قناعةٍ الآن بالحاجة إلى مشروع لتثبيت الرمال!».

«نعم يا هاري، افعل ما بدا لكَ، لكن لن أستطيع مغادرة الفراش وارتداء ثيابي حتى تغادر لتناول الفطور، فالغرفة بالغة الصِّغَر لنتحرَّك فيها معًا!». وبكآبة نظرتُ إلى النافذة المفتَرَض أنها تطلُّ على البحر، المفترض أنه موجود هناك، حينما يستقرُّ الغبار.

على أي حال، فاليوم الذي تلا ذلك كان مُخصَّصًا للبحر، بطبقةٍ بعد أخرى من المياه الزرقاء الزمرديَّة الرجراجة أمام أعيننا بفعل نسيمٍ باردٍ ونقيٍّ. لم يسبق أبدًا وأن شاهدتُ لونًا مُماثِلًا وبهذا النقاء للبحر المتوسط تحت سماء إفريقية. ومنذ تلك النظرة الخاطفة الثانية صِرتُ مُريدةً مُخلِصةً في معبده اللازوردي، الذي تقبِّلُهُ الشَّمسُ ويزيغ الأبصار.

في ذاكرتي دائمًا ذلك التقرير عن ليبيا الذي يقول: «الفنادق من الدرجة الثالثة، والمطاعم غير جيدة، والبيوت سيِّئة لا تتوفَّر بسهولة، وهي سيِّئة التجهيز. أحضِرْ معك أدويتك الضرورية. ليبيا مصنَّفة من قِبل سفارة الولايات المتحدة بأنها موقعٌ يصعب العيش فيه!».

كيف حدث ووقعتُ في حالة حبٍّ جارف مع بلادِ الله هذه، هذا الموقع الذي يصعب العيش فيه؟ لكن... الله أكبر!

لم تكن لديَّ شكوك حول الذهاب إلى إفريقيا للمرة الأولى. هاري يقول عنِّي إنني دائما أُبدِي التفاؤل حتَّى تحين اللحظة التي أسقط فيها في حفرة في الأرضية. وهاري عادة ما يرى الحفرة قبل حتى أن تظهر له تلك الأرضية. شخصيَّتانا تكملان بعضهما، وكذلك رؤيتنا للأمور: أنا أرى الأمور من منظورٍ أبعد، بينما يراها هو من منظور أقرب، لكنَّا سويَّةً، كنَّا نتدبَّر أمورنا جيدًا.

أنا أميركية الجنسية، حيث وُلِدتُ، وبالاختيار أيضًا، فخلال الأعوام الثلاثين التي قضيتها في الخارج، كنتُ أحرص على الذهاب إلى القنصليات الأميركية للتسجيل، ولتأكيد وضعي لأظلَّ أميركيَّة الجنسيَّة. أوَّل ما ذهبتُ كان إلى آسيا، إلى شمال بورنيو البريطانية في العام 1934، وكنتُ أيضًا عروسًا لشابٍ إنكليزي يعمل في حماية الغابات، وهو أصغر العامِلين في هذا المجال في كامل الإمبراطورية البريطانية.

نشرتُ كتابي «الأرض تحت الرياح» حول تلك البلاد ذات الغابة الاستوائية الجميلة الساحرة، وهي بورنيو، التي تُسمَّى الآن «صباح»، وهي محطُّ الأطماع الإندونيسية ومسرحُ لحرب العصابات.

كان كتابًا مَرِحًا ومتفائلًا، كما يقول أصدقائي، وهم يقترحون عليَّ وضع كتابٍ آخر «مماثِل له». أنا أيضا أودُّ تأليف كتاب مشابه لـ «الأرض تحت الرياح»، لكن من المستحيل كذلك أن أرجع القهقري، وأصبح عروسًا من جديد في بورنيو! فالمرء لا يمكنه أن يبقى على الدوام في سِنِّ الشباب، خلواً من الهموم، وحديثَ الزواج، ومنبهرًا وسعيدًا بشتَّى الأمور، وأن يرى الوجه الرائع لهذا العالم الواسع للمرة الأولى. لكنني الآن أتعامل مع الحياة بحذرٍ أكبر قليلًا، بالرغم من الطريقة التي يراني بها هاري. فأنا الآن أقلُّ ثقةً، بالقليل من قناعتي السابقة بضرورة انتصار الحقِّ في النهاية، كما أنني أَقلُّ ثِقةً الآن في تعريف ما هو الحقُّ. ولكن في المجمل أمارسُ الآن الحياة التي أراها الأفضل، مع الشخص الأحبِّ إلى قلبي.

وُلد زوجي هاري في نيوزيلندا، لأبوين إنكليزيين، والتحق بالمدرسة في إنكلترا، ثمَّ جاء إلى الولايات المتحدة حيث التقينا للمرة الأولى حينما كان فتًى أشقر، بعينين زرقاوين، في الرابعة عشرة من عمره. بعد أدائه الخدمة العسكرية في القوات البحرية خلال الحرب العالمية الأولى، ذهب إلى جامعة كاليفورنيا، التي التحقتُ بها في العام التالي له. وقعتُ في حُبِّه آنذاك، لكنه قال إنَّ الارتباط مُكلفٌ، وليس لديه المال اللازم. مع الوقت لبستُ خاتم الزواج ورافَقتُه إلى

بورنيو، حيث عشنا في سعادةٍ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية، حينما أُخِذتُ مع هاري وابننا ذي العامين رهائن عند اليابانيين. ولمدَّة ثلاث سنين ونصف تمكَّنَّا من البقاء بأفضل ما أمكننا في معسكرات الأَسْر اليابانية، وهي عمليَّة تحمُّلٍ ومقاوَمة وصَفتُها في كتابي «ثلاثة عادوا إلى الوطن».

لدينا ولدان: جين، متزوِّجة ولديها أربعة أطفال، وجورج، المنتسب الآن لقوات المارينز الأميركية. وكلاهما مُرهَقٌ من ذكرهما مرارًا في كتبِ أمِّهما، وبالأخص جورج، الذي قضى فترة حضانته في سجنٍ يابانيٍّ للأسرى.

هاري الآن شخصٌ معروف على مستوى العالم، وخبيرٌ في مجال حراجة الغابات الاستوائية، حيث عمل مع منظَّمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة طوال اثني عشر عامًا كخبيرٍ فنِّيٍّ. كلُّ بلدٍ عشتُ فيه مَلَكَ قلبي بطريقة ما، وفي كل مرة كنت أودِّعه بحزن؛ ولهذا السبب حينما ذهبتُ إلى ليبيا اتَّخذتُ قرارًا ألَّا أرتبط عاطفيًّا بالبلد- لكن إلى أي حدٍّ نجحتُ في ذلك، هذا ما سيظهر من خلال هذا الكتاب.

لثلاثين عامًا عِشنا حياتنا في دولٍ نامية، وتبيَّن لي أن الناس البدائيين نابضون بالحيوية أكثر من نُظَرائهم في الدول المتطوِّرة، وأيضا الكتابةُ عنهم أكثر سهولة، على الأقل فهم أقل تذمُّرًا حينما يعتقدون أنك تؤذيهم. لكن حينما ابتُعثنا إلى ليبيا سرعان ما وجدتُ أنَّ البلاد نفسها غير متطوِّرة، وأن صفة البدائيين لا يمكن إطلاقها على الناس هناك؛ فغالبيتهم ينحدرون من واحدة من أولى الحضارات في العالم.

في ليبيا لم أتوقَّع مُطلَقًا أن أشعر وكأنني في وطني، فمَهمَّتنا فيها مدَّتها عام واحد، بالرغم من أنها في النهاية امتدَّت لما يقرب من تسعة أعوام. وقد رأيت في البداية أن عامًا واحدًا لن يكون كافيًا أبدًا لنسج صداقات مع أناس غُرَباء وشرقيين، والذين هم... ماذا؟ أفارقة؟ عرب، ساميُّون؟ لا أعرف سوى أنهم مسلمون.

من الناحية التاريخية أعرفُ أن شمال إفريقيا كان ذاتَ زمنٍ بمثابة مخزن الحبوب للإمبراطورية الرومانية، وبه العديد من المدن العظيمة التي شُيِّدَت بواسطة العبيد الأفارقة. الآن تلك المدن مجرَّدُ آثارٍ، والعبيد إمَّا أنهم ماتوا أو تحرَّروا، وأعرفُ أن الرومان عاشوا في ليبيا. كل هذا تركني مع رغبة قوية لأعرف ما أمكنني عن ليبيا.

عند قدومنا إلى ليبيا عام 1955 لم تكن قد مرَّت أربعة أعوام على عمر المملكة، وكانت أحدث دولة مستقلَّة في العالم. ليبيا كانت حالةً خاصَّةً بالنسبة للأمم المتحدة، التي -بشكل أو بآخر- جعَلَت منها أُمَّةً ما، وتقوم الآن بوضع برامج تنمية فنية خاصة لها، وتوليها اهتمامًا خاصًّا. وكل هذا لأسباب وجيهة؛ فليبيا بعددِ سُكَّانٍ آنذاك يقارب المليون نسمة، لم يكن بها عند استقلالها في 24 ديسمبر 1951 سوى ستة عشر من الحاصلين على ما يعادل التعليم الجامعي. أيضًا أربعة أخماس مساحة المملكة الجديدة التي تُعادِل مليونًا وثمانمائة ألف كلم مربَّع هي صحراء بالكامل، ومن الخُمسِ المتبقي هناك شريطٌ ساحليٌّ ضيِّق، وسَهلٌ صغير، ولم يَصِل أحدٌ بعدُ إلى معرفة كيف كان الرومان يُغذُّون إمبراطوريتهم من هذا المكان!

فندق المهاري كان يمتدُّ أفقيًّا، وهو مُكوَّنٌ من بناء ذي طابق ونصف، مع انتشار غُرَفِه في خمس ساحات لحدائق منفصلة تحتوي على النوافير وشجيرات الياسمين وشجيرات الجهنمية. شُيِّد الفندق في عهد موسوليني، حينما كانت ليبيا مُستعَمَرةً إيطالية. كان مشروعًا للتعبير عن «القوة من خلال المُتعَة»، كما شُيِّد بالتزامن مع إقامة حلبة سباق السيارات في الملاحة. حتى الفاشست كانوا يريدون شيئًا من المرح، فإلى هذا المكان يأتي من إيطاليا القادة ومساعدو الدكتاتور المرهَقون من العمل؛ للاسترخاء خلال عُطَل نهاية الأسبوع، مصطحبين معهم خليلاتهم، اللاتي يأتين بالقليل من المتاع، لكن في شوقٍ للاستمتاع بهذه الأسِرَّة العريضة المزدوجة.

لأن الفِراش كان الشيء المميَّز داخل هذه الغرف الصغيرة، حيث يقبعُ سريرٌ معدني ضخم من الزنبرك مسنودًا بلوحَيْن خشبيَّيْن، ويكاد

يملأ الغرفة بأسرها؛ حقائبنا كانت مرصوصةً قرب الحائط فوق بعضها، تكاد تصل السقف، وتعيَّن علينا أن نتناوب على مغادرة الفراش لارتداء ثيابنا. هناك أيضًا دورة مياه صغيرة بدون قُفل، لها بابان؛ لاستخدام مشترك بين غرفتنا والغرفة المجاورة، وهي من الصِّغَر بحيث يمكن للمرء الجلوس على المرحاض أو حوض الاستحمام، ويمسك الباب الآخر لغرفة الشريك في الغرفة الملاصقة بإحدى يديه.

انطباعي الأول أن فندق المهاري مكانٌ غير مريح للسَّكَن، ومع ذلك لم يكن لدينا خيارٌ بديل؛ لأنه يجري حاليًا تصوير فيلم عن الصحراء بواسطة إحدى شركات السينما، وأنَّ الفندق الأفضل وهو مُصنَّف بثلاث نجوم كان مشغولًا بالممثِّلين. وسرعان ما فعل مرور الوقت فِعلَتَه، فبُهِتَت حواسُّ قِيَم الجمال لدينا، فيما يتعلَّق بالشَّمِّ والتقييم.

حينما غادرنا فندق المهاري كِدنا نعتاد الرائحة العَطِنة للبيرة وللويسكي التي تُصاحِب تناول قهوتنا الصباحية؛ لأن هذه الرائحة متبقية من الليلة السابقة في الحانة، وحيث يُقدَّم فطور الصباح. ومع ذلك كان هناك مشهدٌ رائع لم يتوقَّف عن منحنا مُتعةً فائقة، وهو منظر عصافير الدوري وهي تملأ المكان بشقشقتها عند الغروب، عائدة إلى أماكن أعشاشها الموجودة بالمئات بين أغصان شجيرات الجهنمية القديمة التي تملأ الأفنية بالألوان القرمزية وتُظلِّلها.

مكثنا في الفندق سبعة أسابيع، بينما ظللتُ أبحث في المدينة عن مسكنٍ لنا، وتعطَّل استلام سيارتنا من إدارة الجمارك؛ وبالتالي قمتُ بعمليات البحث عن بيتٍ للسكن في عربة كاليس مجرورة بحصان. كانت الخيول المستَخدَمة مع هذه العربات وكأنها خارجة من لوحات الرَّسَّامة بون هور، التي تُصوِّرُ فيها الخيول في أوضاع مختلفة. والآن هذه الخيول الهَرِمَة التي أراها أمامي تُقعي دائمًا على الأرض، أو تأخذ وضع البروك. ما إن ترتاح لبعض الوقت حتى يطلب سائق العربة من المارَّة المساعدة في رفع الحصان على قوائمه، وإدخاله بين

الدعامات الخشبية وتثبيته إلى العربة. كان الغربيُّون يشعرون بالضيق تعاطُفًا مع هذه الأحصنة، لكن حينما ينظر المرء إلى الليبيين البائسين المهزولين -بثيابهم الرَّثَّة- الذين يقودون هذه العربات؛ لا بُدَّ أن يتعاطف معهم أيضًا. الريش الملوَّن والأجراس الرَّنَّانة التي تُزيِّن بها الأحصنة والعربات كانت تضيف لمسةً حزينة ومجنونة إلى ذلك المشهد. وخلال تجوالي المتعدِّد أعتبر أنني قدَّمتُ خدمة إلى سوق العربات، لكن لم أتمكَّن من العثور على بيت مناسب.

لكنني اكتشفتُ جاذبية مقاهي طرابلس الموجودة على الأرصفة، التي تزدهر في الصيف تحت الظلال، وتدبُّ فيها الحياة بفعل شمس الشتاء. في كل مساحة صغيرة يستطيع رجلٌ ما الجلوس على كرسيٍّ هناك مع مشروبٍ ما بالقرب منه. الرجال يجلسون والنساء يَتَبخترن أمامهم، في منتصف النهار، وعند الغروب، وفي كل المساءات، وطوال اليوم في الجُمَع وأيام السبت والأحد، وثلاثتها تعتبر عُطلةً دينية هنا. في هذه المدينة مُتعدِّدة الأديان، التي تشمل المسلمين، واليهود، والكاثوليك، والبروتستانت، وأجانب غيرهم يدفعون دراهم قليلة ثمنًا للقهوة والشاي وكرسيٍّ على الرصيف لمشاهدة أعظم العروض على الأرض: مرور جسد الأنثى أمامهم. هذا هو شكل الحياة الاجتماعية، وكيفية تمضية الوقت بقليل التكاليف، حيث تزدهر الحياة جنوب المتوسط. إنها حياةٌ تعتمد في استمراريَّتها على هبوب النسيم العليل، وعلى طبيعة جنوب المتوسط الدافئة، وكذلك على حقيقة أن الإيطاليين يشكِّلون أغلبيَّةً بين السكان الأجانب.

لكن مقاهي الأرصفة هي لغرض التسلية، وليست انشغالًا دائمًا. بمجرد خروج سيارتنا الفوكسول من حظيرة الجمرك، وسفر هاري لمدة أسبوع إلى بنغازي في ولاية برقة المجاورة؛ شعرتُ بأنَّ القدَر قد أرسل لي إشارة لبدء العمل، وصمَّمتُ على إيجاد مسكن لأستقرَّ فيه قبل عودته.

في البداية حاولتُ في مدينة الحدائق، حيث تعيش الطبقة الراقية وحيث الشوارع مرصوفة ومضاءة. البيوت هنا شُيِّدَت في زمن

الاحتلال الإيطالي لسكنِ الإيطاليين، وتحتفظ بسحر وأناقة هندسة البناء الإيطالية. لأغلبها حدائق مُبَهرَجة بأنواع الورود التي تطلُّ أغصانها من فوق أسوار حجرية عالية. لكن هذه البيوت مسكونة بواسطة السفارات والقنصليات، وموظفين سابقين في الإدارة العسكرية البريطانية العاملين الآن كخبراء مع الحكومة الجديدة، وكذلك بواسطة مسؤولين أميركيين وبريطانيين رفيعي المستوى، وآخرين لن نجد لأنفسنا مكانًا بينهم. وما إن اقتنعتُ بفشل مَهمَّتي حتى غيَّرتُ مسار بحثي إلى موقعٍ جديد.

أسرعتُ بالتوجُّه إلى قرية صغيرة على الجانب الآخر من خط سكة الحديد، وعلى بُعد نحو ثلاثة كيلومترات غرب طرابلس على طريق تونس، إلى قرية ليبية صغيرة، هي قرقارش. كنتُ قد سمعت عن شاب إنكليزي أعزب هنا سيغادر طرابلس، ويرغب في تأجير ڤيلّته من الباطن، وعرفت أنَّ ذلك يشمل دفع الإيجار وشراء الأثاث وتوظيف «صبيِّ بيتٍ» ليبي. كنتُ مُستعدَّةً لمثل هذه الشروط، لكن ليس القبول بوجود مبنًى حجريٍّ يشغل أغلب مساحة الحديقة الخلفية يشبه الكهف، وتقطنه عائلة ليبية كبيرة، تستخدم الحديقة عند الدخول والخروج. وباعتباري حديثة القدوم إلى بلد عربي؛ فقد رفضتُ القبول بهذا الترتيب.

بالقرب من قرقارش ناحية المدينة هناك ضاحية صغيرة اسمها جورجمبوبلي، تقطنها في الغالب عائلات أميركية من قاعدة ويلوس، وهي أكبر قاعدة عسكرية أميركية خارج الولايات المتحدة. نحو عشر ڤيلّات منتشرة في حقلٍ قديم للطليان، أغلب مساحته لا تزال مُغطَّاة بزراعات الشعير وأشجار زيتون. إحدى هذه الڤيلات يسكنها صديقٌ لنا قرَّر أن ينتقل عائدًا إلى المدينة. ويمكن الحصول على البيت بعد دفع الإيجار، وشراء الأثاث، وتوظيف صبيِّ البيت، عبد الله؛ فقَبلتُ العرض وأنا أحمد الله كثيرًا! والذي اعتدتُ أخيرًا ذِكرَ اسمه مرارًا.

الشوارع هنا بدون أسماء، والبيوت بدون أرقام، كما كانت هذه الضاحية مغبرَّةً في الصيف، ومُستَنقَعًا في الشتاء. المنطقة تشهد

انقطاع الكهرباء مع هبوب كل ريح، وكنّا نطبخ على غاز الاسطوانات. والدليل الوحيد إلى أين تسكن، هو استخدام حسِّ الاتجاهات لديك، مع خريطة ترسمها لأصدقائك الذين ينوون زيارتك. في ذلك الوقت كان يُعدُّ نوعًا من المغامرة أن تسكن بعيدًا عن المدينة، واعتاد الناس توجيه هذا السؤال لنا: «ألا تخافون؟».

الخطر الوحيد الذي واجَهنا كان هجوم أسراب الجراد التي غزتنا، فذات عشيَّة -وخلال ساعة واحدة- أتت على محاصيل الحقل وعلى حديقة بيتنا، على الرغم من وقوفنا في الخارج وإحداث أصوات عالية بالنقر على أوانٍ معدنية لإخافة الجراد. كذلك أدَّت عاصفةٌ من البَرَد إلى كسر أضواء سيارتنا، وترَكَت أثرًا في غطاء المحرِّك، وعدا ذلك لم ينجح أحدٌ في سرقتنا، أو أننا تعرَّضنا للمضايقة.

خلال عملية البحث عن المسكن بدأتُ أعرف أمورًا جديدة عن مدينة طرابلس، فهي في الحقيقة مدينتان، ومكانان مختلفان للعيش: مدينة أوروبية، ومدينة شرقية. المدينة القديمة تمتدُّ مُجاوِرةً للبحر إلى الشمال الشرقي من طرابلس الجديدة، وبالرغم من أن هذه المدينة الخَفيَّة كانت في الماضي مُحاطَةً بسورٍ لحمايتها من الغزاة، إلَّا أنه في الوقت الراهن لا تظهر سوى بقايا متداعية من ذلك السور.

المدخل إلى المدينة القديمة عن طريق طرابلس الجديدة يتم عبر بوَّابتَيْن مثيرتين للإعجاب، إحداهما تقود مباشرة إلى «السوق»، أو البازار، حيث تتمُّ المبادلات التجارية المعتادة. والبوابة الأخرى تقع في قلب الجدران السميكة للقلعة البربرية الساحلية القديمة، التي كانت تتبع الأتراك قبل ذلك، وكانت إسبانيَّةً قبل ذلك، وبيزنطيَّةً من قبل، وهكذا... بالعودة إلى التاريخ القديم. وفي هذا المكان تمَّ سجنُ بحَّارة السفينة فيلادلفيا الأميركيِّين التي حرَسَت في المنطقة عام 1803.

بالنسبة لوافدةٍ جديدة مثلي، بدت لي المدينة القديمة مثل جَيبٍ ليبي غامضٍ ومحاط بالأسرار خلف الجدران الهائلة والأبواب الضخمة المغلقة. شوارعها الضيقة لا تسمح سوى بمرور السَّابِلَة والدَّرَّاجات الهوائية، وكانت أيضا تعجُّ بالأطفال الصغار، وبصِبيةٍ ذوي نظرات

ناريَّة، ومُسِنِّين فرادى العيون، وكذلك نادرًا ما صادفتني امرأة هناك. في هذا المكان يوجد أشخاص مخفيُّون عن العالم في مدينة عرَكَت التاريخ، وتعود بداياتها إلى العام 700 بعد الميلاد. وكامرأة غربيَّة -وغريبة أيضًا- أحببتُ المدينة القديمة بقَدْر ما شعرتُ بعدم الراحة فيها.

لم يكن الأمر حتى تعرَّفنا إلى أصدقاء ليبيين أخذونا إلى بيوتهم في المدينة القديمة، وساروا معنا في تلك الممرَّات الضيقة، وفتحوا لنا الأبواب المغلقة، حيث عرَّفونا إلى النساء في تلك الأفنية الداخلية المظلَّلة. وأخيرًا ساروا برفقتنا صاعدين الدَّرَج الملتوي الضيق الذي يقود إلى السطوح العالية، التي تصبح عندها جزءًا من خطِّ السماء السحري، ومن هناك يستطيع المرء أن يستطلع الأسطح الأخرى في المدينة، التي تتحرَّك فيها بخفَّةٍ نساءٌ يرتدين الأردية والفراشيات. حينذاك فقط راوَدَنا إحساسٌ وكأننا في وطننا.

لكن السوق مختلف، مع أنه أيضًا يتحرَّك بإيقاعٍ شرقي؛ فالتجارة هي أساس وجوده، وجذب السُّوَّاح هو مصدره للحياة، وكلُّ مَن معه نقود مُرحَّبٌ به. لكن لا ينبغي استعجال الأمور؛ فالبائع سيكون أكثر سعادة إن أبديتَ اهتمامًا بشراء البضائع. ومع ذلك، في العام 1955، لم يكن هناك الكثير ممَّا يمكن اقتناؤه، ليس غير جلابيب للنوم من نوعية رديئة، وغير رهن الذهب عالي القيراط.

2. أحمد

كان أحمد أوَّلَ رجُلٍ ليبيٍّ يلفت نظري، وحينما التقينا للمرة الأولى رأيتُ ليبيًّا وسيمًا أقربَ إلى الطول والامتلاء، قدَّمه لي سالم على أنه أحمد فقط، وبالرغم من ثيابه المتواضِعَة بَدَا لي أنه ينحدر من عائلة أرستقراطية. وحتى حينذاك لاحظتُ يديه اللتين كانتا صغيرتَيْن وناعِمَتَيْن وجميلتَيْن، لهما أصابع رقيقة، وله شفتان ممتلئتان، تحت شاربٍ أسود رفيع، يُعطي سِمةً بارزة لوجهه العريض.

سالم يعمل في قسم الغابات، وفي الوقت نفسه هو عديل أحمد، وكان يأمل أن يُلحِق أحمدَ بعملٍ ما في منظمة الفاو؛ ولذلك قدَّمه لنا على أنه يتحدَّث الإنكليزية. لكن لم يثبت شيءٌ على إجادته اللغة سوى أنه يجيد استخدام كلمتين فقط، هما: «عفوا؟» و «نعم»، وقد وظَّف الكلمتين بنتائج جيدة طوال فترة لقائنا الأول. بينما كان سالم يرافق هاري ويُطلِعه على أوضاع المشتل في الحشَّان، حيث أخذا يسيران معًا ويفحصان آلاف الشُّتول والشجيرات مختلفة الأنواع، كنتُ مع أحمد نسير خلفهما ونُجري محادثةً مُفعَمةً بالحيوية.

أنا: «هذا مشتلٌ رائع!».

هو: «نعم»، مصحوبة بابتسامة ودودة.

«ومَن يهتمُّ بكل هذه الأشجار؟».

«نعم»، مع ابتسامة أخرى.

«هل يوجد ماءٌ كافٍ في المكان؟».

«عفوًا؟».

«ماء؟ هل هناك ماءٌ باستمرار؟ أم أن البئر تَجفُّ أحيانًا؟».

«نعم»، مصحوبةٌ بنظرة شَكٍّ.

«إذن كيف تُبقون على الأشجار حيَّةً؟».

«عفوًا؟».

«إذا جفَّت البئر، فكيف تسقون الشُّتول؟».

«نعم»، مع الابتسامة الوَدودَة نفسها.

ينظر سالم إلى الخلف، ويتحدث إلى أحمد بالعربية، الذي يعطيه إجابةً مُطوَّلة. ثم ينظر سالم نحوي، «أحمد يقول لك أن تعذريه من فضلك؛ لأن لغته الإنكليزية ليست مثاليَّةً».

«نعم، بالتأكيد يا سالم، أرجوكَ أخبره أن إنكليزيته جيِّدة جدًّا».

فيما بعدُ، وحينما كُنَّا نرتشف الشاي الليبي الذي أعدَّه أحد حُرَّاس الغابات في أحد المكاتب الصغيرة، يطرح سالم فكرة ترشيح أحمد للعمل مع هاري. كان سالم يعرف أن هاري قرَّر البحث عن شابٍّ ليبيٍّ يتمتَّع بالذكاء، ويتحدَّث الإنكليزية بقَدرٍ مُناسبٍ تُؤهِّله للعمل معه، ولكي يعمل على تدريبه كمُساعِدٍ له في ليبيا. وبالرغم من تلقِّي هاري النصيحة لتوظيف شخص إيطاليٍّ؛ سيكون أسهلَ في التدريب، إلَّا أنه قرَّر أنه في دولة ليبيا المستقلة، لا بُدَّ من تدريب الليبيين أنفسهم بأسرع وقت ممكن. لكن في هذا الوقت فالليبيُّون الذين يجيدون الإنكليزية في طرابلس قليلون. سالم الذي تدرَّب في كلية الغابات البريطانية في قبرص، أخذ يحدِّث هاري بينما كُنَّا نجلس حول الشاي، «أحمد يريد أن يعمل معك في منظمة الفاو».

«هل سبق وأن تدَرَّب في مجال حراجة الغابات؟».

«كلَّا، لكنه شخص نبيهٌ للغاية».

«هل تلقَّى أي تدريب في الإدارة؟».

«كلَّا، لكن لديه أصدقاء ومعارف في الحكومة. وهو من عائلة مرموقة. في الماضي كان هناك ملوك لليبيا من عائلته. أحمد يعرف الجميع هنا».

كان أحمد يبتسم بودٍّ خلال هذا الحديث، يحيط كوبَ الشاي خاصَّته بإصبعه الصغيرة، بينما عيناه تُشِعَّان ذكاءً وتراقبان هاري.

«لا يبدو أنه يتحدَّث الكثير من الإنكليزية».

«سرعان ما يتعلَّم حينما يتبادل الحديث معك».

رأى هاري أن هذا قد يكون صحيحًا؛ لأن أغلب الليبيين يتعلَّمون اللغات سريعًا، كجانبٍ من موروثهم العالمي.

«تريد العمل معي في الفاو؟» يسأل هاري أحمد، الذي يجيبه بابتسامة: «عفوًا؟».

يسرعُ سالم بترجمة السؤال إلى أحمد، الذي يجيبُ هاري: «نعم».

«أخبِرْه يا سالم بأنني سأطلب منه مرافقتي إلى كل مكان أذهب إليه، هل تفهمني؟ أعني إلى سِرْت، وإلى الصحراء، وإلى برقة؛ لمقابلة المسؤولين الحكوميِّين، وفي رحلات غيرها. أريده أن يتعلَّم قدر استطاعته منِّي، بحيث حينما أغادر ليبيا يمكنه أن يَخلُفَني».

يترجم سالم الحديث فيهزُّ أحمد رأسه في موافقةٍ، ويبتسم.

«كم الراتب الذي تريد؟» يسأله هاري.

ينطلق نقاشٌ جادٌّ بالعربية بين أحمد وسالم، ثم يُخبر سالم هاري عن المبلغ، فيجيبه: «يا سالم، المبلغ الذي يطلبه أحمد أكثر من راتِبكَ الحكومي، بالرغم من أنك تلقَّيتَ تدريبًا! أخبِرْ أحمد أنني سأدفع له نصف ما يطلب».

يثور نقاشٌ بين الاثنين من جديد، ثم يقول سالم: «أحمد يقول إن المبلغ قليل جدًّا ليكفيه مع زوجته وعائلته، لكن أحمد يقبل بالوظيفة لأنه يرى أنك رجُلٌ صالح، وستكون بمثابة أبٍ له، ويكون هو ابنًا لك».

وطوال ثماني سنين ونصف هذا ما كان عليه الأمر.

سرعان ما اكتشفتُ أنَّ الليبيين أبعدُ ما يوصَفون بالبدائيين، ومع ذلك فهم ليسوا أوروبيِّين، ولا غربيِّين، ولا آسيويِّين كذلك. كنتُ في طَوْر تكوين فكرةٍ عن الشخص الليبي حينما دخل أحمد إلى حياتنا. ومع ذلك فهو ليس أنموذجًا مناسبًا؛ لأن الكياسة وطلاوة الحديث ليست معروفةً آنذاك عن الليبيين، بقدر ما كان معروفًا عنهم الكرم والدفء الإنساني.

سالم، الذي يختلف تمامًا عن أحمد، أميَلُ لأن يكون تقليديًّا؛ فهو محاربٌ بالطبيعة، ومن النوع القوي، الذي يتعامل مع كل أمرٍ كما يتعامل رافع الأثقال، وربما يشمل ذلك الأمور الحسَّاسة، مثل العلاقة الحميمة مع زوجته، التي تبدو حامِلًا بجنينٍ معظم الوقت. لكنه ذو شخصية قوية، يتمتَّعُ بوسامة وإن بدا مُتجهِّمًا، عيناه تُشِعَّان ذكاءً، وبشرته لامعة، والإصرار هو التعبير البادي على وجهه دائمًا، حتى وهو يتَّخِذ أبسط القرارات؛ لأنه يتفاعل بجدية مع كافة المواضيع.

أمَّا أحمد فشخصية مختلفة تمامًا؛ فهل سليلُ أتراك حقيقيِّين منذ ثلاثمئة عام، حينما حَكَم الباشوات ليبيا، لكن لا يزال يحتفظ في شخصيته ببقايا من أجواء القسطنطينية. أمَّا اليوم فهو ليبيٌّ، سَمِيُّ سَلَفه وجَدِّه: أحمد الكبير، الذي نصَّب نفسه في العام 1714 واليًا على طرابلس بأسلوب بارز؛ فقد رتَّب مذبحةً لثلاثمئة تركيٍّ، واحدًا تلوَ الآخر، ودون شوشرة، بينما كانوا مدعوِّين لحضور مأدبة في العيد. وفي اليوم الذي تلا المذبحة لم يوجد في المدينة أي تركيٍّ حيٍّ.

من الصعب شرح شخصية صديقنا أحمد، الذي يحوزُ ميزات الرِّقَّة والدَّماثة وشِدَّة الحساسية والتأثُّر، وفي الوقت نفسه فهو يتَّصِف بعنفٍ أحيانًا، يُفصح عن ذكوريَّته وعناده الشديد، له جِلدٌ حِنطيٌّ رقيقٌ، سرعان ما يتحوَّل إلى الداكن عند تعرُّضه لعناصر الطبيعة، وتظهر عليه بسرعةٍ علاماتُ خَجَلِه، له عينان بُنِّيَّتان تُشِعَّان ذكاءً وتُمكِّنانه من إخفاء أي أفكار مخادعة قد تراوده. بصراحة، هو شخصٌ عاطفي، لكنه حريص وحَذِرٌ أيضًا، مُخادِعٌ، لكنه كريم، مُحاذِرٌ، لكنه سخيٌّ، شخصٌ مُحبٌّ وغير مُخلِص أحيانًا. إنه صديقٌ

حقيقي، وكذلك هو زوجٌ عليه علامات استفهام. مَقدِرَتُه على الحبِّ هائلة، لكنه لم يُوجِّهها لأي شخصٍ عدا نفسه ـ ربما باستثناء زوجي.

3. الذين نظروا عبر البحيرة

في الماضي كان اسم ليبيا يُطلَق على كامل منطقة شمال إفريقيا، باستثناء مصر. أمَّا الليبيون الأُصَلاء فينتمون إلى إحدى مجموعتين عرقيَّتَيْن للسُّكَّان الأصليِّين: الجماعة الأولى من منطقة البحر المتوسط، وهم بيض البشرة، والثانية تنتمي إلى الأفارقة السود. أمَّا البربر فينتمون إلى مجموعة سكان البحر المتوسط، بينما ينتمي أهل فزَّان، وهم سكان الصحراء إلى المجموعة الزنجية.

وبسبب موقع ليبيا المميَّز على ماري نوستروم (البحر المتوسط) فقد كان الإنسان الليبي طوال تاريخه هدفًا للغُزاة، الذين نظروا عبر البحيرة إلى الشواطئ الإفريقية الدافئة، وهكذا تبدَّلَت أحوال الليبيين بين الرِّبح والخسارة من تلك الغزوات. حينما يبني غازٍ ما المُدُنَ يقوم خَلَفُه بهدمها، وحينما يأتي اقتصاد غازٍ ما معه بالرَّفاه يعمل الذي يَخلُفه على الاستفادة منه، وحينما يقدِّرُ مستعمرُ الذَّكاءَ، يَحطُّ آخَرُ من قَدرِه ويمنع التعليم. وحينما يكون أحد العصور ذهبيًّا قد يكون التالي له نحاسيًّا. وهكذا يبدو من المستحيل القول إنَّ الإنسان يمرُّ بحالِ تَطوُّر، أم أنه يركض بكل قوته، فقط ليظل ثابتًا في مكانه.

التاريخ المدوَّن بدأ للمرة الأولى هنا نحو سبعمئة عام قبل الميلاد حينما شَهِدَت ليبيا مرحلةً من المستعمرات الفينيقية الساحلية، لغرض التجارة في المتوسِّط بالدرجة الأولى. وهكذا أقيمت المدن على أساس ثلاثي: أويا، ولبتس ماغنا، وصبراتة. وتزدهر أويا اليوم في مدينة طرابلس، وهي أيضًا موطنُ صناعة بيرة أويا، وكذلك تزدهر لبدة الكبرى وصبراتة باعتبارهما مدينتَيْن أثريَّتَيْن، واسم مدينة تربوليتانيا أو طرابلس الحديثة يعني المدن الثلاثة.

ثم جاءت فترةٌ حكَم فيها الرومان، وقد بدأت مئة وخمسين عامًا قبل الميلاد، واستمرَّت ستمائة عام. في بداية الفترة الرومانية كان اليونانيُّون يستعمرون إقليم بَرقَة المجاور؛ ولهذا فالعداء والضغينة بين

هذين الكيانين المستَعمِرَيْن يستمرُّ حتى يومنا هذا، وتتمثّل آثاره في روحٍ من العداء المستتر بين طرابلس وبَرقَة.

آثارُ نتائجِ الاحتلال الروماني ظلّت باقيةً في ليبيا، حيث توجد مدنٌ نصف مردومة يتمُّ الكشف عنها الآن، وهناك أشجارُ زيتون عتيقة ومعمَّرة لا تزال باقية من مزارع الرومان الأولى، وما زالت تُثمِر كلّ عام، كذلك عُثر على مَعاصِرَ حَجريَّة قديمة للزيتون في كل مكان، وهناك بقايا سدودٍ وطرقٍ كعلامات دالّة على وجود مواقع مواتية للطُّرُق والسدود. هناك أيضًا منظومات رومانية لصهاريج مياه يمكن استخدامها الآن بعد الترميم. وتاريخيًّا تُعدُّ روما القديمة الأعظم في مجال البناء في إفريقيا، حيث جرى تقديم المساعدة من البَنَّائين العبيد الأفارقة، سواء كان ذلك بإرادتهم أم بأعمال السُّخرة.

لكن ما يبنيه طرفٌ ما يدمِّره الذي يأتي بعده، وفي العام 450 قام الوندال بما في وسعهم لتدمير ما بناه الرومان. مع ذلك، وبعد أقل من مئة عام بعد ذلك، قام الإمبراطور البيزنطي جُستنيان -الذي ورث الإمبراطورية الرومانية- بطرد الوندال، وبدأ البناء والتشييد على غرار الرومان.

ثم تَمرُّ مئة عام أخرى، ففي العام 643 يتحرَّك الغزو العربي من قاعدته في مصر بالانتشار في سهوب وجبال ليبيا، بما فيها المدن الساحلية. كانوا أوَّلَ الغُزاة الذين يتوغَّلون جنوبًا بعيدًا عن الساحل، واستقرُّوا في المنطقة ليمكثوا هنا نحو خمسمئة عام. واشتملت تلك الفترة على غزوٍ عَربيٍّ ثانٍ، أتي معه بقبيلتَيْن عربيَّتَيْن، هما: بنو سليم وبنو هلال، الذين يحتفظون بهويَّاتهم حتى يومنا هذا.

في العام 1145 تولَّدَت رغبة لدى دوقات نورماندي في صقليَّة، الواقعة في الطرف المقابل للبحيرة للسيطرة على ميناء طرابلس، وتمكَّنوا من احتلاله وإبقاءِ راياتهم مرفوعةً فوقه طوال خمسة عشر عامًا. وبدورهم استُبدِلوا بالعرب الذين سيطروا على المكان حتى العام 1510، حينما حان دور الإسبان لينظروا عبر البحيرة مع أملٍ في السيطرة على الميناء الإفريقي، فاحتلُّوا طرابلس، وعاثوا فيها فسادًا،

ثم بعد فترة فقدوا اهتمامهم بها، فتخلّوا عن طرابلس، ومعها جزيرة مالطا، لصالح فرسان مالطا.

في العام 1551 استولت البحرية التركية على طرابلس تحت رايات الإسلام، وأقيمت بها حكومةٌ تحت نظام الباشوات، وكانوا في أغلبهم من المغامِرين الذين تُعيِّنهم القسطنطينية لأغراضٍ شخصيَّة ومصالح تركية عامة. وفي العام 1714 قام أحمد باشا القرمانلي -وهو ضابط خيَّالة تركي- بالسيطرة على طرابلس، ونجح القرمانليون في الاحتفاظ بالحُكم لمئةٍ وعشرين عامًا، كإمارةٍ خاصَّة لهم. وهكذا ينظر الليبيون اليوم لاسم القرمانلي كرمز للقوَّة والحنكة السياسية، والمقدرة على إدارة الأموال.

أثناء فترة حكم القرمانليين قام القراصنة البربر بمَدِّ اقتصاد الدولة بالأموال عن طريق نهب خطوط التجارة البحرية في المتوسط. وكان تعامُلهم فَظًّا، ويخلو من الالتزام بقواعد الضمير، فلم يستولوا على الغنائم العيْنيَّة فقط، وإنما قبضوا على الرُّكَّاب من البيض وباعوهم في سوق الرقيق، وإن حدث وأن أَسَروا امرأةً صغيرة جميلة، فإنهم يضيفونها إلى حريمهم، أو يبيعونها أو يعيرونها إلى الباشا. كذلك أضاف الباشوات إلى خزينة دولتهم بفرض الإتاوة على سُفُن الولايات المتحدة ودول أخرى؛ لتجنيبهم غارات القراصنة.

وأرجِّحُ أنه من هنا خرج الشعار الذي يصرخ به الناس «اليانكيُّون... عودوا إلى بلادكم» أمام مُمثليَّات الولايات المتحدة، وجاء ذلك الحدثُ بالتحديد حينما قطع يوسف القرمانلي -باشا طرابلس- ساريةَ العَلَم في القنصلية الأميركية بطرابلس عام 1801، ففي هذه الأيام يبدو مثل هذا التصرُّف اعتياديًّا، لكن آنذاك كان حدثًا مُستَهجَنًا، ولم يكن يُنظَر إليه بودٍّ.

في ذلك الوقت رأى أميركيٌّ فخورٌ اسمه وليام إيتون، وهو القنصل الأميركي في تونس، أن ما حدث في طرابلس يمثِّل إهانةً خطيرة للعلَم، وبدأ في تسيير حملة ضد يوسف باشا القرمانلي. وبعد مسيرة مضنية من مصر، قام خلالها إيتون وأحمد القرمانلي -وهو

أخو يوسف باشا المغضوب عليه، ومرشّح إيتون لحُكم طرابلس- مصحوبَيْن بسبعةٍ من مشاة البحرية، واثنين من البحَّارة الأميركيين، يرافقهم أربعمائة من العرب والمرتزقة- قاموا بالمرور عبر الصحراء واستولوا على دَرْنَة، وهي قرية ليبية صغيرة قريبة من الحدود الشرقية، وهنا سمع وليام إيتون بنفسه شعار «اليانكيُّون... عودوا إلى بلادكم»، لكن النداء جاء هذه المرة من حكومة الولايات المتحدة نفسها، التي وقَّعَت في العام 1805 معاهدة سلام مع يوسف باشا! وهكذا عاد اليانكيُّون إلى وطنهم، ولكن بَقِيَت إلى يومنا هذا الأغنية التي ردَّدَتها قوات المارينز الأميركية «شواطئ طرابلس»، وأصبحت جزءًا من النشيد الوطني الأميركي.

وبالعودة عامَيْن قبل توقيع معاهدة السلام، نجد أن الولايات المتحدة قد نفد صبرها باستمرار تَعرُّضها للابتزاز؛ فأرسَلَت سِربًا من السفن لقصف طرابلس ومُحاصَرة القراصنة، لكنَّ الأخيرين كانوا يعرفون طبيعة بحرهم خيرَ معرفة، وأثناء مطاردة الفرقاطة الأميركية فيلادلفيا لسفينة قراصنة، جرى إغراؤها بالتقدُّم إلى مياهٍ ضحلة قرب طرابلس؛ فجَنَحَت فيها. أُسقِط في يد القبطان الأميركي، وأُخِذ أسيرًا، مع ثلاثمائة من بحَّارته، وسُجنوا في القلعة القديمة الملاصقة للبحر، وهو المبنى نفسه الذي يضمُّ اليوم متحف طرابلس. في هذا المكان بقي السُّجناء مُقيَّدين بالسلاسل، وشبه جوعى، حتى تاريخ توقيع معاهدة السلام في 1805، حينما أُطلِقَ سراحهم بعد أن دفَعَت الولايات المتحدة مبلغ ستين ألف دولار.

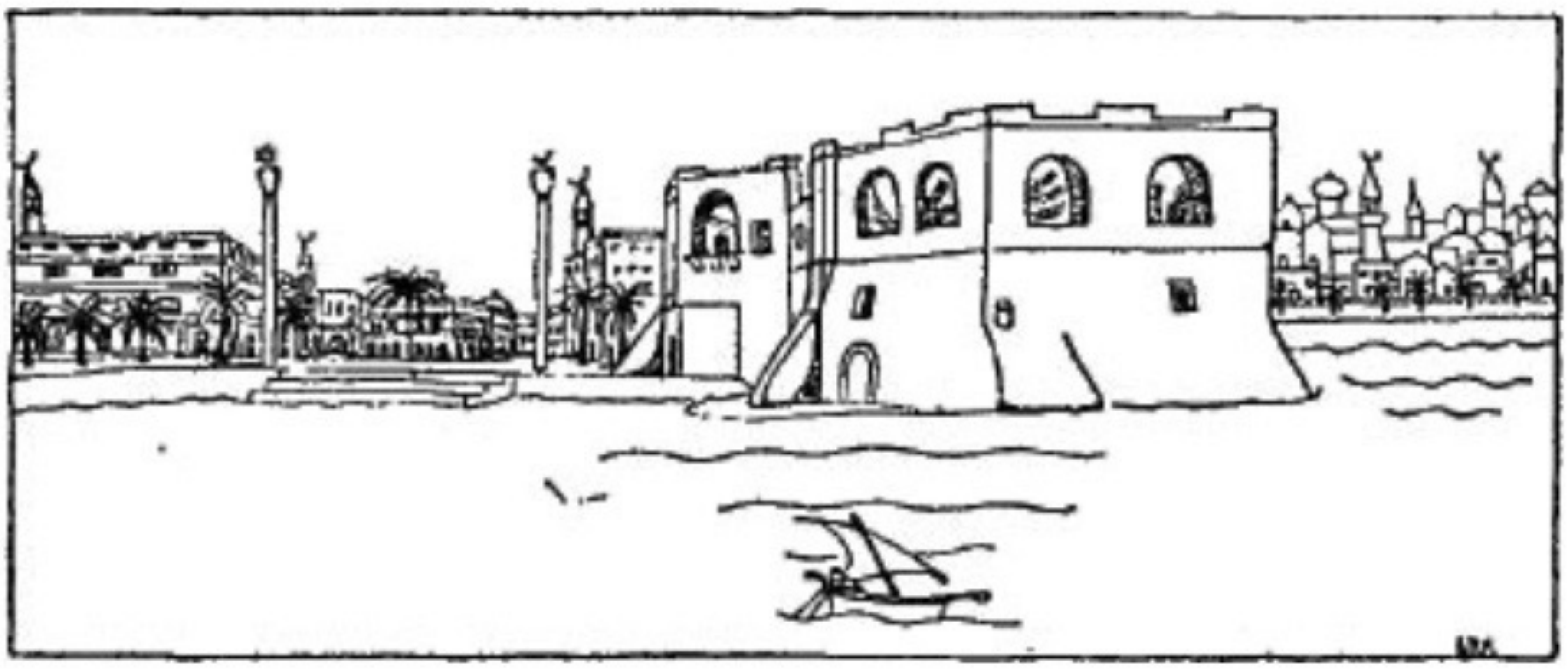

بعد أن تحقَّق الفوز للقراصنة في هذا الصراع، سرعان ما قاموا

بتعويم السفينة فيلادلفيا، واستعدُّوا لإرسالها إلى البحر من جديدٍ، حامِلةً عَلَمهم الخاص، بهلاله الأحمر. لكنَّ مواطنا أميركيًّا فخورًا آخر -هو اللفتنانت ستيفن ديكاتور، قبطان السفينة الحربية «إنتربرايز» الموجودة في المياه الليبية- علِم بما يُخطَّط له من إهانةٍ بإرسال سفينتهم نفسها للقتال ضدهم، فقام بتوجيه الفلوكة القتالية «إنتربيد» التي سبق الاستيلاء عليها من القراصنة، والتي تسلَّلَت إلى ميناء طرابلس في 15 فبراير 1804، وأشعلت النيران في السفينة الأسيرة فيلادلفيا، التي انفجَرَت بعد قليل، وغرقت مع حُرَّاسها، بينما عاد ديكاتور مع رجاله سالِمين.

ومع ذلك، فكل الأمور كانت سيِّئةً للجميع، عدا القراصنة، الذين استمرُّوا في الإبحار، وفي مضاعفة أعداد حريمهم. وبعد حرقِ فيلادلفيا بستة شهور، تمَّ تحميل الفلوكة إنتربيد بمئة برميل من البارود، وتسلَّلَت سرًّا إلى ميناء طرابلس بعد الغسق في 4 سبتمبر 1804، وكان على متنها طاقم متطوِّعين، وخطَّتهم هي إشعال صاعق بطيء وتركها تنساب نحو اليابسة؛ على أمل أن تشعل النيران في أسطول القراصنة داخل الميناء، وخطَّط طاقمُ إنتربيد لمغادرتها في قارب صغير يتجه نحو السفن الأميركية التي كانت تحاصر مدخل الميناء.

لكن لا أحد يعرف تمامًا ما حدث من خطأ، ففجأة حدث انفجار ضخم اشتعلت على إثره السماء، وغرقت إنتربيد مع طاقمها، بينما بقِيَت سفن القراصنة تطفو بأمان في ميناء طرابلس، ويمكن للمرء أن يتخيَّل ما شعر به أسرى القلعة الأميركيُّون وهم ينصتون إلى أصوات التفجيرات الهائلة في الخارج.

في طرابلس اليوم هناك قطعة أرض مخصَّصة ينبغي أن يزورها كل أميركي؛ ففي مقبرة بروتستانتية مقابل البحر يوجد رُفات خمسة من المتطوِّعين من طاقم الفلوكة إنتربيد، وفي ذكرى يوم المحاربين الأميركي من كل عام توضَع أكاليل الورود في الموقع، ويُقام قُدَّاسٌ بالمناسبة.

بالنظر إلى الماضي يستطيع المرء رؤية أن القرن التاسع عشر في إفريقيا كانت تسوده الحوادث العنيفة المنفردة، والحوادث الوحشية المنفردة، وتلك هي الفترة التي انتُهِكَت فيها حقوق الإنسان بصورة متكرِّرة ولم تواجه سوى القليل من الاحتجاج. لكن هذا العصر الحالي يفوح بروائح قصص أفعالٍ مشينةٍ بمستوياتها الصغيرة والكبيرة، والتي بشكلٍ ما يمكن تناسيها بالمقارنة مع القتل الجماعي الذي مورِسَ في القرن العشرين.

مع كبحِ نشاطاتِ القراصنة في نهاية المطاف، بقيت الإمارة القرمانلية بدون دخلٍ اقتصاديٍّ. وفي إجراءٍ منها لتحسين الأوضاع المالية؛ زادت من مستوى الضرائب على الناس؛ ما أدَّى إلى قيام الانتفاضات ضدها. أخيرًا، وفي العام 1835، ولغرض الاحتفاظ بالمنطقة تحت راية الإسلام؛ أعادت تركيا فَرضَ سيطرتها ووضعت إيالةَ طرابلس تحت حُكم الباشوات من جديد.

في عام 1911 نظرت إيطاليا عبر البحيرة، وقرَّرَت أنها هي الأخرى تريد الاستحواذ على الشاطئ الجنوبي الواقع تحت الشمس الإفريقية. وأنزلت قوة في طرابلس لمقاتلة الأتراك في ليبيا، لكنها فوجئت بأن غزوها هذا يشملُ قتال الليبيين أيضًا. لم يكن الأمر حتى نشوب حرب البلقان في 1912 لتجد تركيا أنها منشغلة في أوروبا أكثر ممَّا ينبغي للدفاع عن ليبيا؛ وعليه قرَّرَت التخلي عن حقوقها في طرابلس؛ ما مكَّن الإيطاليين من الدخول والتحرُّك بحُرِّيَّة.

ومثلما فعل أسلافهم الرومان، فقد ترك الإيطاليون آثارًا وراءهم، حيث تمَّ استزراعُ الغابات، وإقامة المزارع، وتمَّ استصلاحُ الأراضي الزراعية، وشق الطرق، وجلب المستعمرين وتسكينهم في الأرض. العائق الوحيد أن الخطة كانت هي تطوير ليبيا لصالح الطَّليان، وليس للِّيبيِّين مكانٌ فيها. كان المزارعون يقومون بأعمالهم بأنفسهم، أو يستخدمون عِمالةً إيطالية وليست ليبية. أقيمت مدنٌ جميلة، فيها مبانٍ وبيوت أنيقة، لكن للإيطاليين فقط، كذلك شُيِّدَت العديد من المدارس، وتمَّ إعلاء شأن التعليم- للإيطاليين أيضًا. كان استعمارًا من الطراز

القديم، مع ادِّعاءاتٍ قليلة بالتغيير، وكل ذلك بهدف واحد، والذي يصبُّ في صالح الدولة المستعمِرة.

مع ذلك، وبدون وجود تفسيرٍ كافٍ تَمكَّنَت إيطاليا من تحقيق حالةٍ أمثَلَ لعلاقة كرهٍ ومحبَّة مع الليبيين. ومع أن الليبيين يمقتون تلك الذكرى التي كانوا يُعامَلون فيها كمواطنين من الدرجة الثانية تحت حُكم الطليان، إلَّا أن الليبي المتعلم اليوم يوقِّر الإيطالي المتعلِّم، كما يوقِّر ثقافته وأسلوب حياته أكثرَ من أيِّ جنسية أخرى. كما يتوجَّه الليبي إلى إيطاليا لقضاء عطلته، وللاستطباب، ولابتياع الثياب وشراء الأثاث لبيته، بالإضافة إلى أن زوجته تعرف أن غريماتها يوجَدنَ هناك، في روما.

ظلَّت البلادُ إيطاليَّةً بشكل ما حتى يناير 1943، حينما دخَلَت قوات الحلفاء طرابلس بقيادة الفيلد مارشال مونتغومري، ووَضَعها تحت سلطة الإدارة البريطانية. طوال فترة الحرب العالمية الثانية انتقلت السيطرة على هذا البلد الصحراوي بين الألمان، والطليان، والعرب، وقوات الحلفاء. والنتيجة أن البلاد تُرِكَت مع شيئَين أساسيْن: أعداد لا تحصى من ألبسة الكاكي العسكرية القديمة التي شكَّلَت مصدرًا مُهمًّا لثياب غالبية السكان المحليين، وكذلك تُرِكَت البلاد بأعدادٍ لا تُحصى من الألغام الأرضية المميتة والقنابل القاتلة التي ما زالت تَحصُد أرواح الليبيين بشكل أسبوعي.

عام 1958 بدأ آخرُ شكلٍ من أشكال الغزو، وهو عصر النفط، الذي أتى معه بالتعاقُدات الغربية، وبالتقنية الحديثة، والأعمال التجارية الكبرى، والبطالة المُقنَّعة، وبالحاجة إلى المزيد من الوظائف، وبرفاهٍ أكثر ممَّا حلم به الليبيون. فهل سيكون ذلك عصرًا ذهبيًّا أم نحاسيًّا؟ سيعتمد ذلك كلُّه على الإنسان الليبي.

4. عبد الله

عبد الله -صبي البيت*- في منزلنا، ربُّ عائلةٍ؛ فهو يرعى أُمَّه، وزوجته، وأربع أخوات صغيرات في العمر. ويقول عبد الله إن كل شيء بمشيئة الله، فرزقُ عائلته على الله. أمَّا الدراجة النارية التي يملكها عبد الله فرزقُها بالكامل يعتمد عليه هو، ولا أحد غيره. عبد الله يحبُّ درَّاجته النارية أيَّما حُبٍّ، ويصرف عليها المال أكثر ممَّا يُنفق على عائلته، كما يقضي أوقاتًا بصحبتها أكثر ممَّا يقضيه مع عائلته. كان قد اشتراها بطريقة الاستدانة الأميركية، وهو نظامُ استدانةٍ اعتمده بشكلٍ اعتياديٍّ وطبيعيٍّ، ويناسبه تمامًا، بحيث دفع عشرة دولارات مُقدَّمًا، مع التزامٍ بدفع مئة دولار لاحِقًا على أقساط! فالشِّراءُ عند الليبيين يعتمد على الاستدانة، لدرجة أن كل عائلة ليبية تجدها تنفق أكثر ممَّا لديها فعليًّا من دَخْل. والآن، الجميع في ليبيا عرفوا أن الأميركيين الأغنياء يقومون بالشيء نفسه؛ وعليه ربما ينقلهم نظام الاستدانة هذا إلى نوعٍ من الثراء مثلهم.

انتقل عبد الله للخدمة معنا عن طريق صديقةٍ لي كانت توظِّفهُ عندها كصبيِّ بيت، وقبل أن تغادر ليبيا نصحتنا بتوظيفه عندنا،

وأخبرتنا أنه على الرغم من أنه غير مثابرٍ في عمله، إلّا أنه أمينٌ ونظيف، وبالتأكيد يمتاز بمهارته في إعداد كعكة السوفليه.

لم يَمُرَّ وقت طويل حتى عرفت أنَّ أفضل ما أعجبني في عبد الله هو أنه دائمًا يُنهي عمله في الساعة الخامسة تمامًا، وهذا شيء رائع بالفعل؛ لأنني لا أطيق وجوده في البيتِ فترةً أطول من ذلك. كان عبد الله طويل القامة، وعلى قدْرٍ من الوسامة، كما كان شديدَ الجاذبية؛ فلا يستطيع المرءُ تَجاهُلَ حضوره بسهولة، وجاذبيته هذه تَنفُذ عبر الأبواب المغلقة، وتظلُّ مُعلَّقةً في الجو مثل البخار، وغالبًا ما تساءلتُ عن كيف أنه مُخلِصٌ لدراجته النارية فقط.

أول مرَّة عرفتُ فيها مدى حبِّ عبد الله الشديد لدراجته النارية كانت عبر شراء اسطوانات غاز الطبخ، حيث أثناء إقامتنا في «جورجمبوبلي» كُنَّا نطبخ على الغاز. تكلفة اسطوانة الغاز في ذلك الوقت كانت تُعادل ست دولارات، ودائمًا ما أقوم بتسديد المبلغ نقدًا. ويتم توصيل اسطوانات الغاز عن طريق دراجة نارية بعربة جانبية يقودها برونو، وهو شابٌّ إيطاليٌّ من صقلية، اندفاعيٌّ، وذو نظرات حادَّة، وكان برونو يقوم بتوصيل اسطوانات الغاز نيابةً عن والده المغامِر، الذي كان يتحكَّم في الوكالة الإيطالية لتوزيع الغاز في طرابلس.

ذات مساء، وبعد مغادرة عبد الله، رَنَّ جرس الباب، فقام هاري بفتح الباب ليجد برونو في مواجهته، كان مُمتَعِضًا وغاضبًا، وصرخ في وجهه: «أريد فلوسي».

ردَّ هاري مُستَغرِبًا، وهو الذي لم يسبق له رؤية برونو: «فلوس مقابل ماذا؟».

«فلوسي ثمن الغاز. ثلاث اسطوانات لم تدفعوا ثمنها. أريد فلوسي!».

«ما رأيُكِ في هذا يا أغنس؟» سأل هاري عند وصولي إلى الباب.

«لستُ مدينةً له بأي مبلغ؛ حيث أقوم دائمًا بتسديد الثمن نقدًا». وشعرتُ بالسخط أيضًا.

«حسنًا، ولمن تدفعين الثمن؟ لهذا الغشيم هنا؟».

«لا أعرف، في الواقع عبد الله دائمًا يقوم بشراء الغاز، فأنا أسلِّمه النقود».

في راهن الوقت، برونو الذي قدَّرتُ سِنَّه باثنين وعشرين عامًا، واتَّضح لاحقًا أنه في الخامسة عشرة فقط، أطلق نَخرةً، وقال بغضب: «عبد الله! عبد الله! لقد اشترى درَّاجةً نارية ولم يدفع لي ثمن الغاز؛ فهو يشتري بالنقود البنزين لدرَّاجته... أريد فلوسي!».

«تعال غدًا حينما يكون عبد الله هنا، وإن لم يدفع لك فلوسك، سأدفعها أنا لك»، أخبرته وقد تحطَّمَت الصورة التي في ذهني حول أمانة عبد الله المطلقة، وبعد نظرة طويلة خبيثة منه قال برونو: «أوكي»، وغادر المكان.

«أوووه! إنني أكره أن أقابل هذا الشخص في ليلةٍ ظَلماء» علَّق هاري، ثم أضاف، «قلتِ عبد الله انسانٌ أمينٌ بالكامل! هل حاولتِ معه أن يطهو لنا كعكة السوفليه؟».

في الصباح التالي قلتُ لعبد الله: «ذلك الشاب الصِّقليٌّ الذي يوصل الغاز يقول إنك لم تدفع له ثمن ثلاث اسطوانات، وسيأتي اليوم للمطالبة بنقوده».

«من؟».

«أنتَ تعرف مَن... برونو، أعتقد أن هذا هو اسمه... أليس كذلك!».

«آآآآه برونو».

«لماذا لم تدفع له ثمن الاسطوانات؟».

«تقصدين لبرونو؟».

«نعم، برونو!».

«آآآآآآآه برونو.. لقد دفعتُ له».

«إذًا لماذا جاء إلينا هنا يصرخ طالِبًا نقوده؟».

«ربما لم يفهم ما تقولين».

«إنه يفهم ويعرف ما إذا كان قد استلم المبلغ منكَ أم لا!».

«ربَّما أنتِ لم تفهمي برونو!».

وفي تلك اللحظة رنَّ جرس الباب ليدخل برونو. حدَثَت بينهما مشادة كلامية بالعربية والإيطالية لم أفهم منها شيئًا آنذاك، وانتهى الجدل بتسليم سِتِّ دولارات لبرونو، كما هدَّأ عبد الله من نبرته مؤكِّدًا لبرونو بأنه سيدفع له الاثني عشر دولارًا المتبقِّية قريبًا جدًّا. غادر برونو وشيء من الرضى يعلو وجهه، دون حاجةٍ للاستعانة بي لمساعدته في الحصول على بقية المبلغ.

قال عبد الله: «برونو شابٌّ لطيف. وكما رأيتِ... أنتِ فقط لم تفهميه تمامًا».

طبعًا لم أر ما يراه، وتخلَّيتُ عن المحاولة أصلًا؛ فربَّما الأمر يتعلَّق بتعايُش الإيطالي مع جيرانه الليبيين الذين نالوا استقلالهم حديثًا.

«إذًا أنتَ تمتلك دراجة نارية يا عبد الله؟».

هنا أضاء وجهه الوسيم وهو يجيبني بحماس: «نعم، سنيورة، وهي درَّاجةٌ حقيقية، وليست فقط درَّاجةً عاديَّة مثل التي عند بعض الأولاد. لقد كَلَّفَتني الكثير، لكنها رائعة».

«لكنَّكَ لم تقُدها الى العمل هنا مُطلَقًا، حيث أراك دائمًا إمَّا مُترجِّلًا أو على دراجة هوائية».

«أقوم باستئجار الدراجة الهوائية يا سنيورة؛ لأنها تَبلَى من الاستعمال، وأحتفظ بدراجتي النارية بحالة جيِّدة، فلا أستخدمها إلَّا أيام الأحد حينما أقودها مع كوكبة من أصدقائي في نادي الدراجات

النارية لزيارة الزاوية وزوارة وزليطن ويفرن وغريان، وأماكن كثيرة أخرى؛ فالسَّفَر والتَّنقُّل يُعلِّم الإنسان».

«نعم، هو كذلك، فأنا أيضًا أتعلَّم شيئًا جديدًا كل يوم! ولكن أخبِرني قبل ذلك: متى ستسدِّد لبرونو نقوده؟».

«ربما يا سنيورة إن قمتِ بدفع مرتبي مُقدَّمًا...؟».

هنا اكتشَفتُ زَلَّة لساني، ولكن بعد فوات الأوان.

في يوم الأحد التالي حينما كان هاري يقود السيارة ويحاول أن ينعطف بالسيارة الى زاوية غير مرئية في طريق طرابلس- الخُمس، تجاوَزَت سيارتَنا الفوكسول الصغيرة كوكبةٌ كبيرة من الشباب على دراجاتهم النارية، وفي المؤخِّرة كان أحدهم مُرتَديًا سُترةً مألوفة سوداء وبرتقالية ذات رقبة مغلقة، والتي اعتاد عبد الله ارتداءها في أفضل أيامه. استدار نحونا رافِعًا يده بالتحية، وكان على بُعد سنتيمترات منَّا. والشخص الراكب وراءه يرتدي قُبَّعةً عالية خضراء لوَّح لنا أيضًا، دون إبداء اهتمام لتوازُنِه، وكادا أن يتعرَّضَا لحادث.

«ها هي نقود الغاز التي تدفعينها تذهب هباءً، يا ما» قال هاري.

«أعتقد أنه يجب أن ينال حصَّته من الترفيه» أجبته دون قناعة.

يوم الأحد ذكَّرني عبد الله أنه تجاوزنا في الفوكسول الصغيرة حينما كان بصُحبَة الشباب من ناديه.

«أنتم الشباب كنتم تقودون بسرعة عالية».

«نعم، سنيورة، وما زال بإمكان درَّاجاتنا السير أسرع من ذلك!» قال مَزهوًّا.

بعد عدة أسابيع، تجاوَزَت كوكبة شباب النادي سيارتنا مرَّةً أخرى، ولكن هذه المرة كانوا يقودون على الطريق الساحلي في اتجاه تونس. بدا أن جميع أعضاء النادي تعرَّفوا على سيارتنا الفوكسول الصغيرة المسكينة؛ فارتفعت المزيد من الأيدي تُلوِّح لنا بحرارةٍ وهم

يقودون بسرعة جنونية، مُخاطِرين بحياتهم وهم يقومون بالانحناءات والالتواءات ليحوزوا إعجابنا.

علَّق هاري: «لا أحد منهم يرتدي خوذة السلامة، ومن الأفضل ألَّا تُمَكِّني عبد الله من استلام مُرتَّبات شهور كثيرة مقدَّمًا!».

«لا أعرف لماذا أخبَرَتني باربرا، بأنه شخصٌ أمينٌ ويمكن الاعتماد عليه».

«هي صاحبة قلبٍ رحيمٍ، وأرادت أن يحصل عبد الله على عملٍ قبل مغادرتها».

«أو رُبَّما لأنه يستطيع إعداد كعكة السوفليه بمهارة!».

مرَّت أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء ولم يحضر عبد الله الى العمل، ويوم الخميس سألتُ أحمد الذي بدأتُ في الاعتماد عليه بشكل أكثر، أن يأتي معي لنَجِد بيت عبد الله في المدينة القديمة، ومعرفة السبب الذي جعله يغيب.

تذكَّرتُ المنعطف عند المرتفع المطِلِّ على البحر، حيث أترك عبد الله دائمًا حينما أوصله إلى بيته، ويقع مباشرة خلف ضريح المرابط المغطَّى بالرايات، والموجود في منتصف الطريق تمامًا. هناك تمامًا أوقفنا السيارة، وخرج أحمد ليسأل مجموعة من الشباب ظهروا فجأة عند بيت عبد الله، ثم لاحظتُ أنَّ وجهَه شابَهُ الكدر، وبعد دقيقتين من الحديث معهم استدار نحوي وقال: «البيتُ قريبٌ من هنا، لكن عبد الله قُتل في حادث سَيْرٍ مع دراجته يوم الأحد الماضي».

«أوووه...» صدمني الخبر، لكنني لم أتفاجأ بالكامل، ثم حينما ركب أحمد السيارة قلت له: «أَلَا يجب أن تعود إلى بيته، وترى إن كان هناك ما يمكننا القيام به؟».

«كلَّا، من الأفضل ألَّا أفعل؛ فالغالبية نساءُ، يبكين الآن، مع الوقت سيحتاجون شيئًا ما، وسرعان ما يأتون إليك يطلبونه».

وهذا ما حدث. بعد عشرة أيام وصل وفدٌ إلى باب بيتي. حينما سمعتُ العويل في الخارج، رأيتُ ثلاث نساء يرتدين الفرَّاشيَّة، معهنَّ أربعة أطفال ورجلٌ، وجميعهم يصطفُّون أمام البيت؛ فراوَدَني إحساسٌ بالفزع. حتى تلك اللحظة أحسَستُ أنني قد خُدِعتُ؛ فقد تُوفِّي عبد الله وهو مدينٌ لي براتب ستة أسابيع استلمها مُقدَّمًا، لكن حينما رأيت هذا التجمُّع من الأقارب الحزانى في الخارج، الذين سيلعبون على عواطفي؛ عرفتُ أنني سأكون في وضع أسوأ.

حينما فتحتُ البوابة شرح لي الشابُّ بالإنكليزية أنه أخ زوجة عبد الله، ثم قدَّم لي الزوجة وشقيقتها وأمَّ عبد الله، وأربعة من أطفاله، وجميعهم أَتَوا ليشكروا ما سبق أن أبديتُه من عطفٍ على فقيدهم، وعلى وقع هذا الثناء، دخلنا جميعًا إلى البيت.

حينما خُلِعَت الفرَّاشيَّات بَدَت لي الزوجة وكأنها في عمر والدته، ولم يكن لأيٍّ منهما تلك الحيويَّة والجاذبية المحيطة دائما بعبد الله، وبدأتُ أتفهَّم لماذا يرتبط دائمًا بدرَّاجته النارية ويوليها كل اهتمامه. بسرعةٍ جَلبتُ عُلَب شراب الليمون، والحلويات، ثم جلسنا جميعًا نحدِّق في بعضنا، نتساءل مَن سيبدأ الحدث، وأين سيبدأ. في النهاية خرج الأخ بالنقطة التي يريد قولها: لقد أخبرهم عبد الله أنه لم يستلم راتبه عن الأربعة أسابيع الأخيرة! والآن بعد أن تُوفِّي فهم بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى المال، ويأملون في إعطائهم المبلغ المستحق لهم.

تخلَّيتُ عن هدوئي، فصحَّحتُ لهم معلوماتهم وأخبرتهم -بحرارة- أن عبد الله هو المدين لي براتب ستَّة أسابيع أعطيته له مقدَّمًا. كان هذا بمثابة إشارة لهم جميعًا للانخراط في نوبة بكاء حار. ولحُسن الحظِّ وصَلَ هاري في تلك اللحظة إلى الغرفة المملوءة بالدموع، عندها أُسقِط في يدي، ولم أعرف ما عليَّ فِعلُه، بالرغم من أنني لم أشعر بأنني مُجبَرة على دعم عائلة عبد الله في الوقت الذي تخلَّى هو عنها. أثناء دخول هاري إلى الصالة توقَّعتُ أن تُسرِع النساء بالمغادرة، أو على الأقل يُغطِّين أنفسَهنَّ بالأردية في مواجهة رجُلٍ غريب، لكن لم يفعلن أكثر من التململ في أماكنهن، وصار واضحًا عندي أنَّ: (أ)

هاري لم يكن صغيرًا في السِّنِّ بما يكفي ليُسبِّب لهُنَّ إزعاجًا، أو (ب) أو أنه محضُ أجنبيٍّ لا يبالين بوجوده، أو (ج) حينما يتعلَّق الأمر بالمال، فهؤلاء السيِّدات على استعدادٍ لضرب التقاليد عرض الحائط.

عرَّفتُ هاري بالوفد وشرَحتُ له الموقف، فلم يبدُ متفاجئًا، وكرَّر ما قُلته بأن عبد الله استلم رواتبه مُقدَّمًا، وأننا غير مدينين لهم بشيء، لكنه قال إننا سنتباحث في الأمر مع صديقٍ ليبيٍّ لنا، والذي سيزور العائلة في وقت لاحق. في النهاية، بدا لي أن كل واحد منهم ملتصقٌ بكرسيه، وأن مبلغًا من المال هو ما قد يدفعهم للمغادرة، فبعد كلِّ شيء كانوا قد دفعوا ثمن تنقُّلهم إلى هنا، وبما أنهم فقراء يبدو عليهم البؤس، ومنظر هؤلاء الأطفال المتَّسخين والبائسين يدعو إلى الشفقة، وأننا بالمقارنة أوفر حَظًّا منهم، وبإمكاننا تقديم شيء ما لهم...

«هل تنوين تخديم عامل آخر مكان عبد الله؟» سألني هاري لاحقًا في ذلك المساء.

«ليس إلَّا إذا كان يتيمًا، وغير متزوِّج، ويكره الدَّرَّاجات النارية».

«أحمد يعرف أحد الفتية، ويعتقد أننا يجب أن نجرِّبه».

«حسنًا، لا أعرف، في الحقيقة أشعر بالراحة لعدم وجود جسد عبد الله المثير في هذا البيت! والسبب الوحيد لرغبتي في وجود شخصٍ غيرنا في البيت، أنها طريقة للتعرُّف على الليبيين؛ فلا أحظى سوى بفرصٍ قليلة هنا».

في الليلة التالية قال هاري، الذي لا يتأخَّر أبدًا عن وعوده: «لقد وجدتُ لكِ صبيًّا!» خرَجَت مني شهقة، وقلتُ: «دون أن أراه، أو أُجري له المقابلة! أو معرفة إن كنتُ سأقبله؟ وهل عمل مع أوروبيين من قبل؟ لماذا استأجرته، وماذا يميِّزه عن غيره؟».

«بدا لي شخصًا مَرِحًا؛ ولهذا السبب وافَقتُ عليه، أحمد يقول إنه شاب لطيف، كما أن أحمد وسالم كفلاه؛ فقد ساعَدَت أم سالم في تربية الفتى».

«لكن ما الذي يمكنه القيام به بالإضافة لكونه فتًى مَرِحًا؟».

«بإمكانك تعليمه، أليس كذلك؟ ولكن لا يمكنه إعداد كيكة السوفليه، وهذه إحدى ميزاته!».

وبهذه الطريقة كان تقديمي إلى (ابني) محمد.

---

* ذكور يعملون في خدمة بيوت وبغض النظر عن أعمارهم، اصطُلح على تسميتهم بـ «هاوس بوي». المترجم

5. محمد

وصل محمد في اليوم التالي، وحينما سألتُه عن عمره قال إنه في الخامسة عشرة وربَّما السادسة عشرة، ووجدتُ أن معظم الليبيين لا يعرفون أعمارهم وتواريخ مولدهم بدقَّة. أخبرته أنه يبدو في عمر ابننا جورج، أي ستة عشر عامًا، ومنذ تلك اللحظة أصبح جورج محلَّ اهتمامٍ عميق لمحمد.

أشرتُ إلى صورة جورج على الطاولة فتوجَّه محمد إليها وتفحَّصها بدقَّة، ثم قال: «قد يأتي إلى ليبيا، ربما؟».

«نعم، في هذا الصيف أثناء عطلته».

«ممتاز، سيكون صديقًا لي!». أعجبني وضوح رؤيته، لكنني تساءَلتُ في نفسي عن مدى جودة عمل البيت الذي قد يَنتُج عن شراكة جورج ومحمد.

بدا لي محمدٌ فتًى حسَنَ المظهر، نظيف الجسم والثياب، ومُحاطًا بجوٍّ مَرَح الشباب ولا مبالاتهم العفوية، ومن الواضح أن هذا ما جعل هاري يرتاح إليه. كان مرتديًا بنطلون جينز ضيقًا؛ وهو ما يدل على علاقةٍ ما له مع قاعدة ويلوس الأميركية، حيث كان يعمل كصبيٍّ مُرافِق للاعبي الغولف هناك، لكن العمل عندهم غير منتظم، وخلال وجوده هناك التقط شيئًا من لغة المجنَّدين، التي بينما قد تكون مفيدةً إلَّا أنها تحوي الكثير من البذاءات. كان محتَشِمًا في أسلوبه، ويضحك بطريقة خجولة، وهو ما ارتحتُ له بعد أن جرَّبتُ أسلوب وتصرُّفات صبيِّ بيتنا الأول. لم يسبق لمحمد أن عمل في المنازل من قبل، فهو لا يعرف الطبخ، ولا يملك درَّاجةً نارية، ولا حتى هوائية، لكنه قال مبتسمًا إنه ربما سيمتلك واحدةً ليذهب بها إلى العمل!

«من الأفضل أن تأتي إلى هنا بالحافلة، يا محمد، وسأدفع لك ثمن التَّنقُّل» أكَّدتُ عليه.

لكنَّ مُحمَّدًا توَجَّه في تلك اللحظة إلى الطاولة، وكان يحدِّق في صورة جورج من جديد، «هل يذهبُ إلى المدرسة الآن؟».

«نعم، في كندا».

«أحبُّ أن أرتاد المدرسة أيضًا».

«ربما يمكنك الالتحاق بمدرسة ليلية في طرابلس».

بعد نظرة متأنِّيةٍ أخرى إلى جورج، قال بحماس: «جورج فتى لطيف جدًّا!».

«حسنًا، أحيانًا هو كذلك».

«عند قدومه سيكون جورج أخًا لي، كم ابنًا لديكِ، يا مسز؟».

«ابنٌ واحد فقط، وفتاة واحدة».

«أمي أنجَبَت ستَّة أولاد، وثلاث بنات».

«يا لها من محظوظة» قلتُ، مع أن الشَّكَّ ساوَرَني.

«جميعهم ماتوا، ولم يبقَ سواي».

«أوووه، يا محمد!».

«نعم، جميعهم ماتوا، أمي تعرف الكثير حول تربية الأطفال، أعتقد».

لكن يبدو لي أنها لا تعرف الكثير حول تربية الأطفال؛ لأنهم ماتوا جميعًا.

قال محمد إنه سيبدأ العمل اليوم، بل الآن. ودلَلْتُه على حمَّامٍ صغير مع مرحاض وحوض غسيل وحوض استحمامٍ. أوضحتُ له أن هذا سيكون خاصًّا به، وبإمكانه أن يُبدِّل فيه ملابسه. بدا فرِحًا، وعلى الفور أغلق عليه الباب، وطوال نصف ساعة كنتُ أسمع صوت رشرشة الماء في الحمَّام. خرج مرتديًا الثياب نفسها، لكنَّ وجهه كان أكثر لمعانًا، وشَعرَه الأسود المجعَّد مُبتلًا، يلتصق بفروته، ومن الواضح أنه استحمَّ في الحوض.

منذ ذلك اليوم أول شيء يقوم به محمد فور وصوله، هو التوجُّه إلى حمَّامه الصغير، ويغتسل بالكامل، كما يقوم بحلاقة الشعر الخفيف على وجهه، ومع الوقت صار يقرأ مجلات الرسوم العربية أثناء استخدام المرحاض. وأيضًا كان يستحمُّ في العَشيَّة قبل عودته إلى بيته.

في البدء فاجأني هذا التعلُّق الشديد بالنظافة، لكن الآن وقد خبرتُ المكان أكثر، سأتحدَّى أي شخص يعطي الليبيِّين أي وصفٍ آخر غير أنهم شعبٌ نظيف، حينما تتوفَّر لهم الفرصة للحصول على الماء. ما تجدُ شعوب أميركا الشمالية صعوبةً في فهمه هو حقيقة أنه في هذه البلاد شبه الصحراوية، فالماء لا يُعدُّ ضرورةً عرضيَّة فحسب، وإنما تَوَفُّره هو الترفُ الحقيقي. وحتى بعض قاطِني المدينة لا تتوفَّر لديهم مياه جارية، وفي أحسن الأحوال لديهم صنبور مياه في مركز منطقةٍ ما، ومنه تسحبُ عدَّة بيوت ما يلزمها من مياه.

الماء شحيحٌ في القرى الصغيرة خارج المدن، وفي الصحراء نفسها يكاد ينعدم. لكنه في الواحات المتناثِرَة موجودٌ بوَفرَة. وخلال إقامتي اللاحقة في ليبيا سأكون شاهدةً على كيف يُقدِّر الليبيون كثيرًا توَفُّر الماء، خلافًا للأجنبي، وكيف يواجهون المشاقَّ للاستفادة القصوى منه، بالرغم من الظروف المحيطة غير المواتية. وبالإضافة إلى طقوس الوضوء خمس مرات في اليوم للصلاة، فغالبًا لا يَقرَب الليبيُّ طعامَه قبل أن يغسل يديه، أو يَخلُد إلى النوم قبل غسل قدميه. لقد رأيتُ أصدقائي الليبيين في الصحراء يغسلون أقدامهم بماءٍ في درجة التَّجمُّد، ثم يتركونها لتجفَّ في الهواء؛ حتى لا يمسحوها بمنشفة الوجه، أو يَدخُلوا بهما إلى فراش نوم الرحلات.

«إذن، ما رأيُكِ في محمد؟» سألني هاري في تلك الليلة.

«هو فتًى لطيف، حبُّوب، وذكي، لقد أعجبني، لكنه لا يعرف شيئًا حول تدبير البيت! ولم يسبق له أن دخل بيت أوروبيين».

«بإمكانه التَّعلُّم ما دام يتمتَّع بذكاء».

«نعم، لو أراد ذلك، لكن من الطبيعي أن يستنكف الشباب القيامَ بأعمالٍ عادةً ما تقوم بها النساء».

«حسنًا، في جميع الأحوال عليك أن تجرِّبيه؛ فهو بحاجة إلى المال، ويخبرني أحمد أن أمَّه عمياء، وأباه كان مُدمِنَ كحول، والعائل الوحيد للعائلة هو محمد».

«سأحاول معه بالفعل؛ فلا أعتقد أن بإمكاني التخلُّص منه! فهو قد تبنَّى جورج كأخٍ له. وهناك شيء يعجبني فيه، فهو لا يتذلَّل، ولا تبدو عليه الخِسَّة. هو أفضل ما يمكننا الحصول عليه؛ ولهذا يعجبني. إنه يناديني الآن بـ 'مسز'، وأعتقد أنه سينتهيالأمر بأن يناديني أمَّه!».

«من الأفضل ألَّا يتعدَّى حدوده، أو أنه سيستغلُّكِ».

«لكن أين هي حدوده؟ فهو لن يكون خادمًا أبدًا، وأنا على ثقة من ذلك!».

أوَّل درسٍ له في اليوم التالي كان ترتيب الفراش، فالسَّرير الغربي مع الفِراش والأغطية كان أُحجيةً لمحمَّد، وهو -كغالبية الليبيين- ينام على فَرشة قماشية فوق الأرض، يلتفُّ بالجرد ويغطي رأسه. بالنسبة لي أحبُّ الدِّقَّة والنظام في ترتيب الفراش، على أن تكون الزوايا مُنتَظِمة، والملاءات مستوية، والوسائد متناسِقة. أُعجِب محمد بأسلوبي في الترتيب، لكن لم يستَطِع تقليده. بالرغم من أنه في وقتٍ لاحقٍ سيتعلَّم تغطية السرير، لكنه لم يَرَ علاقةً شَرطيَّةً بين طول السرير والطول الإضافي للأغطية والملاءات.

بسهولة كان يقوم بتنظيف البلاط بعد دَلْق دِلاء الماء فوقه، لكنه ينسى في كل مرة أن يكنس التُّرابَ أوَّلًا ما لم أُذكِّره به يوميًّا. كان يَتمُّ تَجاهُل الزوايا كأنها غير موجودة؛ فيتراكم التراب تحت الأثاث، إلى أن أقوم بتحريكه، وعندها يؤنِّبني محمد بلطف، ويقول: «لم أر الأتربة؛ لأن طاولتَكِ كانت تغطِّيه».

في طريقه إلى بيتنا عادةً ما يقوم محمد بشراء الحاجيات من السوق، وإذا ما طلبتُ منه شراء كيلوغرامين من أفضل بطاطا في السوق، يأتيني فخورًا وقد ابتاع نحو خمسة كيلوغرامات من أردأ بطاطا في السوق، بالسعر نفسه؛ فأضطرُّ لرمي ثلاثة أرباع الكمِّيَّة، وذلك كان أسلوبه في التعامُل مع شراء أنواع الأطعمة المختلفة. فكيلوغرامان من لحم الطبيخ الرخيص، يشملان نحو كيلو من العظام والشحم والعضلات، وهو يراها أفضل صفقة شراء، وهذا معتاد بالنسبة للمُتسوِّق الليبي، حيث يستخدم الليبيون اللحمَ في الطبيخ، وفي الغالب يُفضِّلونه مليئًا بالدُّهن، ويوفِّر طبيخًا غليظ القوام يمكنهم تناوله بالخبز.

اعتاد محمد تناول وجبة الغداء في بيتنا، وكان مهتمًّا بمكوِّنات طعامنا، وهكذا دأب على شراء اللحم من قَصَّابٍ مسلم؛ لأنه لا يأكل اللحم إن لم يكن مذبوحًا على الطريقة الإسلامية. ولسوء الحظ، فالقصَّابون في ليبيا يُقطِّعون اللحم وكأنهم يمزِّقونه بأسنانهم، فيبدو في وضع سيِّئ، وكأنه بقايا محتَفِلين من آكلي اللحوم جَرَت مقاطَعتُهم فجأة.

مع الوقت، قرَّرتُ الذهاب إلى السوق بنفسي، وأن أعطي محمَّدًا النقودَ لشراء نوع الطعام المفضَّل لديه بنفسه. في البداية وجدتُ صعوبة في تقبُّل رؤية الذبائح كامِلةً أمامي، وأن أضطرَّ لأن أشير

للقَصَّاب على الجزء الذي أريده منها، في الواقع رؤية لحم الذبيحة كاملًا كاد أن يحوِّلني إلى نباتيَّة! لكن الآن، بعد ثماني سنين من قيامي باختيار القطعة التي أريد، أرى أن ما أجده في الأسواق العامَّة -حيث يضعون قطع اللحم بأنواعها في حوافظ مُغلَّفة بورق السولوفان- غير مثيرٍ، ولا طعم له.

تَعلَّم محمد كيف يغسل الملاءات والمناشف وأطقم المائدة، وكذلك قمصان وبِدل هاري القماشية، لكن لم يحقِّق نجاحًا أبدا مع ثيابي. يمكن قبول طريقة غسله، لكنه كان فاشِلًا في كَيِّ الثياب، حيث يعاني مع كل تمريرة للمكواة. وعندها بدأ يخزِّن القمصان غير المكوية في حمَّامه الخاص، آمِلًا أن يجد لها حلًاّ مناسبًا ما. واعتدتُ خلال يوم عطلته أن أقوم بتنظيم حمَّامه وأن أستعيد الثياب المفقودة. لم يَدُرْ بخاطري أبدًا أنه يمارس الغش بفعله هذا، وإنما رأيتُ أنه يأمل مع الوقت أن يُلهِمَه الله بحلٍّ ما يُمكِّنه من كَيِّ هذه القمصان. أحيانًا كان الله يستجيب له وأقوم بكَيِّها، وأحيانًا أخرى لا يفعل، ويجد محمد نفسه مُجبَرًا على القيام بذلك.

بدأ محمد في تعليمي بعض الجُمل العربية، من نوع تحايا الترحيب والتوديع، وكذلك الردود على تعبيرات الودِّ والشُّكر، وطلب إحضار القهوة والسَّجائر والطعام، والسؤال عن أسعار المواد الغذائية في السوق، وكذلك أسئلة عمَّا يفعله المرء. كنَّا نجلس لنحو ساعةٍ أثناء تناول القهوة نتبادل الحديث بالعربية والإنكليزية، وعندها يكون محمد في أحسن حالاته. كان كسولًا نوعًا ما فيما يتعلَّق بالأعمال الحركية، لكنه يحبُّ تشغيل عقله، وفي الحقيقة كانت إنكليزيته تتحسَّن سريعًا بالمقارنة مع لغتي العربية.

وبينما ازدادت المفردات التي يُتقِنها، صار فخورًا بلغته الإنكليزية، وإن دأب بطريقة عفويَّة وبريئة على استخدام جُمَلٍ ومفردات غير لائقة، تَعلَّمها من الجنود الأميركيين أثناء عمله في القاعدة. أُصِبتُ بالهلع عند استخدامه لتلك المفردات أول مرة، وشرحتُ له أنّ الرجل المهذَّب لا ينبغي قول هذه الأشياء أمام سيدةٍ، وأن مَن

يتحدَّثون اللغة من الأجانب سيحكمون عليه من خلال استخدامه لهذه المفردات. في البدء أصرَّ محمد على كوني مُخطِئة؛ لأن الجنود في القاعدة يستخدمون هذه المفردات طوال الوقت! فقلتُ له ربما مع بعضهم البعض، لكن ليس عند مُخاطَبة النساء. رأيت أن محمدًا لم يصدِّقني في هذا الشأن، لكنني عانَيتُ طويلًا لأجعله يتوقَّف عن استخدام هذه الكلمات، على الأقل في بيتي... وأتوقَّع أن جيله من الليبيين في طرابلس الذين تعلَّموا لغتهم من الجنود، سيُحدِثون نوعًا من الصَّدمة لدى سامعيهم إن سافروا إلى الخارج.

حينما انتقلنا إلى الفيلّا الصغيرة في جورجمبوبلي، كنَّا نوعًا ما في الريف، ومُحاطين بالمزارع وأشجار الزيتون، لكن لم يَمضِ وقتٌ طويل حتى أُفرِغَت الأرض من أشجارها، وقُسِّمَت إلى قطع أراضٍ، وسرعان ما أصبحنا مُحاطين بفيلّات مبنية بالحجر الأبيض، المملوكة لإيطاليين ولعرب، والتي يتم تأجيرها لضبَّاطٍ أميركيين من القاعدة الجوية.

في نهاية فترة السنة المقرَّرة لنا للعمل في ليبيا، وحينما طلَبَت الحكومة من مُنظَّمة الفاو تمديد فترة عمل هاري في ليبيا، كنتُ سعيدة لأننا كنَّا مستقرين في جورجمبوبلي، وباعتبار أقدميَّتي في المكان وجدتُ نفسي بين الجيران في موقع المرأة التي تعرف كل شيء، أو هكذا اعتقدوا! فبعد سنين من العيش في الخارج صرتُ شبه مُعتَمِدة على نفسي لحلِّ القضايا المتعلِّقة بي، حيث تعلَّمتُ من هاري أن كل قرار يتَّخذه المرء قد يكون: (أ) صحيحًا، أو (ب) خاطئًا، وأن الاثنين غالبًا ما يكونان قريبَيْن من بعضهما، وفي جميع الأحوال، فأيُّ قرار يُتَّخذُ خيرٌ من لا قرار على الإطلاق!

سرعان ما بدأت جاراتي الجديدات يأتين إليَّ لطلب النصيحة حول أسلوب الحياة في ليبيا. هل يمكنهن ارتداء الشورت هنا في جورجمبوبلي؟ كلَّا، أخبرتُهنَّ! ورغم ذلك كُنَّ يرتدينه. هل يمكنهن ارتداء البكيني للسباحة؟ نعم، ولكن فقط إن كانت السباحة في الشاطئ الخاص الواقع داخل حدود القاعدة. هل الليبيون شعبٌ

نظيف؟ وإجابتي أن هؤلاء الذين عرفتهم يحرصون على النظافة. هل تناول السَّلطة الخضراء آمِن؟ كلَّا، ولكنني أتناولها. هل تركُ أطفالٍ مع صبيٍّ بيتي الليبي لرعايتهم آمن؟ أردُّ بأنه من الأفضل معرفة هذا الشاب أوَّلًا. هل التَّجوُّل في المدينة القديمة آمِنٌ؟ لا يوجد مكانٌ أفضل أمنًا منها. وأخيرًا، أين أعتقد أن مصطفى عامل البيت عندهم اختفى طوال شهرين (ألاحظ أنه موسم حصاد الحَلْفاء!) وقال إنه يؤدِّي الخدمة العسكرية (لا توجد خدمة إجبارية في ليبيا!).

جاراتي كُنَّ يحسدنني على محمد، وخدمته لي بإخلاص طوال ستة أشهر؛ لأن صِبيَة المنازل لا يستمرُّون عندهنَّ أكثر من أسبوعين. لكن ما لم يعرفنه أنه طوال هذه الشهور الستة من الخدمة بإخلاص، ففي الواقع لم أحصل بالمقابل إلَّا على نحو أسبوعين من العمل الفِعليِّ. كذلك حَسَدنني على مقدرة محمد على الحديث بالإنكليزية؛ وبالتالي الاستفادة منه كمترجم. ولأن أعمال الترجمة هي الأكثر تفضيلًا عنده من أداء الواجبات البيتية، فلم تكن هذه الأعمال في بيتي تتمُّ حتى ينقل محمد تعليمات جاراتي بالعربية إلى صبيانِهنَّ الأقل مَوهِبَة. بالطبيعة كانت هناك مكافآت عينيَّة تُقدَّم لمحمد من أصدقائي الذين كانوا يوظِّفونه في القاعدة، وتحديدًا الحصول على السجائر غير الخاضعة للجمرك، لكن لسوء الحظ فنحن في الأمم المتحدة لا نتمتَّع بهذه الامتيازات.

حينما جاء هاري إلى ليبيا أحضر معه حقيبةَ مُعدَّاتِ خدمةٍ وإصلاح مُناسِبة، وسُرَّ محمد عند اكتشافه لها، وهكذا لم يتأخَّر عن استخدامها. لم يَمضِ وقت طويل حتى أعطبَ محمد كلَّ الأدوات في الحقيبة بسبب سوء الاستعمال؛ لأنه يستخدم القوة المفرطة عند قيامه بأبسط أعمال الصيانات. والآن صار الطرف المستدق للمطرقة كليلًا، وكذلك الأمر بالنسبة للمفكَّات والسكاكين، أما المنشار فبِهِ أسنان مكسورة، والمثقاب لا يَثقُب. وهو يستخدم المسامير الغليظة حيث تكون الصغيرة أكثر مُلاءَمةً، ويستخدم المسامير بدلًا من البراغي.

انعدام المقدرة هذا في استخدام أدوات العمل أمرٌ ملحوظ في كامل الجوار مع كل خَدَمِ المنازل الليبيين، وأُقدِّر أنه يندرجُ على كافة مناحي الحياة الليبية. وسمعت أن الميكانيكيين الليبيين غالبًا ما يُدمِّرون مُحرِّكات السيارات التي تصل إليها أيديهم، وأن الكثيرين من السائقين الليبيين هم مشروعُ موتٍ مُحقَّق. لكن أحمد كان استثناءً بينهم؛ لأنه سائق ماهر. بالنسبة للشباب من أمثال محمد، وكذلك أسلافهم، يمكن للمرء أن يتبيَّن أن لديهم الإمكانية، لكنهم لم يحصلوا على الفرصة المناسبة لوضعها موضع التنفيذ. وغريزيًّا يرون أن عليهم استخدام قوتهم البدنية القصوى عند استخدام آلات دقيقة.

في العموم لا يملك العاملُ الليبي حِسَّ التدبير وإدارة الأمور، حيث لا يوجد لديهم أصلًا إلَّا القليل لتدبيره. وحينما حدث عطبٌ لمقصٍّ لي، طلبتُ من محمد أخذه إلى المدينة لإصلاحه، أجاب بأنه لا يعرف أيَّ أحد يمكنه إصلاحه، وأنه من الأفضل أن أتخلَّص منه! لكنني رفضت، وأمَرتُه بأخذه إلى المكان الذي يحمل إليه مقصَّه عادةً لإصلاحه. فأجاب: «لو حدث عطبٌ لمقصِّي سأرميه بعيدًا»! وتوقَّعتُ أنه سيفعل ذلك لو امتلك مقصًّا، لكنه على الأغلب لم يمتلك واحدًا قَطُّ.

بالرغم من ذلك، فقد كانت حقيبة الصيانة خاصتنا مصدر سرورٍ لمحمد، بالرغم من الضرر الذي لحق بها؛ لأنها وفَّرَت له الفرصة لإعارة بعض أدواتها للآخرين. وإذا ما نبَّهتُه أنه يمكن للآخرين أن يبتاعوا هم أيضًا هذه الأدوات من طرابلس، فإنه يرمقني بنظرة عتاب لأنانيَّتي، لأكتشف مرَّةً أخرى أن الليبيَّ لا يحوز سوى حقوقٍ قليلة على أيِّ شيء يملكه، وأنه إذا ما طلَبَ منه أيُّ صديق شيئًا ما فهو مُلزَم بإعطائه إيَّاه أو إعارته له. وكمثال على ذلك: صبيٌّ ما يشتري درَّاجةً هوائية، ويستعيرها صديقٌ له فيُلحِق بها الضرر، وعندئذ يقول الصديق «إنها إرادة الله»! وهذه أول قاعدة في حياة الليبيين: ما هو ملكك، هو أيضا ملكٌ لعائلتك، ولأصدقائك.

أكتشفُ أن «ابني محمد»، الذي غيَّر كُنيَتي من مسز إلى أمِّي... لم يتنقَّل خارج طرابلس حيث وُلِدَ في سوق الجمعة الواقع في

ضواحي المدينة. وكذلك فهو أقلّ معرفةً وإلمامًا بوضع فزَّان وأغلب أهلها من الزنوج، وبالولايات المتحدة التي يزوِّده جنودها بالسجائر وسراويل الجينز. أمَّا برقة التي لم يستسلم ساكنوها من البدو بالكامل للمستعمر الإيطالي، فهي أكثر غرابة عنده وأكثر بُعدًا من إنكلترا التي يسمع عنها من جنودها الذين ينقلونه أحيانًا في سياراتهم الجيب. في الواقع ترتسمُ في ذهنه صورة أكثر وضوحًا للولايات المتحدة أكثر ممَّا ترتسم عن الصحراء القريبة منه. وهذه الحالة تنطبق على أغلب الليبيين، وهي من أعراضِ وسِماتِ المقاطعات الثلاثة التي جُمِعَت معًا بالقوة لتُشكِّل دولة ليبيا المستقلة؛ فطرابلس تزدري برقة، وبرقة لا تَثِق في طرابلس، وكلاهما يزدريان فزَّان، أو هكذا بدا لي الأمرُ حينذاك.

6. إخوة

كان المطار الصغير يفيض بالصَّخب تحت سماء منتصف الليل الإفريقية المدهشة. يقع مهبط الطائرات في الحد الأبعد من المساحات المزروعة خارج طرابلس، وإلى الجنوب من ذلك هناك مساحات هائلة من الأراضي التي تُتاخِم المنطقة الصحراوية، أمَّا السماوات في جوِّ الليل هنا فمُرصَّعةٌ بالنجوم المتلألئة المعلَّقة من أعماق مُغرقةٍ في الزُّرقة، وتختلط بتشويشٍ مُريب مع أضواء الطائرات القادمة. هذا المكان هو الأفضل مُطلَقًا لمراقبة أجواء الليل. ومع ذلك حينما برَزَت أخيرًا الأضواء الحمراء والخضراء للطائرة القادمة من لندن وفرَزَت نفسها عن أضواء النجوم، ثم استقرَّت برفقٍ على مدرج المطار؛ تنفَّستُ الصعداء؛ فها هو قد حطَّ على الأرض من جديد.

نزل الركاب من الطائرة، وتحرّكوا عبر المطار، لكنني لا أراه بعدُ.

«هو غير موجود يا هاري! يبدو أنه قد فوَّت الطائرة!».

«بالطَّبع موجودٌ هنا، إني أراه الآن، وهو يضع معطفه فوق كتفه».

«جورج؟ هل هو ذاك الرجل! لكنه ازداد طولًا!».

حينذاك رآنا جورج، فهزَّ رأسه ولوَّح لنا بيده. وجهه الطفولي المدوَّر استبُدِلَ الآن بوجه رفيعٍ، أكثر رُشدًا ونضوجًا. لكن بينما اقترب أكثر من الحاجز، لاحظتُ أن عينيه الرماديتين المائلتين إلى الزُّرقَة ما زالتا بلونهما السابق، وأن جلده البُنِّيَّ الفاتح لا يزال ناعمًا ولطيفًا.

الأبناء مخلوقات موارِبة، فهم لا يبقون على وضعٍ ثابت في أيِّ مرحلة زمنية، والأطوار القديمة من أشكالهم تختفي باستمرار، بينما تحلُّ أطوارٌ جديدة بدلًا عنها. وفي كل مرة يودِّع فيها المرء ابنًا له، فإنه يودِّع طورًا ما إلى الأبد؛ لأنه حينما يقابله مرَّةً أخرى سيرى أن

ابنًا جديدًا قد وُلد. أعرفُ أن هذه حقيقة مؤكّدة، لكنها ما زالت تصدمني.

حتى عند البالغين هناك عجبٌ محدود يحيط مسألة تَجدُّد الميلاد والقناعات عند الناس؛ ما يجعل من المستحسن عدم حمل الضغائن؛ لأن ما قد يفعله المرء عن قناعة اليومَ، قد لا يفعله في الغد. وهذه الليلة، ما أراه أمامي الآن هو نسخة جديدة من جورج.

في صباح اليوم التالي وجدتُ أن سِمةً مُعيَّنة في جورج لم تتبدَّل، فما زال يحب الاستلقاء في الفراش والنوم.

في معرض لهفته لرؤية جورج، وصل محمد إلى بيتنا باكرًا على غير العادة، فقلتُ له: «دعه ينام؛ فقد سهرنا حتى وقت متأخِّرٍ ليلةَ البارحة». وهكذا أخذ يمشي على رؤوس أصابعه في أنحاء البيت، مع أن حذاءه يُحدِث صريرًا، فسألته: «لماذا لا تمشي حافيًا في البيت كما تفعل دائمًا؟».

نظر نحوي ببلاهة، وقال: «لكن جورج يرتدي حذاءه».

«بالتأكيد حينما يتنقَّل من مكان لآخر، لكن في البيت يبقى حافيًا».

«هل يرتدي جورج الجينز؟».

«لستُ متأكِّدة، لكن أعتقد أن مدرسته في كندا لا تسمح بارتدائه. لكنه جلب معه بدلة كاكي خفيفة».

«هل هو متزوِّج؟».

«بالتأكيد لا! فلا يمكنه إعالة زوجة!»، وبدا لي أنه يتدبَّر هذا الأمر.

بعد فترة سمعتُ محمَّدًا وجورج يتبادلان الحديث، من الواضح أنهما لا يواجهان مشكلة في التفاهم. وسرعان ما وصلتني قهقهةُ محمد المَرِحة وضحكة جورج المكتومة المعتادة. خمَّنتُ أن محمَّدًا يجلس الآن على طرف السرير، وأن جورج لا بُدَّ وأنه يروي له إحدى

حكاياته المثيرة، سواء كانت حقيقة أم خيالًا. وبعد برهة مرَّ محمد أمام باب غرفتي المفتوح وأخبرني: «سآخذ القهوة إلى جورج».

«في الفِراش؟».

«يُفضِّل تناولها في الفراش. جورج فتى لطيف!» ورأيتُ كوبَيْ قهوة في السُّفرة.

هناك خَصلةٌ في جورج يمكنني الاعتماد عليها، فهو ليس متكبِّرًا ولا يحمل تعصُّبًا، فمحمد هو محمد، وبالنسبة لي يمكنني أن أكون أمًّا لكليهما دون شعور بالغُبن. الوقت يقارب منتصف النهار، وهذا يوم عملٍ ضاع هباءً، ولكن آمل أنه حقَّق كسبًا في نواحٍ أخرى.

بعد لحظات سمعت لَوالِبَ الفِراش تُصدِر صريرًا حادًّا؛ وهو ما يعني أن جورج ينطُّ فوق الفِراش، ثم، «أمّي، هل لدى أبي شورت سباحة؟».

«نعم، ذاك الشورت الملوَّن في قاع الدرج السُّفلي لخزانة غرفتك. ألم تحضر واحدًا معك؟».

«سأعير الشورت خاصَّتي لمحمد، سيرافقني للسباحة في الشاطئ، حيث يسبح عادة». وهذه المرة سار محمد على أطراف أصابعه وهو يمرُّ أمام باب غرفتي!

«احرِصْ على الرجوع عند الثانية ظُهرًا؛ لتكون هنا عند عودة أبيك. وتوخَّ الحذر! فالسباحة هنا خطيرة جدًّا. وإذا ما ذهبتَ مع محمد إلى الخليج الصغير عند الكيلو خمسة، فلا تتخطَّ الحاجز البحري».

«أمي، أنا سبَّاح قويٌّ الآن!».

«هؤلاء بالضبط السَّبَّاحون الذين يغرقون!».

رأيتُ أنه لن يكون بمقدوري تجنُّب نُصح جورج، حيث أتخيَّله إمَّا غريقًا، أو يتعرَّض لحادث ما، أو يحترق في تحطُّم طائرة... كل هذه

النهايات التي يمكن لـ «مشيئة الله» فقط أن تنجيه منها؛ ولهذا أعمل على الدوام على محاولات تجنيبه هذه النهايات.

عادا إلى البيت في النهاية، لكن متأخِّرًا. كانا مُبلَّلَيْن، يضحكان، ويُلوِّثان أنحاء البيت بالماء والرمال. وقبل أن يغادر محمد عائدًا إلى بيته في العَشيَّة أسرَّ لي: «جورج سبَّاحٌ ماهر». وعرفت أن جورج لا بُدَّ وأنه استعرض مهارته وسبح إلى ما بعد الحاجز.

«هل التقى ببعض أصدقائك؟».

«نعم، وقلت لهم: هذا أخي!» قال بفخر، ولم أسأل عن التفاصيل، وإن تعجَّبتُ للأمر.

سألتُ جورج لاحقًا: «حينما قال محمد إنك أخوه، ماذا قال الأولاد؟».

«حسنًا، نظروا إليَّ وقالوا أنت شديد البياض، أليس كذلك؟» فأخبرتهم: «بالطبع، فقد كنتُ أعيش في إنكلترا، حيث لا تظهر الشمس كثيرًا، وأنا أرتاد جامعة أوكسفورد هناك بعد حصولي على منحة دراسية!».

ضحكتُ لما اعتبرته مَزحةً حول مسألة المنحة الدراسية، وقلت: «هذا من خيالك!»، وتجاهل جورج تعليقي بوقار.

«كيف وجدتَ مُحمَّدًا؟».

«جيِّد، فهو ولدٌ رائع، هل تعرفين أنه سيتزوَّج قريبًا؟ هو غير موافق، لكنْ أُمُّه تريده أن ينجب أطفالًا».

«محمدٌ في مثل عمرك، ولا يملك شيئًا! فكيف سيتزوَّج؟».

«يقول إنه مرغمٌ على ذلك، وأن عليه الانصياع لما تأمر به أمُّه! فهذه هي الثقافة الليبية، يا أُمَّاه، حيثُ كبار السِّنّ يأمرون الأصغر بما يجب أن يفعلوا».

«لا تشبهُ ثقافتنا في شيء، أليس كذلك؟ أعني الانصياع لما تأمُركَ به أُمُّكَ؟».

ضحك جورج، «في الغرب، يتعيَّن على المرء أن يحافظ على استقلاليَّته!».

«ماذا تريد أن تفعل غدًا؟ فكَّرنا أن نذهب في عطلة نهاية الأسبوع إلى الآثار الرومانية في صبراتة».

«حسنًا يا أمي، طالما لا نذهب إلى الكاتدرائية، فقد سَئِمتُ الذهاب إليها في لندن وباريس!».

«صبراتة مختلفة تمامًا؛ فهي المدينة الأثرية الأجمل والأكثر جاذبية التي أعرفها، وهناك حوض سباحة رائع هناك. سنذهب في اللاند روڤر، ونأخذ معنا سندوتشات، ونستمتع بالنهار».

«ونأخذ محمَّدا؟».

«نعم».

«هذا في السبت، لكن غدًا سيصحبني محمد لمشاهدة فيلم عربي مصري».

«ومَن سيقوم لي بالعمل البيتيِّ غدًا؟».

«البيت يبدو لي رائعًا، ولا يحتاج شيئًا!».

«تمامًا؛ لأنني قُمتُ بترتيبه اليوم!».

«سنذهب في العشية بعد انتهاء محمد من عمله».

«حسنًا، سأنقلكما إلى المدينة».

«لا، محمد يقول سنستقل الحافلة. بالمناسبة، هل تعرفين أنه سيشتري درَّاجةً يركبها إلى هنا؟».

«طبعًا أعرف، فكلُّ صَبيٍّ منزلٍ في جورجمبوبلي يريد شراء دراجة، وكل صاحب منزل مطلوب منه دفع رواتب مُقدَّمًا لثمن الدراجة؛ ومن ثمَّ تتعطَّل الدراجة قبل الانتهاء من دفع ثمنها. لا تُشجِّع محمَّدًا على هذا الأمر».

«يقول إنه يستطيع القدوم إلى العمل أسرعَ بالدَّرَّاجة».

«لا أريده أن يأتي أسرع أو متأخِّرًا. كل ما أريده هو رؤيته أحيانًا، لبعض الوقت!».

وجَّه لي نظرة لوم، وقال: «أتعرفين يا أمَّاه أن مُحمَّدًا مُعجَبٌ بك كثيرًا!».

«حسنًا، لكن لا للدَّرَّاجة».

وهكذا ذهبنا إلى صبراتة، ومن بين كل المواقع فهي المُفضَّلة عندي؛ بسبب ما تضمُّه من آثار مُجسَّدة وبديعة، ولا يوجد مكان آخر في هذا العالم يعادلها روعةً؛ بسبب شمسها الإفريقية الساخنة، وسمائها الصافية داكِنَة الزُّرقة، وبحرها الأزرق. وفي خلفية الآثار هناك أحجار الكلس المُذهَّبة، وهي روائع من قرونٍ خَلَت! دائمًا ما أتركُ المناطق الأثرية بعد زيارتي لها بقدمَيْن مُقرِّحتَيْن، ورأسٍ مَصدوع، وظهرٍ موجوع، بالإضافة ربما إلى ابتهاجٍ روحيٍّ وصدمةٍ ناتجة عن إحساسي بوطأة التاريخ، لكن من النادر جدًّا أن يعمل ابتهاجي العاطفي على محو آلام جسمي نتيجة زيارة الآثار، كما تفعل معي صبراتة الأثرية.

منذ ألف عامٍ كانت هذه مدينةً رومانيَّةً مشهورة، وقبل ذلك كانت مكانَ تَبادُلٍ تجاري للفينيقيين. مع ذلك، نجد أن المتحف هذه الأيام لا يزال محتفظًا بأحد أجمل تشكيلات فُسَيفساء جُستنيان في العالم. وفي الموقع نفسه هناك العديد من أعمدة المعبد البيض وتماثيل رومانية من الرخام الأبيض التي تحدِّد شكل المدينة الأثرية، وتبيِّن موهبة سُكَّانها القدامى في فنِّ النحت، وكذلك هناك بقايا آثار المسرح الروماني العظيم الذي يقف شامخًا بلونٍ ذهبيٍّ على خلفية سماء إفريقية. هذه حقائق أركيولوچية ذات أهمية تاريخية، لكنها لا يمكن أن تَحجب أو تنافس الجمال المثير لهذه المدينة الهادئة.

نَقودُ السيارة عبر طريق محاطٍ بأشجار السَّرو داكنة الخُضرة، ونقترب من أعمدة ذهبيَّةٍ من الحجر الرملي التي رأيناها من مسافة على خلفية السماء. ونسمعُ صوت الأمواج الرغوية تتكسَّر فوق ما

كانت في الماضي شواطئ رومانية، حيث تمنح الرمال الصفراء دفئها لشِباك الصيادين المحلِّيِّين المنتشرة، ولمخاطيفهم المعدنية في تنَّاراتهم المنصوبة لأسماك التُّن. كانت رائحة الملح وأعشاب البحر، والأسماك المتعفِّنة ظاهرة بقوة في الجوِّ، وكل الحيوية محيطة بنا وكأن المدينة الأثرية ما زالت تعجُّ ببشر أحياء. ربما هي كذلك، فالمدينة العتيقة تتخلَّى تمامًا عن أي روح شريرة لساكنيها القدامى، والأرواح أكثر سعادة الآن تحت هذه الشمس الإفريقية. فلن تموت مدينةٌ أبدًا، بينما شواطئها تُلامِسُ بحرًا مركزيًّا يربطها بشواطئ أخرى تنبض بالحياة.

اليوم رأينا العائلات تتنزَّه على شواطئ صبراتة، وبدت مُحاطةً بجوٍّ من المرح، وهناك أزواجٌ من الإيطاليين الضاحكين يتنقَّلون بين التماثيل الرومانية ويلصقون رؤوسهم الحَيَّة إلى تماثيل بلا رؤوس لغرض التقاط الصور. في الأثناء هناك في الميدان الأثري شباب يرقصون بهياج على أنغام الهارمونيكا الإيطالية تحت العيون غير المبصرة للتماثيل الرومانية، وفي مكانٍ عالٍ من المسرح الأثري هناك أزواجٌ من التماثيل ملتصقة ببعضها في محبَّةٍ بشكل لا يُعدُّ غريبًا عن زمننا الراهن، وفي جلالٍ تام لا تعيرُ بالًا لصبراتة، حيث تؤطِّر الأقواسُ المذهَّبةُ للمسرح الأثري مشهدَ البحر اللازوردي.

بالنسبة لمحمد وجورج اللَّذَيْن لم يسبق لهما رؤية المكان، فقد كان المشهد بالغ الروعة، وأكثر إمتاعًا ممَّا تَوقَّعَا، وكنت قد سمعت جورج يخبر محمَّدًا قبل وصولنا إلى المكان أن الآثار يُفترض أن تكون تثقيفيَّةً، وأنهما يجب أن يزروا الآثار حتى وإن خَلَت من المتعة. وعلى العموم، فقد وعَدَتهما الأمُّ بالسباحة قليلًا!

الآن، بعد أن وصلنا إلى وسط الآثار ونقوم بالاستمتاع برؤيتها، رأيت أن محمَّدًا تملَّكه شعورٌ بمِلكيَّة المكان؛ باعتبار أن الآثار ليبية، فقاد عملية السباق إلى أعلى المقاعد الحجرية، وعودة إلى المسرح، ثم خلف كل تمثال، وإلى منطقة تنقيبٍ قريبة، وقام بذلك بمرونة شبابية، وأثناء ذلك صرَّح بمعلومات مغلوطة.

«هل ترى هذا المعبد يا جورج؟ إنه قديم للغاية، ربما عمره مائة عام!».

«بل أقرب لأن تكون ألفًا وتسعمائة عام يا محمد!» قال هاري.

«نعم ربما. وذلك البيت الضخم هناك، هو قديمٌ أيضًا؟».

«نعم، ذلك البيت الضخم هي كنيسة جُستنيان، وربما عمره ألف وثلاثمائة عام، والفسيفساء التي في المتحف أُخِذَت منها».

«نعم، نعم، إنها الفسيفساء نفسها الموجودة في مسجد القرمانلي في طرابلس».

«ليس تمامًا. فسيفساء صبراتة وُضِعَت قبل بناء مسجد القرمانلي بألف ومئة عام!».

«نعم، ربما...».

هناك آخرون -بالإضافة إلى جورج ومحمد- يركضون بخفَّة بين الأعمدة بمرونة تامَّة، وهؤلاء هم البائعون المتجوِّلون بصورة غير شرعية، الذين يبيعون الأثريَّات المُهرَّبة، وهم شباب ليبيُّون يتمتَّعون بجرأة، وحُفاة يرتدون ثيابًا قديمة، قد قضوا وقتًا يجرِّفون الرمال بحثًا عن أشياء قديمة يمكن بيعها. وهم مُطارَدون دائمًا -بلا هوادة- بواسطة حُرَّاس المدينة الأثرية الأقل رشاقةً منهم. هؤلاء الشُّبَّان لا يكفُّون أبدًا عن مطاردة الزُّوَّار ومحاولة بيعهم عملات رومانية أثرية، وأجزاء محطَّمة ممَّا يُظَنُّ أنها أواني طبخ رومانية، وبعض قطع الفسيفساء. خاضوا نقاشًا محمومًا مع جورج ومحمد، اللَّذَيْن أرادا شراء بعض القطع، ثم اختفوا بسرعة البرق بعد اقتراب الحُرَّاس منهم، ليظهروا من جديد مع كل توقُّفٍ لنا، ولاحقونا طوال المسافة حتى تَمَّ عَقدُ صفقة معهم.

مرَّت صبراتة بحَيَواتٍ عِدَّة، وكذلك بميتات عدَّة، فقد بُنِيَت أول مرَّة بواسطة الفينيقيِّين، ثم دمَّرها النوميديُّون، وأخيرًا بُنِيَت بواسطة الرومان لتصبح واحدة من المراكز الثلاث: صبراتة، ولبدة الكبرى، وأويا (التي هي طرابلس الآن)؛ وذلك من أجل تجارة الذهب والعاج،

والعبيد، الذين يُجلبون إلى الساحل بواسطة القوافل من بحيرة تشاد. مع الوقت تمَّ تدميرها من قِبل الوندال، ثم أعاد البيزنطيون بناءها، لتُدمَّر بشكل كبير وتُحوَّل إلى قلعة بواسطة العرب، ثم تُهمَل وتُترك لتنهار وتنزف حتى الموت بواسطة الأتراك، ومرة أخرى يُعاد اكتشافها، وترميمها جزئيًّا، بواسطة الإيطاليين في القرن الحالي.

ماري نوستروم، أو البحر المتوسط، محاطٌ بعدد من المدن الأثرية العظيمة وبحضاراتٍ سادت ثم بادت، لكن مَقدِرتها الصُّلبة على التشبُّث بالحياة والحب لا تزال باقية. اليوم تنتظر صبراتة لمسةً حيويَّةً لكي تعود إلى الحياة من جديد. والسِّرُّ لا يكمن في النفط، ولا المال، ولا بالهدايا، أو بتقديم النصيحة، ولا خبراء أجانب يبذلون الجهد والعرق، ولا تحتاج لعبد الناصر، أو للجامعة العربية، وإنما هي بحاجة إلى الجهد البشري. ما جعل روما عظيمة هم الرومان أنفسهم، وكذلك الليبيون وحدهم بإمكانهم استعادة عَظَمة ليبيا.

«نعم!» يصيح جورج بزهوٍ، بينما نحن نتناول شطائرنا جالسين فوق صخرةٍ أثرية تُطِلُّ على البحر، «بالتأكيد؛ فهذه العملات رومانية! هل تعتقدين أن هؤلاء الأولاد عثروا عليها فعلًا في هذا الموقع؟».

«ولِمَ لا؟ صبراتة موقعٌ رومانيٌّ مُؤكّد، وموقعٌ فينيقيٌّ قبل ذلك، فماذا لديك يا محمد؟» قال هاري.

ويعرض عليه محمد شظايا ما قد يكون مصباحَ زيتٍ فخّاريًا صغيرًا. «هذا رومانيٌّ أيضًا!» قال مفتخرًا.

«في الغالب هو يوناني، وكم شفطوا منك من النقود؟».

«دفعت عشرة قروش».

ضحك هاري وهزَّ رأسه، «أنتما تستثمران بالفعل، وهذه التجارة غير شرعية؛ فلا حقَّ لهؤلاء الأولاد في جمع الأشياء من الموقع وبيعها، وكل شيء هناك ملكٌ للدولة الليبية، أي دولتك يا محمد!».

«في هذه الحالة، لا بأس. لقد أخذت مصباحي» كان ردَّ محمد المنطقي.

«عمليات التنقيب لا تزال تجري في صبراتة كما ترون من عربات النقل الصغيرة تلك، ولستُ متأكِّدًا إن هم يغربلون الرمال في الموقع، أو ينقلونها للغربلة في مكانٍ آخر».

ينطلق نقاشٌ مُطوَّل، ويمكنني رؤية أن الولدين منبهران بما يُمثِّله المكان من بُعدٍ تاريخي وأثريٍّ. وكالعادة، لا أفعل أكثر من الجلوس والاستمتاع بالرمال الذهبية الدافئة، وبالأعمدة التي بلون النحاس على خلفية سماءٍ فضِّيَّة، وخلفيَّة تَحطُّم قِمَم الأمواج البيضاء فوق بحرٍ فضِّيٍّ.

طوال الصيف استمتعتُ بمراقبةٍ موارَبةٍ للولدَيْن المراهِقَيْن، وهما يكتشفان الكثير من المشتركات في حياتهما اللَّتَيْن هما في الواقع مختلفتان كثيرًا. كلاهما عاش في منطقة المستحيل لأحلامهما الكبيرة، محمدٌ بطموحاته الكثيرة التي ربما لن تتحقَّق أبدًا، وجورج بأحلامه الكبيرة التي ربما تكون هي الأخرى بعيدةٌ عن الواقع، فما هي هذه الظروف الغريبة التي ستربطهما في النهاية بالأرض؟ وما هي ضرورات الحياة التي ستفتح عيونهما في الوقت المناسب؟ من

المؤسف التفكير في هذه الأمور، لكن في النهاية أعتقد أنه لا بُدَّ من مواءمة الحياة مع حقائق الواقع.

كان لزيارة صبراتة تبعاتٌ لاحِقَة، فبعد عامَيْن حينما كان جورج يمضي الصيف معنا في بنغازي، التقى بالشاب الذي باع له العُملَة في صبراتة واسمه عليٌّ، وكان يعمل مُلمِّعَ أحذيةٍ، عادة ما يجلس أمام مطعم ڤيينا. التقى معه جورج عدَّة مرات خلال ذلك الصيف وتبادَلَا الأحاديث، وقال عليٌّ إنه يعرف سيارتنا الفوكسول الحمراء، ويتذكَّر وجهي كذلك.

في السنة التالية انتقلنا مُجدَّدًا إلى طرابلس. أوقفتُ سيارتي في المدينة ذات يوم لأجد الفتى نفسه، وقد صار الآن رجُلًا فتيًّا، كان يركض ورائي في الشارع، وسألني: «أين جورج الآن؟».

أخبرته بأنه يرتاد الجامعة في كندا، فهزَّ رأسه موافقًا وقال: «ممتاز، جورج صديقي، وأنا أحبُّه». وعرفتُ أنه قد حصل على عمل جيِّد، في شركة مهمَّة، لها علاقة بحفر آبار النفط.

بعد أيام، ركنتُ سيارتي في المكان ذاته، فهرع عليٌّ نحوي. وضع في يدي قصاصة ورق ملفوفة وقال بنبرة جادَّة: «إليكِ بعض العملات الرومانية من أجل جورج؛ فهو مُعجَبٌ بها، أرجوك أن تبعثيها له هديَّةً مني».

7. آثار في الشمس

في هذا الوقت بدأ جورج يصبح مهووسًا بالغطس واكتشاف عالم ما تحت الماء. وفي تلك الأيام كان نادي الغوص في طرابلس اسمًا على مسمًّى، ولا ينضمُّ إليه سوى القِلَّة الذين يرغبون في استكشاف البحر بسبب احتواء شاطئه على صخور عالية تبرز مباشرة من الماء، وانعدام وجود مكان للسباحة لم يشجِّع حضور الأطفال إليه.

مالك النادي الأنيق ومديره هو «سيمون»، الضابط السابق في الحرس الملكي البريطاني، بدا لي أنه ينتمي إلى الأيام الخوالي، حيث يتعيَّن على كل ضابطٍ أن يكون أوَّلًا وقبل كل شيء «چنتلمان» ويتصرَّف وفقًا لذلك. يشعر المرء في هذا المكان أنه حافظ على نظام النادي لأجل الاستمتاع به من قِبله ومن الآخرين، وأن يكون مكانًا للمرح، وتناول الشراب، والثرثرة، والهروب من مشاغل الحياة. وعلى رأس ذلك هو مكانٌ للغوص الذي يُتقِنه بشكلٍ جيِّد. المنظر المألوف الآن هو لسيمون وجورج، وكلاهما قد لوَّح جِسمَه البحرُ وأشِعَّة الشمس، وكلاهما رفيع الجسم، طويل القامة وهما يقطران بالماء ويرتجفان، بعد خروجهما من البحر، وعلى وجهيهما ترتسم نظرة بعيدة لرَجُلَيْن أتَيَا للتَّوِّ من عالَمٍ آخر.

كان جورج مفتونًا بأعماق البحر، ولم يُبدِ حماسة لزيارة المناطق الأثرية، لكن أنا وهاري أردنا أن يرى شيئًا آخر، بالإضافة إلى أماكن الجذب السياحي في طرابلس؛ فخطَّطنا للسفر إلى بَرقة وزيارة شحَّات المدينة الإغريقية الأثرية أعلى الجبل؛ وعليه سافرنا شرقًا على طول الطريق الساحلي المجاور للبحر حتى وصلنا سِرْت وتبعد نحو 460 كيلومترًا شرق طرابلس. هذه المدينة كانت معروفةً حينذاك بأنها نقطة الانطلاق إلى الصحراء؛ لأنها تمثِّل المكان حيث تجيء الصحراء إلى شاطئ البحر المتوسط. وهنا في خليج سرت ثَمَّة لوحة خشبية منصوبة على حاشية الطريق وتشير إلى جهة الجنوب، مكتوب عليها

بكل بساطة «إلى الصحراء». هناك شيءٌ ما يتعلّق بهذه العلامة الصغيرة لا يُنسى أبدًا، وبالأخصِّ لمن يبحث عن الطريق جنوبًا إلى الصحراء، ولا يجد سوى بعض آثار دواليب السيارات المتلاشية في الرمال.

أمضينا الليلة في سِرت، في نُزلٍ خالٍ من البراغيث (وهي حقيقةٌ لا بُدَّ من ذِكرها)، وتناولنا السباغيتي في مطعم قريب، كانت عائلةٌ إيطالية قد اشتهرت طوال سنين بتقديم الوجبات للمسافرين من كل عِرقٍ ودين. وتنبغي ملاحظة أنه بعد خمس سنين ومع اكتشاف النفط في ليبيا، كان على المسافر أن يحجز غرفةً قبلها بأسابيع في هذا النُّزُل الصغير. كما آمل أن المطبخ الذي يقدِّم السباغيتي قد جمع ثروةً من هذه الخدمة.

هذا الساحل بالإضافة إلى صحراء ليبيا كانا مسرحًا لكَرٍّ وفَرٍّ بواسطة قوات الحلفاء والمحور، كما جرى زرعه بالألغام من قِبَل الطرفين. وحتى في هذا الوقت تُعدُّ الرمال خطيرة ومميتة في مناطق عدَّة، فلا يمرُّ أسبوع دون أن يقرأ المرء في الصحف أن أحد الرُّعاة، أو أن طفلًا تائهًا ما قد أصيب جرَّاءَ انفجار قنبلة قديمة.

في الصباح التالي توَجَّهنا إلى اللافتة الوحيدة المشيرة إلى الصحراء، ثم حوَّلنا وجهتنا جنوبًا في سيارتنا اللاند روفر الجديدة، وتتبَّعنا أثر سيارات لعدَّة كيلومترات. أردنا ملاحظة الفارق بين الصحراء ومنطقة ما قبل الصحراء، وهو فارقٌ بدا لذهني البعيد عن الأمور التقنية وكأن منطقة ما قبل الصحراء قد تحوي تنوُّعًا كثيرًا من النباتات الصحراوية، لكن في الصحراء لا يوجد سوى الرمال، والحصى، والأحجار والصخور، أي ليس فيها أيُّ نُموٍّ. أو بالنظر إليها من زاوية أخرى، كما يقول البروفيسور في علوم البيئة إيميبرغر: «الصحراء الحقيقية هي حيث لا يوجد ذبابٌ أو براغيث».

وكذلك فتعبير «بحر الرمال» هو توصيفٌ مناسبٌ تمامًا للصحراء الحقيقية، فبينما ينظر المرء إلى أمواج الرمل المتلألئة، فإنه يصل إلى

قَناعَةٍ مفادها أن وجود الأشجار والنمو في هذا المكان سيكون مساويًا لنُموِّها في البحر.

عُدنا إلى الطريق الساحلي مُجدَّدًا وانطلقنا شرقًا لمسافة مئة وستين كيلومترًا، حتى وقع بصرنا على هذا المشهد المتنافِر الذي يجعلني أحبُّ ليبيا. فهنا، وفي بقعة معزولة تمامًا في وسط رمال الصحراء اللافحة، ينتصب قوسُ حجريٌّ من رخام أبيض بطول ثلاثين مترًا، وتمرُّ من تحته الطريق الوعرة. بُني من قِبل الإيطاليين، ومن مسافات بعيدة يبدو القوس ذهبيًّا تحت أشِعَّة الشمس المشرقة، أو يبدو داكِنَ اللون في الشمس الغاربة، وهو بمثابة رمزٍ عالٍ شديد الوضوح لمن يظنُّون أنه لا يوجد مكانٌ يمكن اعتباره غريبًا أو شاذًّا يَصلُح لأن يُقام فيه نُصبٌ تذكاري للروعة والجمال، حتى بالرغم من أن لا شيء يمكن أن يكون أقلَّ مُلاءَمةً لسَفر يومٍ شاقٍّ.

شُيِّد هذا القوس المصقول في 1937 لإحياء ذكرى الانتهاء من مدِّ الطريق الساحلي الرابط بين طرابلس وبنغازي. روعةُ بنائه، وعدم جدواه فعليًّا، وغير ملاءَمَتِه للمشهد المحيط- يجعل منه محبوبًا للمسافرين، الذين لا ينسون مشهده أبدًا. في العموم، يُنظر إلى القوس كعلامةٍ تقريبيَّة ترسم الحدود بين ولايتَيْ طرابلس وبَرقَة، بالرغم من أن المدخل الفعليَّ لبَرقة عند منطقة العقيلة.

حدثٌ آخر أكثر دراميَّةً يرمزُ إليه القوس، وهو ما جرى في القرن الخامس الميلادي، أي إحياء ذكرى إنجازات الأخوَيْن فيلِّيني، وهما بطلان إغريقيَّان في العَدْوِ، انطلقا من قرطاج التونسية ركضًا نحو الشرق للقاء عدَّائين انطلقوا من برقة نحو الغرب، وكان الاتفاق على أن المكان الذي يلتقي فيه الطرفان سيمثِّل نقطة الحدود الفاصلة بين شرق ليبيا وغربها. التقى الطرفان، ولكن حدث بينهما نقاشٌ حاد، واتَّهم كلُّ طرفٍ الآخرَ بممارسة الغش، فاعترض الإغريق على ذلك، وقالوا إن عَدَّاءَيْ البونيقيِّين انطلَقَا قبل الموعد، وطلبوا إعادة السباق أو أن يقبل الأخَوان بأن يُدفَنا حيَّيْن في المكان الذي وصلا إليه؛ تعبيرًا

عن صدقهما في الانطلاق في الموعد المحدَّد؛ فاختار الأخَوان التضحية والقبول بدفنهما حيَّيْن في ذاك المكان.

وبالرغم من ذلك فالقوس ليس هو مكان دفن الأخوين فيلِّليني، مع افتراض أن قصة الأخوين حقيقيَّة، فمكان القبرين يوجد في موقعٍ رومانيٍّ على بُعد خمسة وعشرين كيلومترًا من القوس. ومع ذلك فهذا القوس الفخم نُقش فوقه إهداءٌ لروما، نَصُّه باللاتينية يقول: «أيتها الشمس، لن تَرَيْ أبدًا مدينة أكثر عَظَمةً من روما»، وكذلك فهو مُكرَّس لذكرى الأخوَيْن فيلِّليني، ينتصب فوقه تمثالان لهما بالحجم الطبيعي من البرونز وهما يضطجعان ليرتاحا أخيرًا، مُتقابِلَيْن، فوق القوس، في مكان مرتفع. هذا القوس في وسط الصحراء هو بمثابة راحةٍ للمُسافر المتعَب لكي يُبدي الإعجاب به، وربَّما حتى في تلك الظروف يتوق لاحتساء قدح من البيرة الباردة.

سيُقدَّرُ لقوس فيلِّليني أن يشهد تَحوُّلًا آخر في السنة التالية، حينما تمَّ مسحُ الكتابة اللاتينية فوقه من قِبل الحكومة الليبية، واستُبدِلَت بكتابة عربية تقول:

شادَ البُغاةُ بِناءً يَبتَغون بِهِ ... تَخليدَ روما وشاءَ اللهُ أَنْ يَقَعوا

ما شَأنُ روما بِقَومٍ أَصلُهُم عَربُ ... ودانوا بِما قالَ خَيرُ الخَلْقِ واتَّبَعوا

هَذي بِلادي هُدَى الإسلام يحفظها ... واللهُ أَكبَرُ في الأَفاقِ تَرتَفِعُ

عند الغروب وصلنا بنغازي العاصمة الثانية لليبيا، والمدينة الأصلية في هذا الموقع هي هسبريدس، التي أوجدها الإغريق أربعة قرون قبل ميلاد المسيح. بعد قرنين من ذلك صار اسمها برنيق، على اسم الأميرة البطلمية برنيكي، ثم بعد ستة عشر قرنًا تحوَّلَت إلى بنغازي، وهذه المرة على اسم وليٍّ صالِحٍ، هو سيدي غازي.

جرى تدمير بنغازي الحديثة بالكامل تقريبًا من قِبَل قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية؛ وبالتالي لم أتفاجأ حينما وجدتها غير مثيرة مقارَنةً بطرابلس. ما بقي في ذاكرتنا عنها أنها بلدةٌ بدويَّةٌ

بسيطة، لا تتمتَّع بجاذبية أو طرازٍ مُحدَّد، وليس بها تَبَهرُج طرابلس، لكن لم يكن لديَّ علمُ حينذاك أن المدينة ستصبح سريعًا مَوطِنًا لنا، ولو أن أحدًا أخبرني بذلك لأبديتُ تذمُّري بصوتٍ عال، ولم أكن لأصدِّق أنني سأحبُّ المدينةَ كثيرًا كما حدث لاحقًا.

في تلك الأيام كان الهدف الرئيس من زيارة بنغازي (الحفرة! كما يُسمِّيها الطرابلسيون) هو زيارة شحَّات، أيقونة الآثار الإغريقية الساكنة في حضن الجبل الأخضر على ارتفاع 600 متر فوق سطح البحر، وعلى مسافة مئتين وأربعين كيلومترًا من بنغازي عادةً يُسرع السائقون عبر شوارع بنغازي لتخطِّي السَّبخات المستوية وتركها وراءهم، ولا يبدؤون في الاستمتاع بالمشهد إلَّا في بداية الطريق المتعرِّجة الصاعدة إلى الجبل الأخضر.

وحينذاك تترك الشجيرات الشهباء مكانها لمساحات من الخُضرة، وحقول القمح والشعير تمتدُّ أمامنا، وتنفتح أمام أنظارنا أرض الزراعة الرئيسة في ليبيا، وهذه تتركَّز حول مدينة المرج، التي تُسمَّى «باركا» في زمن الإغريق، و«بارشي» في سنين الطليان حديثة العهد. المرج مدينة صغيرة، لكنها مركزٌ زراعيٌّ مُهمٌّ، وكادت في سنين لاحقة أن تتعرَّض لدمار شامل بعد أن ضربها زلزال. وبعد المرج نمُرُّ بآثار طلميثة، وهي مدينة أثرية ضخمة لا تبعد كثيرًا عن الطريق الرئيس، لكن بما أن وقتنا محدود وشهيَّتنا لرؤية الآثار عالية؛ فنقوم بمواصلة مسيرنا.

قيعان الأنهار الجافَّة وأمكنة سيلان المياه في ليبيا تُسمَّى الوديان، وبسبب عدم وجود منظومة لإعادة تأهيل الغابات أو منظومة لحجز مياه الأمطار؛ فإن مُجمَل الوديان في المنطقة تفيض بالمياه مع هطل المطر، وتنطلق المياه الثمينة لتصبَّ في البحر، مُحمَّلةً برواسب التُّربة الغنية. ليس هناك منظرٌ صادمٌ أكثر من مشاهدة مصبَّات هذه الوديان مُحمَّلةً بالطمي الغرين، وهي تُفرِغ حمولَتها التي لا تُقدَّر بثمنٍ من ثروات ليبيا في البحر. تلك الوديان الهائلة تبدو مَهيبةً في تصميمها العنيف، وهي مُحاطةٌ بأحجار الكلس القاسية، وليس بها

أيُّ نوع من خُضرة أو نبات، ولا أغصان لأشجار، ولا أعشاب نديَّة في القاع، ولا طيور تُرَفرِف كعنوان للحياة، وإنما قيعان جافَّة وقاحلة وموحِشة.

هناك وادٍ كبيرٌ يلائم هذا الوصف القاسي، وهو وادي الكوف، الذي يقسم شرق بَرقَة عن غربها، والذي نعبره في طريقنا إلى شحات، وبينما تَهدَّم خلال الحرب جسرُه الإسمنتي الرائع الذي شيَّده الإيطاليون، فما زلنا، بعد ثمانية عشر عامًا، نعبر الوادي فوق جسرٍ خشبيٍّ ترَكَته القوات البريطانية وراءها. لكن يندر أن يكون وادي الكوف جافًّا تمامًا؛ فجنباته الخَشِنة تكثر فيها النباتات والأشجار، ويمكن سماع أصوات الطيور، وأزيز النحل، فيمثل كلُّ ذلك دعوةً لزيارة المكان والتنزُّه. وحتى في أزمنة ما قبل التاريخ، يبدو أن هذه بقعة مُفضَّلة لارتيادها، كما عُثر في الجوار على كهوفٍ وُجِدَت فيها مُتعلَّقات تتبع أزمنة سحيقة.

ولأكون مُنصِفةً حول هذه الوديان المتنافرة؛ عليَّ ذِكرُ استثناءٍ آخر. فحينما يتنقَّل المرء فيما يشبه الصحراء، فإنَّ أي منخفض، أو منحدرٍ صغير يصبح واديًا يجمع أيَّ نوع من الرطوبة فيه، سواءً من الجوِّ أو من التربة. وحيث إن المشهد العام قاحلٌ يتعلَّق بالجفاف والعطش، ومع ذلك قد يجد المرء أحيانًا في قاع الوادي -حيث تتجمَّع الرطوبة- شيئًا من الخُضرَة، ومجموعةً من سيقان نبات الشعير المائلة إلى الخُضرَة، أو سيقان نبات القمح المائلة إلى الزُّرقة.

كما أتذكَّر هذه الوديان الصغيرة، فتلك البُقَع من النباتات الخضراء، في وسط هذا المشهد القاحل، هي ما يمنح الحياة للرُّعاة والرُّحَّل، وأعرف مرة أخرى أنه من غير المجدي التعميم حول مسألة التناقُض وعدم الثبات حول طبيعة أرض ليبيا الصحراوية، والتي تَينعُ حينما يتوقَّع المرء أن تذبل، وتسيل بالمياه حينما يتوقَّع المرء أن تُجدِب، والتي تُزهِر حيث لا يرى المرء البراعم.

في 1964 أصبَحَت مدينة البيضاء العاصِمةَ الصيفيَّةَ لليبيا، حيث يفتتح الملكُ البرلمانَ. لكن حينما رأيتُ البيضاء للمرة الأولى لم

تكن سوى مكانٍ يمرُّ به الزائرون من غير المسلمين. فيها عددٌ أقل من الآثار، لكن أيُّ مكانٍ من ليبيا لا توجد به آثار؟ أمَّا أهمية البيضاء فكانت دينيَّةً؛ ففيها ضريح أحد صحابة الرسول، وهنا شُيِّدَت أول زاوية سنوسية، وفيما بعد افتُتِحَت فيها جامعة سنوسية إسلامية، وأيضًا فيها قصرٌ صيفي للملك إدريس.

لكن لا شيء من ذلك جعل للبيضاء أهمية مُعيَّنة، إلى أن قرَّر الملك بعد عدَّة سنين إعلانَ المدينة عاصمةً دائمةً لليبيا، وربما كان لديه سببان لذلك: أنَّ التأثير الديني في ليبيا سيتقوَّى بوجود مَعالِم ومزارات إسلامية في المكان. والأمر الثاني: أن التأثير الأجنبي سيكون أقلَّ في عاصمةٍ بعيدة عن الموانئ الرئيسة. لكن هذا الرأي تغاضى نوعًا ما عن حقيقة أنَّ أي عاصمة ينبغي أن تكون بالطبيعة مركزًا للتأثير وللوجود الأجنبي، حيث توجد مُمَثِّلِيَّاتٍ لتسعةٍ وعشرين بلدًا أجنبيًّا في ليبيا، وبالتأكيد فقد كانت فكرة الانعزال غير مقبولة من أغلب المسؤولين الليبيين.

وتنفيذًا لهذا التوجيه الملكي تَمَّ صرفُ مبالغ كبيرة من أموال المساعدات الأجنبية لتشييد مبانٍ حكومية، وأخرى سكنية، وڤيلات لسكن المسؤولين، ولبناء فنادق ومتاجر. لاحقًا، وحينما ظهرت عائدات النفط، خُصِّصَت مبالغ كبيرة من الميزانية للغرض نفسه، ولكن تمَّ تَجاهُل حقيقة أن البيضاء تفتقر إلى المصادر المائية اللازمة لمدينةٍ كبيرة، وشغلت السفاراتُ الأجنبيَّةُ مواقِعَ مؤقَّتة في انتظار الحصول على مقرَّات دائمة.

وفي وقت زيارتنا الآن، فهذا التوسيع لا يزال رهينًا بالمستقبل، وليس في أذهاننا سوى الوصول إلى شحَّات ونحن نمرُّ باللافتة التي تشير إلى البيضاء في جهة اليسار. الكثير من جَمال وروعة شحات يعتمد على الحالة الجوية الراهنة وقت زيارتها، وبالرغم ممَّا قرأتُه في دليل السائح بأن: «شحات خالية من الرطوبة والبَلَل»، لكن بالتأكيد كانت مُبلَّلةً جرَّاء الأمطار، ويُغلِّفها الضباب حينما وصلناها في الخامسة مساءً. حينما توقَّفنا لليلةٍ في بنغازي اصطحبنا معنا فتاتين

من أصدقاء جورج، وبما أننا خطّطنا لتمضية عدَّة ليالٍ في هوتيل شحات الكبير، الخالي، بصالة استقباله الكبيرة من الرخام، ولا يبعد سوى مرمى حَجرٍ من الآثار؛ فقد قرَّرنا إرجاء زيارة المدينة الإغريقية الأثرية لليوم التالي، حيث نأمل أن تكون الشمس مُشرِقَة.

وذلك ما حدث، فبينما تلاشى الضباب في الصباح، وانتشَرَت أشِعة الشمس ساطِعةً فوق المرتفع، ظهر أمامنا أحد أكثر المشاهد روعةً وبهاءً في ليبيا. بدت أعمدة شحَّات الإغريقية واضحةً على خلفية المنحدرات العُشبيَّة لجبل أكروبوليس القديم، أعدادٌ لا تُحصَى من الزهور البرية زحَفَت بين شقوق الحَمَّامات الرومانية المتداعية، وولَّت القبور الإغريقية الصخرية وَجهَها نحو البحر في ذلك الصباح، يظهر المتوسط تحتنا بمئات الأمتار، هادئًا ومبتسمًا.

ذهب هاري برفقة أحد مسؤولي الغابات المحليين لزيارة المشاتل في المنطقة، بينما ذهبتُ على الفور برفقة جورج والفتاتين لزيارة الآثار. كنتُ أصعد المرتفع لأهبط من جديد، أخطو عبر صخورٍ وزجاج وأنقاضِ بناءٍ مُتجَنِّبَةً حشراتٍ زاحفةً في المكان، وتمَّ ذلك طوال ساعات غطَّينا خلالها مساحة كبيرة. ذهبنا إلى المعبد، والهيكل، ونافورة أبولو، والحمامات، وقوس النصر، ومنصة أغورا، والأكروبولس، وضريح باتوس. ثم صعدنا مترنِّحين ولاهثين إلى قمَّة المرتفع نحو المعبد الكبير ومعبد زيوس، وأخيرًا -بناءً على رغبة البنات- عُدنا لزيارة النافورة؛ فتذكَّرتُ حينها أن إحدى مزايا مدينتي الأثرية المفضَّلة «صبراتة» هي أنها على مستوى البحر.

لشحَّاتَ طابعٌ إغريقيٌّ، بالرغم من أن أغلب البنايات أُعيدَ بناؤها في زمن الرومان بسبب الكوارث الطبيعية وقِصَرِ حياة الحجر الجيري الناعم لمنطقة شحَّات. ومع أنه جرى تنقيبُ أقلُّ من رُبع مساحة المدينة الأصليَّة، فلا يزال رسم صورةٍ ذهنيَّة للمنطقة الأوسع الممتدَّة يستغرقُ عدة أيام، وهو أمرٌ لم أفعله أبدًا. كانت الفتاتان رائعتين، مع ذلك -وكما هي طبيعة الفتيات في سن السادسة عشرة- فقد كانتا تتمتَّعان برشاقة وقوة تحمُّلٍ جسمانيَّة وذهنية كبيرة؛ وبالتالي تغلَّبَتا على

صديقهما جورج، وكلّما تعرَّض للضغط أكثر كلّما صار بطيء الحركة. بعد عدة سنين ربما ستطوِّر الفتيات نوعًا من الضعف الجسماني، وربما سيُعجبن حينذاك بما يتمتَّع به صديقهما من قوَّةٍ جسمانية، لكن ليس في هذا اليوم.

عند عودتنا إلى نافورة أبولو، أعلن جورج أن الإرهاق قد نال منه! لقد شاهد كل الآثار التي خطَّط لزيارتها! وهكذا جلس بثباتٍ في وسط الكنوز الأثرية المنهارة، وخلع حذاءه مُفتِّشًا عن تورُّمٍ فيها بفعل الاحتكاك، كما قال متذمِّرًا مقابل حماس الفتاتين الطاغي.

بطبيعة الحال، جين وبام أعلنَتَا أن التعب لم يَنَل منهما أبدًا! لكنهما جلَسَتَا ما يكفي من الوقت لبام -وهي الأصغر، والأقل حجمًا، وأكثر خِفَّةً- لتقرأ دليل الإرشاد، وتُسمِعَنا قصة ظهور مدينة شحات، والتي جاءت كما عرفنا من قبل بشكلٍ مُبهَم، نتيجةً لبحث الإغريق عن مكان للعيش، كل ذلك وجورج يعالج التورُّمَ في قدمه، وجين تبدو سعيدة بالاسترخاء.

تسردُ بام قصة المدينة: «قبل ظهور المسيح بسبعة قرون، كانت جزيرة ثيرا الإغريقية تعاني من قَحطٍ دام سبع سنين...».

«وتضخُّم في عدد السكان!» تضيف جين من الدليل نفسه، التي لا شكَّ أنها قرأته، حينما كان جورج لاهيًا في قراءة روايته المشوِّقة.

وتُواصِل بام: «قرَّر زعماء الجزيرة التَّوجُّهَ إلى كاهن معبد أبولو في دلفي، الذي اشتهر بتقديم النصائح المفيدة».

«نصائح حول ماذا؟» يسأل جورج.

«أوه، حول السياسة، ومسائل الحب، وأشياء من هذا القبيل» تردُّ جين.

«انظروا إلى هذا العجب! الكاهن قدَّم لهم النصيحة، وأخبَرَهم بوجوب تَرْكِ جزيرتهم والذهاب إلى ليبيا، وإقامة مستعمرة إغريقية جديدة هناك؛ فأخذوا بنصيحته».

«لَم تقولي شيئًا حول دور أبولو!».

«كما ترون، فهذا الإله الإغريقي أبولو يقع في غرام الحورية الإغريقية كيريني، والتي لا شك أنها كانت مُميَّزة بين الحوريات! وهكذا يتوجَّه أبولو إلى هذا الكائن الخرافي المسمَّى القنطور، ويخبره أنه مولَعٌ بكيريني، ويطلب نصيحته».

«هل كان القنطور يعرف ماذا يجب أن يفعل؟» سأل جورج.

«أقصد أن أبولو أراد أن يعرف ماذا يمكنه أن يفعل!» ردَّت بام متحمِّسةً للإغريق.

«إذن، القنطور أخبر أبولو أن يستمتع هو وكيريني بوقتهما معًا، وهذا ما حدث!» تتدخَّل جين.

«وبعد ذلك تزوَّج أبولو بكيريني وأحضرها إلى ليبيا، وإلى شحَّات، والتي كان اسمها المعروف هو قوريني» تضيف بام بزهو.

«لا تنسوا أن كيريني كانت تشتهر بأنها تخنق الأسُودَ بيديها العاريتين»، وأُضيفُ للقِصَّة من الدليل نفسه: «وأيضًا كان اختصاصها البحث عن السيلفيوم، تلك النبتة السحرية التي اعتُبِرَت شفاءً لكل الأمراض، لكنها اختفت منذ زمن طويل».

«اعتقدتُ أن كيريني هي التي اكتشَفَت نافورة أبولو» يقول جورج مفاجئًا الجميع، بمن فيهم نفسه.

«حسنًا» توافق بام، «كيريني هي التي جعَلَت تيَّارًا من الماء يندفع من فم المغارة، كما هو الوضع اليوم. وهذا هو المكان الذي كانت الحوريات يذهبن إليه للاستحمام عارياتٍ صُحبةَ كيريني».

«أيٌّ من هذه الأشياء لا تزال موجودة اليوم؟» يسأل جورج.

منذ ألفين وخمسمائة عام عثرت كيريني على مياه أبولو، وما زالت مياه النافورة تتدفَّق حتى يومنا هذا، وأعتقد أن تدفُّق مصدر ماء بهذا الشكل لا بُدَّ أنه يُدلِّل على أنه بالرغم من نشأة الحضارات واندثارها، فإن شحَّات كمدينةٍ لن تموت أبدًا. بجوارنا تقريبًا، ونحن نجلس هنا

في وسط الآثار المنهارة، تزدهر قرية شحات الصغيرة الوادعة، حيث يروي ليبيُّون عطشى ظمأهم ويحصلون على احتياجاتهم المائية من المصادر القديمة التي تُغذِّي النافورة، وحيث تمَّ تحويل جانب منها لإمداد شبكة مياه القرية.

السلفيوم، النبتة التي تشفي كل مرض، من العصر الاغريقي

لم تكن هناك صعوبة في وصول الفتاتين في تلك العَشيَّة إلى المتحف في المرتفع، وكانتا على معرفة مسبقة بما يوجد فيه من مُقتَنياتٍ أثرية وأين، وأيٌّ من المنحوتات تستحقُّ المشاهدة والإعجاب. لم تتمتَّعا بالذكاء فحسب، بل كانتا تُضفيان أنوثةً مُحبَّبةً في الجوِّ. أمَّا جورج فربما كان يُفضِّل أن يكون في البحر يمارس هواية الغطس. كان يتمتَّع بذكاء هو الآخر، لكنه مرفوقٌ بهذا الطبيعة الذكورية المُحبَّبة، حيث يَودُّ أن يستمتع بما يحب أكثر.

اشتمل المتحف على أثمن القطع الأثرية في شحَّات من أجل الحفاظ عليها، وبعضها أعجَبنا كثيرًا. مثل تمثال الحِسان الثلاث من رُخامٍ أبيض وهَّاج، وهو في حال جيدة، يكاد يحتفظ بشكله الأوَّليِّ وكانت الحِسانُ مُثيراتٍ للدهشة بدقَّة صناعتهنَّ وما يبدو على ملامحهن من الجمال وروح الشباب، بالرغم من أن أيَّ واحدة من

الحسناوات كانت تعادل ضِعفَ وزنِ جين أو بام. وهناك أيضًا تمثالٌ لإلهة الجمال ڤينوس، مُرمَّمٌ بشكل جزئي، وتقف في حياءٍ مُغطِّيةً بيدها اليسرى جبل الزهرة خاصتها، لكن كانت اليد مقطوعة، ومع ذلك فالتعبير على وجهها الذي يبيِّن وضعيتها الأولى ومحاولة الاحتشام أعجبنا كثيرًا. لاحظنا أن وجوه كل الإناث تبدو متشابهةً، وحتى أكثر تشابُهًا من نساء هذه الأيام. ما أدهشني كذلك ما بَدَت عليه التماثيل من امتلاءٍ في الجسم كدليل على التغذية الجيدة لأصحابها، وإن كانت ليبيا في الماضي هي مصدر غذاء لهذه الأجساد البادية عليها مظاهر النعمة، فمن الواضح أنها كانت تُنتِج غذاءً أكثر بكثير ممَّا تنتجه اليوم.

لكن ما كنَّا جميعًا نتوق لرؤيته لم يكن موجودًا، وهو تمثال كيريني. وقيل لنا إن أفضل تجسيد لهذه الحسناء موجود في النقوش البارزة لمعبد ڤينوس في لندن، ولأن التنقيب الأوَّليَّ عن الآثار في شحات جرى في عَقد الـ 1860 بواسطة الإنكليزيَّيْن سميث وبروشر؛ فقد نُقِلَت نحو مائة وخمسين قطعة من المنحوتات والتماثيل إلى المتحف البريطاني، حيث تخضع التماثيل العارية للتَّجمُّد بعد أن كانت تتمتَّع بدفء البحر المتوسط. ومع ذلك، فقد وجدنا صورًا للنقوش البارزة لكيريني مع حسناواتٍ يرتدين غلالاتٍ صيفيَّةً شفَّافة، تَبرُز منها السيقان والزنود العارية، وهُنَّ يَكتُمن أنفاس أسدٍ ضخم هَرِمٍ مسكينٍ بلا أنياب، له لِبدةٌ طويلة مُجعَّدة، بدت مثل شَعْر القُضاة المستعار. أمَّا كيريني نفسها فيجري تكريمها لمآثرها بواسطة مَلِكة ليبية بدت مُعتدَّةً بنفسها، بالرغم من أنني رأيتُ أن مأثرتها في جلب الماء الثمين هي أكثر ما يستحق التتويج لأنه يفيد أكثر للاستخدام المحلي.

متحف شحَّات الذي يقع على حافَّة المرتفع ويطلُّ على الآثار، يملك في مكتبته مجموعةً من أَنفَس الكتب والمؤلَّفات في مجالات الأدب، ومؤلَّفات حول ليبيا وشمال إفريقيا تعود إلى أولى التواريخ التي ذُكِرَت فيها ليبيا، ومدير المتحف هو ريتشارد غودتشايلد، وهو

مُلِمٌّ بعمله، كما يتقلّد في الوقت نفسه منصب مدير الآثار في ولاية برقة.

من حُسن الطالع أن مُستَعمِري ليبيا الإيطاليين المهتمِّين بالتاريخ -وبالتالي بالقيمة التاريخية لما تحويه من تُحف- شرعوا في التنقيب عن الآثار منذ عام 1913 حتى بداية الحرب العالمية الثانية. بعد الاستقلال، وفي العام 1954، استمرَّت إدارة الآثار في بَرقَة في أعمال التنقيب، بمساعدة بعثات ودعمٍ مادِّيٍّ من إيطاليا والولايات المتحدة ودول أخرى.

أحد أكثر الجوانب إثارةً في الآثار الليبية أنها لا تزال تُكتشفُ حتى يومنا هذا، وما زال بالإمكان العثور في الموقع على كِسَرٍ أثريَّة من أوانٍ فخارية، أو قطع فسيفساء وعملات معدنية، وخرزٍ، أو تماثيل صغيرة وفوانيس مكسورة، والتي تبدو أكثر أهمية قبل أن يجري تنظيفها وتلميعها وتوثيقها، وقبل أن توضع في صناديق زجاجية في المتاحف.

أثناء تناول العشاء في قاعة الفندق الضخمة الباردة والخالية تقريبًا التي تُطلُّ على الآثار، كان جورج وبام وجين في معنويات عالية، يتشاحنون على كل ما رأوه اليوم. طلَبَت الفتاتان الدجاج، وجورج لحم الخروف، بينما تناوَلتُ مع هاري شريحةَ لحم البقر، وكلها تقريبًا بالطعم نفسه، لكنَّ نبيذَ بَرقَة الأبيض المُنتَج في مصنع خمور إيطالي يشتهر بأنه مُنتَج من مزارع أعناب في الجبل الأخضر تشتهر بجودة كرومها فأحدثت جودته الفرق. من بيننا هاري فقط كان عَكِرَ المزاج، وكان قد عاد إلى الفندق قبل موعد العشاء، ترافقه عربَتا لاند روفر مملوءتان بأفراد من حرس الغابات.

«هل كل هؤلاء من حُرَّاس الغابات؟» سألتُه.

«نعم» أجاب ممتعضًا، «لديهم عددٌ هائل من حُرَّاس الغابات، وكلٌّ منهم كان بطلًا في مقاومة الطليان! لكنهم لا يعرفون شيئًا عن الأشجار، سوى كيفيَّة قَطعِها!».

«تعني أن حُرَّاس الغابة هم مَن يقطعون أشجارها؟».

«وكأنهم يفعلون ذلك؛ فإدارة حماية الغابات تمنح الآن التراخيص لقطع الأشجار في الغابة لبيعها كفحم. ثم يستخدمون عائد بيع الفحم لشَقِّ الطُّرُق! وهذا ما يُمكِّنهم من تشغيل العُمَّال في قطع الأشجار وفي بناء الطُّرُق كما أخبرني المدير. حسنًا، فالمدير نفسه من البدو، ويرتاح أكثر للعيش في البادية! وبكل بساطة يرفض أن يفهم أنه -وخلال سنين- لن يكون هناك أيّ فحم؛ إن لم يحرسوا الغابات بجدِّيَّة».

«هل يقومون بإنبات أشجار للتعويض؟».

«تقريبًا لا؛ فأبطال المقاومة ضد المستعمِر يفضِّلون الوظائف المكتبية!».

«ألا تستطيع إقناعهم بأفكارك؟».

«لا أعرف! فكل ما يقولونه إن أهلنا بحاجة إلى حطب النار، وإن أهلنا جوعى! ويحتاجون إلى الوظائف».

«ولِمَ لا تُوظِّفهم في إنبات الأشجار، بدلًا من قطعها؟».

«ليس لديهم شتولٌ في الوقت الراهن؛ فمشاتل برقة تدارُ بطريقة سيِّئة؛ بحيث لا تنجو سوى القليل من الشتول. لا بُدَّ من الاعتراف أنهم بالمقارنة مع الشباب الذين عملتُ معهم في ولاية طرابلس، لا فائدة من البرقاويِّين في هذا المجال. وبينما كان الطرابلسيُّون يتعلَّمون من الإيطاليين، كان البرقاويُّون يطلقون عليهم الرصاص! وكل ما يفعلونه الآن هو الفخر بذلك!».

في الزمن الغابر كانت الطريق إلى أبولونيا (سوسة الآن) وهي ميناء بَرقَة الرئيس- قد شُقَّت في الجبل الصخري، ولا بُدَّ أن المنحدر بين الميناء والمدينة كان صعبًا. أمَّا الآن فلم نجد مشقَّةً في السير على هذه الطريق الحديثة التي شقَّها الإيطاليون بطول 16 كيلومترًا هبوطًا نحو الميناء القديم في دقائق معدودة. أثناء هبوطنا الطريق

المنحدرة في جوٍّ رائع، اقترن بعناصر أثرية لحياة الأوائل، كنَّا نراها محيطة بنا في كل وادٍ أو جانب الجبل.

في هذا المكان من السهل نسيان ما واجهه البشر الأوائل من صعاب ومشقَّة، وألَّا تفكِّر سوى في المتعة التي يجدها المرء في مثل هذه المدن الإغريقية أو الرومانية، حيث لا يوجد مرور سيارات، أو عمارات شاهقة، أو مبانٍ سكنيَّة عالية، بدون تلفزيون أو راديو يبثُّ ما يزعج من أنحاء العالم. وألَّا تعرف سوى مدينتك وعشيرتك الأقربين، وليس لك وَلاءٌ سوى لجماعتك الصغيرة، وأن تظلَّ مُراقِبًا لذلك البحر اللازوردي؛ انتظارًا لسفينة تأتي كل شهر محمَّلة بالبضائع، لتغادر مُحمَّلة بالحبوب وزيت الزيتون، ثم تعود لمراقبة البحر من جديد. وإذا ما أتى البرابرة فإنهم يظهرون فجأة دون سابق إنذار، ودون مساوَماتٍ أو تهديدات مُسبَقة. وعندهما يموت المرءُ، فهي ليست إلا ميتة واحدة، ودون أن يتصرَّف بجُبنٍ نتيجة للخوف والتهديد.

في أيام الإغريق لا بُدَّ وأن أبولونيا كانت في مكانٍ مُختارٍ بعناية شديدةٍ؛ تُطلُّ على حافة الميناء الصغير، الذي يمكن الدخول إليه عبر قناة ضيقة وعميقة، أمَّا اليوم -ونظرًا لما حدث من هبوطٍ في الأرض ربما بسبب الزلازل- فإنَّ نصف مساحة المدينة القديمة يقع تحت الماء، حيث يمثِّل تحدِّيًا مثيرًا للغطَّاسين. وهنا حيث رغب جورج في السباحة، بين المعابد والقبور الأثرية التي تظهر كأنها ترتجُّ تحت غلالات عميقة من الماء الساكن، لا تسكنها سوى السَّلطعونات وشقائق النعمان البحرية، والحَبَّارات.

قال جورج بنبرة لوم، وهو ينظر بتَوقٍ إلى أعماق المياه: «كما ترين يا أمَّاه، يمكنني تَعلُّم الكثير عن تاريخ ليبيا من هذه الأعماق أكثر ممَّا أتعلَّم من المتحف! وأن أستمتع أيضًا».

«أعتقد أنك مُحقٌّ يا جورج» اعترَفتُ له، «ودائمًا ما أشعر بالذنب لتَجنُّب المتاحف؛ لأنني لا أحبها كثيرًا».

«لكننا استمتعا بالذهاب إلى المتحف» قالت بام.

«لا عليك يا جورج» قال هاري، «سنعود هنا ذات يوم، وستحصل على الوقت الكافي للغوص».

«حينذاك سيكون ما تبقَّى من أبولونيا تحت الماء أيضًا» ردَّ جورج ساخرًا.

كان في حديثه بعضُ الحقيقة؛ لأن البحر لا يزال يزحف على المكان، وما كان ذات يوم شارعًا رئيسيًّا في المدينة التاريخية، صار الآن مُغطًّى جزئيًّا بالماء، بالرغم من أنه في الجهة البرِّيَّة منه تمَّ حتى الآن التنقيب عن ثلاث كنائس بيزنطية، أكثرها إثارةً للإعجاب هي الكنيسة الشرقية، التي تبدو وكأنها تعرَّضَت لتَراكُم حقبٍ مختلفة، فأحد جدرانها هو بقايا معبد أبولو، وآخر مُشيَّد بطريقة البناء الهيليني، بينما أعمدتها المرمرية تُمثِّل أسلوب القرن الخامس الميلادي، وفسيفساؤها تعود إلى القرن السادس.

في السابق زار جورج وبام وجين كُلًّا من لبدة وصبراتة وشحَّات، والآن هم في أبولونيا. وخلال بحثهم عن المواقع الأثرية لاحظوا وأبدوا إعجابهم بمعدَّل انتشار أماكن العبادة وطول عمرها. توافَقنا على أن أكثر البنيان مَدعاةً للإعجاب وأفضلها محافظةً على شكلها الأوَّليِّ هي دائمًا الصروح المقدَّسة: المعابد، والمساجد، والكنائس، إلخ... والتي عادة ما مثَّلت معتقدات متبايِنَة في أزمنة مختلفة. وكلٌّ واحد منها يمثِّل مفهومًا تاريخيًّا لمسيرة البشر الطويلة عبر العصور في بحث الإنسان عن الإله، أو المسيح، أو العِجل الذهبي، أو صنمٍ ما؛ للبحث عن طوطم، أو إله، أو آلهةٍ، وفي معرض سعيهم الحثيث لمنح تلك الآلهة ملامِحَ ملموسة كانوا يبنون المعالم والنُّصب التذكارية للتعبير عن شغفهم الرُّوحيِّ. وما إن يفعلوا ذلك حتى يخفَّ هذا الشغف، لكن الهدف يكون قد تَحقَّق.

يتساءل المرء ما الذي سيبقى من مُدُننا الحالية ليُدلِّل على وجودنا فيها ذات يوم، وعن الذي كُنَّا نسعى لتحقيقه. أعتقدُ أنه لم يحصل تبدلٌ في سعينا الدائم لتحقيق هدفٍ ما لم نحقِّقه بعد، أو في سعينا الدؤوب للبحث عن شيء أكثر من أنفسنا؛ فالحاجةُ للإيمان بشيء ما،

هي ركنٌ أساسٌ من مُكوِّننا الإنساني، بحيث يُصبح الإيمان جزءًا من الحفاظ على ذواتنا.

لاحَظَت بام أنَّ أكثر المواقع الأثرية إثارةً للاهتمام بعد أماكن العبادة هي المسارح، وذكَّرَتنا بأنَّ المسرح الروماني الرائع في مدينة صبراتة لا يزال يُستخدَمُ في يومنا هذا. وأضاف جورج فكرةَ أنّ ثالث أكثر المواقع إثارة للإعجاب خُصِّصَ للحَمَّامات والمراحيض، حيث يتمُّ اختيار الموقعين بحيث يُطِلَّان على مشهدٍ رائع يُوفِّر حالة استرخاء للمستخدِمين. وصفوف تلك المراحيض المبنيَّة بعناية في كل من صبراتة ولبدة هي الأكثر تصويرًا من طرف الزُّوَّار، وتحوز دائمًا على إعجاب السُّيَّاح الذي يلتقطون لأنفسهم الصُّوَر وهم يجلسون فوقها. وتذكَّرتُ فجأة أنَّ: «الرومان لديهم آلهة المجارير، التي تُعدُّ نابغةَ المجاري والفضلات، وأنا على ثقة أنه يوجدُ تمثال لها في كل المواقع الأثرية، لو تمكَّنَّا من التعرُّف عليها».

«لا أعتقد أنها مذكورة في دليل الآثار» قالت بام بأسًى.

نصحَنا روبرت غودتشايلد قبل أن نغادر شحات إلى بنغازي في اليوم التالي أن نعرج على منطقة قصر ليبيا، حيثُ اكتُشِفَت أخيرًا فسيفساء من الفترة المسيحية. وبتتبُّع توجيهاته انعطفنا عند الكيلومتر 63 من الطريق الرئيسة إلى الغرب من شحات، ثم توجَّهنا شمالًا نحو ثمانمئة متر إلى مركزٍ آهِلٍ صغير في الجبل الأخضر، والبناء الوحيد الذي يظهر في هذا المكان هو كنيسة بيزنطية قديمة استُخدِمَت في زمن الإيطاليين كقلعة، وبعد استقلال البلاد تحوَّلَت إلى عيادة طبية لأهالي المنطقة.

بالقرب من هذا المَعلَم، الذي اكتُشِفَ بمحض الصُّدفَة حينما كان العُمَّال يحفرون المكان للبحث عن أحجار البناء، عثروا على لوحات فُسَيفساء مسيحيَّة رائعة على شكل أرضيَّةٍ متكامِلةٍ للكنيسة في مكانها الأصلي، تبدو غايةً في الروعة عند النظر إليها، والأكثر عجبًا حينما يكتشفُ المرء أنها وُضِعَت هناك منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، بأمر الإمبراطور جُستنيان، الذي أمر ببناء الكنيسة تكريمًا لزوجته

ثيودورا، وتبدو كما لو أنها وُضِعَت اليوم. وتشير اللوحة الوسطى للأرضية إلى أنها صُفَّت في العام الثالث، بإشارةٍ من المطران مكاريوس، وهذا ما يشير إلى العام 539 بعد الميلاد.

الأرضية -كما شاهدنا- كانت مُعرَّضةً للأمطار وأشِعَّة الشمس، عدا عن غطاء مهترئ من المشمَّع وُضِعَ فوقها عاليًا في غير عناية. في الأثناء، وحينما كُنَّا نفحص الفسيفساء تعرَّضنا لوابِلٍ من المطر إلى جانب أشعة الشمس، فأزال عنها المطر ما عَلقَ بها من طينٍ برقةَ الأحمر، وجعلها تلمع بوضوح مُتجدِّد تحت أشِعَّة الشمس. لا بُدَّ أنها كانت صحن الكنيسة الرئيس، وأفصَحَت الرسوم عن خمسين لوحة تمثِّل تنوُّعًا من أنماط الحياة المختلفة. كانت هناك طيور، ووحوش، وأسماك، وحوريات، وفراشات، وحوريات بحر، وذكور، وإناث، وربما ثنائيُّو جِنس، وسُفنٌ، وقِلاعٌ، ومعابد- وجميعها رُسِمَت بخيال مرحٍ، وبألوان حقيقية. كانت تلك أروع لوحة فسيفساء وأكثرها جمالًا رأيتها في حياتي؛ من جانبٍ لأننا رأيناها في الموقع نفسه الذي وُضِعَت فيه قبل ألف وأربعمائة عام، وحيث كان رومان تلك الأيام يقفون لمشاهدتها ويُعجبون لجمالها.

بعد زيارتنا بقليلٍ دفعنا تقديرُ ما عثرنا عليه من كنزٍ إلى القيام بمزيد الاستكشاف، حيث وجدنا غُرفَتيْن أُخرَيَيْن للكنيسة بهما رسومات فسيفساء. وعلمنا أنه بعد الكشف عن هاتين الغرفتين جرت إحاطة الموقع كله بسور وتسقيفه لحمايته. ويبدو أنَّ عملية الحفاظ على الألوان المُرهَفة طوال هذه المدة حدَثَت لأن قِطع الفسيفساء كانت مدفونةً أغلب الوقت تحت التراب، ولم تتعرَّض للضوء أو للعوامل

الجوية. لكن خلال السنين القليلة منذ الكشف عنها وتعرُّضها للعوامل الجوية بَهتَت ألوانها أكثر ممَّا تعرَّضَت له خلال ألف وأربعمئة عام، منذ وضعها للمرة الأولى.

رتَّبنا أمورنا للطيران إلى لندن للبقاء مع جورج عشرة أيام قبل التحاقه بكلِّيَّته في كندا. كان هاري يحبُّ لندن، وأراد لجورج أن يرى المدينة كما يعرفها، وليس كمكانٍ للنُّزهَة، وإنَّما كمدينة رائعة بعددٍ لا يُحصى من متاجر الكتب، وأماكن الترفيه، والمطاعم الممتازة.

في اليوم السابق لمغادرتنا طرابلس أقام محمد وليمة «كسكسي» لجورج، دعا إليها عددًا من شباب الحي الليبيين، منهم: سعيد، وصولة، ومصطفى، وعمر، ومحمد الفزاني... قُدِّم الكسكسي المصنوع من السميد الناعم الذي جهَّزَته أمه، مع طبيخ لحم القعود الذي طُهِيَ على الفحم في الحديقة، وبالطبع أكواب الشاي المحلَّى مع الكاكاوية بعد الوجبة. كنتُ طريحةَ الفراش من أثر الحُمَّى التي لم أعرف مصدرها، لكن بإمكاني سماع ضحكاتهم ومرحهم الشبابي وهم يتحلَّقون حول الطعام، مع خليطٍ من اللغات؛ فجورج لم يَطُل به المقام حتى تعلَّم لغة البحر المتوسط، كما أسمِّيها، وهي خليطٌ ركيك من الإنكليزية والعربية والإيطالية والفرنسية، ولم أرَ نَقصًا في التواصل والتفاهُم في تلك الليلة.

في اليوم التالي أصابنا الرعب حينما اكتشفنا أننا فوَّتنا رحلتنا على الخطوط البريطانية إلى لندن، التي تُقلع خمس دقائق بعد منتصف الليل؛ وذلك بسبب أحد تلك الأخطاء العجيبة التي يقترفها البشر، فقد اعتقدنا خطأً أن 12:05 تعني بعد منتصف ليل الجمعة، بدلًا من منتصف ليل الخميس. ولم أشعر بأسفٍ كبير على ذلك؛ حيث كنت أشعر بمرض شديد. والآن، بعد صباح مُزعِجٍ تَخلَّله تبادُل الاتهامات، أخبرتنا الشركة بعدم إمكانيَّة حجز مقاعد لتلك الليلة، وأن علينا البقاء في المطار أمَلًا في إلغاء بعض الحجوزات، وهو ما فعلناه، وكنَّا محظوظين.

وصلنا إلى لندن، وبالطبع كان الجوُّ ماطِرًا، واستمر المطر طوال فترة مكوثنا في المدينة. كلُّ مَن التقيناهم من بوَّابي الفنادق إلى سائقي الأجرة، إلى البائعين- ظلُّوا يعتذرون لنا عن الجَوِّ الرديء، وكأن هذا ليس من طبعه في شهر أغسطس. وربما نحن الوحيدون في لندن في ذلك الصيف المُرحِّبون بهطل الأمطار؛ فقد وصلنا من ليبيا في حالة جفافٍ تام بعد شهور الصيف القاسية، وهبَّات رياح القبلي. في كل الأحوال كانت لندن لطيفة معنا، وقام هاري وجورج باستكشافٍ مُطَوّلٍ للمدينة وشراء الكتب، بينما عمل تصفيف شعري وشراء ثياب جديدة على رفع معنوياتي، وأمضينا الليالي في العيش ببذخ أكثر من مستوى معيشتنا.

بالنسبة لنا فتوديعٌ آخر في المطار علامة على طَيِّ مرحلةٍ أخرى من الحياة مع جورج. وحينما سنلتقي ثانية سيكون بالتأكيد شخصًا مختلفًا. دائمًا -وفي كل لقاءٍ بعد غياب طويل- يبدو لنا جورج وقد تغيَّر كثيرًا، وكأننا غُرَباء عن بعضنا، ثم مع الوقت نصبح أصدقاء من جديد. ثم بينما يصبح موعد الرحيل التالي أقصر، نذهب جميعًا إلى مرحلة الودا ع، وتسيطرُ على تفكيرنا نحن الثلاثة تلك المسافات الطويلة القادمة من الفضاء والزمن، عندها يصبح هاري مشغولًا بأفكاره، ويصبح جورج على شيء من الفظاظة والشِّدَّة، بينما أعاني من كليهما. والنهايات دائمًا مُتماثِلَة: أقف مع هاري نلوِّح مُودِّعَيْن، بينما يغادرنا جورج مبتعِدًا وَحدَه.

ربما رؤية الأبناء لوجود أبوَيْهم متآلِفَيْن ومُخلِصَيْن لبعضهما، ليس بمثل صعوبة ممَّا لو كانا على طرفي نقيض. فإلى حدٍّ ما إخلاص الأبوين لبعضهما يُبعد الأبناء قليلًا، بينما الاضطراب في علاقة الوالدين يقرِّبهم بالرغم من قسوة الاختيار لأي طرف ينحازون. ومع ذلك لا يطيق جورج وجود أي تناقُضٍ بيني وبين هاري، وحتى في حال حدوث جدال ودِّيٍّ بيننا، يصطفُّ مع هاري قائلًا: «أمَّاه، توقَّفي عن مناكفة أبي!». أعتقد أن معاناة الشباب هي أكثر من الكبار؛ لأن انعدام الخبرة يُصَعِّب عليهم «عَقْلَنَة» مستوى أحزانهم. فبالرغم من

إمكانية تهدئة نفسي بأن أمرًا مُنغِّصًا ما سيختفي مع مرور الزمن، إلَّا أن شابًّا في السابعة عشرة من عمره لا يفكِّر سوى في يومه. وتذكَّرتُ قول أحدهم بأن جزءًا منَّا يموت في كل مرة نودِّع فيها أحِبَّتَنا...

كانت عودةً سعيدة للبيت في ليبيا. فمن دواعي سروري العودة إلى بيت حقيقي هذه المرة، بدلًا من مجرد الوصول للعناية بترتيب البيت. كان محمد قد نظَّف البيت جيدًا في غيابنا، وكان مسرورًا بما فعل؛ لقد أحضرنا له بنطالًا رماديًّا من الفانيلَّا وقميصًا رياضيًّا من لندن، وكنَّا سعداء بأنفسنا، وشاركَنا سعادتنا. الخريف الليبي الرائع كان يجدِّد شباب الناجين من قيظ الصيف، بينما بدت أجواء الربيع في شهر أكتوبر. حتى سيارة الفوكسول الحمراء الصغيرة التي تقف في المرآب لم تبدُ أسوأ بفعل تَعرُّضها لرياح القبلي، ولا تأثَّرت لتَدرُّب جورج على قيادتها.

في صباح اليوم التالي، سُرِرتُ بالعودة إلى عباراتي العربية القليلة، حينما طلبتُ من محمد فنجان القهوة التركية. أعطته استراحة القهوة الفرصة التي أرادها لافتتاح حملته الجديدة. وبدأ هذا بالقول بشكل ودِّيٍّ: «أودُّ أن أتعلَّم قيادة سيارتك. ثم يمكنني القيادة بكِ».

«لستُ بحاجة إلى سائق. أحبُّ أن أقود سيارتي بنفسي».

«لكن جورج يقود سيَّارتَكِ».

«صحيح، لأن جورج لديه رخصة، ووالده رتَّب لتأمين السيارة بشكلٍ خاصٍّ ليقودها جورج».

«أودُّ الحصول على ترخيصٍ أيضًا».

«سيتعيَّن عليك الذهاب إلى مدرسة لتعليم القيادة أوَّلًا؛ لتتعلَّم القيادة، ويُمكِنُكَ الذهاب الآن إلى المدرسة كل مساء لتعلُّم القيادة».

«حسنًا، هذه مبادرة طيبة منكِ!».

ثم من جديد: «هل تسمحين لي بالتدرُّب على سيارتك؟».

«لا يا محمد. لا يجوز لأحد أن يقود سيارتي بدون ترخيص».

في اليوم التالي ذكر لي أحد الأصدقاء أنه اعتقد أنني عُدتُ في الأسبوع السابق؛ لأنه رأى سيارتي على الطريق ومحمد يقودها. أصابني هذا بصدمة كبيرة، لكن حينما فكَّرتُ فيما تجنَّبَته السيارة من حوادث؛ ابتلعتُ ارتياحي وسخطي، ومنها تعلَّمتُ شيئًا آخر لا يجب أن أفعله أبدًا: ألَّا أترك أبدًا مفتاح السيارة في البيت مُعلَّقًا على مسمار حينما نسافر إلى الخارج.

ثلاث مرات في الأسبوع لعدة أسابيع، كان محمد يغادرُ البيت مبكرًا ليحضر دروس قيادة السيارة. كان هذا يشمل الركوب في مؤخِّرة شاحنة مع عشرات الفتيان الليبيين، كلٌّ واحد منهم يأمل في الحصول على دورٍ قصير في الجلوس خلف عجلة القيادة مع التعليمات. على الرغم من أن هذه الدروس الجماعية كانت أقلَّ كلفةً من الدروس الخاصة، إلَّا أنها لا بُدَّ وأن حقَّقَت للمدرِّب ربحًا كبيرًا لكل ساعة من التعليم.

بعد بضعة أسابيع بدأ محمد في إجراء اختبارات القيادة. كل أسبوع كان يجري اختبارًا ويفشل في كل مرة. ويبدو أنه لم يكن بحاجة فقط إلى اجتياز الاختبار، ولكن كان يجب أن يوصَى به شخصيًّا عند المدرب قبل أن يتمكَّن من الحصول على الرُّخصة. في النهاية تخلَّيتُ عن سؤال محمد عمَّا إذا اجتاز الاختبار أم لا؛ فقد أزعجه الاعتراف بالفشل، ومع ذلك شعرتُ أنه يجب أن يكون مُؤهَّلًا تمامًا مثل غيره من السائقين الليبيين.

«هل يجتاز أيٌّ من الشباب الذين يأخذون الدروس معك اختبار الترخيص؟».

«نعم، في بعض الأحيان، إذا كانوا أصدقاء للمدرب».

في المرة التالية التي رأيت فيها مستشاري الليبي -أحمد- سألته إن كان يعرف سببَ عدم حصول محمد على ترخيص.

«ربَّما لم يقدِّم هديَّةً للمُدرِّب».

«آه... ها... وما الهدية التي يجب أن يقدِّمها؟».

«ربما يعطيه شيئًا مثل السجائر. يجب أن تُقدِّم شيئًا ما».

في اليوم التالي قلت لمحمد: «أحمد يعتقد أنه يجب عليك تقديم هدية للمدرب قبل أن يوصي لك بالحصول على ترخيص».

بَدَا على محمد التفكير العميق. «نعم، ربما يا أمي».

بعد أسبوع وصل إلى البيت في الصباح، وكان مُبتَهِجًا. «أمي، لقد تحصَّلتُ على رخصتي!».

«هذا حسنٌ، بل رائع! ماذا حدث؟».

«أعطيتُ المدرب زجاجة ويسكي. فصديقي من قاعدة ويلوس يشتري لي الويسكي بسعرٍ رخيص. الآن اجتزتُ اختباري ولدَيَّ رُخصَتي».

أعتقد أن هذه الواقعة أوضَحَت الكثير عن وضع ومهارة السائقين الليبيين.

بعد أيام قليلة وصل محمد في حالة من الاكتئاب الشديد، وأخبرني أن عائلته رتَّبَت له لكي يتزوَّج في موعد قريب جدًّا. وبهذه الكلمات وضع رأسه بين يديه وانفجر بالبكاء.

«لماذا يجب أن تتزوَّج يا محمد وليس لديك مال؟».

«أمي تريدني أن أنجب أطفالًا، لكني لا أريد أن أتزوَّج الآن! أريد أن أكون مثل جورج. أريد الالتحاق بالمدرسة، وأن أسافر. لكنني لن أستمتع بالحياة أبدًا أبدًا! يجب أن أعمل دائمًا. والآن يجب أن أتزوَّج»، وبكى بصوتٍ عالٍ.

كان من الواضح أنه لا يبحث عن أي «متعة» من الزواج، وأتوقَّع أنه كان على حقٍّ. المحزن في الأمر أنَّ مُحمَّدًا بكى على البهجة الصغيرة التي ينبغي أن تكون حقًّا مُتاحةً لكلِّ شاب.

«أنتَ لم تَرَ الفتاة التي ستتزوَّجها يا محمد؟».

«أوه، كلّا! أمي هي التي رأتها».

«لكنَّ أُمَّكَ عمياء».

«إنها تعرف كيف تبدو؛ لأن الناس يخبرونها بذلك».

«كم عمر خطيبتك؟».

«ربما ثلاثة عشر، ربما أربعة عشر عامًا. هي فتاة ممتازة، وتسكن في بيت والدة سالم».

كنتُ أعلم أن عائلة سالم لها علاقات واسعة، وأنها موسِرَة إلى حدٍّ ما، وبما أنهم من أصحاب الأطيان، وأن تكون لك علاقات جيدة؛ فهذا أهم شيء في العالم العربي. اعتقدتُ أن الفتاة ربما كانت من قرابة بعيدة، لكن ما دامت نشأت في بيت سالم؛ فمن المؤكَّد أنها ستكون فتاة لطيفة وقادرة. ومن المحتمل جدًّا أن تجلب القليل من المرح والإشراق إلى بيت عائلة محمد المثقَل بالهموم.

8. لا أحدَ تشاركه الخبرة

هنا في ليبيا، ولأول مرة منذ سنين عديدة، كان هاري يتحصَّل على إجازته الأسبوعية، والتي كانت في البداية يوم الأحد، ولكن تمَّ تغييرها لاحقًا بشكل مناسبٍ إلى يوم الجمعة؛ لأنه يوم راحة المسلمين. ونتيجة لذلك صِرنا نرى البلد بالفعل، حيث نكون على الطريق كل يوم عطلة، مُسلَّحين بمكابس النباتات والخبز والجبن وحوافظ القهوة والماء. لقد تعلَّمتُ المزيد عن الريف في أول عامين، أكثر من كل السنوات التي تلت ذلك.

حينما أهنِّئ هاري على أخذ أيام إجازته، يقول: «لا أمانع العمل بجدٍّ في هذه البلاد؛ أرغب بذلك فعليًّا! مشكلتي في الوقت الحاضر هي إيجاد ما يكفي لأفعله. أنا لم أُرسَل إلى هنا لزراعة الشتلات؛ فيمكن لأيِّ حارس غابة القيام بذلك. لقد جئت إلى هنا لتقديم المشورة للحكومة بشأن الغابات. لكنني لا أجد الليبيين لتقديم المشورة لهم! كان أبو بهاء، مُحِقًّا بشأن عدد الخبراء هنا. هناك مستشارون أكثر من الليبيين. لقد زارني في المكتب اليوم. وأراد أن يعرف كيف يُعجِبكِ المكان هنا!».

«وهل أخبرتَه أنني صرتُ ليبيَّةً عن قناعةٍ، باستثناء ارتداء النقاب؟».

«قلتُ شيئًا من هذا القبيل. وهو نفسه يقضي بعض الوقت في بَرقَة».

«وقتٌ جيِّد أم وقت سيئ؟».

«وقتٌ صعب؛ فالملك يُفضِّل بستان قصره في طبرق أكثر؛ ما جعل أبو بهاء مشغولًا معظم الوقت في جعل البرتقال الملَكيِّ ينمو بشكل أكبر، ويزيد إنتاج أشجار الزيتون الخاصة به. وحينما لا يكون أبو بهاء مشغولًا بقصر الملك، فإنه يعمل على تحسين الأمور في

مزرعة قائد الشرطة، بوقويطين، الذي يزرع قليلًا من كل شيء. بعد ذلك، إذا بقي مُتَّسع من الوقت، فسيكون لدى قائد قوة دفاع بَرقَة بعض المزارع التي تحتاج إلى اهتمام الخبراء. وفي الوقت نفسه، يحصل المزارعون الفقراء في سهول التربة الحمراء على القليل من المساعدة والمشورة».

«أبو بهاء نفسه يقول إن هذا ليس صحيحًا، لكنه، على ما أعتقد، لا يستطيع أن يرفض تقديم خدمة للملك، ولا للآخرين».

يتابع هاري: «هذا جزءٌ من مشكلتي. لقد أُرسِلتُ إلى هنا لوضع سياسة حراجية سليمة، ولإقناع الحكومة بسَنِّ تشريعات حديثة لتنفيذها، لكن الحكومة الفيدرالية ليس لديها حتى إدارة للغابات! لا توجد سوى نظارة للغابات في كل ولاية. وهكذا لا يمكنني العثور على ليبيين يعرفون ما يكفي عن الغابات ليتم تدريبهم وإرشادهم».

اعتقدتُ أن هناك بعض الحقيقة في فكرتي الخاصة أنه كلما قلَّ عدد الأشجار؛ زادت الحاجة إلى مستشار للغابات.

وقال هاري: «أحد الأسباب التي بدأتُ بها هذه المجموعة من النباتات الليبية هو الهروب من إحباط عدم الإنجاز في وضع سياسةٍ

لإدارة الغابات. سأرسلُ عددًا من كل عيِّنة نجمعها إلى كلِّيَّة الزراعات في كيو هيرباريوم، في إنكلترا؛ للتحقُّق من تصنيفاتي، وسأحتفظ بعديد العيِّنات هنا في مشتل البحوث الزراعية الذي سأُدشِّنه في ليبيا. لم يتمَّ عمل مجموعة مُصنَّفة شاملة من النباتات الليبية من قبل. سيكون هذا على الأقل ذا قيمة للبلد في المستقبل».

«لكن هل سيدركون قيمة هذه المجموعة؟ ربما سوف يكنسونها في تنظيف فصل الربيع!».

«ليس قبل مغادرتي البلاد على أيِّ حالٍ. وربما قبل ذلك يمكنني أن أُقنِع شخصًا ما بالاهتمام بالمسألة، مثل بدر الدين المسعودي من إدارة الغابات في الولاية، وهو على دراية تامَّةٍ بالعمل».

«اعتقدتُ أن الإيطاليين قاموا بالكثير من الأعمال الحراجيَّة في ليبيا. فماذا حدث لجهودهم؟».

«لقد قاموا بعمل رائع وسليم للغاية هنا. في الواقع، ابتكروا نظامًا ناجحًا جدًّا لتثبيت الكثبان الرملية، لكن منذ ذلك الحين تمَّ إلغاء الكثير من أعمالهم، أو تدميرها تمامًا، أثناء الحرب وبعدها. تمَّ قطع أشجار العديد من المزارع الجيدة هنا لاستخدامها كوقود، وأيضًا ترعى الماعز والأغنام حيث ازدهرت المزارع الجيِّدةُ ذات مرة. إنها جريمة! وقِصَر نظر شديد من جانب ليبيا».

«أعتقد أن الحكومة الليبية لديها الكثير لتتعلَّمه».

«ملكيَّة الأرض مشكلةٌ مُحبِطة أخرى. وفي هذا الوقت تبدو أنها غير قابِلةٍ للحَلِّ حتى تُقرِّر الحكومة لمن تعود ملكية الأراضي، وفي الوقت الراهن لا يمكننا إنشاء أي محميَّات غابِيَّة، ولا القيام بأي عملٍ ذي قيمة دائمة».

«لماذا لا يُقرِّرون مسألة مَن يملك الأرض؟ لماذا هو موضوعٌ غير قابِلٍ للحلِّ؟».

«لأن مطالبات المِلكيَّة القَبليَّة تهيمن على المشهد، وهذه المطالبات تتعارض مع بعضها البعض لكل قبيلة. الادِّعاءات القَبَليَّة يكاد يكون من المستحيل إثباتها أو اتخاذ قرار بشأنها. والقبائل أقوى من الحكومة الفيدرالية. وإذا قامت الحكومة بشكل تعسُّفيٍّ بإنشاء محمِيَّة غابِيَّة وزرعها، يأتي البعض ويقولون إنها أراضي قبيلتهم! ولا يمكن لأحد أن يُثبِت أنها ليست كذلك».

«ألم يَتِمَّ القيام بأي مَسحٍ أو بحوث حول هذا الأمر قطُّ؟».

«لا يوجد نظامُ مَسحٍ مقبول. حدود الأرض القبلية معروفة بالفعل بين القبائل فقط. وإذا قامت الحكومة بالمسح، فعندئذ تقوم القبائل فقط برفع الأوتاد والتخلُّص من حجارة الحدود!».

«لكننا رأينا بعض أشجار السرو والعرعر في الجبل الأخضر».

«الجبل الأخضر عبارة عن منطقة غابات سَروٍ طبيعية وغابات العرعر، وينبغي أن تكون منطقةً غزيرة الإنتاج؛ فقد كانت كذلك خلال الاحتلال الإيطالي لأنهم منعوا كُلَّ قَطعٍ عشوائيٍّ ورعي في الغابات الطبيعية. لكن بعد الحرب، ألغت سُلطات الاحتلال العسكرية بشكلٍ أو بآخر الحَظرَ الإيطالي على قطع الأشجار والرعي الجائر. وانظري ماذا حدث! عاد الرعاة الرُّحَّل بقوَّةٍ مع قُطعانهم وماشيتهم، وكانوا يرعون كل شيء تحت رُكَبهم، ويقطعون كل شيء من فوقها من أجل الحطب! إذا استمرُّوا على هذا النحو فإن الجبل الأخضر سيكون مُجرَّد هضبةٍ من الحجر الجيري!».

«هل تحرزون أي تَقدُّم على الإطلاق في إصدار التشريعات لحماية هذه المناطق؟».

«أشكُّ في ذلك! لقد أمضيتُ ساعاتٍ وأيامًا لا حصر لها في صياغة التشريع الذي يحتاجون إليه لحماية غاباتهم، لكن لا يمكنني العثور على أي شخص مهتمٍّ بجدِّيَّة بما يكفي للمُضيِّ قُدمًا في سنِّه. في الأساس، الليبيُّون شعب صحراوي، وليس لديهم الشعور نفسه الذي نشعر به حيال الغابات، حيث يمكن للرعاة دائمًا أن يصرخوا

بصوت أعلى من الأشجار! وشعار السياسيين هو: أفضلُ أن تموت أشجارنا بدلًا أن يموت شعبنا! فالأشجار ليست لديها أصوات انتخابية».

«ولكن من المؤكَّد أنَّ موت الأشجار أفضل من موت الناس؟».

«لن يموت الناس، فلم يموتوا في زمن الاحتلال الإيطالي. في الواقع زاد عدد السُّكَّان بالفعل. الحقيقة هي أن ليبيا الآن في المرحلة الأخيرة قبل الغزو النهائي للصحراء. الصحراء لا يتمُّ وقف زحفها، وهي تقضم المزيد والمزيد من الأراضي الصالحة للزراعة. المستقبل النهائي لليبيا ليس إنتاجَ الأغنام والماعز؛ مستقبلها الحقيقي في الزراعة، وكان كذلك دائمًا. حتى لو استخرجوا النفط من الصحراء، فهي لا تزال ليبيا: الدولة الزراعية، ويجب أن يكون مستقبلها الزراعي طويلَ الأَمَد».

«لا أسمع الكثير من الحديث عن النفط. اعتقدتُ أن الإيطاليين لم يتمكَّنوا من العثور على أي شيء!».

«الإيطاليون لم يجدوا شيئًا، لكن إن وجد الفرنسيون النفط في الصحراء الجزائرية؛ سيجده شخصٌ ما هنا. على أي حال، النفط يعني المال من حيث الإيرادات، لكنه لا يوفِّر مصدر رزق للناس. الزراعة هي التي تفعل ذلك».

«في الشتاء الماضي حينما فاض الوادي، وشاهدنا سيول وادي المجينين البُنِّيَّة بلون الشوكولا والمليئة بالطمي، تتدفَّق في المكان هنا، لم أعتقد أنه ستكون هناك أي تربة متبقية».

«هذا يحدثُ كل عام. حيثُ تُهدَر أفضلُ طبقة خصبة من التربة وتضيع في البحر المتوسط».

«لكن لماذا؟».

«لأن مُستجمعات المياه بأكملها جُرِّدَت من الغطاء النباتي بسبب الرعي وقطع الأشجار؛ وبالتالي فأيُّ هطل للأمطار لا يعود بالنفع

على الأرض؛ لأنه يجري في الوديان. وبعد ذلك، أيًّا كان ما تبقّى من التربة يتمُّ جَرفه مع كل هبوب رياح القبليِّ».

«ألا يفيد تثبيت الكثبان الرملية؟».

«يعتمد على مدى جودة عملها ومكانها. إذا لم تكن هناك بذور تتطاير بها الرياح؛ فلن تتمكَّن النباتات الأصلية من العودة والإنبات. أريدكِ أن ترَيْ منطقة الكثبان الرملية حيث يقوم أحمد بالتثبيت الآن، فهي تبدو مثل حُفَرٍ على سطح القمر، أو أكثر كآبةً. الرياح تهبُّ باستمرار، إمَّا من اتجاه أو آخر، حيث لم يتبقَّ شيء فوق سطح الأرض لإيقافها. وهذه لا تبعد سوى ستة عشر كيلومترًا من طرابلس، والكثبان الرملية تقترب من المدينة طوال الوقت».

لم يبالغ هاري، هكذا ظننتُ يوم الأحد التالي بينما كنت أقف في مواجهة الريح بينه وبين أحمد، الذي أصبح أكثر فأكثر «ابنًا» لهاري؛ لأنه لم يرفض أبدًا أي مطالب أثناء وقته الشخصي لمرافقتنا إلى المناطق للعمل من أجل مصلحة الغابات. الآن أتشبَّث، بهاري وأحمد، بينما كانت رياح الصحراء القاسية تضربنا بدون رحمة، وبينما كنتُ أنظر في رعب إلى ما تفعله الطبيعة القديمة العزيزة، إذا ما تُرِكَت لنفسها دون تحكُّم- قلت الكثير لهاري، الذي أجابني ساخطًا: «الطبيعة القديمة العزيزة لا تُترَك لنفسها!» هذا ما أعنيه؛ فهذه الأرض القاحلة أنشِئَت من خلال الدمار الشامل من قِبل الإنسان والحيوان لجميع النباتات الطبيعية. إذا تمكَّنَّا من تثبيت الكثبان الرملية هنا، وإبعاد البشر والماعز عن المنطقة لمدة عشر سنوات؛ فمن المحتمل أن تتجدَّد الطبيعة. وإذا لم يحدث كذلك... حسنًا، فعندها سنرى مشهدًا مثل الذي على سطح القمر!

كان الرمل المختلط بغبار الأرض الحمراء يتدحرج من حولي في كُثبان صَدِئة على طول مرمى النظر، في أكثر مشهد غير طبيعي يمكن للمَرء أن يتخيَّله. تمَّ تقسيم المنطقة بعناية إلى مُربَّعاتٍ طولُها مِتران، والتي تَمَّ تحديدها بواسطة غرس النباتات حولها بارتفاع

ثلاثين سنتيمترًا. وهذا التصميم الزاويّ المنتظم يبدو في تعارُضٍ مع الأفق المتموِّج من حولنا.

قال هاري: «كما ترين، هذه هي بساتينُ النخيل في القرية. ولا يمكنك حتى رؤية الأرض المزروعة؛ إنها مدفونة تحت الكثبان الرملية!».

كنتُ راضيةً الآن عن مغادرة المنطقة على الفور، وقلت: «الصحراء أمر جيِّدٌ في مكانها، أي في الصحراء، لا أن تنتقل إلى عتبة الباب».

«لكن أين في الصحراء؟ إنه أيُّ مكانٍ في ليبيا تُدمَّرُ فيه النباتات، وحيث تفشل في الحفاظ على التربة».

في طريق عودتي إلى البيت، سألته: «ما مدى سرعة تحرُّك تلك الكثبان الرملية إذا لم تقوموا بأي تثبيت؟».

«يكاد يكون من المستحيل التنبُّؤ؛ لأنه يعتمد على قوَّة الرياح وحجم ذَرَّات الرمل. لكننا نعلم أن تلك الكُثبان قد تحرَّكَت بشكلٍ كافٍ في السنوات القليلة الماضية لابتلاع أراضي القرية المزروعة وابتلاع أطرافها من بساتين النخيل- أعتقد أنها تقدّمت ما لا يَقِلُّ عن خمسة وأربعين مترًا في تلك السنين».

في اليوم الذي زرنا فيه سهل الأصابعة بين غريان ويَفْرن، التقينا بمالِك مزرعة إيطالي مُسِنٍّ كان يمرُّ على طول جانب طريق الحصى خلف فرسٍ رمادية اللون. كنَّا على امتداد مَسرَبٍ طويل متعرِّج حيث توجد أشجار الزيتون العتيقة الضخمة، وحيث اعتقدنا أنه موقع الانعطاف إلى السهل. وخوفًا من أن يكون قد فاتنا المنعطف؛ أوقفنا العجوز الإيطالي وسألناه.

استرسل معنا في الحديث، وأخبَرَنا عن ماضيه. تمَّ اختياره عشوائيًّا في زمن موسوليني قبل خمسة وعشرين عامًا ليكون مُزارِعًا ليبيًّا، وصل الشاب آنذاك إلى هنا ليصبح مستعمِرًا رغمًا عن أنفه، وبدون حماسٍ كان قد زَرَعَ أرض «تغرنَّة» بالخوخ

والتين واللوز، وفي النهاية قرَّر عدم العودة إلى إيطاليا. قال إنه كان أكبر سنًّا من أن يجد لنفسه مكانًا جديدًا هناك.

«هل عانَيتَ من مشاكل مع الليبيين خلال الحرب وبعد الاستقلال؟» سأله هاري.

قال: «لا، نحن لا نضايق بعضنا البعض. وطوال الحرب، ساعدنا بعضنا البعض حينما كان الطعام شحيحًا. معظمهم من البربر هنا، وليسوا مُثيرين للقلاقل. ربما هم كسالى قليلًا. لكنهم جميعًا يعرفونني، ونحن على علاقة جيدة».

«لا بُدَّ أنك عاصَرتَ الكثير من التغييرات؟» قال هاري.

«لقد غادر معظم الإيطاليين غريان، وتغرنَّة، أو أنهم يزرعون البساتين للمُلَّاك الليبيين الآن. ما زلتُ أمتلك مزرعتي الخاصة، لكن بما أنه لا يمكنني البيع إلا لشخصٍ ليبيٍّ؛ فهذا يحدُّ من السعر الذي يمكنني الحصول عليه».

ويُذكِّره هاري قائلًا: «أهذا المنعطف يقود إلى سهل الأصابعة، ألم نتخطَّاه؟».

«لا، ما زال أمامك طريق طويل. أستطيع أن أتذكَّر حينما كان نبات الحَلْفاء كثيفًا جدًّا في سهل الأصابعة، لدرجة أنك لا تستطيع رؤية خروف يجري في وسطه؛ الآن يمكنك حتى رؤية نملة!».

كان وضع نبات الإسبارتو أحدَ أسباب صداع هاري المستمر؛ فهذا النبات -أو الحلفاء كما يُطلق عليه هنا- هو نبات مُعَنقدٌ ومُعمِّر، له قاعدة متفرِّعة، وهو ينبت بشكل طبيعي في مناطق السهوب في طرابلس، ويتمُّ استخدامه لصُنع ورقٍ عالي الجودة، وهو مطلوب بشكل خاص في صناعة الأوراق النقدية. ومنذ حقبة العثمانيين، كان نبات الحَلفاء أحد أهم الصادرات من طرابلس.

الآن تحتكر شركة الحلفاء المملوكة للحكومة شراءَ منتوج الحلفاء، وبفضل قِصَر النظر في الاستغلال المُفرِط وأساليب الحصاد الضارَّة؛

تمَّ تدمير معظم مناطق زراعة النبات، وأصبحت مناطق الحلفاء التي كانت طبيعية في السابق مَحضَ صحراء.

وصلنا أخيرًا إلى منطقة السهول المسطَّحة الرتيبة حيث كان يتمُّ حصاد الحَلفاء (في غير موسمها، كما لاحظ هاري!) فتوقَّفنا وشاهدنا العملية: يتمُّ اقتلاع العشب من قِبَل العُمَّال البدو، الذين يقومون بلَفِّ حفنة من ريش الحشائش حول أعواد قصيرة، ثم يتمُّ سَحبُها بطريقة تقتلع معظم النباتات. قال هاري إن الطريقة الصحيحة لتجميعها هي قطعها: كل نَصْلٍ على حِدَة، بحيث يُترك الجذر سليمًا في التربة.

«لماذا تركوهم يحصدونه هكذا؟» سألته. «ألا تستطيع مؤسَّسة الاحتكار أن ترفض استلامها حينما تُقتلع مع الجذور؟».

«طالما يمكن للاحتكار بيعها؛ فسيقبلونها بأي طريقة كانت. تمَّ وضعُ خطةٍ للتَّحكُّم في إدارة الحَلفاء منذ فترة طويلة- ولكنها لم تُطبَّق مطلقًا. ومع ذلك، فالشيء الوحيد الذي يمكن أن يُنقِذ بعض مناطق الحَلفاء العُشبية يحدث الآن: فالطلب على الحلفاء آخِذٌ في التناقُص، وخلال الحرب وجد مصنِّعو الورق أليافًا أخرى جيدة بالقدر نفسه لصناعة الورق. والآن لم يَعُد السعر الذي تدفعه مؤسسة الاحتكار مقابِلَ الحَلفاء جذَّابًا للقاطفين، وسيؤدي هذا إلى إنقاذ بعض مناطق هذا السهول المنخفضة الأمطار من أن تتحوَّل إلى جرداء، تعوي فيها الرياح كما نرى الآن. ما نراه هنا هو فقط ما تكون عليه الحَلفاء عند استغلالها بإفراط. انظري!»، وأشار في اشمئزاز إلى السهل.

في طريقنا إلى هنا مَرَرنا بإحدى أجمل مناطق ولاية طرابلس، وهي ريفُ غريان، حيث تنتشر أمامنا بساتين الفاكهة الغنية، وهكتارات من الشعير والقمح، وحقول الزهور البرية، وأشجار الزيتون الرائعة المنتشرة أمامنا في مشهد رائع على مرمى البصر.

الآن أقف في سهل الأصابعة وأنظر إلى ستائف من بالات الحَلفاء الميتة. حتى عند النموِّ، الحلفاء ليست نبتةً جميلة، ولكن في فئات الأراضي الصحراوية، فأي شيء أخضر ينمو ويُزهِر ويُغرس

ويثبِّت التربة يكون جذّابًا. وأمامنا الآن أرى النباتات منزوعةً ومُشوَّهة ومُكدَّسة في بالات، وهو الجَمال المتراكم للمناظر الطبيعية. يبلغ ارتفاعها نحو عشرة أمتار، وهي عبارة عن حِزمٍ كبيرة من الحلفاء المجفَّفة والمضغوطة جاهزة للنقل بالشاحنات إلى ميناء طرابلس للتصدير. لكن وراء هذه البالات تنتشر الأرض الجرداء، والتي لا تقطعها سوى نُتَف الحلفاء المتناثرة، وهي الخطوة الأخيرة قبل الاختفاء الكامل للعشب. وبالفعل، بدأ المشهد الجائع والعطِش يتآكل ويتحوَّل إلى أرض قاحلة من الأخاديد والمجارير المائية الجافَّة. كما تبرز عظام الأرض البيضاء الحادَّة من بدنها الذي تعرَّض للتخريب، وهو الآن في حالة تآكُلٍ مُتوَقَّع.

قال هاري: «يبدو مثل الهيكل العظمي؛ لا دم يسيل، لا دقَّات قلب، لا نَسغَ يجري فيه الدم- فقط العظام والجلد والشَّعر: أرضٌ ميِّتةٌ، وقتَلتُها هم أبناؤها!».

9. العُرس

يوم الاثنين الماضي، ودَّعنا محمدًا قبل مغادرته لمدة أسبوع للبدء في احتفالاته بالزواج. عانقني في البداية بحرارة عدَّة مرَّات، ودعاني «أمي»، وبكى على كتفي، حتى اضطررتُ أخيرًا إلى تذكيره أنه ليس ذاهِبًا إلى جنازته، بل إلى حفل زفافه. لقد وعدتُه بزيارة بيته في سوق الجمعة بعد ظُهر يوم الجمعة للمشاركة في الحفل، كما وعدتُه باصطحاب «كلوثا» معي. ومحمد يستلطف كلوثا كثيرًا، وهي زوجة الرائد چاك غارنيت، التي غالبًا ما يراها في بيتنا، وفي متجر الكتب التابع للقوات البريطانية؛ لأنها مُهذَّبة تجاهه، وجذَّابة بلا حدود.

في حفلات الزفاف الليبية -التي تستمرُّ لمدة أسبوع- لا تتمُّ دعوة الغُرَباء أبدًا لليلة الزفاف. ويحتاج الزفاف الليبي من خمسة إلى سبعة أيام من الاحتفالات المتواصلة، وتتراوح تكلفته من مائة وخمسين دولارًا إلى مبالغ خيالية. راتبُ محمد ثلاثة وثلاثون دولارًا في الشهر، وزفافه يكلّف حوالي أربعمائة وخمسين دولارًا، لا يملكها. إنه يقترضها بالطبع، ويبدأ بنا.

حينما سألته عن سبب التكلفة الباهظة لحفل الزفاف، حدَّد لي كيف يتمُّ إنفاق المال، أولا: يتم وضع باب إضافي لإغلاق المساحة الصغيرة الخاصة به عن بقية بيت والدته، وكذلك تمَّ شراء خِزانة ذات أدراج من «أجلها» لتحتفظ فيها بمهرها، وصُنِعَت لها هدية من المجوهرات الذهبية؛ كما تمَّ شراء جردٍ ليبي مصنوع من الحرير الخالص لمحمد. وستذهب باقي الأموال لشراء كميات من الشاي والسُّكَّر والكاكاوية والحلويات للأصدقاء والأقارب الذين يجب إطعامهم لأسبوع.

بعد ظُهر يوم الجمعة وصلتُ مع كلوثا إلى سوق الجمعة، في مكان اللقاء المتَّفَق عليه حيث كنتُ أترك محمدا في كل مرة أوصله إلى بيته. وكما وعد محمد، كان الفتى عليٌّ -وهو صديقه- في انتظارنا،

مُرتَديًا ملابس غربيَّة مُمزَّقة إلى حدٍّ ما، وأقلّ تَرتيبًا وأناقةً من محمد. ومع ذلك، كان يتحدث بإنكليزية مفهومة إلى حدٍّ ما؛ ولهذا وقع عليه الاختيار لمقابلتنا، واصطحابنا إلى بيت العرس.

اقترحتُ أن نوقف السيارة وننزل سَيرًا على الأقدام لأن شوارع المدينة القديمة تكاد تكون غيرَ قابلة لمرور السيارات، لكنَّ دليلنا عَليّ أصرَّ على أننا يجب أن نقود لمسافة أبعد. وبصعوبةٍ سلكنا منعطفَيْن بزاوية حادة للغاية، ومررنا إلى الثاني عبر باب ضيِّقٍ في سور المدينة. وهنا، مع تَقدُّم عشرين مترًا بالكاد عن مكان الوقوف الذي اخترته من قبل، نصح عليٌّ بوجوب مغادرة السيارة. لقد وصلنا الآن إلى موقع كان من المستحيل تقريبًا الدوران منه والعودة، وفي غضون ذلك نجحنا في إغلاق الزقاق.

في الأثناء انطلق المرشد عليٌّ أمامنا واختفى في أحد البيوت ليعود في لحظة مع محمد، مرتديًا ثيابه الجميلة البيضاء الجديدة، كان يبدو وسيمًا، ولكنه مرهقٌ من ليالي الاحتفال التي لا ينام فيها، ولكنه كان وَدودًا للغاية مع ترحيبه بنا ومصافحته التي اتَّبع فيها الطريقة الإسلامية التقليدية المتمثِّلة في لمسِ يدي على جبينه وشفتيه وموضع قلبه. ثم قادنا، تتبعه سلسلة من الشباب الفضوليِّين، حيث صعدوا بنا إلى ممرٍّ ضيِّقٍ، ثم إلى مدخل البيت، وهنا توقَّف محمد ونادى بالعربية.

استجابت عجوزٌ لندائه فقدَّمها لنا على أنها والدته. تمَّ إنجاز عملية التقديم من خلال النظر إليها وهي في مدخل البيت. وعلى الرغم من أنها ظلَّت تتوجَّه نحونا بعيونها العمياء إلَّا أنها لم تُمكِّن الشباب في الخارج من رؤية وجهها. لقد تمَّ تصميم مدخل البيت بحيث لا يستطيع الشخص الواقف عند المدخل رؤية ما بداخل البيت مباشرة. كانت أمُّ محمد عجوزا حقيقية عند النظر إليها، وجهها يبدو وكأنه مُغطًّى بطبقة من الجِلد خشن الملمس، وبه شبكة من الخطوط الدقيقة، مع أخاديد كبيرة من التجاعيد التي أعطتها مظهرَ التضاريس الليبية الأصيلة. حينما نظرتُ إليها، صُدِمتُ من الخراب

الذي ألحَقَته بها الحياةُ في سِنِّ الخمسين، على الأرجح. يبدو أن إنجاب تسعة أطفال ودفن ثمانية منهم لم يكن مَهمَّةً سهلة.

وبينما لم أزل مترنِّحةً من هذا المنظر، أشار لي محمد بالدخول دون أن يدخل هو نفسه، وأخبرنا أننا سنذهب إلى غرفته. في تلك اللحظة، ذهبنا بمعيَّة فاطمة الشابَّة ذات المظهر الجذَّاب والحيوي، حيث وجدنا نفسَيْنا بين ثلاثين -أو نحو ذلك- من الإناث الليبيات. قدَّمَتنا فاطمة لهنَّ في كل مكان، وسرعان ما غمرتنا عملية تقبيل هائلة. وبعد تخليصنا أخيرًا من طرف فاطمة، التي من الواضح أنها مديرة تنفيذيَّة للحفل، والتي بدت قادِرةً على التَّحكُّم في كل موقف، حيث تَمَّ توجيهنا نحو غرفة الزفاف.

حدث قدْرٌ كبير من التقبيل بعد ظُهر ذلك اليوم، حيث رحَّب الجميع ببعضهم البعض بهذه الطريقة. من خبرتي أعرف أن التقبيل مكروهٌ عند الآسيويين، وفكَّرتُ قبل مجيئي إلى ليبيا أنه قد يكون كذاك للِّيبيِّين أيضًا، وأن تصرُّفاتهم غالبًا ما تكون شرقيَّةً أكثر منها غربية، لكنني كنت مُخطِئة؛ فالتقبيل موجودٌ عند اللِّيبيِّين، والرجال يفعلون ذلك فيما بينهم كما تفعل النساء، وهي عملية مداعبة مختلفة تمامًا عن قبلتنا في العالم الغربي التي هي -بمعناها الأعمق- تعبيرٌ حسِّيٌّ عن

مدى العلاقة في الحقيقة. القُبلات الليبية هي مثل القُبلات والعَضّات الخفيفة والقضم الخفيف، وهي تتمُّ بتكويرٍ شديدٍ للشَّفَتيْن على شفاه أو خدود أخرى، وتتكرَّر مرَّات عديدة، على جانب واحد ثم الآخر، مصحوبة بصيحات صغيرة.

مع الوقت لحقنا بفاطمة إلى غرفة محمد، فوجدنا لطفيّة -العروس الصغيرة- جالسةً القُرفصاءَ على الأرض، حيث تهتمُّ بها امرأةٌ فزَّانيَّةٌ سوداء، تعمل في تجميل النساء لحفلات الزفاف. علمنا أن هذه العملية ستستمرُّ لعدَّة ساعات. بدت لي لطفيّة في الثالثة عشرة من عمرها، صغيرة الحجم، وجسدها غير مكتمل النضج، لكن لَفَتَ نظري وجهها الصغير الجميل -أو هكذا يمكن أن أتخيَّله اليوم-. مع ذلك، كانت تضع كثيرًا من أحمر الشفاه، والبودرة، والحِنَّاء، ورسمت عينيها بقلم التخطيط والظل. بالنسبة لي رأيت أن الطبيعة لم تَعنِ القيام بذلك.

مكياج وجهها يتبع نمطًا معتادًا، حتى يصل إلى شفتها السفلى وذقنها، وعليهما رُسِمَ بقلم الحواجب، ما رأيتُ أنه يشبه لحيةَ ڤاندايك الصغيرة الأنيقة، في حين تمَّ رسم بعض الضربات الرأسية الداكنة مثل الشُّعَيرات فوق خدَّيها. وعلمت أن هذه العلامات تدلُّ على انتمائها القَبَلي.

كذلك تمَّ طِلاء يديها وقدميها الصغيرتين بتصاميم مُعقَّدة من الحِنَّاء، وتمَّ تقسيم شَعرها بعنايةٍ إلى اثني عشر قطاعًا، ثم تضفير كلٍّ منها إلى ضفيرتين صغيرتين بطول الكتفين، والتي جَرَت إطالتها عن طريق إدماجها في ضفائر من الصوف الأسود الثقيل، ملفوفة على نطاق واسع بمشغولات الفضة. لاحظتُ لاحقًا أن معظم الضيوف من النساء ارتدين ضفائرَ اصطناعيَّةً مُماثِلة، مربوطة إلى ضفائرهن الأقل وَفرَة.

في مراتٍ عديدة خلال شهور إقامتي الأولى في ليبيا فكرتُ في حياة هؤلاء الزوجات المحجَّبات المنعزلات عن العالم، وتساءلتُ كيف يكون شكلهن. كنتُ أظنُّ أنَّهنَّ لا بُدَّ وأن يفتقرن إلى ذلك الحافز

الأنثوي الغربي لإبداء الزينة، والنضال لنَيْل الحصول على إعجاب الرجال، ومن ثَمَّ الاحتفاظ به، وبالأخص رجُل المرأة نفسها. هذا النضال في العالم الغربي لنيل إعجاب الرجل شرسٌ وتنافُسيٌّ، ولا شكَّ أنه يُعبِّر عن الكثير من الأشياء التي نفعلها نحن النساء ولا يمكن تفسيرها.

لكن في ليبيا، لا تستطيع المرأةُ مُمارسةَ هذا النضال في فضاءٍ مفتوح كما في عالم الغرب؛ فلن يفيدها أن ترتدي لباسًا ربيعيًّا جديدًا ليزيد من سحرها وأنوثتها، وحتى يرى زوجها نظرات الإعجاب في أعين الرجال الآخرين، الذي يدلِّل على أن زوجته جائزةٌ تستدعي الاهتمام. أمَّا هنا فذلك الإعجابُ في عينَيْ رجُلٍ آخر قد يكون سببًا للقتل، وليس بالضرورة للرجل الآخر، بل أكثر احتمالًا للزوجة. ففي هذا الوقت في عالَم الليبي المسلم، يمكن للرجل أن ينظر فقط إلى وجه أمه وزوجته، ولا ينظر إلى أيِّ امرأة أخرى، إلَّا إذا لم تكن ليبيَّةً ومُسلِمة مثلي.

في ليبيا، يُنظَرُ إلى قاعدة العُزلَة بصرامةٍ على أنها مثاليَّة للزوجات، لدرجة أنَّ الزوجة المثالية من الطبقة العليا نادرًا ما تخرج من بيتها بعد الزواج. ويأتي الاستثناء لهذه القاعدة بعد عام من الزواج، أو بعد ولادة الطفل الأول، حينما يُسمح للزوجة بزيارة بيت والديها. وهذا المفهوم الضيق لحجب الزوجة الصالحة يُرمَز إليه بزوجٍ من الأحذية غير البالية، تحتفظ به المرأة؛ ففي هذا الحذاء تزوَّجَت المرأة، وفي وجود هذا الحذاء نفسه يجب أن تُدفَن، ولا يزال الحذاء لامعًا كأنه جديد. يتمُّ تحديد مفهوم العُزلَة بشكل صارم عند الطبقة العليا، باستثناء ما يقرب من نصف دزينة من حالات زوجات الليبيين الذين تلقَّوا تعليمهم في الغرب، وبالتالي حصلن على القليل من الحرية. ويمكن للمرء أن يطمئنَّ إلى أن النساء القليلات اللاتي يراهنَّ المرءُ في شوارع طرابلس مُلتَحِفات بالفرَّاشيَّات ويسرعن الخطى بعينٍ واحدة في وسط السباق المحموم للسيارات والحافلات والدراجات وعربات الحمير والجمال- لسن هُنَّ الساحرات زوجات الأفندية الذين قد تكونُ قابلتَهم في حفل الكوكتيل الليلة الماضية؛ فزوجاتهم لا

يخرجن للتسوُّق. قد تكون أولئك النسوة في الشوارع من الزِّنجيَّات، أو البيض أو السُّمر، أو العبيد، أو الخادمات، لكن لن يُكنَّ «نساء» ينتمين إلى العقيدة الإسلامية الليبية.

بعد أن فكَّرتُ بقلقٍ في الكثير من النساء المُهمَلات في ليبيا، راقبتُ المشهد بفضولٍ شديد في يوم الزفاف هذا لإلقاء نظرة عليهنَّ، وللتَّمعُّن في حياتهنَّ المرهِقة. ولا شيء كان يمكن أن يفاجئني أكثر من الأجواء المَرِحة التي صادَفتُها في هذا التجمُّع الصاخب أمام ناظريَّ، وفي هذا الحفل الأنثوي البدائي الخاص. حيث يشعر المرء أنَّ هؤلاء الإناث لسن نساءً تَرَبَّين في المدينة، سواء في العشوائيات أو في القصور، بل أقرب إلى أن يكُنَّ من البربر ومن بنات المدينة القديمة، أو من الخيام السوداء في الصحاري والسهوب، أو من الكهوف، أو من بيوت الحصائر المنسوجة لمُزارِعي الشعير. هؤلاء النسوة يتمتَّعنَ بالحيوية، واليوم يمضين وقتًا رائعًا.

حتى نظريتي حول دافع المرأة للزينة الذاتية انهارت هنا، حينما رأيتُ الإثارة والفرح لدى هؤلاء النساء وهُنَّ يتفحَّصن الأزياء الرائعة لبعضهن البعض، وكل واحدة كانت ترتدي «أفضل ثيابها»، بل كُنَّ يرتدين الملابس من أجل إثارة إعجاب الأخريات كما نرتديها نحن لإثارة إعجاب الرجال. كان انطباعي العام عن الملابس في أول حفل ليبيٍّ للسيدات أحضره هو أنه قوسُ قزح من الألوان.

كانت السيدات ملفوفات في عديد الأمتار من الأقمشة البرَّاقة بخطوط متناوبة من اللون الفيروزي، إلى الأرجواني والأزرق الداكن أو الوردي الفاتح. وهناك أقمشة أنيقة أخرى. كانت البلوزات الأنيقة مطرَّزةً بخيوط مُذهَّبة ومغمورة جزئيًّا تحت هذه الأقمشة، بينما استقرَّت كُتَلٌ من الذهب الثقيل (على ما يبدو) على الصدور. ما لا يقلُّ عن النصف لديهن أطفالٌ يرضعون من صدورهن، وجميعهن لديهن أطفال يتشبَّثون بهنَّ. كانت الشابَّات جميلات، أو مليحات، ممتلئات بالحياة والحيوية والبهجة. ومع ذلك، بدت المُسِنَّات منهنَّ أكبرَ سنًّا بكل المقاييس، مثل والدة محمد، التي لم تكن كبيرة جدًّا في

العمر -ربما ليس أكثر من خمسين- ولكنها بَدَت وكأنها في المائة من عمرها. كان الأمر كما لو أنه لا توجد نساء في منتصف العمر في هذه البلاد.

كذلك ليس هناك ما نطلق عليه نساء في عمر النضج حيث يبدو أنَّهنَّ انزلقن جميعًا من الشباب مباشرة إلى المرحلة الهَرِمة. ومع ذلك، كانت الفتيات في سِنِّ الخامسة عشرة والسادسة عشرة -وحتى الثلاثين من العمر- جميلاتٍ بشكل ساحر، وبطريقة جامحةٍ، يشبهن الغجريَّات، وهو ما يناسب روح المتعة المجنونة السائدة في الحفل.

غالبية الفتيات الحاضرات لهُنَّ عيون سودٌ وشعر داكن، والقليل منهن لديهن عيون زُرقٌ واسعة وشَعرٌ متوسِّط الشُّقرة، أو مصبوغٌ بالحنَّاء. كان للفتيات السمراوات أنوفٌ طويلة وقوية، يمكن وصفها بأنها رومانية أو عربية أو عبرية، حسبما يرغب المرء في تصنيفها. أمَّا الشقراوات فلهُنَّ وجوه أكثر نعومة وأنوف أصغر ومُدبَّبة، وربما هُنَّ أكثر شبهًا بالأمازيغيات من السُّكَّان الأصليِّين.

هناك عدد قليل جدًّا من الزنجيات المليحات للغاية، لهُنَّ بشرة شديدة السواد وملامح زنجية إفريقية خالصة. كانت ثلاث من هؤلاء السيدات الأكثر أناقة في اللباس ومُثقَلات بالحُليِّ والجواهر أكثر من كل الحاضرات. قيل لي في وقت لاحق إنهن الزوجات الثواني للِّيبيِّين الأثرياء، أفندية الأفنديَّة، كما يصفُ محمدٌ رجال الطبقة العليا الليبيين الأثرياء.

أثناء عملية تزيين العروس في غرفة محمد، تمَّ حَثُّنا عدَّةَ مرَّاتٍ للذهاب وإلقاء نظرة خاطفة على التقدُّم المُحرَز. وفي الخامسة والنصف، اقتادتنا خبيرة التجميل السوداء إلى الفناء، كان رأسُ العروس ووجهها مُغطًّى بالكامل بستارة من الساتان. لم يتم الكشف عن وجهها أخيرًا حتى القيام بلفَّات تقليدية فوق رأسها، وكان يجري ترديد ترانيم الزفاف، وبعد الكشف عنها أخيرًا تعالت صيحات الإعجاب من صديقاتها. ذُهِلَت الحاضرات إلى حدٍّ ما لطلَّتها؛ فقد بدت بالفعل أشبهَ بأميرة شرقية، أو شخصية ما في دراما صينية،

أكثر منها مراهقة عربيَّة فقيرة، كانت على وشك الزواج من «ابني محمد»، بدخلٍ شَهريٍّ قدره ثلاثة وثلاثون دولارًا!

كانت لطفيّة، ترتدي سروالًا تركيًّا حريريًّا مَخفيًّا جزئيًّا تحت عدد من السُّترات المخملية المنفصلة، كل واحدة منها بدرجات ألوان زاهية مختلفة. كان صدرها مخفيًّا بقلائد ذهبية ودبابيس وأساور وأقراط ذهبية تتدلى من أذنيها إلى كتفيها، في حلقات بحجم استدارة الكأس. ولها خلخال فضِّيٌّ واسعٌ لربط سروالها، وأساور لتثبيت أكمامها.

لطفيّة يتيمة، وتعمل مساعِدةً في بيت والدة سالم، وكنتُ أتساءل من أين أتت بالحُليِّ والمجوهرات، لكن عَلِمتُ لاحقًا أنه من المعتاد استعارة قَدْر مُعيَّن من المجوهرات لحضور حفل زفاف ما، والباقي يُمثِّل هدية من محمد، بالإضافة إلى مهرها الخاص، والذي ربما كان كل الأجر الذي تتقاضاه في حياتها ويتمُّ تحويله إلى ذهب.

حتى الآن، كانت بعض الفنانات السوداوات المُسِنَّات يُطلقن موسيقى إيقاعيَّةً شبيهة بالطبل من خلال النقر على قاع ثمار القرع المُجفَّفة بالأصابع والكفوف، بينما الضيوف يرقصون، واحدة تلو الأخرى، في وسط دائرة تمَّ تشكيلها من قِبَل الضيوف والعائلة. الجميع تقريبًا -باستثناء كلوثا وأنا- أخذن دَورًا للرقص، من فتيات صغيرات في عمر سنتين وثلاث سنوات إلى والدة محمد نفسها، التي انهارت مؤقَّتًا على الأرض بعد جولتين. الرقص دائمًا هو نفس الرقص الشرقي الحِسِّيِّ البدائي، الذي كان يهدف بوضوحٍ إلى الالتزام بعادة الاحتفالات لسبعة أيام. وفي غضون ذلك كان الجميع يُوَلْوِلْن ويزغردن بحرارة، بمن فيهم أنا وكلوثا.

الجميع -باستثناء كلوثا وأنا- جالسات على الأرض حينما لا يرقصن. وعلى الرغم من رغبتنا في الجلوس على الأرض مثلهن، إلَّا أنه لم يُسمح لنا بذلك، وكان يطاردنا باستمرارٍ كرسيَّان غير مُريحَيْن تمامًا، بظَهرٍ مستقيم، مع وسائد بيضاء فاخرة عليهما أينما ذهبنا،

حتى استسلمنا وجلسنا عليهما كما أردن لنا؛ وبالتالي أرحنا الجميع، ما عدا أنفسنا.

كان من المدهش أنه على الرغم من عدم تحدُّثِ أحدٍ غيرنا كلمة واحدة باللغة الإنكليزية، إلَّا أننا جميعًا نفهم بعضنا البعض جيدًا، ويرجع الفضل في ذلك إلى حدٍّ كبير إلى روح الصداقة الدافئة التي تمَّ غَمرُنا بها، على ما يبدو بسبب إلقاء التحايا الصحيحة باللغة العربية حينما دخلنا، كما علَّمني محمد، ثم إعطاء الإجابات الصحيحة عن صحَّتي باللغة العربية، مصحوبةً بعبارات التعجُّب العربية المعتادة «الحمدو لله!». لقد ضلَّلتُ الجمع، حتى اعتقدن أنني أستطيع التحدُّثَ بالعربية. ولكن حينما شعرَت السيدات بالسعادة لأنني أتحدث لغتهنَّ، واستمررن في المحادثة، كان عليَّ أن أُوضِّح جهلي باللغة.

بحلول الساعة السابعة، حينما كنت أنا وكلوثا نستعدُّ لخروجٍ مُهذَّب، بعد أن أمضينا سِتَّ ساعات هناك، أُجبِرنا حرفيًّا على الجلوس إلى مقاعدنا مرة أخرى من قِبَل المديرة التنفيذية، التي أحضَرَت الآن طبقين هائلين من وجبة الكسكسي، ودُعينا لتناول الطعام. ونظرًا لأننا كنَّا نأكل ونشرب طوال فترة ما بعد الظهيرة، مع الشاي شديد الحلاوة، والكعك الحلو، والحلويات المُحلَّاة كثيرًا، التي تمَّ حَثُّنا على تناولها بلا كَلَلٍ من قِبل الجميع؛ فقد كُنَّا بلا شَهيَّةٍ تمامًا، ولا سيما أنه لم يتمَّ تقديم الكسكسي لغيرنا من الحضور. ربما سيأكلن في وقت لاحق، هكذا ظننت. لم أفهم ذلك مطلقًا، أو ربما ذلك معتادٌ عند الليبيين حينما يقدِّمون لزُوَّارهم أفضلَ بكثيرٍ ممَّا يمكن أن يحصلوا عليه لأنفسهم. بعد أن بذلنا قصارى جهدنا مع الكسكسي، بدا أنه لا يزال هناك قدرٌ كبير تبقَّى في أطباقنا، لكننا شعرنا بالثقة من أن جحافل الأطفال المتسكِّعين حولنا سيُنهون ما بدأناه.

تبادَلنا القُبَل مع جميع الحاضرات، نلامس شفاهنا المكوَّرة بالخدود، ونثرثر بعبارات الوداع و«الحمدو لله»، نتخطَّى الرُّضَّع،

وندور حول العجائز في طريقنا نحو المَخرَج. العروس فقط غادرناها دون تقبيل. حيث كانت تجلس بلا حراك تقريبًا بملابسها الأنيقة في وسط الغرفة طوال الساعتين الماضيتين، وكلتا يديها مُسطَّحَتان على رُكبَتَيْها، تضع قدميها في نعل زفافٍ فضي مسطَّح على الأرض أمامها. وتقليديًّا لا يُسمح لها بالتحدُّث أو الضحك، على الرغم من أن صديقاتها المشاكسات يبذلن جهدَهنَّ لجعلها تفعل ذلك. لكنها بطريقتها الخاصة تستمتع بوقتها، فهي مركز الاهتمام وموضوع كل الإعجاب هذا اليوم.

أثناء خروجنا من الباب الخارجي، لا يزال بإمكاننا سماع المرح الصاخب المستمرّ خلفنا. وإذا ما كانت الليبيات يتعرَّضن للقمع ويَعِشن حياة بائسة، كما كنت أتخيَّلهنَّ من قبل، فبالتأكيد ليس ذلك في الأعراس!

خارج البيت التقينا مُحمَّدًا مَرَّةً أخرى، الذي يمكث هذه الأيام في بيت أحد أصدقائه؛ حيث لا يمكنه العودة إلى بيته حتى تغادر السيدات غير المحجبات. فقط كيف ومتى سيجتمع مع عروسه للبناء بها، لم أَصِل إلى نتيجة! لكنني أعتقد أن الأمر سيستغرق بضعة أيام قبل أن يشعر محمد بالحيوية الكافية للقيام بالعمل في بيتي مرة أخرى.

10. إسلامٌ لا يتغيَّر

بعد عديد من اللمحات المُحبَطة عن الإنسان الذي يدمِّر الطبيعة، كان من دواعي سرورنا أن نُرتِّب أخيرًا رحلة إلى واحة الصحراء الأسطورية، مدينة غدامس أو «لؤلؤة الصحراء» التي قرأنا عنها كثيرًا. لا أعرف أوَّل مَن أطلق عليها وصف لؤلؤة، لكن هذا الوصف استمرَّ يقترن بها منذ ذلك الحين، فالاسمُ يناسب منظر المدينة ذات الجدران البيضاء الساطعة والمضيئة وسط الرمال، وأنت تقترب منها.

هنا، في وسط الصحراء، وبفضل مَصدَر مياهٍ ارتوازيٍّ منَحَه الله؛ كفَّر هذا المخلوق المدمِّر لذاته عن نفسه، بزرع الحدائق الخضراء، وبساتين الفاكهة، وبساتين النخيل الذهبية المُحمَّلة بالتمور، وأن يُشيِّد -عرفانًا بفضل الإله- مدينةً خَفيَّةً، مشهورة منذ آلاف السنين في كل إفريقيا.

قبل ثلاثة آلاف عام، كانت غدامس معروفةً للمسافرين بأنها مكانٌ يرتوون فيه من عطش الصحراء، ويُعتقد أنها هي غيداموس التي ذكرها المؤرِّخ الإغريقي بلايني الكبير. وتظل هذه المدينة اليوم كمَعْلمٍ إسلامي نبيل، تُظهر كرمها دائمًا لعابري الصحراء. حتى إنه يتم الترويج لها كمَعلَمٍ سياحي، كما لاحَظتُ في المنشورات السياحية الليبية، لكنني أعتقد ومن خلال رحلتي الخاصة هذه أنه قد يتطلَّب الأمرُ بعض الوقت قبل أن تفي المدينة بمتطلَّبات الراحة التي ينشدها السُّيَّاح. كان ذلك فقط بعد ثلاثة أيام طويلة وشاقَّة في سيارة لاند روڤر تتأرجح على ما يُعدُّ بالكاد طريقًا حينما وصلنا إلى المدينة.

كانت مجموعتنا تتألف من هنري لو هاورو، عالم البيئة في منظمة الأغذية والزراعة من تونس، وجان سبرينكل، وهو مهندس زراعي في منظمة الفاو، وأحمد، سائقنا الليبي، ثم هاري، وأنا... معنا ثلاث سيارات لاند روڤر. وكانت مَهمَّة هاري البحث عن مواقع مُحتَمَلة

لزراعات الأشجار، وكذلك هناك جان؛ لتحديد مواقِعَ مُحتَمَلة لزراعة الحبوب، وكانت مَهمَّة هنري إقامة المشاتل الزراعية.

استغرَقَت رحلتنا وقتًا أطول بسبب التوقُّف ليومٍ وليلة في نالوت، التي ليس لها مثيل في كل ليبيا، وتقع على قِمَّة جبل نفوسة الأحمر، التي تشبه عشَّ النسور أكثر من كونها مدينة. نالوت قرية قديمة للبربر، وتم تأسيسها للدفاع ضد مهاجمي القرون الماضية من الفينيقيين، وحتى الأتراك، وللدفاع ضد محاولات تغيير طائفتهم الإباضية الإسلامية، وللحفاظ على الأصول العرقية الأمازيغية من الاختلاط.

الحَجَر الأساس والمعلَم الرئيس لنالوت، هو حصنُها البربري القديم الذي كان ولا يزال يُستخدم كمخزن لمتعلَّقات البربر الثمينة، بعبارة أخرى: منتجاتُ أراضيهم الصغيرة المرتفعة. ففي عالَمٍ لا معنى فيه للمال، هذا هو «البنك» الفِعليُّ لسكان هذه المنطقة؛ هنا يُخزِّنون محاصيلهم، وتمورهم، وصوفهم، وأي شيء يرونه ثمينًا. كل عائلة لديها مخزنها الخاص بها، ويوجد منها أكثر من ثلاثمئة، يحرسها فقط رَجُلٌ مُسِنٌّ ينام فيها طوال الوقت. ومع ذلك، لا تحدث السرقة مُطلَقًا هنا، كما قيل لنا.

المخزن محفور في واجهة الجُرف الصخري الصلب، بالإضافة إلى البناء في الأعلى بكتل من الحجر الغاري. هنا يبدو المرء عاليًا في السماء، ومنفصلًا كثيرًا عن العالم من تحته، لدرجة أنني شعرتُ بإحساس طاغٍ بالأمان والهدوء والتحرُّر من القيود؛ ولهذا اعتقدتُ أن سكان نالوت من طينة مختلفة، وخارقين تقريبًا؛ لما يتمتَّعون به من صلابةٍ مقارنةً بسكان السهول من تحتهم.

قضينا الليلة في «الفندق» الصغير على حافَّة الجُرف الذي فتح لنا بابَه شرطيٌّ وَدودٌ من نالوت. كان المكان شديد البرودة مثل قبو ضريح لم يُفتح للزُّوَّار لأكثر من عام. وضعنا أسِرَّتنا النَّقَّالة وأكياس النوم على الشُّرفة المُطِلَّة على الجرف وعلى الأراضي المنخفضة البعيدة. كان غروب الشمس في نالوت الذي يُشاهَد من هناك لا

يُنسى، حيث غرقت الشمس البرتقالية بسرعة في الأرض المتدفِّقة باللون الأحمر، تارِكةً وراءها سهلًا مصبوغًا باللون البرتقالي غير المحدود، مع أشباح من البربر تعود إلى قرونٍ مَضَت، والذين كانوا شهودًا على تلك العصور الحجرية المُقفِرة، يترقَّبون وصول العدوِّ إليهم. لكنَّ العدوَّ اليوم موجودٌ، وإن يكن غيرَ مُعتَرَف به، ويتمثَّل في التربة المتلاشية والرمال الزاحفة.

في هذا السهل الذي يفيض بالمياه أحيانًا يأمل هاري أن تكون هناك إمكانية لبدء زراعة أشجار الأوكالبتوس. لقد رأى الآن أنه بدون سَيَلان الماء أوَّلًا سيكون الأمر ميؤوسًا منه. وعلى منحدرات الحجر الغاري التي تتعرَّض لهبوب الرياح في الأعالي، والتي تآكَلَت الآن فتحوَّلَت إلى شكل الهيكل العظمي؛ فإن البدء في عملية الزراعةٍ سيتطلَّب أموالًا أكثر مما كان متاحًا.

غادرنا نالوت في صباح اليوم التالي وشققنا طريقنا عبر الصخور والتعرُّجات الأخيرة للجبل الأحمر، الذي كان جَماله الأخّاذ هنا هو لونه الباهت؛ ما شكَّل تبايُنًا مُبَهرَجًا مع الجيوب الصغيرة الأرضية المليئة بالتربة، والتي قام البربر بتهيئتها في المنحدرات وزراعتها بشَعيرٍ زُمرُّدي اللون وأشجار النخيل الخضراء.

كان يومًا آخر اقترن بالمشقَّة والصعوبة في التقدم، صعودًا وهبوطًا بقدر ما هو للأمام. هذه أوَّل تجربة لي في القيادة على طريق غير مُمهَّدة، والتي تشبه القيادة على طول الأربطة الخشبية للسكك الحديدية، فهي تُصبح أسهل كلَّما قُدت بشكل أسرع- حتى اللحظة التي تضرب فيها البُقعَة التي تفتقد فيها ستة أو سبعة روابط من الألواح! كان هاري وهنري مشغولين جدًّا في جمع النباتات، بحيث لم يلاحظا صعوبة الطريق، وربما كان جان سبرينكل أصغرَ سِنًّا من أن يشعر بآلامها، لكن أحمد وأنا كثيرًا ما واسَينا بعضنا البعض مع كل خبطة، أو اضطررنا إلى توقُّفٍ مُتقطِّعٍ على لوح مكسور. لطالما كان أحمد يناديني بماري؛ لسببٍ ما لم أفهمه أبدًا، واعتقدَ أنني أُمثِّل إلى جانبه الشخصَيْن المُرْهَقَيْن في الرحلة؛ هو لأنَّ لديه سبعة أطفال، وأنا

لا أطفال صغارا لديَّ! على أي حال، كل رحلة صحراوية لها مفاجآت، ومفاجأة هذه الرحلة بالنسبة لي أننا وصلنا أحياء.

هناك فائدة إضافية لتلك الطريق غير الممهَّدة، وهي أنك ستحاول بالتأكيد الهروبَ منها، وسَلك مسارٍ غيرها، الأمرَ الذي ينتهي بخسارتك للمَسار الذي يصعب رؤيته في أحسن الأحوال. هذا بالضبط ما فعلته أنا وأحمد وهاري؛ ما أدَّى إلى تضليل السيارتين الأخريين أيضًا، وانتهى بنا المطاف نحن الثلاثة عبر الحدود التونسية.

لحُسن الحظ، حينما وجدنا أنفسنا نسافر مباشرة نحو الشمس، بدلًا من إبقائها على يميننا، أدركنا أننا ذهبنا بعيدًا جدًّا إلى الغرب، ويجب أن نكون قد عبرنا الحدود القريبة؛ ومن ثَمَّ غيَّرنا اتجاهنا على عَجَل، واتَّجَهنا شرقًا، حريصين على العودة إلى ليبيا قبل أن تكتشفنا دورية الحدود التونسية. وبسبب استمرار تهريب الأسلحة إلى الجزائر؛ فإن شرطة الحدود نَشِطَة للغاية الآن. وهنا تذكَّرتُ قصة جاكي غارنيت، وكيف قضى هو وكلوثا إجازتهما في مركز الشرطة التونسية، حينما عبرا الحدود بالخطأ!

بحلول السابعة مساءً كنَّا خارج جدران غدامس الحجرية البيضاء الشهيرة التي يبلغ ارتفاعها مترين ويزيد، حيث تُرَفرِف قِمَمُ أشجار النخيل فوق معقل الصحراء المزخرف هذا. الشيء الغريب الذي يلاحظه المرء على الفور عن غدامس هو أنه خارجَ بوابات المدينة مباشرة توجد مستوطنة خارجية كاملة من الخيام والأكواخ، وهي مساكن قبائل الطوارق القوية، الذين كانت المدينة تابِعةً لهم ذات يوم. وعلى الرغم من أن غدامس بُنِيَت كمدينة للطوارق، إلا أن الطوارق أنفسهم لم يعيشوا داخلها. إنهم بدوٌ رُحَّلٌ حقيقيُّون، وشعب صحراوي حقيقي، ولن يتخلَّوا أبدًا عن الخيام، أو يُشيِّدوا مساكن داخل أسوار المدينة.

في أيام تجارة الرقيق حينما كان الطوارق يديرون قوافل العبيد، كانوا يمتلكون العديد من العبيد الذين كان عملهم يتركَّز في بناء مزارع وبلدات لأسيادهم الذين احتفظوا بعبيدهم وحيواناتهم داخل

الأسوار، بعد أن قطعوا أوَّلًا أخيلةَ العبيد (أوتار كعوبهم) حتى لا يتمكَّنوا من الهرب. واليوم، داخل الجدران سُكَّان غدامس هم من البربر والعرب وأحفاد الزنوج من عبيد الطَّوارق.

داخل بوابة المدينة وجدنا فندق «عين الفرس»، وهو مبنًى جذَّابٌ من طابق واحد، وذو مَظهَرٍ شرق أوسطي، والذي سمعنا أنه كان دائمًا مليئًا بعائلات الضُّبَّاط الفرنسيين التابعين لإدارة فزَّان الفرنسية الذين يقضون فيه عطلاتهم وأوقاتًا مَرِحة. الآن، بعد أن أصبحت فزَّان ليبيَّةً بالكامل، لم تَعُد العائلات التي تقضي العطلة موجودة، أي (مَن يستطيعون الدفع وإنفاق المال!).

الليلة، الفندق مغلقٌ بالأقفال. «لا عليكم»، يخبرنا الشرطي الذي رافقنا من بوابة المدينة، وسوف يتَّصِل بمحمد ليأتي ويفتح الباب. يأتي محمدٌ، وهو أسودُ البشرة طويلُ القامة، يحمل معه المفتاح الحديدي الضخم الذي يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمترًا، والذي يُمثِّل حجمه رمزًا لغدامس. بينما يفتحُ الباب، ويدير المفتاح سبعَ مَرَّات للقيام بذلك، يؤكِّد لنا بجدية أن اليوم هو أول يوم «يُفتح» فيه الفندق! لا

يوجد طعام، كما يقول، ولا فراش، لكن يمكننا النوم بالداخل وتدبير أمر طعامنا بأنفسنا.

هاري مسرور بهذه الإجابة على دعاية تقول: «غدامس، جنَّةُ السائحين، الرحلة التي تسرُّ الجميع!»، وهو أحدث إعلان سياحي ليبي، ونحاول أن نتخيَّل حافلة مليئة بالسياح تُفرغ حمولتها هنا دون وجبة طعام أو أسِرَّة! لكن على أي حال لا يمكن حدوث ذلك؛ فلن تستطيع أي حافلة أن تسلك هذا المسار.

كما هو الحال في نالوت، بالداخل يلفُّنا البرد وما تشبه رطوبة القبر. نفتح أبواب ونوافذ الفندق ونختار بين غرف النوم الصغيرة الفارغة، ونفتح أكياس النوم الخاصة بنا على الأَسِرَّة، ونتأكَّد من عدم

وجود ماء بالفعل في المرحاض، لكن حوض غسيل اليدين به ماء- يا له من حظ!

الآن إلى مطبخ الفندق المظلِم والقذر، حيث أضاء جان بعض الشموع وقام بإعداد موقد الغاز الصغير الخاص بنا، بينما أقوم بإعداد معكرونة بولونيزي، بمعنى آخر: السباغيتي الممتازة! وأحمد يساعدني، وهذه المساعدة تتمثَّل في إضافة المزيد والمزيد من الفلفل الأحمر ومعجون الطماطم. بحلول الوقت الذي أصبح فيه الطعام جاهزًا، جاءنا عددٌ من رجال شرطة غدامس كضيوف. بدا هنري كريمًا مع الليبيِّين، وقد قام هو وهاري بمحاولة تسجيل الأسماء الليبية للنباتات التي جمعوها من رجال الشرطة. ووجدتُها فرصة جيدة لي لتجربة لُغَتي المتوسطية معهم، والتي هي مزيج محلي من الفرنسية والإيطالية والعربية والإنكليزية.

نحملُ الطعام إلى بهو الفندق المضاء بشكل خافت بشمعتين، ونجلس على ديوانٍ مُحطَّم، وكراسي مُقعَّرة، ولفافة فراش، ونتناول معكرونة لذيذة تنطلق منها الأبخرة، مع النبيذ الأحمر -لمن يرغب، بالإضافة لي وهنري-، والشاي الليبي للآخرين. قبل أن ننتهي، يكاد النعاس يغلبني فنسير إلى الفُرُش متعثِّرين...

في الصباح كانت هناك رطوبة داخل الفندق، وكذلك بعوضٌ سمين ممتلئٌ بالدِّماء يلتصق بالحائط، حيث امتلأت الردهة بروائح صلصة الطماطم والنبيذ، لكن الشمس أشرَقَت في ساحة الفناء، وظهر شرطيٌّ معه ستة أرغفة طازجة من خبز غدامس السَّاخن، وسرعان ما تناول هاري القهوة الساخنة.

غدامس مدينة من مستويَيْن، وشوارع الطابق السفلي تشبه بشكل ملحوظ ممرَّات الأبراج المُحصَّنة أو الأنفاق، فهي ممرَّات ضيِّقة ومُظلمة، مُضاءة فقط من خلال فجوات قليلة في السقف أو لمحة مفاجئة من الضوء في الفِناء. فيها تدور مسرحية الضوء والظل، واللون الأسود على المرمر، والظل العميق الذي تُمزِّقه خيوط من أشِعَّة

الشمس الحارقة- هذه التَّغيُّرات المتباينَة هي تعبيرُ عن سحر المدينة وتضيف إلى غموضها.

محيط غدامس المحاط بأسوار يبلغ ستة كيلومترات ونصف فقط، والمدينة عبارة عن متاهة من الشوارع المخفيَّة بعدة مداخل، وتحتلُّ جزءًا صغيرًا جدًّا من المنطقة. وفي هذا الصباح، مُعتَقِدين أننا سوف نتجوَّل بمفردنا، كانت بداية خاطئة بالذهاب إلى أقرب نفق. والتقينا على الفور تقريبًا بشيخٍ مُسلِم أخبرنا أن هناك مسجدًا بالقرب من عين مياه تأتيها النساء للحصول على الماء؛ ولهذا السبب لا يجب أن ندخل إلى المكان. اقترح علينا العودة إلى بوابة المدينة، والطلب من رجل الشرطة أن يرشدنا، وإلَّا فقد لا نتطفل على النساء فحسب، بل سنضيع بالتأكيد.

اتَّبعنا نصيحته، وسرعان ما تمَّ تكليف محمدٍ آخر من الشرطة لمرافقتنا. الآن حاولنا ولوج المتاهة عبر نفقٍ آخر، حيث كان علينا في بعض الأحيان أن نتحسَّس طريقنا في العتمة، لكن في أوقات أخرى، بمساعدةٍ من أشِعَّة الضوء المنبعثة من حواجز شبكية من فوقنا، لمحنا العديد من مداخل البيوت المنحوتة من جذوع النخيل بشكل رائع، على الرغم من أن المباني نفسها كانت من الطين. وأكَّد لنا المُرشِدُ أننا لن نرى في أي وقت نساء غدامس، إلَّا عند ذهابهن إلى الينابيع لجلب الماء، حيث كانت حياتهن كلها في المدينة الثانية من فوقنا، والمخصَّصة للنساء فقط.

هناك تفرقة صارمة أخرى في مدينة المتاهة الصغيرة هذه، حيث تحتلُّ كل مجموعة من المجموعات الثلاث التي تسكنها: البربر والعرب والأفارقة السود- أحياء منفصلة عن بعضها، ولا يختلطون. وحتى بين هذه المجموعات هناك انقسامات أو طبقات مُحدَّدة، على النحو التالي: (1) أحفاد النبلاء، (2) الغرباء المتزوجون من العبيد، (3) الخدم، (4) العبيد.

بعد أن اعتادت عيناي على الظلام في الشوارع الشبيهة بالمقابر، بدأتُ أرى أن كل باب بيتٍ يحمل علامة ما أو تعويذة أو سَمكةً أو قرنًا

أو نجمة أو هلالًا، أو خميسة فاطمة -وهي ابنة الرسول- للحماية من السحر وعين الحسود. من الواضح أن السُّكَّان ملتزمون بتعاليم الإسلام المتشدِّد، وعلى الرغم من أن هؤلاء كانوا، من المؤمنين الراسخين بوحدانية الله، إلَّا أنهم لم يتخلَّوا تمامًا عن استخدام طقوس الحماية من السحر.

حيثما وجدنا بضعة أمتار من ضوء الشمس، تمَّ بناء مقاعد طويلة من الطين قرب الجدار، وهنا يجلس الرجال متجمِّعين، متلحِّفين بجلابيبهم الطويلة الواسعة، بوجوه صارمة، وساكنين بلا حراك، دون عملٍ أو طموحٍ أو أيِّ نوع من الترفيه. على ما أعتقد، لم أرَ من قبل مدينةً بأكملها مدفونةً على قيد الحياة. وتذكَّرتُ على الفور سُكَّان طرابلس المَرِحين في مقاهي الأرصفة يراقبون الفتيات اللاتي يَمرُرن أمامهم. حمدًا لله على تبدُّلات الزمان! وحمدًا لله لوجود طرابلس المليئة بالحيوية! بدا لي أكثرَ فأكثرَ أن غدامس تفوح منها رائحة الموت؛ فهنا يُطبَّقُ إسلامٌ ثابتٌ غير قابل للتغيُّر، وبمنأى عن متطلَّبات الحياة.

انتهى الممر الذي سلكناه في ساحةٍ مَطليَّة باللون الأبيض، محاطةٍ بفواصل مظلمة مقوَّسة تصطفُّ على جانبيها مقاعد للاستلقاء، والأبواب المظلمة المقوَّسة. كنت أعرف من خلال شجرة التوت الرائعة التي نَمَت في الوسط، والتي تلوح في الأفق عاليًا فوق المباني وتُظَلِّل مُعظَم الساحة بأوراقها الخُضر، وعرفنا أن هذا كان السوق القديم في أيام تجارة الرقيق. هنا تمَّ شراء وبيع الناجين من البشر من المسار الإفريقي الملتهب بالدماء مقابل المال.

كان لدى مرشدنا مَعلمٌ سياحيٌّ آخر لعرضه علينا، وهي المئذنة المربَّعة للجامع الكبير، ذلك البرج الإسلامي العالي المسيطر على الأفق، والذي تتشبَّث المدينة السرية حول قاعدته وتختفي. عند النظر إلى أعلى المئذنة، تبدو بيضاء ومُشرِقة في الشمس، وعند الدخول إليها تبدو رطبةً برائحة الموت، لكن الصعود إلى قِمَّتها يكشف أسرار أسطح المدينة.

عُدنا إلى مركز الشرطة وقابلنا مدير مدينة غدامس، الذي كان طويل القامة ونحيفًا له بشرة داكنة، وذا ملامح دقيقة غير زنجية. كان يتحدَّث الفرنسية، وبدا شديد الذكاء. كما التقينا أيضًا بالمسؤول عن خيام الطوارق، الذي كان رداؤه الأزرق يصل حتى قدميه المكشوفتين في الصندل، وكانت عمامته ملفوفةً حول رأسه ووجهه بحيث لا يمكن رؤية سوى عينيه من خلال فُرجَةٍ ضيقة؛ لأنه عند الطوارق يجب على الرجل أن يرتدي الحجاب، بينما تكشفُ المرأة وجهها. تحدَّثنا أيضًا مع المتصرِّف، وهو عربيٌّ مُعيَّن بصفته السياسية، والذي بدا أنه لا يعرف شيئًا عن أي شيء.

عند عودتنا إلى الفندق وجدنا كلايد آدامز، من شركة موبيل أويل، ومعه ثمانية رجال نفط آخرين كانوا قد هبطوا لتوِّهم بطائرتهم الخاصة في مهبط الطائرات خارج بوابات المدينة. قيل لهم في طرابلس إن الفندق «مفتوح»، وكانوا يتوقَّعون تناول غدائهم هنا! فشرحنا لهم الوضع، وأكَّدنا لهم أن لدينا الكثير من الطعام للجميع، وأصررنا على أن يأكلوا معنا. فتحنا عددًا قليلًا من علب الطعام، وعددًا قليلًا آخر من زجاجات النبيذ، وسلقنا طنجرة من الأرز، وجلسنا جميعًا. قال كلايد إنهم كانوا في رحلة «استكشاف»، وبمجرَّد أن انتهينا من تناول الطعام، استقلُّوا طائرتهم مرة أخرى. يعتبر الطيران مفيدًا للاستكشاف، ولكن ليس لاختبار عالَم النبات والتربة.

زُرنا السوق في وقت لاحق، حيث ينعسُ التجار الخاملون. لم تكن هناك ضوضاء، ولا استغلال مطوَّل للسِّلع، بدلًا من ذلك، بدا كأنهم يحمون بضائعهم من محاولات الشراء غير المُرحَّب بها. لكنني نجحتُ أخيرًا في استخلاص زوجين من شبشب غدامس المنسوج باللونين الأصفر والأحمر، حيث أردتُ واحدًا لجورج والآخر لمحمد. وجدتُ في السوق أيضًا خميسة فاطمة الفضِّيَّة الصغيرة التي تجلب الحظ السعيد، واشتريتها من أجل مولود محمد الذي سيولد قريبًا. أراد هنري أيضًا شراء عدد من السبابيط، لكن كان عليه أن الانتظار

لاستلامها في اليوم التالي. ثم ذهبنا إلى سوق الخضار واشترينا البصل والطماطم والبطاطس والسكر.

في وقت مبكِّر من صباح اليوم التالي وصل شرطيٌّ شاب إلى الفندق ومعه المزيد من الخبز الطازج، ومفتاح غدامس ضخم معلَّق حول رقبته. لقد أرسله المدير ليأخذنا إلى منزلٍ في غدامس ويرينا إياه من الداخل. وبتوجيه منه توقَّفنا أمام الباب الأول عند بداية الممر. هذا المنزل -كما يقول وهو يُدخل مفتاحه البالغ طوله عشرين سنتيمترًا في القفل الصدئ ثم يديره إحدى عشرة مرَّة- هو لتاجر ثريٍّ، لديه العديد من المشاريع في طرابلس. في الداخل رأينا عالَمًا مختلفًا. تمَّ تزيين الجدران البيض بشكلٍ مُتقَن بتصميماتٍ قرمزية زاهية، وهناك ثلاثة أبواب مغلقة مُزيَّنة برسومات فارسية أنيقة، في حين أن الخزائن الصغيرة التي لا حصر لها والمثبَّتة في الجدران الطينية لها أبواب مُزيَّنة بشكل متقن باللون الأزرق والأخضر والقرمزي. الشكل نفسه، مثلثات متساوية الساقين (أو مآذن) مع لفائف وأزهار، أعيد تكرارها عدَّة مرَّات.

الأرضيات مغطاة بحصائر من الديس المنسوج. وعلى الجدران مُعلَّقة بكثافة أغطية الطعام المنسوجة يدويًّا، وهي مصنوعة من وُرَيقات النخيل المتداخلة مع خيوط من الحرير الملوَّن والصوف اللامع. قيل لنا إن هذه المتعلقات جزءٌ أساس من مهر أيِّ امرأة في غدامس. يبلغ قُطرُ كل غطاء حوالي خمسة وستين سنتيمترًا، ومزخرفٌ بشكل واضح، وعلى الرغم أنه من الواضح أنها تُستَخدم للزينة هنا، إلا أن المادة نفسها تُستَخدم في جميع أنحاء فزَّان لتغطية أواني الطعام. هناك نوع آخر من الديكورات الجدارية وهو ما يبدو أنه مزهريات نحاسية بأحجام مختلفة. ويُسمَّى هذه النحاس الأصفر اللامع المزخرف بدقَّة بالنرغيلي، وهناك المئات، وربما الآلاف منها مُعلَّقة على الجدران ومُكدَّسة على الطاولات. تم استخدام هذه النرغيلي في الماضي كعملة؛ ولهذا السبب فهي مصنوعة بثلاثة أحجام مختلفة، وبثلاثة أوزان دقيقة، ومن المعدن نفسه. أمَّا سقف المنزل، على ارتفاع طابقين، فله نافذة كبيرة للإضاءة، ويشكِّل سقف الغرفة.

أعتقد أنها الغرفة الأروع التي دخلتها على الإطلاق، ولا علاقة لها مع ما يمكن تسميته بمقبرة غدامس الخارجية. ومع ذلك، فإن هذا الشكل من التقشُّف الخارجي الذي يُخفي التألُّقَ الداخلي الخَفيَّ هو عربيُّ المنشأ. والزخرفة أيضًا عربية نموذجية، حيث كل مدخل مُقوَّس، وكل بابٍ منحوتٌ ومطليٌّ بألوان زاهية. ويؤدِّي درَجُ مُلتَوٍ إلى الطابق الثاني، ويمرُّ بباب مزخرف بشكل مُتقَن لم يُؤذن لنا بفتحه.

الغرفة العلوية عبارة عن شُرفة نصف أرضية، جزء منها تجويف مُغطًّى بستارة، يقول الدليل إنه مخصَّصٌ للنوم. أحد الجدران تغطِّيه ببراعةٍ بطاقات بريدية مُلوَّنة من الشرق الأوسط، والعديد من الصور المتكرِّرة للنبي محمد* وهو يؤدِّي صلاته مع أسدٍ يستلقي بجواره وبجانبه، وابتسامة متكلِّفة على وجهه. على الجدران الأخرى عُلِّقَت صورٌ مشرقة لدول شرق إفريقيا، والمزيد من أغطية الطعام، والمزيد من النرجيلة. ثمَّ يصعد الدَّرَج بارتفاع نصف طابق إلى بابٍ يُفتَح على مطبخ. وهنا توجد ستة أحواض صغيرة يُحرَق فيها الفحم للطبخ، وهناك تنُّورٌ حجري غائر لإعداد الخبز. ولكن لم أرَ أيَّ أثرٍ للمياه أو لكيفية الغسيل.

يصعد الدَّرج نصفَ طابق أخير إلى السطح، حيث يمكن أن أذهب أنا الأنثى فقط. خَطوتُ إلى السطح وارتقيتُ ستَّ درجات أخرى فولجت إلى قُبَّةٍ صغيرة، قِمَّتها تسيطر على مشهد سطوح المنازل المطلية باللون الأبيض في غدامس، بينما تغمرها أشِعَّة الشمس. وتحتوي جميع الأسطح تقريبًا على قِبابٍ صغيرة لامعة في الأعلى، وهي أضرحة عائلية وأماكن للصلاة، وكلها بها أربع زوايا مُثلَّثة مبنية بارتفاع نحو متر؛ لكي تلقي بظلِّها على السطح في أي ساعة.

الأسطح تشغلها النساء من كل شكل وحجم ولون وعمر، يستمتعن بدفء الصباح، الجاف واللطيف، وبالنسيم العليل والسماء الزرقاء الباهتة. هنا ينشرن الثياب ويجفِّفنها (لذلك يجب أن يكون هناك ماء)، وهنا يتمُّ نفض الغبار، وإطعام الدجاج، وحَضن الأطفال، والغفوة على الحصير، وتخمير الشاي، وتقشير اللوز، وتمشيط شَعر

بعضهن البعض، ومن هناك ينادين على سطوح أخرى، يضحكن ويتبادلن النميمة: إنهن يمارسن الحياة؛ فلا وجود لروائح القبور هنا! ولِمرَّةٍ وحيدة تنال الأنثى هنا غايتَها وتفوز.

حينما يغلق مرشدُنا الشرطيُّ البابَ خلفنا أخيرًا ويدير المفتاح الكبير إحدى عشرة مرة، أتساءل عمَّا إن كان مُمكِنًا أن نساء هذا المنزل يقبعن خلف هذه الأبواب المغلقة التي مررنا بها للتَّوِّ؟ وأتساءل كذلك: هل يكسب صاحب المنزل الثري والتاجر في طرابلس المزيدَ من المال اليوم؟ أم أن هذا مجرَّد معرض للسُّيَّاح؟

في وقت لاحق في بيتي بطرابلس، وجدتُ هذا المنزل نفسه موصوفًا بالتفصيل، تمامًا كما رأيناه في كتاب «أبواب الصحراء السحرية» لأنجيلو بيتشولي، الذي نُشِر أوَّلَ مرَّة باللغة الإنكليزية عام 1935. فمنذ أكثر من عقدين من الزمن، كان هذا الملاذ الليبي نفسه مكانَ عرضٍ لهذه المدينة الإسلامية التي لم يتبدَّل شيء فيها. ربما أضيف قليلٌ من الصور البريدية اليوم، وعدد آخر من صُور النبي محمد مع الأسود، ولكن بخلاف ذلك لم يتغيَّر شيء، باستثناء العنصر البشري؛ لأن صاحب المنزل الأصلي التاجر الثري قد مات، ومالكه الآن هو ابنه، الذي فشلنا في اللقاء به، والذي لم نَرَ نساءه، لكننا أُعجبنا بمنزله.

لقد انخفض عدد سُكَّان غدامس -كما أخبرنا المدير في اليوم التالي- من خمسة عشر ألفًا في تعداد عام 1925 إلى ما يُقدَّر بثلاثة آلاف نسمة اليوم، ويرجع ذلك أساسًا إلى أنه لم يَعُد هناك مجالٌ لكسب لُقمَة العيش هنا؛ فقد تمَّ حظر تجارة الرقيق، وانتهت تجارة القوافل. وبالرغم من أن غدامس ما زالت تُنتِج أجود أنواع التمور في العالم من أنواع «الدقلة»، إلا أنها لم تستطع بيعها جميعًا؛ لأن التمور توقَّفَت تدريجيًّا عن كونها المصدر الوحيد للغذاء في الصحراء، حيث جلَبَت زيادة حركة مرور الحضارة الغربية المزيدَ من الأطعمة المستوردة. وفضلًا عن تمور الدقلة، أنتجت مزارع غدامس الشعير والقمح والبرسيم، التي تسبَّبَت الطيور والآفات في أضرار كبيرة لها.

في المدينة بين أشجار النخيل والرمان والتين والزيتون والمشمش والليمون- يمكن أن تنمو الفاصوليا والخس والطماطم والبطيخ، لكن لا أحد يستخدمها هنا.

قالوا لنا في غدامس، إن سنوات العمل عادة ما تكون من سنِّ العشرين إلى الأربعين؛ لأن نقص التغذية جعل الأربعين من عمر الرجل هي الحَدُّ الأقصى لسِنِّ العمل. وبعد ذلك يجلس الرجال على مقاعِدَ مُشمِسة في نهاية الممرَّات المظلمة، وينتظرون الموت.

بينما كنا نتجوَّل في حدائق غدامس، أصبحت الحقائق المُحزِنة التي كان يخبرنا عنها المدير للتَّوِّ واضحةً أمامنا. كانت غالبية الحدائق مهجورة، وقد تُرِكَت للأعشاب الضارة والآفات والطيور ونقص المياه، وهاجر أصحابها بعيدًا. واليوم، هناك فقط أربعمائة شخص يعملون في الزراعة.

كان الميراث القديم من الله الذي وهبه لغدامس هو مصدر مياهها. وأشهر المصادر هو نبع عين الفَرَس الطبيعي، الذي يقال إنَّ اكتشافه كان على يد جنديٍّ يركب فرسه التي ظلَّت تنبش الأرض بقوائمها بحثًا عن ماء. لا يزال هذا النبع يتدفَّق حتى اليوم، لكنْ خمسين بالمائة من مياهه تُهدَر بسبب التسرُّب عبر جدرانه المتضرِّرة

ونقص الصيانة المناسبة. مصدر المياه الثاني هنا يأتي من البئر الارتوازية الإيطالية التي تمَّ حفرها زمن الاحتلال الإيطالي، والتي لا تزال تُستَخدَم للري. وتُنتِج هذه البئر الآن رُبعَ قُدرَة تدفُّقها الأصلي.

أمَّا المصدر الثالث فيأتي من البئر الارتوازية الفرنسيَّة، التي تمَّ حفرُها في عام 1946، والتي تُغذِّي قنوات الري الخرسانية الأسمنتية فوق مستوى التربة ثم تتدفَّق بفعل الجاذبية إلى الأراضي المنخفضة. وهذه تُعدُّ مصدر المياه الأكثر وثوقيَّة. ولكن ما لا يقلُّ عن خمسين في المائة من كل هذه المياه تضيع من خلال التسرُّب وعدم صيانة قنوات الري والآبار.

نقص المياه ناتجٌ عن نقص الصيانة، ونقص الصيانة ناتج عن نقص القوى العاملة في غدامس، ونقص القوى العاملة يرجع جزئيًّا إلى نقص المياه اللازمة لجعل الحدائق مُنتِجَة، ولكن أيضًا بسبب عامل إضافي، وهو رغبة الشباب الذكور في تجربة أسلوب حياة في مكان مختلف.

قال هاري للمدير قبل مغادرتنا إنه لا توجد احتمالات لزراعة الأشجار هنا. واقترح هاري -مع ذلك- أن هناك فرصًا جيدة لزراعة الحبوب على نطاق أوسع؛ إذا تمَّ العثور على قُوَّة عاملة. لكن المدير هَزَّ رأسه قائلًا إنهم ذهبوا. لقد غادر الشباب، ولن يعودوا.

كانت غدامس ذات يوم على بُعد مسافة كبيرة من طرابلس، حينما كان الرجال الأكبر سنًّا يقطعون نحو خمسمائة كيلومتر على ظهور الجِمال. الآن أتينا في سيارة لاند روفر، في غضون ثلاثة أيام؛ لأننا كنَّا نبحث إمكانية زراعة النباتات في طريقنا- كان من الممكن أن نصل في يوم واحد، ووصل أصدقاؤنا من شركة النفط من طرابلس في أربعين دقيقة فقط بالطائرة.

بينما نحن نغادر «لؤلؤة الصحراء» بعد أيام قليلة، سحبتُ نَفَسًا عميقًا خارج بوابات المدينة. وأنظر الآن بمزيد من الفهم إلى الخيام السوداء المنتشرة، وكُتَلٍ من الطين المسقوفة بالسَّعف، والتي تُشكِّل «مدينة» الطوارق الرُّحَّل، الذين خيَّموا لقرون خارج بوَّابات غدامس.

أثناء مغادرتنا مَرَرنا لمسافة عشرة كيلومترات تقريبًا أثناء قيادتنا للسيارات بفضاءٍ رملي يضم آلاف القبور الإسلامية، ونفترض أن جميعها تواجِه مَكَّة، لكنها تبدو موغِلةً في القِدم، وقد تمَّ تَجاهُلها تمامًا، وعاثت فيها الرياح؛ فتآكَلَت بفِعل ضربات الرمال المتكدِّسة حولها. تفتقر هذه القبور لأي معالم تشير إلى الكيانات المختلفة التي تسكنها، بحيث لا يمكن للمرء إلَّا أن يشعر أن الموت هنا يتربص لإطفاء الشعلة التي كانت متوهجة في كلِّ رَجُلٍ على قيد الحياة.

---

* من المعروف أنه في الثقافة والموروث الإسلامي، لا توجد صورٌ للنبي محمد، وربما اختلط هذا الأمر على الكاتبة. المترجم

11. قوىً غاشمة

علمتُ أن هناك أمرًا جَلَلًا ما حينما لم يحضر محمد بحلول منتصف النهار في يوم دفع الأُجرَة. وليس الأمر أنه لم يتغيَّب أبدًا عن العمل من قبل، لكنه لم يتأخر أبدًا في القدوم في يوم دفع الأجرة. كنتُ أعلم أن شيئًا أكثر خطورة من أي وقت مضى قد حدث في بيته. ذهب تفكيري على الفور إلى ابنه الصغير، الذي كان عمره سبعة أسابيع فقط، وكان مُعرَّضًا بشكل خاص لتأثيرات الحرارة الليبية الشديدة، التي تُولِّد المرض، وتُسبِّب الموت لعديدٍ من الأطفال الليبيين.

كنَّا في شهر مايو، لكننا تَعرَّضنا إلى موجة حارة مع درجات حرارة في الظل عند 41 درجة مئوية. وجحافل الذباب قد خرجت بالفعل في جماعات متلألئة. الأبواب والنوافذ في بيتنا مُغطَّاة بشبابيك ضد الحشرات، باستثناء باب المطبخ الذي يحتوي على هيكل باب فرنسي مُعقَّد، مع مصاريع خارجية شبه منفصلة، تجعل من المستحيل تغطيته بشبَّاك. وقمتُ الآن بتعليق ناموسيّة في المدخل، تصل إلى سنتيمترات إضافية فوق الأرضية أضع عليها الطوب لتثبيتها. ثم أصارع الريح ومُحمَّدًا لإبقاء هذه الستائر في مكانها. كنت قد قضيت اليوم الأول من موجة الحر في ابتكار هذه الستائر. راقَبَ مُحمَّد عملي ثم سألني إذا كان لديَّ قطعة إضافية من الشباك ليأخذها إلى بيته لتغطية الطفل.

سُرِرتُ للمفاجأة؛ لأنني قبل عدة أسابيع ألقيت عليه محاضرة حول رعاية الأطفال في الطقس الحار، وحول الأسباب التي قد تجعل ابنه الصغير لا ينام جيِّدًا، مثل وضعه في الوسط بين الأب والأم في الفراش. في تلك الغرفة التي تخلو من النوافذ، في ذلك البيت العتيق في سوق الجمعة. وكنت قد وعدتُ في السابق أن أشتري له سلَّةً أو سريرًا لينام فيه الطفل، ويمكن تغطيته بالشبكة.

استمع محمد لي بأدب ثم قال: «الأطفال الليبيون ليسوا مثل الأطفال الأميركيين؛ لأن الليبيين ينامون دائمًا مع الأم»، وهنا انتهى الحديث في الموضوع. كنتُ أعلم أنه ليس قرارَ محمد، لكن النساء في المنزل هُنَّ مَن يُقرِّرن التغيير.

لا أدري إن كان التغيير سيأتي. وحتى قناعة محمد النسبية بأفكاري لن تُحفِّزه بقدرٍ كافٍ لمحاربة إيمانهن الراسخ بالأفكار التقليدية؛ بالتالي لا يمكن أن يلومه المرء على عدم فاعليته؛ لأن الحقيقة هي أن الكلمة الأخيرة كانت للمرأة دائمًا، التي تعاني الرضيع طوال اليوم، وإذا حاول فرض هذا الأمر سيُنغِّصن عليه حياته في البيت، وفي النهاية سيفعلن ما يحلو لهُنَّ مع الطفل؛ لذلك حينما طلب قطعةً من الشباك، سألته بقلق: «هل الطفل مريض؟».

«نعم ربما. ربما المَعِدة ليست جيِّدة؛ فهو يبكي طوال الليل».

«هل يوجد الكثير من الذباب في بيتك؟».

«نعم، ربما. لطفيّة قابلَت شقيقة سالم أمس، التي أعطت لطفيّة سَلَّةً كان طفلها ينام فيها من قبل. الآن وضَعَت لطفيّة الصغير في سَلَّةٍ لينام. وأريد قطعة من القماش لتغطيته من الذباب».

كان هذا تطوُّرًا إيجابيًّا. نشأت لطفيّة في منزل أخت سالم وزوجها، في كنف عائلة هي واحدة من العائلات القليلة المتعلِّمة في ذلك الوقت في طرابلس. وهذه العائلة على اتصال بالأفكار الحديثة، حيث أمضى سالم عامين خارج البلاد للدراسة. وأخته لديها ستة أطفال، قد تبنَّت بعض الأساليب الحديثة في تربيتهم، وربما تعلَّمَت لطفيّة شيئًا من ذلك. من الواضح أنه يمكن فعل الكثير لابن محمد من خلال تأثير إحدى معارف لطفيّة الخاصة، أكثر من الاقتراحات المُقدَّمة مني، حيث ليس لديَّ مشتركٌ مع عالم لطفيّة سوى إمكانية الوصول إلى أذن زوجها الشاب.

«يا محمد، لم يتبقَّ من تلك الستائر قطعة كبيرة بما يكفي، لكنني سأمنحك المال لشراء قطعة جديدة. وفي طريقك عودتك اليوم،

يجب أن تذهب إلى المتجر الذي اشتريتُ منه الشِّباك، وأن تشتري قطعة بطول مترين للطفيّة. يجب أن تكون كبيرة بما يكفي لتنسدل على جوانب سلَّة نوم الطفل، وأن تخبر لطفيّة أن تضع أثقالًا على الزوايا لتثبيتها».

«شكرًا لك أمي. أحبُّ ما تقولينه».

عند مغادرته ناديتُ وراءه وهو يركب درَّاجَته: «لا تنسَ الشِّباك لتغطية الطفل!».

«حاضر، يا أمي».

في صباح اليوم التالي حينما سألته إن اشترى الشبكة، فقال إنه نسيها؛ نظرًا لأنه عادةً ما يحتاج إلى تذكيره عدة مرَّاتٍ قبل أن يُحقِّق أي هدف باستثناء هدفِه الخاص. لم أتفاجأ، لكنني أخبرته مرة أخرى أن يتأكَّد من شراء الشبكة بعد ظهر اليوم.

السراب،
الصحراء تغرق في زرقة السماء

«هل بكى الطفل مرة أخرى الليلة الماضية؟» سألته.

«نعم، إنه يبكي طوال الليل. لم أستطع النوم».

قلتُ: «هذا لن يضيرك في شيء، لكن هل الصغير بخير في النهار؟ وهل يبكي في الليل فقط؟».

«ربَّما لا. لا يستطيع أن يأكل، إنه يبكي، يتقيَّأ الطعام. في بعض الأحيان يشعر بحرارة شديدة».

«يجب أن تأخذ الطفل إلى الطبيب الإيطالي في سوق الجمعة بعد ظُهر اليوم. لقد تأكَّد لي أنه مريض. لا يمكنك الانتظار حينما يكون الطفل مريضًا. الآن خذه للطبيب هذه العشيَّة، من فضلك».

«نعم يا أمي».

«لِمَ لا تأخذ لطفيّة معك؟» سألته حينها، وليس للمرة الأولى، لكنني عاقِدةُ العزم على شَنِّ هجوم آخر على التقاليد البالية. «خذها معك حتى يخبرها الطبيب بما يجب أن تفعله للصغير؛ فهي التي تعتني به، وهي التي يجب أن يتحدث معها الطبيب».

هزَّ رأسه وهو يبتسم باستخفافٍ إلى حَدٍّ ما بسبب قِلَّة فهمي للوضع، وقال: «لا يا أمي، لطفيّة لا تستطيع الذهاب. أمّي ستذهب معي».

حسنًا، فكَّرتُ بصمت، والدته لديها تسعة أطفال، وفقَدَت ثمانية منهم! وبالتالي يمكن أن يستخلص المرء النتيجة الواضحة. «على أي حال يا محمد، تأكَّد من اصطحاب الطفل إلى الطبيب بعد ظُهر اليوم. ولا تنس الناموسية».

«حاضر يا أمي».

اليوم التالي هو الخميس، وهو يوم دفع الأجرة أيضًا، يليه الجمعة يوم إجازة محمد. حينما لم يصل محمد بحلول الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس، افترضتُ أنه قد تأخَّر، ولكن حينما لم يحضر الساعة الثانية عشرة، اختلط انزعاجي بالقلق. هو في السابعة عشرة من عمره، يتحمَّل المسؤولية الكاملة لدعم ورعاية أبٍ مدمنٍ سابق على الكحول وأمٍّ كفيفة مريضة، وزوجةٍ لا تزال طفلة، ورضيع الآن. بالإضافة إلى ذلك، فهو حلقة تواصُلِهم الوحيد مع العالم الخارجي. هو وحده يخرج من هذا المدخل المظلَّل في سوق الجمعة ليرى الشمس ويتنفَّس الهواء الخارجي. يمكنه وحده الخروج، والتسوُّق،

ودفع الفواتير، وإنجاز بعض المصالح. وبغَضِّ النظر عمَّن يَمرَض منهم، يجب على محمد زيارة الطبيب، وإحضار الدواء إلى البيت، وإذا لزم الأمر، مُرافَقة المريض- ما لم تكن لطفيّة، التي لا يجوز لها مغادرة البيت.

هذا كثير جدًّا بالنسبة لصبيٍّ في سِنِّه. ولأن لديه الكثير من المسؤوليات في بيته؛ فأنا أتساهل في معاملته في بيتنا؛ وبالتالي فهو يستغلُّني، كما قد يفعل أي شاب في سنِّه. وحينما يغيب يومًا عن العمل، لا أكون متأكِّدَة أبدًا إن كان عليَّ توبيخه أو الشفقة عليه، وأعتقد أن محمَّدًا يشعر بالشيء نفسه.

اليوم، حينما لم يظهر في الواحدة والنصف؛ عَلِمتُ أن هناك شيئًا ما خطأ. وبينما أسرَعتُ لترتيب المنزل بنفسي قبل وصول هاري، كنتُ آمل أن يرنَّ الهاتف برسالة من محمد. الهاتف الوحيد في سوق الجمعة موجود في مركز الشرطة، ولكن يمكن استخدامه في حالات الطوارئ.

كان تحضير وجبتنا اليوم أمرًا بسيطًا، حيث من المفترض أن يقوم محمد بالتسوُّق. لحسن الحظ، لديَّ بعض الأرز المصري ولحمُ مُعلَّب، على الرغم من أنه يومٌ مُناسِبٌ لتناول سلطة خضراء طازجة. أثناء تنقية الأرز، تأسَّفتُ مرة أخرى لأن هاري لا يأكل الأرز الإيطالي، وهو دَبِق مُقارنةً بالأرز الآسيوي، ويأتي في علبة ورقية نظيفة، وجاهز للطهي.

حضر هاري، تناولنا العشاء، ومرَّ المساء دون أن ينبس ببنت شفة؛ فقرَّرتُ أن أذهب إلى سوق الجمعة في الصباح وأكتشف الأمر. كنت سأفعل ذلك اليوم لولا أنني تذكَّرتُ غيابًا سابقًا له دون سبب وجيه: حينما كان يَحضرُ بطولةَ مساعدي لاعبي الغولف، ومرَّةً شارك في حفلة سباحة مع الأصدقاء، ومرَّةً حينما ذهب إلى حفل زفاف، وما إلى ذلك... على أي حال، كان اليوم حارًّا بشكل رهيب، والقيادة عبر المدينة شديدة الحرارة في هذا القبلي، وكنتُ أشعر بالكسل أيضًا.

في صباح اليوم التالي، في وقتٍ مُبكِّرٍ بشكلٍ غير عادي، سَمِعتُ خُطى محمد على الطريق الخارجي، وصوت الباب الأمامي ينفتح. دائمًا حينما يدخل المنزل يأتي على الفور ليلقي عليَّ تحية الصباح، ويتبادل الحديث معي. اليوم حينما سمعتُ الباب الأمامي يُفتح، ناديتُه من المكتب دون انتظار ظهوره: «ما هي المشكلة بالأمس يا محمد؟ هل كان الطفل مريضًا؟».

ساد الصمت للحظة. ثم بصوتٍ مُسطَّح ومختنق دون أن يأتي لرؤيتي، أجاب: «الطفل مات». وذهبت خطواته مباشرةً إلى المطبخ.

لحقته مباشرة ووجدته بجوار الثلاجة المفتوحة يضع مشتريات الطعام بداخلها. وضعتُ يدي على كتفه وقلتُ: «آسفة للغاية يا محمد!»، وفجأة استدار وأنزل ذراعيه على لوح المطبخ الجانبي ودفن وجهه فيه. ثم أخذ يبكي طويلًا، ويقول: «ابني مات!».

أَحَطتُه بذراعيَّ حينها؛ لكونها الطريقة الوحيدة التي عرفتها للتعبير عن تعاطُفي، ووقفتُ بجانبه وهو ينهار بارِدًا وصامتًا.

رأيت محمدا يبكي مرَّاتٍ عديدةً في الماضي: تنهمر دموعه حينما أُبدي الانزعاج منه، وذرفَ الدُّموع حينما فشل في اختبار رخصة القيادة، وانهمر بالبكاء حينما تمَّ نقلي إلى المستشفى، وحينما غادَرنا في إجازة إلى الوطن، وبكى حينما كسر قطعةً من الخزف الصيني (في المرة الأولى مرة فقط!)، وحينما جرح إصبعه، وبكى حينما وجدني ذات مرة منخرطة في البكاء. ومع ذلك، فقد وجدته دائمًا روحًا حساسيَّة مُكوَّنةً من تناقضات كاملة، حزينٌ ولكن مُفعَم بالحيوية، عاطفيٌّ لكنه صُلبٌ أيضًا، حسَّاس وغير مُبالٍ في الوقت نفسه، مُتوقِّدُ بالذكاء وغبيٌّ أحيانًا، حسَّاسُ فيما يخصُّه، لكنه غالبًا ما يكون أعمى تجاه حساسية الآخرين. ظننتُ أنني رأيته في كل حالة عاطفية، لكنني لم أره من قبل صامِتًا تُسكِته تمامًا مشاعره التي تمور بداخله. كان حزنه اليوم نوعًا مختلفًا عن أي شيء مرَّ به من قبل. لم أسأله عن سبب وفاة الطفل، أو ما إذا كان قد أخذه إلى الطبيب. شعرتُ أنني أعرف الإجابات، ولم تكن تعزيةً لأيٍّ منَّا.

لمست شَعرَه الأسود الخشن، المُزيَّت كثيرًا، واليابس، ووقع نظري على يديه بتكوينهما الدقيق، اللتين كانتا دائمًا خرقاوَيْن في تعاملهما مع الأشياء. فكَّرتُ في كل قوى الخير التي ستكون لصالح هذا الصبي، والعقبات التي تحول دون تحقيقها، تَذكَّرتُ الذكاء السريع والشغف المصحوب بتحيُّزٍ أعمى. فكَّرتُ في العالم الجديد الذي أعجب به والعالم القديم الذي كان مرتبطًا به. كان الناجي الوحيد من أطفال والدته التِّسعَة. والآن مات ابنه الأول. هل كانت هذه قوى الجهل العمياء نفسها؛ للقضاء على نسله أيضًا؟

بعد دقيقتين قلت: «محمد، جهِّز لنا بعض القهوة». حدَّثتُه بالعربية، مُستَخدِمةً الجُمل التي علَّمني إيَّاها، وهو الأمر الذي كان يُسعِده دائمًا. بعد عشر دقائق كُنَّا جالسين على طاولة القهوة مع فناجين من القهوة التركية القوية والسجائر، وكان قد مسح دموعه. ليس الأمر أن مثل هذه الأشياء تجعل الحزن أخفَّ، ولكن في مواجهة الموت، تمنحنا الأنشطةُ العاديَّةُ بعض الطمأنينة إلى حدٍّ ما.

كانت الخطوة التالية هي إخبار كلٍّ من سعيد، وصولة، ومصطفى، ومحمد الفزاني بوفاة ابنه. تَطلَّب ذلك ساعة أو أكثر، أثناء جلسة الشاي في الحديقة. وفي إنصافٍ لمحيطنا الأميركي في جورجمبوبلي، كان الحيُّ بأكمله الآن صامتًا تعاطُفًا مع ما أصاب محمد من فَقْد.

عند منتصف النهار ودَّعتُ محمَّدًا وهو ينطلق على دراجته الهوائية عائِدًا إلى سوق الجمعة لحضور مراسم الدفن. كان معه أَجرُه نِصفُ الشَّهري، بالإضافة إلى هدية لتغطية تكاليف دفن الرضيع الذي لم يَدفَع تكاليف ولادته بعد، ولا تزال تكاليف زواج والِدَيْه دَينًا أيضًا.

2

عُطلَةُ الله

12. عطلةُ الله

ناقشنا رحلة الصحراء مرارًا وتكرارًا بما فيه الكفاية، ولكن دائمًا ما يظهر شيءٌ ما يعيق التنفيذ. وهذه المرة كان اقتراب حلول شهر رمضان، وهو شهر صوم المسلمين العظيم.

مشهد صحراوي

«لكن يجب أن نذهب!» يقول بدر الدين بحماس. «يجب علينا الذهاب- إن شاء الله!»، ثم يضيف، وهو يومئ برأسه بشكلٍ قاطِعٍ: «يجب أن نعود إلى بيوتنا قبل أن يبدأ شهر رمضان!». بدر الدين يبدو الآن تمامًا كما أتخيَّله، فقد يكون أحدَ شيوخ الصحراء، ملامحه الساميَّة القوية تتوهَّج بالحماس في وجهه البُنِّيِّ الوسيم. ومع ذلك، فهو شابٌّ لطيف للغاية، ومُتحضِّر؛ فهو أحد أفضل الليبيين تعليمًا، وعضوٌ في إدارة الغابات في طرابلس.

يتَّفق أحمد معه، على الأقل حول العودة قبل بداية رمضان. أومأ برأسه بحدَّة قائلًا بنبرة قاطعة: «لا يمكننا السفر طوال اليوم في الصحراء بدون طعام أو ماء!»، وبدا مرعوبًا من مجرَّد التفكير في الأمر، وعلى عَجلٍ أشعل سيجارةً أخرى من ولَّاعته الذهبية، فلا بُدَّ أنه فكَّر في تلك النهارات التي يمتنع فيها عن التدخين لمدة شهر كامل.

«ألا يمكننا السفر في الصحراء أثناء الليل، وعندئذ يمكنكم أن تأكلوا بعد حلول الظلام؟» أقول لهم.

«بالتأكيد لا!» يقول هاري بعد قليل؛ «فالجوُّ باردُ جدًّا، ولا يمكنك رؤية طريقك، وعلى أي حال الجميع عَكِرو المزاج في رمضان، وسيكون لجميع سُكَّان الواحات عاداتهم الخاصة؛ فلن يُرحِّبوا بأجانب من غير المسلمين مثلك ومثلي. كذلك بدر الدين وأحمد يريدان البقاء في طرابلس لقضاء رمضان مع عائلاتهما، وليس السفر. كلَّا… السفر في رمضان خارج الحسابات!». لا يمكننا تأجيل الرحلة إلى ما بعد شهر مايو بسبب حرارة الصحراء، ولا يزال الجو باردًا جدًّا في الصحراء للذهاب إليها الآن.

يقول بدر الدين: «رمضان سيحلُّ في الربيع هذا العام. وإذا تمكَّنَّا من السفر، فلا يزال بإمكاننا قضاء ثلاثة أو أربعة أسابيع في الصحراء، والعودة إلى طرابلس قبل بداية الشهر». بدرالدين حريصٌ على الذهاب مثلي. أمَّا أحمد فيكره إلى حدٍّ ما ترك سُبل الراحة في مدينته، لكنه مستعدٌّ للذهاب إلى «حيث يذهب أبي» كما يقول دائمًا لهاري.

رمضان مناسبة مُتبدِّلة الأوقات، أو ربما هو موسم الجوع، حيث يستمر شهرًا قمريًّا واحدًا من تسعة وعشرين يومًا وثلاث عشرة ساعة. ويشمل الالتزام بالصوم الصارم في النهار، أي الامتناع عن الطعام والشراب (بما في ذلك الماء) والتدخين، من بزوغ الشمس إلى غروبها، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة. والحفاظ على طقوس الامتناع هذه هي القاعدة العامة لجميع المسلمين الصالحين في جميع أنحاء العالم العربي، على الرغم من أنهم يحافظون عليها بدرجات متفاوتة من الصرامة. وهي دائمًا فترة إجهاد؛ لأن العمل النهاري يتمُّ على معدة خاوية، بينما يستمرُّ السعي وراء إشباع المتع طوال الليل من خلال تناوُل الطعام وشرب الشاي ولعب الورق وتبادُل الزيارات العائلية حتى الفجر. قبل الفجر بقليل يتمُّ تقديم الوجبة الأخيرة، ولا يجوز تناول الطعام أو الشراب مرة أخرى حتى غروب الشمس.

ليبيا واحدة من أكثر الدول الإسلامية تشدُّدًا، وفي هذه الدولة المَلكيَّة يُطبَّق الإسلام التقليدي بموجب الدستور، وبموجب تقاليد

يجري اتِّباعها بكل احترام، وبواسطة نموذج شخصي لملكها المحبوب، الملك إدريس، الذي هو أيضًا الزعيم الديني للبلاد. سرعان ما يجد الشباب من الدول الإسلامية الأخرى الذين يأتون إلى هنا للعمل أنهم يحافظون على صوم رمضان أكثر من أي وقت مضى في حياتهم. قد لا يتمُّ تحدِّي عادات وتقاليد الرأي العام الليبي علنًا، على الرغم من أنه -كما سمعت أحيانًا ليبيين يقولون تندُّرًا- المسلم لوحده قد يكون متحرِّرًا تمامًا، لكن إن اجتمع اثنان فدائمًا ما يكونان محافظين!

يقول بدر الدين بنبرة انتصار: «لذلك سنخطِّط الآن لرحلتنا في شهر مارس. مُتَّفِقين؟».

يردُّ هاري: «هذا مناسب، سنأخذ مكابس النباتات ونجمع عيِّنات من النبات على طول الطريق».

أومأ أحمد رأسه بلطف، لكن من دون حماس. لن يتخلَّف عن أي شيء لأي سبب، لكنه يُفضِّل السفر إلى جهة مختلفة عن قريةٍ للطَّوارق من الطين تقع على مَسارٍ قديم لقوافل تجارة الرقيق في الصحراء على الحدود الجنوبية الغربية لليبيا! أمَّا لو كُنَّا سنذهب بالسيارة إلى القاهرة سيكون الأمر مختلفًا!...

«لطالما أردتُ الذهاب إلى صحارى الديزرت!» أقول لبدر الدين، وقد أدركتُ فجأة أنني كنتُ أتوق إلى تحقيق هذه الأمنية دائمًا.

«ليست صحارى الديزرت!» يقول هاري. «هذا لا لزوم له. فهي كلمة صحراء فقط بالعربية، أليس كذلك يا بدر الدين؟».

يوافق بدر الدين مبتسمًا، ويضيف: «وبما أن أربعة أخماس بلادنا هي صحراء؛ فقد حان الوقت لي ولأحمد لاكتشافها!».

يرمقه أحمد بنظرة الباشويَّة، فيها نصف استماع، ونصف انزعاج، ثم يشعل سيجارة أخرى لنفسه. أثناء ذلك يلمع الميناء المرصَّع لساعة يده بمعصمها المذهَّب. فهو يعلم أنه سيكون معنا عندما يحين الوقت- وكذلك نحن.

يقول بدر الدين: «والآن نبدأ بوضع الخطط. ما هي سيارات اللاند روفر التي يمكننا أخذها؟».

«أي سيارات ما زالت صالحة للعمل!» يقول هاري.

يقول أحمد بحزم: «سأقود بأبي أفضل سيارة لاند روفر!».

«هل رقم 57 لا تزال في الخدمة؟» يسأل بدر الدين بقلق، وقد بدأ يخشى نقص وسائل النقل.

بدر الدين شابٌّ ضخم الجُثَّة، ورائع من نواحٍ عديدة، وهو شخص يبثُّ الثقة في الآخرين. في الخامسة والعشرين من عمره، واثق من نفسه ومحبٌّ للتمتُّع بالحياة. غالبًا ما يرتسم على وجهه تعبير غريب ومُمتِع حينما يستمع إلينا نتحدَّث عن ليبيا، ولا يتردد في تنبيهنا لأخطائنا؛ فهو شديد النباهة، ويتعلَّم بسرعة. كما أنه لا يُشكِّك أبدًا في عقيدته الإسلامية، فهو واثق من فضيلة الأشياء التي يؤمن بها، ولا يخجل أن يناضل بقوة من أجل مُثُل الآداب والعيش اللائق والدفاع عنها. إنه ليس ساذجًا ولا ينخدع بسهولة، وهو بعيد عن الهَزل. إنه شخصية بارزة، ويمنحني إيمانًا كبيرًا بمستقبل ليبيا.

والد بدر الدين كان واحدًا من الرعيل الأول المحدود للغاية للمُعلِّمين الليبيين، في وقتٍ كان التعليم فيه جريمةً تقريبًا في ليبيا. تلقَّى بدر الدين تعليمًا ممتازًا، بغَضِّ النظر عن العقبات كما أعتقد، وكان ذلك أمرًا حتميًّا منذ نشأته المبكرة؛ فهو أحد الليبيين الأربعة الذين تأهَّلوا قبل بضع سنوات للحصول على منحة دراسية من منظَّمة الأغذية والزراعة لمدة عامين للدراسة في كلية الغابات القبرصية، حيث حصل على مرتبة الشرف. وحينما عاد إلى ليبيا انضمَّ إلى إدارة الغابات في الولاية.

يختلف بدر الدين عن أحمد في الكثير من نواحي الشخصية، باستثناء سرعة الغضب، لكنهما لحسن الحَظِّ فهما لا يغضبان أبدًا من الأشياء نفسها. فشخصية أحمد المهيمنة التي توحي للناس أنه لا يزال «باشاط تظهر على الدوام، لكن حينما يتحدَّث بطريقة يُسمِّيها

بدر الدين «الأنف الكبير» يضحك منه، ويصفه بـ «أفندي الأفندية»، وهو نوع من الإطراء الشديد لأي رجل، وعندها يضحك كلاهما. تكاد شخصيتاهما تُكمِلان بعضها البعض؛ وربما لهذا السبب هما صديقان مُقرَّبان.

كلاهما واثق من نفسه، وكلاهما مختلف تمامًا، لكن كلا النوعين ضروريَّان هنا: أحدهما تَقدُّميٌّ وعلماني، يسارع دائمًا إلى التعرف على طرق جديدة، والآخر غارِقٌ في الماضي الإسلامي الذي يحمله معه إلى المستقبل.

عمِل أحمد حتى الآن مع هاري لمدة عام، وعلى الرغم من عدم حصوله على تدريب احترافي، إلا أنه يُثبِت دائما أنه متعاون جيِّد، كما أن له شبكة علاقات واسعة، ويعرف كل الأشخاص المهمين، ومع زوجته يرتبط بمعظمهم بوشائج قُربى، وهذا عاملٌ حاسمٌ في العالم العربي. ولأنَّ الحكومة فشلت في تعيين أي نظير محلِّيٍّ لهاري للعمل معه؛ فقد حاول هاري أن ينقل إلى أحمد بعض المعرفة بالتدريب

الإداري، والاهتمام الكافي ببرنامج الغابات؛ لكي يستمرَّ عند مغادرته. ويتحدث أحمد الآن اللغة الإنكليزية بما يكفي للتعبير عن نفسه.

حينما أتحدث مع أحمد وبدر الدين وسليمان وسالم وآخرين مثلهم، أجد أنه يكاد يكون من المستحيل تصديق أن التعليم في ليبيا كان عمَليًّا غير موجود حتى عام 1951 الذي استقلَّت فيه البلاد. وكان لهؤلاء الشباب مَيزَة وحيدة فوق غالبية الليبيين، فهم يمثِّلون طبقة متميِّزة صغيرة جدًّا؛ ما يعني أنهم من قِلَّةٍ محدودة لم يضطرُّوا إلى إعالة أنفسهم منذ الطفولة.

أنا وأحمد وبدر الدين وهاري نُمثِّل النواة الأولى للرحلة الصحراوية، والتي سرعان ما ضمَّت غاري ڤان هورن، الهولندي الشاب، الجذَّاب، الخبير في الجلود، والأعزب، الأكثر تأهيلًا وكفاءةً في بعثة منظَّمة الأغذية والزراعة... كان لطيفَ المعشر، ومُقدِّرًا تمامًا

للأمور؛ وهذا ما يُعجب النساء. كان من المستحيل لأيِّ شخصٍ ألّا يُعجب بشخصيته. وتمَّ الاتفاق على أن أسعد -وهو المساعد الليبي الشاب والسائق الماهر- سيرافق غاري في سيارته اللاند روڤر.

حلَّ شهر مارس وصرنا ستَّةَ أشخاص الآن، ولدينا سيَّارتَا لاند روڤر «ما زالتا تعملان» كما يقول هاري. من غير المستحسن أن تسافر مركَبَةٌ واحدة في الصحراء وحدها. فثلاثة منَا أوروبيون وأجانب في ليبيا، وثلاثة ليبيون مسلمون، لكننا جميعًا غريبون على الصحراء، فالليبيون هم سُيَّاحٌ فيها مثلما نحن. الفرق بيننا فقط أنهم يتحدَّثون اللغة المحليَّة.

قبل مغادرة طرابلس، تَقرَّر أن يصحبنا أربعة أشخاص إضافيون ومعهم عربتان إضافيتان؛ لأن الرحلات الصحراوية لا تخلو المفاجآت. لكن في وقت لاحق، وكجزء من هدفنا في رحلتنا الصحراوية، تضاءل العدد مرَّةً أخرى إلى الستة الأصليين.

قرأتُ ما يكفي عن استكشافات الصحراء الماضية لأعرف أن رحلتنا الصغيرة لن تمثِّل شيئًا في مجال الإنجازات. ومع وجود الشاحنات التي يمكنها الذهاب إلى أي مكان أصبحت الصحراء عنصرًا سياحيًّا، على الرغم من أنها لا تزال تبتلع بعضهم، والبعض الآخر يتراجع ولا يُكمل الرحلة. لم يَعُد البدويُّ على جَمَله مندهشًا لرؤية ثياب الجينز الزرقاء، بل ربما كان يستخدمها هو نفسه لملابسه الداخلية، وقد يكون ثوب الولد الليبي الصغير في الواحة مصنوعًا من كيس دقيق هدية من الولايات المتحدة. لقد ولَّت الأيام التي اضطرَّت فيها روزيتا فوربس* لإخفاء جنسها للسَّفر إلى الكُفرة على ظهر بعير. ولم تَعُد فريا ستارك** -مؤرِّخة الحَوليَّات العربية الفاتحة- امرأةً وحيدة في العالم العربي. وسيشعر تي إي لورنس بالانبهار بسبب الجرأة التي أبداها كثيرون تجاه مملكته الذُّكوريَّة. وهذه الحقائق البسيطة لا يمكن لأحد أن يُغيِّرها.

الشيء الوحيد المهم في هذه الرحلة هو أنه لا أحد -لا نحن ولا الليبيين ولا أي شخص آخر- يمكن أن يعرفَ ويفهمَ ليبيا من خلال

الجلوس في مقاهي الأرصفة في طرابلس أو بنغازي، أو حتى في العاصمة الصحراوية الذهبية مدينة سبها. الشيء المهم في هذه الرحلة هو أننا ذهبنا.

كانت استعداداتنا للسَّفر مُتنوِّعة. قُمتُ بتجهيز الأطعمة لي ولهاري ولغيرنا، على أساس نظام غذائي لغير المسلمين، يشمل النقانق المدخَّنة، والسلامي، ولحم الخنزير المقدَّد، والفول، والقهوة والويسكي، ولحم البقر والطبيخ المعلَّب، كما قمت أيضًا بتجهيز أغذية أخرى للمسلمين، تشمل السردين والتُّن والجبن والمعكرونة والسَّلمون والكعك المعلَّب والحلوى والشاي، والكثير من السكر. كما كنَّا نأمل في الحصول على خبز من الواحات أثناء سفرنا.

إضافةً إلى هذه المواد ظهرت بضائع أخرى في يوم المغادرة، حيث أحضر أسعد كيسًا ضخمًا من الخضار وكيسًا من الخبز الخاص، بينما جلبَ أحمد وبدر الدين البَيضَ والطماطم والفاصوليا والبصل والبرتقال والبطاطس والبازلاء الخضراء، والمزيد من السكر. لكن لن تصل كل المواد سليمةً في الجزء السُّفليِّ من سيارة اللاند روڤر!

للغسيل والطبخ أحضرتُ معي دلوًا مُجَلفَنًا قديمًا، وطنجرَتَيْ طبخ قديمتين، إحداهما متوسطة الحجم والأخرى كبيرة لطهي السباغيتي، ومصفاة معدنية كبيرة لتصفية المعكرونة، التي أصبَحَت على الفور عدوَّ هاري اللدود؛ لأن لها مقبضَيْن بارزَيْن، ويصعب تخزينها في أي مكان. وقد حاول هاري رَميَها عدَّة مرَّات، إنما لتسترجعها السيارة التي تلينا وتعود بها إلينا. أخيرًا كُسِرَ أحد المقبضين، وتحوَّلَت المصفاة إلى شكل بيضاوي يمكِّن من وضعها في الصندوق، وعُدَّ ذلك نجاحًا كبيرًا.

اكتشفنا أيضًا أننا أخذنا مُعِدَّات السفر البلاستيكية الخاصة بمنظمة الأغذية والزراعة، والتي كانت جميلةً، ولكنها مناسبة فقط للنُّزهات. كان لدينا جميعًا أكياس نومٍ وأسِرَّة التخييم، سواء كانت خاصَّةً بنا أو مستعارة. ولدينا أيضًا العديد من الحاويات الكبيرة

المليئة بالمياه، والتي كنَّا نأمل أن نتمكّن من إعادة مَلئها من الآبار أثناء سيرنا. ولعل الأكثر أهمية لضمان عودتنا؛ هي حمولة كاملة من قطع الغيار لسيارات لاند روڤر.

نظرًا لأن المسافة التي يمكن أن تقطعها مَركبَةٌ ما في الصحراء يتمُّ تحديدها إلى درجة كبيرة بكمية البنزين التي يمكنك حملها لإعادتك إلى نقطة انطلاقك مرة أخرى (كانت هذه الأيام التي سبقت نقاط تجميع البنزين لشركة النفط)؛ كان لدينا خزان وقود إضافي يحمل مائتي لتر، ونعلم أننا سنكون قادرين على إعادة تعبئة عرباتنا في سبها، عاصمة فزَّان، وربما مرة أخرى جنوبًا، حيث كنَّا نأمل في الوصول إلى الحدود الجنوبية. بدأنا الرحلة مع أحمد الذي يقود سيارة، ويجلس معي هاري في المقعد الأمامي والأمتعة محشورة في الخلف، وغاري يقود سيارته اللاند روڤر مع بدر الدين وأسعد.

لقرونٍ مضت، كانت طرابلس هي السوق المتوسطي الرئيس للعبيد الزنوج؛ نتيجةً لموقعها في الطرف الشمالي من الساحل الشمالي لطرق قوافل تجارة الرقيق التي تعبرُ إفريقيا من الجنوب إلى الشمال، ومن الجنوب الشرقي إلى الشمال، من نيجيريا والسودان. كُنَّا نخطط للسير عَكس أحد طرق القوافل القديمة هذه، من طرابلس شرقًا إلى البويرات، حيث تلتقي رمال صحراء سِرت بالبحر، ثم جنوبًا عبر هذه الصحراء، مرورًا بهون وسوكنة، اللتين تُمثِّلان محطات القوافل القديمة، ثم عبْر سَبها عاصمة فزَّان، وإلى الجنوب الغربي إلى غات على الحدود الليبية الجزائرية. ويستمر مسار القافلة هذا جنوبًا عبر غرب إفريقيا الفرنسية إلى مدينة كانو في نيجيريا، لكن غات أبعد ما يمكننا الوصول إليه؛ لأن نطاق عمل رحلتنا هذه كان أساسًا دراسة النباتات الليبية، وليس طُرُق القوافل الإفريقية.

من خلال قراءاتنا عرفنا غات كواحدة من أقدم محطات القوافل الموجودة، والتي تأسَّسَت منذ قرون، ربما من قِبل عبيد الطوارق، وهم أنفسهم مَن سيَّروا القوافل الأصلية التي نقلت العبيد الأفارقة بالآلاف مُقيَّدين بالسلاسل، مُتعثِّرين وجَوعى فوق تلك فوق الرمال القاسية، وعاشوا على الأرباح التي يجنونها من هذه المهنة. إن أكثر القصص

رومانسية وإثارة للخيال في الصحراء هي تلك التي تُروى عن هؤلاء الطوارق، شعب الصحراء الآري من ذوي الدم الأبيض. وهي حكايات رائعة عن الأمجاد والمغامرات التي تلفُّهم بهالَةٍ من الرومانسية، من خلالها يظهرُ رجالُ طوال القامة مُقنَّعون، ومحاطون بجلالٍ ظاهر، حتى إنَّكَ حينما تنظر اليوم إلى أحد الطوارق، فإنَّكَ ترى عباءة الماضي مُعلَّقةً على كتفيه بشكل واضح، كما يفعل الثوب القطني الأزرق الطويل الذي يخطُّ فوق رمال الصحراء. على الرغم من أن مدينة غات تُعرف باسم بلدة الطوارق، إلا أن تاريخها يشير إلى أنَّ معظم سكانها في الواقع هم من نسل العبيد السُّود الذين تبنَّوا تقاليد الطوارق؛ لأن الطوارق أنفسهم نادرًا ما يعيشون في بلدةٍ ما، وإنما يعملون فقط انطلاقًا منها في وظيفتهو التي حدَّدوها لأنفسهم، وهي «حماية» منطقة الصحراء الوسطى.

غادرنا طرابلس في وقت متأخر من العشية، وخطَّطنا للسير مسافة مئتين وخمسة وعشرين كيلومترًا شرقًا على طول الساحل عبر طريق جيِّدٍ شيَّدته إيطاليا إلى مصراتة، حيث سنمضي الليلة في فندق إيطالي صغير. كنَّا سنواصل الرحلة باكرًا في صباح اليوم التالي لبدء أول مسير صحراويٍّ. في مصراتة، انضممنا إلى السيارتين الأخريين وركَّابهما الأربعة: بيتر، وهو مهندس زراعي إنكليزي لدى منظمة الأغذية والزراعة، وإلهام طلعت، وهو مساعد مهندس زراعي مصري لدى منظمة الفاو، ثمَّ أميننا وكارلو، وهما سائقان وميكانيكيان، وكلاهما إيطالي.

في صباح اليوم التالي غادرنا في الساعة الثامنة؛ فقد كان لدى الجميع أفكار مختلفة حول البداية المبكِّرة، هاري مثَلًا اقترح التحرُّكَ في السادسة صباحًا، بينما أحمد فضَّل الساعة التاسعة. الآن، توجَّهنا شرقًا على طول ما سُمِّي بطريق تونس السريع الموازي للساحل. والآن، واصلنا السير شرقًا مسافة ستة وتسعين كيلومترًا إلى البويرات على حافة صحراء سِرت. وهنا توقَّفنا مرة أخرى عند لافتة صغيرة تشير إلى سهلٍ رَمليٍّ مفتوح، مع كلمات بسيطة نُقِشَت

فوقها تقول: «إلى الصحراء». هناك دائمًا شيء يتّسِم بالجرأة توحي به رؤية هذا اللوح الخشبي الصغير المصنوع يدويًّا، والذي ينتصب بجانب أفضل طريق سريع في البلاد، ويوجِّه بثقةٍ تامَّةٍ حركةَ المرور عبر هذه الصحراء المفتوحة الممتدة، ومن هنا يتعيَّن معرفة الاتجاهات والسير على هديها.

نتتبَّع حيث يشير السهم، فنرى أن الطريق يتكوَّن فقط من أكوام من الأحجار مكدَّسة عرضيًّا، للإشارة إلى الاتجاه المرغوب التقدُّم فيه، وهذا المسار المُحدَّد يُصبح أسوأ وضعًا من السهل، ويتحوَّل إلى مسار وعرٍ، والتقدُّم فيه يمكن مقارنته بالقيادة فوق عوارض السكة الحديد الخشبية. إذا كانت مُتَّسِقة فمن الأفضل القيادة فوق مثل هذه العوارض بسرعة أكبر، وشخَّصَت ثلاث من السيارات هذه المسافة على أنها ستستمر معنا نحو ثمانين كيلومترًا، وانطلقت بهذه السرعة، وكان سائقوها يصرخون نحونا بنصائح لإرشادنا أثناء مرورهم.

بدأنا في تنفيذ الخطة، وحاولنا السير بسرعة ثمانين كيلومترًا ووجدناها أفضل؛ فبدلًا من القفز لأعلى ولأسفل، صرنا نرتجُّ بعُنفٍ مُتَّسِق. كنَّا نُهنِّئ أنفسنا على هذا الأسلوب حينما ضربنا حفرة رملية بعرض متر؛ فصدَرَت على الفور ضوضاء مثل اجتياز حاجز الصوت، وربما حدث ذلك بالفعل! على أي حال، ارتفعت أمتعتنا في الهواء، واندفعت الأواني والمقالي والمصفاة والبطانيات والوسائد وحقيبة أحمد- إلى الأمام، فحطَّت فوقنا؛ ما أجبرنا على التوقف على الفور.

لكن لم تُدقَّ أيَّ أعناق، والإطارات لا تزال سليمة وتدور؛ لذلك واصلنا السير. في كل مرة، وبينما نحقِّق سرعة جيدة ونسترخي، نقع في حفرة رملية أخرى. يبدو لي أن رقبتي أخذت تتعرَّض للأذى بشكل خطير، لكنني أذكِّر نفسي بأنني قرأتُ أن جسم الإنسان يمكنه المقاومة والتحمُّل مثلما تستطيع أي مركبة ميكانيكية. لحسن الحظ، لم أعرف في هذا الوقت أننا قد كسرنا بالفعل ذراع عجلة القيادة!

في هذه الأثناء، أرى خلال سيرنا بين الحُفَر الرملية أننا نجتاز أجزاء متناثِرَة من المناظر الطبيعية، والآثار الرومانية التاريخية،

وأسوارا تركية عتيقة ومتداعية، وبحارًا هائلة من الحصى المتربة، وما يشبه البحيرات من نبتةِ ماتيولا الأرجوانية الباهتة، وسيوفًا طويلة من الرمال. هناك أيضًا عاصفة قبلي والهواء مليء بالغبار. وعلى الرغم من أننا نسمِّيها بعواصف رملية، إلا أنها تحمل الغُبارَ أكثر من الرمل، وفقًا لرالف باغنولد، الذي يقول في كتابه «فيزياء الرمال الثائرة والكثبان الصحراوية» إن الرمال نادرًا ما ترتفع أكثر من مترين، وهي ثقيلة جدًّا بحيث لا يمكن أن تظلَّ مُعلَّقةً لفترة طويلة في حال لم تصحبها سرعة كبيرة.

الآن، مع الرياح الصفراء الجافة المرئية التي تضرب وجهي كما تضرب السَّهل الرملي الجاف الممتد أمامي، ومع وجود نباتات في شكل خطوط طباشيرية؛ اقتنَعتُ أخيرًا بالواقع الذي تفرضه الصحراء. حيث تتدفَّق أنهارٌ من الرمال التي تذروها الرياح بارتفاع نحو متر حول السيارة. وبعد كيلومترات من السباحة أعلى التيار عبر المنطقة التي تمور بالرياح، نصل إلى بونجيم، حيث توجد قلعة إيطالية مهجورة تتربَّع بشكل استراتيجي على قمَّة تَلٍّ رملي.

بدا أن اللجوء من القبلي داخل القلعة فكرةٌ جيدة أثناء تناول الغداء. في الداخل وجدنا أن التحصينات الطينية يشغلها العُمَّال الذين يخبروننا أنهم يعملون على صيانة الطريق- وربما هم مَن أحدثوا تلك الحُفَر الرملية! على أي حال، كانوا مُهذَّبين للغاية، وكنسوا لنا إحدى الزوايا لاستخدامها، فأعطيناهم خمسة عشر قرشًا. ثم بدأ أحمد في غلي الماء لإعداد الشاي، وبدأنا في إخراج الطعام.

في غضون ذلك رُحت أبحث عن رُكنٍ قَصيٍّ مُنعَزِل لقضاء الحاجة، فوجدت مكانًا تحت رحمة القبلي بالكامل ولكن بعيدًا عن أنظار الرجال، وحينما همَمتُ بفَكِّ أزرار بنطالي خرج عليَّ صبيٌّ ليبيّ يجرُّ وراءه غزالًا صغيرًا. ثم ينطلق في حديث معي، يتعلَّق برغبته في بيع الغزال، وأنني بحاجة إليه، ويرجو إعطاءه بعض المال مقابل ذلك. لكنني لم أكن في مزاج مناسب في تلك اللحظة للغزلان، ولا للصبية الصغار.

عُدتُ إلى ركن القلعة الخاص الذي نزلنا فيه وتناوَلتُ غداءً من السردين والخبز، مع الاختيار بين القهوة أو الشاي، ضايقتنا خلاله أسراب من الذباب. وبينما أبدأ الآن في التعجُّب من دراما القبلي التي تتكشَّف أمامنا في الصحراء، وأستمتع بالهروب من حياة طرابلس، أرى أن أصدقاءنا الليبيين يشعرون بالضيق بسبب السردين المغَطَّى بالذباب والخبز المغطَّى بالرمال، والحرارة الشديدة. ونظرًا لأننا جميعًا ما زلنا غُرباءَ عن بعضنا البعض كرفاق سفر؛ تستمر المحادثة في المجموعة على مستوى عالٍ وبعيدة عن الشَّخصنَة.

واصلنا طريقنا مرة أخرى بحلول الساعة الثالثة. ليهدأ القبلي عند اقترابنا من ظلِّ المنحدرات الشاهقة لجبل ودّان، لكن الطريق لا تزال غير ممهَّدة، وغالبًا ما نتركها ونسير على طول سهل الحصى في إحساس كاذب بالأمان، حتى نصل بأقصى سرعة إلى وادٍ جافٍّ يكاد السير خلاله أن يُحطِّم أعناقنا، ثم نعود إلى الطريق الوعرة ونهتزُّ عليها حتى ينبسط السهل ويكون مُمهَّدًا، وهكذا. عرفت لاحقًا أن هذا الشريط الوعر قبل الوصول إلى هون لم يكن الأسوأ في الرحلة، ولكن لم تزعجني مرحلة أخرى كثيرًا مرة ثانية. لقد كان يومًا مُخصَّصًا بالكامل لهَزِّ الكبد وهبوط الرحم، وحينما وجدت أن كليهما لا يزالان معي بحلول الليل، وصفتُ تنقُّلَ اليوم بالناجح.

في حوالي الساعة السادسة والنصف نرى شريطًا مظلمًا في الأفق يتحوَّل تدريجيًّا إلى حافة من أشجار النخيل المغبرَّة. ثم نفقد هذا المشهد مؤقَّتًا حينما نلتفُّ عبر سلسلة من الكثبان الرملية حتى وجدنا لافتات تقول: «ابقَ على الطريق. هذه المنطقة بها ألغام كثيفة!»، لكن أين هي الطريق؟ من المفترض أننا فوقها الآن حيث لم يتمَّ تفجيرنا بعد. كانت صحراء سِرت ساحةَ مَعرَكةٍ في الحرب العالمية الثانية، وهُون نفسها استخدمها الجانبان بشكلٍ مُتقطِّع كمهبط طائرات عسكري. وحتى يومنا هذا، قد يتمُّ تفجير فتًى ما يرعى أغنامه، أو امرأة ما تجلب الماء، أو رَجُلًا يبحث عن الحطب.

فجأة نخرج من بين الكثبان الرملية، تقريبًا إلى ظلال أشجار النخيل المغبرة، ونجد أنفسنا على وشك الدخول إلى قرية صغيرة مشرقة بيضاء ونظيفة، وهي هون. أشعر بالفعل أن الغبار أقل ثِقَلًا على جسمي، وأنني أقل جفافًا في حلقي، وتراجَعَت كل الصراعات التي خضناها اليوم.

وصلنا الاستراحة الحكومية، وأفرغنا طعامنا ومواقد الغاز في الشرفة الأرضية، وأخذنا لفائف النوم إلى الداخل. أقام أربعةٌ منَّا أسِرَّةَ تخييم في غرفة، وستة في غرفة أخرى. تتكوَّن المجموعة من عشرة أشخاص وأربع مركبات، وهي مجموعة غير عملية، حيث لا أحد (سواي) يعترف بوجود قائد للرحلة. وهذا عددٌ كبير جدًّا من المركبات والأشخاص لأيِّ سَفَرٍ سريع.

الآن، بعد أن توقَّفنا ليلًا، يُكرِّس السائقون اهتمامهم للمركبات، تمامًا كما يُكرِّس الفارس الجيِّد نفسه لحصانه، بينما يقوم الرُّكَّابُ بتقديم نصائح غير مرغوب فيها. عرفنا أنّ لدينا إطاران منفجران، حيث أخذ كارلو يساعد أحمد في إصلاحهما؛ تمهيدًا لوضع الأنابيب المطاطية الداخلية. بينما يقوم أميننا، بربط كل صامولة ومسمار في سيارته بإحكام. لا أفهم كيف يمكن لأي مركبة أن تتحمَّل مثل تلك الاهتزازات.

الساعة الثامنة مساء، وتلاشى آخر ضوء للنهار قبل أن يترك الرجال المركبات.

من دواعي سروري القول إنه في هذه الأثناء كنتُ قد أعددتُ عشاءً رائعًا من السباغيتي لنا جميعًا، ولكن الحقيقة هي أنني لم أتمكَّن من إشعال موقد الغاز الفاخر هذا، ولم ينتبه أحدٌ إلى صراخي طلبًا للمساعدة؛ لذلك استسلمتُ (بسهولة إلى حدٍّ ما) وجلست أحتسي شراب الچن؛ ما جعلني -على الأقل- أُغيِّر مزاجي. في هذه الأثناء، كان الباقون مُتعَبين وغاضبين، يتبادلون الاتهامات، باستثناء غاري الذي لا يفقد صبره أبدًا، وكارلو، وهو صبيٌّ إيطالي مَرِحٌ، وسيمٌ، مليء بالطاقة التي لا تنفَد.

في النهاية، استولى كارلو بجرأة على الموقد وعمل عليه بمهارة ونجاح واضح، لأن اللهب الأزرق انطلق فجأة في الشرفة. لم يمُرَّ وقت طويل حتى كان قِدر الماء يغلي وجاهزًا لطهي السباغيتي، وتنازَلتُ -مؤقَّتًا- عن طموحي للطهي لكارلو وأميننا، اللَّذَيْن أعدَّا وجبة معكرونة رائعة بأفضل الطرق الإيطالية. في الأثناء أخرجت عصير الليمون لرفاقنا المسلمين، والويسكي لمن يُفضِّله منَّا، بينما يُشعل أحمد نار الحطب لغلي الشاي، وسرعان ما تحسَّنَت معنويات الجميع بشكل كبير.

هنا اكتشفنا أنَّ أسعد يعاني من كبده. كُنَّا مُترَعِين بالطعام الساخن، ومُتعَبين بشكل مذهل، فتوجَّهنا بسعادة إلى فُرُشِنا المكدَّسة، التي تمَّ ترتيبها جنبًا إلى جنب في غرفتين صغيرتين. الليبيون -احترامًا لي على ما أعتقد- ذهبوا مع إلهام طلعت في غرفة. وكان هذا فصلًا مؤقَّتًا سرعان ما تلاشى. كنت أنا وغاري وبيتر وهاري في الغرفة الأخرى. وبين الغرفتين هناك حمَّامٌ صغير به تجهيزات حديثة، ولا ماء به، أي دورة مياه بدون مياه، هاري وأنا قمنا بزيارة الظلام الخارجي والأماكن الخارجية الرائعة لقضاء الحاجة.

كنت قد انفصلت عنهم للتَّوِّ في كيس النوم الخاص بي، وعلى وشك النوم، حينما سمعتُ صوتًا لا لبس فيه لشخصٍ يحاول التقيؤ. كان رفاقي في الغرفة يغطُّون في النوم وهسيسهم مسموع. وكنتُ قد سحبت كيس نومي بالكامل فوق رأسي، وشعرت بشخص ما يلمسني على كتفي في الظلام- إنه بدر الدين.

يهمس في أذني: «هل لديكِ دواءٌ يصلح للغثيان؟ أسعد مريض».

«من الأفضل له أن يتقيَّأ، ويتخلَّص منه».

«لقد تقيَّأ بالفعل عدَّة مرَّات. والآن هو باردٌ جدًّا. وأعتقد أننا يجب أن نفعل شيئًا».

تمالَكتُ نفسي وغادَرتُ كيس النوم، مُمتَنَّةً لأنني دخلت الفراش مرتديةً سروالي. وصرتُ أتعثَّر وصولًا إلى حقيبتي في الظلام حتى

أجد زجاجة الماء الساخن القديمة، التي أحضرتها معي لتقليل أثر الصَّدمة في حال وقوع حادث. أعلم أن هاري لديه حقن المورفين، ومسكِّنات الألم، والحبوب المنوِّمة، وعلاجات الزحار، ومجموعة متنوِّعة من أدوية الطوارئ، ولكن لا شيء في بساطة بيكاربونات الصودا.

يعيد بدر الدين إشعال النار في الخارج للحصول على الماء الساخن للزجاجة، بينما أذهب وأتحدَّث مع أسعد. من المؤكَّد أنه يبدو مريضًا، ومُقشعِرا. أتحسَّس حجابه الحاجز بعناية، مع فكرة احتمال وجود مشكلة في الزائدة الدودية، لكنني أجد أن موضع الألم على الجانب الآخر، تحت ضلوعه.

«هل لديك مشكلة قديمة مع كبدك يا أسعد؟» أسأله.

«نعم، الطبيب دائمًا يعطيني أدوية لذلك. وينتابني صداع شديد طوال اليوم، وكل شيء من حولي يدور. في البيت أتناول دائمًا الخُضار فقط، وخبزًا خاصًّا تصنعه زوجتي». هنا تذكَّرتُ حقيبته الضخمة من الخُضَار والخبز.

«أعتقد أن اهتزاز السيارة قد أزعج كبدك. سيُحضر بدر الدين الآن زجاجة الماء الساخن وسنوفِّر لك بطانية إضافية. ستشعر بتحسُّن حينما يدفأ جسمك».

طلبت من بدر الدين إحضار بطانية الجيش الكبيرة من السيارة، وسرعان ما وضَعتُ الزجاجة الساخنة والبطانية عليه. «ستكون أفضل غدًا، أنا متأكِّدة من ذلك». أَعِدُ أسعد الذي لا يبدو أنه يصدقني، ومع ذلك، يشكرني بأدبٍ لمحاولتي مساعدته، ويشرع في التقيُّؤ مرة أخرى. بينما الآخرون ينامون بصخب.

أعود إلى فراشي في شبه غيبوبة، وأخلد إلى النوم على الفور. من خلال أحلامي طوال الليل أسمع شخصًا ما يتقيَّأ. من الواضح أن أصحاب الأكباد الضعيفة يجب أن يبقوا في بيوتهم.

أستيقظ أنا وهاري وغاري وبيتر في السادسة من صباح اليوم التالي، ونصنع القهوة، بينما لا يزال الآخرون نائمين. أصفُ حالة كبد

أسعد لغاري، الذي يقول: «مامّا ميّا!». أقترح على غاري أنه إذا ما أصبح «كل شيء يدور ويدور!» بالنسبة لأسعد اليوم فمن الأفضل أن يقود غاري السيارة. فيردُّ غاري: «مامّا ميّا!» مرَّةً أخرى، ويوافق على الاقتراح.

ننظر مرَّةً أخرى إلى الآخرين في الداخل، وهم لا يزالون نائمين، بينما يبدو أسعد أصفرَ الوجه كثيرًا. من خلال التذمُّر والإزعاج المستمر، يجعلهم هاري يتحرَّكون في التاسعة والنص، الجميعُ متعبٌ ومنفعل. وأعلم من التجربة أن الأيام الثلاثة الأولى هي الأسوأ.

عند تعبئة المؤن، لاحظتُ أن الويسكي قد انتهى عمليًّا، وأن عصير الليمون لم يُمَسَّ تقريبًا، وأن حصَّة أسبوع بأكمله من الغاز السائل قد استُهلِكت من خلال طهي كارلو الرائع للوجبة الأولى.

يركبُ أسعد السيارة، ويجلس فيها مرتخيًا وحزينًا، وحقيبة الخضار الخاصة به لم يَمسَّها أحد. يقوم بالقيادة كلٌّ من غاري وبيتر وأمينتا وأحمد. ماما ميًّا! نحن في طريقنا!

---

* Rosita Forbes: كاتبة ومستكشفة إنكليزية، وهي أول امرأة أوروبية تزور واحة الكفرة في ليبيا. المترجم

** Freya Stark: كاتبة رحلات ومستكشفة إنكليزية، كانت من أوائل الأشخاص -غير العرب- الذين سافروا وتوغَّلوا في المناطق الجنوبية من الصحراء العربية. المترجم

13. فزان

هناك حقيقتان فقط عن فزَّان لا يختلف الناس حولهما: أنها المحافظة الجنوبية للمملكة الليبية المتَّحدة، وأنها صحراء. وباستثناء هذين الأمرين، يمكن وصف المنطقة بشكل صحيح بعبارات متناقِضَة ظاهريًّا، وفقًا لمزاج الراوي.

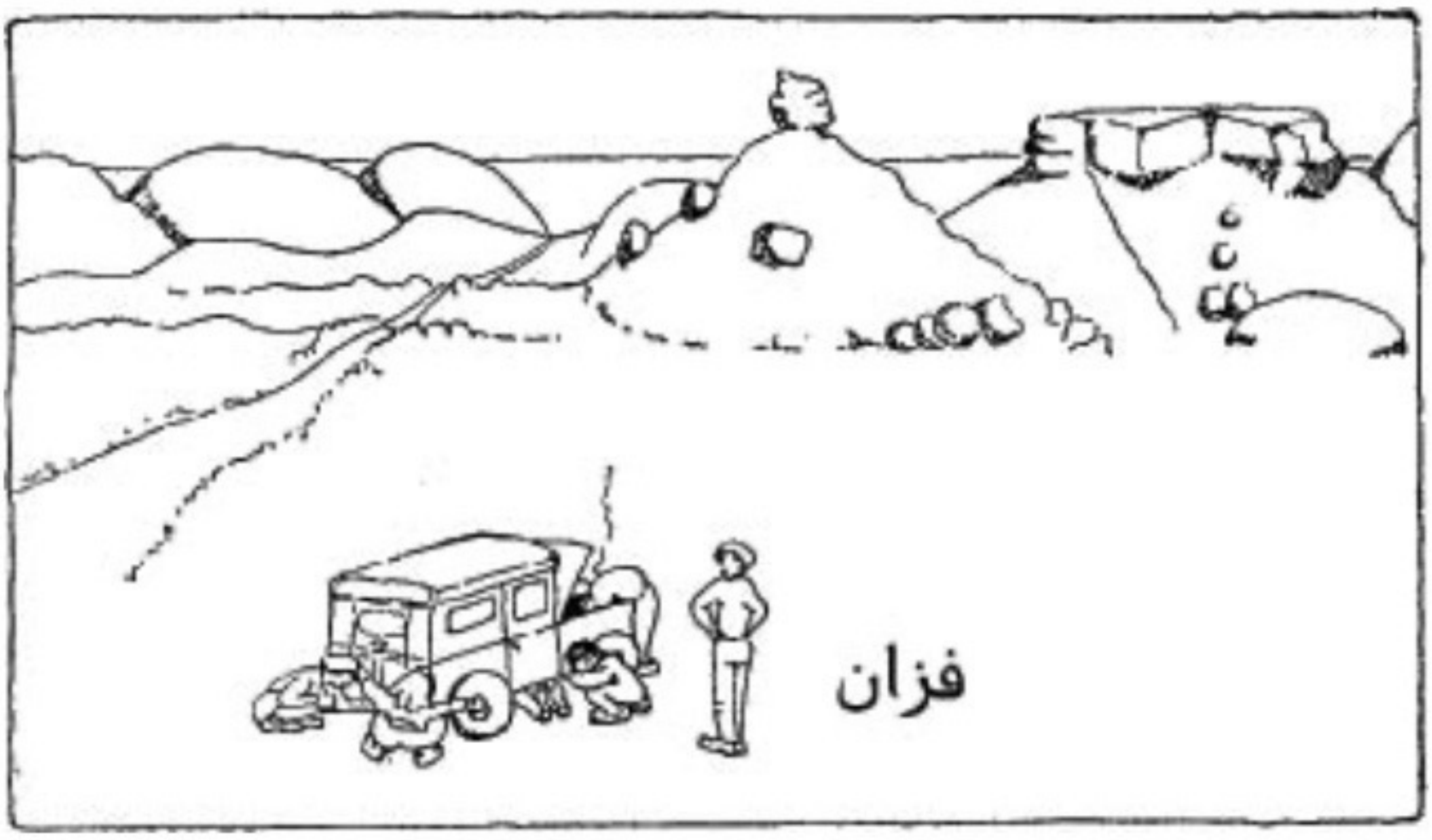

يَعتبر البعض أن واحات الصحراء هي أعجوبة وظواهر إعجازية، وتمَّ تحويلها إلى موضوعات لأساطير مُحبَّبة وشائقة يرويها الناس. إحداها هي قصة الفَرَس الذكية التي كانت صديقةً لأحد الباحثِين عن الرِّزق أثناء سفره عبر فزَّان. وبعد أن فشل الفارس والفَرَس في العثور على بئر الماء حيث كانت متوقِّعةً، ونال منهما العطش الشديد؛ فأصبحت الفرس حزينةً للغاية لرؤية فارسها يعاني، لدرجة أنها خبَطَت قوائمها بقوة على رمال الصحراء. وفجأة، من البقعة التي حفَرَت فيها، تدفَّق الماء من العين، لتصبح «عين الفرس» دائمةَ التَّدفُّق في غدامس، ولكن التي توقَّفت مؤخَّرًا عن التدفُّق! قد يفسِّر آخرون الواحاتِ الصحراويَّةَ بطريقة عِلميَّة أكثر من خلال الجيولوجيا والهيدرولوجيا، لكن هذا يجعلها تبدو أقلَّ عجبًا بالنسبة لي.

قد يصف أحدهم بدو الصحراء على أنهم نتاجُ حتميّ لبيئتهم، بينما قد يصف آخر الصحراء بأنها نتاجُ للبدو. لكن يمكن القول إن الظروف المناخية والجغرافية قد اجتمعت لتشكيل الصحراء. ومع ذلك من المنطقيِّ أيضًا القول إن هذا الحزام الواسع من الأراضي القاحلة والجبلية، في كثير من الأحيان، والممتدَّ عبر القارة الإفريقية هو ما يُنتج إلى حدٍّ ما مناخها الخاص.

يمكنك القول إن البدوي الرَّحَّالة لا يستقرُّ أبدًا لأنه لا يملك بيتا يستقرُّ فيه، أو أن السبب في عدم امتلاكه بيتًا لأنه لا يرغب في الاستقرار. يمكنك اقتراح أنه لو كان لديه بيت فسوف يستخدمه فقط لإيواء ماشيته (وهو ما يفعله) لأنه لا يعرف حياة أفضل، أو يمكنك أن تفهم أن أربعة جدران حوله في أي مكان ستخنقه، أو يمكنك الرجوع إلى الحقائق الرَّعويَّة لتجد أنه يتنقَّل ببيته من مكان لآخر للحاجة إلى مطاردة موارد الصحراء المتضائلة. وفي الصحراء، لا يمكن تمييز الخط الرفيع بين الاكتفاء والجوع، بين السعي للبقاء والانقراض إلَّا بالنتيجة. في الصحراء، الواقع هو مَحضُ سرابٍ، أمَّا الحقيقة فغامضة. هنا، العاصفة الرملية هي عاصفة ترابية. وأعلى درجة حرارة في العالم مُسجَّلة في العزيزية بالقرب من طرابلس، ومع ذلك تتمتَّع طرابلس بمناخ البحر المتوسط. وسكان شمال إفريقيا ليسوا أفارقةً، بل عربٌ وبربرٌ وأوروبيُّون!

محطتنا الأولى هي مزرعة التمور الحكومية التجريبية خارج هون مباشرةً. التي يتمُّ تشغيلها من قِبَل الحكومة تحت إدارة خبير التمورِ في منظمة الأغذية والزراعة، جيف داوسون، الذي يقضي معظم وقته هنا. لقد فعل هذا الرجل الأعاجيب لزراعة النخيل في هذه المنطقة، وهو مُتحمِّسُ تمامًا للخُطَط المستقبلية. جيف نفسه يبدو أشبه بمن يمرُّ بمجاعة أكثر من أيٍّ من الليبيين الذين يعملون معه. فحياة الصحراء أصعب على الأوروبيين منها على أولئك الذين وُلِدوا فيها، ربما لأنهم يعملون بجدٍّ أكثر. جيف يتحدَّث اللغة العربية بطلاقة. كما يُحبُّ ثقافة التمور بحماسٍ طاغٍ، ويتكيَّف تمامًا مع الصحراء، على ما أعتقد!

على بُعد كيلومترات قليلة من هون أتينا إلى سوكنة المشهورة أيضًا في تاريخ تجارة الرقيق. تقع سوكنة في هذا المكان تحديدًا بسبب الآبار الموجودة في الواحة، والتي اجتذَبَت لعدَّة قرونٍ القوافِلَ إلى المكان. القرية محاطة بالكامل بجدار عالٍ من الحجر الجيري الأبيض، الذي ينتهي في أعلاه بتصميم مُدبَّبٍ مُميَّز حول كامل الجدار. التصميم نفسه تكرَّر في جدران غدامس الواقعة أيضًا على طريق تجارة العبيد.

نتوقَّف عند بئرٍ خارج القرية مباشرة لنراقب بينما يتمُّ سحب المياه بواسطة جهد الإنسان والجِمال، تمامًا كما كان الحال منذ قرون. يقف الجملُ، مع وعاء الماء المتدلِّي داخل البئر المتَّصِل به في نهاية حبل طويل يمرُّ فوق بَكَرة فوق البئر، وبالقرب من الفتحة رجلٌ يشرف عليها فيما يبدو، بينما يُغمرُ الوعاء ويمتلئ بالماء عن طريق سلسلة من الهزَّات الخبيرة. ثم بإشارة من الرجل، يبتعد الجمل عن البئر بنظرة متكلَّفة؛ وبالتالي يسحب الوعاء إلى الأعلى.

توجد شجرة طَلَحٍ رائعة تنمو بجانب البئر، فجلستُ في ظلِّها لأرسم. كانت هذه أول شجرة طَلَحٍ ألحظها منذ مغادرتي صحراء سِرت. وعند الاستفسار عَلِمنا أن هناك عددًا ينمو في سوكنة، يزرعه السكان المحليون هنا للقيمة الاقتصادية لشجرة الطَّلح أو الأكاسيا، حيث تُستَخدم القرون في دباغة الجلود، وقد استُخدِمَت لعدَّة قرون في التجارة والمقايضة. وغاري -كخبير دباغة- كان مُهتمًّا بهذا.

لقد قاد بيتر كلَّ شيء حتى الآن، حيث حدَّد السرعات، ودعا إلى التوقُّف، وطلب من السائقين الإسراع، أو إبطاء سرعتهم، وهو مَن يُقرِّر مواعيد تناول الطعام. وله الكلمة الأخيرة في كل أمر، فبعد كل شيء هو الخبير. وتكمن المشكلة في أنه يرافقه الخبراء طلعت وڤان هورن وكيث، الذين لديهم أيضًا أفكارهم حول الخبرة في كثير من الأمور. كم هو محظوظ لأنني لا أعرف شيئًا.

بعد مغادرة سوكنة، قام مَن يعتقدون أنهم يعرفون السفر الصحراوي بشكل أفضل بأخذ زمام المبادرة. هذا يعني أن بيتر وأمينتا في المقدِّمة، يطارحهم أحمد الذي لا يتحمَّل أن يكون ثانيًا، وكذلك غاري الذي يعتقد أنه لا بُدَّ من حدوث طارئ في مكانٍ ما! جنبًا إلى جنب تتسابق العربات فوق سهل من الرمال والحصى، حيث المسار المحدَّد ضيِّق للغاية، أمَّا المسار غير المُحدَّد فمُحاطٌ بالوديان الجافة، إلى أن أمرَ هاري أحمدَ بأخذ مكانه في الصف الثاني.

يقول أحمد وهو يبطئ سير عربته في غير رضًى: «لكن يا أبي، أنت القائد! ويجب أن تكون في المقدِّمة».

«اللعنة على كل شيء، أريد أن أرى المكان. خفِّف السرعة!» يرد هاري.

لكن هناك نوع من الحُمَّى يرتبط بسرعة المجموعة، وسرعان ما نرى بياض عيون الخبراء مرَّةً أخرى، على الرغم من احتقان الدم فيها، وينطلق السعال بسبب الغبار الذي نثيره. خلفنا توجد الكثبان الرملية ذات اللون الحليبي والذهبي، وفي أطرافها اللطيفة أعدادٌ من نخيل الواحات الذي تظهر على خلفية جبل ودَّان. بينما أمامنا يتكشَّف مشهدٌ طبيعي مختلف تمامًا تهيمن عليه ظِلالٌ طويلة للجبال المظلمة، التي تتحوَّل إلى اللون الأرجواني والأسود.

بينما نقترب منها، يبدو لنا كما لو أن الحِمَم المنصهرة قد انسكبت فوقها، كما هو الحال بالفعل في عصور مضت. هذه هي مقدِّمة جبل «السودا»، وهو كتلة صخرية بركانية كانت مُغطَّاةً بالكامل بالحمم البركانية التي هدأت وانطفأت ببطء أثناء تمدُّدها وجريانها في السهول.

أصبح الممر الذي نسير فوقه الآن على شكل مقتطَعٍ من ألوان مميَّزة ومتنوِّعة وفقًا للطبقات الجيولوجية المختلفة التي نعبرها. لم يكن لي أبدًا حتى تخيُّل أي شيء يشبهها! ها هو لون الجبس الأخضر الباهت اللامع، وهنا شريط أصفر من الحجر الرملي، والآن أحمر صدئ من الحديد، والآن الأبيض الطباشيري من الجير، والأسود

والأرجواني من البازلت، وأحيانًا أرى انجرافًا رَمليًّا في لون سَمَك السَّلمون الوردي المتفجِّر من الصحراء الحمراء. هذا مشهدٌ رائع لا يُصدَّق، ويجب أن تكون هذه الصفحة من خطوط الباستيل الملوَّنة في دفتر ملاحظاتي بمثابة تذكير بهذا.

بينما نتَّجه جنوبًا، تصبح الحدبات التي بلون الفحم الأسود زوايا وأشكالًا هندسية، ترتفع بشكل واضح ومباشر من السهل، وهي أمثلة للطبقات الصُّلبة التي نجت من التآكل الطبيعي. تقع الحدبات الأصغر ذات اللون البني بينها مثل تلال النمل العملاقة التي تمَّ رَميُ دِلاء من الفحم فوقها.

لقد تمَّ تنبيهنا لمراقبة شجرة مايوروا كراسفيولا في وادي تنغسير، وهو وادٍ جاف ينحدر من جبل السودا ويمتد شمالًا إلى السهل الذي كان يفيض فيه بالقرب من سوكنة. وتعتبر المايوروا الشجرة الوحيدة التي لا تزال على قيد الحياة في منطقة جبل السودا، ربما لأنها لا تحترق جيدًا بما يكفي لقطعها واستخدامها لحطب النار. وخلال هذا القرن فقط تمَّ تدمير جميع الأشجار الأخرى، مثل: الأكاسيا تورتيليس، وتنوُّعاتها من أشجار الراديانا- في كامل المنطقة، من هون إلى سبها؛ من أجل الحطب.

يرصد بدر الدين، في السيارة الرائدة، المايوروا الأولى، وهي شجرةٌ يبلغ ارتفاعها حوالي ستَّة أمتار، ذات لحاء أبيض ناعم، وأوراق خضراء داكنة، تنمو في تاج كثيف وممتلئ؛ فتوفِّر عرضًا جميلًا مقابل الجبال السود العارية. الآن توجد صخور سودٌ كبيرة لامعة في كل مكان حولنا، وقد تفتَّتَت من كتلة الحمم البركانية وما زالت تتفتَّت إلى الصخور السود والحجارة السوداء، والحصى الأسود، وإلى الرمل الأسود في النهاية. يتميز المَسْرَب الذي نسلكه بصخورٍ مُفرَدة مقطوعة من الحجر الرملي بلون الشوكولاتة، وتقف منتصبةً مثل موكب من طيور البطريق، مع جانب واحد أسود، والآخر بُنِّيٍّ. وعلى هَدي من هذه الصخور يتمُّ ابتلاعنا في عالَمٍ من الأشكال المظلمة.

نتوقّف عند الوشكة، وعلى الحاجز حيث يخبرنا أحمد أنها آخر مكان سنجد فيه الماء حتى نصل إلى سبها. توجد هنا بئرٌ ارتوازيَّة نزوِّدُ منها المحرِّكات بالماء ونملأ قواريرنا، ونكرع الماء البارد. المياه صافية وحلوة، تختلف تمامًا عن المياه المالحة بعض الشيء في الواحات أدناه. يبلغ ارتفاعنا الآن نحو 800 متر، وهو المستوى التقريبي لهضبة جبل السودا. بالأمس كانت الرمال والسماء والجو تُمثِّل وَسَطًا واحدًا، أمَّا اليوم فيتناوب السَّواد والوميض. في هذا المكان المليء بالهواء النقي البارد والماء البارد الحلو. نحن محاصَرون حقًّا بروح العطلة، بينما أحمد وبدر الدين يتمازحان مثل المراهقين، وهو وضع لم أتخيَّله أبدًا في طرابلس! وحده أسعد لا يزال حزينًا بسبب الخلل في الكبد أكثر من كونها كآبَةً ذهنيَّة.

تنتصب شجرةٌ واحدة عجفاء وقد أحنَتها الرياح في الهضبة الصخرية أمامنا، التي تتعرَّض باستمرار للسعات الرمل. وعلى مرمى بصرنا في أي اتجاه، لا يوجد أيُّ جسمٍ قائم مرئي باستثناء هذه الشجرة المشوهة، وهي تقريبًا العلامة الوحيدة على ما يشبه اللون الأخضر لعدة ساعات.

شمس الظهيرة قويَّة، تزيغ الأبصار، لكن الرياح باردة وطازجة هنا، حيث غبار الصخور المتطاير ثقيلٌ جدًّا بحيث لا يمكن رفعه في التيار. لا يعطي سطح البازلت المغطَّى بالحصى المتلألئ لمعانًا أسود إلَّا حينما تتضخَّم ذرَّات السراب الزرقاء الصافية وتتدفَّق فوقها في فيضانات متعاقِبة عديمة الصوت. نوقفُ سياراتنا ونبدأ التقدُّم نحو الشجرة على الأقدام، وعندها يبدو لنا أن بحيرات السراب المتلألئة ذات اللون الأزرق الباهت تتكسَّر أمامنا وتنسكب بعيدًا، ثم تنغلق في صمتٍ مَرَّةً أخرى من خلفنا. في كل هذا المشهد الخيالي وغير الواقعي يبدو السراب وحده حقيقيًّا.

عند وصوله إلى الشجرة، قال هاري بنبرة فيها توقير، «لا بُدَّ أن هذه هي شجرة مايوروا كراسيفكا التي يتحدَّث عنها الطوارق. وهي

الشجرة الوحيدة -بجانب السَّنط اللولبي- التي تنمو فوق هذه الهضبة».

«كيف وَصَلَت إلى هنا؟» يسأل بدر الدين. «بالبذور التي تحملها الرياح؟».

«مَن يعرف كيف جاءت هنا؟» يقول هاري بحذر، «إنه أمرٌ نادر، لكنها متوطِّنة هنا».

قلتُ مقترحةً: «ربما وقَعَت البذرة من قافلة في أيام تجارة الرقيق القديمة».

«ولماذا ترين ذلك؟» يسأل هاري.

«لِمَ لا؟ لقد ألقوا الكثير من البذور البشرية على طول الطريق!».

«كم عمرها؟» يسأل أحمد.

يقول هاري، الذي لا يخمِّن أبدًا: «لا أستطيع القول».

على أي حال، إنها محض شجرة، وعلى الرغم من مقارنتها مع المايوروا التي وجدناها في وادي تنغسير مع تيجانها الخضراء الغنية الشبيهة بالقوارير، فهي عديمة الرائحة، لا قوامَ لها، ولا نَسغَ، وعديمة اللون تقريبًا، فهي ضحية للجوع والعطش- لكنها لا تزال حية! الآن يبدأ البحث والتحقيق، أخذُ القياساتِ بالإضافة إلى إبداء الإعجاب، وكل شخص منَّا لديه شيء يقوله عن ذلك، ما عداي. أستطيع أن أفكِّر في شيء واحد فقط يناسب هذه الشجرة، لكن لا يمكنني الإفصاح عنه. وبصفتي زوجة لحَرَّاج -أو خبير غاباتٍ- فقد توقَّفتُ عن متعة إبداء الإعجاب بالأشجار، بعد أن تحدَّث چويس كلمر* عن لعنة الحرَّاجين الذين يعتقدون أنهم وحدهم المسؤولون عن نُموِّ الأشجار. هناك عبارة واحدة مناسبة يمكن اقتباسها عن هذه الشجرة!

يبدأ الرجال بالدوران حولها وتصويرها، ويبحثون عن البذور الموجودة عليها وبالقرب منها، يفحصون الجذع والأغصان والأوراق واللحاء الأبيض مثل العَظْم. أخيرًا ابتعدنا، وتراجَعَت موجات السَّراب

الزرقاء أمامنا، ثم تنغلق وراءنا مرة أخرى، تاركين خلفنا شبح العطش ينمو على شكل بحيرة. ينظر شخص ما إلى الوراء ويقول، «إنه حقًّا مجرد مشهدٍ صغير بائس ووضيع!».

وهذه هي الحقيقة الناصعة للصحراء. قد يكون الشيء الصغير البائس الوضيع مشهدًا لمعجزةٍ في رحلة يوم طويل، أو شيئًا من الجمال الخالص، ودليلًا على الخصوبة، وعلامة من الله، أو أنه يقدِّم وَعدًا ما للإنسان. ومع ذلك، لا يمكن إنكار أنه لا يزال مجرَّدَ شيء صغير بائس ووضيع. وعمومًا في الصحراء من بين جميع الأماكن، فالجَمالُ دائمًا في عين الرائي.

لا توجد مستوطنة بشرية دائمة في أي مكان في جبل السودا. حيث تستقبل هذه الكتلة الصخرية أحيانًا ما يصل إلى سنتيمترين من الأمطار في السنة، حينما لا يكون هناك أي شيء على الإطلاق على الأرض الصحراوية. وفي مثل هذه الأعوام يأخذ الرُّعاة الرُّحَّل ماشيتهم للرعي. لا أستطيع تخيُّلَ ما قد يرعونه؛ لأننا لم نَرَ بريقًا من اللون الأخضر، باستثناء شجرة المايوروا، التي بالكاد يمكن وصفها بالأخضر، ولم نَرَ ورقة عُشبٍ واحدة خلال ست ساعات من السير.

يا لها من معاناة لا بُدَّ وأن صادفها أولئك العبيد خلال هذه الرحلة التي دُفِعوا أثناءها في جماعاتٍ حُفاةَ الأقدام في أيام القوافل تلك! مربوطين إلى بعضهم البعض من الأعناق، رجالٌ عُراةٌ، ونساءٌ يحملن أطفالًا يبكون، وأطفال مرضى، بجلودهم السود التي صارت رماديَّةً بفِعل الغبار، وتُغطِّيها القروح، يتعثَّرون على أقدامٍ تنزف فوق الصخور الحادة، يتأرجحون ويكادون يسقطون، وهم مُثبَّتون في وضعٍ مُستَقيم فقط بواسطة نِيرٍ خشبيٍّ يربطهم بجيرانهم. في كل ليلة كان المرضى والموتى يُفصَلون عن أماكنهم بين أولئك الذين نجوا، ويُترَكون وراءهم في البرِّيَّة ليهلكوا. اليوم، لا تزال تلالٌ من العظام البشرية والهياكل العظمية للجِمال موجودة على طول كل هذه الطُّرُق، وليست كل هذه الأكوام عمرها قرون؛ لأن «تجارة الرقيق» استمرَّت

حتى القرن العشرين. لقد اعتاد تُجَّار الرقيق أن يخسروا ثمانين في المائة من كل شحنةٍ بشريَّة، ويحقِّقون مع ذلك ربحًا وفيرا!

إنه طريق طويل للانتقال من جحيم تلك الأيام إلى عجائب الإبحار عبر السراب في سيارة لاند روڤر. مفاهيمي السابقة عن السراب كصورةٍ ملوَّنة صغيرة وأنيقة، معروضة في وسط صحراء رملية صفراء، كانت كلها خاطئة. عِوَضًا عن ذلك، أنا موجودة في وسط السراب، الذي يُهَيمِن هو نفسه على المشهد برُمَّته، يمتصُّه ويُغرقه، وأنا معه، لدرجة أنني قد أكون شيئًا خياليًّا، أو حتى خدعة بصرية، لكن السراب حقيقيٌّ. في بعض الأحيان أثناء القيادة، يكون الطريق مجرَّدَ شبه جزيرة ضيِّقة مُحاطَة بالبحر، وأحيانًا يضيق إلى مَسرَبٍ رفيع من شريط أزرق ينفتح أثناء السير، ثم يتدحرج خلفنا. وهكذا، تائهةٌ في موجات الضوء والخداع البصري، أجد نفسي مؤقَّتًا في وسَطٍ غير مؤلم، وحينما تتوقَّف فجأة السيارة التي في المقدِّمة، نحاذيها ونصرخ: «ما الأمر؟»، فيقدِّم بيتر الإجابة بعقلانية لطيفة: «إنها الساعة الثالثة. دعونا نأكل!».

الفكرةُ تُرضي الجميع؛ فنوقِف السيارات. أبتعدُ مسافة عن المركبات، ثم أستدير لأقوم برسمٍ تخطيطيٍّ لأربع سيارات لاند روڤر صغيرة تبدو غريبة وغير مُهمَّة وهي تقف في سهلٍ أسود كبير. يأتي تبرير غريزة التغذية، حينما يرى هاري من بعيد في قاع الوادي بعضَ رؤوس نباتاتٍ من اللون الأخضر، والتي ثَبَت عند فحصها أنها أكاسيا تورتيليز مصحوبة بعدد قليل من نبتة كوروسفيرا البائسة، وكلها تبدو في حال سيئة، ولا توجد بوَفرَةٍ، ولكنها في النهاية نبات.

بعد تناول الخبز وسمك التُّونة المعلَّب، نواصل مسيرنا لعبور المسطَّح الفولاذي، وتتبعنا الآن مجموعة جديدة من السَّراب ذات الكثبان الرملية الصفراء التي تطفو فيها مثلما تطفو الكاستردة فوق الحلوى. نعلم من الخرائط أن الرمال ليست على مرمى البصر من هنا، وأن كثبان السراب هذه لا بُدَّ أن تكون وعودًا لِمَا يزال بعيدًا عن أعيننا. بعد ساعة أخرى من السفر، تبدأ الكثبان في الظهور بكثافة،

بينما يتراجع السَّرابُ السائل إلى خطِّ الأفق، مع انخفاض في تركيز شمس الساعة الرابعة. سرعان ما يلين المخطَّط الحاد للهضبة الحصوية إلى شكلٍ متموِّج ناتج عن المظهر الخَفيِّ على يميننا لخطٍّ طويل من الكثبان المتناظِرَة بلونٍ زَعفرانيٍّ. تتسلَّل هذه من حولنا أثناء سَيْرنا، حتى تُسَيطر تمامًا على سواد الحصى، وفجأة كل شيء حولنا يتحوَّل إلى لون الرمال الحليبي.

هناك كثبان عالية وأخرى منخفضة، وهناك انجرافاتٌ رمليَّة وظِلالٌ رمليَّة، ورمال صفراء ناعمة متموِّجة مُغطَّاة بكثافة فوق المشهد من حولنا، مع استثناء واحد، حيث نرى قِمَّةً صلبة من الحجر الرملي البُنِّي تلوح في الأفق أمامنا، والتي بسبب التعرية يبدو أنها اتَّخَذَت شكل وجهٍ حادٍّ مُميَّز، ويُعرف هذا باسم رأس غاريبالدي. لقد عبرنا الحدود الآن إلى فزَّان.

نتوقَّف في المكان للتصوير، ويُبدي كلٌّ من بدر الدين وأحمد حماسًا طاغيًا لأخذ صورة بجوار رأس غاريبالدي، وجعلانا نصوِّرهما مع كل غَرابةٍ متاحة في المكان. أحثُّ هاري على أخذ بضع لقطات معي فيها (إنها الصحراء!)، لكنه يُفضِّل الصُّور مع الأشجار. أمَّا بيتر الذي توقَّف معنا فنظر إلى تصويره بدون عاطفة، وكشيء يجب القيام به بأقل قدر من المتعة.

اللون من حولنا رائع، السَّماء ما زالت زرقاء، والرمال ذهبية على خلفية الجبال البُنِّيَّة بلون الشوكولاتة.

«أوه، أليس هذا جميلًا!» أقول لبيتر.

لكنه يجيبني مؤنِّبًا: «تصوُّراتنا عن الجَمال مختلفة!».

أُدرك بعد ذلك أن اللون الأخضر مفقود من هذا المشهد، وأن بيتر لديه حبٌّ إنكليزيٌّ طبيعي لخُضرة الريف؛ فأقول: «لكنني أحب الفراغ الموجود في الخلاء وهذا الجدب- إنه يخلو من النظام والترتيب».

«لكنَّكِ في النهاية لا تريدين أن تعيشي هنا؟» يسأل أحمد برُعب.

«في الصحراء؟ نعم، أودُّ أن أجرِّبها بشكلٍ ما. ألا تودُّ ذلك؟».

يرتجف كلٌّ من أحمد وبدر الدين، «لا، لا، لا قدَّر الله... لا!».

بالقرب منه عثر هاري على ثلاث ورقات من العشب، من فصيلة أرستيدا بلوموسا، ثم غادَرْنا، لكن ليس قبل أن يقرِّر تغيير اسم «رأس غاريبالدي» إلى «رأس الباشا»؛ تكريمًا لأحمد؛ ربما لأنه أول مَن يزوره من سلالة الباشوات.

يرتفع رأس الباشا من قاعدة الممرِّ الذي نزلنا إليه الآن لنَصِل إلى قاع وادٍ مُتعرِّج، تتقاطع تبدو فيه من بُعدٍ موجاتُ زرقاء متقطِّعة صغيرة، التي ثبت أنها تلال. هذه هي التلال الرملية وكتل الكثبان الرملية في رملة زلّاف، التي تتحوَّل إلى لون أزرق رائع في الضوء الخافت. بعد الشُّحِّ والتقشُّف الذي شهدناه في جبل السودا، أصبح المشهد أمامنا ريفيًّا لطيفًا، حيث تبدو الرمال المتموِّجة مثل حقول القمح الناضجة، ويمكن تخيُّل تَفتُّح نبتة الترمس فوق تلك التلال الزرق.

ومع ذلك، فالطريق بعيدٌ كُلَّ البُعد عن كونه ريفيًّا، ولمدة ساعتين نتقاطع مع الرمال والصحراء الصخرية، حيث يُغلَق الطريق في كثير من الأحيان بالكثبان الذهبية الطولية المتنقِّلة التي نحاول تخطِّيها والالتفاف حولها. مَرَرنا للتَّوِّ ببيتر، الذي يُعَدُّ بالفعل أفضل سائقينا، وكان عالقًا في الكثبان الرملية، وحينما نتباطأ في الدوران تَعلَق سيارتنا في الرمال الناعمة. للحظة، يقوم أحمد بمحاولة أخيرة للخروج من فخِّ الرمال بسيارة الدفع الرباعي، ثم يطفئ المحرِّك ونغادرها جميعًا.

هل نحاول تحريكها مرَّةً أخرى بحمولة مُخفَّفة، مع قيام اثنين منَّا بالدَّفع؟ أم نجرب الخطوة الثانية أوَّلًا (حيث يؤدِّي كلُّ فشلٍ إلى غرق السيارة أكثر) ونفتِّش في المحيط بحثًا عن نباتات جافة لوضعها أمام الدواليب لمنحها قوَّةَ حركة أكبر؟ الخطوة الثالثة هي فكُّ ألواح

المسارات الرملية الطويلة، لكننا نحاول تَجنّبها بسبب الوقت اللازم لتثبيتها بإحكامٍ مَرَّةً أخرى.

في هذه اللحظة يتقدَّم غاري وأسعد وهما يلوِّحان لنا. لقد تنبَّها إلى مشكلتنا، ويحاولان إيجاد مكانٍ صُلبٍ لإيقاف سيارتهما، والعودة سيرًا على الأقدام للمساعدة. الآن، مع دفعنا جميعًا؛ تتحرَّر السيارة من الرمال، في الوقت الذي تمرُّ فيه سيارة بيتر، ليكون مرَّةً أخرى في الصدارة! إنها لعبة السائقين، فلا يجب أن يشعر أحدٌ بالتفوُّق- رغم محاولة الجميع ذلك. حينما تنظر إلى سيارة عالِقَة في الرمال يبدو أنه لا مفرَّ من الشعور أنه كان بإمكانك الإسراع بها بأمان أكثر.

قبل الساعة السابعة بقليل، اقتربنا من سَبها الجديدة، عاصمة ولاية فزَّان. وعلى عكس الموجود في قرى الواحات الحقيقية، فإن الاقتراب من سبها لا يُبشِّر بالضرورة بمشهد صفٍّ من أشجار النخيل المغبرَّة التي تعني للمسافر وجود الماء؛ لأن سبها الجديدة لا تدين بوجودها إلى حقيقة ما تُمثِّله المياه من حيويَّة، ولا لأي حقيقة حيوية أخرى؛ فسبها بلدةٌ اصطناعية، تمَّ بناؤها وفقًا لمواصفات الأحلام كعاصمة للولاية، وتضمُّ مُوظَّفين حكوميين وافدين، بالإضافة إلى الخبراء والأجانب، وزُوَّار نهاية الأسبوع الذين يأتون عادة عن طريق الجو.

يمكن رؤية السِّمة المعمارية المثيرة للاهتمام في سَبها على الفور: القلعة الإيطالية القديمة الموجودة على تلٍّ قريب، والتي أطلق عليها الإيطاليون اسم قلعة ريجينا إلينا، التي سقطت في أيدي القوات الفرنسية في الحرب العالمية الثانية، وأصبَحَت قلعة لوكليرك على اسم الجنرال الفرنسي الذي حرَّرَها. استقرَّت قوات الفيلق الأجنبي تحت الإدارة الفرنسية بعد الحرب في هذه المنطقة والتي يحمل أفرادها الجنسية الألمانية في معظمهم. حينما قام الفرنسيون بالاتفاق مع ليبيا بالجلاء عن فزَّان في عام 1956 أزالوا جميع الأنابيب وتركيبات السِّباكة والتجهيزات من القلعة قبل تسليمها إلى الجيش الليبي الذي يشغلها الآن. هذه الحقيقة هي التي تسيطر على ذهني الآن حينما

أنظر إلى بنائها الذي يلوح في الأفق، وأحاول تَخيُّل مشكلة حمل الماء في الدِّلاء أعلى ذلك التل.

باستثناء هذه الخلفية العسكرية المحلية، تبدو سبها مثل أي مشروع تقسيمٍ عقاري في الضواحي، نفَدَت الأموال فجأة من الجهة القائمة عليه؛ فشوارعها الثلاثة أو الأربعة، التي تتقاطع مع بعضها البعض بزوايا قائمة غير مُعبَّدة ومملوءة بالغُبار والرمل، ولكنها مع ذلك محاطةٌ بأعمدة إنارة مُزَخرَفة- بدون أضواء. ومع وجود آلاف الكيلومترات المربَّعة من الصحراء المحيطة بها، تقف هذه المنازل الصغيرة مثل صناديق بَيضٍ قريبة من بعضها البعض، وتحدِّق في نوافذ بعضها البعض. جميعهم موعودون بالمياه، لكن لا توجد مياه هذا العام.

في طرابلس سمعنا عن فندق سَبها الجديد الجذاب، مع حَمَّامٍ مُلحَق بكل غرفة، وأبرقنا من طرابلس للحجز. وصلنا عنده الآن، وهناك مجموعة من السيارات المتوقِّفة أمامه. هذا مكان إقامة صغير وأنيق مُشيَّد من الحجر الأبيض، يُبهر الأبصار نتيجة انعكاس آخر أشِعَّة الشمس عليه، رأينا أنه يخفي فِناءً داخليًّا لطيفًا يفيض بالرجال الذين يرتدون الجينز الأزرق وقُبَّعات رعاة البقر، وبدلات متهدِّلة، وسترات إفرنجية، وسراويل الكاكي، وكلهم يتجادلون مع الحاج مرسال، مالك فندق الشام حول حجوزات الغرف. ينضمُّ هاري إلى الجدل المشتعل، فأيقنتُ أنه يجب التخلِّي عن فكرة الحصول على سرير والاستحمام الليلة، وعندها فقط يعود هاري ويقول لقد نجحنا.

نتوجَّه إلى غرفة نظيفة لطيفة بها سريرٌ مزدوج مريح المظهر، وحوض استحمام مجاور، ولكن لا توجد مياه في الأنابيب. في غضون ذلك، وجد أحمد وبدر الدين وأسعد مكانًا للمبيت في ثكنات الشرطة، وتمكَّن غاري والبقية من الإقامة مع معارف لهم في سبها.

الآن يرسل مالك الفندق عدَّة دِلاء من الماء نُنظِّف بها طبقة الرمل التي تغطي المكان. لا يزال شعري وفروة رأسي بلونٍ وَرديٍّ، وعلى الرغم من قيامي بالمَشط بقوَّة، إلا أن شَعري الداكن يظل ناشفًا

ومحتفظًا بلونٍ ترابيٍّ. أُخرِجُ الرمل من أذني، وأكشطه من أظافري، وأرتدي قميصًا نظيفًا، لكن رمليًّا، حيث اخترق الغبار الأحمرُ حقيبتي، ثم أتوجَّه إلى حانة الفندق -حيث اجتمع فريقنا بأكمله- لتناول المشروبات المثلجة ووجبة ساخنة.

في صباح اليوم التالي، يُكرِّس الرجال جهودهم لإصلاح السيارات، واكتشفنا أن اثنتين منهما بهما قضبان توجيه مكسورة يجب استبدالها بأخرى جديدة من حمولة قطع الغيار التي معنا. حتى الآن، تعرَّضَت سيارتنا لأربعة ثقوب في الإطارات، وثلاثة أنابيب داخلية جديدة تمزَّقَت تمامًا. يقال إنه بعد كل ثلاثة عشر ألف كيلومتر من السير في الصحراء تحتاج جميع قطع غيار شاحنة الصحراء إلى الاستبدال، لكن يبدو أننا نصل إلى هذا الهدف بسرعة كبيرة، مع أن سَبها على بُعد ألف وأربعمائة كيلومتر فقط من طرابلس.

---

* Joyce Kilmer: كاتب وشاعر أميركي، توفي في 1918، اشتهر بمجموعته الشعرية عن الأشجار. المترجم.

14. ماريان

بما أنه ليس لديَّ أي نصيحة أو خبرة في مجال الميكانيكا أفيدهم بها؛ فأنا متفرِّغة هذا الصباح للذهاب مع «ماريان لابير» لزيارة الأُسَر الفزَّانيَّة لبعض طالبات ماريان التي تعمل خبيرة تربوية في اليونسكو، وتقوم بتعليم الكبار في سَبها القديمة، التي تُسمَّى الآن سَبها الجديدة، وهي واحة سَبها الأصلية. يتطلَّب الانتقال من العاصمة سَبها إلى سَبها القديمة خمس دقائق فقط بالسيارة، ولكنها أيضا تُعادِل خمسة قرون في الانتقال عبر الزمن. وبدا واضِحًا أن سبها القديمة فقيرة نسبيًّا بقدر ما عليه سبها العاصمة من حركية وحياة.

ماريان لابير، شابة ألمانية نحيلة، شقراء، زرقاء العينين وتتمتَّع بذكاء شديد وحساسية كبيرة مُكرَّسةً بالكامل لعملها. التقيتها بالصُّدفة في المستشفى العسكري البريطاني في طرابلس، حيث كانت تخضع للعلاج من الزحار، وأنا أعاني من كُليةٍ مصابة. وجدنا نفسينا متماثِلَتَيْن في رؤية الكثير من الأمور، وأعتقد أننا استمتعنا بإقامتنا معًا في المستشفى. ماريان مستشرقة ولغوية موهوبة، وتتحدَّث اللهجة الليبية بطلاقة. وهي أيضًا «الدكتورة» لابير، لكن الجميع في فزَّان ينادونها بماريان، بمن في ذلك رجال الشرطة المحلِّيُّون. وهم يفعلون ذلك بطريقة محترمة وودِّيَّة لدرجة أن كلمة «ماريان» تصبح بالتالي تكريمًا حقيقيًّا، وسرعان ما ينسى المرء كُلًّا من لقبها تابر وصفتها كدكتورة.

نوقفُ السيارة في ضوء الشمس الساطع خارج سور المدينة الطيني القديم، ونمرُّ عبر مدخلٍ ضيِّق إلى المدينة. داخلها مُظلِم وبارد؛ لأن الشارع عبارة عن ممرٍّ مُغطًّى حيث تلتقي الطوابق العليا للمساكن معًا فوق الشارع. نتبع هذا الزقاق في وقت الغسق، وأتعثَّر في العديد من الحفر بينما يصعد الزقاق، ونسلك منعطفين ثم نتوقَّف

أمام باب مغلق. نطرقه فتجيب الأصوات من فوق، وتردُّ ماريان بالعربية وبعدها نفتح الباب وندخل.

على النقيض من الزقاق المظلم بالخارج، يبدو أن داخل البيت يتفجَّر بأشِعَّة الشمس الساخنة البيضاء التي تتدفَّق علينا من السماء المفتوحة فوق طابقين. هذا أوَّلُ بيت في واحة جنوبية أدخل إليه، ومع علمي أنها مبنية بدون نوافذ حتى لا يرى أيُّ رجُلٍ النساءَ بداخلها، فلم أكن مُستعدَّةً لفيضان الضوء بالداخل.

تؤدِّي الدرجات القليلة إلى طابق ثانٍ فوقنا، ثم تستمرُّ صعودًا إلى السطح. تمَّ بناء البيت من كُتَل طينية، أما عوارض البناء فمن جذوع النخيل، وهو خشب الصحراء الوحيد المتاح. لا يوجد أثاثٌ من أي نوع، فقط حصيرة من الدِّيس المنسوج ملفوفة على الحائط، والعديد من أواني الطهي المصنوعة بيتيًّا من الفخَّار توجد على الأرضية الترابية.

وجدنا ثلاث نساء في انتظارنا لتحيَّتنا، في بيتٍ بهذه البساطة تهيمنُ الشخصيات على محيطه، وهؤلاء النسوة مثل لهيب الحياة في الصحراء. اثنتان منهنَّ في منتصف العمر، إحداهما لها وَجهٌ بيضاويٌّ بأنف معقوف وعينين زرقاوين، والأخرى وجهها مستدير عريض، بعينين سوداوين لامعتين. السيدة العجوز -والدتهم- لا تزال جالِسةً على الأرض الترابية المسطَّحة. وجهها مليء بخطوط حزن وفرح الدنيا، وعيناها تتألَّقان بحسِّ الفكاهة الغريبة وبعض الأذى الذي طالها أيضًا، على ما أعتقد. بشرتهنَّ سمراء، لكن بالتأكيد لسن زِنجيَّاتٍ، على الرغم من أن كلمة «فزَّاني» عادة ما تعني شخصًا من العِرق الإفريقي الأسود. وأيضًا كما هو الحال في معظم البيوت الليبية وفي جميع الواحات، تعيش عِدَّة أجيال من الأُسرَة الواحدة معًا.

يرحِّبن بي على الطريقة الإسلامية، أي مُصافَحةٌ بالأيدي، تليها قُبلَة على ظهر اليد. ومع ذلك يرحِّبون بماريان، كأختٍ لهم، كواحدةٍ منهم، وكشخصٍ يدخل بيتهم عن طريق الثِّقة المُتبادَلة والمَودَّة العميقة.

في الواقع، يُعبِّرون عن شعورٍ فيَّاض تجاهها، ولو لم أره بعيني، لما تخيَّلتُ وجوده بين الليبيَّات وأي شخص أجنبي. لقد تأثَّرتُ بشدة بصدقِ وقوَّةِ وبساطة هذه العلاقة. كنتُ قد سمعت من ماريان -حينما كُنَّا في المستشفى معًا- عن بعض الصعوبات التي واجَهَتها في سَنَتِها الأولى في فزَّان، لكن بدا لي أنها قد نالت مكافأتها في العلاقة التي رأيتها اليوم.

المرأة التي بدت أصغر سِنًّا قامت بفردِ الحصيرة من مكانها لكي نجلس عليها، ومنذ تلك اللحظة لم تكن هناك لحظة صمت. لا تزال لغتي العربية مُقتَصِرةً على عبارات المجاملة المهذَّبة، والاستفسارات حول الصحة، لكنني كنت أعرف ما يكفي لأدرك أن المحادثة كانت تدور حولي، وكنت أعرف بالضبط طبيعة أسئلتهم. بأصواتٍ مَرِحة نشطة ومليئة بالحيوية والفضول، مصحوبة بإيماءات قوية من الرؤوس، كانوا يسألون عن معلومات عنِّي: كم عمرها؟ هل هي متزوِّجة؟ هل لديها أطفال؟ كم طفل؟ لحسن الحظ، منحتني الأقدار بعض الصفات المقبولة، وتمكَّنَت ماريان من تقديم الإجابات الصحيحة عني، وعن طفليَّ، ولدٌ وبنت يعيشان في أقصى الأرض، ورأيت عندهن القبول بهما، حتى لو لم يكن العدد كافيًا. ومع ذلك، قالت العجوز لماريان عني: «يا إلهي، لا بُدَّ أن تكون شجاعة للغاية لتذهب بعيدًا وتتركهما! لا يمكن أن أترك أطفالي أبدًا أبدًا!»، وهذا تعليق واقعيٌّ على طبيعة حياة الأسرة العربية. فحينما حانت اللحظة المناسبة تركني طفلاي كما تركتهما، وهو أمرٌ ما زال يشقُّ عليَّ أيضًا.

في تلك الأثناء كنتُ أستمتعُ كثيرًا بتدفُّق المحادثة من حولي، وأتعجَّب من حقيقة أنَّ نُطق ماريان، وخاصَّةً نغماتها وإيقاعها في الكلام، كانت متطابِقةً مع تلك النساء اللواتي تحدَّثَت إليهنَّ. وتذكَّرتُ من جديد أن العربية التي تتحدَّث بها النساء لها بالتأكيد إيقاعٌ أكثر رَخامَةً من تلك التي يتحدث بها الرجال.

يقدِّم لنا أصدقاؤنا خِيارًا بين تناول الشاي أو حليب الماعز، ونختار الحليب. وبينما نحن نشربه، شرَحَت ماريان المحادَثةَ الدائرة على أنها تتعلَّق بصحَّة الحاضرين وبعائلاتنا المختلفة. في غضون ذلك، وصل أربعة أطفال، بينهم فتاة في الثانية عشرة من عمرها، فاطمة، وهي ذات وجه ساحر مُشرِق وعينين زرقاوين، وقد أحضَرَت سلَّةً من حبوب القمح، وأخذت تنظِّف القشور منها.

هناك فتاة أخرى تصغرها بسنين قليلة، بوجهٍ باهتٍ وحزين، تأتي وهي تجرُّ نفسها على الأرض باستخدام ذراعيها وحدهما، وتسحب ساقيها العاجزتين خلفها. أخبرتني ماريان لاحقًا أنها أصيبت بالشَّلل منذ ولادتها نتيجةَ مرضٍ وراثيٍّ، ربما يكون الزُّهَري. تغمر البهجة وجه الفتاة الصغير عند رؤية ماريان، وترمي نفسها عليها في نشوةٍ من المودَّة، وتتشبَّث بها بإحكامٍ، ثم تستقرُّ أخيرًا عند قدميها بذراع ترتكز على حِجر ماريان، وعيناها تركزان بوَلَهٍ على وجهها.

تأتي فتاة ثالثة، ذات بشرة داكنة وشَعر مُجعَّد إلى حدٍّ ما، ولكن وجهها مستدير ومبتهج، كانت تحمل ما يماثل الجائزة الكبرى في هذه المجموعة من الأطفال: صبيٌّ يبلغ من العمر ثمانية عشر شهرًا، وهو بمثابة مَلِكٍ متوَّج لهذه القلعة. رضيعٌ ممتلئ الجسم ومُبهِج، يميل إلى الوسامة عند التمعُّن في ملامحه بوضوح، لكن شفتيه اللزجتَيْن السُّكَّريَّتين (كان يمصُّ الحلوى)، وسيلان أنفه، ووجهه اللامع مُغطًّى بالكامل بأجنحة كبيرة متلألئة لذباب لا يطير إطلاقًا، وإنما يلتصق بشفتَيْه. تقوم ماريان بتلويح يديها لهَشِّ الذباب الذي يرفرف قليلًا ثم يعود ويتشبَّث بموقعه. وعلى الرغم من أن شفتي الطفل تتلألآن تحت بريق أجنحة الذبابة، إلا أنه يبدو غير منزعج لذلك أبدًا.

تطلب ماريان من فاطمة أن تريني سَلَّة نوم الطفل التي صنعتها، فتفعل ذلك بكل فخر، مُوضِّحةً لي أن ماريان علَّمَتها كيفية صنعها عن طريق نسج وريقات سعف النخيل معًا لهذا الغرض. والآن الملك الصغير، المسمَّى محمد بالطبع لأنه البِكر، ينام بمفرده بدلًا من النوم بين ماما وبابا.

قبل أن نغادر، تطلب ماريان الإذن باصطحابي إلى السطح الذي يمكننا من خلاله مشاهدة جميع أسطح المنازل الأخرى في سبها الجديد. هذه منطقة محظورة على الرجال؛ لأن جميع أسطح المنازل مُخصَّصة للنساء فقط؛ فالسطح هو الحرية الوحيدة المتاحة للمرأة.

بعد القيام بطقوس الوداع المناسبة، نغادرُ البيت. لقد تأثَّرتُ كثيرًا بشطارة هؤلاء النسوة ومحاولاتِهنَّ إشاعة البهجة في حياتهن بالرغم من أنهن يَعِشن حياتهن خلف أبواب مغلقة، وهي حياة لا تطاق بالنسبة لي. وبينما نغلق الباب وراءنا، تلفتُ ماريان انتباهي إلى حقيقة أنه مصنوع من أقسام منفصلة من جذع شجرة نخيل تمَّ ربطها معًا لتكوِّن بابًا جذَّابًا للغاية.

نزور العديد من أصدقاء ماريان الآخرين، ونجد امرأةً شديدة المرض تعاني من عِلَّةٍ في الكبد، وكانت أثناء زيارتنا تتلقَّى تدليكًا من صديقة لها. أخبرتني ماريان أن هذه المريضة ذهَبَت أوَّلًا إلى الأطباء الشعبيِّين ولم يتحسن حالها، ثم إلى طبيبة فرنسية لكن دون فائدة واضحة، ثم عادت إلى طبيبٍ شعبيٍّ مرَّةً أخرى، الذي أعطاها لتوِّه دورة علاج تتكوَّن من كيٍّ جسدها بأنبوب حديد ملتهب؛ ما أدى إلى تغطية أضلاعها وظهرها بندبات طولية. تخبر المريضة ماريان أن هذا العلاج يمنحها بعض الراحة! لكن لم يخطر ببال أيٍّ منهم أن مرضها قد يكون عصيًّا على الشفاء.

مع حلول منتصف النهار نعاود السير من جديد على طول الممر المغطَّى، نمشي بتمهُّلٍ ونتبادل الحديث.

«هل ينتشر المرض كثيرًا في سبها القديمة؟» أسألها، ولم يبرح فكري مشهد تلك الندوب الحمراء الطويلة التي سبَّبها الكيُّ.

«حسنًا، ما رأيتِه اليوم ربما كان نتيجة مباشرة لسوء التغذية. وبالتأكيد، يُعتَبر نقص التغذية والتراخوما أكبر مشكلة يواجهونها هنا. على الرغم من أن الأمراض الاجتماعية بالطبع لها آثار بعيدة المدى من خلال الأطفال- مثل ليلى الصغيرة اليوم! لا يمكن لأحدٍ أن يُقدِّر

مدى انتشار هذه الأمراض، باستثناء القول بأن هناك عددًا هائلًا منها، أكثر ممَّا يجرؤ أي تقرير على ذِكره. أما بالنسبة للتراخوما، فمن بين خمسين فتاة لديَّ في المدرسة، تسعة وأربعون منهنَّ مُصاباتٌ بالرَّمد الحُبَيبي. تمَّ علاجهنَّ جميعًا في المدرسة، ومعظمهنَّ شُفين».

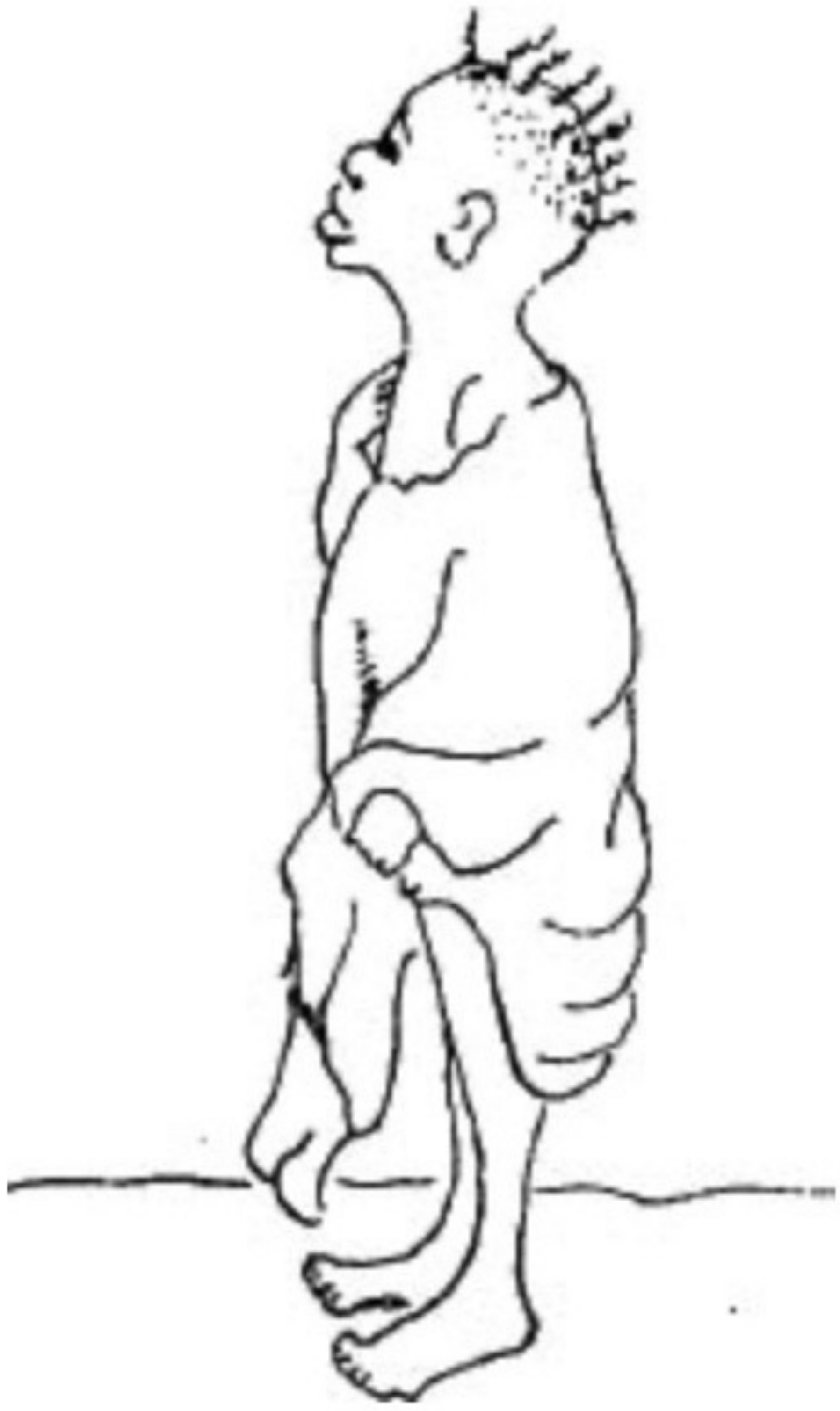

«في أي سنٍّ تتزوَّج الفتيات هنا؟».

«في أي وقت بعد سنِّ الحادية عشرة. ومنذ زواجهن يصبحن في حال حَملٍ بشكل دائم. بعضهن لم يريْن بداية فترة الحيض قَطُّ: لقد تزوَّجن، ويفترض أنهنَّ حَبَلن قبل موعد الدورة الشهرية الأولى».

«ألا يستطيع أحدٌ محاولة تعليمهم كيفية تنظيم الأسرة أو تحديد النسل؟».

«أغنس، يا عزيزتي! أنت تتحدَّثين عن عقودٍ وقرون مستقبلية هنا! على أي حال، لا ترغب المرأة هنا في الهروب من الحمل؛ لأنه طالما استمرت المرأة في الحمل، فإن عُذرَ زوجها يكون أقلَّ للزواج عليها بأخرى. أيضًا، الأطفال مطلوبون جدًّا هنا، ويتلقَّون قدرًا كبيرًا من

المَودَّة، حتى لو لم يتِمَّ إطعامهم بشكل صحيح! لكنَّ عددًا هائلًا من الأطفال يموتون قبل بلوغهم سنِّ الرابعة. وهذا -على ما أعتقد- يضغط على نموِّ السُّكَّان».

«ماذا يأكل الأطفال؟».

« التمور. خاصَّةً الفزاني الأسود. المحظوظون منهم لديهم حليب الماعز، لكن العديدين من أطفال الواحات، بعد التوقُّف عن تناول حليب الأم، لا يأكلون شيئًا سوى التمر حتى بلوغهم سن التاسعة أو العاشرة. بالنسبة لهم، الطعام عبارة عن تمر».

«أتذكَّر صبيًّا فزَّانيًّا جاء من الصحراء ليعيش مع بعض أصدقائنا في طرابلس. لقد رفض في الواقع تناول الطعام على الإطلاق لعدة أيام، حتى حصلوا له أخيرًا على بعض التمور الفزانية. لم يقبل بتمور طرابلس اللَّزِجة التي يبيعونها في عبوات. كان عليه أن يحصل على التمر الفزَّاني المحلَّى بالكراميل والمُجفَّف بالشمس! في الواقع إنها رائعة من حيث النكهة، فلم أتذوَّق شيئًا مثلها أبدًا، لكنني أكره الرمل فيها. لكن أعتقد أن الشخص الفزَّاني لا يلاحظ وجود الرمال! شباب طرابلس لا يأكلون التمر إطلاقًا الآن. وعلى الأرجح يرون أنه تقليد قرويٌّ للغاية!».

«لا يمكن لأهل فزان أن يعيشوا بدون نخيل التمر» تقول ماريان، «فهم لا يضيِّعون شيئًا منه. حتى النّوى يتم طحنه وإطعامه للماشية. كل هذه البيوت الطينية هنا مسقوفة بسعف النخيل المغطَّى بالطين. سافر السيد عمر شعبان -وهو والد إحدى تلميذاتي- في رحلةٍ استغرقت عدَّةَ أسابيع لإرشاد مجموعة من السُّيَّاح على ظهور الجِمال عبر بحر ربيانا الرملي إلى الكُفرة. وكنت في البيت أزور زوجته بعد يومٍ من مغادرته، وسألتها عمَّا يأكله خلال الرحلة، فقالت إن المخالي التي يحملها كانت محشوَّةً بالتمر الفزَّاني، ولديه كيس منها مربوط عند خصره، وكانت معه علبة شاي صغيرة، وقربة مملوءة بالماء، هذا كلُّ ما أخذ معه! تصوّري أن تفكِّري في عبور واحدة من أسوأ امتدادات الصحراء بهذه التجهيزات!».

تابَعَت ماريان: «لا أعني أنَّ كل سكان الواحات لا يأكلون سوى التمر. حيث يزرع بعضهم الشعير والقمح والقصب والبصل والطماطم. وكثيرون منهم يطهون البازين من دقيق الشعير. يعجنونه ويأكلونه غير مطبوخ، وهو مُغذٍّ، حتى إن البعض يصنع المعكرونة، مثل السباغيتي من دقيق القمح، ومع ذلك يُستخدم التمر دائمًا».

«وماذا عن الأغنام والإبل؟».

«الأغنام هنا لا تذبح أبدًا من أجل الطعام! فهي تُستَخدَم فقط للصوف. أمَّا الجَمَل... حسنًا، لا يستطيع معظم الناس شراء أي نوع من أنواع اللحوم. في بعض الأحيان قد يُذبح الجَملُ الكبير في السن، أي إنْ كان أكبر من أن يحرث الأرض، وأضعف من أن يَحمِل الأثقال! الناس لا يستخدمون النقود هنا؛ فهم لا يملكونها! ومتوسِّط دخل الأسرة حوالي عشرين دولارًا في السنة.

نمرُّ الآن عبر البوابة الموجودة في سور المدينة القديمة ونخطو إلى الخارج في ضوء الشمس إلى عالم مختلف. كان المكان المظلَّل الذي تركناه مرحِّبًا وودودًا، لكنني عرفتُ أنه ليس مناسبًا لي، إنه فقط لنساء عالمِ المسلمين. هذا العالم له سُلطَته الذاتية وقوَّته الخاصة التي تكمن في عُزلَته وأبوابِه المغلقة، وفي أفكاره السِّرِّيَّة وعقوله غير المُستَكشَفة، في إيمانه بالأفكار القديمة، واتِّباع الطقوس العتيقة. هنا النظام القديم وأتباعه يعيشون الآن روحيًّا بالكاد باحترام الذات. لكن يتعيَّن هدمُ الجدران، وفتحُ الأبواب، وترك ضوء الشمس يغمر المكان، وتحطيم سطوة الطقوس القديمة، وإعمال العقل للتعايُش مع المعتقدات القديمة- لكن ماذا سيتبقَّى لهم هنا؟ أين وكيف تُقدِّم لهم الحياة في فزان أيَّ بديلٍ حيٍّ أو بديل مُغاير؟

أفصحتُ عن أفكاري بصوت عالٍ، وسألت ماريان: «لكن هل يمكن لهؤلاء الناس البقاء على قيد الحياة في حياة مختلفة؟ أي القفز من الظلام إلى ضوء الشمس الساطع، فهذا يمثل خطورة الانتقال المباشر من الشمس إلى الظلام».

تجيب ماريان: «نجحوا بالفعل جزئيًّا في التعامل مع بيئتهم الصحراوية الصعبة والمروِّعة بشكل لا يُصدَّق؛ فأساليبهم البدائية تُلبِّي احتياجاتهم البسيطة، وهم يعتمدون فقط على موارد الصحراء. لا أرغب في تغيير أسلوب حياتهم، إنما آمل فقط أن أعلِّمَهم استخدام مواردهم الخاصة بشكل كامل. تاريخ سبها الجديد يعود إلى عدَّة قرون، وستظلُّ هنا في القرون المقبلة. لكن سبها الجديدة؟ حسنًا، توقَّفوا عن دفع المال للناس للعيش هناك، توقَّفوا عن استيراد طعامهم وبضائعهم لهم، وستختفي سَبها الجديدة مثلما يختفي أثر النَّدى على الرمال!».

«وهل هؤلاء النساء سعيدات باتباع الطرق القديمة؟» أسألها.

«بالطبع! فهُنَّ لا يعرفن شيئًا آخر. إنهن يَقبَلن التقاليد القديمة المتمثِّلة في عُزلَتهنَّ الكاملة، والبيت هو عالَم المرأة الوحيد. إنها هي البيت، ومشاكله وتدبيره من اختصاصها».

«وماذا عن جلب الماء إلى البيت؟ أعلمُ أن هذه وظيفة المرأة دائمًا».

«أوه، يمكن لكل أسرة أن تُنتِج بعض العلاقات السيئة، أو يمكن أن يوجد شخصٌ ما دون المستوى المناسب للذهاب إلى البئر وجلب الماء!».

قبل أن ننفصل لتناول الغداء، وعدتني ماريان باصطحابي معها هذا المساء لزيارة فصولها التعليمية في سَبها الجديدة. يجب أن تنعقد فصول النساء دائمًا في الليل؛ حتى تتمكَّن الطالبات من الذهاب إلى هناك تحت جُنح الظلام، دون خطر أن يرى أيُّ رَجُل منهن أكثر من أشكال مُظلَّلة.

إنها ليلة بلا قمر، لكن تألُّق النجوم في السماء المظلمة يصنع ظِلالًا في الصحراء، بينما كنت أنا وماريان نسير إلى البلدة القديمة. خلفنا يكمن اللَّمعانُ الأصفر الاصطناعيُّ لمنازل سبها الجديدة المزدحمة، والضجيج الليلي المتواصِل لأجهزة الراديو اللاسلكية.

عند وصولنا إلى سور المدينة القديمة، نمرُّ عبر المدخل الضيق، وهو غير مضاء بالطبع؛ فنفقد ضوء النجوم تمامًا، ونتحسَّس طريقنا على طول الزقاق المغطَّى. وكما حدث معي من قبل، أتعثَّرُ في حفرتين، وفي نتوءٍ حَجريٍّ؛ فأسقط على الأرض المنحدرة بينما تحاول ماريان إرشادي، وهي التي تعرف كل حفرة عن ظهر قلب.

«الظلام رهيب!» أعلِّق بلا داعٍ.

توافقني قائلةً: «بالطبع. لو لم يكن الظلام شديدًا فلن تستطع النساء مغادرة منازلهنَّ للذهاب إلى الفصل! وفي ليالي ضوء القمر الساطعة، يُلغى الفصل الدراسي».

بالقرب من زاوية أخرى، توقَّفنا عند المدخل وتحسَّسَت ماريان فتحة القفل فانفتح الباب إلى غرفة مضاءة بشكل خافتٍ بواسطة خيط من الضوء الذي ينير درَجًا صاعدًا، وهنا أسمع أصواتًا شابَّةً تتحدث العربية.

تشرح ماريان: «هُنَّ موجودات بالفعل؛ لأن أفضل تلميذاتي يأتين مبكِّرًا، ويبدأن الفصل من أجلي. إحداهن تساعدني الآن في التدريس، وقد جئتُ مُتأخِّرةً قليلًا عن قصدٍ حتى تتعلَّم الفتيات القيامَ بعملِهنَّ بدوني، وأن يتحمَّلن المسؤولية تجاه أنفسهن».

حينما بدأنا صعود الدَّرج الضيق، بدأت أصواتُ شابَّة قوية تنادي على ماريان، وقبل أن نصعد السلالم كانت تتحدَّث بمرح مع تلميذاتها اللواتي ما زلن غير مرئيَّات. أتعجَّب مُجدَّدًا وأسعدُ بسهولة تواصلها مع لغتهنَّ العربية، وبتوافُقها معهنَّ، بتناغُم التجاوب بينها وبين الفتيات. هذا ما يعنيه التحدُّث بلغة ما، ليس تعلُّمَ كلماتها وحدها، بل فهمُ مضامينها. لا يمكن أن يكون هناك الكثير من النساء الغربيَّات اللواتي سيتحدَّثن بهذه الطريقة مع الليبيات اللواتي يُضِفن إلى صعوبة اللغة، بسبب التقاليد التي تفرض العُزلَة.

أجد أعلاه غرفةً صغيرة بها عشر طاولات ومقاعد خَشِنة تشغلها خمس وعشرون شابَّة، تتراوح أعمارهن -كما تخبرني ماريان- من

اثني عشر إلى ثلاثين عامًا. فبعد الثلاثين، عادة ما يَكُنَّ جَدَّات، وأكبر من أن يتعلَّمن! لا يوجد سوى طفل واحد في الفصل، وهو أمرٌ غير معتاد؛ ففي كثير من الأحيان، هناك ستة أو سبعة أطفال يجب على أمَّهاتهم إحضارهم والعناية بهم. الآن ماريان منشغلة تمامًا مع طالباتها، ومن الواضح أنهن يعتبرنها واحدة منهنَّ، لكنَّهنَّ يتقبَّلن أن لديها معرفة إضافية في بعض الأمور، وهذه الليلة هُنَّ بحاجة ماسَّة إلى قدرتها على الحياكة، وهو الدرس لهذه الليلة، فقد وصلوا إلى مرحلة كعب الجورب. والصوف الذي يستخدمونه مغزولٌ منزليًّا من أغنامهم.

في الأثناء أجلس أمام الفصل حيث يمكنني النظر إليهنَّ وأن يرينني في المقابل. تقترب بعضهن منّي ويُمرِّرن أصابعهن لأعلى وأسفل على جورب النايلون خاصَّتي، الذي سمَّينه «بشرتي»، ويتحسَّسن كذلك نسيج ثوبي. في المقابل، ألامس أيديهن وشُعورَهنَّ، وألقي نظرة فاحصة على الوشوم في بعض الوجوه، وأتحسَّس ملحفاتهن المنسوجة من الصوف الداكن، وهو غطاءٌ واسع تضعه كل أنثى، وهو ما يقابل الرداء الأبيض -أو الفراشية- في طرابلس. هنا، وفي هذه الليلة، تمَّ نزع هذا الأغطية من على رؤوس النساء ووجوههن، أمَّا خارج باب الفصل، فسيتمُّ لَفُّ الملحفات بالكامل فوق الرؤوس لإخفاء الوجه بالكامل، باستثناء العين اليسرى.

استنفدتُ قائمة مفرداتي الصغيرة من التحايا باللغة العربية الخاصة. تطرح الفتيات أسئلةً شتَّى عليَّ، لا أفهم لغتهن العربية تمامًا، لكن يمكنني تَكَهُّن محتواها. كم عمري؟ إن كنتُ متزوِّجة؟ ... وما إلى ذلك.

كما في الصباح، تُقدِّم لي ماريان الإجابات وهي تحيك كعوب الجوارب. وتنقل لي إعجابهن بمعلوماتي الخاصة بالزواج والأبناء أثناء استمرار الفصل في الحياكة، لكن لا أحد يتوقَّف عن الحديث ولو للحظة، وتبادُل العبارات بينهن يُحدِثُ الضحك المتواصل. المبتدئات منهنَّ يواصلن القيام بالغُرَز، لكن الأكثر تقدُّمًا يعملن على كعوب الجوارب. تبدو العملية شاقَّةً بالنسبة لي، وسأتخلى عن ارتداء

الجوارب إن اضطُرِرتُ إلى حياكتها هكذا، لكن الفتيات واصلن العمل بكل همَّة.

لقد رأيت أن هذا الفصل الدراسي هو الأكثر جاذبية الذي رأيته على الإطلاق، ليس في مظهره المادي البسيط، وإنما في نوعية الروح المعنوية العالية والبهجة لشاغِلاته من «النساء الصغيرات» مثلما تُسمِّيهنَّ ماريان. لا يوجد معيار أجنبي للسلوك مفروضٌ هنا، بدلًا من ذلك تتصرَّف الفتيات وفقًا لأفضل معايير اللباقة واللياقة كما جرى معي، وكذلك الاهتمام بتعليمات ماريان. لكن هذا لا يتم بصمتٍ وبعيون حزينة، في جوٍّ كئيب منظَّم جيدًا مثلما قد يكون موجودًا في الفصول الدراسية في العالم الغربي، الذي قد يمقته الطَّلَبة أنفسهم. بدلًا من ذلك، هناك جوٌّ من الفرح والمرح، مشوبٌ بلمسات من الشقاوة التي رأت الفتيات أنني وماريان سنحبها. لقد رأيتُ أنَّ هذا السلوك يدلُّ على تربيةٍ جيِّدة خاصَّةٍ بهنَّ، وعلى هذا النحو أجده متفوِّقًا على رؤية باقي الليبيين الذين يقلِّدون أنماط السلوك الآداب الأجنبية.

شيء واحد أسأله لنفسي، وقرَّرتُ أن إجابته سهلة: لماذا تكون المدرسة مُمتِعة تسودها روح معنوية عالية؟ بالطبع، من الواضح بالنسبة لهؤلاء الفتيات اللاتي يعشن منعزلات تمامًا في البيوت، فأيّ لقاء مع أخريات سيمثل وقتًا رائعًا. وغير المدرسة، عادة ما تكون حفلات الزفاف والجنازات هي العذرُ الوحيد التي يمكن أن يجمع الإناث هنا.

خلال ساعة أستمعُ فيها إلى إيقاع لغةٍ حَلْقيَّة يتمُّ الحديث بها بسلاسة، وأراقب الوجوه الشابة المشرقة بدرجات بشرة مُتدرِّجة من البُنِّيِّ الخفيف إلى الأبنوسي، وكل ذلك مع تركيز الأعين والعقول على مُعَلِّمَتهنَّ، توصَّلتُ أيضًا إلى بعض الاستنتاجات تتعلَّق بماريان.

أعلم أنها كانت تعيش في سبها منذ أكثر من عام، وبقيت هنا طوال فصل الصيف القاسي حينما تتجاوز درجات الحرارة 49 درجة مئوية في الظل، وتبقى فوق 38 درجة في الليل، حتى داخل المنازل الطينية والحجرية التي بُنِيَت من أجل الاحتفاظ بالبرودة. أعلم أنها

الأوروبية الوحيدة هنا طوال شهور الصيف، وماريان وحدها يمكنها الحديث عمَّا يعنيه العيش بمفردها في هذا المكان. لقد تعلَّمَت العيش في ظروف صعبة، وعانت من الزحار والدَّمامِل التي استنزَفَت قُوَّتها، ومع ذلك لم يهزمها شيء من هذا.

لكن أخبرتني أن شيئًا واحدًا كاد أن يهزمها: فخلال السنة الأولى من الدراسة، كانت تعود إلى البيت كل ليلة من عملها، مُتعبةً جسديًّا ومُجهدةً نفسيًّا من خلال محاولاتها لمجاراة اللهجات الجزائرية والفزَّانية لتلميذاتها. ومن ثَمَّ الرَّدُّ عليهن بالمِثل، أو أنها تعترف بفشلها. لكن في هذه الليلة رأيتُ دليلًا على أن ماريان لم تُهزَم.

لا بُدَّ أنها تعلَّمَت في تلك السنة الأولى بقدر ما تعلَّمَت تلميذاتها، وميزة ماريان أنها تتعلم أيضًا. وعندها مَزيَّة أخرى، هي انتفاء العجرفة في سلوكها. فهي لا تشعر أنها أتت إلى هنا لتُعلِّم الناس الحضارة. أو أنها تساءَلَت ما حاجة هؤلاء الفتيات ليكُنَّ مُتحضِّرات وفقًا لمعاييرهن الخاصة؟ وهي تشعر تجاههن بالحب، وربما قُدرَتها على الحب هي أسمى فضائلها. الكثير من الناس يحبون فقط انعكاسَ أنفسهم في الآخرين، لكن ماريان تحب الآخرين بالفعل.

لديها خُطَطٌ لإنشاء معهد لتدريب المعلِّمات في سَبها، حيث تلتحق به فتاة واحدة من كل واحة صغيرة في فزَّان للدراسة، ثم تعود إلى واحتها للقيام بالتدريس. تقول ماريان إن مُحافِظ فزَّان كان مشجِّعًا لها للغاية؛ فهي فكرة ثورية هنا لمحاولة توسيع أفق عالم المرأة بأي شكل من الأشكال. لكن الجزء الأكبر من الذكور الليبيين

يعارضه، ولو فقط بصَمتٍ لا يلين. ومقابل هذا التعنُّت أتساءل: ما الذي يمكن أن تفعله فتاة ألمانية شقراء شاحبة اللون؟

لاحقًا، لم أكتشف كثيرًا ما يمكن أن تفعله ماريان، ولكن اكتشفتُ ما يمكن أن يفعله ذكور ذلك العالم الصَّحراوي الصغير لها، وهي الشابَّة الشجاعة التي فعَلَت الكثير من أجل نسائهم، والتي أحبَّتها نساؤهم بالفعل. وربما كان لؤمُ ردودِ أفعالهم الذكوريَّة على شهامتها

متناسبًا مع طبيعة الصراع الصحراوي الوحشي الذي يعيشون فيه، وهو قاسٍ، وشهوانيٌّ، ولا يرحم.

15. أهل الواحة

لِفَهْم سُكَّانِ الواحات، يجب على المرء أوَّلًا أن يتخيَّل مدى اتساع المنطقة الصحراوية التي تقع فيها الواحة، وتلك العزلة المطلقة لكل مجموعة صغيرة من أشجار النخيل والنباتات القليلة، وأماكن السَّكَن، والنساء المختبئات، والرجال المتثاقلين الذين يتحرَّكون ببطء. وعادة ما يكون في كل واحة أقلُّ من مائة شخص. هذه الواحات تشبه النقاط على ورقة نظيفة، مع عدم وجود شيء يربطها ببعضها البعض أو بأي شيء آخر. ومع ذلك، لم يتمَّ تحديد موقع نقطة واحدة منها عن طريق الصُّدفة. بل إن موقع كل واحة هو حيث يجب أن تكون بالضبط، حسب الضرورة، وبالضبط حيث يمكن الحصول على المياه الجوفيَّة.

كنزُ فزَّان المدفون تحت أرضها: ليس هو الذهب، ولا الملح الذي كان ذات مرَّةٍ من النَّفاسة بحيث تعادل قيمته وزنه ذهبًا، ولا هي تجارة الرقيق الأفارقة سيئة السُّمعة، التي بلغت قيمتها الملايين في الزمن الغابر، ولن يكون حتى النفط على المدى الطويل وفي قادم السنين. لكن ثروة الصحراء تكمن هنا في الطبقة الضخمة المدفونة من الصخور التي تحوي المياه والتي تشكِّل حوضًا جيولوجيًّا يقع تحت الحوض الهيكلي الدائري لفزَّان بأكمله. تحت هذه الصحراء الجافة التي تضربها الرياح بقسوة حتى يومنا هذا، هي هذه الطبقة العميقة المساميَّة من الحجر الرملي والصخور المتكتِّلة التي تُراكِم المياه منذ آلاف السنين، وبينما كان الإنسان منشغلًا بتدمير موارده فوق سطح الأرض، كانت الطبيعة مشغولةً بتخزين الكنز له تحت السطح. وفي خزان المياه هذا الذي لا يُقدَّر بثمن، المياه الجوفية هي سرُّ كلِّ نَصل عُشبٍ وحبوب شعير ونخيل ينمو في فزان.

هذه أرضٌ بلا مطر تقريبًا، بدون حتى سُحُب. وفي بعض السنوات لا تعرف هطل الأمطار بتاتًا، وفي سنين أخرى لا يوجد سوى أثر بسيط لها. لقد قُدِّر متوسِّط هطل الأمطار السنوي، خلال

فترة الثماني سنين الماضية في غات، بمقدار سنتيمترين، ويرى عالِمُ الأرصاد الجوية الفرنسي الذي أنهى للتَّوِّ دراسةً عن هذه المنطقة أن معدَّل سقوط المطر ينخفض مع مرور الزمن. ومع سقوط سنتيمترين من المطر على سطح جاف؛ لا يمكن أن يكون هناك جريان أو مُستَجمَعات للمياه؛ وبالتالي لا يوجد هنا سوى هذه الرواسب والمخزونات الآمنة للمياه الجوفية التي تتكوَّن على مَرِّ عدَّة قرون؛ لجعل الوجود والحياة مُمكِنَيْن للإنسان أو الحيوان أو النبات.

تقع واحات فزان على طول أربع مناطق ضيقة حيث يقترب منسوب المياه من سطح الأرض. وفي مثل هذه المنطقة، فإن الآبار ذات الأعماق المتفاوتة، والتي تملأ الطبقة المساميَّة السفلية هي التي تجلب المياه إلى سطح الأرض. وفي بعض الأحيان توجد المياه أيضًا في الينابيع المتدفِّقة بشكل طبيعي. في مثل هذه المنطقة، غالبًا ما تتدفَّق مياه الآبار السطحية التي يبلغ عمقها مترًا أو اثنين بِحُرِّيَّة في قاع الوديان الجافة لأنها تسحب المياه من طمي أرضية الوادي، الذي يسحب هو نفسه الماء من طبقة الحَجَر الرملي الأساسية. وهذا ما يفسِّر لماذا قد يظهر وادٍ فجأة عبر سهل مُقفِر من الحصى، ويظهر باللون الأخضر مثل خطِّ قَلَمٍ أخضر مرسوم على ورقٍ أبيض. ومع ذلك، إذا توقَّفتَ وبَحَثتَ فلن تجد رطوبة ظاهرة للعيان، ولا حتى قطرة ماء ولا مشروبًا، لكنك ستجد النباتات.

بسبب منسوب المياه الجوفية المدفون هذا، هناك الكثير من الحديث في الوقت الحاضر عن «وجود مياه» في الصحراء- لكن هذه العبارة مُضلِّلة للأشخاص الذين يفكرون في وجود الماء كما ظننتُ من قبل، أي أحواض استحمام ممتلئة بالماء. ذات يوم شاهدتُ عشرًا من نساء الطوارق -المرأة التارقية مكشوفة وغير مُحجَّبة- عند بئرٍ في الحمادة الحمراء يملأن قِرَبهنَّ بالماء ويحملنها على الظهور إلى خيامهن على بُعد ثمانية كيلومترات. يتم سحب الماء من هذه البئر مرَّةً واحدة فقط في الأسبوع بواسطة بَعيرٍ، حيث تأتي كل امرأة وتملأ قِربَتها التي تسعُ نحو عشرين لترًا. ثم تحملها إلى البيت كإمدادِ

أسبوعٍ لعائلتها المكوَّنة من ثلاثة إلى ستة أفراد، وهذا يعني أن أقل من ربع لتر من الماء يستخدمه كل شخص في اليوم لجميع الأغراض: للطبخ والشرب، وإذا كان يمكن للمرء أن يتخيَّل ذلك: للغسيل والاستحمام أيضًا! هذا هو معدَّل استهلاك المياه لمجموعة من الناس يعيشون بالقرب من بئر، والذين هم مثالٌ لأهل الصحراء المحظوظين بوجود المياه! وليس من المستَغرَب إذن أنَّ البدويَّ الحقيقي الذي لا يستقرُّ في مكانٍ مُحدَّد، ولا يلمس جسمه الماء، وبدلًا من ذلك «يغتسل» بالرمل.

في الواقع، فالتعوُّد على عدم الاستحمام في الصحراء أقلُّ صعوبة من الأشياء الأخرى التي تقترن بنقص المياه. وبعد الإحساس بالعطش، أعتقد أن تنظيف الأطباق في رمال الصحراء هو النتيجة الأكثر غرابة لعدم وجود الماء؛ يمكنني تنظيف الأطباق، ولكن ينتهي الأمر بطبقةٍ مُغطَّاة صالحة للأكل من ذيول السردين، وزيت التونة، وجلود النقانق والصلصة اللذيذة، مخلوطة بالرمال وبرائحة نفَّاذة يُسمِّيها هاري «ليلة التارقي»، بدلًا من التعبير المعروف «ليلة الكريسماس».

قد يكون هناك عشرون أو خمسون شخصًا فقط يعيشون في واحةٍ ما، أو حتى مائة أو عدَّة مئات، لكنَّ كلَّ واحة مُحاطَة بمنطقة غير قابلة للعيش؛ ما يجعلها منعزلة مثل جزيرة. الواحة وسُكَّانها ونخيلها تتعرَّض باستمرارٍ إلى واحدٍ من مناخَيْنْ شاقَّيْن، فخلال جزءٍ من العام يتعرَّض السكان للحرارة الشديدة وينشوون تحت أشعَّة الشمس الساطعة، كما يجتاحهم القبليُّ الذي لا يرحم، والذي يَعبُر الصحراء مثل موجَةٍ صفراء عارِمَة، ويُغرِق أحيانًا قرًى بأكملها في بحار الرمال، ويدمِّر الغطاء النباتي والإبل والبشر كذلك. يترك القبلي وراءه جبالًا جديدة من الرمال البيضاء، وتكوينات ورديَّةً جديدة من الكثبان الرملية المتحركة، وأخرى على شكل أهِلَّة، وكذلك يترك سهولًا حُبَيبيَّةً بلون داكن. وخلال بقية العام تنخفض درجات الحرارة أثناء الليل إلى درجة التجمُّد، وتكون الرياح القاسية مُحمَّلة بالبرودة

والرطوبة، أمَّا الشمس فتصير مُشرِقة، لكنها لا تبعث على الراحة، ولا تهطل الأمطار.

فعليًّا، بالكاد يتمكَّن سكان الصحراء من البقاء والعيش، لكنهم أقوياء روحانيًّا؛ لانغماسهم الشديد في تقاليدهم الثقافيَّة الخاصة التي نشأت من الاحتياجات المُلِحَّة لحياتهم المنعزلة. وضرورة الصحراء في حياتهم هو جوهر وجودهم. فحتى يتغيَّر نمط احتياجاتهم، لا يمكن لنمط حياتهم أن يتغيَّر. إن محاولة أي قوة خارجية لتغيير طُرُق عيشهم، دون تغيير مقتضيات تعامُلِهم مع الصحراء ستكون مدمِّرة مثل نزع زعانف السمكة واستبدالها بأرجُل، ثم رميها مرَّةً أخرى في البحر.

لاحظتُ وجود هوَّة واسعة بين أهل الواحات ورفاقنا الليبيين أحمد وبدر الدين وأسعد، مع أن جميعهم ليبيُّون ومسلمون. أمَّا بيننا وبين شباب طرابلس هؤلاء فيبدو أنه لا توجد فجوةٌ كبيرة بالرغم من كوننا أوروبيين ومسيحيين، وهم عربٌ ومسلمون. حتى إنني ظننتُ أن بإمكاننا أنا وهاري العيش والاستقرار في بيئة واحةٍ ما بسهولة أكثر من أحمد، الذي يملك قدْرًا واسعًا من التساهُل في العلاقات لأن الأتراك أوروبيُّون حقيقيُّون، بينما نحن من الأنغلو ساكسون!

بعد أن رافقتُ ماريان لعدَّة أيام أراقب المجتمع المحلي، فقد أهملتُ مُراقَبة طبيعة نباتات سبها، وهو أمر يسهل القيام به؛ لأنها تكاد تكون غير موجودة. كنا نرى أحيانًا نبات «الثمام المنتفخ»، وهو عشب بلون الصحراء يشبه حزمةً من القش، وهو جيد لتثبيت أي شيء. عيِّنة بائسة أخرى وجدتُها، هي ما يُعرف بـ «كاليغنوم كوموسم»، وهي شجيرة تنبت في الصحاري، وذات فروع هشَّة ومفصليَّة جافَّة. وبالطبع، نبتة الطُّرْثُوثُ وهو نبات طُفَيليٌّ معمِّر، ومُغطَّى البذور، طويلٌ، مستدَقٌّ كالفِطر، يلتصق منتصبًا من الرمال في شكلٍ قضيبيٍّ، في عمودٍ يبلغ طوله نحو خمسة عشر سنتيمترًا من المادة الحمراء المكدومة، ويُسمِّيه الليبيُّون «زب الترك»! وهو

طفيليّ أيضًا. في جميع الواحات المجاورة توجد أشجار النخيل والأكاسيا تورتيليس وتنوُّعاتها من الراديانا.

الشيء الأكثر إثارة فوق الرمال هو قرعٌ حنظليٌّ يُسمَّى بالإنكليزية «تفاحة سدوم» ولونه ساطِعٌ حينما يكون طازجًا، ويتحوَّل مع الوقت إلى اللون الأبيض. عادة ما يكون موجودًا على هيئة نبتة صغيرة هشَّة عديمة اللون تلتصق بالأرض، لكن ثمارها من القرع يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة، وتنمو من حجم بيضة الدجاج إلى حجم بيضة النعام، وهو خفيف جدًّا، وسهل النفخ بالرياح. في اليوم السابق، سعيتُ وراء إحداها لمسافةٍ ما فوق الرمال، على أمل غير واقعي، وهو أن تكون بيضة نعامة من حقبة ما قبل التاريخ. لكنها بالطبع لم تكن كذلك، لكن على الرغم من عدم وجود نَعامٍ هنا الآن، فقد كان موجودًا في العصر الحجري وحتى في أيام الإيطاليين، حيث لوحظ وجود النَّعام في الرسومات القديمة على الصخور. يمكن لأشياء مثل البيض أن تسافر على قمم الرمال المتحركة عن طريق الدفع من حبَّة رملٍ إلى أخرى، وهي عملية تبدو لي وكأنها نسخة جافَّة من عملية التناضح. ومن خلال هذه العملية، تصل البيضة إلى أماكن غريبة تمامًا كمثل غموض ارتفاع النَّسغ في النباتات.

على المسار بين سَبها ومرزق توجد مقاطع عرضية ضخمة من الأشجار المتحجِّرة التي تفوق ضخامةً أي أشجار تعيش في هذه المنطقة اليوم. هذه آثارٌ من العصر الجليدي، حينما كان مناخ الصحراء -على الأرجح- مشابِهًا لمناخ أوروبا اليوم. خارج سبها مباشرة خضتُ تجربتي البطولية، وأتوقَّع أنني لن أدع أيًّا من رفاقي المسافرين ينسى ذلك أبدًا.

هناك بعض الرسوم الصخرية الجميلة من العصر الحجري على بُعد كيلومترات من سبها، فذهبت أنا وماريان في وقت مبكِّر من صباح أحد الأيام مع شُرطيٍّ شابٍّ من سبها، على الأرجح لمرافقتنا، ولكن في الواقع كان سبب وجوده معنا لأنه أراد قيادة سيارة لاند روفر. بالطبع لم يكن هناك طريقٌ أو مَمرٌّ إلى الموقع، لكن ماريان

كانت تعرفُ الطريق. على الرغم من أن الرمال كانت ناعمةً في بعض الأماكن، فقد تشاركنا أنا والشرطي القيادة، ولم نواجه صعوبة في الوصول إلى الموقع الجبلي حيث توجد اللوحات. كنت متحمِّسةً للغاية لمرأى هذه الرسومات في الموقع، وعلى الرغم من مقارنتها بما ورد في كتابٍ لِهوتي عن هضبة «تاسِّيلي ن أزجر» فإن رسومات سبها غير مثيرة، وتفتقر إلى التَّنوُّع. ومع ذلك، فأي شيء يراه المرء في الموقع هو أكثر إثارة للعجب من أي شي يقرأ عنه.

قرَّرتُ أنا وماريان أن يأتي هاري وغاري لمشاهدة الرسومات في فترة ما بعد الظهر، حيث سنغادر سبها في اليوم التالي؛ وبالتالي بدأنا العمل بعد تناول وجبة غداء مُبكِّرة: هاري وأنا في سيارة، وماريان وغاري في سيارة أخرى. ونظرًا لأنه تمَّ تحميل سيارتنا لاستئناف الرحيل يوم الغد فقد كانت ثقيلة جدًّا، وسرعان ما اكتشفنا أن الرمال التي كانت في الصباح الباكر مع برودة الليل قد أتاحت وجود قشرة على سطح الأرض ومقاوَمةً جيِّدة لإطاراتنا، لكنها الآن طريَّة وناعمة. كان غاري سائق الرمال الأكثر مهارةً مع ماريان في السيارة الأخرى الفارغة في طريقهما، بينما تعثَّرَت سيارتنا مرتين، واضطررنا إلى العزق حول الإطارات لإخراجها، واستخدمنا مسارات الإنقاذ الرملية مرَّةً واحدة. ونظرًا لأن سيارتنا المحمَّلة لم تستطع القيام بذلك؛ فقد اقترحتُ أن ينتقل هاري إلى العربة الأخرى ويذهب معهما لمعاينة الرسومات ويتركني في سيارتنا لأقوم بالرسم.

قدَّرَت ماريان: «سنعود في غضون ساعتين على الأكثر؛ لأننا على بُعد ثلاثة أرباع ساعة فقط من القارة».

هنا حذَّرني هاري: «تأكَّدي من البقاء هنا. لا تحاولي التذاكي والقيادة إلى أي مكان بمفردك، ستحرثين، أو تتوهين. وسيارتك فيها المسارات الرملية.»

«حاضر عزيزي. أعلم أنَّكَ لا ترغب في فقدان المسارات الرملية!».

قاموا بالقيادة بمُعدَّل سرعة مُذهِل، وهي الطريقة الوحيدة للاستمرار في السَّير على الرمال، وعلى الفور تقريبًا اختفوا وراء الكثبان الرملية الطويلة على يميني. حتى صوت عربتهم اختفى مثل السِّحر خلف امتدادات الكثبان.

جبل الجن

«لنفترض أنهم ضلُّوا الطريق!» قلتُ في نفسي، وشعرتُ فجأة بالوحدة الشديدة.

«أو إذا هبَّت الريح وغطَّت آثارهم من هنا فكيف سيجدونني مرة أخرى؟ وإذا لم يأتوا في غضون ساعتين، فماذا أفعل؟».

حسنًا، لقد كانت تلك فكرتي من البداية. أخرجتُ أقلام الرصاص والورق لأرسم، ولم أجد شيئًا أرسمه سوى كُثَيِّبَيْن وحيدَيْن. على أي حال، هناك الكثير من الوقت للرسم؛ لقد اعتدتُ الآن على الإسراع في كل لحظة كنت أرسم فيها؛ للعودة إلى السيارة، وعدم تأخير الآخرين. أخيرًا استسلمتُ، وكتبت قليلًا في دفتر ملاحظاتي. ثم ذهبت في جولات قصيرة في جميع الاتجاهات، مع إبقاء السيارة دائمًا في مرمى البصر.

حينما وقفتُ على قِمَّة الكثيب الرملي، بإمكاني الرؤية في كافة الاتجاهات، لكن ليس هناك ما يمكن رؤيته سوى المزيد من الكثبان. رأيت أنها كانت الساعة الرابعة، والآخرون على بُعد ساعتين ونصف. جلست في السيارة وانتظرت نصف ساعة أخرى، في غضون ذلك ظللتُ أفكر مليًّا فيما قاله هاري: «لا تقودي بمفردك، وإلَّا ستحرثين،

أو تتوهين!» لكن المسارات الرملية معي، وإذا تعثّروا، سيحتاجون إليها.

مرَّت ثلاث ساعات الآن. وارتعش شيء ما في أطراف أصابعي، وفي اللحظة التالية كانت السيارة تتحرَّك. قلت لنفسي «يا إلهي العزيز، لا أمانع إن متُّ... لكن فقط لا تَدعَني أَعلَق هنا!».

كانت لديَّ خُطَّة مُحدَّدة. فَقدتُ الاتجاه الذي اختفى فيه الآخرون، صعدت على الكثيب وبقيت على القمَّة. كنت أنوي البقاء على قِمَم الكثبان حيث الرمال أصلبُ دائمًا، ثم أقود على امتدادها. في هذه الأثناء كنت أصلِّي للعثور على كثبان طولية أخرى تسير في الاتجاه نفسه وترتبط بالذي أوجد فوقه؛ حتى أتمكَّن من الصعود إليها بزيادة السرعة من موقعي الحالي. لكن ما زلت لا أرى شيئًا من السيارة الأخرى.

قُدتُ نحو نصف ساعة، واكتسبت الثقة مع كل دقيقة تمرُّ، حيث كنت أنزلق على قِمَم الكثبان المرتَّبة جيدًا بطريقةٍ هندسيَّة؛ فتجاوَرَت من نهاية إلى أخرى وهي متداخلة تقريبًا. عندها فكَّرتُ: «الأمرُ أسهل ممَّا بدا لي من قبل»، وفي تلك اللحظة رأيت أنني أقترب من نهاية نطاق الكثبان، فقلتُ مصرَّةً: «لن أنزل إلى الأسفل؛ فمن المؤكَّد أن هناك رملًا ناعمًا عند قاعدة الكثبان، وليس لديَّ الشجاعة للمخاطرة بالحرث فيه. وطالما أنا في القمة؛ يمكنني دائمًا الالتفاف والعودة، لكن هل يمكنني الالتفاف حول هذه القمَّة الضيقة؟ حسنًا، لا أستطع العودة إلى الوراء طوال الطريق!».

وقبل محاولة الانعطاف، أوقَفتُ السيارة وقرَّرتُ التَّقدُّم سَيرًا على الأقدام إلى أقصى نهاية الكثيب الرملي لإلقاء نظرة أخيرة على بقية الكثبان. أطلقتُ بصري، وبالكاد صدَّقتُ ما ترى عيناي، ورحت أتساءل عمَّا إذا كان سرابًا، نظرت بعيدًا إلى أسفل المنحدر الناعم للكثبان الرملية ورأيت ثلاثة أشكال صغيرة جدًّا، ومشغولة جدًّا بحفر الرمال، وكذلك رأيتُ لاند روفر غارقة في الرمال حتى نوابضها!

نادرا ما يمرُّ المرء بمثل هذه اللحظة! كنتُ هناك، غيرَ عالِقَة، وغير تائهة، وقادرة على الحركة وإحضار المسارات الرملية المنقِذة! أعترف أنه من الجيد أيضًا مقابلة رفاق المرء مرة أخرى!

صرختُ فيهم فبحثوا من حولهم وصُدِموا. لم يصدِّقوا ذلك. هذه ليست أغنس! فقد قُلنا لها أن تنتظر! ثم بدأوا جميعًا يلوِّحون لي بجنون، ويصرخون: «ابقَيْ على القمة! ابقَيْ على القمة! لا تنزلي هنا!».

قلتُ لنفسي إن الوقت قد حان لكي يتوقَّفوا عن إعطائي نصائحهم؛ فأنا فقط التي بإمكانها التحرُّك. في النهاية قمنا بفَكِّ مسارات الإنقاذ الرملية مرَّةً أخرى، وبدأت عربتهم في الحركة. عُدتُ إلى سيارتي الحبيبة الرائعة والموثوقة، ودعوت الله أن تكون هناك مساحة كافية لتدويرها على القِمَّة. وهو ما كان، وهكذا انتهى اليوم بتحقيق انتصاري الوحيد في هذه الرحلة.

غادرنا سَبها في الثامنة صباحًا، وأعتقد أننا كُنَّا جميعًا سعداء بالرحيل؛ فسبها الجديدة مدينةٌ اصطناعيَّةٌ كثيرًا لا تجذب التعاطف معها. لا يمكن للمرء أن يكون مُخلِصًا لعمود إنارةٍ لا ضوءَ فيه، أو حوضِ استحمام جافٍّ، أو دورة مياه بدون مياه، أو قرية بلا قرويين، ومدينة بلا روح، مليئةٌ بالسكان العابرين الذين يَعدُّون الأيام حتى يتمكَّنوا من مغادرتها.

يغادر بيتر ومعه ثلاثة إلى براك، وهي واحة شمال سَبها، حيث سيعودون إلى طرابلس. الآن تقلَّص عددنا إلى الأشخاص الستة الأصليين وسيارتين، متَّجهين جنوبًا إلى غات. إنه صباحٌ رائع بنسيم عليل بارد وجاف. إنه أحد تلك الأيام التي لم أكن أعرف بوجودها حينما كنت أصِفُ المناخات الشاقَّة للواحات!

على بُعد كيلومترات قليلة فقط من سبها، نصطدم بما يُعرف بـ «الفجْفْج»، وهو رمل كبير الحبيبات لا يتراكم فيصبح صُلبًا، وهو الأكثر غدرًا للمبتدئين في القيادة على الرمال. نتعمَّق في هذا القطاع ونحرث فيه، ويبدأ الجميع في تقديم المشورة. دائمًا ما يشعر الذين لا

يقودون سياراتهم أنه كان بإمكانهم تجنّب الوقوع في مأزق، لكن الأمر يتطلَّب شخصًا شجاعًا ومتهوِّرًا لقول ذلك. لم تَغُص السيارة بشكل سيِّئ لأن الرمال لم تصل إلى أعلى المحاور. نُخفِّف حمولة السيارة ونُخرِج العجلات بوضع بعض أغصان نبتة الأرطأة تحتها وخلفها، وباستخدام الدفع الرباعي العكسي، نكافح للوصول إلى الرمال الصُّلبة دون استخدام مسارات الإنقاذ. يسير الأمر على ما يرام مَرَّةً أخرى، وحينما يحدث انفجار في الإطار، نتوقَّف وننقل الإطار الاحتياطي إلى الأمام ونعيد الإطار الأمامي الجيد في الخلف.

في طريقنا مرة أخرى، نسير بموازاة سلسلة من الجبال السُّود، غالبًا ما تكون على شكل هرم، والتي تُعدُّ جزءًا من حمادة مرزق، أو الصحراء الصخرية، وهي مزيج تَكتَّل في عصور ما قبل التاريخ من الحجر الرملي والطين الذي يتحوَّل في النهاية إلى هضبة صخرية. تنعطف هذه الدعامة الصخرية إلى الجنوب الغربي وتحدُّ السلسلة الضخمة من الكثبان الرملية الصحراوية المعروفة باسم عِرق مرزق. وتتسلَّل ظلال رمال طويلة من الرمال الحمراء بلون شراب الكركديه على يميننا، وفي بعض الأحيان توجد بقع من الغطاء النباتي مع ما يشبه الثمَّام الزاحف، والسنط، والمايروا. وتشيرُ كتل الحجارة السوداء إلى المسار، وهو مستقيم تمامًا، باستثناء الارتفاع والهبوط، كما أنه متنوِّع على نطاق واسع من حيث الألوان، مع خطوط عرضية مرة أخرى.

نعبر سهلًا رمليًّا بلون غروب الشمس الزاهي على خلفية من التلال المتموِّجة بلُطف (والذي لا أجده على الخريطة) وهنا تتفتَّحُ الصحراء أمامنا فجأة، أو هكذا يبدو لي. كثبانٌ بلون زَهرة الدَّاليا الحمراء، والأرض الرملية تموج مثل حقل من الخردل الذهبي، والتِّلال تتفتَّح بلون بنفسجي كما لو كانت زهورَ سَوسَن، كل ذلك والصخور الهرمية السود تتسابق بجانبنا. لم أتصوَّر أبدًا أن الصحاري تحمل مثل هذه الألوان الإعجازية، مثل درجات غروب الشمس، ومثل هذه التفاصيل الدقيقة المؤثِّرة على مزاج الإنسان. في هذه الأثناء، يسعدُ

هاري لرؤية بُقَعٍ غير مُتوقّعة من الغطاء النباتي وعددٍ قليل من الشجيرات في حيضان الوادي الجافة. في بعض الأحيان يمكننا أن نرى الآن تلالًا رملية بلون السَّلمون الوردي، جلَبَتها رياح الحمرا على طول الطريق من الحمادة الحمراء، أي الصحراء الحمراء.

الآن تحيط بنا الأشكال والأهرامات المظلِمَة غير المنتظمة التي تُمثِّل الحارس الأمامي للجبال السود على يسارنا، وهي الناجية القديمة من معركة الزمن ضد تكتُّل الصخور. نُحِتَت من الطبقة النوبية، وربما كانت هذه الصخور العملاقة الأثرية قد خبرت ذات مرة وقع أقدام الديناصورات وضربات أجنحة الثعابين الطائرة. في مواجهة قوى الدهر الوسيط هذه، ينتقل إحساسي بالأنانية من ذاتي الفانية إلى المناظر الطبيعية الموغلة في القِدَم، وأشعر أنَّ عليَّ الاعتذار عن التفكير في أنني شيء ذو أهمية ما. «حياتي!» كما قد يقول أحدهم. ومع ذلك، لا معنى للحياة هنا، وليس للرغبة معنى، ولا قيمة للنِّيَّة ولا للأفعال. لا عجب أن المسلم -في مواجهة مشهد هذا الفضاء- يُعبِّر عنه بهزِّ كتفيه، وجملة «إن شاء الله».

لكننا لسنا مسلمين، كما يُذكِّرني هاري، ولم ننشأ في الصحراء محاطين بطبقة الحجارة الرملية النوبية. إن قدَرنا هو أن نصارع ونتوتَّر خلال هذه الحياة كما لو أن الأشياء مهمة حقًّا، محاولين القيام بهذا وتجنُّب ذلك، وأن نجتذب البعض ونصدَّ الآخرين، والتعامل مع القدَر أو مقاومته، دائمًا في ثورة ضد ما نعلم أننا يجب أن نقبل به في النهاية. ولكن في داخلنا نحب أن تمضي الأمور بهذه الطريقة. أعتقد أن عنصر «التمرُّد» هذا هو الاختلاف الأساس بين فلسفتَيْ الشرق والغرب.

ومع ذلك، فنحن نعرف بالفعل مسلمين في طرابلس يمتنعون عن هزَّة الأكتاف المستسلمة وإطلاق جملة «إن شاء الله!»، ويكافحون من أجل تحديد مصيرهم. إنهم مُلوَّثون -كما أعتقد- بأفكار الغرب. لكن إذا كانت نظرية تكوُّن الحجر الرملي النوبي صحيحةً فالتلوث لا يهمُّ، وإنما عملية التَّكتُّل فقط هي المهمة!

مع وجود الصخور السود القديمة محاذية لجناحنا الأيسر، وصلنا إلى شريط طويل أخضر من الواحات على يميننا، مجاور لتلال أوباري الرملية. يمتد الشريط الخصب هذا لأكثر من مئة وستين كيلومترًا من واحة الأبيض التي نمرُّ بها الآن في طريقنا إلى أوباري التي نتوجَّه إليها اليوم. وبالإضافة إلى وجود منسوب مائي قريب من السطح، تتمتع هذه الواحات بميزة كونها تقع في وادٍ بين حمادة مرزق وعرق أوباري؛ وبالتالي فهي تستفيد من كلا المنطقتين المرتفعتين، حيث إن الرطوبة الناتجة عنهما تتسرَّب إلى المستوى الأدنى.

وَلَّت تلك الصورة التي أتخيَّلها للواحة كدائرة صغيرة من الأشجار. ففي هذه المستوطنة الصغيرة نراها كشريط منعزل من الأشجار والنخيل والمياه والآبار والحدائق والبشر. على الرغم من حقيقة أنه يتمُّ قَطعُ أشجار السنط دائمًا وتحويلها إلى فحم، إلَّا أن شريطًا منها يوجد على شكل حزام متواصِلٍ تقريبًا.

تنتشر حفنة من بؤر المعيشة المتناثرة على طول هذا الشريط الخصب، وكلها تحتوي على النخيل وحقول الشعير، وهي أكثر المناطق الخضراء جَمالًا وحيوية ونضارة من أي شيء يراه المرء في الصحراء. وتحيط أسيجة سعف النخيل بالمناطق المزروعة لكسر قوة الريح. وتُصنع هياكل الآبار أيضًا من جذوع النخيل، ودائمًا ما يتمُّ بناء أبواب المنازل من مقاطع منها. ولا عجب أن يطلق مزارعو الواحات على النخيل اسم «عمَّة بوي»! والمشهد الجنسي الكبير والمتكرر في حياة الواحة هو تزاوُج نخلتين، ويتمُّ عن طريق التلقيح الصناعي، ويُعرف محليًّا بـ «التَّوبير»!.

نتوقَّف عند قرية تساوة الصغيرة للتصوير؛ لأن هذا هو المكان الأول الذي رأينا فيه أكواخ خلايا النحل الدائرية على الطراز السوداني. وهي مصنوعة بالكامل من سعف النخيل المغطَّى بالطين، وكذلك الأمر بالنسبة للحظائر الدائرية وزرائب المواشي.

«انظري يا أمي، انظري! كلهم من السود!» يصيح بدر الدين، مبتهجًا بمشهدٍ تُهَيمِن عليه إفريقيا السوداء تمامًا، ولا يظهر فيه سوى القليلين من ذوي السِّحنة البنية. يرقب أحمد المشهد بنظرة استعلائية لشخص لا يشعر بأي صِلةٍ بما يراه. لكن حقيقة أنه يرتدي الآن قلنسوة فزَّانيَّة مُتعدِّدة الألوان تمَّ شراؤها في سوق سَبها- تجعل مسألة تَفوُّقه غير مُتَّسِقة إلى حدٍّ ما.

تُعتَبر الطويش مكانًا صغيرًا للغاية بحيث يمكن رؤيتها في لمحة واحدة، أو هكذا بدا الأمر لي حتى سِرتُ بموازاتها لأجد قريةً ليبيَّةً نموذجيَّة ذات جدران طينية تلتصق بها. الوحيدون الذين يمكن رؤيتهم في أي مكان هنا هم السُّود، ولا يبدو أن أحدًا يهتمُّ لوجودنا، على الرغم من أنَّ آخرين قد يراقبوننا الآن من داخل البيوت.

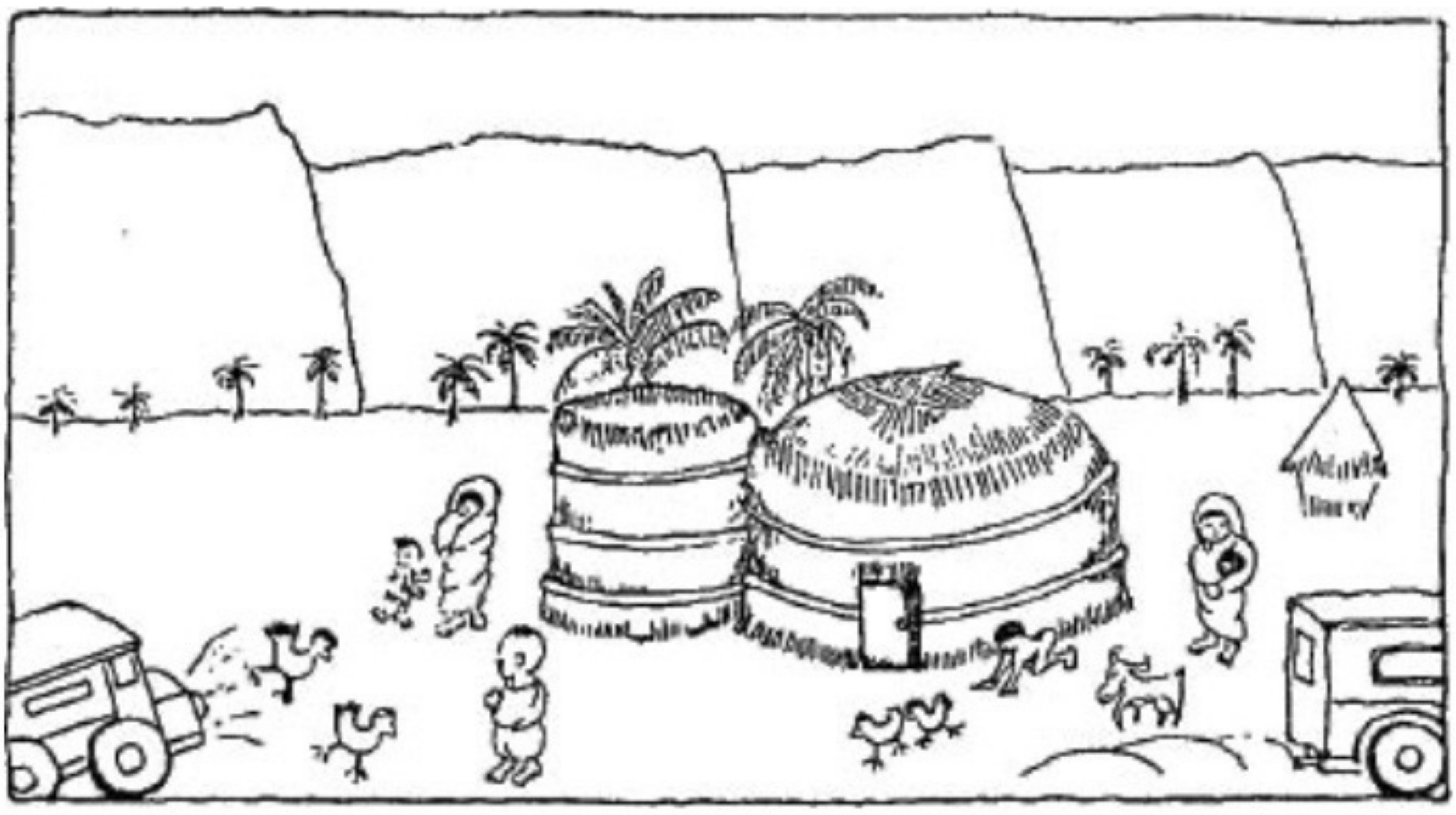

يلتقط هاري الكثير من الصور، حيث تقع القرية الصغيرة للغاية على خلفية جبل «أمساك سطافيت». وتُهَيمِن فوقها ووراءها الجبال الشاهقة، ثم نواصل المسير جنوبًا قليلًا فنجد قرى ليس فيها سوى صناديق خلايا نحل. بينما يمتدُّ جدارٌ من الطين والقشِّ من أمام الكوخ في دائرة أكبر ليكوِّن حظيرة حيوانات ينفتح فيها باب البيت، ويكون جدار البيت جزءًا منه.

التوقُّف لتناول الوجبة الثابتة من سردين الظهيرة المخلوط بالرمال يمثِّل صراعًا نفسيًّا لنا نحن الستة. ودائمًا ما يشعر بدر الدين وغاري

وأسعد بالجوع بحلول الساعة الواحدة فيبحثون عن مكان للتوقّف. أنا وأحمد جائعان أيضًا، لكن الزعيم هاري الذي نسافر برفقته، يمكن أن يستمرَّ بدون طعام إلى الأبد.

كل ساعة أو نحو ذلك، اعتادت سياراتنا التجمُّع معًا لنرى أن كل شيء على ما يرام، وللتأكُّد من عدم وجود سيارة بعيدًا عن الأنظار لفترة طويلة جدًّا. وتبدأ معركة الغداء حينما ينظر أحدهم (ليس هاري بالطبع) إلى ساعته ويقول: «ألم يحن وقت الأكل؟».

«ماذا! هل أنتَ جائع مرة أخرى؟» يسأل هاري.

لا إجابة من الآخرين المُحرَجين، لكن زوجة الزعيم تقول بنبرة حزينة: «حسنًا، أشعر بأنني أكثر قوةً بعد أن آكل».

«حسنًا يا شباب، إذن سنستمرُّ حتى نجد مكانًا مناسبًا مع بُقعَة مظلَّلة نتوقَّف عنده». حينذاك نعلم أننا محكوم علينا بالفَناء؛ لأنه لا توجد مثل هذه البقعة.

في الأيام القليلة الأولى، كانت سيارتنا هي مَن تقود الرَّتل بحثًا عن مكان للتوقُّف، ويستمر ذلك حتى الثالثة أو الرابعة مساءً إلى حدٍّ الإرهاق. ثم اقترحت على غاري أن يبتعد عنَّا قليلًا ثم يوقف سيارته في أي مكان مناسب وأن يُخرج زجاجات المياه ومعدَّات الغداء قبل أن نتمكَّن من الوصول.

عادةً ما نجح هذا الترتيب. لكن اليوم، يقوم هاري بجولة في الصحراء للبحث عن الغطاء النباتي، بينما يقوم البقية منَّا بفتح علب السردين والتونة وجبن إيدام، ويقوم أحمد بإعداد الشاي على نار الفحم والحطب. كنَّا قد ابتعنا كيسًا من الفحم سيَثبُت أنه أكثر نفعًا من اسطوانات الغاز المسيَّل.

يجلب هاري بعض النبتات ذات اللون الرملي ثم يضعها بعناية في أكياس، وسيحرص الليلة على تجميع عيِّنات ستُرسل في النهاية إلى معهد نباتات كيو غاردنز في إنكلترا. الآن بدأنا تناول طعامنا، إنه أمرٌ لا يصدَّق، فحتى الرمل مذاقه طيب!

وصلنا إلى أوباري بحلول الساعة السادسة، أبلغنا الشرطة وطلبنا الإذن لاستخدام الاستراحة الليلة. رحَّب بنا مُلازِم شرطة تارقيٌّ كان قد خدم في طرابلس، وتَبيَّن أنه صديق قديم لأحمد وبدر الدين. وأرسل رجُلًا مُسِنًّا لتنظيف الاستراحة، التي تقع على الجانب الآخر من الميدان من مركز الشرطة. وهنا وجدنا غرفتين للنوم، فأنزلنا أسِرَّتنا ثم بدأنا في تجهيز الطعام في الشرفة.

عادة ما أقوم بإعداد وجبة العشاء؛ لأنني أقوم بالقليل من القيادة أثناء النهار؛ فالقيادة على الرِّمال مُرهِقة جسديًّا بسبب قوة جذب عجلة القيادة، وهذا إجهاد على اليدين والمعصمين. عادة ما يكون التعب قد نال منَّا جميعًا بحلول وقت التوقُّف، وأول شيء أفعله هو تحديد مكان قِنِّينة شراب الجنّ وتناول مشروب، بينما يضع الرِّجال الأَسِرَّة ويفتحون أكياس النوم. يقوم بدر الدين بإشعال نار الفحم والأغصان الليلة، وأحيانًا موقد الغاز حينما لا تتوفَّر أغصان.

وجبتنا الأساس، ليلة بعد أخرى، هي إمَّا السباغيتي أو المعكرونة؛ فهما الشيئان اللذان يمكننا جميعًا تناولهما، وأنا متعبة جدًّا لأعدَّ طعامًا مختلفًا. يستغرق الماء ساعةً على الأقل ليغلي في القدر الضخم الذي أحضرته من البيت لطبخ المعكرونة. في الأثناء أقوم بخلط الصلصة الحارَّة من معجون الطماطم والفلفل الحار وصلصة الفلفل الأحمر والتاباسكو- التي أضيفها إلى شرائح البصل الرقيقة المقليَّة في زيت الزيتون، ثم أتركها على نار هادئة وأضيف المزيد من الزيت، وأتركها على نار هادئة مرة أخرى. هذه الصلصة مناسِبَة مع السباغيتي، بالإضافة إلى جبن البارميزان المبشور. لدينا علب من الفاكهة والحساء معنا، لكنَّ المسلمين لا يأكلون شيئًا من اللَّحم المعلَّب، إلَّا إذا عَلِموا أنه قد ذُبح حسب الطقوس الإسلامية. الفاكهة المعلَّبة لطيفة كوجبة مُشهِّية، لكن رحلة كهذه لا تحتاج إلى أطايب طعام لإغواء الشهية.

طلب بدر الدين من ضابط الشرطة في أوباري تناوُل الشاي معنا، والآن هو وصديق آخر من الطوارق يحتسيان الشاي ويستمعان

بشغفٍ إلى أخبار العالم الخارجي. هنا نجد المجاملة وكرم الضيافة في كل مكان، يتمُّ تقديمها مجانًا، حتى في ظروف الفقر هذه.

إن سفر الليبيين معنا هو في حدٍّ ذاته فائدة لنا، وليس فقط بسبب اللغة. فهؤلاء الطوارق، الذين يعتبرون أنفسهم القائمين على رعاية جنوب الصحراء، لديهم لغتهم الخاصَّة وهي «التيماهق» وهي لغة مختلفة تمامًا عن العربية، على الرغم من أن العديد منهم يتحدَّثون العربية أيضًا. يقول بدر الدين إن الطوارق لا يتحدَّثون إلَّا التيماهق فيما بينهم، لكن من باب المجاملة يتحدثون العربية مع العرب. وهذا سلوكٌ حسن!

أسعد، الذي تصالح الآن مع عِلَّة كبدِهِ، واستُهلِكَت خضرواته أو تمَّ التخلي عنها، يثبتُ وجودُه معنا أنه رصيد اجتماعي كبير؛ حيث لديه طبيعة مجتهدة وعقلٌ مستفسِرٌ يُشكِّك في كل شيء، بما في ذلك مسافة التنقُّل التي نقطعها كل يوم، ومكوِّنات المارجرين المُعلَّب، والماضي التام للأفعال الإنكليزية، والبناء النحوي للجُمل المختلفة. في طرابلس، يدرس أسعد اللغة الإنكليزية في المجلس الثقافي البريطاني، ولغته هي الأكثر دِقَّةً تقريبًا بين الليبيين. ومع ذلك، فمفردات بدر الدين هي الأكثر تنوُّعًا، حيث يرفض السماح لنقص المعرفة العامة أو نقص المفردات النحوية بمنعه من التعبير عن نفسه، ويقوم بنحت كلمات تناسب الموقف. ومن أجمل ما يُردِّد في هذا المقام تعبير charmingfulest!

بالنسبة لي، هذه الجلسات لشرب الشاي حيث نجلس كل ليلة على الأرض عند الغسق مع رفرفة وميض شمعة فقط أو ضوء نار الحطب- هذه جوانبُ من الرحلة التي لن أنساها أبدًا. لا يتعلق الأمر فقط بتبادُل الأفكار، بل هي الرفقة مع أشخاصٍ أُحبُّهم وأُقدِّرهم وأهتم بهم. إن ما يجري الآن يختلف كثيرًا عن الحياة الاجتماعية الأوروبية في طرابلس، حيث يقول المرء باستمرارٍ أشياءَ لا تعني شيئًا، لأشخاص غير مهمِّين.

أعتقد أنه يحدث حينما تعيش بعيدًا في بلد غريب، فإمَّا أن تزيد مشاعر الغربة لديك وتُحوِّلها إلى نفور غريزي، أو أن تبدأ في التعرُّف على نفسك دون وعي من خلال التماهي مع البلد الجديد. وبالنسبة لي، التماهي مع الهوية الليبية بدأ بهذه الرحلة الصحراوية.

16. الطريق إلى غات

في الصباح التالي نودِّع الشُّرطة ونتوجَّه إلى العوينات، التي تُسمَّى أيضًا سيرديليس. فكلُّ مكانٍ في ليبيا له اسمان على الأقل: إيطالي، وآخر عربي، وهنا في الصحراء غالبًا ما يوجد اسمٌ للطوارق أيضًا. في العوينات نأمل أن نتمكَّن من تعبئة خزانات الوقود مرة أخرى. إذا واتانا الحظُّ قد نصل إلى غات الليلةَ، على الرغم من أن هذه واحدة من أطول جولاتنا في المسافات، فهي أكثر من مئة وستين كيلومترًا. ويقولون إن الطريق سيئة للغاية، والسير فيها ببطء شديد.

قد يكون وصفُ مسيرةِ مئة وستين كيلومترًا بأنها طويلة وشاقَّة أمرًا لا معنى له عند السفر على الطُّرُق السريعة. لكن في هذه الرحلة، أعتقد أننا سافرنا عموديًّا بقدر ما سافرنا أفقيًّا، وتوقَّفنا باستمرارٍ لفحص قُصاصات النباتات. وبما أن الرحلة كانت في المقام الأول لدراسة البَلَد، مع التفكير في إيجاد مناطق محتملة لتثبيت الغطاء النباتي، وتجديده، والزارعة واستخدامات الحبوب؛ فقد فعلنا ذلك في كثير من الأحيان، حيث توقَّفنا ودرسنا المناطق المختلفة.

الشيء الوحيد الذي تشترك فيه هذه الرحلة الصحراوية مع رحلاتي السابقة في غابات بورنيو هو أنها في بعض الأحيان تكون بطيئةً بشكل ملحوظ. أعلم أن ستة عشر كيلومترًا في اليوم في الغابة الكثيفة هي أكثر ممَّا يمكن أن يفعله معظم المسافرين. لكن قطع مثل هذه المسافة في بلد الكثبان الرملية أو بحر الرمال قد يكون أمرًا مستحيلًا تمامًا.

حملنا في سياراتنا مسارات إنقاذ رملية معدنية طولها متران تقريبًا، مربوطة في المقدِّمة. من الممكن تمامًا في مناطق الرمل الناعم أو الحبيبات الكبيرة أن تضطرَّ إلى تحقيق تقدُّمِكَ المُجهِد كثيرًا على هذه الألواح المعدنية. هذا يعني أن تضع القضبان أسفل العجلتين الأماميتين، وبمساعدة الدفع من الخلف، تقود السيارة إلى الألواح وما

بعدها، ثم تسحبها للأمام وتضعها أمام الدواليب مرة أخرى. مع كثير من الحظ والجهد، قد تكون قادرًا على تحريك الألواح مرتين في خمس دقائق، ما يعني أنك تتقدَّم حوالي ثمانية أمتار كل خمس دقائق، أو نحو مئة متر في الساعة -في يوم مُرهِق مُدَّته عشر ساعات- بافتراض أنك لم تسقط ميتًا قبل ذلك! لم نضطرَّ إلى فِعل هذا تمامًا في رحلتنا، لكنني أذكر هذه الحقائق لإظهار أن مائة وستين كيلومترًا في اليوم ليست مسافةَ سَيْرٍ بطيئة.

كنَّا أيضًا نعاني من نقاط ضعف في السيارة، ونواجهها. لا أستطيعُ تخيُّل أي آليَّة قادرة تمامًا على تحمُّل اهتزازات مثل هذا السفر؛ فقد تَخلخَلَت البراغي وسقطت، على الرغم من العناية المستمرَّة، في حين انقطعت الأجزاء المعدنية -التي لا تتزعزع- وأصبَحَت الأجزاء شديدة المرونة. كانت الإطارات مصدرَ قَلَقٍ دائم. بدأنا بإطارين جديدين إضافيَّيْن، بالإضافة إلى ثلاثة أنابيب داخلية. بعد سَبْها، توقَّفتُ عن عَدِّ الثقوب (لقد أعطاني ذلك فرصة للرسم!)، لكن بدا أن الرجال كانوا يُصلحون الإطارات في كل محطة ويحوِّلونها من الأمام إلى الخلف، أو العكس. لم نكن لنغادر طرابلس بهذه الإطارات كما هي الآن! ومع ذلك، فإننا ننظر إليها الآن بفخر متزايدٍ في نهاية كل يومٍ لأنها مستمرَّة معنا! تربط الآن ولاءات قوية بسياراتنا.

في كثير من الأحيان أقوم بتدوين الملاحظات في دفتري، الذي ظلَّ مفتوحًا على ركبتي أثناء السفر. وعلى الرغم من أن الكتابة غير قابلة تقريبًا لفَكِّ رموزها، إلا أنني أجد هذا أفضل من الانتظار حتى نتوقَّف في الليل حينما أشعر بالتعب الشديد. من أوباري فصاعدًا، سأرسم العديد من الاسكتشات، سواءً أثناء السفر أو حينما تتوقَّف السيارة، وكل هذا لتأريخ مشهد غريبٍ ورائع بالنسبة لي. هنا التناقُض بين الظلام والضوء في المناظر الطبيعية شبه الصحراوية يكاد لا يُصدَّق، ووجدنا أن الامتدادات الرملية تتطلَّب تقنية التصوير نفسها مثل الذي يتطلَّبه التصوير في الثلوج. لا يستطيع المرء حتى

تصديق مقياس التعريض الضوئي في الكاميرا، فالوهج يعمي بشدَّة. وبالإضافة إلى الضوء والظل ونطاق الألوان، هناك تبايُنٌ كبير بين المظهر الدائري المَرِن للكتل الرملية والخطوط العريضة الحادة والخشنة للصخور. الصحراء هي مكان الأضداد: في الحرارة والضوء واللون والتقشُّف وإمتاع الحواس.

عند مغادرة أوباري، مررنا بتلٍّ منعزل منبسط ينتصب بمفرده من السهل. مثل هذا التل يسمَّى «القارة» بالعربية، وهي كلمة أسمعها باستمرار؛ لأن القارة موجودة بكثرة في هذه المنطقة. بعد أوباري، يختفي حزام الواحات، ونصبح أكثر وعيًا بالكتلة الجبلية «أمساك سطافيت» الواقعة جنوبنا. نحن نسافر الآن على سهوب بُنِّيَّة بلون القهوة.

هنا صخورٌ سودٌ كبيرة تشبه الحِمَم البركانية، لكنها في الواقع حَجرٌ رمليٌّ قديم. يواجه أحمد مشكلة مع سيارته، فنضطر إلى التوقُّف كثيرًا، وهو أمرٌ يتعلَّق بتغذية المحرِّك بالبنزين. بدأت آمالنا في الوصول إلى غات الليلة في التلاشي؛ لأن هذا هو أحد أطول مساراتنا، والمسار الأسوأ؛ لأننا نتحرَّك بأبطأ سرعة.

بحلول منتصف النهار، نعبر الطرف الشمالي من عِرق طاطا، وهي كتلة كثيفة صفراء تتجعَّد وتنتشر مثل قِطٍّ ذَهبيٍّ نائم. توقَّفنا مرة أخرى فقام أحمد وأسعد بفكِّ وربط كل البراغي في السيارة. مساهمتي الوحيدة هي التزام الصمت، لكنني اكتشفتُ أنني الوحيدة الذي تفعل ذلك. أخيرًا، يزيلُ أسعد مضخَّة الوقود وينظفها ثم يعيدها، ويحدونا الأمل الآن، فنبدأ من جديد- فقط لنجد أن الوقود يتسرَّب بغزارة في الرمال. تسرّبُ الوقودِ هو آخر ما يمكننا تَحمُّله؛ فنتوقَّف مرة أخرى لنتحقَّق من السبب. بعد فترة تمَّ تقليل التسرُّب قليلًا، وقرَّرنا أن أفضل ما نفعله هو المُضيُّ قُدمًا إلى العوينات، ونأمل الحصول على خدمات ميكانيكي هناك. فشركة إسِّو تقوم بالتنقيب في المنطقة المجاورة، وشركات النفط لديها ميكانيكا جيدة، وتشتهر بمساعداتها السَّخيَّة.

الآن يصعد المسارُ عبر طبقات صخرية هندسية بلون الكراميل، ومنظرٍ طبيعي مُجدِبٍ تمامًا. يعتقد هاري أن منطقة السهوب هذه كانت في الماضي تحتوي على أعداد كبيرة من أشجار السَّنط، وأخرى من الفصيلة السِّدريَّة تُسمَّى زيزيفوس لوتس، لكنها تقريبًا اختفت جميعها الآن؛ وذلك بسببِ عادة البدو المدمِّرة المتمثِّلة في قطع جميع النباتات للحصول على حطب الوقود. لاحقًا، مرَّت بنا عدة شاحنات متَّجِهة شمالًا مُحمَّلة بأشجار الأكاسيا. وحينما نسألهم عن وجهتهم، يخبروننا أنهم ذاهبون إلى مصراتة مع شحنة من الحطب تعاقد عليها مقاولو مصراتة. على ما يبدو، فحتى هذه الأشجار القليلة المتبقية لا تفيد السكان المحليين المحتاجين، ولكن يتمُّ بيعها في منطقة ميسورة الحال تمامًا.

اهتمامنا بالمناظر الطبيعية يتضاءل باستمرارٍ مع امتداد الطريق إلى العوينات. الخرائط هنا نادرًا ما تكون دقيقة والمسافات غير محدَّدة أبدًا؛ وبالتالي لا أحد منَّا يعرف كم نحن بعيدون عن العوينات، لكننا نعلم أنَّ وقودنا يكفينا. حينما وصلنا في نهاية مرحلة طويلة إلى أعلى مستوى، رأينا بيتين من سعف النخيل؛ ما يدلُّ على أن واحةً ما قريبة منَّا؛ فنشعر بسعادة أكثر. ثم نرى بعض حقول القمح وأشجار النخيل اللامعة، ومباشرة نجد أنفسنا نسير بين بيوت لها جدرانٌ طينيَّةٌ وحدائق، لنصل فجأة إلى وسط بلدة صغيرة تحت ظلال شجرة أكاسيا بيضاء رائعة كنَّا نعرف تاريخها.

كتَب الرَّحَّالةُ عن هذه الأكاسيا منذ أكثر من قرن، وربما تمَّ تبجيلها طوال حياتها؛ لأنها مُقدَّسة، وتُمثِّل مَزارًا روحيًّا أيضًا؛ فهي مكان دَفْن رَجُلٍ مُبارَك (مرابط). التطبيق العملي لهذه القداسة يعني أنه لا يجوز قطع الشجرة أو الإضرار بها بأي شكل من الأشكال؛ وهو على الأرجح السبب الوحيد لبقائها حتى الآن. حتى بذورها لا يتم قَطفُها، ولكن يمكن جمعها من الأرض. يبلغ ارتفاعها حوالي عشرين مترًا، ولها جذع ضخم، محاط بالعديد من جذوع الأشجار الفرعية الصغيرة. إنها مُزهِرة الآن، حيث تغطِّي الشجرة أزهار الأكاسيا الصفراء الشاحبة.

الشعور بالسلام والملاذ الآمن الذي تمنحه هذه الشجرة القديمة المظلِّلة والمقدَّسة للقرية الإفريقية الصغيرة يُعزِّزهُ مشهد العديد من الرجال المُسنِّين الجالسين في ظلها البارد المظلم. في الوقت نفسه، تنتعش آمالنا عند رؤية شاحنة شركة نفط متوقِّفة في الظل. في هذه اللحظة، يأتي شخصٌ طويل ورفيع يرتدي سروالًا فزَّانيًّا طويلًا وواسعًا، وينتعل صندلًا تارقيًّا، له وجهٌ مُلتَحٍ مَخفيٌّ جزئيًّا تحت قُبَّعة عريضة، يتجه نحو هاري ثم ينظر إليه ويقول بلكنة أميركية: «مرحبًا، ألم ألتَقِ بك في نادي الغوص في طرابلس؟ أنا بيت هوارد».

ينظر هاري مرة أخرى إلى الشخصية الغريبة، نصفها من الطَّوارق والنصف الآخر من تكساس، ويقول: «نعم، التقينا هناك، لكن لا تَلُمنا لعدم التَّعرُّف عليك اليوم! هل تتمركز هنا؟». يضحك بيت، ويبدو سعيدًا جدًّا بفكرة أنه يبدو مختلفًا تمامًا عن هيئته السابقة. «نعم، أنا هنا مسؤول عن معسكر التنقيب لشركة إسُّو. معسكرنا قريب جدًّا، وماذا تفعلون هنا يا رفاق؟».

يقول هاري: «في طريقنا إلى غات. لكن إحدى سياراتنا بها تسرُّبُ وقودٍ لم نعرف سببه. لن نتمكَّن من الذهاب بعيدًا بالمُعدَّل الذي نفقد به الوقود».

«لديَّ ميكانيكيٌّ بارعٌ هنا. دعه يرى ما يمكنه القيام به. نحن مُجهَّزون لأي نوع من الأعطاب لسياراتنا».

يَقبَل هاري العرض بامتنان، وبعد دقائق حدَّد الميكانيكي الألماني المشكلة، والذي كان أحد منتسبي فيلق رومل كما يقول بيت، وقال إن هناك حاجة للقيام باللِّحام. فيطلب منه بيت المضيَّ قُدُمًا في إصلاح العطب، بينما يأخذنا لزيارة مُخيَّمهم.

تبيَّن أن معسكر بيت القريب مختلفٌ نوعًا ما؛ فانتقلنا بزاوية قائمة على المسار السابق تاركين العوينات وراءنا، بينما الغِربان تحلِّق في الجو. ننعطف مرات حول عشرات من الكثبان الرملية ونزحف كما الذباب أعلى وأسفل أهرامات رملية، وبيت يقود السيارة مثل فارس. في أعلى كثيِّب رمليٍّ شديد الانحدار، نصل إلى هضبة صغيرة حيث

يوجد المخيم المكوَّن من اثنتي عشرة خيمة، إحداها منفصلة قليلًا لبيت، الذي يقوم بإنزالنا عندها ويلتفت لمعرفة سبب تأخُّر وصول السيارة الأخرى. اتَّضح لاحقًا أن حمولتها ثقيلة؛ فتعذَّر عليها صعود التَّلَّة. لقد امتنَعَت عن التقدُّم عند المنحدر النهائي. تُرِكَت السيارة حيث هي في انتظار عودتنا، وركب غاري وبدر الدين وأسعد في سيارة بيت عائدين معه إلى المخيم، حيث اقترح بيت أن نأكل، وهو ما رحَّبنا به؛ فالساعة الثالثة ونتضوَّر جوعًا.

سألت بيت: «هل تحب العمل هنا؟».

«نعم. أنا سعيد تمامًا هنا».

«ألا تشعر بالوحدة؟».

«كلَّا. على أي حال، لدينا زُوَّار يأتون جَوًّا- عدد كبير منهم! وقد رحلت ‘مامي’ في اليوم السابق؛ فهي تكره هذا المكان! قالت إنها لن تبقى ليلة إضافية بأي ثمن!». مامي طبعًا هي زوجة بِيت اللطيفة، وهي معروفة لنا أكثر منه. مامي شابَّة جذابة للغاية، تتميز بروح المرح والود، كما تتميز بصوت غنائي جميل، لكنها بالطبع ليست زوجة ناسك!

«هل تجدون الكثير من المقتنيات الأثرية هنا؟» يسأله هاري.

«هناك الكثير منها! هذا المكان منجم ذهب أثري، ومنجمُ نفطٍ كذلك». يُظهر لنا بيتُ بعضَ رؤوس الرماح، وقطعة من العصر الحجري. «ليست الجيولوجيا وعالم الآثار فقط هما المثيران للاهتمام في هذا المجال، إنما الناس أكثر إثارة. هناك بعض الشخصيات الرائعة من الطوارق. ولديَّ شابٌّ يعلِّمني لغة الطوارق: التيماهق».

موقف بيت هنا في الصحراء بعيدٌ كُلَّ البُعد عن كونه رَجُلَ نفطٍ في مكانٍ قَصيٍّ -في الواقع-؛ فالجيولوجيون في فترة التنقيب عن النفط الذين التقيت بهم، اعتبروا أنفسهم كأنهم في المنفى حينما كُلِّفوا بالعمل بمكتب في المدينة.

بعد الغداء، أعادنا إلى ظلِّ الأكاسيا البيضاء حيث تنتظرنا سيارتنا اللاند روڤر في حالة جيِّدة مرَّةً أخرى بفضل ميكانيكي شركة النفط، لكنها خالية من الوقود. ثم يبدأ نقاشُ مع بيت عن توفُّر الوقود الذي ينقصهم أيضًا. لكنه يوافق على إعطائنا ما يمكنه الاستغناء عنه، والذي نأمل أن يوصلنا إلى غات، ويفوِّضنا أن نستلم نيابة عنه الوقود الذي أعاره سابقًا لسيارة لاند روڤر تابعة للشرطة في غات، وهذا إن كان لدى الشرطة في غات أي قدْر من الوَقود! وهذا كفيل بإعادتنا إلى غات، وفي الأثناء، بعد خمسة أيام من الآن، يأمل بيت في الحصول على مزيد من الوقود، ويعِدُنا بما يكفي لإعادتنا إلى أوباري. وبالتالي، عن طريق التَّسوُّل، والمقايضة، وفعل أي شيء باستثناء شرائه بالمال، الذي تتلاشى قيمته تمامًا هنا، نحصل على الوقود لنقلنا إلى غات. ثم نودِّع بيت ونغادر العوينات، فنلاحظ عددًا من أشجار أكاسيا تورتيليس في الضواحي، ولكن ليس مثل الأكاسيا البيضاء عند ضريح المرابط.

في كل مناطق ليبيا الساعة الآن الرابعة مساءً، ولا يزال لدينا ما يقرب من مئة وستين كيلومترًا بيننا وبين غات، وأخبرَنا بيت أن الطريق أمامنا سيكون أسوأ من الطريق الذي خلفنا. أنا نفسي لا ألحظ أيَّ فرق؛ لأن السوء واحد. كل الأسفار هنا عبارة عن منافسة بين الإنسان والآلة لمعرفة أيهما سيتحطَّم أوَّلًا. حتى الآن تفوَّقنا على الآلة، وذلك لحسن حظنا، حيث لا توجد لدينا قطع غيارٍ لأبداننا.

نعبر جانبًا من جبل أكاكوس على ارتفاع ألف وثلاثمائة متر، لنتجِّه جنوبًا ونتبع وادي تانيزوفت، وهو وادٍ جافٌّ يقع بين جبال أكاكوس التي على يسارنا الآن وسلسلة جبال تاسيلي انغار. والأخيرة يقع معظمها في الجزائر عبر الحدود التي نقوم الآن بالسير محاذين لها. يبلغ ارتفاع هذه القِمَم الجبلية ما بين ألف وخمسمائة إلى ألفَيْ متر، وعلى الرغم من أنه ليس ارتفاعًا شاهقًا في الجبال، إلا أن هذه الكتل الصخرية العارية لا تحتوي على أي نوع من الأشجار، أو عشب، أو غيوم تختبئ وراءها؛ فتبدو لنا أكثر علوًّا ممَّا هي عليه.

في هذه المنطقة من سلسلة جبال تاسيلي في الجزائر توجد أقدم فنون الكهوف في العالم، التي اكتُشِفَت هنا قبل عديد السنين في كهوف تاسيلي من قِبَل الفرنسيين. يعود تاريخ بعض اللوحات الجدارية الصخرية إلى ثمانية آلاف عام قبل الميلاد. والقصة التي ترويها هذه الصور هي واحدة من أكثر الأشياء المدهشة في الصحراء بأكملها. إن الحياة التي يصورونها والأنشطة التي يعبِّرون عنها إلى جانب جَمال ودِقَّة أسلوبهم والتقنية المتطوِّرة ومنظور الخبرة في التنفيذ، توفِّر مفهومًا جديدًا لعبارات «العصر الحجري» و»إنسان الكهف». تمَّ مؤخَّرًا عمل مئة وخمسين قطعة أثرية على الورق ونُسَخٍ ملوَّنة دقيقة من هذه الأعمال الفنية، عُرِضَت في متحف الإنسان في باريس؛ ليراها العالم. ومن خلال هذه الفنون يبدو أننا يجب أن نطوِّر أفكارنا ومفاهيمنا عن إنسان العصر الحجري.

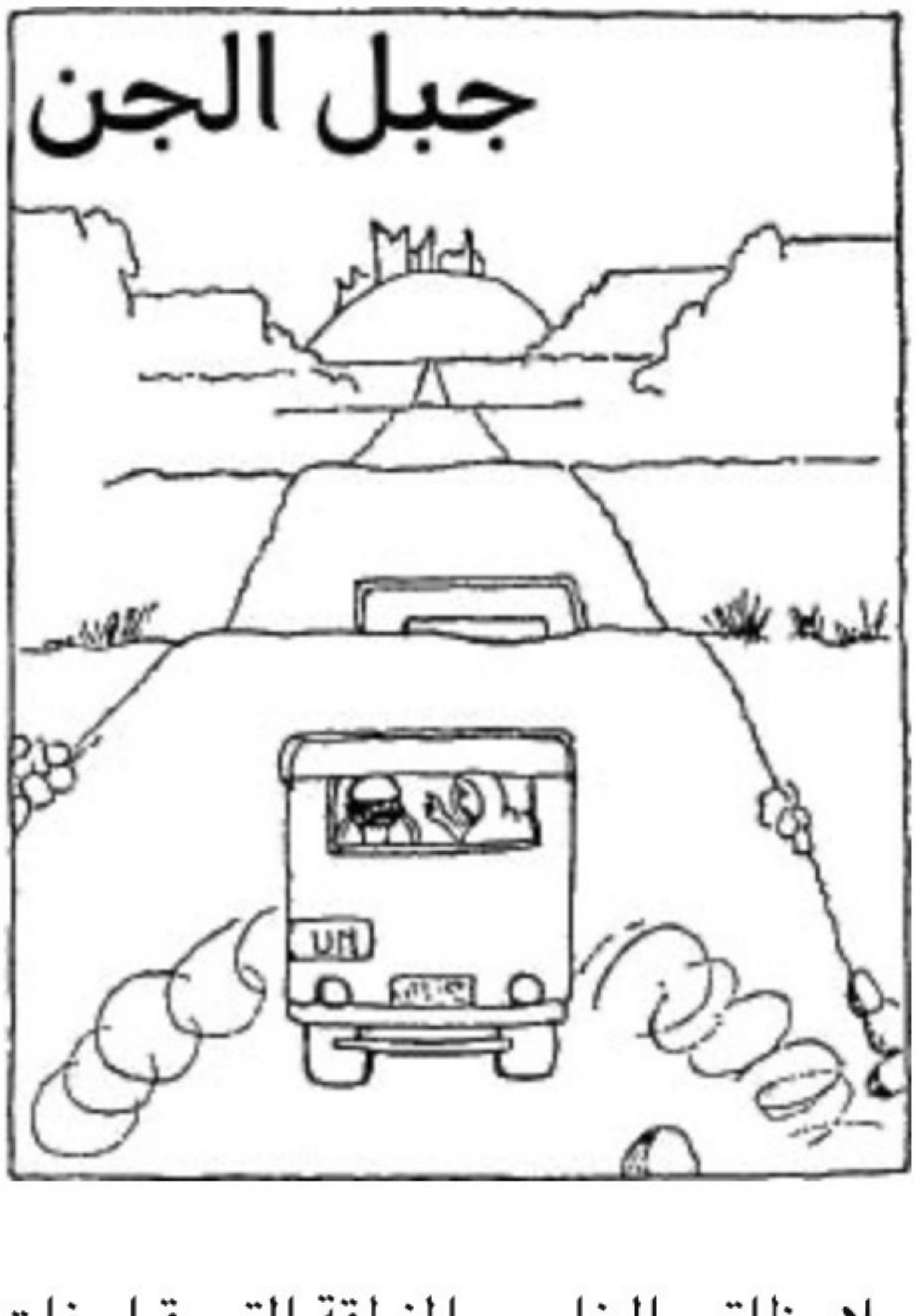

في دفتر ملاحظاتي الخاص بالمنطقة التي قبل غات، رسمتُ مخططًا لأشكال هندسية داكنة غير شبيهة بالجبال، ولكنها جزء من كتلة الهقار. وكُتِب في الأسفل «نحثُّ السير بجنون نحو هذا!»، في

الصفحة التالية هناك مجموعة صغيرة ممَّا يشبه الفطر الأسود المستدير تطفو في وعاءٍ من المرق البُنِّيِّ، مع ملاحظة تقول: «هذا الفطر عبارة عن جبال». ثم حينما تغرب الشمس خلف كتلة صخرية بعيدة لاحظتُ، «كثبان نملٍ صغيرة (ارتفاعها عدة مئات من الأمتار!) تظهر أمامنا، وتتحوَّل بسرعة إلى اللون الأرجواني في ضوء الشمس الغاربة، باستثناء وميض من الكالسيوم الأبيض في قِمَمها مثل الثلج المنجرف».

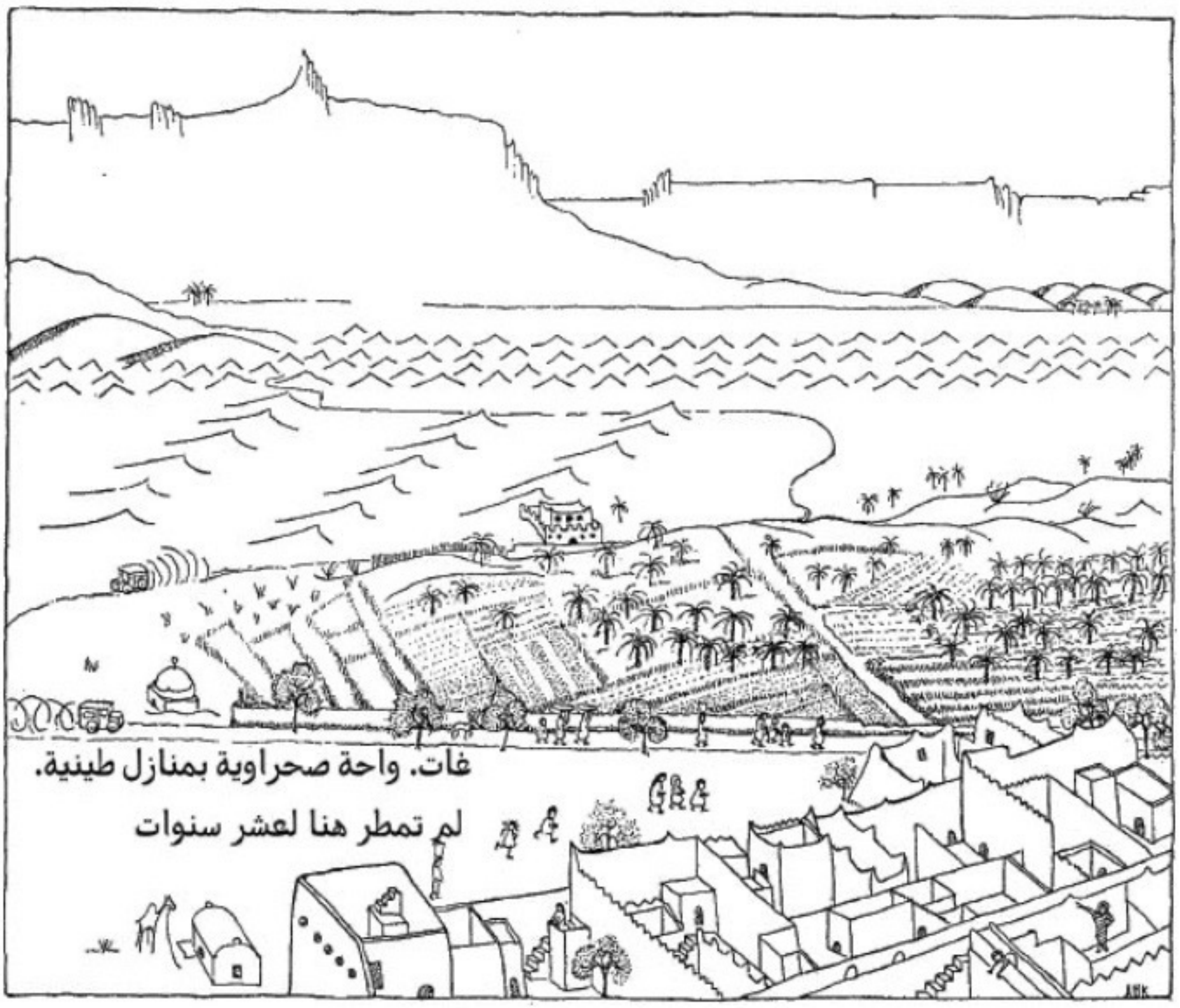

مع مغيب الشمس الآن خلف الجبال يزداد المشهد المظلَّل غموضًا. من المناسب تمامًا أن نصل في هذه اللحظة إلى سفح جبل الجِنِّ، وهو جبلٌ صخريٌّ قاسٍ، ذو منظر مرعب، ووفقًا للأسطورة، فهو مسكون بواسطة الجن خارق القوي والمرعب. وأنا أشاهد منظر الجبل عند غروب الشمس، يبدو لي أنه أسوَد اللون وخَشِنٌ بخلفيَّة سماء كأنها تحترق، وتحدوني رغبة مُلِحَّة في ترك المكان بلا مُنازِعٍ للجِنِّ.

سرعان ما يتحوَّل المشهد حولنا إلى اللون البنفسجي الداكن ثم الأسود، وفجأة لا يوجد شيء يخبرنا عن مكان الطريق إلَّا حينما

نخرج منه ونقع فجأة في قاع الوادي- وعندها ستتكسر رقبتي. إنها الساعة الثامنة حينما ندرك فجأة أننا نسير بسلاسة على طريق حقيقي. ثم في لحظة أخرى، مع عدم وجود تحذير من الأضواء في الأمام، ولا توهُّج حتى في السماء، تنعطف الطريق فجأة، ونجد أنفسنا في غات. على وميض النجوم، يمكننا أن نرى الجدران البيض تمرُّ بحذائنا، ونرى النخيل كذلك، ثم نتقدَّم ببطء حول منعطف آخر، حتى وصلنا إلى مركز الشرطة. نتبادل التحايا ونسألهم عن الاتجاهات، ثم نتوجَّه مع شُرطيٍّ وَدودٍ يسير بجانبنا حامِلًا فنار كيروسين، ليرشدنا إلى الاستراحة.

17. الطَّوارِق

على الفور وجدنا أنفسنا مع أصدقاء؛ لأنه في غات -وهي واحة للطوارق- يتمتَّع كلٌّ من الرجال والنساء بحرية التنقُّل كما يحلو لهم، يكادون يكونون أحرارًا أكثر من اللازم؛ فيُقلِقون راحتنا. طوال الليل في فناء الاستراحة حيث نحاول النوم، يزورنا المتفرِّجون والمهتَمُّون الذين جاؤوا لرؤية الوافدين الجُدُد. طوال الليل، ونحن ننام في دَعةٍ، مجتمعين معًا تحت شجرة سِدْر الزفيزف العظيمة ذات اللحاء الأبيض اللامع، فتبدو مثل مظلَّةٍ منتشرة فوقنا، أسمع أصواتٍ فزَّانيَّة مُبهجةً تُشعرنا بأننا لسنا غُرباء بصيحات مثل: «لا باس، لا باس، لا باس أحمد! لا باس بدر الدين! لا باس يا أصدقاء!».

استيقظنا باكرًا في الصباح وتوجَّهنا إلى السوق، الذي يوجد منه في كل قرية. هنا في مربَّعٍ صغير محاط جزئيًّا بمحلات منخفضة من الطوب الطيني، نجد البيض والطماطم والموز والفلفل، والسِّلال المنسوجة وأغطية الطعام المُصنَّعة يدويًّا، والخَرَز الزجاجي الملوَّن المتلألئ وأحزمة الخرز المنسوجة والقلائد الطويلة بألوانها: الأزرق الزاهي والأحمر والأصفر والأخضر، مُجتَمِعة في أنماطٍ هندسية، وكذلك نجد خلاخيل وأساور فضية، وخناجر مع جراباتها متَّصِلة بأحزمة. رأينا أنَّ كلَّ رُوَّاد السوق، وكلَّ شيء صالح للأكل فيه، مُغطًّى بالكامل بطبقات من الذباب المتلألئ ذي الأجنحة القُزَحيَّة، من أفضل السُّلالات وأكبرها حجمًا.

نظرًا لأن غات هي واحة للطوارق، أو على الأقل تطغى فيها تقاليد الطوارق وعاداتهم، فالعمل كله يقوم به إمَّا الأقنان أو النساء؛ لأن الرجال هنا لا يعملون أبدًا. كلُّ النساء غير منقبات. والعاملات في السوق هنا يتمتَّعن بقوَّة العزيمة، وعلى ما يبدو فإحدى الجميلات منهنَّ حاولت طوال الليل إغواءَ أحمد للنوم معها! لكن يبدو أنها لم تَرقَ إلى مستوى ذَوْق صديقنا الأنيق. ومع ذلك، من الأفضل التعامُل

بابتسامات وِدِّيَّة، وإبداء فضول طبيعي بدون عداوة. رأيتُ أيضًا أنه من الجيِّد أنني تركتُ ورائي تلك التناقُضات الكبيرة بين النساء المسلمات والغربيَّات التي أجدها في طرابلس، وهو التناقض الذي يجعل المرأة الغربيَّةَ تبدو جريئة وغير حَيِيَّةٍ، بينما الليبيَّة تبدو غريبةً وساذجة بعض الشيء. لكن هنا في غات تسود الأجواء المريحة، فلا تهربُ الفتيات، ولا يختبئن، ولا يبدو عليهنَّ الحرج. وإن تصرَّفنَ بِقَدْرٍ من الجرأة، فهذا مقبول في ثقافتهم وتقاليدهم الخاصة، ويتصرَّفن على سجِيَّتهم. في الواقع، علاقات الحب غير المشروعة بين النساء غير المتزوِّجات ليست وصمةَ عارٍ؛ لأن نساء الطوارق لديهنَّ قواعد سلوكٍ وأخلاقٍ خاصَّة بهنَّ تمامًا.

الآن في الصباح، وفي ضوء الشمس الأبيض المتلألئ، تجلس نساء السوق القرفصاء مع مواد غذائية منتشرة في صوانٍ مستديرة على الأرض، وكذلك يوازِنَّ بمهارةٍ بضاعتهنَّ الأقلَّ قابلية للكسر على رؤوسهن. يلبسن أرديةً داكنة مُغطَّاةً بالقطن الأسود أو الأزرق النيلي، مع أغطية رأس ذات ألوان زاهية، وأغطية طويلة تلتفُّ حول الرؤوس. يبدو مظهرهن رثًّا، وتفوح منهن روائحُ نَفَّاذة، ويمكنني بسهولة تخَيُّل أنَّهنَّ يغتسلن برمال الصحراء! ومع ذلك، توجد في غات بئرٌ ارتوازيَّة غزيرة المياه، وإمدادات مياه جيدة، وبعد ذلك وجدت حشودًا من النساء في مكان إمداد المياه العام، يغسلن ملابسهن وأنفسهن بحماس شديد. إذًا ربما كنتُ أنا مَن انبعَثَت مني الروائح النَّفَّاذة هذا الصباح!

غات "لا باس، لا باس أحمد!"

الأكثر مدعاة للاشمئزاز في غات هو الذباب. ففي الواحة لا يرى المرء ذبابة وحيدة، بدلًا من ذلك يرى جيوشًا منها تحيط بكل جزيء من الطعام وبكل شخص. إنها غاضبة ومسعورة، ونادرًا ما تبدو أنها تطير، كما أنها لا تكون بمفردها أبدًا، بل تتكتَّل في تشكيلات متماسكة وتتجمَّع في عناقيدَ خَرَزيَّةٍ كبيرة مثل ثمار التوت. يستقرُّ الذباب دائمًا على أفواه الأطفال اللزجة مثل المُربَّى، وتجدُ سِربًا منها على عيونهم الدامعة، ويحوِّل الذباب وجهَ طفلٍ أسود صغير إلى ألوان قوس قزح برفرفة أجنحته الرمادية المتلألئة؛ لأن الذباب قبل كل شيء يحب الأطفال، وكل طفل يحمل هالَةً من الطنين حول رأسه. يزحف على جفنيه، ويرفرف فوق رموشه، يزحف داخل وخارج أنفه، ويتجمَّع حول القطرات من أنفه، ويتشبَّث بشفَتَيْ الطفل. الذباب لا يهجر الأطفال أبدًا. ولأن الطفل عارٍ تمامًا مع كل فتحاته المكشوفة؛ فهو بمثابة طُعمٍ مثاليٍّ للذباب، يذهب معه أينما ذهب، ويلمع سواده مع رفرفة الأجنحة.

يتمتَّع الأرستقراطي التارقي بثلاث خصائص جسمانية بارزة: فهو طويل القامة، وذو بشرة بيضاء (إن كان بإمكانك رؤية جِلده!)، وشعره غير مجعّد. ونظرًا لأن معظم سُكَّان غات هم من ذوي البشرة

الداكنة والشّعر المجعَّد؛ فمن المحتمل أنهم ليسوا من الطوارق الحقيقيِّين، لكن نسل العبيد ما زالوا يعملون في الأراضي الزراعية لصالح الأرستقراطيين. الطوارق أنفسهم يحتقرون جميع أشكال العمل؛ فهم حسب التقاليد، محاربون فقط!

تتمُّ تنشئة ذكور الطوارق على مقولة: «العار يُكلِّل الأُسرَة التي تحرث الأرض!»، والرجال حرفيًّا لا يعملون أبدًا في الأرض، حيث تقوم النساء بكل الأعمال، ويتعاملن مع الأموال. وهُنَّ أيضًا أحرار في مسائل الحب كما يرغبن، على الرغم من أنني لم أرَ فيهنَّ الكثير ممَّا يمكن أن يغوي أي رجلٍ في السوق اليوم.

في سالف الأيام حينما كانت الصحراء ميدانًا لمعارك القبائل الصحراوية شبه البدوية المتجوِّلة، كانت كل قبيلة تقاتل من أجل البقاء، وكان التارقيُّ هو المحارب الأشدُّ بأسًا، ويسعَدُ كثيرًا حينما ينخرط في معركة دامية. ومع حلول السلم النِّسبيِّ في الصحراء الذي تمَّ فرضه بالقوة بواسطة الفيلق الفرنسي بمساعدة وحدات تُعرف بمهاري الشامبا، والآن أصبح أمرًا واقعًا بشكل عام- جاهد المحارب التارقي نفسه حرفيًّا للتَّخلِّي عن وظيفته القديمة ومكانه الذي كان مُحتَرَمًا في حياة الصحراء. واليوم يبدو أن رجال الطوارق ليس لديهم سبب وجيه لوجودهم. حيث يجلسون طوال اليوم على الأرض خارج أسوار المدينة، مُغطَّون من الرأس إلى القدم بالأردية الزُّرق، ووجوههم مُحجَّبة تمامًا بطيَّاتٍ زرقاء داكنة من اللثام، مع فتحة ضيقة لعيونهم السود الثاقبة، والتي غالبًا ما تكون مُعتِمةً بسبب الرمد الحُبيبي.

هم لا يخلعون ملابسهم الزُّرقَ أبدًا، وأجسادهم نفسها تبدو زرقاء داكنة بشكل دائم؛ من تأثير العَرَق والصبغة الزرقاء. كما أنهم لا يخلعون حجابهم للنوم، أو حتى عند تناول الطعام؛ لأنه وفقًا لقواعد سلوكهم لا ينبغي أبدًا رؤية الفم، وتناول الطعام بشكل ظاهر يُعتَبر فعلًا غير مُحتَشِم؛ وبالتالي، يدفعون طعامهم تحت الحجاب ويمتصُّونه. منطق الأمور قد يُفضي إلى أن هؤلاء الرجال البائسين، الذين لا يراعون قواعد النظافة والصحة العامة، لا قيمة لهم عمليًّا في

عالم اليوم، لكن المرء لا يستطيع منع نفسه من إطلاق شهقة إعجاب عند رؤية رجل تارقيٍّ طويل القامة، ومنتصب الجسم، يلبس رداءً أزرق ويجلس مثل صخرة على جَمَل السِّباق (المهاري) خاصَّته.

لطالما مثَّل محاربو الصحراء السابقون تحديًا لمستكشفي الصحراء الذين يميلون إلى رؤيتهم في إطار من الرومانسية، ربما لأن حيواتهم تُجسِّد التَّوقَ في العقل الباطن للإنسان المتحضِّر. وبأكثر من طريقة، يبرِّرُ تاريخ الطوارق إبداء الاحترام لهم؛ لأنهم لم يشقُّوا طريقهم صعودًا وهبوطًا في القارة الإفريقية فحسب، بل كانوا في السنين الماضية مسؤولين عن النقل في الصحاري عبر قوافل الجِمال من مدينة «كانو» في وسط إفريقيا، شمالًا إلى البحر المتوسط.

ومع ذلك، هنا أيضًا بصفتهم الثانية كقادةٍ للقوافل الصحراوية، يراهم المرء غير متوائمين مع تغييرات القرن العشرين التي ترسل شاحِناتٍ لها عجلات ضخمة، مثل السفن ذات العجلات الرملية والمركبات الصحراوية التي تذهب إلى أي مكان، والتي تتجاوز قُدرَة الجَمل نفسه في السفر على الرمال. واليوم طريق الرقيق القديم من كانو شمالًا عبر أغاديس وعبر غات وعبر غدامس إلى طرابلس- تستخدمه المركبات ذات العجلات التي تستغرق أقلَّ من نصف عدد الأيام التي تتطلَّبها قافلة الجمال. لكن من المسلَّم به أنه لا يمكن لأي مركبة السَّفَر بمفردها، ولا السفر بدون آليَّةٍ ممتلئة بالوقود، وتشكيلةٍ كاملة من قطع الغيار، والتي في رأيي يجب أن تشتمل أيضا على ساق خشبية وقطعة غيارٍ للكبد!

تاريخيًّا كانت الصحراء دائمًا غارقة في إراقة الدماء التي تبدو حقيقتها أكثر قسوة من الخيال؛ ولهذا يجب أن يكون المستكشفون أقوياء ويتمتَّعون بالصلابة والشجاعة، وفي الوقت نفسه يكون لديهم جانب أكثر ليونة في بعض الأحيان.

في يوليو 1825 كان الرائد غوردون لاينغ -وهو مستكشفٌ صحراويٌّ إنكليزي حازمٌ وشجاع ومغرور، لكنه محبوب- موجودًا في

طرابلس، ويقوم بالتحضيرات لرحلة صحراويَّة مُكثّفة إلى مدينة تمبكتو. وقع لاينغ في حُبِّ إيما، ابنة هانمر وارينغتون، القنصل البريطاني هناك، ووقَعَت إيما في حُبِّه بجنون. يصف القنصل حبَّ ابنته بأنه «جامح وحماسي ورومانسي»، ويقول إن «كل اعتراض أبداه لم يكن مفيدًا!». كان الاثنان مُصمِّمَيْن على الزواج قبل أن يغادر لاينغ في رحلته.

أقيمت المراسم في طرابلس من قِبَل القنصل البريطاني، ولم يتوفَّر مكان غير القنصلية. وكان لِوارينغتون شكوكه حول مشروعية قيامه بطقوس الزواج لابنته؛ وبالتالي لم يسمح لإيما بالبقاء مع غوردون كزوجة له. وكما قال هو نفسه: «لم يغيبا أبدًا ثانية واحدة عن مُراقَبتي!»؛ نتيجة لذلك غادر لاينغ إلى الصحراء، يحمل حُبَّه الذي لم يتحقَّق فعليًّا بالدخول على زوجته.

بالقرب من وادي أحينيت في الهقار، تعرَّض لاينغ لهجومٍ من قِبَل طوارق الهقار، وتُرِكَ ليموت، مع عشرة جروح بالسيف في رأسه، وأخرى في جسده، ورصاصة في وركه، وإصابات في ساقيه، وكلتا يديه مُشوَّهتان، وواحدة شبه مفصولة عن ذراعه. لكن وبشكلٍ لا يُصدَّق، لم يَمُت. بقي تحت العناية لثلاثة أشهر من قِبَل أصدقاء عرب، وتعافى بما يكفي ليقطع مسافة سبعمائة كيلومتر من أقسى صحاري العالم في طريقه جنوبًا إلى تمبكتو. هناك أعاد اكتشاف المدينة باسم البريطانيِّين، على الرغم من اكتشافها بالفعل من قِبَل الفلورنسي، بنديتو دي، ومن قِبل البرتغاليين والفرنسيين. لكن لاينغ وحده مَن تَرَك وراءه يوميَّاتٍ لرحلته.

مكث شهرين في تمبكتو، ثم غادر في رحلة العودة. لكن على بُعد أيام قليلة من تمبكتو، وبعد أقل من عام من تعرُّضه للقتل تقريبًا على يد الطوارق، هاجمته قبيلةٌ عربيَّةٌ وقُتل. مات بفعل ضربات رماح عديدة، وبعد ذلك قُطع رأسه. وعلى الرغم من اتهام مجموعة متنوِّعة من شيوخ القبائل العرب وأشخاص من تمبكتو بالتواطؤ في القتل، لم يكن هناك دليلٌ حقيقيٌّ على أيِّ شيء سوى أنه قُتل. وفي ميناء

طرابلس الدافئ، أصبَحَت الشابة إيما وارينغتون لاينغ أرملةً دون أن يدخل بها زوجها.

المأساة الإنسانية الكبرى لمستكشفي الصحراء ليست الموتَ وحيدين بسبب عاصفة رملية، أو حتى الموت من العطش، ولكن ذلك الموت الذي طال كثيرين، أولئك الذين وثقوا تمامًا بأهل الصحراء، الذين أحبُّوهم وأُعجبوا بمُثُلِهم، لقد اعتقدوا أنهم يفهمونهم تمامًا، وشعروا بالأمان بينهم؛ ربما لأنهم كانوا يرغبون في الشعور بالأمان، لكنهم فقدوا حيواتهم في النهاية على أيدي مَن أُعجَبوا كثيرًا بطُرُقهم وتقاليدهم- لكنهم فشلوا في الاختبار الحاسم لفهم أولئك الناس كما يجب. ربما تستطيع أجسادنا السَّفرَ بسرعة أكبر ممَّا قد تتغيَّر عاداتنا وطبائعنا. وكما يحلو لهاري دائمًا أن يقول عني حينما يرى أنه يتمتَّع بقدر كبير من الثقة والرومانسية، «سيبكون بحُرقَةٍ وهم يذبحونك!».

كان شارل دي فوكو مستكشفًا رومانسيًّا آخر أحبَّ الصحراء حتى الموت. ينتسب لعائلة فرنسية أرستقراطية معروفة، وهو نفسه يحمل لقب ماركيز. سافر أوَّلًا إلى شمال إفريقيا في المغرب عام 1883. وهناك أصبح راهبًا في منطقة بني عباس. وفي عام 1904 انضمَّ إلى دورية صحراوية مع الفرنسي لابيرين، المشهور برحلاته الجوية الصحراوية، وسافرَا عبر الهقار، تلك الكتلة الصحراوية الحمراء الهائلة والمرعبة التي تمتدُّ على طول مدار الجَدي، وتسكنها أعنف جماعات الطوارق وأكثرها شغفًا بالحرب، وهم أنفسهم الذين قطعوا رأس غوردون لاينغ. هناك استقرَّ الأب دي

فوكو مرَّةً أخرى في قلب تلك الصخور الحُمر الصَّدِئة المحاطة بالصحراء، وهناك بنى صومعته في تمنراست، والتي تُعرف اليوم باسم قلعة لابيرين.

لم يكن لدى الأب دي فوكو حماسة تبشيرية. بل هدفه الوحيد هو أن يقود -بِغَير أنانية- بعضَ سُكَّان الصحراء الذين أَحبَّهم إلى ما رأى أنها الحقيقة. وسواء نجح في ذلك أم لا، فمن المؤكد أنه من خلال

دراسته العلمية للأشخاص، أنتج قاموسًا بلهجة طوارق الهقار، يُدعى تيماهق، وهو القاموس الوحيد من نوعه المستخدم اليوم.

في العام 1916 وقعت سلسلة من الغارات الشرسة على جميع البؤر الاستيطانية الفرنسية في الصحراء. تمّ تنفيذ تلك الغارات من قِبَل طوارق غات وفزَّان، وربما تمَّت بتحريض من القوى الأوروبية المتحاربة التي كانت في ذلك الوقت متورِّطةً بقوة في الصحراء الغربية في مصر وبَرقَة وطرابلس والجزائر. كان معظم الغزاة الطوارق يملكون أسلحة أوروبية وصلت إليهم عبر السنوسيِّين الذين كانوا يقومون بالتبشير أيضا، مُستغلِّين روح النهضة الإسلامية.

في ديسمبر 1916، قُتل الأب دي فوكو في غارةٍ على ديره في الهقار. وعلى الرغم من أن الدير كان في الواقع مُدجَّجًا بالسِّلاح، إلا أن الأب دي فوكو، بدلًا من حمل السلاح ضد المهاجمين، ارتأى اللقاء بهم دون مقاوَمةٍ، وسقط شهيدًا في سبيل مُثُلِه العليا. يسعد المرء أن يقول إن القتلة لم يكونوا من طوارق الهقار التابعين لدي فوكو، ولكنهم من مجموعتَيْ فزَّان وغات، اللتين كانتا تعيشان في حالة حرب دائمة مع البؤر الاستيطانية الصحراوية الفرنسية. لهذا السبب لا يمكن اعتبار مقتل دي فوكو عمَلًا من أعمال الخيانة التي ارتكبها أولئك الذين خدمهم وأحبَّهم، بل كمثال آخر على ما تقود إله عبادة حياة الصحراء: أولئك الذين يحبون الصحراء سيختارون الموت فيها عاجِلًا أكثر من النجاة بعيدًا عنها.

تشتهر طرق قوافل العبيد القديمة من كانو إلى البحر المتوسط بوجود أكوام صغيرة من العظام البشرية والحيوانية على حدٍّ سواء، للجِمال وللعبيد الذين سقطوا على الطريق ليموتوا بينما تستمرُّ قافلة الطوارق في طريقها، وهي تقود تلك الطوابير البائسة للبَشَر حُفاة الأقدام عبر المنطقة المتوهِّجة الحارقة. في أيامٍ لاحقة، يتمُّ عادة وضع علامة في الصحراء مع جُملَة مبتورة تقول: «مات من أجل فرنسا»، واليوم أيضًا يتم وضع علامات مرَّةً أخرى، هذه المرة تقول الجملة: «مات بسبب النفط».

تاريخ الطوارق يتعلّق بمحاربين عُظَماء كما يتعلق بقَتَلةٍ غير مبالين، يتعلق برجال تعاملوا مع الموت بتهوُّرٍ دون تفكير جدِّيٍّ وكأنهم يتخلَّصون من قِطَط زائدة عن الحاجة. ومع ذلك، يجلس هذا المحارب التارقي العظيم اليوم محجوبًا متدثِّرًا بردائه وصامتًا في الشمس، بينما يزحف الذباب دون أن يحاول طرده من فوق جفنين لا يَرِفَّان أبدًا.

بحلول منتصف النهار أجدني واقفةً وحدي في الحصن القديم على قِمَّة التَّلِّ المُطِلِّ على غات. قام الإيطاليون ببناء هذا الحصن أثناء احتلالهم لليبيا واستولى عليه الفرنسيون في الحرب العالمية الثانية، وتمَّ تسليمه أخيرًا إلى ليبيا في 1956، العام الذي تخلَّى فيه الفرنسيون نظريًّا عن إدارتهم لفزَّان.

هذا موقعٌ مِثاليٌّ لتَفَقُّدِ القرية من خلاله، حيث أرى معظم المنازل ذات الجدران الطينية بلا أسقف، أو على الأقل مع تغطية جزء صغير فقط من منطقة المعيشة، ويمكنني النظر إلى المنازل والتجسُّس على أنشطة العائلات الفزَّانيَّة. تحتوي الجدران على حوافَّ رقيقةٍ مُتعرِّجة، مع وجود أشكال هرَميَّة مُثلثَّة في الزوايا لمنح الظل. أفترض أن عدم بناء الأسطح يعود إلى عِدَّة حقائق، إحداها انعدام سقوط المطر شبه الكامل في غات، ولم يُسجل سقوط المطر منذ عشر سنوات*. أضِف إلى ذلك حقيقة أن المرأة هنا لا تعيش في عُزلَة، بل تمارس حياتها وتحبُّ عَلانيةً، وأن الرجال -على أي حال- هم المختبئون وراء حُجُبِهم، حتى في منازلهم، وبالتالي تَقِلُّ الحاجة للسقف.

هذا الحصن مكانٌ رائع للتأمُّل، لكنني جئت إلى هنا لرسم المشهد في الأسفل. عرفتُ أن الكتلة الصخرية التي دُرنا حولها الليلة الماضية لتجنُّبها، وظهَرَت لنا حينها كأنها وحش أسود، تبدو اليوم بزوايا حادَّة، عاريةً وبيضاء تحت لهيب الشمس. بين الوحش والواحة، وفي كل الاتجاهات الأخرى من حولي، تتوهَّج الصحراء في موجات ذهبية كأنها منحوتة نَحتًا. هنا في الأسفل، وكما لو أنها سقطَت بالمظلة من الجَنَّة، تقع أجملُ واحةٍ على الإطلاق، مُغطَّاة بأشجار

النخيل الخضراء اليانعة، والأثل، والأكاسيا، والسِّدر، التي تنتشر مع الخُضرَة المُمتِعَة من بساتين ينمو فيها الفول المصري والكاكاوية، والقرع، والطماطم، وزراعات الشعير.

الطريق الذي دخلنا من خلاله الليلة الماضية يحدُّه الآن اللون الأخضر المشرق للحدائق المزروعة، وقد بدا مُنطَلِقًا من المنطقة القاحلة لوادي الحَصى الذي يقع بين كتلتين جبليتين عظيمتين في مونتي أكاكوس وتاسيلي أنغار. فمن انعدام الخضرة المطلق، يصل المرء فجأة إلى وسط الواحة الخصبة.

معجزة الخُضرَة هذه لأن المياه الجوفية وفيرة هنا، وموجودة بالقرب من السطح. تتدفّق بشكلٍ مُستمرٍّ مياهُ بئر ارتوازيَّة تمَّ حفرها في الأصل لتزويد الحصن الإيطالي، وتحمل القنوات الاصطناعية مياهها إلى جميع الحدائق. قد يكون سببُ توفُّر المياه الجوفية بكثرة موقع غات عند النقطة المنخفضة بين كتلتين جبليتين، حيث لا بُدَّ أن تتجمع الرطوبة. ويرجع ذلك أيضًا إلى حقيقة أنه في الماضي تمَّ رَفعُ طبقة من الحجر الرملي الحامل للماء عن طريق انحناءٍ أحاديِّ الخَطِّ بالقرب من سطح الأرض في هذه المنطقة، وهذه الطبقة لا تزال تحت ضغط ارتوازي كافٍ للتسبُّب في تدفُّق المياه في الآبار المحفورة.

الآن يتناهى إلى أذنيَّ أبهى صوتٍ يمكن أن تسمعه في الصحراء، وهو الخرير الصادر عن جريان المياه، حيث تتحرَّك المياه الارتوازية أسفل مني بلُطفٍ عبر الخنادق الضيِّقة، وتتسرَّب من مستوى إلى آخر، مع مقدار محسوب بدِقَّة لكل حديقة، حيث يجد السائل المبارك كلَّ أرض ظمآنة ويغذِّيها. وفي هذا المشهد اللطيف يبدو واضحًا سِرُّ بقاء الواحة.

أهبطُ التَّلَّ وأعود إلى القرية في الوقت المناسب لتناول طعام الغداء في الاستراحة (أم هو مركز الشرطة؟ حيث نمنا الليلة الماضية؛ فغالبًا ما يتمُّ الجمع بين الاثنين). جاء هاري وغاري وبدر الدين وأحمد للتَّوِّ من نقاشٍ طويل مع مدير غات وزعيم الطوارق المحلِّيِّ أمينوكال حول مستقبل غات. الحقيقة المُحزِنة هي أن غات ليس لها

مستقبل، حيث يموت عبيدها الزنوج الذين يعملون في الأرض، ويغادر شبابها لأنه لم يَعُد هناك سبيل لكسب لقمة العيش.

نشأ ازدهار غات في الماضي من تجارة القوافل التي تسافر شمالًا وجنوبًا من كانو عبر غات إلى طرابلس، حامِلةً العبيد والذهب والعاج وريش النعام والجلود، وتعود بالملح والحرير. والآن تلاشت طرق القوافل؛ بسبب إلغاء تجارة الرقيق، وللمنافسة المحتدمة على طُرُق البحر المتوسط. لأنه في الماضي لم يكن الطوارق ولا العرب هُم مَن يزرعون الأرض، بل العبد الزنجي هو مَن يزرع الواحات ويتغلَّب على الصحراء.

يناقش رفاقي أيضًا حقيقة عرض فتاة صغيرة للبيع لأحمد ليأخذها معه إلى طرابلس!**

لاحظتُ بسرورٍ أن بدر الدين يحضر دجاجتين لإعداد الطبيخ لأكله مع السباغيتي. وشعرتُ بامتنانٍ خاصٍّ لرؤية بدر الدين ينتف ريش الدجاج بنفسه، وهي وظيفةٌ أكرهها تمامًا.

بعد تناول وجبة كبيرة لتسكين جوعنا، نستقرُّ جميعًا في الفناء المظلَّل للنوم. لكن الذباب القارص لا يسمح بذلك، ونجد أنفسنا مستيقظين تمامًا حينما يبدأ حفل الاستقبال الرسمي بعد الظهر، حيث يصل العديد من الأشخاص المهمِّين للترحيب بنا، أو ربما بالنسبة لنا للترحيب بهم. عادة ما أكون في حالة ارتباكٍ حول مَن يكرِّم مَن، فترديد التحايا بالعربية يتمُّ بشكل متواصل، وعادات الضيافة تبدو مفخَّمة لدرجة أن جميع الحاضرين يبدو أنهم مُكرَّمون. ولأن عددنا ستة، وكذلك زُوَّارنا؛ فلا يوجد مكانٌ للجلوس باستثناء أَسِرَّة نومنا، نستقرُّ جميعًا عليها، بينما يُعدُّ أحمد الشاي.

سرير غاري يجلس عليه شخصان، وحينما وصل الزائر السابع لاحقًا، وهو شرطيٌّ طويل، ضخم الجثَّة وقوي، جلس بجوارهما فتحطَّم السرير وانهار مُحدِثًا ضوضاء عالية. هنا انطلق هدير من الضحك على هذه الكارثة، ومنذ ذلك الحين تأكَّد نجاح مَهمَّتنا. فقط لستُ متأكِّدة لماذا ضحكتُ بشدَّة حينما حدث ذلك، وما زِلتُ أضحك حينما

أتذكّر المشهد، لكنني أظن أن السبب في ذلك هو اكتسابي لعادات عوالم الشرق المتمثِّلة في الضحك على كل الكوارث التي لا تحدث لي. ربما تستند الفرحة إلى الإحساس بالراحة بنجاة المرء نفسه من السوء، أكثر من الابتهاج بسوء حظِّ الآخرين. على أي حال، فانهيار السرير كلِّيًّا وفوريًّا أكَّد النجاح الحقيقي لرحلتنا، ومنذ هذا الحدث فصاعدًا، ومع تسطيح السرير مثل الهيكل العظمي على الأرض، تمَّ سَردُ القصص الصعبة (تم تنقيتها وتفسيرها جزئيًّا لي من قبل أحمد) بنجاح صاخب.

كانت لدى السكان المحليين ذكريات شخصية عن الصحراء، والتي استمعنا إليها برهبة، بينما احتوى حفلنا على قصص مثيرة عن حياة المدينة التي نَمَت في الحجم والإثارة مع اشتعال المساء. بحلول الساعة التاسعة، كنَّا جميعًا مثل أصدقاء قدامى أعزَّاء، ولم يكن هناك ما يشير إلى نِيَّة زُوَّارنا في المغادرة، وبدأتُ أشعر بالجوع مرَّةً أخرى. لم يكن بالإمكان استخدام إمداداتنا الغذائية الشحيحة لإكرام سبعة رجالٍ شرطة مُفعَمين بالحيوية، وكنت أحاول الاستسلام لقضاء ليلة مع الشاي والحكايات، حينما رأيتُ بدر الدين ينتقل إلى حيث كدَّس أواني الطهي، والتي بدأ الآن في البحث عنها بطريقة موحية. ثم بدأ أحمد يتحرَّك مُتَملمِلًا، واختفى هاري في الزاوية ليتفقَّد نباتاته، وطلب المساعدة مني ومن غاري. بمرور الوقت، ومع رؤية جمهورهم يختفي، بدأ زوّارنا في المغادرة، دون أن ينسوا عبارات الشكر الكثيرة على الشاي، والوعود برؤيتنا جميعًا في الصباح. وبسرعة كبيرة، وضعنا أنا وبدر الدين السباغيتي مرَّةً أخرى لطهي الطعام، لكن هذه المرة دون أي صلصة.

ننام جميعًا في الفِناء كل ليلة هربًا قدر الإمكان من رائحة مرحاضٍ بلا ماء، والذي تراكمت عليه الأعباء منذ وصول آخر قافلة عبيد! إنه أمرٌ مُحرِج أن تكون في وسط المدينة، وأن تضطرَّ إلى الخروج إلى ضواحيها صباحًا ومساءً لقضاء الحاجة. كنت أفضِّل التخييم خارج المدينة في الصحراء، لكن الشرطة المضيافة تصرُّ على بقائنا هنا، وأن نستخدم وسائل الراحة الحديثة! على أي حال، هذا

الفِناءُ بالنسبة لي لا يُنسى، بشجرة السِّدر التي تبدو فوقنا كأمٍّ رَؤوم في ضوء النجوم، ونحن نضطجع في مراقدنا كل ليلة.

هذه ليلتنا الأخيرة هنا. نحن في أَسِرَّتنا، لكن لا يبدو أن هناك مَن يشعر بالنعاس. بينما بدر الدين يتحدَّث مع هاري.

«هل تعلم أن سكان غات هم الأكثر فردانية وخصوصية في كل ليبيا؟» يسألُ بدر الدين.

«اعتقدتُ أنكم جميعًا على هذا النحو!».

يضحك بدر الدين لردِّه، «نعم، ربما. لكن الشرطي يقول إن هؤلاء الناس لا يفكرون أبدًا بالطريقة نفسها في أي شيء. وهذا هو سبب تقسيم غات إلى قسمين، قسم 'نعم' وقِسم 'لا'».

«هل ذلك الشرطي الضخم من غات؟».

«لا، من غدامس. إنه تارقيٌّ حقيقيٌّ».

«لا بُدَّ أن أسلاف هؤلاء الناس في غات من الزنوج».

«أعتقد أن سكان غات الأصليين كانوا من الأتارا، وهم من الزنوج. فقط الطوارق لا يصفون الزنجيَّ بأنه أسود، بل يُسمُّونه أزرق، ويقولون إن الهوسا زُرق، والعَربَ بيضٌ، والطوارق حُمرا!».

يسأل هاري: «وماذا عن جبل الجنِّ. هل تنزل الأرواح الشريرة هنا إلى غات؟».

«أوه بالطبع. لكن هناك شيوخ دين في غات يستطيعون طرد أرواح الجن الشريرة!» يقول بدر الدين ضاحكًا.

«ربَّما نأخذ واحدًا منهم معنا إلى طرابلس!» يقترح أحمد.

«بدلًا من تلك الفتاة الصغيرة!» يقول أحدهم.

«هل صحيح أن التارقي لا يقبل بممارسة العمل ويعتقد أنه وصمة عار؟».

«أوه، نعم يا أمي. يجب أن يوفِّر كلّ قُوَّته من أجل الحب! فهو خبير في مسائل الحب!».

ينطلق الكثير من الضحك.

«إنها حياة غاية في الروعة!» يقول أحمد.

في اليوم التالي، ننظر خلفنا إلى غات في ضوء الصباح الباكر، بقليلٍ من الحنين، ولكننا في الواقع لسنا مستائين من العودة إلى الطريق مرة أخرى، قلوبنا ملآنة بالصور المختلطة لهذه الواحة الصحراوية. في ذاكرتنا أشِعَّة الشمس الحارقة وبرودة الظِّلّ المُرحَّب بها، وأوراق الشجر ذات اللون الأخضر اليانع، واللون اللامع لجلود الناس تحت الشمس المتوهِّجة، وأسنان الضحك البيض في الوجوه الداكنة، والتجاعيد على وجوه نساء لم يتجاوَزْن ثلاثين عامًا، والنعومة الداكنة للوجوه المستديرة لزَوجاتٍ صغيرات في عامِهنَّ الثاني عشر، وجمود عيون الأطفال التي يغطِّيها الذباب ذو الأجنحة الصدئة. يمكننا أن نشمَّ رائحة النباتات المتعفِّنة، ورائحة المجارير القذرة، ونسمع صمت السماء المليئة بالنجوم في الليل، وتناثُر المياه المتساقطة.

بالطبع لم يشترِ أحمد الفتاة الصغيرة. ولكن كبادِرَة وداعٍ حينما ركبنا سياراتنا، جاءت إحدى سيّدات السوق وحاوَلَت أن تبيعني عبدًا! وبغَضِّ النظر عن جميع مبادئ الحرية الإنسانية، فآخِرُ شيء أريد أن أكون مسؤولةً عنه هو إضافة المزيد من التخلُّف لحضارة القرن العشرين.

---

* بعد بضع سنوات، تهدَّمَت أو ذابت نصف المنازل الطينية في غات في هطول أمطارٍ غير مسبوق في هذه المنطقة...

** حقيقة أن مثل هذا الاقتراح يُعرض بانتظام على المسافرين في الصحراء يسبِّب إحراجًا كبيرًا للحكومة الليبية، التي لا تقبل الاتجار بالبشر مثل أي حكومة محترمة أخرى. ومع ذلك، ليس من الممكن دائمًا فرض احترام القانون في كل واحةٍ مُنعَزِلة في الصحراء؛ فالقانون مسؤولية الدولة، ولكن التقيُّد به مسؤولية الشعب.

18. الصهارا هي الصَّحراء*

لطالما وُجد البعضُ مِمَّن يحبُّون الصحراء، وأنا منهم. بينما أحمد يكرهها. وبدر الدين يعاملها بلا مبالاة. أمَّا أسعد فمُنشَغِلٌ عن الصحراء وعن البحر بكبده المريضة. وغاري يسعدُ في أي مكان. بينما يفضِّل بيتر البقاء في عربته الجوَّالة في إنكلترا على الإقامة في الصحراء، ونادرًا ما يُقِرُّ هاري بالرِّضا التام. لكنني أعلم تمامًا أنَّ أيًّا منَّا لن يُفَوِّت مثل هذه الرحلة.

كتبتُ هذه العبارات الفلسفية أثناء جلوسي في السيارة في العوينات في انتظار أن يجدَ هاري بِيت هوارد، الذي كُنَّا نأمل أن يكون لديه وقودٌ لنا. قامت شرطة غات الودودة، بعد تجديد إمداداتها من الوقود بتزويدنا بالكمية المدينين بها لِبيت، والتي أوصلتنا إلى العوينات. كنَّا نأمل أن يكون بيتر قد تلقَّى إمداداته الجديدة، وأن يتمكَّن من إعطائنا ما يكفي لرحلة العودة إلى سبها، حيث يمكن شراء الوقود بالمال.

لم يعثر هاري على بيت الذي سافر إلى طرابلس، لكنه ترك توصية لتزويدنا بالوقود عند قدومنا. «حمدو لله»! من المثير للاهتمام التفكير في عدد الصُّدَف الحسنة التي يجب أن يعتمد عليها هذا النوع من الرحلات. إذا سمح أحدٌ بكل حالة طوارئ أن تؤثِّر فيه، فلن تتمكَّن اللاند روفر أبدًا من التحرُّك. ومع ذلك، إنه شعور رائع أن تعرف أن خزانات الوقود لديك ممتلئة.

أدرنا ظهرنا للعوينات في وقت مُبكِّر من العَشيَّة يحدونا التفاؤل للوصول إلى أوباري في الوقت المناسب، وانطلقنا على طريق العودة. وعلى الرغم من أن المسافة هي نفسها، إلا أننا توقَّعنا العودة إلى طرابلس في وقتٍ أقلَّ؛ ويرجع ذلك أساسًا إلى أننا خَبِرنا المنطقة بشكل أفضل، ونريد الوصول قبل شهر رمضان.

كان أحمد يقود السيارة فننزلق بسرعة فوق رمال غير مُعلّمة بآثار إطارات، مع الهسيس الناعم للسير على الرمل دون اهتزاز، وهو مُبهِج للغاية، أو ارتجاج كُلِّيٍّ في أحيان أخرى. كنت محشورةً في المنتصف بين أحمد وهاري، أحاول التعامل مع المطبَّات ومنع رأسي من الاصطدام بالسقف. ومع ذلك، كان هاري مسترخيًا ومتأقلِمًا بهدوء مع الحركة بطريقة ناجحة على ما يبدو.

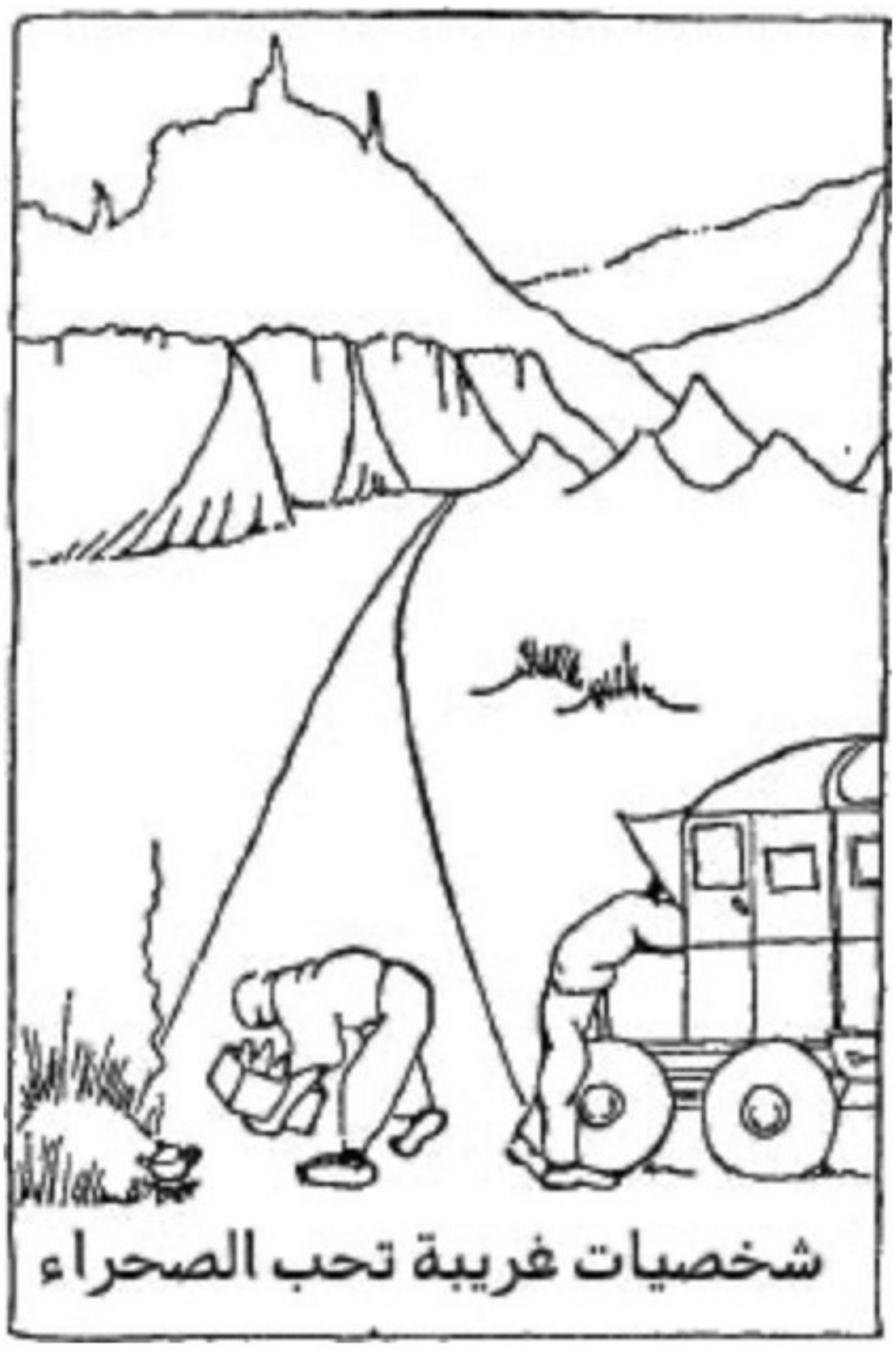

«لا تُوَتِّري جسمك. واسمحي له بالتناغُم مع المطبات؛ فذلك أسهل بكثير» قال هاري.

لذلك استرخيتُ واهتَزَزتُ مع اصطكاك أسناني.

ثم اقترح هاري: «اجعلها تصل إلى سُرعَة سبعين يا أحمد؛ ستصبح أكثرَ سَلاسَةً على هذا المسار إذا قُدتَ بشكل أسرع».

نفَّذ أحمد نصيحته وصارت السيارة ترتعد بدلًا من الاهتزاز، وبالتأكيد هذا أفضل.

فرقعة، فرقعة، تَحطّم، ارتطام، والله أعلم ماذا أيضًا! ثم فجأة اصطدمت رأسي بالسقف، وتلاها خَبطُ عجيزتي والعصعص بالمقعد، عندها شعرت بألَمٍ مُبرحٍ في منتصف العمود الفقري، ثم انهرتُ تحت ثِقَل أمتعة المقعد الخلفي التي انطلقت إلى الأمام فوقي أثناء سقوط السيارة في حفرة رملية وتوقُّفها. لقد وصَلنا إلى إحدى الفجوات الرملية الناعمة العظيمة، التي ربما كانت مُنهارةً بسبب جريان المياه الجوفية. لم يكن هناك سبب وجيه لعدم انقلاب سيارتنا. ولم يتكلَّم أحد لدقيقة. لقد فوجئنا كثيرًا بأننا ما زلنا على قيد الحياة.

حاوَلتُ الجلوس باستقامة فشعرتُ مرَّةً أخرى بألم مُبرح في منتصف ظهري، وصرختُ. بدا أحمد مرعوبًا، وسألني إن كنتُ قد تأذَّيتُ، فقال هاري إنني سأكون أفضل خلال دقيقة، ونحن محظوظون بالفعل لكوننا أحياء!

توسَّلتُ إليهما: «ارفعا الحقائب اللعينة عن رأسي، لقد كُسِرَ فيَّ شيء ما، ولا يمكنني الجلوس!».

بعد ذلك اتَّجَهَت سيارة غاري إلينا، فقفز منها وركض وقد بدا عليه القلق. «الجميع بخير؟».

في ذلك الوقت، كان هاري وأحمد يقومان برَصِّ الأمتعة في مؤخِّرة السيارة وربطها من جديد. حاولتُ الجلوس، فصرختُ مرة أخرى. بان القلق على وجه غاري، وأحاطني بذراعيه ورفعني للجلوس في وضع أسهل. «لا بُدَّ أنَّكِ آذيتِ ظَهرَكِ!».

«أعتقد أنني كسرتُ شيئًا في العمود الفقري... إحدى الفقرات»، ويبدو الأمر تمامًا كما لو أن اثنين منهما قد تلامستا معًا.

بطبيعة الحال، لم يُصدِّقني أحد، ولكن يجب أن يستمرَّ العرض في الصحراء. ومع حلول الغسق لم نصل بعدُ إلى موقع المُخيَّم. قبل أن نبدأ مرة أخرى، أَصرَّ أحمد على وضع وسادته البيضاء الجميلة المطرزة تحتي (جميعنا كان لدينا وسائد قَذِرة الآن) وجلستُ فوقها

على المقعد الطرفيِّ، مُتشبِّثةً بالباب لرفع ثِقَل وزني عن مؤخرتي، لكن الساعات الثلاثة التالية كانت جحيمًا.

توسَّلتُ: «قُد بحَذَرٍ يا أحمد».

«نعم، هذا ما أفعله يا أمي». لكن في الحقيقة لا أحد يستطيع القيادة بحذر شديد أو برفق على تلك المسارات الصحراوية وعند غروب الشمس.

«ألا يُمكِنُكَ السير أبطأ من هذا يا أحمد؟ إذا وقَعتُ في حفرة أخرى سأموت!».

«نعم يا أمي، أنا الآن أقود بحذر». لكن سبعين كيلومترًا هي أقل سرعة يمكن السير بها.

«هل ظَهرُكِ أفضل الآن يا أغنس؟» سأل هاري.

«كلَّا، الألم فظيع. لو بإمكاني فقط الاستلقاء على بطني بدلًا من مؤخِّرتي لبعض الوقت! أخشى أن أتصلَّب الليلة، ولن أتمكَّن من الوقوف على قدمي غدًا».

«بالتأكيد ستكونين أفضل غدًا!».

«لا أعتقد ذلك. أستطيع أن أشعر بسوء الحال! هناك شيء واحد أَوَدُّ التفكير فيه الآن... وهو الويسكي الذي سأشربه حينما نصل إلى أوباري!».

أخيرًا وصلنا إلى الاستراحة الصغيرة على الجانب الآخر من قسم الشرطة الصغير، والتقينا برجال الشرطة الشباب الأعِزَّاء، الذين أتوا جميعًا لتناول الشاي معنا مرَّةً أخرى. بدا وكأنني في بيتي. ربما سأعيش أخيرًا!

في تلك الأثناء أخرجني هاري وغاري من السيارة، ووجدتُ أن باستطاعتي الوقوف بشكل أفضل من الجلوس؛ الأمرَ الذي شجَّعني. حتى الآن، كانت فكرة أن أكون عبئًا على صبرِ رفاقي تُقلِقني بقدر ما يزعجني الألم. ومع ذلك، كنتُ أُمرِّضُ أسعد، حينما يُصاب بنوبةٍ

صفراء، وأمسك برأسه حينما يتقيَّأ، وإعطائه كيس الماء الساخن حينما اعتقدنا أنه مصابٌ بالتهاب الزائدة...

بعد ساعة كنت جالسةً على كيس الماء الساخن وأمسك بيدي قدح ويسكي دافئًا، وعلى الرغم من أن الأمر يبدو وكأنه علاج عن طريق التهيُّج المضاد، إلا أن ظهري تحسَّن وضعه.

يؤسفني القول إن الويسكي لم يُصلح ديسكي المؤلم على المدى الطويل، وكان على هاري أن يساعدني على الوقوف صباح اليوم التالي وكلَّ صباحٍ خلال الأيام السبعة الأخيرة من الرحلة. لو أمكنني الذهاب إلى الطبيب حينما كان الألم شديدًا لفعلتُ، لكن الصحراء ليست معروفةً بالخدمات الطبية التَّخصُّصيَّة، وبحلول الوقت الذي عُدتُ فيه إلى طرابلس، وهي ليست جنَّةً طبِّيَّةً أيضًا، كان الألم يخفُّ. تَمكَّنتُ من إقناع نفسي بأن الوقت كفيلٌ بشفائي... وهو ما حدث، على الرغم من أن الفحص الطبي بعد فترةٍ أظهر إصابتي بانزلاق غضروفي.

بالطبع تختلف الانزلاقات، وكذلك العلاجات. إذا كان لديك انزلاقٌ من أي نوع وتنتمي إلى مجموعة المساعدة الأميركية، أو إلى السفارة أو القوات الجوية، فسيتم نقلك جوًّا إلى ألمانيا أو الولايات المتحدة لتلقِّي علاجٍ متخصِّص. أمَّا إن كنتَ تتبع الأمم المتحدة؛ فعليك دفع القُرص إلى مكانه وتثبيته باستخدام الإبهام، أو أن تطلب من زوجك المساعدة اللازمة.

رحلات العودة دائمًا ترتبط بالأسى. أعترف بأنني أستمتع بميزة الاستحمام المنتظم وشامبو الشَّعر وتلوين الأظافر، وهذه الأشياء تلوح في الأفق بسرور بينما نحن في الطريق إلى طرابلس، والآن هناك حافزٌ إضافي للوصول، وهو عدم الاضطرار إلى القفز لأعلى ولأسفل على ديسكي المؤلم. قد تكون هناك رسائل تنتظرنا من جين وجورج... مع أنه مشكوك في الأمر، لكن دائمًا ما نأمل ذلك! أنا بالفعل أتطلَّع إلى رؤية محمد، والاستماع إلى مشاكله الجديدة، واقتراح الحلول الممكنة. أريد أن أرى ما إذا كانت الوردة المتسلِّقة الشامية الصغيرة

تتفتَّح الآن، وما إذا كان الصبار الصغير الجديد في الوعاء سوف يُزهِر بتلةً مثل قطرة دم، وما إذا كان العشب قد تماسك أخيرًا، على الرغم من الرمال والديدان...

ومع ذلك، أخشى الوقوع مرة أخرى في دائرة لا نهاية لها من الروتين الذي يُشكِّل حياتي اليومية في طرابلس، ولكنه لا يعني شيئًا هنا تحت نجوم الصحراء. أكرهُ ترديد التفاهات المهذَّبة والاستماع إليها- لكن لا يمكنني تصوُّر حفلة كوكتيل يصرخ فيها المرءُ بما يراه حقائق على وقعِ رنين أقداح المشروبات المثلَّجة، في آذان مُصغيَة وأخرى غير مبالية. أتوق في هذه اللحظة إلى السباحة بالقرب من صخور نادي الأندرووتر (الغوص)، وتناول المشروبات في حانته، وإن ليست بنصف قوة المشروبات غير المخلوطة التي تناوَلتُها في الصحراء، ولكن الفارق أنه يتمُّ تقديمها في النادي بصحبة فتيات أنيقات، ليس لمثلي فرصة أمامهنَّ! ربما تكون ثنائية حياتي في ليبيا هي التي تجعلني أستمتع بها كثيرًا؛ لأنها بسيطة وممتعة.

الآن كوَّنتُ ارتباطًا مع الصحراء. قبل مغادرتي طرابلس قرأت مُذكِّرات عن الأعراق المختلفة من ساكني الصحراء الليبية لمؤرِّخٍ فرنسي، حيث كتب عن سعادةِ رجال الصحراء من خلال أغانيهم البدوية في المواسم المختلفة، وخاصة موسم الحصاد، وعن رياح الصحراء. ترجم المؤرِّخ بعض هذه القصائد الغنائية من العربية إلى الفرنسية، وقمتُ بترجمتها بلغة ركيكة. كان هؤلاء القوم بسيطين وخياليِّين وغارقين في مسألة الاعتماد الشديد للبدو على تقلُّبات الحالة المزاجية للصحراء. لكن مَنْ غير أتباع دين الإسلام يقبلون كارثةً بعد أخرى وكُلُّها من عند الله، بل ويذكرونها في أغانيهم؟ يعانون من خسارة بعد أخرى، ومن الجفاف والمجاعة وعواصف الرمال، ويستمرُّون في الغناء، ويحتفلون بتحقيق النجاح في زراعة كلِّ محصول، أو زيادة في أعداد قطعانهم، أو ولادة طفل، أو مشهد للجَمال الذي أبدعه الخالق، ويغنون من جديد حول مشيئة الله. حينما قرأت تلك الأغاني في طرابلس، بدت معانيها بعيدةً عن ذهني وأحاسيسي.

لكن الآن لديَّ ارتباط أكثر بالصحراء، وأتفهَّم بوضوح أكثر صوتَ البدوي حينما يغني. وحينما يترنَّم بنشيد القوة الغاشمة لعواصف الصحراء أتفهَّم مشاعرَه. وحينما يغني لأطفاله كيف أنَّ رياح القبليِّ لا تترك شيئًا حيًّا وراءها في السهول أو الكثبان الرملية، «ولا حتى الجنين في بطن الأم»، أتفهَّمُ صراخه. وحينما يخبر أطفاله أن الرياح القادمة من الشمال تُنبت من الأرض الأعشاب لتتغذى عليها ماشيته، وتبثُّ الخصوبة في النساء، ويُصبح الرجالُ أكثر فحولةً، بينما ينمو الطفل في الرحم بقوة وثبات، عندها أتفهَّم معاني تلك الأغاني.

من أوباري نمرُّ عبر منطقة الطويشة المأهولة بالسكان الزنوج، ثم على طول شريط الواحات، حيث تمَّت الإشارة إلى سلسلة من الأماكن الصغيرة على الخريطة على أنها «مياه صالحة للشرب» فقط. نشقُّ طريقنا نحو سبها الآن، وقبل أن نقترب منها نرى ما أتذكَّره جيِّدًا: الكثبان الرملية الوردية الزاهية التي جلبتها رياح الحمادة الحمراء، حيث تغمر سهولها الصخرية الحمراء. لقد انجرفت هذه الكثبان الرملية المبهرجة فوق الصخور السُّود المُسنَّنة لتلك لوحوش البعيدة في جبل السودا.

لبضعة أيام نتأثَّرُ بذلك الجوِّ الذي يخنق سبها. لقد سافَرَت ماريان إلى طرابلس، لكن رجال مجموعتنا موجودون هنا لمناقشة النتائج التي توصَّلوا إليها في غات وأوباري مع مسؤولين من فزَّان. إنها القصة نفسها دائمًا. الواحات تتعرَّض للموت البطيء بسبب انعدام نشاط الشباب الذكور. وإن كان لا بُدَّ من إصلاح الأمور؛ فلا يجب فقط بدء النشاط الزراعي والمشاريع الأخرى، ولكن يجب إعادة القوى البشرية إلى موطنها الأصلي، وتمكين الشباب في الواحات من حياة أفضل.

«هل يمكن هذا؟» اهتزَّت رؤوس المسؤولين المحليين نفيًا للإمكانية: «لن يعود الشباب!»، وإذا لم يعودوا؟ حسنًا، مع مرور الوقت تموت الواحات.

من سَبها وصلنا إلى الوشكة، حيث نشرب مرَّةً أخرى بفرحٍ شيئًا من المياه العذبة الباردة وغير المالحة. ثم نعبر جبل السودا الشرير، الذي يبدو كما لو أنه مغطًّى بشظايا متناثرة من النفايات وقطع الفولاذ التي نزلت من السماء، وهي مراحل الرحلة الأكثر شراسة، وكلها سودمتلألئة الزوايا. ثم ندخل هون ونشتري بعض التمر لأخذه إلى طرابلس، لكننا لا نقضي الليل فيها. بدلًا من ذلك نسارع إلى قضاء الليلة الأخيرة من الرحلة حيث قضينا الليلة الأولى...

طوال طريق العودة، عَدَدْنا الأيام إلى موعد بدء شهر رمضان، وفي الليالي المظلمة الأخيرة، بحثنا في السماء المظلمة عن أي ظهور لهلال جديد. كان من غير المُجدي أن يُذَكِّرنا هاري بأن مواعيد ظهور الهلال مكتوبة بدقَّة في التقويم: لم يكن لدينا تقويم، وعلى أي حال، لا يحب المسلمُ الملتزم أن يتحدَّى قدرة الله من خلال التنبُّؤ بتاريخٍ غير قابل للتغيير.

بعد حلول الظلام، عدنا مرَّةً أخرى إلى مصراتة. ونحن على بُعد ساعات قليلة من طرابلس، نُدرِك أن الرحلة قد نجحت كما خطَّطنا لها، وسنكون في المدينة مع بداية شهر رمضان. وتأكَّد كلٌّ من أحمد وبدر الدين وأسعد من إمام مسجد مصراتة أن الهلال الجديد للشهر القمري الإسلامي التاسع قد شوهِدَ الليلة في زليتن، وأن المدفع أعلن عن ذلك مع غروب الشمس، وأن غدًا مع شروق الشمس سيبدأ جميع المسلمين صيامهم.

لكن رمضان هو وقت الصوم والاحتفال كذلك، بقدر ما هو وقت للتعبُّد والصلاة. إنه الوقت الذي يجمعُ كل العالم الإسلامي؛ ما ينتج عنه استبعادُ كلِّ غير المؤمنين. لهذا السبب؛ هناك شعور بالحنين بيننا الليلة، ومسحة من الكآبة؛ لأننا جميعًا ندرك أن أخوَّتَنا ستنقسم قريبًا.

نجلس بهدوء في ردهة الفندق الصغيرة البائسة في انتظار إعداد العشاء، وأفكِّر بحزنٍ أنَّ هذه هي ليلتنا الأخيرة، لكن في الوقت نفسه أفكِّر باعتزازٍ في الاستحمام الرائع الطويل والساخن الذي سأحصل عليه حينما أصل إلى البيت. أنا وهاري وغاري نشرب الويسكي،

بينما يتناول أحمد وبدر الدين وأسعد أكوابًا صغيرة من الشاي الليبي الحلو.

فجأة، في هذا المشهد الهادئ، يسرع نحونا رجلٌ أوروبيٌّ ضئيل الجسم ونحيف الوجه، يبدو عليه التوتُّر وهو يرتدي سترة البوش الخفيفة. يُحيِّي هاري كصديقٍ قديم غاب عنه فترة طويلة، ويردُّ هاري التحية بحماسٍ مُماثِل. أفهم على الفور أن الرجل الصغير ربما يمارس مهنة هاري أو شيئًا قريبًا منها، ربما في عِلم النبات أو البيئة أو الهندسة الزراعية أو الزراعة، أو في مجال الغابات، لأن حماسَ هاري عادة ما يكون علميًّا أكثر منه اجتماعيًّا.

تَبيَّن أن الوافد الجديد هو السيد راجكوڤسكي، وهو بولنديٌّ بالولادة، قاتَلَ مع القوات البولندية الحرة في الصحراء، وبعد الحرب أصبح من الرعايا البريطانيين. وأخبرنا أنه الآن في ليبيا لدراسة القوانين المتعلِّقة بالأراضي القَبَلِيَّة، في منحةِ بحثٍ جغرافية صغيرة من جامعة دورهام البريطانية. لديه دكتوراه في العلوم، وهوايته علم النبات، وسعادته الكبرى في الحياة عملُ رسوماتٍ صغيرة للزهور البرية التي يجمعها في رحلاته. وهكذا يرينا دفتر ملاحظاته المليء بالعديد من الأزهار الدقيقة المرسومة بمَحبَّة، وعيِّنات من النباتات الهَشَّة الصحراوية التي قاوَمَت ونجت في تَحدٍّ شجاع للمناخ القاسي. وأثناء ذلك يرنو بحبٍّ إلى مخزنه الصغير من الرسومات الجميلة.

لكن ليست الرسومات هي التي تُسعِد رفاقنا الليبيين، وإنما حقيقة أن السيد راجكوڤسكي يتحدَّث إليهم بالعربية بجودةٍ ممتازة ودقيقة، وطلاقة تجعلهم يصيحون بفرح ويثنون عليه بحماس باعتباره مستعربًا حقيقيًّا. سُرَّ بمديحهم، وسرعان ما أَسَرَّ لنا بخطته المتفائلة للسفر إلى الكُفرة، واحة الصحراء الشهيرة في جنوب شرق الصحراء الليبية، التي سيسافر إليها حصريًّا على ظهور الإبل، برُفقَة دليلٍ بدويٍّ. ويتوقَّع أن يجمع عيِّنات نباتية في الطريق، ويعيش بطريقة بدوية وبما تفرضه الصحراء من تقشُّف. ويؤكِّد لنا أن تجاربه مع

القوات المقاتلة في الصحراء خلال الحرب قد هيَّأته للقيام برحلة من هذا النوع.

يبدو أن أصدقاءنا الليبيين قَلِقون تمامًا مثلنا أنا وهاري حينما سمعنا عن خُطَّته. فحياتُهم كأبناء مدينة بعيدة كل البُعد عن حياة بدو الصحراء كما هي حياتي وهاري. لكن من الواضح أن السيد راجكوڤسكي مسرور بخُطَّة رحلة الإبل! يقول إنه لا يملك المال اللازم لاستخدام مركَبةٍ صحراوية، ولكن حتى لو كان لديه ذلك، فإنه لا يزال يُفضِّل السفر على ظهر الجَمل، والذي يُعَدُّ من خلال بُطئِه الشديد أفضلَ طريقةٍ لدراسة كلٍّ من النباتات والكائنات الحية، سواء كانت بشرية أو غير ذلك.

رأيت أن السيد راجكوڤسكي راضٍ تمامًا عن خطته لرحلة استكشافية على وَقْع سرعة الجِمال، وطوال العشاء الذي تناوله معنا جرى الحديث بالعربية والإنكليزية. كان وجهه الصغير غير الجذَّاب يتألَّق بالذكاء والاهتمام بمشروعه. فهنا رجلٌ يتعلَّق جوهر حياته بالوحدة، وقد مرَّت معظم أيامه بلا شكٍّ في عُزلَة، ومع ذلك وجد صحبةً هذه الليلة.

هذه القصة لها تكملة. فبعد أشهر قمنا برحلة جميعًا معًا مرَّةً أخرى في صحراء فزَّان. وعند الاستماع إلى قصة أحد الأدِلَّة البدو عن ماَسي الصحراء، عَلِمنا أنه تمَّ العثور على جُثَّةٍ في الامتداد الصحراوي الهائل المعروف باسم بحر ربيانة الرملي، والذي يشتهر بأنه أقسى عقبةٍ على الطريق بين سَبها والكفرة. في وقت العثور على الجثَّة، لم يكن من السهل التعرُّف عليها، على الرغم من أنه بعد التحقيق تمَّ التعرُّف عليها من خلال كتاب من رسومات الزهور مرميٍّ بجوارها. لكن قبل هذا الاكتشاف بوقت قصير، وصل بدويٌّ كان يسافر مع السيد راجكوڤسكي كمرشد إلى الكفرة، وأبلغ أن رفيقه قد مات من العطش في منطقة الهروج. هكذا، وبهذه البساطة: مات من العطش.

ربما كان هناك تلاعُبٌ خبيث في الأمر، وربما لا. فما يمكن أن يعايشه ويتحمَّله البدوي، المولود والمترعرع في الصحراء، قد يعني بسهولةٍ الموتَ لصاحب بشرةٍ بيضاء من شمال أوروبا. وفترة عمرٍ واحدة لا تجعل -بالضرورة- الجِسمَ يتكيَّف مع ظروف الصحراء، بل يتطلَّب التأقلمُ مع الظروف الجديدة أجيالًا عدَّة. ربما أصبح البولنديُّ الضئيل الحجم ضعيفًا جدًّا من العطش، بينما لم يتمكَّن العَطشُ من البدوي إلَّا بعد زمن طويل. في النهاية تفوَّق التَّحمُّل الجسدي.

لأولئك الذين يعرفون الصحراء: فالقصة التي رواها البدوي ليست غريبةً ولا غامضة، لكنها حكاية مألوفة تُروى مرَّةً أخرى عن الأجنبي الذي يتحدَّى امتدادات الصحراء. وهكذا، حتى النهاية، كان السيد راجكوڤسكي رجلًا ضئيلًا ووحيدًا.

وموتٌ من هذا النوع سيختبره أكثر من مرة أيُّ شخص يعبر الصحراء ولديه خيالٌ**.

نحبُّ دائمًا أن نسمع حكايات عن الآبار العجائبية في الصحراء، والواحات الرائعة التي تُغذِّيها الينابيع، وتلك الثقوب المائية التي يمكن أن يعثر عليها كلُّ صحراويٍّ حقيقي، أو حتى جرذ أو بعير أو إنسان. لكننا -نحن المسافرين- لا نُشجِّع قصص الأعوام التي جفَّت فيها الآبار المعجزة، حينما أصبحت الواحات الخضراء ذات يوم مُحتَرِقةً وقاحلة لا تتغذَّى بالينابيع، وحينما تكون فجوات المياه جافَّةً بالكامل، ومجرَّدَ طينٍ يابس مُحاطٍ بعظام بيض. ومع ذلك فهذه هي السنوات المعتادة. بينما الحقيقة هي أن هذه المصادر المذهلة للمياه الصالحة للشرب الموجودة في مساحات شاسعة من هذا الجفاف الصحراوي تبدو مثل معجزة، وهذا ما هي عليه فعلًا؛ فالمعجزات لا تحدث في كل موسم.

والآن انتهت الرحلة. لقد ذهبنا جميعًا لرؤية الصحراء الليبية: ليبيِّين وأجانبَ معًا، وكلهم مشاهِدون متساوون هناك، ولديهم هدف مشترك يتعلَّق بالصحراء. ولكن أكثر من الصحراء، وجدنا في مساحاتها المقفرة تلك شيئًا لا يُنسى ولم نفكِّر فيه: فترة من الرفقة

الكاملة والمثالية الخالية من العيوب، بغَضِّ النظر عن الدين أو الجنسية أو العِرق. هذا صحيح بالنسبة لي ولهاري، وأنا أعلم أن هذه هي نوعية العلاقة الذي يجب أن تسود بيننا جميعًا. ففي الصحراء، توصَّلنا بسرعة إلى قبول هذه الرفقة المعجزة، ونأخذها كأمرٍ مسلَّمٍ به.

لكن هنا، الليلةَ، في فندق بقرية صغيرة في ضواحي طرابلس، ومع اقتراب رمضان الذي سيقسِّم مجموعتنا إلى نصفين مرة أخرى- أصبحنا مدركين تمامًا لنوعية هذه العلاقة الهَشَّة المحفوفة بالمخاطر، والثمينة أيضًا. فجأة صِرنا نخشى أن تُفلِت منَّا هذه الأواصر التي كوَّنَّاها. وللأسف، رأينا أن الحياة قد لا تكون على هذا النحو مرَّةً أخرى.

في اليوم التالي خارج ڤيلَّتنا في جورجمبوبلي، في وهَج الشمس وبرودة البحر، يرحِّب محمدٌ بقدومنا بصيحات رُعبٍ من حالتنا وأشكالنا المغطَّاة بالرمال، وكذلك بنوع من الحسد الخَفيِّ لرحلتنا. يخبرنا بوجود كومة كبيرة من البريد بالداخل. الآن نعود إلى عالَمِنا بالفعل. غاري وأسعد يقولان: «السلام عليكم»، و«أديوس»، ويتوجَّهان إلى بيتَيْهما. وأحمد يُسرع إلى بيته للاستحمام. بينما هاري حريص على الدخول وتفقُّد نباتاته. أنا وبدر الدين فقط حزينان وغير راغِبَيْن في إنهاء الرحلة.

يتذكَّر بدر الدين: «باللغة العربية صهارى دِزَرت تعني الصحراء، فهل تعتقد يا أبي أننا سنذهب مرة أخرى إن شاء الله؟».

« إن شاء الله! إن شاء الله! « يقول هاري.

مَن يستطيع أن يقول أكثر من هذا؟

---

* في الإنكليزية عادة ما تُسمَّى الصحراء بـ Sahara Desert، وبما أن «دِزَرت» وحدها تعني الصحراء؛ فمن هنا يقع الخلط، فكأن الجملة تعني صحراء الصحراء. المترجم.

** في 25 يونيو 1965 أذيع خبرٌ عن موت خمسة رحَّالة ألمان من العطش وضربة الشمس على الحدود الصحراوية الليبية المصرية بينما كانوا في طريقهم إلى سيناء.

19. نساء ماريان الصغيرات

«وحدهُ مَن يفهم، هو الذي يشعر بالحزن»

(مثل عربي)

كنتُ قد أجَّلتُ وضع نهاية لهذه القصة في انتظار أن يخفَّ ما أشعر به من سخط. لكن الوقت لا يسمح بالتأجيل.

في إحدى الأمسيات الإفريقية الرائعة رنَّ هاتفنا في جورجمبوبلي. وسماعُ رنين الهاتف الذي نادرًا ما يعمل أصابني بصدمة، وازداد إحساسي بها عند سماع صوت ماريان الواضح والعذب، وهي تتحدَّث من طرابلس بدلًا من الصحراء.

«عزيزتي أغنس، أنا في غراند هوتيل ولديَّ حاجة مُلِحَّة لرؤيتك. وصلتُ لتوِّي من فزَّان. هناك شيء يقلقني، ويجب أن أتحدَّث إليكِ».

«ماريان! رائع أن نسمع منك! سآتي مباشرة وآخذك إلى البيت لتناول العشاء معنا!».

بعد عشرين دقيقة أخذناها أنا وهاري من بهو الفندق. اعتقدتُ أنها تبدو شاحبةً ونحيفة للغاية، لكن موسم القبليِّ في فزَّان ليس مفيدًا للصحة دائمًا. ومع ذلك، كانت مليئة بالحماس حينما عدنا إلى البيت، وشرَحَت لنا نجاحها في الخطط الخاصة بمعهد المعلمات الجديد الذي سيتم بناؤه في سبها، وهو أول معهد من نوعه في الصحراء الليبية.

أضافت بنبرة زهو: «تخيَّلَا فقط. لقد أعطانا زوج إحدى تلميذاتنا في المدرسة الليلية القديمة الأرض مجانًا، هدية قَطعيَّة دائمة، سنبني عليها معهد السيدة فاطمة! تَيَمُّنًا باسم الملكة، كما تعلمان. فقط تدبَّرَا فيما تعنيه هذه الهدية! كانت زوجة هذا الرجل تلميذتنا، وقد أحبَّ النتيجة، لدرجة أنه منحنا الأرض!».

«حسنًا، هذا واجبه يا ماريان بعدما رأيته من عملكِ هناك! لكن معهدك التدريبي أكثر طموحًا من فصولك الليلية، أليس كذلك؟ تقولين إنك تريدين فتاة واحدة من كل واحة مُهمَّة للدراسة في المعهد. وبعد ذلك ماذا تفعل تلك الفتاة؟».

«أوه، عزيزتي أغنس، هذا هو جوهر الفكرة. أن تعود الفتاة إلى واحتها، وهناك تبدأ مركزًا صغيرًا لتعليم فتيات قريتها ما درسته. هذا مهمٌّ جدًّا؛ فكل واحدة من تلميذاتنا في معهد السيدة فاطمة ستصبح هي نفسها نقطة محورية خاصة بها».

«ولكن هل يمكن ذلك؟ فليس بإمكان كل فتاة تعليم الآخرين وإثارة حماسهم».

«أعتقد أن باستطاعتهن النجاح لأن هدف معهدنا بسيط للغاية، وهذا أفضل ما في الأمر. نحن لا نحاول استبدال التقاليد والعادات العربية بالتقاليد والعادات الغربية. ولا نرغب في إدخال آلات لعملٍ يمكن أن تقوم به الأيدي. هدفنا الوحيد هو تعليم هؤلاء الشابات الصحراويات واستخدام المزيد من الموارد الطبيعية من حولهم. لقد كانوا دائمًا يعتمدون على هذه الموارد، وقد يظلُّون كذلك إلى الأبد. نحن نحاول فقط أن نُظهر الإمكانية الكامنة في هذه الموارد، وربما منحهم فكرة جديدة عنها. هؤلاء النساء الصحراويات رائعات للغاية، وشُجاعات للغاية، وفخورات للغاية، ولديهنَّ الحيلة الكافية، وأعلم أن بإمكانهن القيام بذلك».

«سيُبنى معهدنا مثل أي بيتٍ فزَّاني من الحجارة والطين. سيحتوي مطبخًا فزَّانيًّا مثل تلك الموجودة في منازل الفتيات. سنساعدهن على التعلُّم لإنتاج وجبات أفضل في البيئة نفسها المحيطة بهنَّ. هل تعرفين ماذا يأكلون في بيوتهم الآن؟ البازين والتمر، وأحيانًا القليل من المعكرونة! وأي تحسين في هذا النظام الغذائي سيساعدهم. وأي تغييرات تراها الفتيات في مطبخ معهدنا سيُمكِن أن يُطبِّقنها في بيوتهن. في معهدنا سوف نقبل كل ما تفرضه الصحراء من قيود، لكننا نعتزم أيضًا تحقيق أفضل الإمكانات».

«ماريان، لو لم أذهب معك بنفسي إلى منازل سبها الجديد تلك، لما قدَّرتُ أبدًا كيف يعيش هؤلاء الناس بدون أي ممتلكات!».

«نعم، هؤلاء الفتيات يأتين إلينا من بيوت غير مفروشة باستثناء الحصائر التي ينسجونها من سعف النخيل وبضع أوانٍ من الفخار والسِّلال المصنوعة في البيت. ستأتي فتياتنا من أفقر مستويات الحياة الليبية، وهذا هو المستوى الذي يجب عليهنَّ العودة إليه. وأي تحسين يمكنهم القيام به لأنفسهم يجب أن يكون بلا تكلفة، لكنه لن يُقدَّر بثمن بالنسبة لهم».

«بالتأكيد وعدَتكِ الوكالة الليبية للتنمية والاستقرار بالمال؟»*.

«نعم، هذا مؤكَّد. والآن يجب أن أسافر إلى جميع الواحات لاختيار طالباتي، ثم أقنع الآباء والأمهات بضرورة قدوم الفتيات إلى معهدنا في سَبها. سيكون هذا أصعب جزء من المهمة بالنسبة لي. نرغبُ البدء باثنتي عشرة فتاة فقط، لكنها دورة مُدَّتها سنتان، ويجب أن يُتممِنها. وهذا يعني أنه لن تكون هناك زوجات؛ إذ لن يَسمح أي رجلٍ لزوجته بالابتعاد عن البيت لفترة طويلة. ومع ذلك، يمكن أن تأتي المطلَّقات. حيث يوجد مُطلَّقات هناك لا تتجاوز أعمارهن أربعة عشر وخمسة عشر عامًا. وإذا كان للفتاة أطفال، يمكنها إحضارهم معها. نحتاج فعلًا إلى طفل واحد على الأقل في المدرسة؛ حتى تتدرَّب الطالبات عليه عند دراستهن لرعاية الأطفال».

«ماذا ستعلمِّينهن بالضبط؟».

أخرجت ماريان بسرعة منهاج القراءة والكتابة بالعربية، والخياطة، والحياكة، والغسيل، والتنظيف، والطبخ، والنظافة، والتمريض، والغزل والنسيج، وصناعة السلال، والفخار، والتطريز، والعناية بالطفل، وإعداد الصوف الخام للاستخدام، وحُسن السلوك والآداب في أفضل التقاليد الليبية.

نساء ماريان الصغيرات

«مَن سيدفع نفقات تشغيل المدرسة؟» سألتُها.

«الحكومة الليبية ستدفع. لكن حساب المصاريف السنوية مُنخفضٌ بشكل يبعث على السخرية، فقط حوالي 1500 دولار في السنة. لقد أبقيناها عند الحد الأدنى من أجل التأكُّد من أن المعهد يمكن أن يستمر حتى بعد توقُّف المساعدات الأجنبية».

«ماريان، أعتقد أنه أمر رائع! أنا سعيدة حقًّا. سيكون حلمًا يتحقَّق، وبالذات إن كان حلمك. لا أعتقد أن أي شخص -اليونسكو أو في الأمم المتحدة أو في ليبيا- سيعرفون أبدًا كم هم مدينون لك، باستثناء -ربما- نسائك الصغيرات».

«وأنا أحب نسائي الصغيرات! أكثر شيء أريده في العالم الآن هو رؤية معهد السيدة فاطمة يبدأ في العمل».

«سيبدأ. فالأسوأ قد مرَّ بالتأكيد. لديكِ الأرض، وقد تمَّ إعداد الخطط، وهناك وعدٌ بالمال. مَن الذي يمكن أن يتدخَّل؟».

قالت ماريان بانزعاج: «حسنًا، قد يفعل الناس ذلك. يمكن لمجلس فزَّان أن يتدخَّل. ويمكن لرجلٍ بعينه أن يفعل ذلك».

«ماذا تعنين؟ مَن الذي يطاردك؟ أهو ليبيٌّ؟».

ثم سمَّت لنا ماريان مسؤولًا ليبيًّا نافِذًا في ولاية فزَّان.

«لقد تَبِعني اليوم إلى طرابلس عن طريق الجو، كما أنه سجَّل وصوله في الغراند هوتيل أيضًا. منذ وصولنا كان يحاول تحديد موعد معي الليلة. ويقول إن ذلك 'لمراجعة خُطَط معهدنا مرة أخرى'. وهو عضو في مجلس الولاية. لكني أعرف ما يريد. لقد سبق أن أخبرته بالفعل ألَّا يأتي إلى بيتي في سبها. فحتى السماح له بالدخول إلى بيتي يمكن أن يُدمِّر سُمعَتي. يتظاهرُ دائمًا أنه يريد الحديث عن المعهد، لكنني أعرف سُمعَته، كما يعرفها الجميع. ببساطة، لا يمكن أن أتورَّط في أي فضيحة أو أي ثرثرة حول سلوكي؛ فهذا سيدمِّر مشروع المعهد، ولن يسمح الآباء لبناتهم بالمجيء أبدًا إذا كان هناك أيّ حديثٍ عني. هذا أحد أسباب مجيئي إلى طرابلس نهاية الأسبوع لمحاولة الابتعاد عنه لبضعة أيام. إنه رئيس مجلس الإدارة الذي له علاقة بالمدرسة، وقد كان مفيدًا للغاية. الآن يعتقد أنني مدينةٌ له بشكر خاص! وإذا ما كنتُ لطيفةً معه فسوف يدمِّرني ذلك، وإن لم أستجب له فلديه القدرة على تدمير المعهد. أنا خائفة وغاضبة، ولا أعرف ماذا أفعل».

«ألا تعتقدين أنه سيدعك وشأنك حينما لا يرى منكِ استجابة؟».

«أخشى ألَّا يكون الأمر كذلك. إنه معتاد على الحصول على ما يريد. وإذا لم يحصل عليه فسوف ينتقم. وأنا أريد ذلك المعهد كثيرًا!».

«لكن من المؤكَّد أنه لن يحاول إيقاف المعهد؟ فهو لمنفعة شعبه!».

«أوه، يا عزيزتي أغنس، أنتِ لا تفهمين هؤلاء الناس! هذا المعهد للنساء، والنساء ليس لهُنَّ قيمة عند معظم رجال الصحراء. أو بالأحرى، ينفعن لشيء واحد فقط! أوه، لا أعتقد حقًّا أنه سيحاول إيقاف المعهد، ولكن إن غضب مني أعلم أنه سيفعل شيئًا ما ليؤذيني، وأفضل طريقة هي من خلال المعهد. أفترض حتى إنه قد يطردني من ليبيا... أو قد لا يتمُّ تجديد عقدي».

نظرتُ إلى ماريان بذهول: كنت أعلم أنه من الممكن تمامًا أن يفعل ذلك بالضبط.

«ومتى ينتهي عقدك؟».

«هذا العام. لكنني وعدتُ الوكالة الليبية للتنمية والاستقرار بالبقاء لعامَيْن آخرين على الأقل؛ من أجل بدء العمل في المعهد. كان عليَّ أن أضمن لهم البقاء في ليبيا قبل أن يتعهَّدوا بتقديم المال. لقد كانوا خائفين من الوقوع في فخِّ استثمارٍ كبير في المبنى، ولا أحد هناك في سبها ليواصل رعاية البرنامج».

«بالتأكيد إذن، ستُدعِّمُكِ الوكالة، أو اليونسكو، حتى لو تسبَّب لك هذا 'الشريف' بالمشاكل».

قاطَعَنا هاري بحزم: «لا أحد يُدعِّم أي شخص في هذا السباق المحموم، يتعيَّن أن نكون محبوبين عند الناس هنا».

«لكن ماريان محبوبة أكثر من اللازم!» قلتُ.

وافَقَت ماريان: «هاري على حق، نحن جميعًا هنا بناءً على طلب الحكومة الليبية، ونبقى فقط وفقًا لرغبتها. يمكنهم وصفي غدًا بأنني 'شخصٌ غير مرغوب فيه' إذا رغبوا في ذلك، دون حتى إبداء أي سبب، وسأضطرُّ إلى المغادرة».

«واستياء 'الشريف' سببٌ أفضل ممَّا لديهم عادة» قال هاري متشائمًا.

قلتُ ساخطة: «لن يجعلوا امرأةً أخرى تفعل ما تقوم به ماريان من أجل نساء فزَّان».

أجابت ماريان بهدوء: «حسنًا، أنا أحبُّهنَّ؛ فَهُنَّ رائعات، مَرِحات، وجريئات. ومعظم الرجال خيِّرون أيضًا، أو على الأقل محايدون، لكن لا أحد يجرؤ على رفع إصبعه في وجه 'الشريف'!».

«فزَّان ليست مكانًا للنساء» قال هاري.

قالت ماريان بنبرة حزينة: «حينما أفكِّر في كيف أنني طوال هذه الأشهر العديدة التي قضيتها في فزَّان تجنَّبتُ تمامًا أي اتصال اجتماعي مع أيٍّ من الرجال في المجتمع الفرنسي، والأطباء، وضباط الجيش، ورجال المساعدة الفنية؛ فقط حتى لا يكون

هناك أي ثرثرة مُحتَمَلة عني، ولم أشعر بأي تحيُّز ضدِّي بسبب وجود أي صِلَةٍ لي مع الجالية الفرنسية! حتى إنني لم ألعب التنس مع رَجُلٍ قَطُّ!».

بعد أن انتهينا من العشاء، راجعنا أنا وهاري مع ماريان الخُطَط المدرسية المكتملة، وقد دُهِشتُ لحقيقة أنه بدعم من اليونسكو، كان بإمكانها توفير الدعم بأكمله لفكرة معهد تدريب المعلِّمات هذا، الذي سيكون فريدًا في الصحراء الليبية، وربما في الصحراء بأَسْرها. لقد تشكَّلَت فكرة إنشاء المعهد حينما لاحَظَت في فصولها الليلية في سبها الاستجابةَ السريعة والذكيَّة لنساء الصحراء لكل فرصة لجَعْل حياتهن أكثر نفعًا. الآن صار الحلم خُطَّةً تمَّ وضعها بالكامل على الورق، مدعومة بالأموال، مع وعد بالصيانة السنوية.

بدا لنا المعهد مثاليًّا؛ تمَّ تصميم المؤسَّسة بأكملها لتكون بداية صغيرة أفضل ممَّا قد تحصل عليه الفتيات في بيوتهن لرؤية إمكانيات تطبيق التحسينات في بيوتهنَّ لاحقًا، وصُمِّم المعهد بجدران عالية للخصوصية، حيث تضاء غرف النوم والمعيشة فقط بنوافذ عالية صغيرة، في حين أن فصول الدراسة بها نوافذ تُفتَح على فناء داخلي فقط؛ لإعطاء الضوء دون احتمال أن يتلصَّص من خلالها أي رجل. كان المطبخ يحتوي على فرن محلِّيٍّ نموذجيٍّ للطهي، وكان من المقرَّر زرع حديقة في فناء المطبخ.

حينما أعدنا ماريان إلى الفندق عند منتصف الليل تقريبًا، طلَبَت منَّا الصعود والانتظار في غرفتها لفترة من الوقت لنتأكَّد أن كل شيء على ما يرام. وحينما مَرَرنا عبر الردهة، سلَّمها موظف الاستقبال ملاحظةً تفيد بأَن الأفندي من فزَّان اتصل هاتفيًّا، وسوف يتَّصل بها

مرَّةً أخرى لاحقًا. كنَّا قد استقررنا للتَّوِّ في غرفة النوم حينما رنَّ جرس الهاتف. وكان «الشريف» بالطبع.

«لا، لا يمكننا مراجعة الخُطَط مرَّةً أخرى الليلة» سمعنا ماريان تقول بحزم. «لديَّ أصدقاء معي الآن: السيد والسيدة كيث... لا، بعد أن يغادِرَا سيكون الأوان قد فات. إنه منتصف الليل وأنا متعبة جدًّا، وسأخلد إلى الفراش قريبًا. من فضلك لا تتَّصِل بي مرة أخرى؛ لأنني سأكون نائمة».

استدارت ماريان بعد إغلاق الهاتف وبَدَت مُحبَطَة. قلت لها: «أعتقد أنه يجب عليك العودة معنا والنوم في بيتنا، لدينا أريكة مناسبة تمامًا في غرفة المعيشة».

نظرت ماريان نحوي باستياء: «افترضي أنَّني بقيتُ معكما الليلة... لا يزال هناك يوم الغد، والذي يليه، وكل الأيام التي تلي في سبها!».

لم يكن هناك ما يقال. كان لدينا جميعًا معرفة مُؤسِفة بأن الكلمة الأخيرة لا يمكن أن تكون لها.

في ذلك الصيف، سافَرتُ أنا وهاري إلى بيتنا في ڤيكتوريا، كندا. ومثل كلِّ مَن يذهب في إجازة إلى الوطن، في اللحظة التي قلنا فيها وداعًا لطرابلس وصرنا في الجوِّ، تركنا مشاكلنا الليبية وراءنا. لقد قضينا عطلةً مُريحةً في عالَمٍ بدا منفصلًا تمامًا، حيث الناس جميعًا هنا مشغولون بقضاياهم الخاصة، وليسوا مهتمِّين على الإطلاق بالمشاكل الليبية.

قبل وقت قصير من موعد عودتنا إلى ليبيا، وجدنا أنفسنا نفقد الاهتمام بجوِّ الإجازة حينما بدأنا نُخزِّن ملابسنا الثقيلة ونضع ملابسنا الصيفية في حقائبنا مرة أخرى، ولكن الأهم من ذلك كله كُنَّا نتساءل عمَّا يمكن أنه قد حدث في ليبيا أثناء غيابنا عنها. ومع وصولنا إلى مطار إدريس بطرابلس وجدنا أحمد وبدر الدين وسليمان في استقبالنا، وكنَّا متعطِّشَيْن لمعايشة المشاكل الليبية مرة أخرى.

كانت ماريان ومعهد السيدة فاطمة من اهتماماتي الأولى، التي انغمستُ في بداياتها. وعلى الفور تقريبًا وصلتني رسالة من ماريان تقول فيها إن المعهد موجودٌ الآن في شكله المادي، وأنه شبه جاهز تقريبًا لبدء الدراسة فيه. وأنها كانت مشغولةً طوال الصيف (درجات الحرارة 49 درجة في الظل، ولا يوجد ظلٌّ أصلًا) بالذهاب في سيارة لاند روفر إلى الواحات لاختيار طالباتها وإقناع آبائهنّ وأنها تعتقد أن لديها مجموعة واعدة. وكذلك من المتوقَّع وصول اثنين من المعلِّمات من مصر قريبًا. ومع ذلك، لديها الكثير من المخاوف في الوقت الحاضر. كانت تأمل فقط أن يسير كل شيء على ما يرام! ومع عِلمي بحماس ماريان الطبيعي الهائل، شعرتُ أن كل شيء لم يكن على ما يرام.

بعد بضعة أيام، تلقَّيتُ رسالة مُقلِقَة عنها تقول إنها ستسافر جوًّا إلى طرابلس لمناقشة مشاكل شخصية خطيرة مع اليونسكو والوكالة الليبية للتنمية والاستقرار.

«آمل ألَّا يكون ذلك الرجل مرَّةً أخرى!» قلت لهاري بقلق.

«لا أتمنى ذلك. إنه النسخة المحلية لصاحب اللحية الزرقاء**، لكنه أيضًا مسؤول كبير في فزَّان!».

بمجرد أن قابَلَتنا ماريان أخبرتنا بما كنَّا نخشاه. كان مجلس فزَّان قد أبلغ اليونسكو أنهم لم يعودوا يرغبون في الإبقاء على ماريان في البرنامج؛ فالمعهد استكمل بناؤه، وتمَّ اختيار الطالبات ووضع المنهج الدراسي، وستتولى الآن مُعلِّمتان شابَّتان من مصر الإدارة والتعليم.

«هل بإمكان المصريين القيام بالمَهمَّة يا ماريان؟».

«يمكنهم، إذا رغبوا! أسوأ شيء في المعلِّمات المصريات هو شعورهنَّ بالفَوقيَّة على فتيات الصحراء الصغيرات؛ ما يَجعَلكِ تعتقدين أنه ليس لديهم صحراء، ولا بَدوَ في مصر، وأنهم جميعًا من خرِّيجي الجامعات! لكن فتيات القاهرة اللواتي جئن للتَّوِّ إلى معهد السيدة

فاطمة اهتمامهن الرئيس هو الحفاظ على أظافرهن مَطليَّة، وعلى أحمر شفاهـهن».

قال هاري: «أعلم أنها خيبة أمل مُروِّعة لك يا ماريان، لكنَّكِ حقًّا أفضل حالًا خارج فزَّان، وخارج هذا البلد. لا مكان هنا لامرأةٍ شابَّةٍ لوحدها».

ردَّت ماريان: «لم أصدِّق ذلك من قبل، فلم أُعِر اهتمامًا أبدًا لما يقوله الناس. لطالما شعرتُ بالثقة من أنه إذا تصرَّف المرءُ بحذر حتى لا يكون هناك سوء فهم لسلوكه؛ فإن الرجال سيحترمون ذلك».

«هل أنتِ متأكِّدة من أن 'الشريف' وراء ذلك؟».

«وهل تشكِّين في ذلك؟ هو في حكومة ولاية فزَّان. الجانب المثير للسخرية هو أنني إذا قلتُ له نعم فقد دمَّرتُ المعهد. وحينما قلتُ لا طالني السوء!».

«ماذا تقول المنظَّمة التي تتبعينها؟ هل ستحارب من أجلك؟».

«تحارب من أجلي! سيقولون فقط: 'هل ترين؟ قلنا لك من قبل إن هذا المكان الصحراوي ليس مناسبًا لعمل شابَّة أوروبية! '، أو أنهم سيتَّخِذون موقفًا مزعجًا يجعلني أُصاب بالهستيريا بالقول إن الشابات غير المتزوِّجات غالبًا ما يتعرَّضن لمثل هذه المضايَقات! أفترض أنهم سيكلِّفونني ببعض المهام الغبية في بلدٍ غير عربي، حيث لن أتمكَّن من استخدام لغتي العربية العزيزة... ولكن حيث سأكون في مأمن من المطارَدة! وسأعيش في رفاهية نسبيَّةٍ، أَمقُتُها. أحبُّ فزَّان. كم أحبُّ فتياتي هناك. ربما كان عليَّ الاستجابة لمطاردة الشريف!».

«هل تعلم فتياتُكِ أن هناك مشكلة؟».

«بالطبع. الجميع هناك يعرفون كل شيء عن كل شخص، سواء كان ذلك صحيحًا أم خطأ؛ فالرمال لا تتوقف عن الهمس».

«وهل انقلَبَت الفتياتُ علَيكِ؟».

«ليس بعدُ، لكن ذلك سيحدث؛ ففي عالمهم، الرَّجُل دائمًا على حقٍّ. المخيف في الأمر أن كل ما فعلتُه للفتيات وللمعهد كان من صميم قلبي لأنني أحببتهنَّ، لكن من المحتمل أن ينتهي بهم الأمر إلى التفكير في أن ما فعلته مجرَّد خدعة واستعراض، وربما ليس جيدًا في النهاية!».

«حسنًا، لن يجدوا أبدًا في ذلك المكان فتاةً أخرى مثلكِ».

ردَّت بحزن: «إنهم لا يريدون أحدًا مثلي».

وبهذه الطريقة غادَرَت ماريان الصحراء التي أحبَّتها. بعد بضع سنوات، وجدتُها تعمل في موقع ممتاز للسفارة الألمانية، وتسكن في شقة فاخرة للسفارة، في عاصمة جميلة في الجزء الناطق بالفرنسية من العالم العربي. تعمل مستشارةً للشؤون العربية للسفارة، لكنها لا تتحدَّث العربية للعرب؛ لأنهم هناك يتحدَّثون الفرنسية فقط. ماريان «تعيش في رفاهية» حقيقيَّة، مقارنة بفزَّان، لكنها ستتخلَّى عن كل ذلك لتعود مع نسائها الصغيرات في الصحراء الليبية.

---

* LPDSA، في ذلك الوقت كان تمويل الوكالة الليبية للتنمية والاستقرار يتمُّ عن طريق الحكومة البريطانية وغيرها من حكومات الغرب.

** شخصية فولكلورية أوروبية في القرون الوسطى عن رجلٍ يتزوج امرأة بعد أخرى ويقتلهن. المترجم

20. الانتقال إلى بنغازي

صارت لدينا أزمة! حيث سننتقل إلى بنغازي، ونترك محمدًا وراءنا. فكيف يمكنه وهو الذَّكَر الوحيد في عائلته ووسيلتهم الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجي، وزوجته الشابَّة الآن حاملٌ بطفلهما الثاني، كيف يمكنه أن يترك أسرته التي لا حول لها، ويذهب مسافة ألف كيلومتر ليعيش معنا في العاصمة الإدارية الجديدة بنغازي؟ هذا الوضع ترَكَنا مكتئبين، لكنه كان ضروريًّا. الآن، كل يوم يظهرُ الاستياء على وجه محمد، الذي كان يُغالِبُ الدُّموع، وفي كل مرة يقول: «ماذا أفعل حينما تغادران؟».

أقول له: «لن تجد صعوبة في الحصول على وظيفة جيدة، أنا متأكِّدة من ذلك يا محمد». كنت أعلم ذلك بالرغم من التوصية الرائعة التي كتبتُها له، على الرغم من أن توصيتي بالَغَت في تقدير مواهبه العَمَليَّة في تدبير البيت وغسيل الملابس ومهاراته المختلفة، لكنني شعرتُ أن هذه الأمور قد عوَّضَتها شخصيته الحسنة وذكاؤه، الأمر الذي من شأنه أن يفاجئ صاحب العمل الجديد.

قال محمد بنبرة حزينة: «لا أريد أن كون صبيَّ منزل، أريد العيش معكما وأن أذهب إلى المدرسة مثل جورج».

«أعلم ذلك، وتمنيتُ لو تمكَّنتَ من البقاء معنا، لكن مَن الذي سيعتني بأسرتك؟ الآن من فضلك لا تبكِ يا محمد. يجب أن نذهب إلى بنغازي، ويجب أن تبقى أنت هنا».

«هلَّا حاوَلتِ تمكيني من العمل في بعثة منظَّمة الفاو هنا؟».

كنتُ أعلم أن عددًا من أعضاء بعثة منظمة الأغذية والزراعة التابعين لحكومة ولاية طرابلس، وليس للحكومة الفيدرالية، مثل هاري، سيبقون في طرابلس للعمل في الولاية. في تلك الليلة اقترحتُ على هاري أن يحاول الحصول على وظيفة مكتبية ما لمحمد. لكن هاري

لديه قناعاتٌ ثابتة حول مثل هذه الأمور، وقال إن محمَّدًا يجب أن يحصل على الوظيفة بإمكاناته الخاصة.

«نعم، بالطبع، لكنني أعتقد أنه إذا كتبتُ أنا أو أنتَ ملاحظةً صغيرةً فقط فستُضفي لمسةً شخصية، وستكون مزاياه أكثر وضوحًا ويحصل على مزيدٍ من الاهتمام؛ لذا سأكتب أنا. هل يناسبك هذا؟».

«أفترضُ ذلك».

لاختلافي قليلًا مع هاري في مسألة المبادئ، ولمعرفتي أن الدول العربية قائمة على مبادئ المحسوبية؛ فقد كتبتُ رسالة أخرى ممتازة لمحمد تشير إلى قدرته في اللغة الإنكليزية التي كان يتعلَّم الآن كتابتها، وإلى ذكائه السريع، واستعداده للتَّعلُّم، كما تشير إلى الفطنة والطموح عنده، وأن لديه رخصة قيادة. هذه الرسالة مُوجَّهة إلى صديق في منظمة الأغذية والزراعة لتقديمها له بعد مغادرتنا طرابلس.

تغييرُ مكان العاصمة في ليبيا مسألة كنَّا نعرف أنها قد تحدث؛ فدستور البلاد ينصُّ على ذلك؛ في محاولة لضمان العدالة للجميع، وربما الحصول على الولاءات، حيث ينصُّ صراحةً على وجود عاصمتين: طرابلس في ولاية طرابلس، وبنغازي في ولاية برقة. وعلى مدى العامَيْن الماضيين، كان مقرُّ الحكومة الفيدرالية في طرابلس، حيث يقيم غالبية السُّكَّان؛ وحان الوقت الآن لتحويل فوائد الازدهار للعاصمة بنغازي.

تمَّ تجاهُلُ حقيقة أن طرابلس لديها بالفعل مبانٍ إيطالية فعَّالة مُشيَّدة لإيواء الإدارات الحكومية، ويوجد بها عددٌ يتزايد بسرعة من الوحدات السكنية للعائلات. في حين أن بنغازي، لم تكن أكثر من بلدةٍ بدوية، لم يتمَّ تعويضها من قِبل احتلالٍ إيطالي طويل الأمد (حيث لم يتوقَّف سُكَّان بَرقَة عن القتال ضده أبدًا)، وأنها دُمِّرَت جزئيًّا بسبب قصفٍ طالها أثناء الحرب العالمية الثانية؛ وبالتالي لم يكن فيها الآن مبانٍ إدارية مناسبة، ولا سَكَن خاص للعائلات.

ومع ذلك، كان كلّ من الملك والدستور مُصمِّمين على ضرورة انتقال الحكومة، وكما أُشيرَ مرارًا وتكرارًا، قد يكون من الممكن تغيير الدستور، ولكن ليس إرادة الملك. فبالنسبة لجلالة الملك إدريس، رجل الدولة العصري والسياسي الفعَّال، والحاكم الخَيِّر الصالح مقارنةً بآخرين، كان لا يزال حاكمًا بذهنيَّةٍ شرق أوسطية.

كان الملك محظوظًا بوجود رئيس وزرائه السابق «بن حليم»، وهو رجلٌ صغير الحجم، بهيُّ الطَّلعة، وكأنه من شخصيات ألف ليلة وليلة مع زوجات صغيرات جميلات*، وعقل سياسي مُلهَم، على الرغم من كونه بَرقاويًّا، إلَّا أنه لم ينسَ أبدًا أن غالبية السُّكَّان يعيشون في طرابلس.

رئيس الوزراء الجديد، عبد المجيد كعبار، وهو طرابلسيٌّ، جاء إلى منصبه استنادًا إلى أمجاد والده، الذي قُتل على يد الإيطاليين كمقاومٍ، وأصبح بذلك شهيدًا وطنيًّا. كان كعبار نفسه رئيسًا لمجلس النُّوَّاب في عهد بن حليم، وكان سياسيًّا متيقظًا ومحُنَّكًا، وهي سمات ضرورية في الحكومة الفيدرالية التي كانت سياساتها متغيِّرة دائمًا، إن لم تكن مُلغاةً، من قِبَل الحكومات الإقليمية المسيطرة بشكل مُفرِط**.

لم تحظَ خطوة النقل إلى بنغازي بشعبية مُطلَقًا، وكل مَن التقيتُ بهم، سواء ليبيِّين أو أجانب، لم يُبدوا ارتياحًا للفكرة. معظم الوزراء الليبيين يحوزون الآن منازل جيدة في طرابلس، وكان يتمُّ إيواء موظَّفي الحكومة الليبية الأقل درجة بإيجارات منخفضة للغاية، حيث يعيش ثلاثة وأربعة أجيال من العائلة نفسها تحت سقف واحد. كان من المستحيل ماليًّا على هذه العائلات الاحتفاظ بأماكن سكنٍ منفصلة، ويتوقَّع صاحب الوظيفة أن يضطر إلى ترك عائلته في طرابلس إن احتفظ بوظيفته في الحكومة في بنغازي. لكن سيتخلَّى الكثير منهم عن وظائفهم عِوَضًا عن الانتقال إلى بنغازي.

بالنسبة للأجانب، فقد أقام معظمنا خارج المدينة فيما أسماه هاري «الغيتو الأميركي في جورجمبوبلي»، والذي تمَّ تطويره

خصيصًا لتلبية الطلب الأجنبي على المساكن خارج المدينة، مع المياه الجارية والصرف الصحي وحديقة صغيرة، وكان استمرارها كضاحيةٍ يعتمد على قُدرَة السُّكَّان على دفع إيجارٍ مرتفع نسبيًّا، وهو مؤهِّل يجعل المنطقة مقصورة على سكن الأجانب. بعد بضع سنوات، مع وصول الازدهار النفطي وزيادة الرواتب الحكومية وبدل الإيجارات التي تدفعها الحكومة لموظَّفيها؛ انتقل الليبيون في موجاتٍ مُتعاقِبَة إلى جورجمبوبلي؛ وبالتالي كذَّبوا فكرة أنهم لا يقدرون على الاستمتاع بحياة أكثر رفاهية.

فجأة، وعند التفكير في الانتقال إلى بنغازي، ففي جورجمبوبلي التي اشتكينا منها في الماضي بسبب نقص خدمة جمع القمامة، وعدم وجود طرق مُعبَّدة، وعدم توفُّر إمدادات مياه المدينة، وانقطاع الكهرباء، وانقطاع الهاتف، وعدم تسليم البريد- بدأنا نحسب من جديد ما نحظى به من امتيازات، ونحزن على فقدها. الخسارة الوشيكة جعلتنا نعبِّرُ عن حبنا الأبدي لغيتو جورجمبوبلي القديم الغالي. كل ما كان بإمكاننا فعله هو أن نأمل في سقوط الحكومة الحالية، وعودة بن حليم إلى السُّلطة مع التركيز على ناخِبي طرابلس مرة أخرى!***

جدار بمدينة سوكنة

في هذه الأثناء، كانت هناك شائعة تدور عن مُخطّطٍ بَدَا في ذلك الوقت وكأنه حلم غريب وشاذٌّ: كان من المقرر بناء عاصمة جديدة ثالثة في البيضاء في الجبل الأخضر ببرقة. والبيضاء، في هذا الوقت، كانت مجرَّدَ بلدة صغيرة وغير مُهِمَّة في نظر أي أجنبي عابر، وهي كذلك مكان لضريح صحابي إسلامي شهير، وليست مدينةً حقيقيَّة. لكن لا يهم، كان من المقرر أن تُبنى البيضاء، حجرًا فوق حجر؛ لتصبح عاصمةً كبيرة بتكلفة مئات الآلاف من الجنيهات، ولكن من أين؟ ستكون من أموال المساعدات الخارجية! وقد قلنا آنذاك إنهم يحلمون! ****

خلال ذلك الصيف الأخير في طرابلس زارنا جورج لقضاء إجازته معنا، ولكي يلتقي بغيره من الشباب؛ لأن طرابلس كانت مكانًا مُفضَّلًا لقضاء العطلات للشباب الأميركيين والبريطانيين الذين كان آباؤهم يعملون هنا، فقد خطَّطنا لحفل سباحة وغداء في نادي الغوص، بما في ذلك للفتيات. وفي اليوم الذي كان من المقرَّر أن تقام فيه الحفلة، ألقى شخص ما قنبلة على حديقة السفير الأميركي؛ لسبب لا أعرفه بعد ذلك، وبناءً على طلب السفير؛ تمَّ إلغاء جميع التجمعات الاجتماعية للشباب الأجانب.

في ذلك الوقت، أصبح جورج و»دون» صديقَيْن، «دون» الذي كان أيضًا في الثامنة عشرة من عمره، ويقضي عطلة هنا من إنكلترا. ووجد الشابَّان تَفاهُمًا مُشترَكًا؛ ربما لأن كليهما له أبٌ إنكليزيٌّ وأمٌّ غير ذلك، وهو مزيج شجَّع على عدم المطابقة عند كليهما.

سرعان ما استأنف جورج ومحمد علاقتهما الحميمة هذا الصيف. ولكن بعد حادثة التفجير، أصبح من غير المستحسن أن يذهب الشباب الغربيون إلى الأماكن العامة حيث يتجمَّع الشباب الليبيون، وكذلك لم يكن مُرَحَّبًا بالليبيين في النوادي الغربية. لم يكن الخوف من قنبلة أخرى فحسب، وإنما كان من الغضب السريع لدى الشباب الذي قد ينتهي بما لا يُحمَد عقباه، وهكذا طُلِبَ من أولادنا البقاء في البيوت.

لم يستطع محمد -الذي كان قلبه مليئًا بالنوايا الحسنة والمودَّة تجاه الجميع تقريبًا، وخاصَّةً «الأخ جورج»- أن يتخيَّل حدوث أي مشكلة من هذا القبيل. لقد تردَّدتُ أنا وهاري في إبلاغه بحقيقة التهديد الغامض، وأخبَرْنا جورج ألَّا يتجوَّل في الشارع أو الشاطئ مع محمد؛ لذلك لم نأسف حينما وضع «دون» وجورج خطَّةً للسفر معًا بثمنٍ بَخسٍ إلى أوروبا، تستمرُّ حتى عودة «دون» إلى إنكلترا للدراسة. كان على جورج حينها أن يقابلنا في بنغازي، حيث كنَّا نأمل في ذلك الوقت أن يكون لدينا بيت، وأن يبقى معنا لمدة عام بينما يكمل خلاله الفصل الدراسي الأخير في المدرسة الثانوية عن طريق المراسلة.

خطَّة السفر الأوروبية هذه كانت بمثابة ضربة كبيرة لمحمد، الذي كان يتوق للذهاب أيضًا. وشعرتُ بالذنب لأن ابننا كان يتمتَّع بعدَّة وجوه من الحرية، إحداها تمَّ توفيرها له من خلال نقودنا، بينما لم يكن لدى محمد أيُّ حرية. كان من غير المجدي الحديث عن المساواة في عالَمٍ من التفاوُتات التي لا تنتهي.

كانت الحكومة الآن في بنغازي بصورة رسمية. وفي طرابلس قيل إن الحكومة الاتحادية تعيش في حالة من الفوضى المنظَّمة. لكنها كانت موجودة في بنغازي في حالة فوضى غير منظمة. فإذا طلب شخصٌ ما ملفًّا لموضوع ما أعطِي ثلاثة أكواب من الشاي وكلمة طيبة. وإذا طلَب مقابلة وزيرٍ ما قيل له أن يذهب إلى طرابلس؛ فإذا ذهب إلى طرابلس يقال له إن الوزير موجودٌ في إيطاليا للعلاج؛ فقد أصيب العديد من الوزراء بالقُرحَة، وكانت القرحة بحاجة إلى هواء روماني للشفاء منها.

في هذه الأثناء، كان على مَن لم يكن مصابًا بالقرحة أن ينتقل إلى بنغازي، وكانت مَهمَّة الأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة هي تقديم المشورة للحكومة الليبية، وهذا الإجراء يتطلَّب مقاربة متبادَلة للمواضيع المختلفة، سواء أخذت الحكومة بالنصيحة أم لا.

ظلّ الاندفاع المحمومُ نحو توفير السكن على أشدِّه، فطوال ثلاثة أشهر كنَّا نتفاوض من طرابلس على تأجير بيتٍ في بنغازي. لم تكن البيوت موجودة بعد، لكن أصحاب العقارات الليبيين الموسِرين، منذ اللحظة التي يضعون فيها أول طوبة من الحجر الجيري الأبيض في موقع البناء، يقومون بتأجير بيوتهم التي لم تكتمل بعد مقابل مبالغ باهظة، تتراوح بين مائتين وثلاثمئة دولار شهريًّا للأجانب الذين يتنافسون مع بعضهم البعض لتوقيع عقد الإيجار. بحلول الوقت الذي اتفقنا فيه على دفع الإيجار -الذي اعتقدنا أنه مرتفعٌ للغاية- كان شخصٌ آخر قد دفع إيجارًا أعلى وبدأ في الانتقال. أخيرًا تمكَّنَّا من تثبيت تأجير أحد البيوت، ومن خلال التحرُك بسرعة وبشكل خَفيٍّ وَصَلنا إلى المبنى بينما لا يزال السور المحيط به في مرحلة البناء.

بيتنا يقع في ضاحية جديدة كانت مرعىً للماعز واستُخدِمَت لاحقًا كمكبٍّ للقمامة، والآن تحوَّلَت بين عشيَّةٍ وضُحاها من قِبَل الليبيين الحُذَّاق إلى ضاحية للأجانب. وأُطلِق على المكان غاردن سيتي، في منطقة الفويهات التي تقع على سهلٍ أرضيَّتُه من الحجر الجيري المتآكل تعلوه طبقة من تراب أحمر يرتفع نحو مترين في الهواء مع كل هبَّة ريح. لا أحد يمكن أن ينسى تراب بَرقَة الأحمر الذي يحوِّل الغسيل إلى اللون الأحمر!

أخيرًا، كان علينا أن نقول وداعًا لمحمد. خلال فترة من ارتباطي بالفتى الليبي، بدأتُ أتساءل عمَّا إذا كان كلُّ ما يريده محمد منَّا هو وظيفة سهلة بأجر ثابت. حسنًا، لقد أراد ذلك بالفعل -ومَن منَّا لا يرغب في ذلك؟ - لكن هذا لم يكن كلَّ شيء؛ فمع انتهاء أيامنا في طرابلس، رأيتُ شيئًا آخر فاجأني كثيرًا: كان محمد، الذي يعيش بالقرب من عائلته وأهله الأقربين، لا يزال وحيدًا بشكل مؤلِم.

لم يكن لديه أحدٌ سوايَ للتَّحدُّث معه حول الأشياء التي تهمُّه أكثر: حول شعوب الدول الغربية، سلوكهم وثقافتهم، الجيد منها والسيِّئ، وهذا الموضوع فتَنَهُ كثيرًا بعد أن أصبح على اتِّصالٍ بهم الآن في ليبيا بسبب تدفُّق الغربيِّين عليها. كان لدى محمد رغبةٌ

شديدةٌ للمعرفة، وقدرةٌ هائلة على التعلّم، ورغبة كبيرة في المناقشة. أكثر فأكثر، ومع اقتراب موعد رحيلنا، رأيتُ كم كان فتى وحيدًا، بالرغم من كونه ربَّ أُسرَة. أدركتُ أيضًا أن الوقت الذي يتبع فيه الشباب الليبيون التقاليد المرسومة لهم بدقَّةٍ قد ولَّى: إنهم يظلُّون ملتزمين ظاهريًّا بتلك التقاليد، لكنه ليس قبولًا لا جدالَ فيه.

في آخر يوم لنا في طرابلس طلبنا من محمد الانتظار في البيت حتى وصول المالك وإعطائه المفتاح. وحينما خرجنا من البيت للمرَّة الأخيرة، كان يقف عند الباب. لم يقُل وداعًا، بل تَبِعَنا إلى البوابة الحديدية العالية ووضع رأسه على ذراعيه واتَّكأ عليهما، وكان وجهه مخفيًّا. ووضعتُ يدي على رأسه أثناء مرورنا بجواره. ثم خرج هاري وركب سيارة اللاند روفر، بينما ركبتُ سيارة الفوكسهول الحمراء القديمة التي كنتُ سأقودها إلى بنغازي، وبدأنا المسير. نظرتُ إلى الوراء، لكنَّ وجهَ محمد لا يزال مخفيًّا، وهو يقف وحيدًا هناك. ومن بين كل ذكرياتي عن محمد، ظلَّ هذا المشهد معي دائمًا.

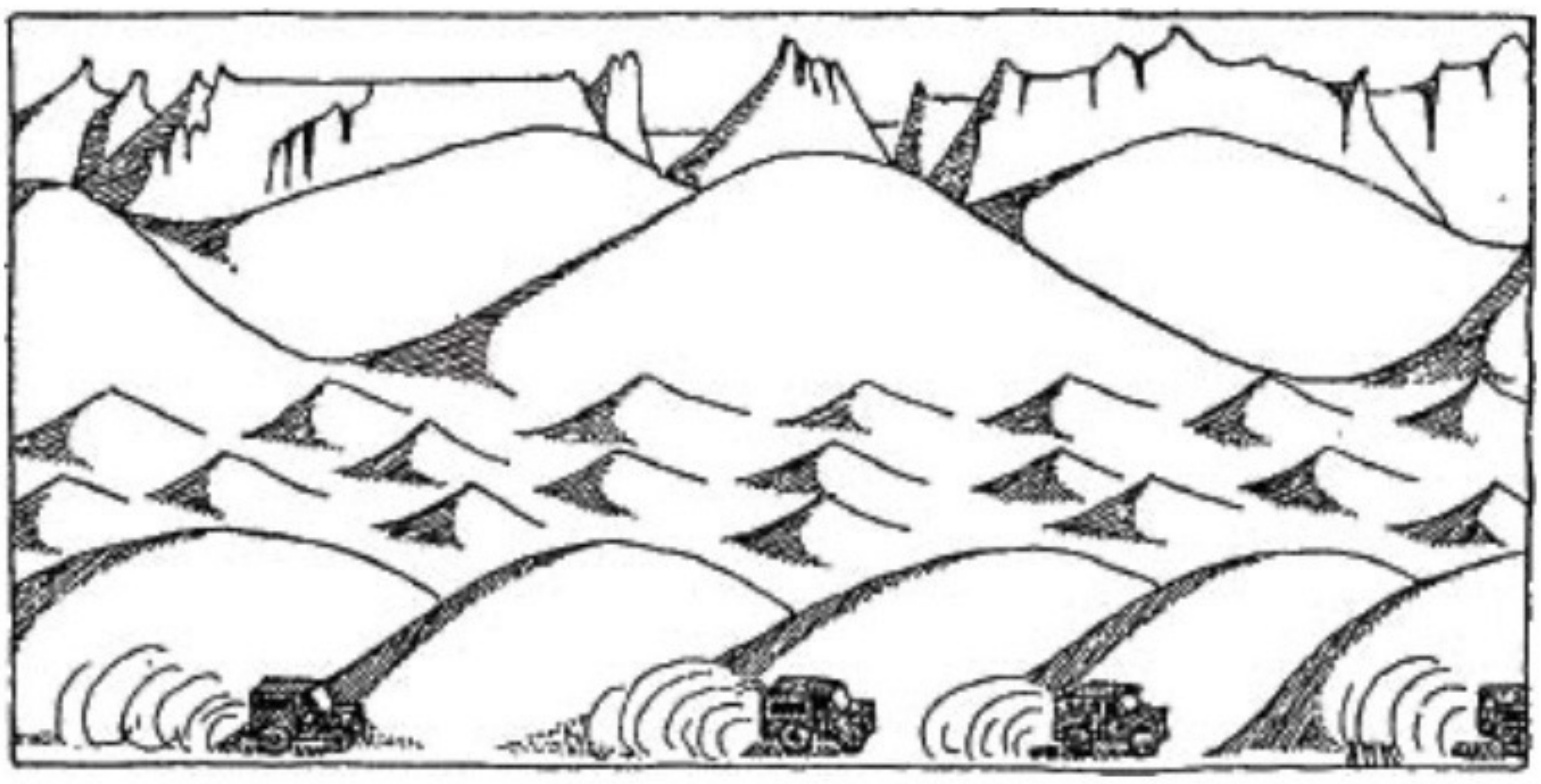

---

* يُظنُّ أن الكاتبة تتحدث عن شخصية بن حليم الساحرة والزوجات المتخيَّلات في الكتاب الشهير؛ فهو لم تكن له سوى زوجة واحدة. المترجم.

** كانت السنوات العشر الأولى من استقلال ليبيا معركة طويلة بين طموحات ونفوذ السُّلطتَيْن: الفيدرالية والإقليمية، إلى أن ألغى الملك في عام 1963 الحكومات الإقليمية في الولايات لصالح حكومةٍ مُوحَّدة.

*** تشير الكاتبة في مرَّاتٍ عديدة إلى فاعلية الناخبين وقدرتهم على تغيير السياسات، في الوقت الذي لم يكن الأمر هكذا على أرض الواقع؛ فالتجربة الديموقراطية حديثة العهد، فالقرارات والسياسات مرهونة بالسُّلطات الحاكمة فقط. المترجم.

**** لكنه حلمُ تَحقَّق عام 1964.

3

أَهلُ الله الفقراء

21. ازدهار المَكبِّ

أطلقنا عليها اسم المَكبِّ، وكرهنا الانتقال إليها، لكن عامنا الذي قضيناه في بنغازي كان من أسعد أعوام حياتنا؛ فهنا على تخوم الصحراء الليبية عشنا حياةً بسيطة ودافئة في البلدة البدوية القَبَليَّة الصغيرة، التي تُغطِّس قدميها العربيتين في ماري نوستروم، بينما تدكُّ رياح الصحراء الصفراء بابها الخلفي. وتبيَّن لنا أن انتقال العاصمة إليها كانت صفقةَ ترويجٍ عقاري من الدرجة الأولى، حيث تدفَّقَت إليها موجات ازدهار جاءت مع الأجانب، لتحطَّ في ذلك الجوِّ المحمَّل بالأتربة الحمراء وبالرمال.

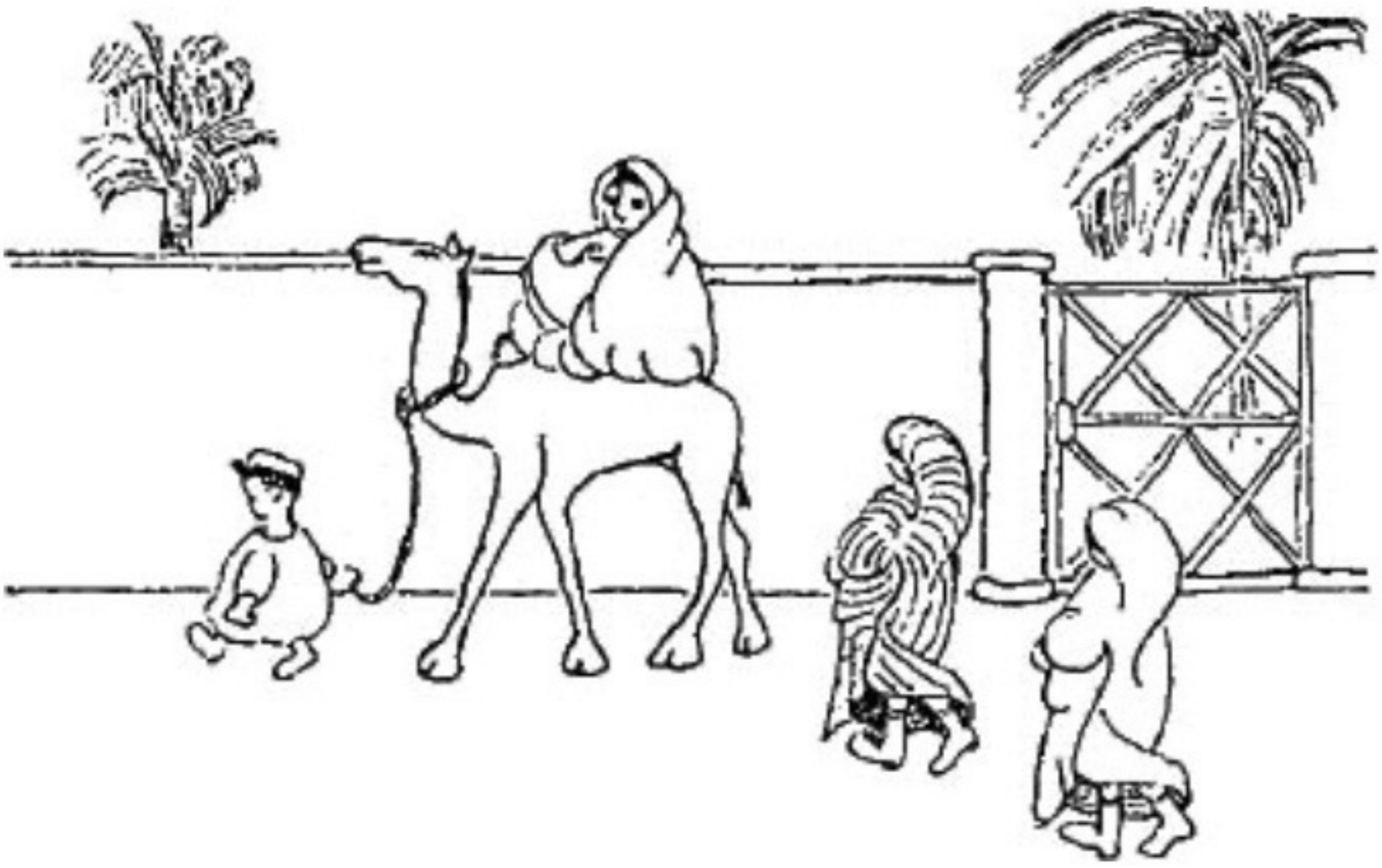

الحقيقة أنك تستلطفُ المكانَ مع مرور الوقت. وتحبُّ ما تبدو عليه البلدة من انهيار، كما تتأقلمُ مع ضراوتها، وحزنها، وجوهر تكوينها، ونسائها البدويات الموشومات، بأحذيتهن البرتقالية العالية التي تصل إلى الرُّكبتَيْن*، وبأرديتهن المخطَّطة بألوانها المبهرجة، ورجالها الجامحين، بثيابهم الرَّثَّة وأسلوبهم اللطيف في الحديث، وسوقها المغلق والخفي** وسهولها المالحة المتلألئة في الشمس، وتكتشف سهولة كسب أصدقاء فيها، وبساطتها المتزايدة في الحياة- كل ذلك

يستحوذ على قلبك كما لا تستطيع أيُّ مدينة كبيرة أن تفعله. وإذا كانت الحكومة في حالة ارتباك في بنغازي، فكذلك حال وكالات الإغاثة الدولية المختلفة التي كانت مَهمَّتها مرافقة الحكومة أينما ذهبت، وتقديم المشورة التي تقع غالبًا على آذان صمَّاء. حالة الارتباك الآن شاملة بسبب نقل العاصمة، لدرجة أنه حتى القناصل الغربيين المتحمِّسين بدأوا في السير على نهج الحكومة، والاكتفاء بتقديم الشاي والكعك، بدلًا من معاناة الإحباط الذهاني.

بعد فترة وجيزة من انتقالنا إلى بنغازي، ذهب جان ڤان دير بلويغ -رئيس بعثة منظمة الأغذية والزراعة، وهو منصبٌ دبلوماسيٌّ وحلقةُ وصلٍ بين خبراء الفاو والحكومة الليبية- في إجازة مرضية إلى هولندا، تاركًا هاري للعمل كرئيس للبعثة مكانَه. كما استمرَّ هاري في عمله كمستشار في مجال الغابات، لكنه كان مسؤولًا أيضًا عن مساعدة كلٍّ من الخبراء السبعة عشر في تنفيذ برامجهم الخاصة. باختصار، كان على هاري إقناع الحكومة بالمساعدة، بدلًا من إعاقة الخبير في تنفيذ العمل الذي كانت الحكومة قد طلَبَت من منظمة الفاو إرسال خبير للقيام به! هذا يبدو متناقضًا، وهو كذلك بالفعل.

لطالما قال هاري في الماضي إنه يفضِّل التعامل مع الغابات على التعامُل مع البشر. والآن حينما أخبرني أن وقته سيتعلَّق بالتعامل مع الناس أكثر من التعامل مع مهنته، قلت له: «لكن ليس لديك الصبر، أليس كذلك؟»، فردَّ بسخط: «ولِمَ لا؟».

أثبت هاري أنه على حق، وفي الحقيقة أذهلني ذلك؛ فقد طوَّر صبرًا رائعًا ومُثابَرةً في جميع تعامُلاته، وعلى الرغم من تعامُله الحكيم المعتاد فقد كان لديه تعاطُفُ هائل مع كافة أنواع البشر. في كل مرة يعود إلى البيت كان يُخبرني بقصةٍ عن شخص معيَّن ما يحتاج إلى شكل فريد من أشكال المساعدة- والتي كان يحصل عليها دائمًا. كان لهاري خبرةٌ واسعة في كل ما يتعلَّق بالزراعة والغابات، وعمل هذا لصالحه، حيث كان لخبراء الفاو في ليبيا علاقة بالزراعة والمنتجات الزراعية، والإنتاج الحيواني، وتسويق المنتجات، والتعاونيات

الزراعية، وأبحاث الغابات، والعمل البيطري، وصحَّة الحيوان، وإدارة المدابغ، والبستنة، وميكنة المزارع، والهندسة الزراعية، والمؤسسات الريفية، وأبحاث التربة، واستخدام المياه، ومصايد الأسماك. بالإضافة إلى ذلك، كان هاري يكتسب معرفة من الحدود إلى الحدود في ليبيا، لم تكن لدى سوى عددٍ قليل من الليبيين.

اسم بنغازي له معنى أكثر لمن يتذكَّرون تاريخها أو الذين قاتلوا مع أو ضدَّ حملات رومل الإفريقية في الحرب العالمية. بنغازي، التي أهلكتها الجيوش المنسحبة، وقصفتها الجيوش المتقدِّمة، ومزَّقها حُماتها إلى أشلاء، وتُرِكَت لتموت، ليستعيدها أصدقاؤها مرة أخرى، لكن بنغازي -بطريقةٍ ما- قاوَمَت ونجت، والله وحده يعلم كيف حدث ذلك.

بحلول نهاية عام 1942 تمَّ إنشاء إدارة عسكرية بريطانية في ليبيا. فبعد الحرب، تمَركَزَت القوات البريطانية النظامية مع عائلاتهم في بنغازي. حيث فجأة تمَّ تأجير كل غرفة أو شقة متاحة، وتمَّ تشييد عدد قليل منها؛ فكان أن تدفَّقَت أموال الجيش البريطاني على المتاجر، وبدأت القرية الصغيرة الجائعة تأكل مرَّةً أخرى وتبتسم. وعندها أصبح الجنود ذوو البشرة الوردية مع زوجاتهم الشقراوات وأطفالهم جزءًا من مشهد البلدة.

بعد عامين من تحوُّل ليبيا إلى مملكة مستقلة، وقَّعَت بريطانيا العظمى معها معاهدة تنص على دفع 11 مليون دولار سنويًّا إلى ليبيا مقابل الحق في الاحتفاظ بقواعد عسكرية هنا. والآن أصبح الزي العسكري البريطاني، الذي كانت أجزاء منه مُمزَّقة بالفعل، يرتديه معظم سُكَّان برقة الفقراء، وكان مشهدًا مقبولًا وغير مُستَهجَن في البلاد.

لكن الأزمة جاءت مع مشكلة قناة السويس عام 1956، حينما بدا أنَّ استخدام القوات البريطانيَّة من ليبيا ضدَّ مصر أمرٌ وارد الحدوث. لكن ليبيا رفضت الموافقة على خروج أي قوات عسكرية بريطانية من ليبيا لشَنِّ هجوم على الجارة العربية. ثم كان أن وافقت بريطانيا على

الرفض الليبي، وأصبح من الواضح حينها أن ليبيا لن يكون لها سوى القليل من القيمة لبريطانيا كقاعدةٍ لقوَّةٍ هجومية. في الوقت نفسه، قلَّلت الأسلحة الذَّرِّيَّة والصواريخ المُوجَّهة من القيمة الاستراتيجية لجميع القواعد الغربية في ليبيا. وفي الصيف التالي، سحَبَت بريطانيا معظم قواتها من بنغازي، وبحلول صيف عام 1958، حينما وصلنا إلى هناك، كانت قد أكمَلَت انسحابها، باستثناء مجموعات رمزية.

كانت الصفوف الصفر من الشُّقَق الشبيهة بالثكنات المحطَّمة والمُفكَّكة فارغة وبائسة، ولم يَعُد لدى خدم الضباط البريطانيين السابقين من الليبيين الذين اعتادوا قول «تشيريو» لكن الآن لم يعد هناك مَن يقولون له ذلك، ولم يَعُد لديهم أحدٌ يدفع لهم شهريًّا ما يعادل الثلاثين دولارًا، والتي تعيش عليها عائلات بأكملها. كان أصحاب المتاجر قد أغلقوا مخزونهم القليل من أزرار القمصان البريطانية المستوردة، وجوارب النايلون، والجوارب الصوفية، ومواقد الزيت، والبسكويت، ووضعوا مصاريعهم وغرقوا في النعاس خارجها. وهكذا إلى مشهد المدينة المحتضر هذا، انتقلت العاصمة.

في ضاحيتنا الخالية من الحدائق والزراعات في مدينة الحدائق، كان من المهم فقط أننا تحصَّلنا على بيت، حينما بدا لفترة من الوقت أننا سنضطر إلى نصبِ خيمة! وعلى الرغم من أن التاريخ يدَّعي أن الأشجار نَمَت هنا في العصر الروماني، إلا أن الأشجار، وكذلك الرومان، قد ولَّوا منذ فترة طويلة، تاركين الناجين الوحيدين من الأراضي القاحلة، والماعز والأغنام، والبدو. وقد اجتمعت هذه العناصر الثلاثة لتدمير واستهلاك وحرق كل غصن، وإعاقة النموِّ المحتَمَل لأي نباتات.

هنا حيث هبَّ النسيمُ عليلًا ونظيفًا من خلال أشجار الصنوبر القوية، التي ربطت جذورها بالأرض والحجر، وهَفَت أوراقها المرتعشة للمطر. لكن الآن، حينما تهبُّ ريح الجنوب نهارًا وليلًا، فإنها تأتي إلينا مُثقَلةً بذرَّات الحجر الجيري المتآكل والغبار الأصفر للأرض المحتضرة. ومع ذلك هذه ليست الصحراء الليبية. وإنما هي ليبيا

المهجورة التي لا تبعد إلّا ست كيلومترات من البحر! اليوم، هذا هو المشهد خارج سور حديقتنا، والذي لحُسن الحظِّ يبلغ ارتفاعه مترين. وثمة نشاط ملحوظ داخل «الحديقة»؛ فجورج، الذي سيقيم معنا هذا العام في بنغازي، عاد لتوِّه من أوروبا في الوقت المناسب لتقديم المساعدة.

«أبي... كم عمق الحُفَر التي تريدها؟».

«نصف متر على الأقل، وإلا فلن تضرب جذور الأشجار في الأرض».

«لكن هذه صخورٌ صلبة يا أبي!».

«هذا صحيح! إنه الحجر الجيري. سيتعيَّن عليك الحفر بقدر ما تستطيع، ثم ملء الثقوب بالماء وتركها طوال الليل. ثم حفر المزيد في اليوم التالي».

«كم عدد الشتلات قُلتَ؟».

«بدر الدين أرسَلَ لنا ثلاثمائة شتلة بالشاحنة».

يقف جورج وهاري صامِتَيْن ويتعرَّقان في الشمس، وهما يفكِّران في ثلاثمائة حفرة.

«أعتقد أن بيتنا سيكون الوحيد في مدينة الحدائق الذي يشتمل على حديقة!» قال جورج.

«داغر جونز لديه حديقة بها زهور الآن، لكن بعد عشرين عامًا من الآن سيكون لدينا غابة!».

«هذا إن لم تدخلها الماعز!».

أقف على ڤراندة بيتنا، وأتطلَّع إلى ما وراء سور الحديقة الحجري الرمادي، فأرى طريقًا متعرِّجًا وبعض البيوت المبنية بالطوب مثل بيتنا مُبَعثَرة وليست بأبعاد متساوية من الطريق، وبزوايا متنافِرَة، تنتصب هنا وهناك محاطةً برياح صفراء تهبّ دائمًا تقريبًا.

تمرُّ بنا الإبلُ بأحمالها الثقيلة التي تطلق صريرًا، كلّ ساعة تقريبًا، تطأ الأرض بحَذرٍ في اتِّزانٍ مع حركة أبدانها، وتدوس بأخفافها المفلطحة المبطَّنة بإيقاع منتظم على كلٍّ من الرمال والصخور. كانت تتجنَّب السير في الطريق وتمرُّ خارج بوابتنا مباشرة، فتظهر رؤوسها العالية وهي تتهادى بسَلاسَةٍ من فوق جدار الحديقة. أجسادها التي تتكيَّف مع أحوال الصحراء، وتجاهُلها لانعدام الراحة في التضاريس الوعرة التي تطؤها تستحقُّ تعبير الغطرسة البادي عليها.

الجِمالُ رائعةٌ، لكنني أحبُّ الحمير أكثر. وعلى عكس الجِمال، فهي تسير على الطريق، كأنها ترقص على قوائمها العالية، وحركاتها تبدو مثل سلسلة من الخطوات على كعبٍ عالٍ، وحركاتها العَجول وهي ترتَجف بحمولتها من الناس. إذا ما احتفظتُ بحيوانٍ أليف في هذا المكان، فلن يكون كلبَ السلوقي الإفريقي الشهير الذي يتحدَّث عنه هاري، ولا الغزلان الصغيرة الحزينة التي نرفض سجنها بعيدًا عن بيئتها، وإنما أريد حمارًا رماديًّا صغيرًا يسقط فجأة تحت حمولته الضخمة أمام بيتي. عندها سأخرج وأحمله إلى حديقتنا حيث سيعيش إلى الأبد على نظام غذائي من شوفان كويكر- بينما أقبع أنا في زنزانة بتُهمَة السرقة!

على فترات متباعدة تعبرُ أمامي مجموعات من البدويات ، وهُنَّ يتحرَّكن مُسرِعات على الطريق في مواجهة الريح الجافة، للوصول إلى خيامهن السوداء الممزَّقة. يظهرن ملفوفات جيدًا بأردية زاهية بخطوط صفر وزرق وذهبية تلتفُّ حول سيقانهن فوق حواف أحذية طويلة بألوانها القرمزية المشوبة بالأصفر، والتي عادة ما تكون أصليَّةً ومصنوعة خصيصًا لهُنَّ في سوق بنغازي. في بعض الأحيان، ينحسر الرداء الثقيل عن وجوه النساء، أو يتمُّ إزاحته عن قصد ليكشف عن بشرةٍ حنطيَّة، وعينينِ لهما بريق جامح، وملامح دقيقة لكنها تختفي تحت وشمٍ قَبَليٍّ داكن. في هذه الأثناء تتجوَّل الخراف بأعداد متباينَة، وإن كانت بوَّابتنا الخارجية وباب البيت مفتوحًا نجدها

تتجوَّل في مطبخنا، أمَّا الماعز الأقل نُبلًا ففي الواقع تهاجم البوابة بِنِيَّةٍ واضحة لشقِّ طريقها عُنوةً إلى الداخل.

المالك الليبي لڤيلتنا يقوم ببناء ڤيلا أخرى بالجوار. إنه يستخدم تشكيلةً من مواد البناء القديمة، والمستَهلَكة، ومن مواد السباكة والأنابيب المتآكِلة، تحت الوهم بأنه يُشيِّد بيتًا جديدًا. كما يوظِّف عُمَّالًا بائسي المظهر يرتدون الأسمال، ويبدو أنهم يعيشون فقط على الشاي والخبز. ومع ذلك، من المفترض أن يكونوا من بين المحظوظين القلائل هنا لأن لديهم عملًا ما؛ فالعمل يعني الأجر. أو هكذا افترضتُ، حتى أطلَعَنا عليٌّ على أسراره. وعليٌّ هو أحدُ العُمَّال، أو ربما رئيس العمال؛ لأنه يتحدث أكثر ممَّا يعمل. ويجيد العربية والإيطالية والإنكليزية التي تعَلَّمها أثناء عمله مع الجيش البريطاني في الصحراء.

بمجرد أن بدأنا في الانتقال، تعرَّف عَليٌّ على مادلينا -أو لينا كما نناديها- عبر سور الحديقة، وهي الشابة الإيطالية التي فاجأتني بموافقتها على مغادرة طرابلس والانتقال معنا إلى بنغازي. وتوفِّرُ لي نعمة التدبير المنزلي في بيتنا المضطرب، فتجعلنا نعتمد عليها، لدرجة أنني أخطِّط بالفعل لمعرفة ما إذا كان هناك أي احتمال لأخذها معنا إلى كندا لاحقًا. ونظرًا لأن لينا ليست مؤيِّدةً كثيرًا للعرب؛ فقد فوجِئتُ حينما وجدتها تستجيب بأدبٍ لمبادراته الودِّيَّة. وسرعان ما فهمتُ السبب: إنه يتحدث الإيطالية، ويحيط به جوٌّ من الثقة بالنفس والراحة (الله وحده يعلم السبب!) وهو دائم التأكيد على أن الله دائمًا معه. كما أن شخصيته على النقيض تمامًا من غيره من العمال، الذين يَبدون مستائين ومضطهدين، بلا سبب ظاهر. أمَّا عليٌّ، بهيئته المنتصبة والنحيلة وشخصيته المبتهجة، ووجهه اللامع المفعم بالحيوية- فيعبِّر عن البهجة بالحياة بغَضِّ النظر عن مدى سوء الظروف.

أثناء حديثهما من فوق سور البيت في ذلك اليوم، أخبرنا بأروع الابتسامات والضحكات، أنه لا هو ولا أي من العمَّال قد حصلوا على أجورهم لمدة أربعة أشهر.

«لماذا لا تتركون العمل معه، إذن؟» سألته. «هناك قدرٌ كبير من البناء الآن، ويمكنكم الحصول على عمل آخر مع مقاول غيره».

«نعم، لكن المقاول الليبي الآخر لا يدفع أجرًا أيضًا».

«لكن لماذا لا يدفعون؟ حينما يؤجِّرون لنا هذه البيوت، علينا أن ندفع!».

«ربما يحصل المقاولون الليبيون على المال في النهاية. لكن ليس لديهم المال عند البدء في البناء».

«لكنني سمعتُ أن صاحب البيت رجلٌ ثريٌّ من عائلة مهمة. وأخوه في البرلمان».

«نعم، هو رجلٌ مهم جدًّا، وثريٌّ جدًّا، لكن لا يوجد المال! الكثير من الأراضي، والكثير من الزوجات، والكثير من الأصدقاء، ولكن لا يوجد مال! هل يحصل على إيجار منكم الآن؟».

«ثلاثة أشهر مقدَّمًا، وندفع الإيجار كل شهر أيضًا!».

يقول مُفسِّرًا: «ربما سيدفع لنا بعض المال قريبًا».

«لكن كيف تعيش؟».

«ليست لديَّ مصاريف كثيرة. أنام هنا في البيت مع الخفير. وأعيش على تناوُل الخبز مع الشاي».

هذه الدردشة مع عليٍّ تُقدِّم لي لمحةً جديدة عن الثروة والفقر في برقة، والعلاقات بين المُلَّاك والعُمَّال.

في هذه الأثناء، هذا السهل الأحمر الشاسع في بَرقة، بغباره الأحمر المزعج، وشَعبِه العنيد الفخور بكرامته الممزَّقة، وخيامهم السوداء الممزَّقة، وبيوتهم البيضاء المشيَّدة من الحجر الجيري المخصَّصة لسكن الأجانب- قد بدأ يشغل تفكيري بالفعل.

---

* حذاء نسوي من الجلد المزخرف يصل إلى الركبتين، يُشدُّ حول الساق بأربطة جلدية، ترتديه النساء في شرق ليبيا، ويُسمَّى الرقعة.

المترجم.

** يشتهر باسم سوق الظلام؛ لأنه مسقوف بالكامل. المترجم.

المترجم.

** يشتهر باسم سوق الظلام؛ لأنه مسقوف بالكامل. المترجم.

22. فَعَلتها لتُغيظ

انطلق مُنبِّه سيارة الفاو بينما كان هاري يقف أمام بوَّابتنا.

«بسرعة سنيورة، السيارة هنا!» تصيحُ لينا.

«أسرِعي يا أمي! أبي ينتظر!» صاح جورج.

بوتشي

معروف عن هاري أنه لا يحبُّ الانتظار. وهو متوجِّه إلى مطار بنينا لركوب الطائرة إلى طرابلس، وكان يتوقَّف في بيتنا لفترة كافية لأخذ أمتِعَتِه وأنا ذاهبة برفقته. وانطلق بوق السيارة مرة أخرى.

أخرج جورج الحقيبة، وأمسكتُ بها، ثم التقطت المعطف والقُبَّعة من على السرير واندفعتُ عبر القاعة إلى غرفة المعيشة متوجِّهةً إلى الباب الأمامي. جميعُ أرضياتنا من بلاط السيراميك الإيطالي المصقول، وفي المنعطف الثاني، انزلقتُ بقوة على سجادتي البنغازية الصغيرة المفضَّلة لديَّ. استمرَّت السجادة ورجلاي في الاندفاع إلى الأمام، بينما اتَّجه جسدي إلى اليسار. ومع استمرار إمساك ذراعي بالأشياء، سقطتُ بقوة على الأرض مستندة على الكوع الأيسر وعظم الورك، ولا شيء يضاهي البلاط الإيطالي المصقول، لتحقيق سقوطٍ مريع.

لحُسن الحظِّ، كنتُ أرتدي سُترةً خَفيفةً من الجلد، وإلَّا كنتُ سأفقد ساعدي على الفور عند سقوطي؛ لأن الشيء الوحيد الذي بدا

أنه يمسك بذراعي بالجزء العلوي هو كُمُّ سُترَتي. أذهلني الوهن الشديد للعضو المكسور، لكن الورك كانت تؤلمني بشكلٍ أسوأ.

أعتقد أن صوت الارتطام سُمِع في كل أنحاء مدينة الحدائق، حيث ركض جورج ولينا وهاري نحوي. من الصعب تحديد المشاعر التي تظهر على وجوههم وهم ينظرون إليَّ مرتمية على الأرض: أهي المفاجأة، أم القلق، أم الانزعاج. الانزلاقُ على السجادة يُعدُّ حدثًا مُزعِجًا، وأسوأ من ذلك حينما يحدث في وقت غير مناسب. وجدتُ نفسي أعتذر عن التأخير، حتى وأنا أتوسَّل إليهم ألَّا يلمسوني إلى أن يَخِفَّ الألم. وأطلق السائق البوق مرَّةً أخرى.

قُلتُ بهدوء: «لقد كسرتُ كوعى»، بالرغم من أن الهدوء صفةٌ ليست من طبعي، لكنني أحتفظ به للرزايا؛ فهو مقياسٌ لحِدَّة الأزمة.

«هُراء!» يقول هاري. «لا يمكنُكِ كَسرُ ذراعك بمثل هذا السقوط البسيط!». هاري يعتقد أنه إذا أنكر مُصيبةً لا يريدني أن أُصاب بها، فقد تختفي.

«لا أعرفُ لِمَ لا!» قلتُ بسخط من مكاني على الأرض. «فالآخرون يكسرون عظامهم حينما يسقطون. انظر!»، وبيدي اليمنى السليمة رفَعتُ يدي اليسرى وذراعي، ومن الواضح أنها لم تكن مرتبطة كما يجب ببقيَّة جسمي. الآن كان جورج وهاري يرفعانني بحذر على قدمي، بينما وركي يصرخ من الألم. وأطلَقَت السيارة البوق مرة أخرى.

قال هاري: «يجب أن ألحق بالرحلة. ستذهبين معي إلى المطار -هناك بعض الأمور أريد مناقشتها- وستشعرين بتحسُّن في الطريق. ثم إن كنت ما زلتِ تعتقدين أنَّكِ كسَرتِ ذراعك؛ سيأخذك السائق إلى المستشفى الحكومي لإجراء فحصٍ بالأشعَّة. اسألي عن الطبيب الألماني الذي جاء إلى البيت لفحص جان، أعتقد أن اسمه الدكتور كلوغ، تعالي الآن، وإلاّ سأفوِّت رحلتي».

أدخلوني في السيارة، لينا بدت مرعوبةً، وجورج غير واثق ممَّا يجري. بعد نصف ساعة وصلنا إلى المطار في الوقت المناسب، وكانت كلمات هاري الأخيرة لي: «اعتنِ بنفسك الآن يا عزيزتي. ربما يكون مجرَّد التواء، لكن من الأفضل أن تدعي الطبيب يراه».

لم أقُل شيئًا، وأتوقَّعُ أن أُكافأ في الجنَّة بسبب صبري على ذلك.

غادَرْنا المطار، وطلبتُ من السائق محمد التوقُّف بالبيت لاصطحاب جورج معنا؛ لشعوري بالحاجة إلى المساندة المعنوية. المستشفى الحكومي عبارة عن مجموعة مبانٍ كبيرة متناثرة مبنية على الطراز الإيطالي تتفرَّع من فِناء مركزي، مع مبان صغيرة منعزلة يصعب البحث فيها عن الأطبَّاء. لم نتمكن من العثور على الدكتور كلوغ، لكن جورج وجد «سِسْتر» -أي راهبة- إيطالية لطيفة، جاءت معه إلى السيارة وطقطقت لسانها باهتمام، وأسرَعَت بالابتعاد لتعود بصحبة الدكتور غويريرا، وهو جرَّاح إيطالي شاب درس في مايو كلينيك.

حتى الآن كانت وركي غير متحرِّكةٍ تقريبًا، وبدأت أخشى أنني كسَرتُها أيضًا. تمَّ تصوير كوعي بالأشِعَّة السينية، وثبَتَ أنه مكسورٌ في مكانين، أمَّا وركي فلم تكن مكسورةً، بل مخلوعة. وشعرت بالارتياح الشديد لهذا لدرجة قبولي بإصابة مرفقي.

كنت قد افترضتُ أن ذراعي ستوضع في الجبيرة على الفور، وأنني سأغادر المكان قريبًا. لكن حينما قاموا بشقِّ سُترَتي عن ذراعي رأيتُ أن محيطها تضخَّم بأكثر من الضعف بسبب النزيف، وقال الطبيب إنه لا يمكن تجبيرها في الوقت الحالي. وصلْنا الآن إلى غرفة العمليات وهي مكانٌ مريح مليء بالمرضى من جميع الفئات، بمن في ذلك فتاتان صغيرتان مصابتان بالحصبة التي يُسمِّيها الليبيون «النمنم». قدّم لي ليبيٌّ مُسنٌّ ومُهذَّبٌ مقعده، وهو كرسي صغير بدون مساند مرتفع وزَلِق، فكِدتُ أسقط عنه حينما أعطتني الممرِّضة حُقنةً لتخفيف الألم. في هذه المرحلة، التفَّ المرضى الآخرون حولي لمشاهدة ما كان يحدث، وأخذوا يطقطقون ألسنتهم عند اكتشاف

ذراعي المتورِّمة والمحتقنة. في غضون ذلك، كان باب غرفة العمليات نصف مفتوحٍ، وبإمكاننا رؤية شرطي مُلقًى على طاولة العمليات؛ «لإزالة رصاصة منه»، على حدِّ قول أحدهم. كنَّا نعلم أنه رَجُل شرطة من حذائه الكبير اللامع على الأرض بجانب الطاولة. ويبدو أن التعقيم والحماية من البكتيريا ليس له مكانٌ هنا.

أخبرني الدكتور والممرِّضة بوجوب بقائي في السرير مع تثبيت ذراعي تمامًا حتى يمكن معالجتها في غضون خمسة أو ستة أيام. لكنهما اتَّفَقا على أنني «لن أكون مرتاحةً» في المستشفى، مع وجود بَقِّ الفِراش، والشاي الذي يُعدُّ في الممرَّات، ومحطات الراديو العربية التي «تُلَعلِعُ» في المكان! فأكَّدتُ لهم أنه يمكن الاعتناء بي في البيت؛ لأن لديَّ مساعِدة إيطالية ممتازة تعيش معي، وسألتُ عن إمكانية حضور الطبيب إلى بيتي، فوافق. وهكذا مع ذراعي مبطَّنة جيدًا وممدودة على لوح خشبي، وبمساعدة جورج غادرت المكان، وشعرت أنني عانيت ما يكفي من المشاكل في يوم واحد.

مرَّت عليَّ أيام قليلة مزعجة قضيتها طريحة الفراش. كان منظر ذراعي مثيرًا للاشمئزاز، بها ما يشبه الغرغرينا، باللونين: الأزرق والأخضر، لكن الدكتورة غويريرا التي يزورني كل يوم أكَّد لي أنَّ الأمور جيدة. لقد آلمتني وَرِكي أكثر بكثيرٍ من ذراعي، لكنني كنتُ ممتنَّةً كثيرًا -بل ومسرورة- لأنني لم أكسرها؛ فما زالت هناك بعض الصلابة في هذه العظام العتيقة! اعتنت لينا بي جيدًا، وتعلَّمَت أن تُمشِّط شَعري الطويل، وقالت إن تلك أصعب مهمة لها.

حضر أصدقائي من الأمم المتحدة لرؤيتي، وقال لي الجميع كم كنتُ محظوظة لأنني لم أكسر وركي، وأخبروني كيف سقط أصدقاؤهم على البلاط المصقول أيضًا! لم يقترح أحدُ أنني كنتُ غبيَّةً لكسر كوعي، وبدأتُ أعيد النظر في فكرة أنني مُعرَّضة للحوادث بطبعي، فقرَّرت إلقاء اللوم على البلاط.

بعد ستة أيام، كان من المقرر أن يعود هاري إلى البيت حوالي منتصف ليل الجمعة. كنَّا قد أرسلنا له برقية عن حالتي؛ لأنني إن لم

كان الجرو «كام» من فصيلة البوكسر، أحضرناه من الفلبين، قدَّمنا له الطعام الثمين، وازداد حجمه إلى أبعاد كبيرة. كان يقفز من نوافذ الطابق العلوي، ويخيف سُعاةَ البريد، ويقلب صناديق القمامة، ويدفع الأطفال، وفي النهاية أزعج هاري ببقائه جروًا في تصرُّفاته بغَضِّ النظر عن الحجم وتَقَدُّم عمره. وحينما عدنا إلى الفليبين تركنا جورج في المدرسة في بحيرة شونيغان، بقي كام في بيتنا في ڤيكتوريا مع مُدبِّرة بيت. ثم حينما تُوفِّيَت المربية تمَّ إرسال كام إلى مركز لرعاية الكلاب. أخيرًا، وعِوَضًا عن إبقاء كام محبوسًا إلى أجل غير مسمى، ودفع ثروة لرعايته، أعطيناه لأصدقاء لديهم بيت صيفي في غابات ڤانكوڤر، والذين يريدون كلب حراسة.

حينما تذكَّرتُ أن حجم كام قد عمل ضده، كنت سعيدَّة لأن حجم هذا الجرو كان صغيرًا؛ ولأنه يوجد شيء مُحبَّب، بشكلٍ لا يُضاهى، حول الأحجام الصغيرة. وبما أنني كنت طويلة القامة طوال حياتي؛ فأنا أعرف هذا الأمر جيِّدًا. قد يحبنا الناس، لكنهم نادرًا ما يتمنَّون حمايتنا. خطَرَت لي الليلة فكرة أنه في هذه اللحظة، ربما أحببنا نحن الثلاثة هذا المخلوق الصغير العاجز الموجود على سريري، بقدر ما أحببنا بعضنا البعض.

تقول لينا، التي تتعلَّم اللغة الإنكليزية الآن: «بليسمو بوتشي فيليني فيليني!» وهي تجمع بين اسم مُغنِّيتها المُفضَّلة ومخرجها السينمائي الإيطالي المُفضَّل.

اقترح جورج أن ينام الجرو معه، وأيضًا فعَلَت لينا، بينما أصررتُ على نومه هنا بيني وبين هاري، مثل طفل ليبي.

وهكذا بدأت حياة بوتشي معنا. لن يكون صحيحًا القول بأنه لم يُسبِّب أي مشكلة، لكنه كان يستحقُّ العناء، وسرعان ما أصبح أفضل كلب محبوب في العالم. تمَّت محاولات استمالته من لينا وجورج، لكن لينا فازت، ربما لأنها وبوتشي، كانا من منطقة البحر المتوسط. بالتأكيد لديهما مشتركات، وتعاطف متبادَل.

في اليوم التالي لوصول بوتشي عُدتُ إلى المستشفى لتطبيب ذراعي. كنت أخشى أن تكون هذه مِحنَةً مُروِّعة لي، ولم أتخيل أن المستشفى لديها العديد من الأفكار الحديثة حول تجنيب إثارة أعصاب المريض.

مرَّةً أخرى، كانت غرفة العمليات تغصُّ بالمرضى، وكنت أجلس على كرسيٍّ صغير مُنتصِبٍ أستعدُّ للرعب القادم، بينما أعطتني المرضة الإيطالية اللطيفة حقنة تحت الجلد. كذلك جلس ممرضٌ ليبيٌّ مُسنٌّ خلفي وشدَّني بقوة إلى صدره، وظل طوال الوقت يتمتم بتطمينات لطيفة متعاطِفَة بينما الطبيب يعمل، وقام ممرِّضٌ آخر بإمساك كتفي بإحكامٍ، مع الحفاظ على ذراعي ممدودة إلى الطبيب. بينما كنتُ أنتظر الألم، عمل الدكتور غويريرا بلُطفٍ بيديه وأصابعه، وقام بالتدليك والضغط والتأكيد على أن العظام في مكانها. لقد تمَّ كلُّ شيء بمهارة، ومن دون استخدام القوة المفرطة، لدرجة أنني بالكاد أصدق أنه انتهى حينما بدأوا بلف الضمادات المُبلَّلة بالجبس. وحينما غُطِّيَت أخيرًا ذراعي المترهِّلة غير المجدية بالجبس انتابني شعور رائع بالأمان. وبدأت في عدِّ أيام الأسابيع الثلاثة لموعد إزالة الجبيرة.

حان الوقت لنزع الجبيرة، وقاد جورج السيارة وصولًا إلى باب غرفة العمليات بالمستشفى، وأثناء انتظار وصول الطبيب جلسنا في السيارة نشاهد لعبة الحياة الدائرة أمامنا. حيث يسود جوٌّ من اللامبالاة -يصل إلى الازدراء- بين أقلِّ العاملين في مستشفيات العالم، ويظهر ذلك بشكل خاصٍّ للمريض الذي يجلس متألِّمًا في انتظار الطبيب.

اليوم هناك زنجيَّتان مُسِنَّتان عريضتا الجسم للغاية، ربما هما عاملتان، وكانتا تواصلان مُمازَحة المرضات الليبيات. كانت أزياء السيدات زاهيةً، لكنها ليست مغرية، على الرغم من أن الملابس التحتية الزرقاء الساطعة تظهر بين الطرف السفلي لأرديتهن الزرقاء المخطَّطة والحافَّة العلوية من أحذيتهن الطويلة من جلد البقر الأصفر.

ومع ذلك، فهذه الأردية، لكونها ضخمة وواسعة وغير شفّافة؛ ليست مثيرةً بالنسبة لي. كانت وجوه النساء السوداوات سافِرةً وتبدو لامِعة تضيئُها باستمرار صفوف من الأسنان البيض وابتسامات متغضِّنة، وتنمُّ على الأرجح عن بساطة الحياة.

نحو عشرة رجال من مختلف الأعمار، يرتدون معاطف طبية متَّسِخة، كانوا يهرعون ذهابًا وإيابًا في المكان. ليس كما اعتقدتُ في البداية، في عَجَلةٍ للوصول إلى المرضى، ولكن في مطاردات مَرِحة لبعضهم البعض! القراندة وممرُّ المدخل اللذان كانا يفيضان بالمرضى وبضباب دخان التبغ الأزرق، ويبدو أن المكان مثّل ساحة مثالية للمطاردات بينهم. وخلافًا لمعظم المستشفيات، بدا أن المرضى أيضًا يستمتعون باللعبة التي تدور أمامهم، وأحيانًا يدفع أحدهم بقدمه إلى الأمام، كي يتعثَّر بها شخص ما.

المرضى خليطٌ من البيض والزنوج، ومعظمهم بالطبع من الرجال، بالرغم من أن النساء في هذا المجتمع البدوي يأتين إلى المستشفى أحيانًا. معظم المرضى لديهم عينٌ واحدة على الأقل تبدو مريضةً أو مغلَقةً أو متجوِّلة، بالإضافة إلى أمراضهم الواضحة الأخرى مثل: القُرَح، والجمرات، والجروح الملوثة، والقروح العنقودية. العديد من الأطفال مصابون بالنمنم، وكانوا دائمًا يرشفون أنوفهم ويمسحون أصابعهم في آبائهم وأصدقائهم. قال لي أحدهم إنه يعتقد أن الطفل الذي يحمله أحد الآباء بين ذراعيه يُحتضر. واعتقدتُ أنه قد يموت من الاختناق، حيث كان رأسه ووجهه مُغطًّى بالكامل ببطانية صوف قَذِرة، وكان اليوم حارًّا بالفعل. كذلك لا يبدو أن أيًّا من الحاضرين في حاجة إلى جراحة، لكنهم اجتمعوا في غرفة العمليات، حيث سيأتي الطبيب أوَّلًا.

أثناء انتظاري هنا في هذا الصباح، أدركتُ لأول مرة أنه في كل زياراتي العديدة الآن إلى المستشفى الحكومي، لم أرَ مريضًا أوروبيًّا غيري؛ فجميعهم يتلقَّون العلاج في مستشفى الأدڤنتست الذي يعمل به طاقم أميركي.

حينما وصل الدكتور غويريرا، بدا مُتعَبًا وشاحبًا، لكنه ابتسم بسرورٍ، وكانت لديه كلمة طيبة لكل مريض. هذا رجلٌ أعجبتُ به حقًّا. كان الجَرَّاح الوحيد في هذا المستشفى الذي خدم جميع سُكَّان بنغازي الليبيين. ويقوم بواجبه كل يوم، ويُطلب أحيانا لإجراء جراحة طارئة أو ولادة كل ليلة، ويتقاضى ما يعادل مائتين وثمانين دولارًا في الشهر. وبالتالي لا يمكن اعتباره من المستعمرين الطغاة!

لم تكن لديَّ أي فكرة عن كيفية نزع قالب الجبس، لكن الدكتور غويريرا أخبرني بشيء من الفخر أنها ستكون عملية بسيطة باستخدام المنشار الكهربائي الحديث. كنتُ أفترضُ أن الطبيب سيفعل ذلك، لكن بينما جلستُ بثقة بين الحاضرين، كان الطبيب يقف مُراقِبًا فقط. واليوم، كان الممرِّض المُسنُّ، الذي كنتُ أستند إلى صدره حينما جُبرت ذراعي، هو مَن في حوزته المنشار الذي بدا ضخمًا وحادًّا للغاية.

وضَع المنشار بالطول على الجبيرة، شغَّل الكهرباء، وضغط بقوَّةٍ لأسفل. كانت الضوضاء والاهتزازات مُحطِّمة للأعصاب. تحمَّلتُها لدقائق، بينما المنشار يغوص بعمق في الجبيرة. ثم فجأة شعرت بالحرارة والرطوبة على طول ذراعي، وعرفت أن الدم يسيل داخل الجبيرة. لقد قَطع أعمق ممَّا يجب!

«أنت تقطع ذراعي!» حاوَلتُ القول بهدوء، لا أريد أن أجرح مشاعر الرجل، ولكن لا أريد أن أجلس بهدوء بينما تُقطع ذراعي.

ابتسم الليبي بلطف: «أوه، لا، سنيورة. هذه فقط حرارة المنشار التي تشعرين بها».

«لكن بإمكاني الإحساس بالدم يسيل! أنت تنشر بعمق، أعرفُ ذلك!».

«أوه، لا، سنيورة، إنما تتخيَّلين ذلك» قالها بابتسامة لطيفة أخرى، بينما المنشار يقطع أكثر.

الآن ينحني الدكتور غويريرا ليقول في أذني مُطَمئِنًا: «أحمد، هو أفضل مساعد طبي لنا. ويعمل بالمستشفى منذ اثنين وعشرين عامًا. وظيفته هي إزالة جبيرة الجبس، ولم يجرح أي شخص بعد».

أدركتُ حينها أن الطبيب كان يخبرني أن أحمد كان سيشعر بالإهانة إذا أزال الطبيب الجبيرة بدلًا منه. حسنًا، لم أرغب في إيذاء مشاعر أحمد، لكني كرهتُ أن أفقد ذراعًا! ربما ستشفى الجذعة سريعًا! لحسن الحظ، في هذه اللحظة توقَّف المنشار، وبدأ الجبس ينفتح تحت أصابع أحمد المدرَّبة، وراقبتُ؛ انتظارًا لرؤية تدفُّق الدم.

قال أحمد بلطف: «انظري سنيورة، نزعنا الجبيرة وستصبح الذراع في أحسن حال قريبًا».

نظرت إليها في مفاجأة. كانت ذراعي بلون بطن السَّمكَة، لكنها خالية تمامًا من أي أثر للدم.

قال الدكتور غويريرا مبتسمًا: «كما ترين سنيورة كيث، فأحمد لديه يدان ماهرتان للغاية».

كان بإمكاني أن أحتضن أحمد بكل سرور. «أعتقد أنه رائع!».

بعد ستة أشهر حينما كُنَّا في كندا في إجازة، أعدتُ فحص ذراعي بالأشعة السينية، وقيل لي إن الجبيرة والشفاء كانا مثاليَّيْن. وقرَّرتُ حينها أنني قابلتُ معجزتين في مستشفى بنغازي: د. غويريرا، وأحمد.

23. عيدُ ميلادٍ غريب

يتدفَّق تيارٌ من مرتدي ثياب الكاكي بثباتٍ تحت رايات بلونٍ أحمر وأسود وأخضر في شارع ميدان طوسون، الشارع الرئيس في بنغازي. هنا على شواطئ البحر المتوسط، على أطراف إفريقيا وعلى حافة الصحراء، يومُ الرابع والعشرين من ديسمبر في تاريخ ليبيا، ليس اليوم السابق لعيد الميلاد فحسب، ولكنه الذكرى السابعة لاستقلال ليبيا.

في التاسعة صباحًا بدا طقسُ اليوم معتدلًا، مع سماء زرقاء شاحبة وشمسٍ تُبهِر العيون دون أن تمنح الدفء. كما تهبُّ رياحُ شديدة باتجاه الشمال من الصحراء والسهوب، لكنها تفشل في دفع الحشود المبتهجة للإحساس بالصقيع.

لوصف الليبيين كما يظهرون لي هذا اليوم، يجب القول أوَّلًا إنه في كل الأيام الأخرى، ربما تكون بنغازي أسوأ مكان في العالم يرتدي أهلُه الثيابَ اللائقة. فهنا، وحتى أكثر من طرابلس، يغلبُ ارتداء خِرَق من ألبسة الكاكي التي خلَّفَتها فترة الاحتلال العسكري. حيث يتم ترقيعُ جميع الملابس، وبعض الملابس ليست سوى مجموعة رُقَع. في العادة، حيث يتسابق الأطفال في رياح الصحراء الباردة في خِرَقٍ متنوِّعة مُكدَّسة طبقةً فوق أخرى. وبالتالي فجَوُّ الرَّفاهية والمرح هو آخر صِفَةٍ يمكن ربطها بحشدٍ من الناس في بنغازي.

لكن اليوم، تغيَّر كل شيء. حتى المباني الصّفر القبيحة المغطَّاة بالطين، والتي عادةً ما تكون خامِلةً ومُريبة، بَدَت مشحونةً بالحيوية وبحياة خاصة بها، تحت راياتها الليبية المرفرفة. يتدفَّق الناس إلى الشوارع مَرِحين ضاحِكين يُحيُّون أصدقاءهم المبتسمين. وتتدفَّق حركة مرور السيارات بصبر حول تَجمُّعاتٍ صغيرة من الليبيين الأكبر سِنًّا الذين يقفون في منتصف الطريق يتصافحون بحماس، وبغَضِّ النظر

عن حركة المرور، كانوا يتابعون تبادُلَ تحاياهم العربية المطوَّلة التي تقدِّم المجاملة على السلامة.

جميع الرجال تقريبًا يرتدون الزِّيَّ الوطني، ويلفُّون أنفسهم بطَيَّات الجرْد الليبي الثقيل من الصوف الطبيعي. ومثل رداء التوغا الروماني، يُعزِّز هذا الثوب من هيبة مَن يرتديه. حيث تظهر الأكمام الطويلة للباس، وعلى المعصم تبدو زخرفة خيوطٍ رفيعةٍ ملتوية، ويمكن رؤية السراويل العربية الفضفاضة ذات اللون الأزرق أو الأخضر أو الأرجواني أسفل الجِرد، ضيقةٌ عند الكاحل ومُحدَّدة بزخرفة. وتقريبًا كلُّ شخصٍ يرتدي حذاءً!

هذا اليوم الوطني العظيم هو احتفال عائلي بامتياز مثل يوم الرابع من يوليو، عيد الاستقلال الأميركي. كل طفل على بُعد مسافة سير أو ركوب، يصل بالحمار أو الجِمال أو بالحافلة، موجود هنا في شوارع المدينة لمشاهدة العرض. فكِّر فيما يعنيه هذا للأطفال الذين نشأوا وهم يشاهدون الجيوش الأجنبية تسير في شوارعهم، ويستجدون جنودًا أجانب للحصول على بعض الخُبز والقروش، وأن يشاهدوا اليوم جيشهم الوطني، المدرب جيدًا، مرتديًا البِدَل الأنيقة، ويعلن أن هذا البلد ملكٌ لهم وحدهم!

الأطفال يرتدون ملابس لم يسبق لهم ارتداؤها في حياتهم؛ لأنهم وُلِدوا في بؤس ما بعد الحرب والفقر في جميع أنحاء البلاد: لكنهم اليوم يرتدون ملابس أو بدلات أنيقة وجديدة ذات ألوان زاهية. وبالنسبة للفتيات الصغيرات، فالقطيفة هي القماش المفضَّل، بدرجات اللون الفيروزي والأحمر والكرز. القماش اللمَّاع مُفضَّلٌ أيضًا، بينما تُشكّل أقمشة الرايون والقطن الأقل أناقة إضافة إلى هذا التنوع بزهورها الكثيرة وألوانها المتعدِّدة.

الأولاد فخورون أيضًا بأنفسهم: بأثوابهم الفضفاضة التي يبلغ طولها نحو ثلاثة أرباع طولهم، أو الجلابية، وغالبًا ما يكون لونها أصفر زعفرانيًا لامعًا، وهو لون ثياب تلاميذ المدارس. يتجوَّل الأطفال في الشوارع جنبًا إلى جنب، مرتبطين ببعضهم البعض في سلاسل طويلة مثل قصاصات الدُّمى الورقية، أحد طرفيها مُثبَّتٌ على أكبر طفل، والنهاية الأخرى مثبَّتة إلى الأب. لكن، بالطبع، الأمّ يجب أن تبقى في البيت، لا تَرى ولا تُرى، وأن تحضِّر وجبةَ الكُسكسي من السميد مع طبيخ اللحم بالخضار، وطبق يليق بالاحتفال.

وقفتُ هناك وسط حشد متراصّ، أراقبُ العرض العسكري الطويل، وتأثَّرتُ بشيئين، أولهما: أن أقف هنا منغمسة في حشد من ليبيين وعرب وشرق أوسطيين، وأنا أجنبية بينهم، امرأة، وغربيَّة، وأن أشعر بأنني لستُ آمِنةً فحسب، بل كنتُ مُرحَّبًا بي. حتى إنهم كانوا يحثُّونني بأدبٍ للتَّحرك إلى الأمام نحو مُقدِّمة الحشد لرؤية العرض بشكل أفضل!

أين يمكن أن أعامَلَ هكذا في أي مكان آخر؟ قد يكون المرء بأمان، وقد يأمل أن يُرحَّبَ به، ولكن أيُّ مكان آخر سأُدفعُ فيه إلى الأمام لمشاهدة استعراضٍ ما؟ فكرتي الثانية هي الدهشة من أنَّ بلدًا لا يتجاوز عدد سُكَّانه المليون ونصف المليون يمكنه أن يُجري عرضًا عسكريًّا يستغرق مروره ساعة وربع الساعة.

«يمشون وكأن أقدامهم تؤلمهم!» يقول هاري، بجانبي، أثناء مرور جنود المشاة.

«ربما يشعرون بالأذى؛ فهم ينتعلون الصنادل أو يمشون حُفاةً معظم الوقت. أحذية الجيش هذه لا بُدَّ أنها تؤلمهم!».

«باستثناء المصابين بتفلطح القدم» يعترف هاري، «إلَّا أنهم يبدون بحالة جيدة! لكن أكثر شيء ألاحظه هو أنهم جميعًا يبدون فخورين جدًّا بزِيِّهم الرسمي، وبأنفسهم».

«حسنًا، يجب أن يكونوا كذلك! أعتقد أن هذا العرض العسكري يثبت لكل شابٍّ ليبي أن لديه الآن بلدًا!».

«ربما لا تملك أي نفسٍ إلَّا أن تتأثَّر بعرضٍ عسكري ما. لكن المفجع في الأمر أنَّ أفضل الشباب وأكثرهم لياقةً في أيِّ أمَّةٍ يتمُّ تدريبهم على الموت من أجلها، وهذه الفكرة تؤلمنا وتثير حماستنا دائمًا».

«هنا أتى الكثير من الجنود على ظهور الخيل الآن! مَن هؤلاء؟ الذين لديهم الخيول الرمادية الجميلة نفسها التي اعتدنا رؤية الليبيين يركبونها في الزاوية!».

«لا بُدَّ أنهم جزءٌ من قوة دفاع برقة، وهي بمثابة الحرس الخاص للملك. إنهم يعملون كشرطة خيَّالة، لكنهم عسكريُّون محترفون بالفعل». وأسمع الآن قعقعة حوافر الخيل.

بعد ذلك تمرُّ الوحدات الآلية التي تُصدِر أصواتًا رهيبة في محاولة للسير ببطء، بينما الخيول أمامها في حالة اضطراب. الشباب الجالسون في هذه الآليات، ليس لديهم ما يفعلونه سوى الجلوس وأن يبدوا جادِّين. هم واعون بدورهم في هذا العرض، ويحسُّون بالحرارة في قُبَّعاتهم الحديدية، لكن لا أحد يتململ أو يبتسم.

«لم أرَ أبدًا الكثير من تنويعات لون البشرة في مكان واحد طوال حياتي! فهناك كل الألوان، من الأبيض إلى البني الداكن إلى الأسود!

والبعض بعيونٍ زُرقٍ أيضًا. إنهم البربر على ما أعتقد. لكن الجدِّيَّة تبدو عليهم جميعًا».

في هذه اللحظة تجتاح الحَشدَ مَوجةٌ من الإثارة، ويُعبِّرون عن إعجابهم بطقطقة ألسنتهم.

«ها هو الحدثُ الأكبر!» يقول هاري. «إنه سلاح الجِمال أو الهَجَّانة، في قوة دفاع بَرقَة!».

«والله! والله! والله!» يصيحُ الحشد بإعجاب. «هيَّا! هيَّا! هيّا! تكتك ـ تكتك ـ تكتك! واللهي! واللهي! واللهي!»، بينما كانت الجِمال العالية تتهادى وتتحرَّك بلا صوت تقريبًا عبر وسط المدينة. كان يركبها جنودٌ يرتدون ملابس الكاكي مع عمامات ملفوفة مثل أهل الصحراء ويحملون بنادق. بعد قعقعة مرور الخيل وسيارات الجيب، يبدو أن الجِمال المهيبة المنظر براكبيها ووتيرة حركتها الهادئة خيرُ بديلٍ عن مشهد الصحراء.

«واللّهِي!» أقولُ بحماس. «هذا شيء لن نراه أبدًا في استعراضات بلدنا!». الحمد لله أننا جئنا إلى هنا قبل أن تجري ميكنة الإبل!

«إنه حقًّا عَرضٌ رائع. لا أرى كيف نفَّذوا مثل هذا العرض الجيد».

«لديهم مستشارون عسكريون بريطانيون لسنواتٍ الآن!».

«نعم أعرف. لكن ما يثير إعجابي هو الجدية التي تبدو على كلِّ شخص في العرض اليوم».

«هل تعرفين ما الذي صدمني أكثر من أي شيء آخر؟ لا وجود للنساء!» يتساءل هاري.

«أعلم. وهذا أمرٌ محبط!».

«هنا يحاولون تكوين أُمَّةٍ في هذه الصحراء، وبناء جيش من سلاح الهَجَّانة، وفي الوقت نفسه يحبسون نساءهم!».

«هل تتذكّر ما قالته لي السيدة عنبتاوي؟ تلك الفتاة الذكية التي أتت من نابلس، المدينة الإسلامية المحافِظة في الأردن؟ حينما سألتها كيف تمكَّنَت من التحرُّر من عائلتها والذهاب إلى الجامعة ثم الزواج من الرجل الذي اختارته لنفسها. قالت إنها بمجرد أن أدركت عائلتها أن لديها قدرةً جيدة على كسب المال مثل إخوتها؛ كانوا على استعداد للسماح لها بالخروج والعمل، طالما منحتهم جزءًا من راتبها. أي لم يَعُد كونها امرأةً عيبًا إن استطاعت كسب المال! قالت إن مفتاح باب عالم النساء هو قُدرَة المرأة على الكسب».

حتى الآن. لم تجد النساء مكانًا لهُنَّ في المهمة الكبرى لهذه الأمَّة الليبية، فحياة الحريم التي تقف في طريق تطوُّر النساء الليبيات في المدن تؤدي إلى شَلَل البلد أكثر من أيِّ عامل آخر. الطاقة البشرية لا تُقدَّر بثمن، ومع ذلك، فإن إمكانات المرأة الليبية لا تزال غير مُستغَلَّة، وكل ذلك من أجل الحفاظ على تقليد اجتماعي عفا عليه الزمن.

واجب المرأة الأول هناك هو تجاه بيتها وزوجها وأولادها، وتوافِق معظم النساء على هذا المبدأ. والسؤال: في ليبيا، كيف يمكن لامرأة ليبية أن تؤدِّي هذا الواجب في ظل ظروف حياتها هنا؟ حينما لا تُمكَّن من الذهاب إلى السوق لشراء الطعام.

الليبيات الوحيدات في السوق في بنغازي هُنَّ الزنجيات اللواتي يجلسن في الخارج لبيع البيض الطازج للأوروبيين، والفول السوداني المقشَّر لليبيِّين ليضيفوه إلى شايهم السُكَّري. هؤلاء النسوة بوجوههنَّ اللامعة والابتسامات العريضة، وشعر مُجعَّد تحت مَحارِم حمراء أو أرجوانية وأقراط على شكل حلقات بحجم الكاحل تتدلَّى على الأكتاف، وقلائد ضخمة مذهَّبة على الصدور مثل سلاسل الرقيق، لا يزلن في النهاية يتمتَّعن بالحرية.

«صباح الخير مسز! لديَّ بَيضٌ كبير وجيِّد، مسز؟» ترحيبهن يصلني حينما أدخل السوق وأنضمُّ إلى ربَّات البيوت الأجنبيات المتسوِّقات من أميركا وإنكلترا وإيطاليا وألمانيا والأردن. أقوم بجولة

في ساحة السوق قبل الشراء، أتلمَّس الفواكه والخضروات، وكلها تأتي بالشاحنات من طرابلس، وهي طريق غير مستوية تحت أشعة الشمس ويستغرق قطعها يومين. أنظر في حيرة إلى ذبائح كاملة من الضأن والبقر الهزيل، وأطلب من بائع السمك أي شيء عدا التونة، أي الأسماك التي يبيعها تحت كلِّ اسم، وأتحدَّث مع بائع الدواجن الذي لا يزال دجاجُه يقوقئ ويتخبَّط. يقوم عدد قليل من الزنجيات -وهُنَّ من خَدَمِ الأُسَر الليبية الغنية- بالتدافُع من حولي، ويساومن الباعة باللغة العربية؛ فهُنَّ النساء الوحيدات في بنغازي اللائي يختلطن بالأجانب البيض. وعادة ما يتمُّ التسوُّق من قبل الأزواج الليبيين، قبل العمل أو بعده.

في طرابلس، لا يجوز للمرأة الفاضلة مغادرةُ بيتها لتذهب وحدها إلى الطبيب لعلاج أمراضها. ولكن زوجها أحيانًا يذهب نيابةً عنها، ويبلِّغ أعراضَ مرضها إلى الطبيب الذي لا يُسمح له بمقابلة مريضته. وإذا ذهبت المرأة، يجب على زوجها أن يأخذها في سيارة مغلقة أُجرَة أو غيرها، مع تغطية كامل جسمها ورأسها ووجهها بالفرَّاشيَّة البيضاء. لكن هل يرى الطبيب ما تحت الفرَّاشيَّة؟ من الغريب أنه يفعل ذلك. فالمرأة مستعدَّةٌ تمامًا للكشف عليها، وفقط الزوج هو مَن سيعاني من الإحراج. والأكثر غرابة من ذلك أنه لا يجوز للمرأة من تلقاء نفسها أن تأخذ طفلها المريض إلى الطبيب، ولكن عليها انتظار عودة زوجها من عمله ليلًا.

يجب أن يتِمَّ ختانُ أحمد، وهو الطفل البِكر لعائلة ليبية تتكوَّن من أبوين متعلِّمَيْن، ذكيَّيْن، وسيمين، ويتمتعان بصحة جيدة. سميرة، والدة أحمد، معلِّمةٌ في مدرسة قريبة للبنات، التي تذهب إليها يوميًّا مرتدية الجِرد الليبي، حيث يقوم زوجها مجيد بتوصيلها إلى المدرسة، ثم يرافقها إلى البيت بعد الظُّهر. ومجيد يشغل وظيفة حكومية مرموقة.

يتمتَّع أحمد بصحَّةٍ جيدة، ويبلغ من العمر ستة أشهر. وبما أن مَجيدًا شاب عصريٌّ متعلِّم في الغرب؛ فإنه سيأخذ أحمد إلى المستشفى الحكومي إلى الطبيب لإجراء الختان، بدلًا من الحَلَّاق، أو

الجار المسلم، كما قد يفعل أبٌ أقلّ استنارة. تَودُّ سميرة أن ترافق أحمد إلى المستشفى لتكون بالقرب منه، لكنها تعلم أنها لا يمكنها الذهاب إلى مكان قد يراها فيه الرجال.

يقوم الطبيب المصري بتخدير أحمد وإجراء العملية الجراحية الصغرى. ثم يعيد الطفل شبه الواعي إلى ذراعَيْ مجيد، بهذه التعليمات: «خُذه إلى البيت بسرعة بينما لا يزال نائمًا. ويجب أن تُبقيه في سريره هادئًا تمامًا لمدة أربع ساعات على الأقل، حيث يوجد خطرُ حدوث نزيف. سيصبح مضطربًا وغير مرتاح بينما يقِلُّ تأثير المخدِّر، لكن يجب منعه من التَّحرُّك، حتى لو اضطررتم إلى استخدام القوة. وبعد أربع ساعات، هناك خطر ضئيل لحدوث نزيف».

بعد مرور أربع ساعات واطمئنان مجيد على الطفل يعود إلى عمله المكتبي، وريثما تُعدُّ له طعاما في المطبخ تترك سميرة أحمدَ في رعاية قريبتهم الفقيرة فاطمة ذات الثماني سنين، وهو نوعٌ من الترتيب يوجد في كل بيت ليبي تقريبًا، لكن حركة أحمد العنيفة تؤدِّي إلى إصابته بالنزيف. بعد خمس دقائق، تصرخ فاطمة من الخوف، فتهرع سميرة إلى الطفل لتجده مغطًّى بالدم من النزيف. تصاب بالرعب وتحاول التفكير فيما يجب فعله. إنها ليست جاهلة بأي حال من الأحوال، وتعلم أن الطفل يجب أن يؤخذ إلى الطبيب لوقف النزيف وإلَّا سيموت. ليس لديها هاتف للاتصال بمجيد، أو طلب أي مساعدة خارجية. لكنها تعي أنه لا يمكنها أن تندفع لسيارة أجرة أو عربة وتذهب به إلى المستشفى بنفسها. وبسبب تقاليد بلادها البالية؛ يموت طفلها الآن أمام عينيها. تصرخ بفاطمة لتركض بأسرع ما يمكن إلى بيت شقيق مجيد في الجوار، وإذا كان موجودًا -إن شاء الله!- أن تطلب منه الحضور على الفور لنقل الرضيع النازف إلى المستشفى. تغادر فاطمة البيت كالفأر الخائف، وتركض طوال الطريق شاكرةً الله لأنها لا تزال حُرَّةً في أن تركض! في هذا الوقت تقف سميرة مُمسِكة بالطفل وراء الباب، تبكي وتدعو أن يكون شقيق مجيد في البيت، وأن يأتي إليهم وتظل تردِّد: «بسم الله! بسم لله! بسم لله!»، وعند وصوله تدفع سميرة أحمد بين ذراعيه وتتوسَّل إليه أن يذهب به مُسرِعًا!

الآن سميرة وفاطمة تنتظران وحدهما في البيت دون أيِّ أخبار عن الطفل. لم تتعرَّض سميرة لمثل هذه المعاناة في حياتها من قبل، ولا حتى عند ولادة طفلها. إنها هستيريَّةً، شِبهَ مجنونة، تتجوَّل في البيت، تُطلُّ من خلف الستائر، وتتساءل عمَّا يحدث لابنها. تصلي، وتبكي، وتصلي مرة أخرى، وتدعو الله لشفاء أحمد. أنقذت عملية نقل الدم حياة أحمد وهو نائم في المستشفى. حمدو لله... حمدو لله.

عرف مجيد أن سميرة عانت بسبب هذه المحنة. ومع ذلك، أعتقدُ أنَّ مجيدًا لم يشكِّك في أي وقت في صحة التقاليد التي منعتها من الخروج من البيت إلى المستشفى مع طفلها الذي كان على وشك الموت. وإذا ما شكَّكت سميرة في التقاليد في ذلك الوقت، فإنها قَبِلَتها في أوقات أخرى، لكن في النهاية نجا طفلها بإذن الله الرحمن الرحيم. وبدون إرادة الله ماذا عساها أن تفعل؟

كذلك لا يجوز للمرأة مرافقة أطفالها إلى المدرسة، وليس لديها أي اتصال مع مُعلِّميهم. ليس لديها معرفة بالعالم الواسع الذي يهدف التعليم إلى تقديمه لأطفالها.

هناك معهدٌ واحد لتدريب المعلِّمات في ليبيا، تديره ناظرة مصرية، حيث توجد فرصة مرة واحدة في السنة للأمَّهات والمعلِّمات للالتقاء في حفل للسيدات فقط. وكذلك يحضر الحفل عدد قليل من الأمهات يمثلن زوجات وزراء الحكومة الأكثر تطورًا اجتماعيًّا.

يدَّعي خبراء الأطفال أن التعليم يجب أن يبدأ في البيت. ويبدو أن محاولة محاربة الجهل والخرافات، ونقص شروط النظافة، وسوء التغذية المعتاد والأمراض المستوطنة، مع التدريب المدرسي للأطفال الذين يجب أن يعودوا كل ليلة إلى العصور الوسطى

في منازلهم، وإلى الأمهات اللائي يعشن في ذلك العالم - كل ذلك يجعل الأمر يبدو ميؤوسًا منه.

تلك هي ظروف حياة المرأة في المدن الليبية. ولا يمكن لوم هذه الظروف على اتِّباع تعاليم القرآن؛ لأن هذا هو القرن الذي تتبع فيه

دول إسلامية أخرى أسلوبَ حياة طبيعي وحرية نسبيَّة لنسائها. كان كمال أتاتورك قد أشعل سلسلة من النيران حينما أمر نساء تركيا بالتخلِّي عن حجابهن وحياة الحريم، وفَرَض ذلك بقوة القانون. ويمكنني تخيُّل مدى الضيق الذي ربما تَسبَّب فيه التعرُّض للعديد من النساء المُسِنَّات اللائي تمَّت تربيتهن على نمط حياة تقليدي، وقضين حياة كاملة مختبئات. بالنسبة لهن ربما كان الخروج للحياة العامة وخلع الحجاب سيِّئًا مثل التعرِّي تمامًا. لكن أتاتورك كان واقعيًّا، وأدرك قدرة المرأة الكامنة وحاجة بلاده للاستفادة منها.

في ضوء التنوير الذي أطلقه أتاتورك التركي في القرن العشرين من خلال موقفه تجاه المرأة، من المدهش معرفة أن الحجاب والعزلة فُرِضَتَا لأول مرة على المرأة الليبية خلال فترة الحُكم التركي والباشوات الأتراك؛ لأن العُزلة ليست جزءًا من ثقافة الإسلام. كان الهدف من الفرض هو الحفاظ على الأخلاق في البيوت الليبية وحماية المرأة من تلقّي الاهتمام غير المرغوب فيه من الغُزاة. لكن قواعد السلوك التي ربما كانت مناسبة للظروف قبل عدة مئات من السنين، ليس لها إلَّا إمكانية تطبيق ضئيلة في حياة ليبيا الحديثة. لقد تبيَّن لي أن الأمَّة الليبية غير عنيفة، وأنها مُتحضِّرة بكل الطرق- باستثناء موقفها من نسائها.

من الحقائق الملحوظة أنه حينما تسافر خارج المدن هنا، إلى بَرقَة البدوية، وبين الصحراويِّين الرُّحَّل، ومع بربر جبل طرابلس، فإن قوانين الحريم المعتادة أقلُّ مراعاة، وليس لها سوى وزن ضئيل، حيث تبرز لك شخصية الأنثى البرية الشبيهة بالغجر من وراء كل شجيرة وتردُّ على التحديق فيها بالمثل. في بعض الأحيان، تقوم هاته النسوة بعد مفاجأتهن، بإيماءاتٍ رمزيَّة لإخفاء وجوههن وراء محارِمهنَّ المتوهِّجة بلون الحِنَّاء، لكن في كثير من الأحيان يحملقن فيك كما تفعل تجاههن.

في حياة الريف الليبي، تحتلُّ النساء مكانةً مُهِمَّة. حيث يتشاركن مع رجالهن في مَهمَّتَيْن أساسيتيْن على الأقل، وهما المساعدة في

البذار والحصاد، وفي رعي الماشية. بالإضافة إلى ذلك، فالنساء وحدهن مسؤولات عن مَهمَّة ثالثة عاجلة بالقَدْر نفسه، وهي إمداد بيوت الأُسرَة بالمياه، حيث تُجلب على الأقدام، في كثير من الأحيان من آبار منعزلة على بعد عدة كيلومترات. في مثل هذه الآبار، يمكن سحب المياه بواسطة الحمير أو الجِمال ليوم واحد فقط في الأسبوع. سواء أكان ذلك إلى النجوع، أو أكواخ الطين والصفيح، فمَهمَّة نقل المياه من واجبات المرأة فقط. وهكذا تلعب المرأة الليبية دورًا حيويًّا في الروتين اليومي لحياة الريف.

في حياة المدينة ليس للمرأة موقعٌ حيويٌّ مُماثِل. فلا يُسمح لها بإظهار قدراتها الذاتية كإنسان، ناهيك عن قدرتها على المساهمة في ازدهار الأسرة ورفاهيتها. مسؤوليات بيتها محدودة، ليس لها مشاركة في الوظائف المدنية، ولم يتم اكتشافها بعدُ كقوَّةٍ اقتصادية فاعلة.

مع ذلك، وخلال تلك السنين القليلة قبل أن تبدو عليهن مظاهر الأنوثة وتدفعهن للاختباء، فالفتيات الصغيرات هنَّ مَن يجلبن الجَمال الوحيد والبهجة إلى شوارع بنغازي. هؤلاء الفتيات الصغيرات مُفعَمات بالطاقة والحياة، ويتحرَّكن مثل مُهرات مشحونات بالحيوية، وترفرف شعورهن الداكنة المتموِّجة، كما تحدِّق أعينهن اللامعة بجرأة، أو بتحدٍّ، أو بفضول في عيون شخص غريب مثلي. قد تبدو الشفاه في انحناءة متجهِّمة نحو الأسفل، ثم فجأة، وبصمت، مثل شعاع من ضوء الشمس من خلال باب مفتوح، تتحوَّل الوجوه إلى الودِّ، بابتسامةٍ جميلة. في مثل هذه اللحظة، يرى المرء ما يخفيه الرجال لأنفسهم خلف جدران عالية وأبواب مغلقة، وفي أفنية داخلية مخفية. هذه هي الابتسامة الذهبية نفسها التي أراها مقرونةً بفرحة ودهشة عند لقاء زوجات أصدقائنا في بيوتهم المنعزلة.

من بين الليبيات اللاتي أعرفهن جيدًا، هناك زوجتان فقط: إنصاف وبدرية، واللتان تجرَّأتا على كسر تقليد الحجاب. وهتان الاثنتان لديهما الكثير من القواسم المشتركة: كلتاهما حقَّقَتا مكانتها الجديدة من خلال رغبة أزواجهما في القيام بذلك، وكلتاهما فتاتان

خلال السنة الأولى من زواجهما، أيضًا فزوجاهما الشابَّان المتعلِّمَان اختارا زوجتيهما بالطريقة التقليدية، ورَغِبَا أن تكون حياتهما بهذه الطريقة.

تمَّ ترتيب الزواجين، باتِّفاق أن تكون مشاركة الزوجة إيجابية في أداء الواجبات الزوجية والحياة الأُسريَّة، وأن بإمكانها عدم ارتداء الحجاب حينما يكون ذلك ممكنًا، وألَّا تعيش في عُزلة. أقول «حينما يكون ذلك ممكِنًا»؛ لأن المرأة التي يُعرف بأنها ليبية ربما لا يزال يجري رَجمُها بالحجارة في شوارع طرابلس من قِبَل شباب جَهَلة، إذا ما خرجت من بيتها سافرة.

خديجة، الإذاعية الليبية الشهيرة، التي تُقدِّم برامج نسائية على الهواء، هي أول امرأة ليبية تتحدَّث في الإذاعة، وهي استثناءُ بالنسبة للِّيبيَّات؛ فهي سافِرة الوجه، وتحظى بالاحترام في كل مكان، ولكن كشخصية عامة أكثر من كونها زوجة، على الرغم من أنه سبق لها الزواج.

كلتا الزوجتين اللتين ذكرتهما تنحدران من عائلات راقية ومتعلِّمة، ولأبويهما أفكار تقدُّميَّة، حيث يطمح الآباء لأن تتخطَّى بناتهم ظِلالَ العُزلة. وكلتاهما تعملان في مجال التعليم، وبدرية تحديدا ناظرةُ مدرسة.

من المستحيل وغير المرغوب فيه على السواء أن تكسر المرأة الليبية العُزلةَ المفروضة عليها دون الموافقة الكاملة من زوجها، وكذلك من عائلتها. وسيكون من المستحيل تقريبًا على المرأة الليبية العادية -بجهلها بالحياة خارج بيتها- أن تتخيَّل أنها تعيش قطيعة مع التقاليد السائدة، ناهيك عن التخطيط والعمل من أجل ذلك. يجب على زوجها الذي يعرف العالم الخارجي بالفعل، أن يتخيَّله لها. قد تكون خجولة جدًّا بحيث لا تتمكَّن من الظهور بسهولة. فقد تَربَّت منغلقةً على جميع الذكور منذ سِنِّ الثانية عشرة حتى زواجها، ولا بُدَّ أنها ستعاني حينما تواجه غرفة مليئة بكلا الجِنسَيْن بوجه مكشوف.

حتى لو كان ممكنا للمرأة الليبية أن تسعى للتمتّع بحريتها، فلا تستطيع نيلها أو الاحتفاظ بها ضد رغبات أقاربها الذكور. فمن الممكن تمامًا أن يتمَّ التخلُّص منها، بهدوء وبسرعة، بناءً على رغبة زوجها أو أخيها أو والدها إذا انتهكت التقاليد بأي طريقة يمكن تفسيرها على أنها «عار»- وسيُنظر إلى هذا الفعل على أنه مُبرَّر. قد تكون هناك بعض الضَّجَّة في الأجهزة الشرطية، وبعض التحرُّكات لتحقيق العدالة، ولكن على المدى الطويل سيتم نسيان هذه القضية قريبًا.

بالمقارنة مع نساء العالم الغربي، ولأننا اعتدنا على حرية الفكر والحركة؛ ستكون حياة المرأة الليبية لا تُطاق بالنسبة لنا في الغرب؛ فهي عبارة عن سجن، لكن الحقيقة هي أن الحياة بالنسبة للمرأة الليبية نفسها لا تُطاق. وهي ليست سجنًا له جدران؛ فهي ليست مُقيَّدة بشكلٍ لا يمكن تَصوُّره، إنها مجرد حياة طبيعية كما تراها هي وجميع صديقاتها وعائلتها، وهي سعيدةٌ بها داخل دائرة عائلتها ومعارفها.

وما دامت المرأة الليبية نفسها راضيةً بشكل ما، فلماذا يجب على أيّ شخصٍ التحريض لكي تكون الأشياء مختلفة؟ لماذا يجب على أي شخص أن يحثَّها على الاستياء؟ لماذا أشعر أن صديقتَيْ الشابَّتَيْن اللتين خرجتا من دائرة العزلة قامتا بعمل مرغوب فيه؟ ولِمَ لا أشعر أنهما ربما كانتا أفضل حالًا ضمن التقاليد القديمة التي تكون فيها المرأة لعبةً للرجُل أو وسيلة لإنجاب الأطفال، أو هدفًا جنسيًّا، وهي راضية بكل ذلك؟

الإجابة الكاملة على هذا السؤال ليست بسيطة، ولكن الجانب العملي لها كذلك. ليبيا عام 1958 دولةٌ فقيرة باستثناء النفط الذي لا يزال مقامَرةً غير مُؤكَّدة، ولاستغلال مواردها النفطية بالكامل؛ يجب أن يكون لديها من يمتلكون المعرفة والتقنيات الضرورية. يجب أن يكون لديها مسؤولون ينفقون الأموال بحكمة، وليس جَهَلة مبذِّرين. ويجب أن تستخدم الطاقة القصوى لما هو في النهاية أعظم مَوردٍ طبيعي لأيِّ

أُمَّة، وهي طاقتها البشرية. واليوم، مع وجود نسائها في عُزلة؛ فإن خمسين بالمائة من هذه القوة الكامنة في ليبيا غير مُستغَلَّة.

كما تعاني ليبيا من نقص في عدد الموظفين والعاملين لكل نوع من التخصُّصات المختلفة، وخاصة بالنسبة للعمل الذي يتطلَّب الخضوع للتدريب وليس العضلات، ويحتاج للمهارة أكثر من القوة. متوسِّط دخل العامل الليبي ضئيل للغاية، وكذلك رواتب أفضل أفرادها تدريبًا. حيث يتلقَّى الذين يشغلون مناصب مسؤولة في الحكومة أكثر بقليل من خَدَم المنازل عند الأجانب. وتعتبر أيُّ إضافة لقدرة الأسرة على الكسب أمرًا حيويًّا.

داخل البيت الليبي يُعتبر الإلمام بأمور النظافة ورعاية الأطفال مَطلبًا أساسا في مهارات المرأة، وكذلك معرفة كيفية إعداد الطعام. لكن خارج حدود البيت هناك حاجة ماسَّة للنساء في مجالات التعليم، والتمريض، والخدمات الاجتماعية، والطباعة، وأعمال السكرتاريا، ومقسمات الهواتف، والعمل في المصانع. ولكي تزدهر ليبيا كأمَّة؛ يجب أن تبدأ نساؤها في العمل بأقصى طاقاتهن، داخل البيوت وخارجها.

ليبيا ليست وحدة جغرافية ولا عِرقيَّة، وولاياتها الثلاث ملتصقة ببعضها البعض بسبب الكراهية المتبادلة أكثر من الحب المشترك. فهنا توجد أمَّةٌ عربية بارتباطاتها الروحية بالشرق الأوسط مع اعتمادها على المساعدات المادية القادمة من الغرب. فإذا ما تحوَّلَت نحو المشرق بالكامل فإنها تجوع، وإذا تحوَّلَت إلى الغرب بالكامل فسوف تتعرَّض للهجوم من المشرق بتُهمَة الخيانة. اليوم تميل ليبيا إلى الغرب قليلًا بِيَدٍ مفتوحة، لكن العيون في مؤخِّرة رأسها مُسلَّطة على القاهرة، وقلبها ينبض لعبد الناصر، بطل الشرق الأوسط وشمال إفريقيا العربي. لكن حتى في هذا الموقف الصعب، فمواقف ليبيا التي تعلنها محسوبة بدقَّة، حينما تكون أقوالُ مَن يتحدث عنها عنيفة. وصوتها هادئ حينما يصرخ مَن حولها. وأفعالها مُقيَّدة حينما تمارس الدول الشقيقة الطعن والقتل، والابتسامة الليبية ودودة حينما يعبسُ الآخرون.

يُعْزَى الكثير من هذا بشكل مباشر إلى حنكةِ ملِكها، السيد محمد إدريس السنوسي؛ فهو في السبعينيات من عمره، وقد عُرف عنه الورع حتى قبل أن يصبح ملكًا. تأثيره الحميد ومُثُله الأخلاقية لا تُحصَى، ويُقال دائمًا إنه لن يكون هناك عنفٌ داخلي في ليبيا ما دام الملك إدريس على قيد الحياة، ولكن أيضًا يُطرح التساؤل البديهي: ماذا سيحدث حينما يموت؟

ذهبت يومًا لزيارة إنصاف، وهي شابَّةٌ ليبية متعلِّمة، وزوجة صديق. عند وصولي، كانت على وشك مغادرة بيتها والسير إلى مدرسة البنات حيث تعمل معلِّمةً، لكن وفي ضيافة ليبية حقيقية أصرَّت على العودة معي إلى الشقة حتى أرى الصغير عليًّا مرَّةً أخرى، وأرى نموَّه الصحّي. عليٌّ، البالغ من العمر ستة أسابيع يبقى في رعاية جَدَّته البدوية، التي تعيش مع إنصاف وزوجها، بينما تقوم إنصاف بالتدريس.

الجَدَّة هي التي تفتح الباب لنا، مرتديةً زِيَّها البدوي، مع سروالٍ عربي طويل وفضفاض يمكن رؤيته بوضوح تحت طَيَّات عديدة من ردائها المخطَّط باللونين: الأحمر والبرتقالي. بشرتها زيتونية، والوشم القَبليُّ الأزرق يميِّز وجهها، لكنَّ عينيها مُشرِقتان ودافئتان. لا يمكننا سوى تبادل التحيات المهذَّبة باللغة العربية، لكن اللطف والضيافة ودفء الترحيب ينبعان منها، مثلما تنبعث رائحة البخور.

نجد عليًّا نائمًا في سرير والِدَيْه، محاطًا ببطانيات بيضاء للأطفال، وجهه الوردي والأبيض محاط بطاقية مطرَّزة، ويداه الصغيرتان تبدوان مثل أزهار مجعَّدة من أكمام سُترَته المخيطة يدويًّا.

الأم والجَدَّة وأنا نحيطُ جميعًا بإعجاب حول عليٍّ، على الرغم من أنه نادرًا ما تجتمع ثلاث نساء ينعدم الشبه بينهنَّ مثلنا: أمٌّ ليبية شابَّة وجميلة، وجَدَّةٌ بدوية مُسِنَّة، وزائرةٌ أميركية في منتصف العمر. ومع ذلك نتصرَّف بالطريقة نفسها تجاهه، وفجأة يصحو الطفل من نومه ويطلق ابتسامةً عريضة وجميلة، فتهمس أمه بالإنكليزية: «ابني يبتسمُ لي!»، وفي الأثناء تهمس الجَدَّة لعليٍّ بعبارات التَّودّد الليبية.

هنا في هذه الغرفة كل شيء نظيف، وكل الشقة الصغيرة التي أعرفها جيدًا، بممتلكاتها الثمينة للعروسين وهدايا الزفاف المتنوِّعة والغريبة، والتي يتمُّ الاعتناء بها بمحبَّة- كل شيء يلمع ومصقول. ها هو إبريق الشاي الإنكليزي الأبيض المصنوع من الخزف الصيني، وهناك الإبريق الصغير المصنوع من المعدن الأزرق للشاي الليبي، يوجد أيضًا مفرش طاولة من القطن المطبوع بالزهور، وهناك حصائر الطعام الليبية المستديرة المنسوجة من السَّعف، هنا وسائد قطنية باهتة على أريكة الجلوس، وهناك سجادة منسوجة من صوف الغنم على الأرض. يوجد وعاء به عدد قليل من الزهور الاصطناعية؛ لعدم وجود أزهار في بنغازي، وبجانبها جِردٌ ليبي محلي الصنع.

في هذا البيت حيث ينمو ويترعرع رضيعٌ ليبيٌّ، يُلاحَظ تجسيرُ الهُوَّة المتواصل بين الأزمان والبلدان. وهنا يدرك المرءُ عدم وجود فجوة كبيرة بين الجَدَّة البدوية وهذا المواطن الصغير الجديد في المملكة الليبية الحديثة. نغادر أنا وإنصاف الشقة معًا، نرتدي ثيابًا متشابهة من التنانير الصوفية والقمصان والمعاطف المصنوعة من الصوف، نتوجَّه نحو مدرستها ونثرثر. بينما رياح الجنوب تهبُّ في وجوهنا قويَّةً وباردة، والسماء شاحبة في منتصف النهار: امرأتان تتمتَّعان -لحُسنِ حظهما- بحُرِّيَّةِ رؤية ومعرفة كل شيء عنهما، والإحساس به.

24. قبصة من مسحوق سحري

جاءت إلى بوَّابة بيتنا بعد ظهر اليوم فتاة بدوية بصحبة أحد الصبية، ربما يبلغ عمرها أحد عشر عامًا، وطلبت من لينا أن تنادي على «الماما»، وحينما خرجتُ لأرى ما يريدون، عرفت أنهم يطلبون مني الذهاب معهم إلى نجع البدو المجاور لرؤية والد الفتاة المريض. الشاب المرافق لها -والذي بدا مألوفًا لي- عرَّف سريعًا عن نفسه على أنه «رمضان»، نجل المرأة المريضة التي طُلِبَ مني مساعدتها قبل بضعة أسابيع، في النجع البدوي الفقير نفسه. كانت تلك المرأة تسعل دماً حينما رأيتها، وأخذتها إلى المستشفى الحكومي.

«كيف حال والدتك الآن؟ هل ما زالت في المستشفى؟» سألتُ الصبي.

«لا، سنيورة، لم تُحِبَّ البقاء هناك حيث لا يمكننا تناول شايها القوي في المستشفى. أنت تعلمين فوائد شاينا القوي. أيضًا، كان الطبيب يغضب منها بسبب البصق، وعلى أي حال لا يوجد أحدٌ يعتني بها في المستشفى».

«ومن يُمرِّضها في البيت؟».

«جَدَّتي التي تقوم بكَيِّ ظَهر أمِّي في اتجاهات متقاطعة، وهذا يعالج سعالها».

هنا تساءَلتُ عن سبب اصطحاب رمضان للفتاة حليمة التي اتَّصل بها لطلب مساعدتي، حيث لم أكن مُستعدَّةً لكَيِّ ظَهرِ أحد، ومع ذلك، حتى وأنا أتساءل، كنتُ أعرف أن الإجابة مكتوبة على الوجهين الصغيرين القَلِقَيْن. كانا يأملان، ويبحثان -دون يقين- عن مساعدة ما ومن أي مكان. فقد يكون لديَّ قليل من مسحوقٍ سحريٍّ ما في جيبي!

وصل هاري الآن إلى البيت، فطلبتُ منه مرافقتي لرؤية الرجل. قلت وشعور

بالذنب يلفُّني: «لا أعرف كيف دخلتُ إلى هذه الممارسة الطبية، فلستُ حريصة على تقليد فلورنس نايتينغايل!»*.

قالت لينا بنبرة اتِّهاميَّة: «أعرف كيف بدأ الأمر. ذلك بعدما ضمَّدتِ جروح العُمَّال المجاورين حينما تعرَّضوا لحوادث. الآن سيأتون إليك دائمًا!».

«بدأ ذلك حينما جَرحَ صديقُ عليٍّ قدمه، وأتى إلى هنا طلبًا للمساعدة، واتَّصلتُم بي لأذهب لمعالجته!» دافعتُ عن نفسي.

وأضاف جورج: «على أي حال، كان على أمِّي أن تُضمِّده جرحه؛ فقد كان ينزف على بساطنا!».

على الرغم من عدم قيام جورج أو لينا في البداية بدور نشط في برنامج المساعدة المحلية غير الطوعي، إلا أنهما كانا دائمًا ينتقدان تحرُّكاتي ويُقدِّمان النصيحة، حيث كنتُ أغسل جروح غرباء في حوض الاستحمام. وقبل أن يغادر المصاب، يكون جورج قد تبرَّع له بسيغارة، ولينا بفنجان من القهوة، والذي ربما كان له التأثير العلاجي نفسه. في ذلك الوقت، كنَّا المصدرَ المحليَّ الوحيد للمياه الجارية، وممَّا لا شَكَّ فيه أن غسل تنظيف الجروح له تأثير أكبر من أي شيء آخر.

الآن يرمقني هاري بنظرةٍ لا مبالية، ويقول: «بشرط أن نعود إلى البيت قبل حلول الظلام».

حينما غادرنا مع رمضان وحليمة، شخرت لينا استنكارًا. كانت السيارة متوقِّفة أمام البوابة، مُحاطَة بأطفال من المنطقة كانوا في طريقهم إلى المدرسة، حيث تستمر فترة ما بعد الظهر حتى الساعة الرابعة والنصف. اكتشفَت حاسَّتُهم السادسة رمضان وحليمة في بيتنا، وكانوا مُصمِّمين على ركوب السيارة معنا لإعادتهم إلى بيوتهم. أعتقد أن ثمانية منهم تمكَّنوا من الحصول على مكان لهم في السيارة

وخارجها، ثم انطلقنا إلى الريف بناءً على توجيهات حليمة. تركنا الطريق وانطلقنا فوق سهل الحجر الجيري، ونجحنا في تجنُّب الحفر ووصلنا في غضون دقائق قليلة إلى مجموعة من البيوت المشيَّدة من بقايا الصفيح المموَّج المُتحَصَّل عليه من أسقف الثكنات العسكرية المفككة.

شكَّل جدارٌ -أو زريبةٌ من الأغصان اليابسة المكدَّسة بجوار بعضها- فناءً صغيرًا، بداخله بقرة، وعنزان، وعدَّة كلاب هزيلة، وعدد لا يحصى من الأطفال الصغار. دخلنا الغرفة الوحيدة في غرفة العجاف فقابلتنا امرأة في منتصف العمر وشابَّان وسبعة أطفال. كان رجُلٌ عجوز هزيل بشكل مؤلِم يرقد على بساط في الزاوية، وأقول «رجُل عجوز» افتراضًا، لكن ربما هو في الأربعين تقريبًا. وهذا هو المريض. استقبلنا الجميع -بمن فيهم المريض- بأدبٍ شديد، مستخدمين التحايا العربية والإيطالية.

حينما رأيت كيف بدا هذا الرجُل الضئيل مريضًا، ومدى بؤس محيطه؛ شعرت بالمرض الشديد لاعتقادي أنه ليس لديهم مَن يلجؤون إليه سواي. وأن عليَّ مساعدتهم؛ فلن يخرج أي طبيب إلى هذه الحالات هنا؛ لأن الأطباء جميعًا يعملون فوق طاقتهم في المستشفى. لم يتمكَّن العجوز من الوصول إلى المستشفى لأن الحافلات لا تصل إلى هذا المكان، وليس هناك درَّاجة في الموقع، وحتى في حال وجودها لن يتمكَّن المريض من ركوبها عبر المدينة إلى المستشفى. وماذا عن سيارة أجرة؟ حسنًا، مَن سمع يومًا عن بَدويٍّ ما يستدعي سيارة أجرة!

بدا أن الرجل يعاني كثيرًا، وحينما طلبتُ منه أن يوضِّح لي مكان الألم وضع يده على جانبه الأيمن في الأسفل، وإلى حضنه تقريبًا. كما يعاني من آلامٍ في ظهره. تحسَّستُ الموضع برفقٍ بيدي، متسائِلةً عن احتمال الإصابة بالتهاب الزائدة الدودية، أو من مشكلة ما في المسالك البولية. وحينما لمستُ أسفل حضنه تأوَّه بشدَّة. قام هاري بفحصه أيضًا، واتَّفقنا على أنه لا يوجد ما يمكننا القيام به على

مسؤوليتنا الخاصة، يجب أن يذهب إلى المستشفى ليكون تحت رعاية الطبيب. ولدهشتي، وافَقَ جميع الحاضرين عن طيب خاطر، خاصَّةً حينما عرضنا نقله في سيارتنا.

سرعان ما أحاط كلُّ مَن في الكوخ بالرجل لمساعدته في ارتداء ثيابه، وببساطة حشر عظامه المتهالكة في معطف قديم للجيش البريطاني مُعلَّق على الحائط، والذي هو -كما أتخيَّل- معطفٌ تتبادَلُ ارتداءه العائلة بأَسْرها. ثم تحرَّكَت الأسرة بأكملها تحت المريض، مثل نمل يحمل جزيئًا كبيرًا من الطعام، ونقلوه إلى السيارة. طلبنا من حليمة أن تأتي معنا؛ لأنها تتحدَّث القليل من الإنكليزية.

وصلنا إلى المستشفى بسرعة، وبينما أوقف هاري السيارة، وضعنا المريض في قسم الطوارئ. هنا قام الطبيب المصري بفحصه ظاهريًّا على النقَّالة، وقال إنه يعتقد أنه مُصابٌ بمَغصٍ كلويّ.

قال لنا: «أعيدوه غدًا، وسنقوم بفحصه بالأشعة بحثًا عن حصوات في الكلى».

قلتُ له: «لا يمكنني اصطحابه إلى البيت وإعادته مرة أخرى. إنه مريض للغاية! وظلَّ يئنُّ طوال الطريق، ولا تستطيع عائلته فِعلَ أي شيء من أجله. أرجوك دعوه يبقى في المستشفى وحاولوا علاجه».

«من الأفضل أن تعيدوه إلى البيت؛ فأسِرَّتُنا مشغولة بالكامل».

«لا أستطيع أخذه، إنه مريض للغاية. ألا يمكنك إعطاؤه فرشة وبطانية على الأرض وإعطاؤه الدواء هنا؟ وعلى أي حال ليس لديه سرير في البيت».

بينما نحن نتجادل، كانت حليمة، ذات الوجه الساحر والمشرق الذي يشعُّ ذكاءً، مشغولةً بمراقبتي أنا والطبيب والممرِّض والغرفة وكلَّ ما حولها باهتمام شديد. وأخيرًا وافق الطبيب على إبقاء العجوز تحت المراقبة لمدة ثلاثة أيام. فهِمَت حليمة فحوى المحادثة على الفور، وسألتني بسرعة إن كنتُ سأحضر غدًا لرؤية أبيها، وهو اقتراح تجاهلته في حينه، لكنني سأوافق عليه بلا شك.

قال الطبيب للمريض بفظاظة أن ينزل من القاعة إلى مكتب الإيواء. ونظرًا لأنه لم يكن قادرًا تمامًا على القيام بذلك بمفرده، فقد أنزلته أنا وحليمة من النَّقَّالة وألبسناه معطفه القديم مرَّةً أخرى وحملناه إلى المكتب. هناك انهارَ الرجل في كرسيٍّ وجلس خاضعًا، فبدا وكأنه شبحُ جُنديٍّ عجوز، بينما استجوبه الموظف طلبًا لمعلومات غريبة لم يكن الرجل العجوز يملكها لتدوينها في بطاقة الإيواء.

كانت حليمة مليئة بالثقة الآن، بينما بدأتُ أتساءل عمَّا إذا كنتُ قد فعلت الشيء الصحيح لهذا الرجل.

«ولكن ماذا يمكننا أن نفعل أيضًا؟» قلتُ لهاري. «لم نستطع تركه في الكوخ دون مساعدة طبية- لكن أيضًا على الأقل كان لديه أهله هناك. ولكن هنا في المستشفى، هم فقط لا يهتمُّون!».

قال هاري: «الحقيقة هي أننا لا نستطيع فعل أي شيء، لكننا لا نحب الاعتراف بذلك!».

حلَّ الغسق، وكانت حليمة تنطّط في المقعد الخلفي بينما نشقُّ طريقنا عبر السهل المليء بالحفر في الظلام. قلتُ لنفسي: «على أي حال، حليمة تستمتع بذلك». وصلنا إلى المكان، وسرعان ما أحاط بالسيارة حَشدٌ من الأطفال المنتظرين الذين نزلَت حليمة في وسطهم، لكنها لم تنسَ أن تشكرنا.

«وداعًا، سنيور وسنيورة. شكرًا لك سنيورة. حليمة تذهب معك لترى بابا غدًا؟».

«ربَّما يا حليمة».

في صباح اليوم التالي، عند الساعة السابعة صباحًا، كانت حليمة تنادي «ماما» عند البوابة أمام البيت. «هل ماما مستعدَّة للذهاب إلى المستشفى؟، أخبرتها لينا أن الوقت لم يَحِن بعد، وأن تعود بعد ساعة. بعد دقيقتين نظرتُ من نافذة غرفة نومي ورأيت هيئتها الرَّثَّة الضعيفة وراء سور حديقتنا حتى وصلَت بالقرب من نافذتي. لوَّحَت لي حينها، وصرختْ: «نذهب الآن لأبي!».

حليمة

«لا. نذهب لرؤية بابا في الساعة العاشرة. ما زال من المبكِر دخول الزُّوَّار».

صرَخَت حليمة، وهي تلوِّح بجنون بقطعة ورق خضراء في وجهي: «لا، لا. بابا في البيت الآن. بابا جاهز الآن للذهاب إلى المستشفى من أجل الصورة».

«يا إلهي!» فكَّرتُ في دهشة وتساؤل. «بابا لديه طاقة أكثر ممَّا لديَّ!». أسرَعتُ إلى الخارج وألقيتُ نظرة على قسيمة حليمة الخضراء، فرأيتُ أنها كانت قسيمة دخول إلى المستشفى لإجراء أشعة إكس.

قالت حليمة: «أسرعي الآن. بابا يذهب إلى المستشفى لالتقاط صورة». «كيف عاد بابا إلى البيت؟» سألتُ باحترام.

الآن اشتبك عليٌّ في حوار درامي بالعربية مع حليمة، وقد كان يستمع من فوق السياج؛ ونتيجة لذلك قال لي: «والدها عاد إلى البيت الليلة الماضية لأن المستشفى لم يوفِّر له مكانًا للإقامة. الآن والدها مريضٌ أكثر من أمس. وحليمة تطلب أن تعيديه إلى المستشفى لصورة الأشعة، من فضلك».

أذهلني الصمت تمامًا أمام صورةٍ تَخيَّلتها لشبح الجندي العجوز وهو يترنَّح بمفرده عبر السهل المليء بالحُفر في الظلام، وكنت على استعداد لتقريع المستشفى بسبب ما حدث.

قلتُ بهدوء: «حسنًا. سأعيده الآن. لكن يجب أن يبقى في المستشفى لأنه مريض جدًّا، ولا يمكنني نقله ذهابًا وإيابًا كل يوم. يجب أن يبقى هناك».

أومَأَت حليمة بموافقتها الكاملة وقفَزَت من الحائط داخل الحديقة وهرعت نحو المطبخ، بعد دقيقتين سمعت لينا وهي تقدِّم لها القهوة، وكنتُ حائرة بين الضحك والبكاء.

عُدتُ مع حليمة إلى الكوخ من أجل بابا. انتظرت بالخارج هذه المرة، بينما اندفع جميع الجيران لتجهيزه للذهاب معنا. بعد خمس دقائق من الارتباك، خرَجَت حليمة لتؤكِّد: «أبي مريضٌ جدًّا ولا يمكنه الخروج. تعالي أنتِ!».

دخلت فرأيت أن بابا كان شبهَ واعٍ، يهذي ويئنُّ مع كل حركة، ويبدو أنه عاجز تمامًا. بجانبه وقف رجلان مُسِنَّان وهزيلان، ويبدوان بنفس القدر من العجز.

قلتُ: «يجب نقله إلى المستشفى»، وقد عقَدتُ العزم على أن بابا لن يموت هنا دون بذل جهدي الأخير حياله. بينهما، كان الرجلان الضئيلان أقل ضعفًا ممَّا يبدوان، حَمَلَا بابا ودفعاه في سيارتي، وبعدها تمَّ تسليم زوج من الأحذية البالية، ووُضع معطف العائلة فوقه برفق. ثم ركبت حليمة بجانبي، وبدأنا الرحلة مرة أخرى.

في المستشفى، توجَّهتُ مباشرة إلى بوابة الإيواء باحثة عن الطبيب المصري الذي وعدني الليلة الماضية بإدخاله. لم أجِد أحدًا في المكتب باستثناء عدد قليل من المرضى الذين أخبروني أن الأطبَّاء والمساعدين في العيادات الخارجية هذا الصباح.

توجَّهتُ بعد ذلك إلى مكتب الأشعَّة السِّينيَّة، الذي عرفتُ موقعه منذ أن تمَّ تصوير كوعي المكسور. أوقَفتُ السيارة على الفور أمام المكتب، تاركةً حليمة وبابا والصغار في السيارة، ودخلت. كان المكتب مكتظًّا بالمرضى، لكن لم يكن هناك أخصائيٌّ أشِعَّة. ذهبت بجوار غرفة العمليات، ووجدت السِّستر الإيطالية التي اعتقدَت أنني أواجه

مشكلة في ذراعي، وعندها أخبرتها أن ذراعي بخير ويرجع الفضل إلى الدكتور الإيطالي غويريرا.

«اليوم أحضرتُ ليبيًّا مريضًا للغاية، من المقرَّر أن يتِمَّ تصويره بالأشعة السينية، ويجب إدخاله إلى المستشفى كمريض».

هزَّت رأسها بأسفٍ وقالت: «ليس لدينا سرير شاغر في المستشفى».

«من فضلك تعالي لتريه على أي حال. ربما يمكنك تدبير مكان له».

خرَجَت معي إلى السيارة، بينما جلس البدو الصغار في صمتٍ كئيب لا تقطعه سوء آهات وجع الأب. حينما رأت الأخت المرضة أن الرجل كان مريضًا حقًّا وغيرَ قادر على المشي، قالت إنها ستحاول الحصول على نقَّالة غرفة العمليات بمجرد أن تصبح متوفِّرة.

بعد نصف ساعة، تمَّ إخراج مريض من غرفة العمليات على نقَّالة، وبعد بضع دقائق استولى عليها الممرِّض وأحضرها إلينا، ثم قام هو والأخت بوضع مريضنا وذهبت معه إلى غرفة الأشعة. كما وعَدَت أنها بعد كشف طبيب الأشعَّة على المريض، ستحاول العثور على الدكتور غويريرا للحديث معي عن المريض.

انتظرتُ أنا وحليمة ساعة، ثم عاد سالم، البدوي الأصغر الذي ذهب مع بابا إلى غرفة الأشعة، وطلب مني الذهاب لرؤية أخصائي الأشعَّة. دخَلتُ ووجدت شابَّةً إنكليزيَّةً قالت لي: «يمكنك أن تأخذي العجوز إلى البيت الآن. تمَّ الانتهاء من التصوير».

«من المستحيل العودة به إلى البيت. يجب أن يبقى في المستشفى».

«هذا ليس شأني. يُرجَى مراجعة المدير الدكتور 'الصغيّر'، الذي يُقرِّر الإيواء لجميع المرضى. سوف يأخذك الممرض إليه».

خارج غرفة الأشعة السينية التقيتُ بالدكتور كلوغ، وهو طبيب ألماني نَشِط، قابَلتُه لأول مرة حينما جاء إلى بيتنا لعلاج صديقنا جان. ومثل كل الألمان الذين قابلناهم، كان معاديًا للنازية ولهتلر. تَفاجَأ برؤيتي اليوم، وسأل أيضًا: «حسنًا، ماذا تفعلين هنا؟ سَمِعتُ أنك كسَرتِ ذراعَكِ. هل هذا ما يزعجك اليوم؟».

«ذراعي بخير الآن بفضل دكتورك الرائع غويريرا. أنا بخير. لكنني جئتُ بخصوص رَجُلٍ ليبي»... وشرحتُ مرَّةً أخرى بإيجازٍ قدرَ المستطاع.

ابتسم بنوع من السخرية، وقال بنبرة جافَّة: «هذا لطفٌ منك، أنا متأكد. ويبدو أنك جارة عطوفٌ». وقدَّرتُ أنه يصنِّفني بسرعة كواحدة من هؤلاء الأميركيين السذّج الذين يتسبَّبون في مشاكل. وعلى أي حال، أثَّرَت نبرته فيَّ.

«كلَّا، لستُ جارةً عَطوفًا، ولا أحاول أن أكون كذلك، ولا أطلبُ من أي شخص أن يظنَّ أنني كذلك!» أعلنتُ بوضوح. «هذه حالةٌ من القِيَم السالبة، فهنا عجوز مريض، فقير وعاجز، تطلبُ مني ابنته المساعدة ولديَّ القدرة على مساعدته. لم أتبرع للقيام بذلك، لكنني سأكون متوحِّشةً إن لم أفعل! فهذا الرجل مريض ويحتاج إلى رعاية. عليكَ بإيوائه بالمستشفى، وأرفض المشاركة في موته بإعادته إلى كوخه مرَّةً أخرى!».

قال الدكتور كلوغ بهدوء: «لنذهب ونرى الدكتور 'الصغيِّر'». ورأيتُ أنه يضفي عليَّ المزيد من التقدير أكثر ممَّا فعل من قبل. «قسم الجراحة يغصُّ بالمرضى بالفعل. لكن ربما يمكننا نقله إلى الجناح الطبي إذا لزم الأمر. أوَّلًا، يجب أن نرى التشخيص».

بوجود البابا على النقالة، وسالم يهرول بجانبه، وحليمة ممسكة بتنُّورتي، عبرنا الساحة إلى المبنى الرئيس وشققنا طريقنا عبر المرضى المساكين، واقتربنا من مكان الدكتور الصغيِّر. طَرَقنا الباب فظهر الدكتور كلوغ، ودخلنا معًا المكتب الداخلي واقتربنا من رَجُلٍ بشَعرٍ ووجه رماديَّين، ومظهر مُتعَبٍ، بعينٍ واحدة صافية والأخرى شبه

مغمضة: الدكتور الصغيِّر. وقدَّمني الدكتور كلوغ على أنني صديقة عزيزة، وبدعوة منه جلستُ وأخبرته بقصتي مرة أخرى.

استمع إليَّ دون تعليق، وربما دون فهمٍ للغتي الإنكليزية. ومع ذلك، تحدَّث الدكتور كلوغ بسرعة: «أعلم صعوبة الأمر بالنسبة لك، وأنه نظرًا لعدم توفُّر أَسِرَّة للجميع فيجب أن نختار مَن نقبلهم. أيضًا، لا يمكننا استقبال المرضى الذين لا نستطيع مساعدتهم، والذين لا يمكن علاجهم، فسوف يملؤون العنابر حتى يموتوا. يجب عليهم إعطاء مكان لأولئك الذين يمكننا مساعدتهم».

أجبتُه: «أنا متأكِّدة أن هذا الرجل مريض حقًّا. لستُ طبيبة، ولم أستطع إلَّا أن أحضره إليك. هذا هو المكان الوحيد في العالم الذي يجب أن يأتيه هذا الليبي المريض للمساعدة، ويجد فيه العناية. ربما ما أفعله لن ينفعه على المدى الطويل. لكن لا يَحِقُّ لي أو لغيري الاستهانة بحياة هذا الرجل».

قال الدكتور كلوغ: «بالطبع -كطبيب- من واجبي دائمًا أن أحاول إنقاذ الأرواح. لكن لدينا الكثير ممَّن يأتون إلى هنا ويتظاهرون بأنهم مرضى، إمَّا لأنهم متعبون أو يريدون فقط الهروب من العمل. جاء رجل إلى هنا خمس مرَّات يشكو من ألم شديد من مغص كلوي. وبعد خمس دقائق من دخوله المستشفى، كان يُعدُّ الشاي في الممر ويذرع المكان وهو يدخِّن».

«أعلم أن لديك الكثير الذي تعانيه هنا، دكتور، وأعلم أنك تقوم بعمل رائع بدون توفُّر إمكانات جيدة، كما رأيت من الطريقة التي اعتنى بها الدكتور غويريرا بذراعي. لكنني على يقين من أن مرض هذا البدوي الضعيف ليس مزيفًا».

قال الدكتور كلوغ: «سأفحصه بنفسي وأرى صور الأشعة، وإذا لزم الأمر سوف نُدخِله في الجناح الطبي بطريقة ما. فهيّا إلى مكتبي حتى أفحصه».

صافَحتُ الدكتور الصغيِّر الذي لم ينبس ببنت شفة وبدا مرتاحًا لأنه تجنَّب اتخاذ أي قرار. تركنا مكتبه، وعبرنا الفناء إلى مبنى آخر وصعدنا إلى الطابق العلوي. دخلت مكتب الدكتور كلوغ وقدَّم لي المرأة الألمانية الجذابة الجالسة وراء المكتب على أنها زوجته، وجلستُ.

«هل أنتِ هنا منذ فترة طويلة؟» سألتها.

«عدَّة سنوات... وهي طويلة جدًّا!» قالت بحسرة.

«ألا تُحبِّين المكان هنا؟».

«وكيف يمكنني أن أحبه؟ لا نحظى بأي سَلامٍ أبدًا! حيث يعمل زوجي في المستشفى طوال اليوم، وحينما يعود ليلًا، يتبعه الناس إلى البيت في جميع الأوقات ويطلبون مساعدته. وهم لا يقبلون أيَّ عُذر. ينتظرون وينتظرون في الخارج، وفي النهاية يُصرُّون على الدخول بطريقة أو بأخرى لرؤيته. لكن لا يمكنه العمل في الليل والنهار معًا! كما أنه إنسان. يجب أن أحاول الوقوف دائمًا بين الناس وزوجي؛ لهذا السبب أصبحت أكره الناس. لا يمكنني الشعور بالشفقة تجاههم دائمًا لأنهم يزعجونني كثيرًا! يتسلَّقون سور بيتي، ويدخلون بابي، وينتظرون بجانب سيارتي! مرضى، مرضى، مرضى في كل مكان! أعتقد أن هذا أيضًا يجعلني أشعر بالمرض!».

تخيَّلتُ تمامًا هذا الاستفزاز المتواصل للطبيب وزوجته بعد أن تذكَّرتُ إصرار حليمة على الوصول إليَّ من فوق سور بيتي. مرضى ومرضى في كل مكان! وماذا يمكن للمرء أن يفعل حيال ذلك، إلا إذا كان بإمكانه توفير عشرة أضعاف العلاج في المستشفى، ومئات أضعاف عدد الأطباء والممرضات، ودورات كاملة في جميع أنحاء البلاد للنظافة البيتية ورعاية الأطفال؟

عاد الطبيب بعد دقائق، وقال إنه شاهد صور الأشعَّة وفحص المريض وأضاف: «سندخله إلى المستشفى في الوقت الحاضر».

«حسنًا، شكرًا جزيلًا لك دكتور. ما هي مشكلته؟».

«تشيرُ الأشعة السينية والتشخيص إلى أنه يعاني من السَّلَ والالتهاب الرئوي وحصوات في الكلى».

ودَّعتُ الطبيب وزوجته، وأنا ممتنَّةٌ جدًّا لأنه لم يُعِد المريض إليَّ لينقل إلى بيته ليموت. في طريقي إلى الطابق السُّفليِّ، مرَّ بي البدوي الأصغر مُسرِعًا إلى الأعلى حامِلًا حذاء البابا ومعطفه، والذي كنت أخشى أنه لن يحتاجهما قريبًا.

كانت حليمة تنتظرني في السيارة، وحينما عاد سالم، رجعنا عائدين عبر سهل الحجر الجيري إلى السياج المحاط بذلك المكان الذي أطلقوا عليه اسم البيت. وصلنا وكان المكان هادئًا، حيث معظم الأطفال في المدرسة، وكان الماعز في الخارج يرعى بعيدًا في حي الحدائق، بينما البقرة تُسمِّده بالفضلات. شكرني سالم وحليمة بأدب شديد على اصطحاب بابا إلى المستشفى، وقبل أن أغادر، قالت حليمة: «حليمة تذهب لرؤية بابا غدًا؟».

كنتُ أتوقَّع هذا، وقلت: «با إدي بوكرا» أي «بعد الغد»، وأنا أفكِّر أن كل يومٍ نفوِّته نكسِب شيئًا جديدًا.

---

* Florence Nightingale ممرضة بريطانية (12 مايو 1820 - 13 أغسطس 1910) تعرف برائدة التمريض الحديث ويطلق عليها اسم «سيدة المصباح». المترجم

25. استبدال خِرَقٍ قَذِرة

جروحهم دائمًا مربوطةٌ بخِرَقٍ مُتَّسِخة. وأعتقد أن الخِرَق القذرة هـي التي تشغلني دائمًا: يجب أن أتخلَّص من تلك الخِرقَة القذرة! وبعد ذلك، بمجرَّد تعرية الجرح، قد أغسله جيدًا وأضمِّده؛ فبعد كل شيء: لديَّ مياه جارية، والبدو من حولي ليست لديهم، ولديَّ ضماداتٌ نظيفة، بينما لديهم خِرَقٌ مُتَّسِخة. ومع ذلك لا أعتقد أنني أرى نفسي فاعِلةَ خَير. بتعبيرٍ أدقَّ: أنا امرأةٌ لديَّ رغبة قوية لترتيب الأشياء: الخِرق، والجروح، والأشخاص، والبيوت.

الآن، المشهد من نوافذنا -الذي يمكن رؤيته من خلال الغبار الأحمر- يتغيَّر تدريجيًّا. أمامنا، وعلى يسارنا، شُيِّدَت ثلاثة منازل، وفوق البيت الأوسط يرفرف شعار الاتحاد السوفييتي؛ فهذا هو موقع السفارة السوفييتيَّة، وقد تمَّ رَفعُ الجدران لتكون أعلى من تلك الموجودة حول جيرانها، وتمَّ جعل بواباتها الحديدية أكثر مَنَعةً، وأمامها توجد حراسة من الشرطة.

هناك يتحرَّكُ الشرطي جيئةً وذهابًا حتى يحين موعد تغيير الحارس، وأحيانًا يأتي إلينا لتناوُل فنجان من القهوة (يجب أن يكون المرء دائمًا صديقًا للشرطة!)، وبعد ذلك يتوجَّه إلى محلٍّ صغير في الشارع لشراء الخبز. شُيِّد هذا المتجر من الصفائح المعدنية الصَّدِئة من مُخلَّفات الحرب السابقة. وصاحب المتجر رجُلٌ جادٌّ المظهر، ولطيفُ أيضًا، متجره مُحاطٌ دائمًا بمجموعة من الرجال يثرثرون أغلب الوقت، يدخِّنون ويبصقون، ويتحدَّثون في السياسة.

هذا المتجر الصغير مُخصَّصٌ لخدمة البدو في هذا السهل قبل وقت طويل من إقامة مشروع مدينة الحدائق، وبضاعته رائجة الآن، حيث يأتي العُمَّالُ والصِّبيةُ إلى هنا للحصول على الخبز العربي الطازج يوميًّا، وكذلك لشراء معجون الطماطم والفلفل الحار والملح،

وربما أحيانًا علبةً صغيرة من السردين. كذلك يقدِّم المتجر «شطائرَ» لزبائنه عن طريق فتح رغيف كامل من الخبز بالطُّول، ثم رشِّه بالملح ومعجون الطماطم. نحن كذلك نأتي إلى هنا لشراء الخبز الليبي، وهو مُقَرمشٌ ولذيذ ومُغذٍّ، ومصنوع من دقيق القمح الكامل.

في ذلك اليوم مرَّ علينا شرطيُّ السفارة على أمل تناول القهوة، حينما كنتُ أنا ولينا وجورج نتناول قهوة الإسبريسو في الڤراندة المُشمِسة. مع تبادُل التحيات الليبية: «كيف حالك؟»... «كويس الحمدو لله! كويس جدًّا، والحمدو لله!»... «وكيف حالك؟»... «كويس جدًّا الحمدو لله! كويس، تمام والحمدو الله!»- طلبنا منه أن يأتي ويشرب القهوة معنا، فقَبِل بكلِّ سرور، وبينما كان يرشف فنجانه من القهوة القوِّيَّة الحلوة والمعطَّرة، رأيتُ أن إبهامه كان ملفوفًا بقطعة قماش مُتَّسِخة بالفعل، وهو إبهامٌ شعرتُ برغبةٍ فَوريَّة لا تُقاوَم في ترتيب وضعه. سمح الشرطيُّ بذلك بكل سرور، ثم ذهب إلى المحل لشراء الخبز. ومن تطوُّعي بهذا العمل التلقائي الذي قُمتُ به، انتشَرَت الأخبار حول رغبتي التي لا تُقاوَمُ في استبدال الخرق بالضمادات.

كالعادة هذا الصباح، لم يَدُقَّ جرس البوَّابة، بل كان هناك وجهُ ليبيٌّ أسمر ينضغط على فتحة الرؤية الصغيرة في البوابة الحديدية، مع صوتٍ ينادي بلُطفٍ ولكن بشكل عجول: «سنيورة، سنيورة».

سمِعتُ النداء ولم أُجِبه لأنني كنتُ أكتب.

أسرَعَت لينا إلى الخارج، وسمعتها تتحدَّث بالإيطالية. وسرعان ما سمعتُ وقع خطوات داخل البيت، إحداها لشخص يرتدي صندلًا. أتت لينا إليَّ وقالت معتذرةً: «إنه الليبي صاحب المتجر. لقد جرح يده ويسأل عمَّا إذا كانت السنيورة الدكتوريسَّا في البيت!»، وكان عليها أن تضحك على لقبي الجديد.

ضحكتُ أيضًا، لأنني لا ألوم إلَّا نفسي. لكني قلتُ: «اللعنة! لقد بدأتُ للتَّوِّ في الكتابة! هل أصيب بشدَّة؟ هل يمكنك أن تضمِّديه هذه المرة؟».

«أوه، لا، سنيورة!» نظَرَت إليَّ برعب. «هناك الكثير من الدماء! وهو يطلب السيدة الدكتوريسا!». تُقَهقِه مرَّةً أخرى.

خرَجتُ إلى الرَّجل، الذي كانت يده اليسرى ملفوفةً بالخِرَق كالعادة، إنما هذه المرة بشكل مُضاعَفٍ، وغارقة بالفعل في الدم. صُدِمتُ حينما نزع الضمادة عنها. تبيَّن أنه قام بشَقٍّ إبهامه بالطُّول، بدءًا من الرأس ونزولًا عبر الظُّفر حتى البُرْجُمَة الأولى. وأخبرني أنه كان يمسك بيده رغيفَ خبزٍ ويقطعه طوليًّا بسكِّينه الثقيل الذي انزلق وغرس في إبهامه.

كنتُ أعلم أنه يجب خياطة الجرح، وقلت إنني سأحمله على الفور إلى المستشفى.

«لا يمكنني الذهاب إلى المستشفى، سنيورة. لديَّ متجرٌ بحاجة إليَّ»، ثم قال بحزم: «من فضلك، فقط ضمِّدي يدي».

«لا أعتقد أنني أستطيع ذلك. هذا يحتاج إلى غُرَز».

«سنيورة، إن ذهبتُ إلى المستشفى اليوم سيخبرني الطبيب أن أعود غدًا، وبعد غد، ولا يمكنني ذلك. لا توجد حافلة، وليست لديَّ دراجة، ولديَّ مَتجرٌ لأديره. من فضلك ضمِّدي يدي سنيورة. يمكنني أن آتي إليكِ كُلَّ يوم».

«من الأفضل أن تحاولي يا أمِّي» يحثُّني جورج الذي خرج من غرفة الدراسة سعيدًا دائمًا بأي عُذرٍ للتَّوقُّف عن المذاكرة. «من

الأفضل المحاولة. بإمكاننا القيام بذلك!».

«نعم، سنيورة» توافق لينا. «أعلم أنه لن يذهب إلى المستشفى. ومن الأفضل علاجه بدلًا من تَرْكِهِ هكذا».

اصطحبنا مصطفى إلى الحمّام، ووضَعتُ يده تحت الماء الجاري لبعض الوقت، ثم غَمَرتُها في محلول ديتول. قُمتُ بربط قطعتين من الإصبع معًا بإحكام، ووَضَعتُ حولهما ضمادة شاش رقيقة مدهونة بمرهم البنسلين لمنع الالتصاق. ثم لفَفتُ شريطًا لاصِقًا بإحكامٍ حول الإصبع لإبقاء قِطَع اللحم قريبة من بعضها. وضعتُ يده في جبيرة لمنعه من استخدامها، وقلتُ له يجب أن يبقيها في وضع مستقيم لتقليل النزيف. وافق بكلِّ سرور، واعِدًا بعدم استخدام اليد أكثر من اللازم. أخبرته أن يعود في اليوم التالي لرغبتي في مراقبة علامات الإصابة بالعدوى. فشكرني بصدق واعتزاز، ثم غادر.

«هل سيكون على ما يرام، يا أمَّاه؟» أراد جورج أن يعرف.

هذا بالضبط ما أردتُ معرفته. «أتمنَّى ذلك. يجب رَتْقُه بالطَّبع، لكنني أعتقد أن الشريط قد يشدُّه بإحكامٍ بما يكفي حتى يلتئم اللحمُ معًا على أي حال، خاصةً إن لم يستخدمه. وفي حال عدم إصابته بتلوُّث. كما أعتقد».

«سيكون على ما يرام. وعلى أي حال هذا أفضل من قطعة قماش مُتَّسِخة».

ظلّ مصطفى يأتينا يوميًّا، ولم تظهر عليه علامات التلوُّث. وفي اليوم الخامس نزعتُ الضمادة ووجدت الإصبع نظيفةً تمامًا، لكنَّ قِطعَتَيْ الجِلد لم تكونا مُتماسِكَتَيْن بإحكام؛ وبالتالي وضعتُ الشريط مباشرة على الإصبع هذه المرة لِلَحم الجِلد بإحكامٍ أكثر. بعد بضعة أيام أظهر فحصي أن الخلايا بدأت تلتئم معًا، لكن في هذه الفترة كان يستخدم يده بكثرة، وحينما عاد بعد أسبوع كانت الضمادة مُتَّسِخة للغاية، وظهر الجرح بعدوى، فبدأنا في العلاج بالماء المالِحِ السَّاخِن، فكُنتُ أرسله إلى بيته يوميًّا ويده ملفوفة بضمادات ملح مُبلَّلَة

داخل كيس بلاستيكي لإبقائها رطبة. بعد أسبوع من هذا العلاج، خفَّت العدوى وعُدنا إلى الضمادات الجافة. وسرعان ما تمكَّنتُ من التَّخلُّص من هذه أيضًا. لم تكن الإصبع جميلةً، لكنها كانت مفيدةً تمامًا مرَّةً أخرى.

في الأثناء، أصبحت لينا وجورج وأنا مرتبطين جميعًا بمصطفى. كان يتمتَّع بروح مستقلة وعِزَّة نَفسٍ حقيقيَّة، وبطريقةٍ ما استمتعنا جميعًا بزياراته لنا؛ فهو دائمًا مبتهجٌ ومُهذَّب ومُمتَنٌّ، وغالبًا ما يُحضر بعض البيض الطازج أو البرتقال حينما يأتي. كان يسأل دائمًا عن صحة السنيور، ويشكر الله كثيرًا على صِحَّتنا جميعًا وصِحَّته أيضًا. في اليوم الذي خلعتُ فيه الضمادة الأخيرة وأخبرته أنه لا يحتاج إلى العودة إليَّ، تعجَّبتُ من كيف يمكن لإمرئٍ من عالَمٍ مختلف -وبشخصية مختلفة تمامًا- أن يتكيَّف بشكل مُمتِع مع حياتنا.

عيد الفطر -الذي يستمرُّ ثلاثة أيام- له أهمِّيَّة دينيَّة هائلة في العالم الإسلامي؛ فهو لا يصادف نهاية شهر رمضان فحسب، بل هي الأيام الخاصة التي يقدِّم فيها المسلمون الصَّدقات أو الطعام للفقراء، والهدايا للأصدقاء، ويَفضُّون أي نزاعات بينهم إن أمكن.

هذا أول رمضان لنا في بنغازي، وكنتُ أفتقد زيارات صديقينا العزيزين: أحمد وبدر الدين، وأفتقد كعك العسل وكعك العيد الذي كانا يجلبانه إلينا مع أجواء رمضان. ومع بداية اليوم الثاني للعيد فكَّرتُ بأسًى أنه لا يوجد أحدٌ معنا هنا ليشاركنا الروح الحقيقية للعيد. لكن أول مَن جاءنا هو الشاب فضيل، الذي عالَجتُه حينما جُرِحَ كاحِلُه من الحديد الخردة حينما كان يعمل في البيت المجاور، وعلمتُ مؤخَّرًا أن فضيلًا لديه وظيفة جديدة الآن، فهو يقود شاحنةَ الكوكاكولا. وصل الساعة الثامنة صباحًا عند الباب الأمامي ومعه صندوق مشروب كوكاكولا هديَّة لنا! كانت الهدية مصحوبةً بالكثير من الشُّكر والثَّناء على العناية بكاحله.

سُرعان ما جاءت حليمة مع أزهار قرنفل ذابلة وبعض النبتات البرِّيَّة من السّهل. وعرفتُ أنها عثرت على القرنفل في كومة خُردَة ما،

لكن حليمة رأت أنه مناسبٌ كهدية لي. كنتُ أعرف أن أباها المسكين قد تُوفِّي، لكنها بدت مبتهجةً كثيرًا هذا الصباح، ولم تَعُد ترتدي خِرَقًا مُمزَّقة، ولا خصلاتها كانت مُلبَّدة، فقد مَشَّطَت شَعرَها بشكل جيد. وتذكَّرَت بسرورٍ رحلاتها في المستشفى، وأعلَنَت: «حليمة تقول شكرًا لماما!».

ثم جاء الفتى الفقير الذي عالَجَت لينا قدمه المصابة، على الرغم من مخاوفها القوية حينما كُنَّا في إجازة. أحضر لها سِتَّ بيضات طازجة. فجاءت إليَّ مسرعة بتعبيرٍ مضطربٍ على وجهها، لكن مع ذلك سعيد، وقالت: «سعد أحضر لي هذا البيض، وأنا غير سعيدة بأخذه لأن لديه الكثير من الأطفال. لكن يجب أن آخذه، أو يعتبرها إساءةً له!».

ثم جاء الشاب المَرِح عليٌّ، بمعنوياته العالية دومًا. أحضر أيضًا دزينة من البيض وحمولة من الثَّرثَرة، وتناولنا جميعًا قهوة الإسبريسو معًا.

آخِرُ مَن وصل هو مصطفى صاحب الإبهام المصاب. كان قد أغلق محلَّه في ذلك اليوم وارتدى سروالًا عربيًّا أنيقًا أزرق اللون، وصدريَّتَيْن مُزَخرَفتين مختَلِفَتي الطول، وحذاءً ليبيًّا ما زال ارتداؤه نادرًا كثيرًا بين أهل بنغازي.

أحضر مصطفى لوحا من شوكولاتة كادبوري (مستوردة من إنكلترا) في علبة فاخرة مربوطة بشرائط! وتمَّ تقديم قهوة أخرى للضيوف.

أذكر أنني سمعتُ مرارًا وتكرارًا من أجانب في ليبيا يعبِّرون عن رأيهم بأن الليبيِّين لا يُظهرون الامتنان. الآن في ختام يوم العيد هذا عليَّ القول -كما قلتُ في طفولتي عن الكريسماس-: إنه أفضلُ عيد فِطرٍ حَظَيتُ به على الإطلاق.

في العادة لم يتأخَّر محمد في تقديم شيء ما لمُتسوِّل ما، وأحمد كان يفعل الشيء نفسه دائمًا، وكان يُبعد المتسوِّلين عني ويقول:

«معليش!»، ولكن دائمًا يعطيهم شيئًا ما. بدر الدين أيضًا كان يمنعني من العَطاء ويُعلِن «الليبيون قومٌ فخورون»، لكنه يعطي هو نفسه دون تَردُّد. وسليمان الذي كان يعزمني على فنجان قهوة في أحد المقاهي، دائمًا يشير إلى المتسوِّل بالابتعاد عني، لكنه يُخرِج قطعةَ نقود ليعطيها له.

لم أرَ قَطُّ ليبيًّا يتأخَّر في إعطاء قطعة نقود لمتسوِّلٍ طلب ذلك؛ لأنه على يقينٍ -كمُسلمٍ- أن تقديم المال إلى هذا المتسوِّل قد يكون سببًا في حلول البَرَكة عليه. لكن حسَّ المقارنة المالية متطوِّرٌ كثيرًا عند المتسوِّل الليبي، فإذا أعطيتَه العُملَة الصغيرة نفسها، فإنه يلاحقني في الشارع ويلعنني باللغة العربية بسبب بُخلي.

من طبيعة المتسوِّل أن يلعب الدور المرسوم، وربما من الضروري أن يكون مُتَّسِخًا؛ لأنه ربما أتى من قرية داخلية ما حيث لا يوجد ماء. وغالبًا ما يكون المتسوِّل أعمى، يرافقه طفلٌ صغير يقوده إليك، يمدُّ يده وينتظر. في بعض الأحيان تجد الأطفال الصغار الذين يحملون الرُّضَّع في الشوارع يتسوَّلون بهم. ومع أن المرء يعرف أن حمل الرضيع هو حيلة إضافية لنَيْل كَرَم المانِحين، ولكن ربما يجلبُ تقديمُ شيء له بَرَكةً مضاعَفةً للمانِح.

حينما وصلتُ لأول مرة إلى طرابلس، كان يتبعني بانتظامٍ عجوزٌ بغيضُ الشَّكل يَلفُّ نفسه في جردٍ قذر، ويلفُّ قدميه ورأسه بخِرَقٍ مُتَّسِخة، ونتاج ذلك كله روائح غير مُستَحبَّة تفوح منه، وبينما هو يمشي ورائي مباشرة، كان يتوسَّل بأنينٍ، ويناشدني لأعطيه بعض المال، مع وعدٍ منه بأن تحلَّ عليَّ بركات الله إنْ منحته المال. وهكذا بدأت بإعطائه بضعة قروش (خمسة سنتات) في كل مرَّة للتَّخلُّص منه، لكن هذا عمِلَ في الاتجاه المعاكس؛ فلم يَكُفَّ عن ملاحقتي في كل مرَّةٍ حتى أعطيه شيئًا.

في ذلك الوقت انتشَرَت بدرجةٍ ما ظاهرةُ انتزاع حقائب النساء في المدينة، وكان أحد اعتراضاتي الرئيسة على التبرُّع للمتسوِّلين في

الشوارع هو أنني مع ذراعين مَشغولَتَيْن بحقائب التَّبضّع، وأثناء فتح حقيبتي للبحث عن النقود؛ فإنها تصبح عُرضةً لافتكاكها من يدي.

أخيرًا، وفي أحد الأيام، لم يَعُد بإمكاني تَحمُّل هذا الرجل القذر الذي يرافقني كظلِّي فوق كتفي وهو يغمغم بالأنين والدعاء، فالتفتُّ إليه وقلتُ في وجهه: «لا! لا! لا! لا!»، ودخلت مباشرةً إلى أحد المتاجر. لكنه كان ينتظرني حينما خرجتُ، وتَبِعَني في عدَّة شوارع، لكن دون أن يدعو لي بالبركة من الله، لكنني كنتُ آمل أن تكون هذه هي نهاية المسألة.

لكن لا، لقد كان يعرف عاداتي وتحرُّكاتي جيدًا، وظلَّ يتابعني يوميًّا أثناء قيامي بالتسوُّق. كان نهجه مُهذَّبًا بينما لا يزال لديه أملٌ في كرمي، لكنه سرعان ما تغيَّر إلى صَبِّ اللعنات عليَّ. كان إصراره مثيرًا للإعجاب، وبعد فترة طويلة من فقده الأمل في الحصول على النقود، كان ينتظرني خارج المتاجر لمجرد أن يلعنني. لكن لم ينجح الأمر معي؛ فقد تعلَّمتُ أن أكون قاسية معه.

ثم انتقلنا إلى بنغازي. وقد تعلَّمتُ الدرس الآن: لن أعطي شيئًا لمتسوِّلي الشارع أبدًا. ولكن هنا لم أجد المتسوِّلين! نعم كان هناك فقراء، ولكن ليس الفقر المصطنع.

ثم في يوم من الأيام، مَن الذي أراه ينتظر عند زاوية الشارع الرئيس؟ لم يكن غير صديقي القديم رثّ الهيئة! حيَّاني كأنني قريبتُه التي غابت عنه منذ زمن طويل، وبدأ في متابعتي مرَّةً أخرى. بعد أن تخلَّيتُ عن مَهمَّاتي ذلك اليوم، ابتعدتُ عن وسط المدينة وهرعتُ نحو السوق. تهرَّبتُ في نهاية سوق الظلام الطويل المسقوف بوسط المدينة، ولم أتوقَّف أبدًا حتى خرجتُ من الطرف الآخر. لقد نجَحتُ في مراوغته. وثبت أنني كنت أعرف سوق بنغازي أفضل منه. تجنَّبتُ الذهاب إلى المدينة لبضعة أيام، لكن حينما عدتُ لم أجِدْه، ولم أره مَرَّةً أخرى. لقد جاء إلى المكان الخطأ؛ فبنغازي لا توافق على وجود المتسوِّلين، وحيثما يكون الجميع فقراء؛ فلا يجوز لأحدٍ أن يتوسَّل الآخرين لإعطائه شيئًا ما.

26. موروث البداوة

لم يكن جميع أصدقائنا في بيوت القماش السُّود المجاورة، وأكواخ الصفيح القديمة- مَرضى، أو يطلبون المساعدة، وإنما بشكلٍ عام كان لهؤلاء البدو روحٌ مستقلَّة، يتمتَّعون بعزَّة النفس، ويعملون بجد، ولا يطلبون أو يتوقَّعون شيئًا أكثر من البقاء على قيد الحياة. عاش معظمهم شبه رُحَّل، يقضون كامل موسم الجفاف في سهل الفويهات، وهذا ما أخبرتني به حليمة. في حوالي الساعة الثالثة سمعت صوتًا مألوفًا صاخبًا أجشَّ ينادي بإصرارٍ خارج نافذتي: «ماما! ماما! ليدي! يا سنيورة!».

كانت حليمة تواصل عادتها بتخطِّي سور حديقتنا من موقعٍ يمكِّنها من النظر مباشرةً إلى مكتبي، وكذلك غرفة نومي، ثم تُقرِّر عندئذ إن كان الوقت مناسبًا للحديث معي. إن كنتُ وحدي في المكتب فالوقت مناسب، وإن كنتُ في غرفة النوم أرتدي ثيابي، فمن الأفضل العودة إلى البوَّابة الأمامية وقرع الجرس! الخجل لم يجعلها تتردَّد أبدًا، وإنما مجرد مسألة تحديد النَّهج المناسب والأكثر دبلوماسية.

صرَختُ فيها اليوم: «حليمة، أرجوك انزلي عن السور! عودي إلى البوَّابة واقرعي الجرس!».

«نعم ماما، أذهب وأرقص على الحائط. ماما، اليوم أحضرتُ أصدقاء للزيارة!».

«أرجوكِ من خلال البوابة، يا حليمة»، ونظرت سريعًا إلى السور، مُتوقِّعةً رؤية آخرين يرقصون فوقه.

«حاضر ماما». ابتسمَت بسعادة، كانت ابتسامتها طبيعيَّةً وحلوة، ثم تخطَّت السور داخل الحديقة فداست كَرمَة هاري المتسلِّقة، وداست على نبتة ياسمين صغيرة، وأسقطت إناءً للزهور.

ذهبتُ إلى البوابة وكانت هناك ثلاثة وجوه مشرقة بأعين ثاقبة منتظرين بثِقَةٍ الدَّعوةَ للدخول. قُدِّمَت لي الفتاة خديجة في الحادية عشرة من عمرها، والصبي فؤاد الذي يصغرها بعام.

حينما دخلوا إلى البيت نظروا حولهم، ليس بوقاحةٍ، وإنما بفضول صادق. لاحظوا على الفور البلاط الذي يعلو حائط المدفأة من السيراميك الليبيِّ الصناعة، ومُزيَّن بخميسة. تبادَلَت خديجة وفؤاد تعليقًا سريعًا بالعربية، بينما قالت لي حليمة بإيماءة إلى الاثنين: «لا يجيدان الإنكليزية. أنا أتحدَّث الإنكليزية. هذه الخميسة جميلة!».

بينما ننتظر وصول المرطِّبات، جلسوا جميعًا على حافَّة كراسيهم، وأعجبني ذلك على أمل أن يُخلِّفوا وراءهم عددًا أقلَّ من البراغيث. سرعان ما أحضرَت لينا الكتي كولا، والكاكاويَّة، وحلوى الكراميل والقهوة التركية، وفي الوقت نفسه تلقَّت نصيبها من التحية المهذَّبة. على الرغم من أنه كان هناك القليل من الحديث، إلَّا أن جوًّا من الارتياح سرعان ما غمرنا.

«هل تذهب خديجة وفؤاد إلى المدرسة؟» سألتُ حليمة.

«ليس كثيرًا. فؤاد يساعد بابا في زراعة وحصاد الشعير».

«وخديجة؟».

«تساعد ماما لرعاية الأطفال. ثلاثة أطفال. الكثير من الأطفال!».

«لديهم منزل؟ أم بيت خيمة؟».

«بيت ممتاز. تعالي لتريه؟».

لم أكن قد خطَّطتُ لقضاء فترة ما بعد الظهيرة في المُجامَلات الاجتماعية، ولكن إن لم يكن هناك مفرٌّ من ذلك، فقد أعرفُ المزيد من أسلوب حياة البدو. وسوف أقوم لاحقًا بتوصيلهم إلى بيوتهم.

مع محاولاتهم ادِّعاءَ التَّعفُّف، إلَّا أنَّ ثلاثتهم في النهاية التهموا كل ما وُضِعَ أمامهم، ولكن ببطء، وبرقَّةٍ؛ لإظهار مُتعَتِهم دون أن يبدوا

شَرِهين. إنّ تقديم الطعام والشراب هو كرمُ ضيافةٍ عربي أصيل، ولكن يجب أن يتمَّ تناوله بهدوء وفي غير تسرُّع، أو هكذا يجب أن يبدو!

حينما كُنَّا على وشك المغادرة، سألتني حليمة، والتي بحسنِ أخلاقٍ عربية معتادة أخفت السبب الحقيقي لزيارتها لآخر لحظة، وبشكلٍ عَرَضيٍّ للغاية سألَت إن كان لديَّ أيُّ قِطَع إضافية من تلك «الأشياء»، وأشارت إلى الناموسية المعلَّقة عند بابي الخلفي. من الواضح أن حليمة لاحَظَت هذه «الأشياء» خلال زيارةٍ سابقة.

«نعم، لديَّ قطعة. تريدينها؟».

عادة لا تبدي حليمة أيَّ رغبة للحصول على شيء ما، فقالت، مع هَزٍّ كتفيها: «لا تحبِّي أن تعطي حليمة، معليش! تحبي أن تُعطي لحليمة... طيِّب. أنا آخذ!».

وجَدتُ أن لديَّ نحو مترين منه فلفَفتُه لها. كنتُ أتوق لمعرفة ماذا ستفعل به، لكنني فضَّلتُ عدم السؤال. أرشدتها إلى الأوزان التي علَّقتُها في قاع ستارتين وقلتُ: «يمكنك وضع حجارة بدلًا منها». فأومأت برأسها لكنها لم تتطوَّع بقول شيء.

هذه المرة، ذهبنا إلى ما وراء مجموعة الأكواخ والخيام، حتى وصلنا إلى بيت بجدران طينية كان بعِيدًا قليلًا. وعلى ما يبدو، تمَّ إجراءُ إضافات في اللحظة الأخيرة لاستيعاب الأُسرَة أو الماشية، وتكوَّنَت الإضافات من سعف نخيل طويل يتَّكئ على الجدران الطينية. والسقف عبارة عن خردة صفيح. خارج البيت هناك صفيحتان معدنيتان من مخلَّفات الجيش تُستَخدَمان بلا شَكٍّ كخزَّانات مياه. حيث لا توجد مياه جارية في أيٍّ من المساكن هنا، ولكن هناك إمدادات محدودة من المياه متوفِّرة على بُعد نحو سبعمائة متر. وكالعادة هناك ماعز وأغنام تتجوَّل في المكان، وبعيرٌ مُقيَّد بالقرب؛ ما يُميِّز هذه العائلة على أنها ميسورة إلى حَدٍ ما.

كنت أعلم أنه داخل البيت الصغير لا وجود لإنارة أو ماء أو تدفئة ولا ترتيبات للطبخ، وربما لن تكون هناك ساعةٌ لمعرفة الوقت. مع ذلك

هناك بالتأكيد برّادُ صغير لغلي الشاي، وكؤوس شاي صغيرة، وسمعت بالفعل صوتَ راديو يعمل بالبطارية يصدح بالعربية!

الآن، خرَجَت امرأة من البيت مع طفل صغير محشو في القِماط بين ذراعَيْها، ومعها صبيٌّ عارٍ يبلغ من العمر عامين يهرول بجانبها.

تخبرني حليمة:» «هذه أمُّ خديجة، واسمها أمينة».

تلتفُّ أمينة بالرِّداء الليبي المخطَّط بالبنّي والأزرق، ولم تُكلِّف نفسها عناء تغطية وجهها القمحي، حيث يظهر الوشمُ الأزرق على الجبهة وأطراف الأنف والذقن. ومثل معظم البدويات، ترتدي الأساور الفضية والخلخال. ملامح وجهها لا تقدِّم مُؤشِّرًا حقيقيًّا على سِنِّها. لكن بما أن ابنتها الكبرى تبلغ من العمر أحد عشر أو اثني عشر عامًا؛ فيمكنني تخمين أنها ربما تكون في الرابعة والعشرين على الأقل، ولا تزيد عن ثمانية وعشرين عامًا. ومع ذلك، تبدو وكأنها في الستين بسبب تجاعيدها. لم تتبقَّ في وجهها أي نضارة شبابية أو استدارة. وربما لم يكن هناك أي شيء أصلًا؛ لأنه لا يظهر حتى الآن سوى القليل من النعومة في وجه خديجة، ولكن يوجد في الوجهين الأنثويَّيْن ما يثير الإعجاب: روح الشراسة، والتَّحمُّل- المرتسمة فوقهما، والتي تخطف الأنفاس.

تستقبلني أمينة بالعبارات العربية التي يتعلَّمها كل أجنبي هنا أوَّلًا، والمُحمَّلة بالدفء والمشاعر. «كيف حالك؟ كويِّس. باهي. كيف حالكم؟ كويس باهي. حمدو لله! الحمدو لله! تفضَّلي، الحمدو لله. كيف حالك؟ الحمدو لله! الحمدو لله!»، قُبلَة على اليد، تتبعها أخرى وأخرى!

حينما ننتهي من مجاملاتنا، يخرج من البيت رجُلٌ في منتصف العمر، ضخم البنية، ذو بشرة داكنة، حافي القدمين ويرتدي سروالًا عربيًّا فضفاضًا من القطن الأزرق الداكن، تعلوه سُترَة قتال كاكي قديمة من مخلَّفات الجيش. يصافحني بقوة، ويقول بإنكليزية جيِّدة: «كيف حالك؟»، وتُقدِّمُ لي سترةُ الكاكي فكرةً عنه.

«هذا بابا. الاسم عبد الله. ويتحدَّث الإنكليزية ممتاز» تقول حليمة.

يقول عبد الله بفخر: «كنتُ أقاتل في الصحراء مع جندي إنكليزي. تعالي إلى بيتي من فضلك؟ لتشربي شايًا من فضلك؟». الدعوة لشرب الشاي هي أمرٌ بقَدْر ما هي طلب، كما أنها ضرورية للعلاقات الجيدة. ولا يدخل المرء مسكنًا ليبيًّا أبدًا، مهما كان متواضعًا، دون أن يُعرض عليه شيءٌ ليتناوله، وهو ما يجب على المرء أن يقبله بلطف. على الرغم من أن الشاي الأحمر المُركَّز والحلو الذي تُترك فيه أوراق الشاي لتغلي طويلًا مع الكثير من السُّكَّر، ليس مُستساغًا كثيرًا بالنسبة للغربيين، إلَّا أنه المصدر الرئيس للطاقة والحيوية للِّيبيِّين: طقوس إعداد الشاي وتناوله هي أيضًا رفاهية روحية، وبدونها يكون الليبي الفقير ماديًّا فقيرًا بالفعل. أقبلُ دعوة عبد الله بسرور، وأدخل البيت الطيني المُكوَّن من غرفة واحدة. يتمُّ إغلاق فتحات الباب والنوافذ جزئيًّا بتعليق نسيج يدوي من شَعر الماعز، ولا يوجد أثاث باستثناء «طاولة الشاي» الصغيرة التي يبلغ ارتفاعها عشرين سنتيمترًا فقط، وهي مُصنَّعة بيتيًّا من قِطَع من صناديق علب التونة، كما تُظهِر العلامات المطبوعة عليها. على الأرض توجد حصائر من الديس المنسوج يدويًّا، والتي تُستَخدَم كفراش في الليل، ويجب على البدوي أن يُخفِّف بشكل طبيعي من ممتلكاته المنقولة، وأهمها بيتٌ من القماش أو الشَّعر يمكن وضعه على ظهر البعير. ومع ذلك، يبدو أن هناك ضرورة لوجود راديو صغير يعمل ببطارية، ويلعلع الآن بمحطة القاهرة.

بينما أجلسُ على الحصيرة وأتطلَّع حولي بفضول وأقدِّر عدد البراغيث التي سأحملها معي إلى البيت، أشعَلَت أمينة نار الفحم على الأرض، وبدأ برَّادُ الشاي يغلي. أخَذَت خديجة تُهَدهِد الطفل وتُقبِّله، هناك طفل عمره عامان، وآخر أربع سنوات، ويقترب مني طفلُ ليلمس تنُّورتي الحريرية بيدين لَزِجَتَيْن. وعندها أتساءل في نفسي لماذا لا يوجد طفلٌ عمره ست سنوات وثماني سنوات؟ ربما توفُّوا.

بدوية

عبد الله يبدو سعيدًا بمراجعة لغته الإنكليزية. «أنت ليدي إنكليزية؟».

«كلَّا، أميركية، لكنَّ زوجي من كندا».

«كندا؟ أين هذا البلد؟».

«كندا قريبة من الولايات المتحدة». وجدتُ هنا أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي تعني أميركا الشمالية. «لديكَ مزرعة هنا في الفويهات، يا عبد الله؟».

«نعم، ليدي، على بُعد ثلاثة كيلومترات. أنا أزرع الشعير، والفول والطماطم. ولديَّ نخلاتٌ أيضًا».

«لستَ بحاجةٍ لشراء الكثير من الطعام؟».

«أشتري الشاي والسُّكَّر فقط».

«خديجة وفؤاد يذهبان إلى المدرسة؟».

«لا! يجب أن يساعدني فؤاد في الزراعة ورعي الماعز والأغنام. أبنائي ثروتي... حمدو لله! أطفالي صِغارٌ الآن، لكنهم سوف يكبرون إن شاء الله! يجب على الرجل أن يحتفظ بأبنائه للعمل معه».

«وخديجة يمكن أن تذهب إلى المدرسة؟».

«خديجة يجب أن تساعد أمها في الحياكة وحمل الماء والعناية بالأطفال. قريبًا جدّاً يحين وقت زواج خديجة، والمدرسة ليست ضروريَّةً! الأبناء خيرٌ لها من المدرسة»!

يتحدَّث عبد الله عمَّا يراه الحقيقة. ففي الماضي كان الليبيون دائمًا مُزارِعين ورُعاة، وثروة أي رجل هم أبناؤه، وهم عُمَّاله بدون أجر. أمَّا اليوم فتنتشر موضة التعليم، والأبواب تنفتح على عالم من نوع جديد. أصبح الأبناء مستائين من العمل في حقول آبائهم والتجوُّل في الصحراء لرعاية قطعانهم. وأخذوا يطوِّرون طموحاتهم الخاصة التي تَميَّزَت بشكل رئيس في التصميم على ألَّا يكونوا كما كان آباؤهم من قبلهم.

إذا تَمَّ إرسال فؤاد إلى المدرسة للدراسة، وعادةً هي مهنة لا يستقرُّ فيها الصبي غير المُدرَّب بسهولة؛ يمكنني تخيُّل أن طموحه سيكون الهروب من التعليم والزراعة معًا وتَعلُّم قيادة آلِيَّة ما؛ فكلَّما زاد غزو الحداثة لليبيا؛ ازداد طموح الليبيين لتجربة تلك الجنَّة المتمثِّلة في قيادة الآليات والميكنة. فالفلاح يريد جرَّارًا لنصف الهكتار الذي يملكه، وسائق الجمل يريد شاحنة، وتاجر الحمير يريد لاند روڤر، وراكب الدَّرَّاجة يريد ڤولكس ڤاغن، والحَسَن الرضا وليُّ العهد لا يسافر إلَّا بالطائرة! أي أنَّ الآلات توفِّر أسرع هروب من البيئة.

«في أي المواسم تغادر بيتك هذا إلى البَرِّ؟» أسأله، وأعلمُ أن شبه الرُّحَّل يجب أن يحتفظوا ببيتين، ويستغلون مَوطِنَيْن ليستطيعوا البقاء؛ لذلك فإن محيطهم المحلي فقير.

«بعد هطل الأمطار، حينما تبدأ مراعي البَرِّ في التحوُّل إلى اللون الأخضر، نأخذ قطعاننا جنوبًا إلى مراعي قبيلتي. كان لقبيلتي

دائمًا أراضي رعيٍ في الجنوب. وتوجد أيضًا قطعة أرض في الوادي أزرعها بالشعير».

«وبيتك في البرِّ؟».

«بيتي هو خيمتي، أحملها حيث أريد».

سيوضع البيتُ البدوي الداكن المصنوع من شَعر الماعز ووبر الإبل على ظهر البعير، وستمشي أمينة وخديجة وفؤاد والصغار، يزدادون رضيعًا إضافيًّا في كل عام، أو نحو ذلك، برفقة الأغنام والماعز لكيلومترات عديدة جنوبًا، إلى المراعي القديمة لقبيلة عبد الله، والتي لا يمكن لأي قبيلة أخرى استغلالها دون قتال، وحيث ستكون الخيمة السوداء موطنًا لهم.

لن تكون هناك تمديدات سباكة من أي نوع، ولا توجد مياه باستثناء ما ستجلبه أمينة وخديجة مرة واحدة في الأسبوع في قِربِ ماءٍ من جلد الماعز من بئرٍ على بُعد كيلومترات، وسيُستَخدمُ للشُّرب فقط. سيتمُّ الغسلُ عن طريق فَركِ الأسطح المُتَّسِخة -بما في ذلك الجلد- بالرمل والتراب. والأطفال لا مدرسة لهم؛ فهناك المزيد من العمل عليهم للقيام به في البَرِّ.

«وماذا تأكلون في البر يا عبد الله؟».

«نأكل البازين والتمر يا سنيورة. أحيانًا يكون لدينا البازين بالطماطم والزيت. لسنا أغنياء مثل الليبيين في طرابلس، لكننا لا نتضوَّر جوعًا».

يُعدُّ البازين من دقيق الشعير الذي تطحنه أمينة على الرحى. ثم تخلط الطحين بالماء لتشكيل عجينة قد تخبزها في الفحم، أو تُسقِطها مثل الزلابية في الماء المغلي، أو قد تَخلِطه بالماء وتضعه على النار وتقدِّمه لعائلتها كحساء خاثر. ويُعتبر البازين ضرورةً في حياة البَرِّ. أمَّا تناول الفلفل معه أو طبيخ الطماطم أو الزيت لإضفاء النكهة فيجعله ذلك نوعًا من الرفاهية. يتمُّ طرح التمور في الشمس حتى

تجفّ تماما تقريبًا، وهي أحلى تمور في العالم وأكثرها روعة، ومليئة بالرمال الآتية مع رياح الصحراء.

«ومتى تعودون إلى هنا يا عبد الله؟».

«آه يا سنيورة، نبقى في خيمتنا حتى الصيف، حينما يكون الشَّعير جاهزًا للحصاد؛ فنحن لا نغادر بدون جني المحصول».

وبينما ينتظرون نضوج الشعير يأمل عبد الله أن تصمد المراعي البريّة، وألَّا تَجِفَّ الآبار؛ لتعيش حيواناته حتى موعد الحصاد، إذا كانت السنة جيِّدةً وهناك بعض المطر. وعندها يتمكَّن عبد الله مع محصوله من الشعير وعائلته وحيواناته من العودة

إلى البيت الطيني حيث نجلس الآن، ويمضي عامًا آخر في حياته دون أي أرباح من دخل إضافيٍّ، ولكن دون خسارة أيضًا، «حمدو لله»!

وهل تتمنَّى خديجة أن تكون مثل والدتها؟ أي تتزوَّج في الثانية عشرة من عمرها وتنجب طفلًا كلَّ عام، وأن ترعى الماشية، وتقوم بالحصاد، وجلب المياه، وكل حياة الكدح هذه؟

ليس من السهل على المرأة أن تهرب من هذا المصير.

«معليش»! لا يهمُّ ما تتمنَّاه خديجة؛ لأن حياتها كتبها الله لها، وهذا ما تؤمن به خديجة تمامًا، لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله.

27. تَحوُّلات

كانت مواكَبَة التعايُش مع البدو الرُّحَّل في سهل بَرقَة الأحمر جانبًا فقط من الحياة في بنغازي، والجانب الآخر هو الحياة البسيطة المريحة التي نعيشها داخل جدران بيتنا.

أصبحنا عائلةً من جديد لهذا العام، بوجود جورج، الذي يتصرَّف بالتناوُب بين شخصيَّتَيْ التلميذ والرَّجُل. مع ماديلينا، المزاجيَّة، ذات الشَّعر الداكن، والوجه الغضوب يومًا، والمبتسم في اليوم التالي، ومع نُموِّ الجرو بوتشي، ومع هاري المنشغل كثيرًا بعَمَلِه وفوق ذلك يقوم بعمل إضافي مع زراعاته الخاصَّة في «أوقات الفراغ»- بينما ظللتُ أحبس أنفاسي حتى لا أفسد سِحرَ هذا العام. وهذا وقت تسجيل الذكريات في هذا المكان.

ذات يوم حاوَلتُ مع جورج عبور مسطَّح الملح الذي تَبيَّن أنه مستنقعُ طينيٌّ. غرقَت سيارتنا في الوحل حتى نصفها، وعثر علينا بعض البدو، الذين مقابل قروشٍ قليلةٍ وقليل من السجائر، رفعوا السيارة فعليًّا ووضعوها على الطريق اليابسة. تساءلنا بعد ذلك عمَّا إذا كانوا يعيشون خلف هذه الأشجار في انتظار السيارات لتَعلَق ويساعدون في إخراجها! ونظرًا لأن جورج وأنا لدينا سُمعَة التَّورُّط في المشاكل حينما نخرج بمفردنا، فقد أسرعنا بالعودة إلى البيت وتنظيف السيارة قبل عودة هاري. ثم أخبرناه عن ذلك- بعد أن رأى أن كلَّ شيء قد انتهى بشكل جيِّد!

سافرنا مجتمعين كثيرًا بحُجَّة جمع النباتات الليبية، ودائمًا ما نكون مصحوبين بمكابس نباتية وأكياس بلاستيكية لجمع العيِّنات. وكان على أصدقائنا أن يجمعوا منها أيضًا مع تعليماتٍ حول كيفيَّة العناية بالعَيِّنات. لم يخطر ببال هاري قَطُّ أن يقوم برحلة من أجل

المُتعَة وحدها. ولحُسن الحَظِّ، فإن ساحل البحر، والجبل الأخضر، وسهل المرج، وحتى بَرقَة كلها توفِّر فُرَصًا لنموِّ النباتات المختلفة.

قُمتُ بمراجعة مُكثَّفة مع جورج في البيت لدروسه التعليمية بالمدرسة الثانوية. كان يأخذ دورات بالمراسَلة في المدرسة الثانوية استعدادًا لامتحانات الكلية التي كان يعتزم إجراءها خلال إجازتنا في كندا. مثَّلت الرياضيات صعوبةً لي، لكن الجغرافيا كانت موضوعًا رائعًا ومثيرًا، حيث تمكَّنتُ من تتبُّع رحلاتي الخاصة على الخريطة، وكان جورج -في سِنِّ الثامنة عشرة الآن- قد ترك بالفعل أثرًا ما خلال تنقُّلاتنا السابقة في آسيا وأوروبا وإفريقيا. لقد وجدتُ أن التاريخ يحتوي على العديد من ميزات الاستعادة، خاصةً إذا تمَّ تدريسه لإظهار علاقته المباشرة والوثيقة بالحاضر.

كنت أقوم أيضًا بالكثير من القراءات عن ليبيا، وهو ما لم أجد وقتًا للقيام به في طرابلس. وفي لندن، اكتشف هاري النسخة الأولى الرائعة من كتاب الأخوَيْن بيتشي «الساحل الشمالي لإفريقيا» (1827)، وكانت مليئة بنقوش رائعة ودقيقة من رسومات بيتشي الخاصة، وفيه وجدتُ مَقطعًا من حكاية للقزويني* مُتَرجَمة عن العربية، وتعبِّرُ تمامًا عن حقيقة تاريخية، وتقول الحكاية:

قبل عدَّة سنوات، مرَّ مسافرٌ بمدينة كبيرة ومكتظَّة بالسكان، وسأل أحد مواطنيها في أي زمنٍ تمَّ تأسيسها، وما هو تاريخها. «أوه، يا سيدي» جاءه الجواب، «هذه موغِلَةٌ في القِدَم، وقد كانت موجودةً على مَرِّ العصور!».

بعد خمسمائة عام، مرَّ ذلك المسافر الخالد مرَّةً أخرى. ووجد أن المدينة اختفت ولم يتبقَّ منها سوى أرض مفتوحة. وطلب من أحد المواطنين أن يخبره كيف دُمِّرَت المدينة، فأجابه: «أوه، يا سيدي، لم تكن هناك مدينة أبدًا! بل كانت دائمًا أرضًا خالية كما ترى».

بعد خمسمائة عام، مرَّ المسافر حيث توجد الأرض الخالية الممتدَّة، فوجدها مُغطَّاة بالبحر، وسأل صيَّادًا التقى به ليخبره متى

غمر البحرُ هذه المنطقة، فأجابه: «أوه، يا سيدي، لقد كانت دائمًا هكذا... بحرًا عظيمًا»!

بعد خمسمائة عام أخرى، مرَّ المسافر الخالِدُ مَرَّةً أخرى، ليجد أن البحر قد جفَّ، وكانت هناك أرض في مكانه، فسأل أوَّلَ شخصٍ قابله عمَّا حدث للبحر الذي كان هنا من قبل، فتفاجَأَ الفلَّاحُ وردَّ عليه: «أوه، سيدي، لقد كانت دائمًا أرضًا جافَّةً، كما ترى»!

بعد مرور خمسمائة عام، كان المسافر الذي لا يعرف الكَلَل، والخالدُ، ودائِمُ الشباب، وكان يعرج وقد تقرَّحَت قدماه، وقرَّر أن هذه المرة هي المرة الأخيرة له في هذا المكان، وهنا وجد مدينة كبيرة مُكتظَّةً بالسُّكَّان، فطلب من أحد المواطنين أن يُطلِعه على الزمن الذي تأسَّسَت فيه وشيء من تاريخها: «أوه، سيدي، هذه هي المدينة قديمة قِدَم الدهر، وقد كانت دائمًا هنا»!

بعد ذلك، قرَّر هذه المسافر التوقُّفَ عن الترحال والبقاء في بيته، ووضع كُتُبًا عن حياة النمل الذي رأى أنَّ فهمه سيكون أسهل!...

بالنسبة لكل شخص منهم تبدو روايته للتاريخ حدَثًا منفصلًا، وفريدًا من نوعه، وبدون تفسير. أمَّا لذلك المسافر عبر الأزمنة باحثًا عن خيط ما يربط الوقائع فجميعها لها قاسمٌ مشترك، وهو تعليق المراقب التلقائي «أوه، يا سيدي، لقد كان الأمر كذلك دائمًا»!

تغيَّرَت طبيعة عمل هاري في بنغازي، حيث تمَّ تعيينه في ليبيا كمستشارٍ للغابات، وهو أحد خبراء منظمة الأغذية والزراعة الذين تمَّ تجميعهم معًا لأغراض إدارية وسياسية، فيما سُمِّي: بعثة الفاو في ليبيا.

رئيس بعثة منظمة الأغذية والزراعة، كما يُدعى محليًّا، أو الممثِّل المقيم لمنظمة الفاو في ليبيا، وهو منصب دبلوماسي، يُعتبر حلقة وصل بين جميع خبراء الفاو

والحكومة الليبية. وهو مسؤولٌ عن برنامج منظمة الأغذية والزراعة الذي يلبِّي رغبات الحكومة، واحتياجات البلد كما تمَّ تشخيصها من قبل الخبراء.

حينما أُصيب رئيس البعثة جان ڤان دير بلوغ، بعارِضٍ صحِّيٍّ حَرِج في بنغازي، اضطرَّه للبقاء بشكل دائم في هولندا؛ عُيِّن هاري رئيسًا للبعثة بدلًا منه. وتطلَّبَت هذه الوظيفة معرفةً عامَّةً كبيرة بكل من برامج الخبراء والاحتياجات الليبية، لكنها تطلَّبَت أكثر من ذلك التعاطُفَ والصبر والحنكة في التعامل مع كِلا الجانبين.

على الرغم من أن الاستحمام في البحر هو أحد تحوُّلات الحياة في بنغازي الحديثة، إلَّا أنه لم يجتذب إليه أبدًا عُشَّاقَ المياه المتعصِّبين مثلما فعل ساحل طرابلس؛ فالبحر قبالة بنغازي -ربما بسبب الرمال والغبار في الهواء- نادرًا ما يُظهِر بوضوح لون الكوبالت في أعماقه ، أو يبيِّن شفافية مثل أحجار اليَشْم الكريمة في مياهه الضَّحلة، مثلما عليه البحر قبالة طرابلس، والذي هو في رأيي أجمل ساحل بحري في العالم.

وعلى الرغم من أن طرابلس تعاني أيضًا من هبوب رياح القِبليِّ القادمة من الصحراء، إلا أن الأطراف النائية من المدينة المزروعة في عهد إيطاليا من أشجار الأوكالبتوس واللوز، وبساتين المشمش والزيتون، والمساحات المزروعة بالفول السوداني والفاصوليا، وعمليات تثبيت الكثبان الرملية التي جَرَت- قدَّمَت حماية للمدينة، إلى حدٍّ ما، من أسوأ موجات الرياح الحارقة المحمَّلة بالرمال. ولم ينجح ذلك بصورة تامَّة، لأنني رأيت طرابلس ضائعة في سحابة صفراء لأيام متواصلة، في وقت كان فيه الهواء المُغبرُّ يقابل رطوبة المحيط ويعلق هناك. حينما كنتُ في مالطا شاهدت القبليَّ يصل إلى هناك ويستمر لثلاثة أيام، بعد أن تنقَّل الغبار الأصفر عبر البحر إلى شواطئ الجزيرة الصخرية.

أمَّا بنغازي فحالةٌ مختلفة. حيث تأسَّسَت المدينة الصغيرة على البحر، محاطة بالمسطَّحات المِلحيَّة، والسهل الجيري، وتكاد تكون

خالية من النباتات والأشجار؛ وبالتالي فأيُّ رياح عبر هذا السهل تُنتِج عاصفة ترابية محلية. حينما كنت في الطائرة فوق بنغازي، رأيت البلدة صافية ونظيفة أسفلنا، لكن السهل المحيط بها كانت تلفُّهُ سحابةٌ كثيفة من الغبار، لدرجة أن المطار لم يكن مرئيًّا ولا تستطيع الطائرة الهبوط.

وحينما كنت أقود سيارتي إلى بيتنا ذات يوم انسكبت الرمال على زجاج السيارة الأمامي مثل مطر أحمر. بحلول منتصف النهار، في البيت، قُمنا بتشغيل جميع الأضواء الكهربائية لنتمكَّن من الرؤية. كانت النوافذ مغلقة بالطبع، لكننا الآن أغلقنا الستائر الخشبية. وعلى الرغم من ذلك، غُطِّي كل شيء، بما في ذلك الأجزاء الداخلية لأدراج المكتب، بالغبار الأحمر.

حينما نظَرتُ من النافذة، بدا الأمر وكأنني أنظر إلى ستارةٍ متوهِّجة بلون الخوخ تلتصق بالزجاج. كان الهواء في الداخل مشبعًا بالغبار الذي له مَلمَسٌ خَشِن. وذهب تفكيري إلى جيراننا البدو في السهل ومدى معاناتهم.

لم يعجب هذا الوضع بوتشي على الإطلاق، واختبأ تحت خزانة الملابس، ولم يعجب لينا أيضًا، لكن ليس بإمكانها الاختباء تحت الخزانة! انقطعت عنَّا الكهرباء فأشعلنا فنار الكيروسين، ويبدو أن التنفُّس يزداد صعوبة، ربما بسبب تغيُّر الضغط الجوي.

بحلول الخامسة بعد الظهر، خفَّت حِدَّة الرياح وبدأ الغبار ينقشع، لكن الهواء لا يزال ثقيلًا. غسلنا طاولة الأكل وثلاثة كراسي وعددًا من الصحون، وتناولنا الطبيخ مع صرير الرمل بين أسناننا.

كان من غير المجدي محاولة التنظيف كثيرًا، حيث الغبار لا يزال مُعلَّقًا في الجو. غرفة نوم جورج هي الأسوأ، حيث كانت على الجانب المواجِه للريح من البيت، لدرجة أننا جرفنا التراب منها. يجب أن أقول إننا جرفناه، حيث قُمنا بملء نصف دلو بالغبار من أرضية الغرفة. كان من الصعب القراءة على ضوء فنار الكيروسين الذي كانت رائحته

كريهة على أي حال، ومن الصعب التنفّس في هذا الوضع: فتناولنا جميعًا حبوبًا منوِّمة، وذهبنا إلى الفراش.

لكن «معليش» هذه الأيام المغبرة؛ فبنغازي ما زالت تحتفظ بجنَّتها السرية، فما عليك سوى عبور هذا السهل الواسع، وأن تصعد بقليلٍ من المشقَّة الطريقَ المتعرج الذي تصطفُّ على جانبيه الشجيرات إلى ارتفاع نحو ثمانمائة متر، وستجد نفسك في منطقة خضراء داكنة، ذات رائحة عطرية من أشجار العرعر والصنوبر وغيرها. هذا هو الجبل الأخضر، فخرُ بَرقَة.

نبتة النقد الصحراوية

في فصل الربيع تنمو هنا العديد من الزهور والنباتات البرية، مثل النرجس الأبيض، والبنفسجي الصغير، والقزحية الزرقاء اللامعة، والخزامى الباهت، وحقول الخشخاش المشتعلة، وشقائق النعمان- تحت سماء الصيف الضبابية. أعلى الجبل هناك سهل بَرقَة حيث توجد مساحات شاسعة من زراعات القمح والشعير، ومزارع الزيتون وبساتين أصغر من التين والبرتقال، وصفوف طويلة من العنب الذي

زرعه الإيطاليون. هنا الطبيعة لطيفة، وحتى الماعز والبدو لم ينجحوا في تدمير المكان تمامًا. كان هذا السهل مُنتِجًا للحبوب لكلٍّ من الرومان والفينيقيين والقرطاجيين واليونانيين، ثم للإيطاليين في القرن العشرين. ويمكن أن يصبح مرَّةً أخرى جنَّةً خصبة للِّيبيِّين، إن وُجِدَت لديهم الإرادة لتحقيق ذلك.

اليوم، يحبُّ زُوَّار بنغازي الأجانب التَّنزُّهَ في المكان، بينما يعلِّقون بشكل لاذعٍ على المزارع الإيطالية المهجورة التي تتعرَّض للتدمير، وعلى الحيوانات الموجودة في المنازل التي تُستَغَلُّ كإسطبلات، بينما يعيش أصحابها البدو في الخيام، بجوار حدائق ومزارع مُهمَلَة، وعلى الآبار التي لم تَعُد نظيفةً- في هذه الأثناء يشرب الزُّوَّار النبيذ المحلِّيَّ في ظلال أشجار الزيتون العتيقة. وهناك طفل بدويٌّ يرتدي خِرَقًا، يقف قريبًا مُحدِّقًا في المتنزِّهين، بجانبه ثلاث نُسَخ مشابهة أصغر سنًّا منه، كلهم تغطيهم القذارة وأسراب الذباب. سوء التغذية بادٍ عليهم، حيث تبرز عظامهم، وتنتفخ بطونهم.

«بقشيش! بقشيش!» يقول الأطفال.

«يجب ألَّا نعطيهم البقشيش» قال أحد المتنزهين متعجرفًا.

«نعم، نعم، هذا سيئ بالنسبة لهم! إنه يفسدهم، ويعوِّدهم على التسوُّل، ويشجِّع على العادات السيئة» يتفق أصحاب البطون الممتلئة جميعًا على هذا الرأي.

«فلوس! فلوس!».

«أوه عزيزي. حسنًا، دعنا نعطيهم قطع الخبز بدلًا من ذلك!».

«أوه، فكرة جيدة! تعال يا محمد!» حيث يطلقون عليهم دائمًا اسم محمد- «اقتَسِمْ هذا مع الآخرين يا محمد». لكنَّ مُحمَّدًا يتخطَّف الخبز ولا يقتسمه مع أحد.

«سيغارة؟ سيغارة؟» يصيح الأطفال.

«فكرة وجود أطفال مثلهم، ويدخِّنون! لا عجب أنهم يعانون من التَّقزُّم. لا تُعطِه أي شيء».

«بل هو يريدها لكي يبيعها!».

يلتقط محمد عقب سيجارة ويضعه في جيبه. والآن يُخرجُ من جيبه مَعدنًا دائريًّا باليًا لشيءٍ قد يكون عملة معدنية.

«عملة إغريقية؟ أنت تشتري؟».

«هل هذا حقيقي؟ كم يريد ثمنًا لها؟».

«عشرة قروش».

«أوه، هذا كثير جدًّا! هل تعرف القيمة الفعلية لهذا؟ ثمانية وعشرون سنتا! فقط من أجل عملة يونانية قديمة قذرة لا أستطع حتى صرفها!».

«يا محمد، خُذ خمسة قروش».

فيأخذ محمد المبلغ.

«وداعًا محمد!» يا له من عارٍ أن نرى أطفالًا مُهمَلين بهذا الشكل! الليبيون لا يعرفون كيف يعتنون بأطفالهم! وداعًا بالسلامة! إنهم يحبُّون أن نتحدث معهم بالعربية!

في طريق العودة والنزول من الجبل الأخضر، يجلس الجميع في الخلف نصف

نائمين في استراحة، بعد غداء جيِّد، وتناول نبيذ جيِّد، يلفُّهم شعور بالأمان، وفي طريقهم إلى البيت لتناول عشاء فخم.

«يا له من بلد جميل!» يقول شخصٌ ما. «فقط لو أنَّ...!».

في طرابلس، كانت الحياة الاجتماعية للأجانب مختلطة إلى أقصى الحدود بوجود العديد من القنوات الاجتماعية الدولية المتنوِّعة لأي شخص يرغب فيها؛ فهناك دائرة اجتماعية إيطالية مرموقة، وهناك مجموعة المساعدة الأميركية، والعاملون في قاعدة ويلوس الجوية،

ومجموعة المساعدة المالية والإدارية البريطانية، والوحدة العسكرية البريطانية، ونخبة السفراء، وطبقة من المستشارين شبه دبلوماسية، والأمم المتحدة ووكالاتها، الذين نادرًا ما يجتمعون. على سبيل المثال: يمكنك التسوُّق في طرابلس، دون الالتقاء بأصدقائك، لكن لا يمكنك التسوق في بنغازي دون مقابلة معظمهم؛ فالمكان صغير جد، بحيث لا يستطيع المعارِفُ الهروب من بعضهم البعض.

كان أقرب أصدقائي في طرابلس من الليبيين، بالرغم من أنه بشكل عام ليس هناك اختلاط اجتماعي بين الجماعات الليبية والأجنبية، إلا على المستوى الوزاري. ولا أحد سوانا، على ما أعتقد، لديه أصدقاء ليبيون يدخلون عليك بدون دعوة. ومن خلال اهتمامات هاري المهنية، كنَّا محظوظين بالتعرُّف إلى عددٍ من الشباب الليبيين الأذكياء والمتعلِّمين، مثل: أحمد، وبدر الدين، وسالم، وعليٍّ، وسليمان، وأسعد- الذين لم تَكُن لهم مكانة حكومية رفيعة. والافتقار إلى مثل هذه المكانة الحكومية، يعني أنهم يستطيعون التحدُّث معنا بصدق. هؤلاء الشباب هم شريان الحياة لأي أُمَّة، وهؤلاء الشباب الليبيون كانوا كلَّ ما افتقدتُه في طرابلس.

ليبيا بلدٌ يصعب على المرء الشعور بأنه يعرفه أو يفهمه، وليبيا تريد أن تكون كذلك، وبهذه الطريقة. أوَّلًا: المجتمع الإسلامي لا يرحب بتدخُّل الكُفَّار. وثانيًا: عادة ما تكون اتصالات الأجانب إمَّا مع الوزراء، الذين قد لا يتحدَّثون في السياسة، أو مع خَدَم المنازل، أو البدو الجائعين الذين لا يستطيعون التحدُّث. وأخيرًا: المرأة الليبية، وهي غير متاحة للحديث معها.

نظرًا لأن العمر يحظى باحترامٍ كبير هنا، فأنا كامرأة مُسِنَّة أستطيع القيام ببعض الاتصالات المميَّزة مع كلٍّ من الرجال والنساء، ومع ذلك، غالبًا ما أجد نفسي أرغب في طرح الأسئلة ولكنني أظلّ مُتردِّدة في غزو الخصوصية الليبية، لكن الأصدقاء الليبيين لا يتردَّدون في طرح الأسئلة عليَّ.

هنا يُشار إلى الأنثى الليبية باسمها الأول فقط، ويستخدم اللقب لأغراض التعريف فقط. وبعد الزواج، لا يُشار إليها بكُنيَة زوجها، كأن يقال السيدة فلان، باستثناء عند تعريفها لأصدقائها الأوروبيين. واسمي كما قاله صديقٌ ليبي هو أغنس، وليس السيدة كيث. لكن الآن، بالنسبة لبعض الأصدقاء، أصبحت ماما أغنس، وهي تسمية تكرِّمني وأقدِّرها كثيرًا.

قبل أيام قليلة، وصل إلى بنغازي من طرابلس صديقنا مبروك، من قسم الزراعة، في طريقه إلى مصر بعد تلقِّيه منحة دراسية في الجامعة المصرية. وسيبقى معنا ثلاثة أيام. بالأمس، بينما كُنَّا نشرب قهوة الصباح معًا، تطوَّع بإبداء بعض الأفكار الصريحة جدًّا والمتعلِّقة بحياته الشخصية وزواجه الأخير، وفاجأتني صراحته.

بدأ قائلًا: «لدينا مشكلة كبيرة في عائلتي. ووالدي ارتكب خطأً فادحًا!».

قلتُ بدون فكرة عمَّا يُلمِّح إليه: «من فضلك قُل لي ما هي المشكلة».

«والدي، الذي يزيد عمره عن سبعين عامًا، تزوَّج منذ عدَّة سنوات امرأةً ثانية، وهي صغيرة جدًّا، وهذا خطأ كبير بمعاييرنا».

نظرت إليه بدهشة: «لكنني اعتقدتُ أنه لا توجد وصمة عار في الارتباط بأكثر من زوجة؛ فقرآنكم يسمح بذلك، أليس كذلك؟».

بجدية أجاب السيد مبروك، وهو مسلم متديِّن: «نعتقد أن الزوجة الثانية يجب أن تؤخذ فقط لأسباب موضوعية: إذا كانت الأولى مريضةً على مدى سنوات، أو غير قادرة على أداء واجباتها الزوجية لفترة طويلة، أو كانت عقيمًا؛ عندها يمكن الزواج بأخرى بالاتفاق المتبادَل. ووالدي ليس لديه أيّ من هذه الأسباب. كان لديه عشرة أبناء من والدتي. وهو فقط يريد امرأة جديدة!».

لم أفكِّر في أيّ تعليق، وبعد فترة صمت تابع مبروك: «بلدنا، ليبيا، يعيش في الماضي! ففي العصور القديمة كان الرجال يأخذون

زوجات إضافيات لأن عديدًا من الرجال قُتِلوا في الحروب، وكان هناك عدد كبير جدًّا من النساء، ولا بُدَّ من رعايتهن. إذن كان هناك سببٌ ما. أمَّا اليوم، فنحن الليبيين المعاصرين لا نوافق على ذلك».

قلتُ: «في الواقع، لا أرى كيف يمكنك تحمُّل أكثر من زوجة في هذا الزمن».

«لا نستطيع. ودائمًا ما يُسبِّب ذلك المتاعب في البيت. يجب أن يتمَّ كلُّ شيء على قدم المساواة للزوجتين في كِلا البيْتين، ولمجموعتَيْ الأطفال. وكذلك يشعر الأطفال بالغيرة دائمًا؛ لأن أمهاتهم يربِّينهم على اعتبار أطفال الأسرة الأخرى منافسين لهم».

«وهل يجب على الزوج أن يقسِّم واجباته الزوجية بالتساوي؟».

«بالضبط؛ فالزوج الفقير ليس لديه أمنٌ في بيته، ويجب عليه أن يحاول العيش في بيتين، وأن يقسِّم عواطفه بالتساوي، وينتهي به الأمر بلا بيت، ولا أحد ينال

العواطف الحقيقية. وإلَّا عليه في النهاية أن يطلِّق إحداهما ويستقر في بيت واحد، ومع ذلك لا يزال لديه الأطفال الآخرون لإعالتهم».

«ثم، بقدرٍ ما أستطيع أن أرى وأحكُم عليكم، فنساؤكم يَشعُرن ويتصرَّفن مثلما نفعل في مجتمعنا الأحادي الزواج. فالمرأة الليبية تحب رَجُلَها وتتشبَّث به وتعاني حينما يتركها ليشاركها عواطفه مع امرأة أخرى. من الناحية النفسية، لا يعمل ذلك بشكل جيد في مجتمعك أيضًا؟».

«تمامًا. في الأيام الخوالي، ربما يكون هذا الترتيب قد نجح لأن أحدًا لم يُشكِّك في التعدُّديَّة، لكن اليوم فهذا الأسلوب لا يعمل، وكما ترين، لا أحد في ليبيا يستطيع تحمُّلَ أكثر من زوجة واحدة، وكان عليَّ أن أنتظر بضع سنوات لكي أتزوج وأتحمَّل نفقات الأطفال».

«أين يعيش والدك الآن؟».

«ترك بيت أمي وأخذ بيتًا لزوجته الشابَّة، وأمي لا تريده أن يعود. كلُّنا نعاني من خطأ والدي».

«ماذا تقصد يا مبروك؟».

«لديَّ خمسة إخوة وأربع أخوات. قبل عدة سنوات، بعد أن أخبرنا والدي أنه سيتزوَّج امرأة أخرى، اجتمعنا معًا وتحدَّثنا عمَّا يمكننا القيام به لمنعه، واستقرَّ الرأي أننا لا نستطيع منعه مهما فعلنا؛ لذلك كان من الأفضل عدم قول أي شيء، فإن أخبرناه بموقفنا فلن يغفر لنا ذلك أبدًا، مع قناعتنا أنه لن يؤثِّر على خُطَطِه للزواج؛ لذا من الأفضل التزام الصمت».

«ماذا حدث حينما اكتشَفَت والدتك كل هذا؟» سألته.

«وقَعَت فريسة المرض، وكادت تصاب بالجنون. واقع الحال أن الكثيرات من المسلمات يُصَبْن بالجنون حينما يُقدِم الرجل على زواجٍ ثانٍ، أو أنهن يمرضن بشدَّة، وأحيانًا يقتلن أنفسهن!».

توقَّفَ قليلًا، فربما تساءل إن كان يقول أكثر ممَّا يجب. كان يقدِّم لي بالفعل صورة مختلفة عن الأسطورة السائدة حول أسرة الحريم السعيدة، حيث يتمُّ مشاركة الحب والأطفال بشكل عام، بينما الزوج محبوب من الجميع.

«هل بدَأَت والدتك تتعافى من معاناتها؟».

«لبعض الوقت، أصبحت والدتي لنا كأحد أطفالنا. لقد فكَّرنا بها كثيرًا، وأظهرنا لها قدرًا كبيرًا من العطف، وعاملناها على أنها 'حالة خاصَّة'، مثل السيدة الأميركية التي كنتُ أنا وأنتِ نناقش قصتها أمس، والتي كانت غير سعيدة بسبب زوجها؛ لذلك قام الجميع بملاطفتها، والآن عادت إلى طبيعتها بشكل تدريجي».

أثناء حديث مبروك، أعجبتُ بصدق موقفه. لقد بدا لي دائمًا أنه أمر سخيف ومخالِفٌ للطبيعة بالنسبة لنا في الثقافة الغربية أن نستمرَّ في التظاهر بما يُعرف بالطلاق «الودود»، وقد بدا لي أنه من

غير المعقول أيضًا أنه في القانون الإسلامي يمكن للمرأة مشاركة الزوج بنجاح.

«إذن، يا مبروك، ربما انتهى الأسوأ الآن، إذا تصالَحَت أُمُّكَ مع أبيك؟».

قال بحزم: «الأسوأ لم ينتهِ بعد؛ لأن والدي تزوَّج فتاة صغيرة، ولديه منها ثلاثة أطفال! في غضون بضع سنوات، سيموت أبي بموجب قانون الطبيعة ويترك وراءه الزوجة والأولاد، الذين يصبحون مسؤوليَّتي أنا وإخوتي!».

«يا إلهي! وأنت الذي انتظرت كل هذه السنين حتى تتزوَّج وتنجب أطفالًا!».

«تمامًا. بما أن أبي كان مُصمِّمًا على الزواج مرَّةً أخرى» يتحدث الآن بنبرة من الغضب الصريح، «كان يجب على الأقل أن يتزوَّج امرأةً مُسِنَّةً لن تنجب له المزيد من الأطفال!».

من الواضح أن مبروك تجاهل حقيقة مُهِمَّة في الحياة، وهي أن الرجال المسنين لا يهتمُّون بالزواج من نساء كبيرات في السن!

«لا يتعلق الأمر بالمال فقط لرعاية هؤلاء الأطفال، وهذا بالتأكيد سيكون صعبًا للغاية! حيث يجب علينا أيضًا أن نحاول أن نرى الأطفال يكبرون في بيئة جيدة وبالطريقة الصحيحة. وإذا كانوا أبناء أخٍ وتوفِّي، فسأكون فخورًا وسعيدًا لرعايتهم وتربيتهم، لكن أبناء والدي! لا، لقد ارتكب خطأً فادحًا».

كنت أعلم أن مبروك، الذي نشأ محافِظًا وتقليديًّا، لم يكن ليوجِّه أيَّ انتقاد ضد والده لو لم يكن مُستَحقًّا تمامًا.

«وماذا عن زواجك يا مبروك؟ هل أنت سعيد وراضٍ كما كنت تتمنَّى؟».

«حسنًا، لستُ متزوِّجًا بالفعل بعدُ؛ لأنه على الرغم من عقد القران قبل شهرين، إلَّا أن زوجتي لا تعيش معي بعدُ. في الواقع، لم أرَ

وجهها منذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها. هي ابنة عمي، كما تعلمين، لكننا قرَّرنا أننا لن نعيش معًا حتى نتمكَّن من الحصول على شقتنا الخاصة للعيش فيها، ولا ننوي العيش مع عائلتي».

«هل ستعثر على مكان في المدينة بالقرب من بيت عائلتك؟».

«لا. كان ذلك بيت عمي الذي زُرتِه معي، ولم أسكن قَطُّ في المدينة القديمة. لم يعجبني العيش هناك؛ فالجو مظلمٌ والمكان مُغلَق هناك، وأشعر دائمًا بأجواء الحبس والاكتئاب. لا، لقد طلبت من أحمد أن يبحث ويجد لي شقة حديثة مثل شقته».

«هل رأيت بدر الدين منذ عودته من أكسفورد؟ سمعت أنه سيتزوَّج قريبًا».

«نعم، لقد عاد للوطن، وقد أخبرني كثيرًا عن العام الذي قضاه في أوكسفورد. يقول إن الأشهر الأربعة الأولى وجدها لا تطاق تقريبًا. والمناخ السيئ، وأنماط الحياة المختلفة، والطعام الذي لا يكاد يُطاق تقريبًا. لكنه أجبر نفسه على الأكل، وليعيش فقط، وينام من الإرهاق، وعمل طوال الوقت المتاح له. لكن بحلول نهاية العام، قال إنه بدأ يحب المكان، وشعر كما لو أنه في وطنه، ويمكنه حتى أن يأكل السمك والبطاطا!».

«ما هو شعوره حيال ليبيا الآن وقد عاد إليها مرة أخرى؟».

«الآن أسلوب حياتنا هنا لا يبدو مُرضيًا له كما بدا حينما نظر إليه من إنكلترا!».

«ماذا عن الطعام الليبي؟ هل يُسعِده العودة إليه؟».

«لقد شعر بتحسُّنٍ مع الطعام الذي تناوَلَه في إنكلترا، ويعتقد أن الكثير من الأمراض هنا سببها سوء التغذية والشاي القوي الذي نتناوله؛ وبالتالي قرَّر أن يعيش وفقًا لأساليب الحياة العصرية. وعلى الرغم من أن زواجه القادم هو بالطبع مُرتَّبٌ مُسبَقًا وفقًا للتقاليد، ولم يَرَ العروس منذ كانت طفلةً؛ إلَّا أنه يأمل في الوقت المناسب أن تتخلَّى عن النقاب وتخرج معه».

«لقد دَعَوتُه بالفعل لإحضارها إلى هنا بعد زفافهما والبقاء في بيتنا، حيث سنسافر إلى كندا في إجازة».

«الفكرة جيدة؛ فزوجته هنا في بنغازي ستُعتبر غريبة، ويمكنها نزع النقاب أثناء إقامتها هنا. التخلِّي عن النقاب هنا أسهل من طرابلس».

«وهل ستكشف زوجتك عن وجهها؟».

«أتمنى أن تفعل ذلك في الوقت المناسب، حينما يتعلَّم الناس ألَّا ينتقدوا غيرهم. لكن لا يزال الأمر صعبًا للغاية في طرابلس. لكن بناتي لن يُغطِّين وجوههنَّ أبدًا».

---

* زكريا بن محمد القزويني، عالِمُ مسلم، قزوينيُّ المولد، توفي في 1283، ألَّف كثيرًا من الكتب في مجالات الجغرافيا والتاريخ الطبيعي، وله نظريات في عِلم النبات والجيولوجيا. المترجم.

28. عالمنا نَحنُ

بصفته رئيس بعثة منظمة الفاو والممثِّل القُطري لها، تولَّى هاري مسؤوليَّة وضع البرامج المستقبلية للمنظمة في ليبيا. هنا في بنغازي، كان الخبراء وكل عائلات منظَّمة الأغذية والزراعة ووكالات الأمم المتحدة يلتقون معًا. ففي هذه البيئة المحدودة للبلدة الصغيرة، وجدنا بعضنا البعض، كذلك وجدنا الترحيب والاهتمام من بعثة الأمم المتحدة وممثِّلها المقيم هارولد كاوستين، وزوجته كاثلين. هما من إنكلترا، ولا أرغب في إحراجهما بالإطراء، لكنني أقول إنهما فعلًا قدَّما لرِفعة شأن الأمم المتحدة من خلال عملهما أكثر من أي شخص آخر عرفته في حياتي.

مَهمَّة هارولد هي تمثيل الأمم المتحدة وخبرائها لدى الحكومة الليبية. كانت لديه القدرة الفكرية والحكمة والحساسية التي يتوقَّع المرء أن يجدها في رجُلٍ في مثل منصبه ومكانته، ولديه بالإضافة إلى ذلك إيمانٌ شديد بما يفعله، وبدور الأمم المتحدة. قد يعتقد المرء أن هذا طبيعي لشخص يعمل في هذه المنظمة، لكنه ليس بالضرورة كذلك؛ إذ يبدو أن الاستخفاف بالوظيفة التي يقوم بها المرء، مع قبول راتبٍ جَيِّد مقابل القيام بذلك، هي تقريبًا عادة محلية.

لا أحد يشكِّك في المعرفة الفنية لخبراء الأمم المتحدة، لكن قناعتهم بإنجاز أي شيء في ليبيا كانت موضعَ شَكٍّ في بعض الأحيان، وهذا كان مفهومًا؛ لأن الليبيين أنفسهم شكَّلوا الصعوبات؛ فلم يكونوا مدرَّبين جيِّدًا بما يكفي للعمل جنبًا إلى جنبٍ مع الخبراء الفنيين في أيِّ حقل. من ناحية أخرى، كان على الليبيين أن يبدؤوا العمل في وقتٍ ما! وحينما فشلت الحكومة في تزويد هاري بشخصٍ ليبي لتدريبه، وقع اختياره على أحمد. ومع أن أحمد لن يُصبح أبدًا خبيرًا في الغابات، لكن يمكنه فعل القليل من كل شيء آخر!

كانت كاثلين الزوجة المثالية لمثل وظيفة هارولد، وكانت جيدة جدًّا للبعثة وكلِّ مَن يعمل بها؛ لم تَخشَ المسؤولية، ولم تتردَّد أبدًا في منح وقتها، أو جهدها، أو أموالها لمن يحتاجون إلى المساعدة. وكما تخبرني دائمًا، فهي تفعل ذلك لأنها تحبّ ذلك، وأنا متأكدة من صدق مشاعرها. حينما تعاطَفتُ معها ذات مرة بشأن الضيافة والترفيه التي تقدِّمها بشكل متكرِّر وفخم لموظفي الأمم المتحدة وزُوَّارها، والتي أعرف أنهما يتكبَّدان المصاريف من أموالهما، كانت إجابة كاثلين: «أوه، لكننا نحب استضافة الآخرين! ويجب أن أقوم بها في جميع الأحوال». كانت موهوبة بروح المرح، وقلب مُحبٍّ، وذات شخصية كريمة، وقدرة هائلة على حب الناس، وترتدي نظارة بلون وردي!

هنا في بنغازي وجدتُ المكافأة الحقيقية في انضمامي إلى منظمة دولية، حيث من الطبيعي أن تكون صِلاتُكَ الاجتماعية والأشخاص الذين تتعامل معهم هم بطبيعتهم من الأجانب. أنتَ في الواقع لا تحتاج إلى البحث خارج مجموعتك الخاصة من أجل التنوُّع أو التغيير، أو البحث عن المرح، حيث إن كل ذلك متوفِّرٌ بكثرة. إذا نحن نُمثِّل العالم بالفعل: فنحن مشاكله، وفينا تكمن حلوله، أو العجز عن إيجاد الحلول.

كان هناك حوالي مائة شخص في بعثة الأمم المتحدة ووكالاتها في ليبيا، جاؤوا من البلدان التالية: بورما، نيوزيلندا، الأردن، تركيا، سوريا، أيرلندا، لبنان، مصر (الآن اسمها الجمهورية العربية المتحدة)، الهند، جمهورية ألمانيا الاتحادية، بولندا، المملكة المتحدة، كندا، الولايات المتحدة الأميركية، إيطاليا، يوغوسلافيا، هولندا، أستراليا، العراق، بلجيكا، باكستان، السودان، فرنسا والدنمارك. وكان مع عديدٍ منهم زوجاتهم وعائلاتهم.

نحن الأجانب لدينا عادة فيما يتعلَّق بالبلد الذي ندخله وننظر بعين الاعتبار لكيفية استغلالِه على أفضل وجه لإرضائنا. ولأن معظم الأنغلوساكسون يحبُّون النزهات؛ فإنهم يبحثون على الفور عن مواقع

للنزهات، ولا يُعتَبر التَّنزُّه عادة ليبية؛ فاللِّيبيّ يُفضِّل بطبيعة الحال تناوُلَ طعامه دون أن يكون مخلوطًا بالرمل.

منذ وقت ليس ببعيد، كان هناك موقع نزهة مُفضَّل على شاطئ رملي مبهج ونظيف وأبيض في منطقة جليانا، ليس أكثر من خمس دقائق بالسيارة من بنغازي، ذهبتُ أنا وهاري وجورج مرَّةً أو اثنتين في بداية انتقالنا إلى المدينة، لكننا لم نفكر في الذهاب مرة أخرى لعدَّة أشهر؛ لأننا لسنا من أنصار التَّنزُّه كثيرًا. بعد ذلك، حينما اقترحتُ على كاثلين أن تأتي هي وماري معنا إلى البقعة الرملية النظيفة نفسها في جليانا، نظَرَت إليَّ بدهشة وقالت: «آسفة يا عزيزي. لا يمكننا الذهاب إلى هناك، فالمكانُ مُغطًّى بالزجاج المكسور الآن!».

«زجاج مكسور! وعلى الشاطئ؟ في الماء؟ ماذا حدث؟ «سألتُ، دون أدنى فكرة لديَّ...

كاثلين، أكثر امرأة مُحِبَّة للخير في العالم، وهي غير مُحِبَّة للثرثرة، ولم ترغب في التعبير عن الحقائق الواضحة، لكنها أخبَرَتني أخيرًا أن الشاطئ لم يَعُد صالِحًا للسباحة؛ بسبب استخدامه من قِبَل مجموعة من الليبيين الذين يُعتبرون نسبيًّا أكثر رُقيًّا، حيث يلتقون هناك ويتناولون الكحول في المكان. والآن جعلت زجاجات البيرة والنبيذ والويسكي المهشَّمة رمالَ الشاطئ غير قابل للسَّير فوقها، وجعلت دخول البحر مستحيلًا.

في برقة، يُعدُّ تقديم المشروب الكحولي في مكان عام لأي ليبي مُخالِفًا للقانون، لكن من الواضح أن عددًا من الليبيين لديهم الإمكانية لتجاوز هذه العقبة باقتدار. من الواضح أيضًا أنَّ إحدى العادات الغربيَّة غير الحميدة، وأخطرها كذلك، قد تمَّ نقلُها إلى أصدقائنا الليبيين. وبالفعل، كم من مهنة ليبية رائعة دُمِّرَت بسبب إدمان الكحول الذي يبدو أنه ينتشر أكثر بين أكثر الأشخاص ذكاءً. ولحُسن الحظ فإن مُتعاطي الكحول هنا عددهم قليل للغاية ولا يُشكِّلون سوى نسبة

ضئيلة من السكان الليبيين؛ حيث لا يستطيع معظم الليبيين شراء الكحول، ولا يوافقون على تعاطيه، ولا يحبُّونه كذلك.

لكن شراب «اللاقبي» كان موجودًا على الدوام في ليبيا، ويُعتبر مشروب المزارع الليبي، فهو يُصنع محليًّا عن طريق جمع النَّسغ من قلب جذع النخلة، ويُشرب اللاقبي طازجًا أو بعد أن يصل إلى درجة التخمُّر، وهو مُسكِرٌ في حالته المخمَّرة. وعلى الرغم من أنه قد يتم استغلال النخلة أكثر من مرَّة للحصول على شراب اللاقبي، لكنها لن تُنتج التمور بعد استغلالها كثيرًا لهذا الغرض، وهي حقيقة تحدُّ فعليًّا من تَوْق المُزارِع ورغبته في الحصول على اللاقبي، حيث إن النخيل وإنتاجه من التمور هو مصدر رزقه.

من أجمل الرحلات في العالم التي تتم تحت سماء زرقاء وشمس إفريقية متوهِّجة، مع رفقة ملائمة، وبدلة سباحة، وتُرمُس للمشروب البارد، وخريطة من المؤكَّد أنها قديمة وغير صحيحة. وأن تقترن النزهة برغبة غامضة في العثور على حدائق يوسبريدس، أو حمَّام روميل، وهي بِركَة مياه اغتسل فيها الجنرال الألماني روميل، أو العثور على مكان يمكن فيه صيد طيور السمان، أو الذهاب إلى الحفرة التي اختفى فيها نهر الليثي، أو مجرد العثور على بضع عيِّنات صغيرة من نباتات البريَّة.

لا يوجد كتاب على الإطلاق يتطرَّق إلى بنغازي، التي كانت تُعرف في العصر الإغريقي باسم يوسبريدس، دون أن يذكر حديقة يوسبريدس ونهر الليثي، ولا يوجد كتابان يتَّفِقان بدقَّةٍ على مكان الحديقة. كان بلايني -قبل ألفي عام- أوَّلَ مَن حدَّد موقع الحديقة بالقرب ممَّا ستصبح مدينة بنغازي الحديثة، على سهل الحجر الجيري الأحمر الذي يعبره اليوم الطريق المؤدي إلى مطار بنينا.

سهل بنغازي مليءٌ بالكهوف الكبيرة والحُفَر والممرَّات الجوفية التي لا يمكن رؤيتها حتى تتعثَّر فيها. وتَشكَّل بعضها من خلال عملية تآكُل تحت سطح الأرض، متبوعة بانهيار الطبقة الجيرية السطحية، في حين أن الأخرى هي مجرد بقايا محاجر الصخور. بعضها مليء

بمياه المستنقعات والبعوض والثعابين، لكن البعض الآخر فيها حدائق مزروعة تتفتَّح في القاع، إلى حيث انجرفت التربة السطحية.

فتاة من الحمادة الحمراء

تتمتَّع مثل هذه المناطق بجودة غريبة وغير طبيعية، حيث اعتاد المرء رؤيةَ الحدائق التي تنمو في سهل جبلٍ أو على منحدر تلٍّ ما، أكثر من اعتياد نموها في باطن الأرض. وللوصول إلى إحدى هذه الثقوب ذات الحواف الخشنة في الحجر الجيري والنظر إلى الأسفل على قمم الأشجار الخضراء اللامعة، وأكواز الذرة الذهبية، وقطع من حجر اليَشْم اللامع، ونباتات الطماطم بلون ثمارها المتوهِّج، ومجموعات من نبتة القُبَّار تَنبُت بين الصخور، وربما تجد حمارًا صغيرًا يرعى في المكان. وعلى الرغم من أن حديقة يوسبريدس لم يتمَّ وصفها بدقَّةٍ بهذا الشكل، حيث يَذكرُ المستكشف الإغريقي سكايلاكس نحو فدَّانٍ من أشجار الفاكهة المزروعة الكثيفة.

نهر الليثي في بنغازي هو بحيرة تحت الأرض، في كهف من الحجر الجيري يقع على أرض القصر الملكي (قصر الغدير)، والبحيرة موجودة في ظلام دامس، ومنظرها مريب، أو بالأحرى الشعور بوجودها، كما يكتشف المرء عادة عند الدخول إليها وبعد نزول الدرجات إلى كهفٍ أسودَ مُضاء بمصباح كهربائي لا يعمل، لكن

البحيرة موجودة بلا شك، وهي تمتدٌّ إلى أبعد ممَّا يمكن للمرء أن يراه حينما يُشعِل مصباحًا قويًّا على امتدادها.

لا يوجد مصدر مياه مرئي يغذِّي البحيرة، وتزعم الأسطورة الليبية أن مياهها تأتي مباشرة من نهر النيل عبر ممرَّات جوفية. وهناك رأيٌ أكثر حداثة هو أنها تتغذَّى من طبقة سفلية مَساميَّة تأتي من خزَّانٍ صحراوي في عمق الأرض. وتمَّ إجراء فحوصات على البحيرة، ووُجِد أنها توفِّر عائدًا مستمرًّا من المياه شديدة الملوحة للاستخدام البشري، ولكنها مفيدة للزراعة.

في هذا الوقت، كان «ابني محمد» في الذاكرة. حيث تلقَّينا رسالتين منه، مكتوبتين بشِقِّ الأنفس بقلم رصاص يمسكه بقوَّة في يده على قصاصة ورق، وتخيَّلتُه يكتب وقد ضغط بشفته على لسانه وأنفه يلامس الورقة تقريبًا، لكن الحروف كانت غير مقروءة تقريبًا؛ فالجَمعُ بين فكرته عن أبجديَّتنا التي لم يتقنها بالكامل، وتهجئته اللفظية أنتج رسالةً هيروغليفية، كان لا بُدَّ من معرفتها لفهمها. لكن على أي حال، كنت أعرف جيدًا ما تقوله رسائله؛ لأنني تلقَّيتُ أخبارًا عنه من خلال مصادر ليبية.

لقد وُلد ابنه الثاني (حمدو لله)! وكذلك لم يحصل على وظيفة في منظَّمة الأغذية والزراعة؛ حيث لم تكن هناك وظيفة شاغرة في الوقت الحالي. وأنه يعمل كصبي منزل مع صديقة أميركية لي كان يحبُّها كثيرًا. إنها لطيفة جدًّا معه، لكنه لم يكن يحب العمل في البيت. كما اشتاق إلينا وتمنّى أن نعود. وكان أيضا يسأل عن الأخ جورج؟ وإمكانية أن أكتب له رسالة توصيةٍ أخرى إلى شخصٍ آخر في الفاو، وأن أحصل على وظيفة له؟

أفادت رسالته التالية بعد بضعة أشهر أن ابنه الجديد كان بصحَّةٍ جيدة، وأن صديقتي الأميركية التي يعمل لديها كانت تشرح لزوجته لطفيّة كيف تعتني بالطفل بالطرق الحديثة، وأن ابنه على قيد الحياة (حمدو لله)! ثم هل يمكنني أن أكتب مرة أخرى إلى منظمة الأغذية والزراعة بشأن إعطائه وظيفة؟

لأنني كنت مقتنعة بأن الطريقة الوحيدة التي ستمضي بها ليبيا إلى الأمام، هي أن يتعلَّم الليبيون كيفية العمل في الوظائف المهمة، وأن تكون البدء في تدريب الليبيين أنفسهم في هذه الوظائف، ولأنني مقتنعة بأن محمَّدًا كان من أكثر الأشخاص الواعدين من الليبيين لاستيعاب التدريب؛ لم أتردَّد في كتابة خطاب لصالحه. وهذه المرة تمَّ العثور على وظيفة لمحمد في بعثة الفاو في طرابلس.

بعد ذلك بوقت قصير، ومن خلال الاهتمام الشخصي لخبير سويسري شاب في استخدام الأدوات الصغيرة -وهي عبارة جعلت هاري الذي أعجب بطموح محمد واستعداده لمحاولة أي شيء، يضحك كثيرًا- أُعطِي محمد عملا هو أكثر مسؤولية قليلًا كمساعدٍ لبيتر.

حينما كان أحمد في زيارة إلينا في بنغازي، أخبرني عن التحسُّن في وضع محمد وطفله، ونقل تحايا محمد الودِّيَّة إلينا جميعًا، وشعرت بسعادة أكبر لما يمرُّ به محمد، وربما (إن شاء الله) قد يفلت حقًّا من العقبات الكبيرة التي تقف في طريقه.

29. نَحزِم خِيامَنا مرَّةً أخرى

واحدة من أعظم ملذَّات الحياة شبه البدوية التي عشناها أنا وهاري لمدة ثلاثين عامًا من الحياة الزوجية هي أنه حالما نشعر بأننا نستقرُّ في مكانٍ ما فإننا نتنقَّل: إمَّا لإجازة في الوطن، أو العودة إلى العمل. هذا التنقُّل المستمرُّ يضيف مُتعَةً كبيرة إلى الحياة، وربما هذا ما يجده البدو الليبيون أيضًا؛ فهم على الرغم من فقرهم الشديد الذي لا يتيح لهم أخذ الإجازات والسفر، إلا أن بإمكانهم على الأقل تغيير بيئتهم المعيشية؛ ولهذا أشكُّ إن كان بإمكان البدوي الشفاء من الروح البدوية المتأصِّلة فيه.

الآن بعد أن استقرارنا براحةٍ في بنغازي، وبعد أن خزَّنَّا خيامنا وزرعنا محاصيلنا في الحديقة، ولم نحصدها بعدُ، فقد حان وقت إجازتنا إلى الوطن. أنا وهاري وجورج سنسافر إلى لندن، ثم نبحرُ على متن سفينة إيطالية من ساوثهامبتون إلى مقاطعة كيبيك. وهناك خطَّطَنا لشراء سيارة مستعملة والقيادة عبر كندا، وجبال الروكيس، إلى ڤيكتوريا على ساحل المحيط الهادئ، مع التوقُّف في سياتل لرؤية ابنتنا المتزوِّجة جين وزوجها هارولد وأطفالهما الأربعة.

قبل مغادرة بنغازي، حجزنا سيارة أوستن غيبسي متعددة المهام لاستلامها بعد ثلاثة أشهر؛ حتى أتمكن من مرافقة هاري في رحلته المُخطَّط لها منذ فترة طويلة إلى واحة الكفرة عند عودتنا. هذه السيارة تشبه اللاند روڤر، وهي عربة خدمة ثقيلة بإطارات رملية خاصة، ويقال إنها أقل ثِقلًا وأسهل في التوجيه. كان لدينا خزان بنزين إضافي للسفر في الصحراء. ثم ودَّعنا لينا وبوتشي، لكي يبقى البيت الواقع في سهل الفويهات الأحمر مفتوحًا لعودتنا. ودَّع جورج المكان آسِفًا لأنه بَدَا من المحتمل أنه قد لا يعود إلى ليبيا مرة أخرى. أمَّا وداعي للمكان، فقد اتَّسم بسعادةٍ لمعرفتي أنني سأعود هنا؛ لأن البلد والناس قد تركوا أثرًا عميقًا في قلبي.

عند عودتنا إلى بنغازي بعد ثلاثة أشهر، إلى منطقة البحر المتوسط، إلى لينا وبوتشي، وبيتنا الحجري الأبيض بداخله، البارد المغلق المخفي بعيدًا عن شمس إفريقيا الملتهبة، بحديقته المكوَّنة من ثلاثمئة شتلة متجذِّرة ونامية. الآن، حيث تسلَّقَت شجيرات الياسمين الدمشقي فوق أسواره العالية التي تمرُّ من ورائها الجِمالُ والحمير، وحيث أصدقائنا في السهل، الذين يرحِّبون بنا الآن، وجدنا شائعات وأخبارًا تنتظرنا قبل حتى أن نفتح حقائبنا.

فقد كان على الحكومة الليبية وجميع الوكالات المساعدة والسفارات والقنصليات العودة إلى طرابلس على الفور. كانت مثل هذه التحرُّكات دائمًا فوريَّةً وعاجلة وأكثر إلحاحًا لإنجازها بالشكل الصحيح على الإطلاق، ولم يَكُن نَقلُ العاصمة يحظى بشعبية لدى أحدٍ غير الملك. لقد كانت بالتأكيد سياسة مُكلفة بالنسبة لدولة فقيرة، فتكلفةُ نقلِ الحكومة كبيرة، ويضاف إلى ذلك تكلفة نقل وكالات الأمم المتحدة والأُسَر، والتي كانت تدفعها الحكومة أيضًا.

كانت خطوتنا الأولى هي السَّفر على الفور إلى طرابلس للبحث عن بيتٍ مَرَّةً أخرى. لنجد أن الأسعار تضاعَفَت بمجرَّد أن سمع المُلَّاك أن الحكومة عادت. كانت لديَّ طموحات للعثور في طرابلس على بيت في غاردن سيتي، لكنني سرعان ما تخلَّيتُ عنها واستقررت مرَّةً أخرى على ڤيلا في جورجمبوبلي.

في هذه الأثناء، وصلت سيارة الغيبسي، لكن الرحلة إلى واحة الكفرة، التي كانت على بُعد أقل من ألف وستمئة كيلومتر جنوبًا، قد أُلغِيَت. وبدلًا من أن نكون في طريقنا إلى الواحة التاريخية كما كنَّا نأمل، وجدنا أنفسنا بعد بضعة أسابيع على الطريق إلى طرابلس، مع سيارتين للقيادة عبر الصحراء الآن، بدلًا من واحدة.

كان هناك شيء مألوف للأسف بشأن مغادرتنا بنغازي؛ لأنَّني تعرَّضتُ لحادث مؤسف كالمعتاد في الليلة السابقة. كنَّا قد حزمنا متاعنا في الخارج ونحاول العثور على غرفة في فندق لقضاء الليل. كانت بنغازي الآن (1959) مليئة بالمستكشفين والباحثين والمختَبِرين

والحفّارين والمُخطِّطين والمشترين والبائعين؛ وبالتالي لم تكن هناك غرفة فندقية متاحة. أخيرًا، وجدنا شقة صغيرة من غرفتين وغير مضاءة في نهاية زُقاقٍ مُظلِم، حيث يمكن أن ننام أنا ولينا وبوتشي وهاري لهذه الليلة.

ألقينا حقائبنا المليئة في ظلام المكان، وخرجنا مرة أخرى للعثور على بعض الطعام. كان الزقاق غير مضاء وحالِكَ السواد، وهناك درجة صغيرة تنخفض بعدة سنتيمترات أمام بابنا، ولا أريد أن أذهب أبعد من ذلك بقصَّتي. المهم، تعثَّرتُ، وتورّم كاحلي على الفور بشكلٍ لا يتناسب مع ارتفاع الدرجة القليل. كانت لينا مليئة بالتعاطف والخوف، وأمطرني بوتشي بالقبلات، وهاري الذي كان يشعر بالتعب (طبعًا لا تشعر النساء بالتعب!) بدا كأنه يعاني كثيرًا. وربما كان يتساءل لماذا تزوَّجَني؛ لأن المشاعر نفسها راودتني.

أثبَتَت تلك الليلة أنها لا تُنسى، ليس بسبب التواء كاحلي، بل لطريقة علاجه. كان لدى هاري في حقيبته زجاجة من سلون لينيمنت (اكتشفنا في اليوم التالي أنها للخيول) والتي قرَّرتُ أن أجرِّبها. فرَكتُ كاحلي جيدًا بالمحلول وذهبت إلى الفراش. بعد خمس عشرة دقيقة كنتُ مستيقظَةً وأحاول غسل المرهم، وبقية الليلة أمضيتها جالسة في حوض الاستحمام، أغطس قدمي في الماء البارد في محاولة للتخلُّص من الحرق الذي لا يُطاق. لا ينبغي أن يعالج أي حصان بهذا المرهم!

خلال ساعات الليل الطويلة التي أمضيتها على حافة حوض الاستحمام الباردة بمفردي مع تأنيب ضميري، بينما كان هاري يشخِّر بسعادة في إحدى الغرف، ولينا تتنفَّس بعمق في الغرفة الثانية- تساءَلتُ عمَّا سيأتي به اليوم التالي من مفاجآت. كنا سائقين مع سيارتَيْن، وكنتُ أعلم أنه لا شيء سوى الموت سيمنعني من قيادة سيارتي إلى طرابلس، لكن فكرة الموت تظلُّ مُغريةً. حاوَلتُ أن أفكِّر في القدم التي استخدمتها دائمًا لدوَّاسة البنزين، لكن لا يمكنني أبدًا تذكُّر كيفية قيادة السيارة إلا حينما أجلس فيها.

رحَّبتُ بطلوع الفجر وارتدينا ثيابنا لبداية الرحلة باكرًا. لم أتمكن من ارتداء الحذاء، لكنني لم أتوقَّع ذلك. نظر هاري إلى قدمي وقال: «حسنًا، لحسن الحظ هذه ليست قدم دوَّاسة البنزين!». قمنا بتعبئة السيارات والتحقنا بريكاردو، الذي يقود سيارة لاند روڤر التابعة للفاو، ثم انطلقنا إلى طرابلس.

اليوم هو الأول من شهر ديسمبر، ولم تكن هناك أمطار كثيرة في الشتاء السابق، وليس هناك أيُّ مطر هذا العام حتى الآن. سَمِعنا سُكَّان السهول وعرب الصحراء يتذمَّرون من الجفاف والآبار الجافة والمراعي المحترقة والمحاصيل المحتضرة. سمعنا هذا وقَبِلَتهُ عقولنا، وأَسِفنا له، ولكن من السهل توقُّع أن هذا هو حال أيِّ أرض صحراوية، هذا ما عليهم توقُّعه في أرضٍ ثلاثة أرباعها صحراء، لكن الأمر مختلفٌ لو حدث ذلك في الولايات المتحدة!

اليوم، تُظلِّلنا السماء الزرقاء الرائعة، ومن حولنا الرمال الذهبية، ونرى لمحات من البحر الفيروزي، كل جمال الصحراء الشَّرِسَة والرائعة لا يزال كما هو مُتوقَّع، لكنها الآن أصبحت خلفيَّةً لقطعان الماشية الميتة والمحتضرة. من أجدابيا فصاعدًا، على بُعد حوالي مئة وخمسين كيلومترًا من بنغازي، قادتنا الأشباح عبر منظر طبيعي مسكون. لكن الأكثر مدعاة للحزن من الهياكل العظمية والجثث، رؤية الحيوانات ترفع رؤوسها بصَمتٍ وتبدو أضعف من أن تنهض على قوائمها عند مرورنا بها.

أردنا التوقُّف. توسَّلَت لينا للخروج والقيام بشيء ما، لكن ليس هناك ما يمكن أن تفعله. لقد كان موتًا بالجملة وبمشيئة الله. ربما ستهطل الأمطار هذا العام. إن شاء الله! إن شاء الله!

وصلنا إلى سِرت في الوقت المناسب، (حمدو لله)! ومن خلال عدم تغيير عتلة السرعة وجدتُ أنني أستطيع القيادة دون كثير من الألم، ولأن معظم طريق سِرت مستقيمٌ؛ فقد وضَعتُ قدمي السليمة على دواسة البنزين واحتفظت بها هناك. بهذه الطريقة وصلنا باكِرًا، (حمدو لله)! على الرغم من إغراء مواصلة القيادة إلى طرابلس، قال

هاري إننا سنتوقّف في سِرت طوال الليل. (حمدو لله) مرتين! حيث فقد الموت الذي توعَّدت به نفسي لسعته!

بينما كنَّا نأكل السباغيتي في المطعم في تلك الليلة، جاءت كلبة المالك الإيطالي الصغيرة وحاولت تكوين صداقة مع بوتشي، وقد أحبَطتُ هذا الارتباط بسبب البراغيث، لينا قالت إنه لن يحدث أيُّ ضَرر من خلال القليل من المرح بين الكلبين، لكن بوتشي، الذي لا يزال يتعافى من حقن داء الكلب في بنغازي، لم يكن ميَّالًا للمرح، وسرعان ما غادرت الكلبة المرفوضة.

وصلنا إلى طرابلس بعد ظهر اليوم التالي، وهي مدينة جميلة وكريمة ومتطوِّرة لأشخاص مثلنا عبروا للتَّوِّ صَحراءَ سِرْت. سجَّلنا الوصول في فندق المهاري كما فعلنا قبل أربع سنوات عند وصولنا لأول مرة إلى ليبيا. كانت الغرف لا تزال صغيرة، وهناك مَبوَلة هذه المرة بدلًا من المرحاض، ولا تزال الطيور تصنع أعشاشها في باحة نبات الجهنمية، ولا تزال رائحة قهوة الصباح تفوح برائحة البيرة من البار- لكن الفندق الآن كان مليئًا بخبراء البترول. كانت رائحة الزيت أقوى من رائحة الويسكي، وأصوات الرجال من تكساس أعلى من الأذان في المسجد القريب، والمال يبدو قريبًا، وإن لم يصل إلى الجيوب بعدُ.

في اليوم التالي أصيب بوتشي بالمرض والقيء ورفض تناول الطعام. أخَذتُه مع لينا إلى المستشفى البيطري الحكومي، حيث التقينا لأول مرة مع عبد الله، الممرِّض البيطري الليبي الضخم ولطيف المعشر. عبد الله ليس طبيبًا، ولا يمكنه وصف الأدوية، لكنه يتعامل مع الحيوانات.

وقف الطبيب البيطري الإيطالي الشاب عدَّةَ خطوات عن بوتشي، الذي كان عبد الله يتحدَّث إليه بهدوء، وطلب منَّا وصف أعراض المريض. ثم قام الدكتور باريتو بتشخيص حالته بأنها اضطراب... ربما اعتَقدتُ أن السبب هو الكلبة الصغيرة الودودة في سِرت. وصف الطبيب له حقنة لحسن الحظِّ وصَلَت لتَوِّها إلى طرابلس، مع تكرارها

يوميًّا لمدة أسبوع. كان الطبيب ذو العيون الزرق يقف بعيدًا عن مريضه، بينما عبد الله يستعدُّ لحقن الإبرة تحت الجلد، بدأ الطبيب في مغازلة لينا قليلًا. وبحلول هذا الوقت، كان قد حصل على موعدٍ معها في المستقبل. ثم أخذنا بوتشي الصغير المرتعش وغادرنا العيادة. وسار الطبيب معنا إلى السيارة، لكن دون أن ينبس ببنت شَفة للمريض. ولو أنه يعرف لينا بشكل أفضل، لكان قد شَقَّ طريقه إلى قلبها عبر بوتشي.

خيمة بدوية

4

أصدقاءُ من عند الله

30. أطفالُ محمد

احتاج أصدقاؤنا الليبيون السابقون في منطقة جورجمبوبلي إلى بضع ساعات فقط لنشر أخبار وصولنا.

وجدنا سعيدًا وصولة، وكلاهما ما زال يعمل في الحي الآن عند نقيبٍ في سلاح الجو في قاعدة ويلوس. تبدو عين صولة المصابة في حال سيئة للغاية، وقد أخبره طبيب المستشفى أن هناك خطرًا من إصابة العين الأخرى أيضًا. ويحاول النقيب الأميركي إجراء عملية جراحية له في مستشفى القاعدة لإزالة العين المصابة. سعيد يضجُّ بشكاواه المعتادة، وكالعادة يبدو حزينًا، فهو لم يبلغ السابعة عشرة من عمره بعد، وتزوَّج منذ عامين، ولم ينجب أطفالًا، هو الآن على وشك الطلاق، وقد اختيرت له زوجة ثانية. يقول أيضًا إن مصطفى، أخاه الأكبر، وهو شاب وسيم للغاية، اقترن لتَوِّه بزوجة ثانية. وتعهَّد سعيد بأن يُخبر محمدًا بن مختار بأننا في طرابلس.

صديقنا الفزَّاني القديم محمد جاء لزيارتنا أيضًا، كانت محادثاتنا معه كلها: «إن شاء الله»، و«حمدو لله»؛ لأن ليس لديه أسنان، وهو أصمُّ تقريبًا، وفي كل الأحوال غير واضح في حديثه، لكن وجهه الأسود المتوهج المبتسم يشي بالرسالة نفسها دائمًا: الشجاعة، والتحمُّل، والصبر، والقبول، واللطف. أحضر لي باقة صغيرة من الزهور، بلا شك تمَّ قَطفها بلا سيقان تقريبًا من حديقة الجيران القريبة، حيث يعمل حارسًا. لم يتقدَّم أبدًا إلى ما بعد وظيفة الحارس، وأعتقد أنه ليس لديه طموح لذلك؛ فهو يحصل على مبلغ صغير، ومكان للنوم (كل الحراس الليبيين ينامون في مواقع عملهم!)، ويحصل على القليل من الطعام الفائض والملابس القديمة، وهو يعيش في الغالب على الشاي وتمور فزَّان السكرية، والتي يعود بها معه من زيارته السنوية لزوجته في فزَّان. عرفته منذ أربع سنوات ونصف، كان يرتدي دائمًا المعطف العسكري الكاكي القديم، والذي يكمله الآن

بالجينز الأزرق المستعمل. محمد الفزاني هذا واحدٌ على الأقل ممَّن يجب أن يدخلوا الجنة بدون حساب!

اليوم ظلَّ صديقنا من فزَّان يُردِّد اسم «محمد»، ويشير إلى الأطفال الصغار، وأنا على ثقة أنه يعني «مُحمَّدَنا». أعلم أنه في يوم العيد المقبل، سيعود محمد مرة أخرى بقبضة مليئة بالزهور يمسكها بإحكام، وببعض تمور فزَّان يقدِّمها لهاري.

في أول جمعة لنا هنا، بما أن الجمعة هو بمثابة يوم الأحد عند المسلمين وعطلة رسمية، يصل «ابننا» محمد لزيارتنا، حامِلًا معه باقة من أزهار السوق. تقديمُ الزهور النَّضِرة ليس عادة ليبية، فالليبيون يفضِّلون الزهور البلاستيكية بألوان زاهية غير القابلة للتغيّر، لكنهم يرون أننا نحن الغربيين نقدِّر الأزهار الطازجة، ويرغبون في تكريمنا على طريقتنا. اليوم يحمل محمدٌ الزهور في يده الأخرى، ويحمل أيضًا أحمد الصغير، ابنه البالغ من العمر عشرين شهرًا. أحمد، طفل يتمتَّع برعاية جيدة، له عينان مشرقتان، يرتدي ملابس أطفال على الطراز الأميركي.

تساءلتُ كيف سيكون شعور محمد حينما يرى لينا تملأ مكانه في البيت. وكنتُ سعيدةً لأن لديه أعمالًا أخرى مع منظمة الأغذية والزراعة شعرتُ أنه يفضِّلها على خدمة البيوت. ومع ذلك، لم تكن هناك مشكلة. رحَّب بي بصفتي «الأم» وعانقني، وحاول أن يضع أحمد بين ذراعي. وبطبيعة الحال، تراجَعَ أحمد بعُنفٍ بسبب الأصوات المزعجة، حتى قدَّمَت لينا بسرعة الحلويات والمشروبات الغازية والقهوة. حينما اختفت لينا وجلسنا، قال محمد: «كيف ترين الفتاة؟».

«أحبها كثيرًا. هذا عمل الفتاة: في البيت. وكيف ترى عملك الجديد؟».

«ليس سيئًا. لا بأس.»، ونادرًا ما يكون الليبي متحمِّسًا للعمل على أي حال. «لكن مديري رجلٌ جيد جدًّا».

«مديرك هو السيد وايزمان؟».

«نعم. رجل ممتاز. ويعجبني».

«ماذا تفعل بجانب قيادة سيارات لاند روڤر؟ «.

«أساعد في المكتب أيضًا» قال بفخر كبير.

«جيد. أنا مسرورة جدًّا. كيف هي لطفيّة؟».

«لطفيّة بخير».

«والمولود الجديد؟ ما اسمه؟».

«اسمه عمر... وصديقتك السيدة هارفيل ممتازة مع لطفيّة حينما وُلد الطفل. وجاءت إلى بيتي لتعلِّم لطفيّة كلَّ شيء عن رعاية الطفل: الاستحمام واللباس، ووضع بودرة جيدة للبشرة».

كان بإمكاني تصديق هذا تمامًا؛ لمعرفتي بقلب صديقتي الرؤوم وأساليبها الفعَّالة في التَّعامُل. «لكن ماذا قالت والدتك حينما جاءت السيدة هارڤيل؟» سألتُه، وأنا أعلم أن الممارسات السابقة للسيدة العجوز كانت مشكلَة محمد الكبرى مع ابنه البِكر الذي مات.

لطفية زوجة محمد

«ربما لم تحبها، لكن معليش! أنا أحب أبنائي ينمون أقوياء وكبارًا مثل كل أولاد الأميركيين».

لم أشأ تخييب ظنِّ محمد بشأن صحة الأطفال الأميركيين، الذين هم بلا شك أكبر حجمًا وأقوى من الأطفال الليبيين في ليبيا على أي حال، لكن أطفال الأحياء الفقيرة لدينا لا يسافرون إلى الخارج للإعلان عن حقيقة أن لدينا المحرومين أيضًا».

كان من دواعي سروري الجلوس للدردشة مرة أخرى مع محمد أثناء تناول القهوة، والتسلِّي مرة أخرى بمراقبته وهو يمدُّ إصبعه الصغرى برفقٍ وراء فنجان قهوته، ورؤيته يأخذ قطعة بسكويت صغيرة، وينكر على أحمد أخذ قطعة إضافية تأدُّبًا. ومع ذلك بدا غريبًا أن نجلس هكذا دون أن يناور محمَّد ليطلب مني خدمةً ما.

«وأين جورج الآن؟».

«جورج في لندن يدرس... كما آمل!».

«هل يأتي إلى هنا مرة أخرى؟».

«نعم، لعيد الميلاد».

«جيد. سآتي لرؤيته».

«نعم، بالطبع يا محمد».

لكنني كنتُ سعيدة برؤية تركيز محمد المكثَّف السابق على جورج وأسلوب حياته وهواياته، قد تلاشى إلى حدٍّ كبير. أصبح محمد زوجًا راضيًا، وأبًا لطفلين، ويقوم بعمل الرجال. كانت الحياة الوحيدة التي استطاع أن يحقِّقها، والحياة التي كتبها الله له. وكما شعرتُ في الماضي حينما كنت أستمع إلى أحلام اليقظة لمحمد وجورج، يأتي الوقت الذي يجب فيه التوفيق بين الأحلام والواقع.

«تعالَيْ إلى بيتي ذات يوم لتري لطفيّة. وهل تحضرين الفتاة أيضا؟» قالها بإيماءة نحو المطبخ.

«أيوا! نعم».

«سأذهب الآن يا أمي. في المرة القادمة سأحضِر عُمَر معي أيضًا. لا يمكن حمل طفلين في الحافلة!».

وأضاف: «في المرة القادمة سيوصلني صديقي على دراجته النارية؛ لذا سأحضر الأطفال معي».

لففتُ البسكويت المتبقِّي لمحمد ليأخذه معه، مع علبة سجائر، وهدية نقدية صغيرة للطفل. أتوقَّع أن يعرج محمد على سعيد ومحمد الفزاني قبل ركوب الحافلة. أشعر بالفخر بما حقَّقه (محمدي). يبدو نظيفًا جدًّا وأنيقًا، ويحترم نفسه جدًّا، وقد نضج كثيرًا.

بعد أيام جاء جورج من لندن لتمضية عطلة عيد الميلاد معنا، وبدا سعيدًا تمامًا بالبقاء في البيت والنوم وتناول الطعام والشراب، والاستماع إلى أغانيه المفضَّلة، والقراءة. كانت فترة رائعة بالنسبة لي ولهاري، حيث تعرَّفنا عليه مرة أخرى، وهذه المرة كان أكثر نضجًا، وأصبح قارئًا نَهِمًا للكتب الجيدة.

قضى هو ومحمد أمسية معًا، وذهبا أوَّلًا لمشاهدة فيلم عربي، ثم الجلوس والحديث لساعات أثناء تناول القهوة في مقهى الرصيف.

«محمد ذكي للغاية، ولديه أفكار عصرية!» أخبرني جورج في اليوم التالي. «يقول إن بإمكاني رؤية زوجته في المرة القادمة، وأنه لا بأس في ذلك؛ لأنني لست مسلمًا ولا أعيش هنا».

«محمد يحب وظيفته، أليس كذلك؟».

«نعم، ويقول إنه سيخرج إلى الصحراء في رحلة قريبًا. وهو لم يخرج من طرابلس أبدًا، كما أنه مهووس برؤية الصحراء».

«نعم، أعلم أنه يريد الذهاب إلى الصحراء منذ رحلتنا تلك إلى غات مع أحمد وبدر الدين. هل سألَكَ عن لندن وماذا تفعل هناك؟».

«نعم، هو مهتمٌّ بكل شيء. كنت أخبره عن الرجال في هايد بارك الذين يقفون على صناديق هناك ويخبرون الجميع عن أخطاء الحكومة، ولا أحد يحاول إيقافهم. فيردُّ محمد: لا يمكنك فِعلُ ذلك هنا».

«لا، لا يمكنك ذلك، لكن ليبيا مختلفة تمامًا. هذا البلد لم يَنَل استقلاله سوى منذ بضع سنوات، والعجب أن البلد متماسك حتى

الآن! ليبيا لا يمكنها تحمُّل أيٍّ من الساخطين الذين ينشدون الكمال، أو السياسيين المحبَطين. إنها تناضل من أجل حياتها كأمَّةٍ موحَّدة».

«أبي يقول إن الحكومة البريطانية تقوم على حق الاحتجاج؛ فهو يجعل البريطانيين يشعرون بتحسُّن عند التعبير عن شكاواهم! على أي حال، لقد سمعتُ أشخاصًا في هايد بارك يشكون من الحكومة، لكن ليس لديهم أبدًا خطة جيدة جدًّا لتحسين الأوضاع».

بدا جورج مفتونًا بهايد بارك، والخطب الفوضوية، ومسيرات الاحتجاج، ومحلَّات بيع الكتب في لندن، وشجاعة الإنكليز، وبصديقه الأنغلو/ بورمي، بيل، وبالحياة الليلية في لندن. كان جورج مستمتعًا بحياته، على الرغم من أنه باعتباره كنديًّا كان يشعر بأنه غريب تمامًا. لكن الدروس التي تعلَّمها في لندن، لم تكن في الغالب من الكتب المدرسية!

بعد ذلك رأينا محمدا في عيد الفطر الذي يأتي في نهاية رمضان. وصل مع صديقه عليٍّ ممتطيًا دراجته النارية، وكان محمد على المقعد الخلفي مع أحمد أمامه، وعمر الصغير البالغ من العمر عشرة أشهر بين ذراعيه، مع باقة زهور من أجلي. تذكرتُ أنني التقيت بعليٍّ في حفل زفاف محمد، وبدا آنذاك رَثَّ الهيئة. واليوم يرتدي زي شابٍّ ليبي كلاسيكي، وهو بنطلون من الجينز الأزرق وقميص رياضي بلون أحمر وأصفر، وينتعل حذاءً جديدًا. يقول إن لديه وظيفة في شركة نفط، ومن الواضح أن لديه صِلات جيِّدة داخل قاعدة ويلوس.

بفخرٍ يقدِّم محمد صديقه الأنيق والناجح الذي يمتلك دراجة نارية، ويتباهى بطفليه ذَوَيْ العيون الصغيرة الذين لا يعانون من القوباء، ثم يقدِّم لي باقة الزهور. وفقًا لرؤية الليبيين فهو يمثِّل الرجل الناجح. وبينما تُعدُّ لينا المشروبات الغازية والقهوة، أطلب من عليٍّ الذهاب إلى سعيد، الذي يعيش في مرآبٍ قريب، وإحضاره لتناول القهوة معنا، فهذه مناسبة تستحق.

يصل سعيد على الفور، وينتهز الفرصة ليحضر معه رسالة باللغة الإنكليزية، يريدني أن أقرأها له. كانت الرسالة موجَّهةً إلى الطبيب الجرَّاح في مستشفى البلدية، وذكَّرني هذا بصولة، فسألتُ: «ماذا حدث لصولة؟ هل سيقتلع عينه المصابة؟».

يقول سعيد: «لا يمكن لطبيب القاعدة أن يفعل ذلك لأن صولة ليبي».

لم يفاجئني ذلك؛ لأنني أعرف أن كُلًاّ من مستشفى القوات الجوية الأميركية والمستشفى العسكري البريطاني لديهما قواعد صارمة ضد قبول المرضى الليبيين. فالمستشفيات لا تملك سيطرة كبيرة على المرضى الأجانب فحسب، بل لا تستطيع عادةً التواصُلَ معهم، وإذا حدث أي خطأ مع المريض؛ فقد يتسبَّب ذلك في مشكلة خطيرة؛ وبالتالي، لا يتم قبول المرضى الليبيين الآن في قاعدة ويلوس إلَّا بناءً على طلب مُحدَّد من السفير الأميركي. وتم وضع هذه التعليمات بعد أن تم إدخال طفل ليبي إلى المستشفى لتلقِّي العلاج بناءً على طلب الأب، ثم اشتكى بقية أفراد الأسرة للشرطة من أن الطفل قد تمَّ اختطافه من قبل القاعدة الجوية.

الرسالة التي رغب سعيد أن أقرأها هي من نقيب في القوات الجوية كان سعيد يعمل معه، وهي موجَّهة إلى الجَرَّاح في مستشفى البلدية. أشعر ببعض الحرج عند قراءة رسالة موجَّهة على هذا النحو، لكن سعيدا أصرَّ على أن الرسالة تتعلَّق بصولة ويرغب في معرفة محتوياتها؛ لذلك قرأتها. تطلب الرسالة من جَرَّاح مستشفى البلدية تقديم أفضل رعاية ممكنة لحالة صولة، التي تمَّ تشخيصها في مستشفى ويلوس على أنها بحاجة إلى إزالة العين المصابة. ويضمن الكاتب دفع رسوم الاستشفاء لصولة وأي رسوم إضافية بعد العملية.

«حسنًا يا سعيد، هذه الرسالة رائعة! هذا الكابتن خاصَّتك لا بُدَّ أنه رجل طيب وكريم. يقول إنه سيتكفل بتكلفة بقاء صولة في المستشفى بعد العملية. فأخبِرْ صولة بذلك». نظر سعيد نحوي وهو لا يزال مرتابًا: «هل هذه الرسالة أوكي؟».

«نعم يا سعيد. بكل تأكيد؛ فالكابتن خاصَّتك رجُلٌ طيب جدًّا».

«حسنًا، إذن. سأعطي الرسالة لصولة».

«ألم تعلم ماذا كان في الرسالة؟».

«نعم، الكابتن يقول الشيء نفسه كما تقولين. لكني لا أستطيع قراءة الرسالة. ظننتُ أن الكابتن ربما يقول أشياء سيّئة عن صولة؛ لذلك سألتك. أنتِ تقولين إن الرسالة جيدة؛ لذا سآخذها إلى صولة».

هذا هو الحال بالنسبة لسعيد الذي يتوقَّع الأسوأ دائمًا، وتساءلتُ في نفسي عمَّن قرأ الرسالة أيضًا.

قال محمد وهو ينظر حوله بسعادة، ممتلئًا بالرضا عن قيامه بالشيء الصحيح: «أتمنى لو أن جورج موجود هنا. في المرة القادمة التي يأتي فيها سأحضِر أبنائي لرؤية جورج».

«ومتى ستذهب الى الصحراء يا محمد؟ قريبًا؟».

«ربما في غضون أسابيع قليلة، فقد انتهى رمضان الآن. انا أحبُّ كثيرًا الذهاب هناك؛ فحينما ذهبتِ أنتِ والسيد كيث مع أحمد وبدر الدين لم تأخذوني معكم!» يُذكِّرني بخطئي.

كان مُحِقًّا. أوَّلًا؛ لأنَّه كان علينا ترك شخصٍ ما لينام في البيت في غيابنا، ولكن أيضًا لأنني تخيَّلتُ أن مُحمَّدًا الصغير آنذاك يُمثِّل مسؤولية إضافية بالنسبة لي. في تلك الأيام، كان دائمًا يتعثَّر، ويسقط، ويعاني أحيانًا من آلام في المعدة أو في القدمين أو من الصُّداع أو جرح أصابعه. وكنتُ أخشى أنه سينتهي بي الأمر للعناية به في نهاية المطاف، وأنا بالكاد يمكنني العناية بنفسي في رحلة صحراوية.

«حسنًا، ستذهب بنفسك هذه المرة. من فضلك أخبِرْني كلَّ شيء عن الرحلة عند عودتك».

«سأفعل يا أمي. وسأقدِّم لك هدية أيضًا».

كنتُ أحتفظُ دائمًا ببعض الألعاب في متناول اليد لزيارات الأطفال، وضعتُ بعضها في كيس لأحمد وعمر، جنبًا إلى جنب مع الحلويات والبسكويت والسجائر بالنسبة لبابا. وعند المغادرة أثار عليٌّ زوبعةً من غبار جورجمبوبلي بدراجته. ويلوِّح محمدُ مُودِّعًا ويضمُّ إليه طفليه. إنها صورةٌ لرَجُل ليبي ناجح في حياته، وهو يقوم بزيارة صديق أجنبي يوم العيد، ويرافقه أطفاله بملابس جديدة، ويسافر بوسائل النقل الآلية. (حمدو لله رب العالمين)!

31. قراصنةُ الخُبز

عدنا إلى طرابلس مرة أخرى، كانت زيارتي الأولى إلى شارع الخبز في الساعة 11 صباحًا للحصول على خبز ليبيٍّ طازج من الفرن. كم رائحتهُ طيبة! كان الزقاق الضيق خارج السوق مزدحمًا بعَرَبات تجرُّها الحمير، وخيول رمادية مُسِنَّة تئنُّ تحت أحمالها، والجِمال التي تسير إلى المسلخ، والدراجات الهوائية بصناديق الأمتعة الجانبية التي تزاحم المارَّة، والدراجات التي تسير بهدوء على الجانب الخطأ من الطريق. وهكذا لا يوجد مكانٌ لرُكن السيارة.

أقود السيارة في الشارع ببطء، وأتنفَّس رائحة الخبز الطازج، وأفكِّر في ما يبدو على الناس هنا من لطف، وكم لطيف أن تشعر وكأنك في وطنك هنا. كلُّ بسطات البيع في هذا الشارع مكدَّسة بالخبز، ولكن يبدو أن أوَّل بسطة مرَرتُ بها تحتوي على أكبر أرغفة بُنِّيَّة اللون؛ لذلك أدير السيارة ببطء وأعود أدراجي. الاستدارة عملٌ محفوف بالمخاطر حيث لا تتوقَّف حركة المرور أبدًا أمام عقبة ما، بل يتمُّ تفاديها، وعادة ما يقوم راكبُ الدراجة الليبي بتحديد خَطِّ مروره حينما يغادر عتبة بابه، ولا ينحرف عنه. أعود بسرعة المسير على الأقدام حتى وصولي إلى كشك الخبز المفضَّل. أفتح نافذة السيارة وأطلب من الرجل أن يعطيني رغيفين من أكبر حجم عنده. فسلَّمهما لي وقال: «ستة قروش!».

«ستة قروش؟ لا، أربعة قروش فقط. هذا هو الثمن!» فيصرخ في وجهي «ستة!».

لكني أعلم أن السعر تُحدِّده الحكومة. فالخبز هو النظام الغذائي الأساس للِّيبيِّين في المدينة، وكثير منهم لا يأكلون طوال اليوم أكثر من رغيف خبز مع قليل من الملح وصلصة الطماطم. عديد من المواد الغذائية المستوردة هنا تَضاعَف سِعرُها الذي كانت عليه قبل بضع سنوات، لكن الخبز ظلَّ كما هو. إنه الرفاهية الوحيدة في طرابلس

التي تباع اليوم بثمن بخس، وهو أفضل خبز في العالم، بأقل سعر مُمكِن.

مصنوع من دقيق القمح الكامل، ومُعدٌّ على هيئة أرغفة دائرية، محمَّرٌ بشكل رائع في أفران كبيرة تعمل بالفحم، يُخبز طازجًا مرتين في اليوم، عند الفجر وفي منتصف النهار، إنه العنصر الأساس للرَّجُل العامل... ولي كذلك. الأرغفة ثلاثة أحجام، أصغرها بقرش واحد، أي ما يعادل ثلاثة سنتات، والأكبر بقرشين، ومتوسِّط الحجم، بسعر وسط. المشكلة في شراء الخبز تكمن في عدم وجود معيارٍ دقيقٍ يمكن للزبون من خلاله قياس الرغيف، ولا يوجد خطٌّ فاصل صارم بين الأحجام الثلاثة للرغيف. في هذا الصدد لا يمكن أن ينخدع المشتري الليبي أبدًا، لكن بائع الخبز يأمل دائمًا في خداع الأجانب مثلنا، باستثناء ربَّة البيت الإيطالية؛ فهي حاذقة في العادة. يقوم المشتري الليبي بلمس والتقاط كل رغيف على الطاولة في بحثه عن الأكبر حجمًا، ويقرصها جميعًا لتجنُّب المنفوخ منها بالهواء، ثم يدفع الحد الأدنى لسعر الحجم المُختار.

لا يحظى الخبز الليبي بشعبية لدى الأميركيين لعدَّة أسباب، أولها: لأنه يجري لمسه بالأيدي كثيرًا، ناهيك عن تلوُّثه بالغبار. ومَن في ليبيا لم يَرَ عربة الخبز المحمَّلة بالخبز حتى الحافَّة وهي تسير على الطريق، فتسقط منها بالصدفة بعض الأرغفة في الشارع؟ وعندها يصرخ شخصٌ ما لتنبيه البائع، الذي يتوقَّف ثم يركض لالتقاط الخبز، ينفض الغبار عنه، ويعيد تكديسه فوق العربة، ويستمر في طريقه. لكن (معليش)! فالخبز جيد في النهاية. أو هكذا أعتقد.

اعتاد الأميركيون في بيوتهم تناول أرغفة بيضاء كبيرة خفيفة القوام، لا طعم لها، أمَّا الخبز الليبي الذهبي فلا يروق لهم. تُنتِج المخابز الإيطالية شيئًا يسمُّونه الخبز الإيطالي، والذي يتم بيعه على نطاق واسع للأميركيين؛ لأن إنتاجه يتم في ظل ظروف صحية أفضل. لكن هذا الخبز نفسه يُعدُّ إهانة للخبز الإيطالي كما يصنعه الإيطاليون في إيطاليا.

في بنغازي، حُرمنا من خبز طرابلس، حيث كان المواطن البنغازي يخبز رغيفًا طويلًا له نكهة مُميَّزة، بينما يصنع البدو أقراص الخبز المسطَّحة (التنور) الخاصة بهم. وللاستهلاك الأجنبي، تنتج العديد من المخابز اليونانية تقليدًا لا طعم له للخبز البريطاني.

الآن، وأنا أتجادل مع الرجل حول سعر الخبز الذي اشتريته، أشعر بالتأكيد أن ثمنه أربعة قروش مقابل رغيفين كبيرين، وليس ستة قروش.

«ستة قروش!» يصرخ الرجل مرة أخرى، «أو تعيدين الخبز!».

وبما أنه لا تتوفَّر لديَّ أربعة قروش؛ أعطيه ورقة من فئة عشرة قروش؛ وهو ما يجعل الكلمة الأخيرة له، فيعيد لي أربعة قروش فقط.

أقرِّرُ أن قرشين، أي ستة سنتات، ليسا مُبرِّرًا كبيرًا للعراك معه، وأقول لنفسي ربما يكون سعر الخبز في طرابلس أفضل من أن نتركه.

في ذلك المساء، سألت أحمد الذي جاء ليرى إن كان بإمكانه مساعدتنا في الاستقرار، إن كان سعر الخبز قد ارتفع فيؤكِّد لي أن تسعيرة الخبز لم تتغيَّر. عائلة أحمد، مثل عديد من العائلات المرموقة، يصنعون خبزهم بأنفسهم، ويدفعون مبلغًا صغيرًا لخَبْزه في أقرب فرن.

في اليوم التالي، عدت إلى شارع الخبز، الذي يزدحم بحركة الماشية، لدرجة أنني أوقفتُ سيارتي خارجه ودخلت سيرًا على الأقدام. وهذه المرة لديَّ مبلغٌ مُحدَّد من أربعة قروش قدَّمته له.

«لا.» يقول لي البائع ويده ما زالت ممدودة، «ستة قروش».

«أربعة قروش» أقول له، وأبدأ بالابتعاد عنه. فيعيد إليَّ القروش الأربعة، ويحاول استرداد خبزه مُكرِّرًا: «ستة قروش! ستة قروش!»، عازمًا على أخذ خبزه إذا لم يحصل على ستة قروش. أخذ حشدٌ من الناس يتجمعون ويراقبون الموقف، وأنا أقول لنفسي إنه حتى لو كان يغشُّني، فهو خبزٌ جيد، وهو الأكبر والأكثر تحميرًا في الشارع، ومن

المحتمل أن يكون رغيفان من الخبز الممتاز يستحقّان قرشين إضافيين؛ لذلك أعطيته قرشين وتراجَعتُ مع الخبز.

لمدة أسبوع ظللتُ أدفع للرجل ستة قروش يوميًّا مقابل خبزه، وأقنعُ نفسي أنه لا يهمُّ إذا كنتُ أتعرَّض للغشِّ؛ فالخبز جيد.

في إحدى الأمسيات حينما كنا نتناول الطعام مع الأصدقاء، وثار نقاشٌ حول الخبز، فأخبرتهم عن الرجل الذي دائمًا ما يأخذ مني قرشين إضافيَّيْن. قوبِلَت قصَّتي بآهات الاشمئزاز واتِّفاقٍ على أنه لا يوجد شخص آخر سيقبل مثل هذه المعاملة! عندها، قرَّرتُ إجراء اختبار في اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي، اصطحبتُ لينا معي إلى المدينة. عادةً ما يحصل الإيطاليون على سِلَعٍ من السوق بسعر أقل من الأميركيين أو البريطانيين، ويرجع ذلك أساسًا إلى أن ربَّة البيت الإيطالية تفاوض وتثير المتاعب للحصول على ما تريد، ولا يزال التاجر الليبي يشعر بالرَّهبة منها.

أوقفتُ السيارة قبل أن ندخل الشارع، وطلبتُ من لينا الذهاب إلى الكشك الأول وشراء الخبز، بينما أنتظر في السيارة. رأيتها تذهب وتعاين الأرغفة بعناية على البسطة، وتختار رغيفين كبيرين، تدفع ثمنهما، وتعود إليَّ ساخطة.

«سنيورة... هذا الرجل غشاش وشرير! أجد رغيفين كبيرين، وأسأله إن كانت هي الأكبر حجمًا، فيجيبني: نعم، قرشان للرغيف! إنه شِرِّير يا سنيورة! لقد خدَعَكِ كثيرًا!».

اعتقدتُ ذلك أيضًا، على الرغم من كوني أميركيَّةً واعتدتُ تَعرُّضي للغش. قُدتُ السيارة ببطء في الشارع أمام بائع الخبز، وتوقَّفتُ حيث بإمكانه أن يرى أننا معًا، وقلنا له: «بون جورنو»، ثم تابعتُ المسير. وبدا الرَّجُل مرتبكًا بالفعل.

في اليوم التالي، عُدت وحدي إلى شارع الخبز، ومشيت إلى البائع نفسه واخترت رغيفين كبيرين، ثم رميت له أربعة قروش،

وأسرعت مُبتَعِدةً قبل أن يتمكّن من فعل أي شيء. لقد ظننت أنني انتصرت!

في اليوم الذي يليه، تقدَّمتُ كما في السابق، ووضعت أربعة قروش فقط، لكنه كان أسرعَ مني. وأمسك بالخبز في يدي، صارخًا بغضب حقيقي: «ستة قروش!».

«لا!» صرختُ بسخطٍ. «أربعة قروش فقط! أنت تبيع لصديقتي الإيطالية مقابل أربعة قروش، لماذا تطلب مني ستة؟ لن أدفع لك سوى أربعة قروش!».

«ستة قروش!» يصرخ ممسكًا بالخبز ويحاول إعادة القروش الأربعة في يدي؛ فيتجمَّع حشد من الناس من حولنا.

«أربعة قروش!».

«ستة قروش!» وبدأت حالة الأرغفة تسوء بيننا.

يزداد ضغط الحشد وتقترب أنفاسهم، ليس غاضبًا بعد، لكنه عدائيٌّ إلى حدٍّ ما، يبدو الحشد مهتمًّا بشدَّة بما يجري، وقريبا مني كثيرًا؛ فلم أشعر بالراحة. أنا الآن معزولة في شارع الخبز، ليس فقط لأنني أجنبية، ولكن مثل هذا الموقف ليس مناسبًا لي. لو أن ليبيًّا مُتعلِّمًا كان حاضرًا الآن؛ أعتقد أنه كان سيدافع عن حقوقي، أو لو أنَّ هناك شرطيًّا ما في المكان؛ لَتَدخَّل لصالحي. لكن لم يكن هناك سوى رجال شارع الخبز، الذين يرونني أجنبية بسبب العِرق، والطبقة الاجتماعية كذلك.

لم أرَ كرامةً في الاستمرار في الصراع في زقاقٍ قَذِر على رغيفين من الخبز وقرشين. وضعتُ الخبز، والتقطت قروشي وغادرتُ. كانت تلك المرة الأولى خلال سنوات إقامتي في ليبيا التي أغضب فيها من شخص ليبي.

لم أَعُد إلى المكان لعدة أيام؛ لأن الحادث أزعجني وجرح مشاعري. وكما قال لي هاري: «شارع الخبز لم يَعُد مَوطِنَكِ الروحي!».

عُدتُ مرة أخرى، واشتريت الخبز من الكشك المجاور للرجل البغيض الذي تَظاهَر بعدم رؤيتي. كانت أرغفة الخبز أقلَّ جودة، لكنني دفعتُ السعر الصحيح. ولم أصادف حادثةً مشابهة أخرى. لكن شارع الخبز قد تغيَّر. لقد جعلوني أشعر بأنني أجنبية بالفعل. حينما تجمَّع ذلك الحشد بسرعة، ورأيتُ النظرات العدائية المتزايدة، رأيتُ لمحةً لما قد يحدث إذا ما صَدَمَت سيارتي شابًّا يقود دراجته إلى الخلف وعلى الجانب الخطأ من الشارع، واحتمال أن يتعرَّض للإصابة.

الآن، بدأ سائق هاري يشتري الخبز من متجر صغير يمرُّ به يوميًّا. وندفع السعر المقرَّر. الخبز ليس طازجًا. وكنت أفضِّل الخبز شراء الخبز الأجود بقرشين أكثر. لكن لا يمكنني فعل ذلك. لم تكن مسألةَ القروش، وإنما ما قام به بائع الخبز من فِعلٍ مُشين. «قرشان فقط للإيطاليين الذين مرَّغوا أنوفنا في التراب لسنين طويلة! لكن ثمنه ثلاثة قروش للأميركيين الذين يرسلون إلينا الدقيق كهِبة منهم!».

الآن بعد أن عُدنا إلى طرابلس مرَّةً أخرى صِرنا نرى أحمد كثيرًا، حيث يراه هاري يوميًّا في المكتب، ونسمع عنه من أطراف أخرى. أعتبرُ أن أحمد رجلٌ ذو عزيمة بطريقته الخاصة، والتي لا تتوافق دائمًا مع أفضل استخدام ليبي أو مع حتى الغربي. وبالقدر

نفسه فهو مصمِّمٌ على الحصول على موافقة مَن يَهمُّه أمرهم، والقيام بالأشياء التي يعرف أنهم لا يهتمون بها. على ما أعتقد أنه شخص يفرض حضوره، وعلى المرء أن يتقبَّله دون حُكم مُسبَق.

عادةً ما يقدم أحمد تفسيراته لي، متوقِّعًا أن تُنقلَ بشكل غير مباشر إلى هاري، وفي ذلك الوقت لن تبدو عقلانية كما بَدَت معي، فأقول لأحمد: من الأفضل أن تُخبِرَ «أباك» بنفسك.

فيقول أحمد: «إنه مشغول جدًّا ليستمع إليَّ!».

أعرفُ جيِّدًا حيلة «مشغول جدًّا» المُصمَّمة لحماية هاري من مثل هذه الآراء!

أنا وهاري قلقان عليه، بشكل غير طبيعي بالطبع. حينما تحب شخصًا كثيرًا فأنت تتمنَّى أنه سيسمح لك بأن تصادق على أفعاله وأفكاره. ومن بين كل الشباب الذين التقينا بهم في ليبيا، أحمد بدون شكٍّ يُمثِّل الشخص الذي سينجحُ فعليًّا، لكنه لن يكون سعيدًا أبدًا؛ لأنه يسعى وراء عالَمَيْن مختلفين، ويريد كِلَيْهما دون قَيدٍ أو شرط، ولا يتوقَّع أن يدفع ثمنًا لأيٍّ منهما.

فيما يتعلَّق بالنساء، بمجرد أن ينال اهتمام إحداهن، فإنه يتوقَّف عن أن يراها مرغوبة لديه. يا لها من قصَّة لا تنتهي! فليس من شأني أن أصدر أحكامًا حول موضوع الزوجات والنساء والطلاق في العالم الإسلامي، لكنني أعلم أن المسلمات لديهنَّ قلوبٌ، تمامًا مثل بقية نساء العالم، ولا أحب أن أرى زوجات أصدقائي يتأذَّين.

ومع ذلك، ما الذي يمكنني قوله عن شخصٍ يفكر بي دائمًا، ويعاملني بلطف، ولا يتأخَّر أبدًا عن زيارتنا إلى بيتنا في الأعياد الليبية، حامِلًا معه هدية مناسبة لإشراكنا في الاحتفال بالعيد، والذي يكرمني بثقته في شخصي، وَمن يحاول دائمًا مساعدة هاري دون قَيدٍ أو شرط. والذي أحبُّ زوجته الحالية كثيرًا! شيء واحد أعرفه: إنه من حسن الحظ أني أكبر من أن أجذبه كأنثى.

كان هاري دائمًا يقول: «أحمد لم يتأخر أبدًا في تحقيق أي شيء أطلبه منه. وأنا أعتمد عليه».

32. حفلُ حريمي

جلستُ على عَجَلٍ بجانب إلسا الطاهر، الزوجة الأميركية لعليٍّ الطاهر، وهو ليبي صاحب عقل راجح، كان في وقت مضى وزير دولةٍ، وحصل على شهادته الجامعية من الولايات المتحدة. إلسا، التي تزوَّجَته هناك قبل ست سنوات، هي الآن أم لأربعة أطفال، ويبدو أن لا علاقة لها -ربما عن عَمدٍ- بأساليب الحياة الليبية، وليست لها صِلاتٌ كثيرة معهم. اليوم، في هذا الجو الليبي المتقلِّب لحفلة حريم ليبية يسودها جوٌّ من المرح، لا تبذلُ إلسا أي جهد للرَّدِّ بودٍّ على التحايا من صديقاتها الليبيات. في الواقع، فهي توليهم اهتمامًا أقلَّ ممَّا أفعلُ. فتبدو مثل سائحة عابرة، تنظر بعيون أجنبية على مقتنيات أثرية لا تهمها في شيء.

أقول لها: «حفلة لطيفة للغاية».

نظرت بإمعان حولها وأجابت: «لا أستمتع بمثل هذه التجمُّعات الأنثوية أبدًا، وكل هذه الثرثرة، والأطعمة شديد الحلاوة! فلا يمكنك المحافظة على قوامٍ رشيق مع مثل هذا الطعام».

«لكن الليبيات لا يحاولن المحافظة على رشاقتهنَّ».

«البعض يحاولن! ينبغي سماع حديثهن عن 'نظام الحمية!' ستة قطع فقط من الحلوى السكرية بدلًا من ثمانية! وهي تتبع نظام حمية كما تقول، لكن لا يمكنك معرفة الفرق قبلها وبعدها. يبدو الأمر كما لو أنَّهنَّ حُبلَيات. يا إلهي، انظري إلى هذا الفستان!».

مضيفتنا زها بشير، واحدة من قليل من الليبيات اللاتي يرتدين الزِّيَّ الغربي، وبالتأكيد لم يكن اختيارها موفَّقًا، وهو عبارة عن فستان من التافتا السوداء طُبِعَت عليه زهور فيروزية ضخمة، ربما تمَّ شراؤه في لندن حينما كان زوجها في السفارة الليبية. الفستان لا يوحي بأنها قد وضَعَت حملها، وأن هذا اللقاء هو للاحتفال بالمولد السعيد

لطفلها الثامن وهو صبي من زوجها الصادق. لكن زها تتمتّع بقدرة استثنائية على الاستمتاع بالحياة، وبالدفء الإنساني، وبساطة المعاملة، لها بشرة بيضاء، وعينان متوهِّجتان، وشَعرٌ قوي يلمع بلون الحِنَّاء- وقد أنجَبَت حتى الآن خمسة صبيان.

«تبدو سعيدة دائمًا على أي حال».

«صحيح؟ لكنها تريد العودة إلى لندن؛ فهي تكره كونها مُحاصَرة هنا. كانت تعشق التَّسوُّق في المتاجر العريقة هناك مثل 'سوان أند إدغار'. وكذلك الأولاد الثلاثة الأكبر سنًّا في المدرسة في إنكلترا، يكادوا ينسون لغتهم العربية. وتكره العودة إلى طرابلس لقضاء الإجازة! وتقول إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون هنا!». تتوقَّف إلسا عن الحديث، وتنظر إليها بلا مبالاة، ثم تقول: «زها مثيرة للضحك. هل سمعتِها من قبل وهي تروي قصة حصول الصادق على بيت لهم في لندن؟ في البداية، كانت هي وأطفالها السبعة يرافقونهما أثناء البحث عن بيت للإيجار. وفي كل مرة ترى صاحبة البيت كلَّ هؤلاء الأطفال تقول: 'لا!'؛ لذلك أخبر الصادق زها أن يبقوا جميعًا في الفندق حتى يحصل على بيت! ثم ذهب وحده وتمكَّن من تأجير بيت انتقلوا له في الليلة نفسها.

«صحيح؟ ترغب في العودة إلى لندن».

نَمَت الحفلة إلى أبعاد كبيرة، وكانت الڤراندة المشمِسَة المحيطة بالدوبلكس الفاخرة مليئة بطاولات متعدِّدة الألوان والمُزيَّنة بأدوات المائدة، تجلس إليها بالفعل مائة امرأة على الأقل. ونظرًا لأن مضيفتنا هي زوجة ليبي مرموق؛ فكل شيء يجري بأسلوب فخم.

معظم الضيوف من الليبيات، ووصلن جميعًا في أرديتهنَّ البيضاء الفضفاضة (فرَّاشيَّة)، والتي سرعان ما تم رميها جانبًا للكشف عن بعض الأزياء الليبية الأنيقة للغاية. تم ارتداؤها حول أردية داخلية، منسوجة من قماش مُطعَّم بخيوط فضية مترابطة مع الفيروزي أو الأرجواني أو الزيزفون، وتبرز عند البطن، حتى تبدو المرأة كأنها حُبلى. هذه هي المجموعة الليبية الأكثر فخامة التي رأيتها في

حياتي، وهي بالتأكيد علامة على حالة الازدهار الليبي المتزايد. تحتفظ المرأة الليبية الميسورة دائمًا بملابس أنيقة لاستخدامها في أيام الأعياد أو الحفلات، ولكن توجد نساء اليوم أراهنَّ كثيرًا بما يكفي لمعرفة أن ملابسهن جديدة لهذه المناسبة.

قامت مضيفتنا بمساعدة شقيقاتها الثلاث، وابنتيها الصغيرتين، ومجموعة متنوِّعة من أفراد الأسرة، بتجليس ضيوفها من الأجانب غير الناطقين باللغة العربية معًا. عادة تتحدَّث المرأة الليبية الإيطاليَّةَ حينما تكون بمفردها مع أجنبي، لكنها بالطبيعة تتحدَّث العربية حينما تكون مع غيرها من الليبيين.

لهذا السبب وجدتني أجلس بجانب إلسا، وبجواري السيدة تشين تشي بينغ، زوجة سفير الصين الوطنية، وهي شخصية ساحرة ومُتنوِّرة وقوية، لها روح مَرِحة، وتتحدث الأميركية بطَلاقة. بجانبها السيدة يورو كوغلو، زوجة السفير التركي وأقدَم سيدة دبلوماسية. أنيقة، متطوِّرة، صغيرة الحجم وممتلئة الجسم، تتحدَّث الفرنسية والإيطالية والتركية، لكن ليس العربية.

مجموعة متنوِّعة من أطفال البشير يمرُّون علينا الآن بأنوا ع من المشروبات والمرطِّبات الليبية، وكلها -كما قالت إلسا- «حلوة بشكل مُرعِب»؛ لأن السكريات المفرطة هي سِمَةٌ غالبة لأطعمة الحفلات الليبية. جولتنا الأولى اليوم كانت مع الشاي الحلو. تقليديًّا، يجب أن تُقدَّم ثلاثة أكواب لكل شخص، ولكن اليوم تمَّ حذف الكوبين الأوَّلين عن عَمدٍ من أجل حصولنا على الدور الحقيقي، وهو كوب الشاي الثالث، ثلاثة أرباعه مليئة باللوز الطازج المقشَّر. يتطلَّب الأمر تدريبًا خاصًّا لالتهام اللوز مع الشاي، وعدم تركه في الكوب حينما ينتهي الشاي. إلسا، التي تبدو وكأنها تشعر بالملل تمامًا، سرعان ما أجهَزَت على شايها، وهي الآن تلتقط حبَّات اللوز من الكوب بأصابعها.

«اللوز هو الشيء الوحيد الذي أُحبُّه في هذه الحفلات!».

«ماذا تأكلين في بيتك؟ طعام ليبي أم أميركي؟».

«أوه، أميركي طبعا! فالكُلّ يُفضِّله، بمن فيهم الأطفال. لا أستسيغ الطعام الليبي!»

«ما هي اللغة التي يتحدَّث بها الأطفال؟».

«حسنًا، يمكنهم الحديث قليلًا بالعربية، وبعض الإيطالية، لكن في الغالب الإنكليزية. ودائمًا أتحدث معهم بالإنكليزية».

«هل تتحدَّثين العربية؟».

«أنا أتحدَّث العربية! أوه لا! ولماذا أتحدَّث بها؟ فالكُلُّ يتحدَّث الإنكليزية».

«كيف يشعر زوجك مع عدم محاولتك تعلُّم العربية؟ ولا تخاطبين الأطفال بها؟».

«كيف يشعر حيال ذلك؟ في الواقع لا أعرف. فلم أسأله قطُّ!».

على الرغم من أنه من غير اللائق بعض الشيء عدم قيامي بأي محاولة لمجاملتها والتوافُق مع رؤيتها، إلا أنني أتساءل أيضًا عمَّا إذا كانت إلسا مخطئة. فهي مُصمِّمة على البقاء كأميركية كما كانت حينما اقترنت بزوجها الأجنبي؛ فذلك ما أوقعه في حبها، وهذا ما يجب أن يتعايش معه. لو كانت أكثر إبداعًا، وأكثر مرونةً، وأقلَّ تصميمًا وثقة بالنفس، وأقلَّ انفتاحًا؛ لأصبَحَت الآن امرأةً بائسةً بسبب القوى التي تفرضها عائلة عليٍّ، وحاجة عليٍّ في النهاية بأن تستكينَ لمتطلَّباتهم. قد تكون حتى من ضمن نساء الحريم. في أحسن الأحوال، ستكون زوجة أجنبية أخرى تُسبِّب الإزعاج لسفارة بلادها بسبب محاولاتها للعودة إلى الوطن. وبدلًا من ذلك أنجَبَت إلسا أربعة أطفال (ثلاثة منهم صبيان!) وتحافظ على بيت أنيق، وتستمتع بالحياة على طريقتها الأميركية. (معليش)! لأنها لا تحب الشاي الليبي!

مع وضع هذا في الاعتبار، أنظرُ إلى إلسا بإعجاب كبيرٍ لرباطة جأشها وقوَّتها، وبَلادتها المُتعمَّدة التي قد تكون نوعًا من الحكمة.

ربما هذه زوجةٌ تحتاجها ليبيا: زوجة لديها الشجاعة للوقوف ضدَّ تلْييبها.

أنا، على سبيل المثال، لن أكون مفيدةً للبلد؛ لأنني سأرى دائمًا أسباب أخطاء الليبيين، بدلًا من محاولة منعها؛ ولهذا يجب أن يكون المصلحُ أعمى!

«انظري إلى تلك البلوزة!» تحثُّني إلسا على الالتفات بينما تمرُّ أمامنا سيدة ذات صدر كبير، في بلوزة من القماش الفيروزي المطرَّز بخيوط فضية، والتي تنزل تحت في مثلَّثٍ بضلعين أمامها بين ثديَيْن ضخمَيْن. «ما فائدة إخفاء عين واحدة في الشارع حينما يرتدين ملابسَ مثل هذه في البيوت!» تسأل باستغراب.

«لكن لا يوجد رجال هنا ليرونها».

«حسنًا، يجب أن يكون هناك رجال؛ سوف يستمتعون بهذا المنظر!».

فتحة العنق هو نمط البلوزة المقبول، وبالنظر إلى الحجم المتوسط لأثداء المرأة الليبية؛ فهو فعَّالٌ للغاية. الأعناق والصدور مُغطَّاة جزئيًّا بالعديد من السلاسل الذهبية والقلائد التي تتكوَّن من قرون ذهبية صغيرة لدرء الحسد، وخميسة فاطمة للحماية من الأذى، والقلوب والمفاتيح وغيرها من الرموز المذهَّبة للسعادة والازدهار، بالإضافة إلى تمائم للحماية من المصائب والأحزان. وفي مجموعها تشبه هذه الحليُّ والزخارف تقريبًا لوحةً من الذهب الخالص. ونظرًا لأن السيدات يرتدين أيضًا أقراطًا ذهبية ثقيلة وأساورَ ذهبيَّة ثقيلة على الرسغين والكاحلين، فإن مظهرهن يبدو أنه استثمارٌ جيد لشخص ما، كما هو الحال بالفعل، حيث غالبًا ما يتم إيداع موارد الأسرة الليبية في ذهب الزوجة.

«حسنًا، هنا تكمن فائدة الفرَّاشيَّة» تُنبِّهني إلسا مرَّةً أخرى، بينما تمرُّ أمامنا سيدة في أواخر حملها، وتبدو كأنها تحمل أطفالًا من الأمام والخلف أيضًا.

«لكن وجوه الليبيات جميلة بالفعل!».

«ربما. لكنها أيضًا سمينة جدًّا!».

«جميع رؤوس الليبيات تقريبًا مربوطات بمناديل حريرية بلون فيروزي أو وردي، مع خيوط فضية أو ذهبية. وكل واحدة تُبدي خُصلةً كثيفة من الشَّعر يتمُّ سحبها إلى الأمام لتظهر من تحت غطاء الرأس، وأسفل ظهرها تتأرجح ضفيرتان من الشَّعر مربوطتان بشريط فضي. قبل بضع سنين، كانت هذه الضفائر هي شَعر السيدة نفسها ومثبَّتة بشكل دائم على رأسها، ولكن اليوم الكثير من الليبيات يَقصُصن شعورهن لدرجة أن الضفائر غالبًا ما تكون مُثبَّتة على الرؤوس فقط تحت غطاء الرأس، ويحتفظن بهذه الضفائر للاستخدام مع الزِّيِّ الليبي. أمَّا مضيفتنا زها، فشَعرُها قصيرٌ جدًّا، مع تَموُّج.

نظرًا لأن مناديل الحرير مربوطة بشكل فضفاض وتغطِّي الأذنين، فتبدو دائمًا وكأنها تنزلق من رأس مرتديتها، كما أن إعادة ترتيب مناديل الحرير مع حركة من الأيدي الرشيقة المرصَّعة بالخواتم والأساور بشكل جميل تصبح عندي سِمةً مُميَّزةً لا تُنسى عن الليبيات الأنيقات.

السيدة يوروكو أوغلو، على الجانب الآخر مني، تدفعني على وجه السرعة للنظر حولي قائلة: «مَن هذه الفتاة! تبدو وكأنها من أصول تركية بامتياز!».

كانت تشير إلى صديقتي العزيزة بدرية، زوجة أحمد، ومديرة مدرسة للبنات. وقد دخَلَت المكان للتَّوِّ، وأصبحت على الفور أكثر النساء تميُّزًا في الغرفة بسبب تنوُّع لباسها الرائع. تحت منديل أزرق باهت، يتدفَّق شَعرُها الأشقر بلون الذُّرة الناضجة في خُصلات لامعة فوق جبينها وتحت وجنتيها- مثل هذا الشَّعر الحريري المتلألئ بلون الذرة يندر رؤيته في طرابلس. وتتوهَّج عيناها الحوراوان العسليتان المضاءتان بالإثارة تحت الأضواء الصفراء، وكأنها تعرف أنها أجمل امرأة في المكان. بشرتها بيضاء وناعمة، وتبدو دائمًا أنها قد استحمَّت للتو بماء منعش وبارد. أسنانها الكبيرة في فمها الواسع

شديدة البياض، والآن تبدو السِّنّ الذهبية التي كانت تزعجني في المنتصف، ولكنها تُعزِّز أكثرَ جَمالَ شَعرها وعينيها.

«إنها جميلة» تهمس السيدة يوروكو أوغلو. «أصول تركية بامتياز!».

«زوجها يريد الطلاق، كما سمعتُ» هَمَسَت إلسا في أذني الأخرى.

نظَرتُ إلى إلسا برُعبٍ: «أوه، لا!»، لكنني فكَّرتُ في الشائعات التي سمعتُها من قبل...

حينما اقتربت بدرية لتُحيِّينا، رأيتُ مزيجًا من الكرامة والوداعة والفرح. أنظرُ في عينيها الرائعتين لأرى ما إذا كان هناك شبحٌ ما خلفهما. مَن بإمكانه معرفة ذلك؟ دفء القبلات حقيقي، أوَّلًا خدٌّ، ثم الآخر، ثم نبدأ من جديد. أُقدِّم السيدة يوروكو أوغلو، وتجلس بدرية على كرسي بالقرب منا وتجيب على أسئلتها اللَّحوحة.

«ما اسم عائلتك؟».

تُخبرها بدرية.

«إنه اسمٌ تركيٌّ!» تقول صديقتي التركية بابتهاج.

«نعم، عائلتي من أصل تركي منذ ثلاثمئة عام».

«إذن أنتِ تُركيَّة بالفعل؛ كنتُ على حق! اسمك قريب من اسم عائلتي. وما اسم زوجك؟».

«أحمد...» وتخبرها بدرية باسم الشُّهرة.

«أيضا تركي!».

«نعم، طيلة مئة عام كان الحُكَّام الباشوات في ليبيا من عائلته».

تقول السيدة يوروكو أوغلو باستحسان: «نعم، نعم، والأشرار منهم أيضًا. أنت جميلة يا عزيزتي، تركية حقيقية. كم عددُ أطفالك؟».

«اثنان: صبيٌّ وفتاة».

يبدو أن الأمر يتطلَّب شخصًا تركيًّا ليعرف غيره من الأتراك، حينما تتركنا بدرية للحديث مع المضيفة، تهمس لي صديقتي التركية: «هي متزوِّجة من تلك العائلة! حُكَّام شَرِسون، لكنهم أيضًا أزواجٌ سيِّئون!».

الآن، ومن أكواب طويلة متجمِّدة، نشرب اللوز المثلج وماء الورد، مشروب حريم حقيقي. لكن إلسا تدفعها بعيدًا عنها وتتَّكئ وتهمس في أذني: «يا إلهي، كيف أنجَبَت زها هذا الطفل؟ لقد تحصَّلَت على سبعة أطفال في سبع سنوات، ثم مرَّت سَبعٌ أخرى دون إنجاب... أعتقد أنها والصادق لديهما سِرٌّ بالفعل!».

الآن تأتي أكواب البرتقال والكيتي كولا، مصحوبة بكعك معسَّل، ومُعجَّنات اللوز، وإكلايرس الشوكولاتة، والكريم المخفوق وكريمات الشوكولاتة والكراميل واللوز المغطى بالسكر. تقوم إلسا بتكديس حصتها وتقول: «سآخذها إلى البيت للأطفال!»، وخِلسةً لَففتُ الأنواع الجافَّة منها في منديل ورقي ووضعتها في حقيبتها، بينما الغراموفون يصدح بأغان عربية كلاسيكية بصوت عالٍ.

تأتي نفيسة زوجة بدر الدين لتحييني الآن. إنها مليحة وأنيقة للغاية في اللباس الليبي التقليدي، مع ضفائر طويلة داكنة، وعيون

سود لامعة، وبشرة كريمية صافية. تحمل طفلها الأول بين ذراعيها. وبعد تبادُل التحايا سألتني إن كنتُ رأيتُ أحدث عروس في الحفلة. السيدة حميدة الزليتني؟

لم تُنبِّهني إلسا لذلك. ولدهشتي، تشير نفيسة إلى فتاة بقوام رفيع ترتدي بدلة من الكتان الأخضر الفاتح، مع شَعر كستنائي ممشَّط بالطريقة الإيطالية. كنتُ قد لاحَظتُها وافترضتُ أنها إيطالية. إنها صغيرة جدًّا، وتبدو أوروبيَّةً تمامًا- لكنها تتحدث العربية، وممَّا لا شك فيه أنها وصلت ملفوفة في فرَّاشيَّة، ووجهها مخفيٌّ. هي لا تزال نحيفةً جدًّا. وليست جاهزة بعد لوضع أردية النساء الحُبليات!

أمضينا ساعتين هنا، وحان الوقت لنقول وداعًا. تغادر إلسا أوَّلًا، مع حفنة من الحلويات للأطفال، وحفيفٍ من تنانيرها، وهمسةٍ لي: «حسنًا، لقد اكتفيتُ من هذا المكان!»، وبينما هي واقفة في المدخل تقول وداعًا لزها، رأيتهما تتبادلان الضحكات، وربما تسألها كيف حمَلَت مرَّةً أخرى. جميعهن يتقبَّلن وجود إلسا. ومن الواضح أنها هنا في ليبيا لتبقى ولن تغادرها.

تُحرِّكُ السيدة تشين تشي بينغ يدها اللطيفة لتعرض ساعة يدها الماسية، بينما تحدِّق السيدة يوروكو أوغلو بعيدًا منتظرةً وقت الرحيل. لكن بينما نقول وداعًا، رأيتُ أنَّ السيدات الليبيات لم يتحرّكن من مجلسهنَّ.

33. لا تخبرني أن الرجل الصالح قد مات*

في صباح ذلك اليوم الذي كان من المقرَّر أن يكون يومهم الأخير من الرحلة، كان يقود سيارته في ضباب الصباح الباكر على طريق صحراء سِرت، قال محمدٌ شيئًا لرئيسه بيتر، لن ينساه بيتر أبدًا. كانوا في طريق العودة إلى طرابلس بعد رحلةٍ استمرَّت ثلاثة أسابيع في الصحراء. ومثل العديد من الرحلات الشاقَّة، كان أروع شيء فيها هو نهايتها والعودة إلى البيت. خاصة بالنسبة لمحمد الذي كانت هذه رحلته الأولى خارج طرابلس.

تفاخَر بحماسٍ قائلًا: «أصدقائي في سوق الجمعة لن يصدِّقوا أبدًا الأشياء التي رأيتها! بل حتى إنني لم أكن أعلم بوجود مثل هذه الأماكن. أبناء المدينة هؤلاء لا يعرفون شيئًا عن الصحراء في بلدنا! لكن سأشرح لهم كل شيء عن الصحراء!» قال بفخر. ثم فجأة تَغلَّب عليه استمتاعه الساذج بتجربته الجديدة، وقال: «لم أَقُم بمثل هذه الرحلة الرائعة في حياتي كلها من قبل! والآن، أنا سعيدٌ جدًّا اليوم!».

بيتر، الشاب المتسامح والمتعاطف، ابتسم بلُطفٍ، وقال: «لديك الكثير من الهدايا التذكارية الرائعة لتأخذها إلى البيت أيضًا».

«نعم، نعم، لديَّ خناجر من القطرون، ورؤوس سهام من درج، وخرز زجاجي من غات، وبعض الأخشاب العتيقة... وصخور بركانية، ونعال من فزَّان، وأغطية طعام منسوجة...».

«نعم، لكن راقِب الطريق جيِّدًا يا رفيقي؛ فما يزال الضباب كثيفًا، وهناك الكثير من شاحنات النفط تستخدم هذا الطريق الآن. من الأفضل أن تبطئ».

«نعم، نعم، أنا أسير ببطء. وأنا أقود بشكل جيِّد الآن» قال محمد بهدوء، وهو يرتدي الآن قميصه الأخضر الإضافي؛ لأن صباح

الصحراء بارد. وبعدها يعود بيتر إلى قراءة إلى جريدته السويسرية، سعيدًا بوجود محمد وراء عجلة القيادة لبعض الوقت.

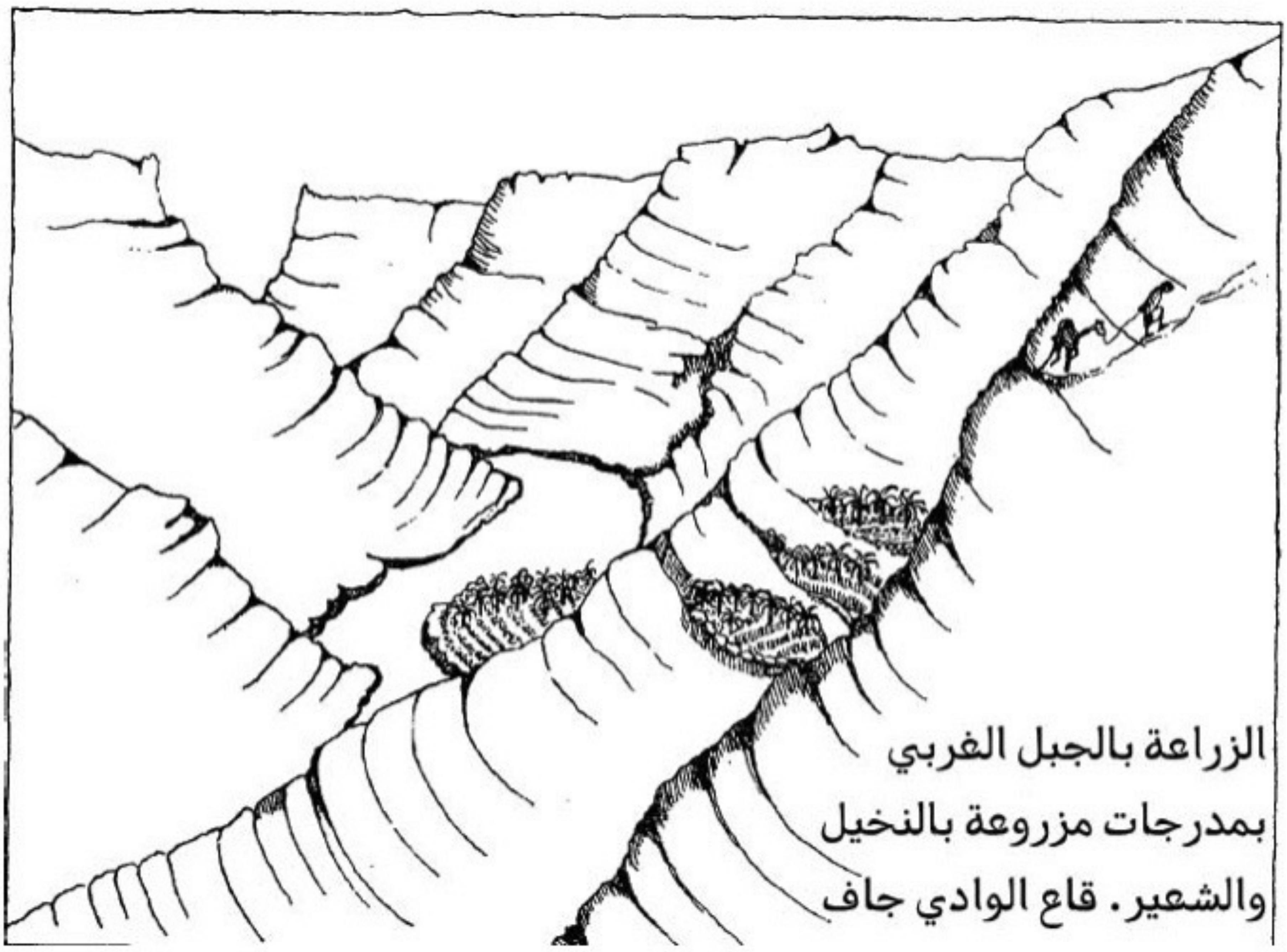

الزراعة بالجبل الغربي
بمدرجات مزروعة بالنخيل
والشعير. قاع الوادي جاف

الشيء التالي الذي تَذَكَّره بيتر هو أنه وجد نفسه يقف في ذهولٍ بجانب السيارة المقلوبة على جنبها، والتي لا بُدَّ أنه قُذف خارجها. أول ما فكَّر به هو محمد، الذي لا يمكن رؤيته، ثم رأى ذراعًا مُغطَّاة باللون الأخضر ممدودة من أسفل السيارة المقلوبة. في الجوار رأى شاحنةً منكفئة على جنبها في الطريق. بدا من المحتمل أن الشاحنة ومحمد كانا يسيران بسرعة كبيرة، وأن الشاحنة باعتبارها أثقل العربتين نَجَت بشكل أفضل.

ما تلى ذلك كان دائمًا مُشوَّشًا في ذهن بيتر، حيث هو نفسه يعاني من ارتجاج شديد، وهو ما ثبت لاحقًا أنه كَسرٌ في الجمجمة. لكنه يتذكَّر أنه ظلَّ واقفًا على قدميه، وتمَكَّن بمساعدة الرجال الثلاثة من الشاحنة في رفع سيارة اللاند روڤر وسحب محمد شبه الواعي. كان الفتى يعاني من كسور في العظام وإصابات في الرأس، يبكي وينادي على أمِّه. تحرير محمد من الحطام كان مَهمَّةً شاقَّة للجميع. أخيرًا سحبوه، وجلس بيتر على الأرض يضمُّ محمد بين ذراعيه، محاولًا تهدئته أثناء انتظار وصول المساعدة. «هل سأموت؟ هل

سأموت؟» ظل محمد يسأل. تحدَّث بيتر بهدوء مُحاوِلًا طمأنته، وفي الوقت نفسه حاول تخفيف التوتُّر من جسد الصبي المحطَّم.

مع مرور الوقت، لا بُدَّ أن سيارةً عابِرةً قد توقَّفَت لتقديم المساعدة، ثم سارَعَت إلى سِرت لتخبر الشرطة بالعودة مع مساعدة طبية. بعد ذلك بفترة وصلت سيارة لاند روڤر تابعة للشرطة ومعها مُمرِّض، وأعدَّت لنقل محمد وبيتر إلى المستشفى في سِرت. بيتر، الذي كان يشعر بأنه على وشك الموت، يقول إن أكثر ما يتذكَّره بوضوح وهو جالس في رمال الصحراء الباردة مع الفتى الليبي بين ذراعيه، كانت رغبة محمد المُحزِنة في الحياة، وهو يصرخ على فتراتٍ متقطِّعة: «هل سأموت؟ لا أريد أن أموت!».

في سيارة الإسعاف، وهي وسيلة سيئة لأي شخص مصاب بجروح، ما زال بيتر يسند محمد بين ذراعيه؛ في محاولة لتثبيته وحمايته من هزَّات الطريق. ولكن بعد فترة وجيزة من مسيرهم، كان محمد يستند برأسه على كتف بيتر ومدعومًا بين ذراعيه، ثم أطلق زفرةً أخيرة واهنة وفارق الحياة. بيتر الذي لم يكن متأكِّدًا إذا كان محمد ميتًا أو أنه فقد وعيه استمرَّ في ضمِّ الفتى حتى الوصول إلى مستشفى سِرت. ثم فقد بيتر نفسه وعيه.

عَلِمنا بالحادث في الساعة الحادية عشرة صباحًا حينما اتَّصَلت شرطة سِرت بمنظمة الفاو لإبلاغها بأن إحدى سيارات لاند روڤر التابعة لها تعرَّضَت لحادث، وتوفي رجلٌ وأصيب آخر. لم يذكروا اسم المتوفَّى. وحاول هاري إعادة الاتصال بسِرت لمعرفة ذلك، لكنه لم يتمكَّن من الحصول على خطٍّ.

في الأثناء، اتصل هاري بي هاتفيًّا لأذهب على الفور وأجد زوجة بيتر، مارغريت، وإبلاغها بالحادث والطلب منها الاستعداد للذهاب إلى سِرت إلى بيتر، على افتراض أنه قد يكون الناجي. وجدتُ مارغريت، وهي شابَّة سويسرية جميلة بشكل مُثير للإعجاب، وأُمٌّ لخمسة أبناء شُقر وسيمين، وكانت حاملًا مرَّةً أخرى في ذلك الوقت،

وجدتها في شقتها تستعدُّ للذهاب إلى المدرسة للعودة بأطفالها لتناول طعام الغداء.

لم تَكُن هناك طريقة سهلة لإبلاغها بالأخبار التي كنت أحملها، لكن مارغريت ظلَّت هادئة وقوية بشكل رائع، وتفكر فقط فيما قد تأخذه معها لمساعدة بيتر. نالت إعجابي وامتناني العميقَيْن، وشكرتُ الله بصمت لأنها لم تتصرَّف بهستيرية، واثقة أكثر من أيِّ وَقتٍ مضى أن المرأة الهستيرية لا يمكنها القيام بأي عمل خارج البيت. جمعنا الأطفال من المدرسة، ثم طلبنا من مُربِّية الأطفال السويسرية العنايةَ بهم في غيابها.

ثار السؤال في الوقت نفسه عمَّا يجب فعله تجاه زوجة محمد -أو الأرملة، أيهما يتَّضِح لاحقًا-. ولأن لطفيّة لن تستطيع مغادرة بيتها للذهاب إلى محمد؛ فقد قرَّرنا أنه من الأفضل تحذيرها أن محمَّدًا كان مُشتَرِكًا في حادث سيارة من نوع ما، لكن ليست هناك تفاصيل معروفة.

بحلول الساعة الثانية، كانت السيارة التابعة للفاو في طريقها إلى سِرت، تُقلُّ مارغريت وجوك وايلي، وهو رجل قوي يمكن الاعتماد عليه في الشدائد. السيارة لها مقاعد خلفية طوليَّة يمكن استخدامها كأسِرَّةٍ للطوارئ، حيث شعر هاري بأن سيارة إسعاف الشرطة ستكون في حالة متداعية. وفي هذه الأثناء، كان هاري قد اتصل بشرطة سِرت التي وعَدَت ببدء تَحرُّك سيارتهم نحو طرابلس مع جريح ومقتل آخر، حيث حدَّدوا الآن أن القتيل ليبي.

قرابة الساعة الثامنة التقت السيارتان في منتصف الطريق بين سِرت وطرابلس. كان بيتر شبه فاقدًا للوعي على نقَّالة، وضمَّاداته العديدة مُلوَّثة بالدماء من اهتزاز السيارة السيئة على الطريق الوعرة. بينما جُثَّة محمد على نقَّالة مجاورة. زحَفَت مارغريت داخل سيارة الإسعاف وأخذت بيتر بين ذراعيها، عازِمةً على حمايته قدر الإمكان من عنف الطريق، حتى حينما حاول بيتر في بعض الأحيان حماية جثَّة محمد من اهتزازات الطريق كان جوك يحاول أن يأخذ مكان

مارغريت لإسناد بيتر من أجل إراحتها، لكنها رفَضَت التحرُّك من موقعها. منتصف الليل وبيتر لا يزال ينزف بغزارة؛ فقرَّروا التوقُّف عند النقطة العسكرية البريطانية في الخِمس لطلب العلاج الطارئ. هناك استُبدِلَت ضمادات بيتر، وأُعطِي مُسكِّنًا للألم، بعد ذلك، كانت القافلة البائسة أكثر راحة قليلًا، واستمرَّت في مسيرها.

الساعة حوالي الثالثة صباحًا حينما وصلوا إلى طرابلس، وواجهَتهم مشكلة المكان الذي سيأخذون إليه بيتر. فإن أخذوه إلى المستشفى البلدي، فمن المشكوك فيه أن يتمَّ العثور على سرير شاغر، ومن المشكوك فيه أيضًا أن يتلقَّى أي رعاية قبل الساعة التاسعة صباحًا، حينما يصل الأطباء في العادة.

نظرًا لأن بيتر لم يكن مؤهَّلًا للعلاج في المستشفى العسكري البريطاني؛ فينبغي ترتيب دخوله مع الضابط المسؤول ومسؤولي المستشفى المختلفين، وهو إجراءٌ شَكليٌّ قد يستغرق بعض الوقت. في هذه الأثناء، أراد بيتر نفسه الهروب من سيارة الإسعاف المحطَّمة ومن قُربِه الشديد من جُثَّة محمد المسكين. في النهاية، أخذ جوك ومارغريت بيتر إلى شقَّته الخاصة ووضعاه هناك. وتمَّ نقل محمد إلى المشرحة. وانتهى المطاف بجوك في بيتنا في الساعة الرابعة صباحًا ليخبرنا بنتيجة رحلته.

في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم نقلنا بيتر إلى المستشفى العسكري البريطاني، حيث أثبتت الفحوصات والأشعة السينية تعرُّضَه لكسرٍ في الجمجمة وارتجاج في المخ، وإصابة خطيرة في الظهر، بالإضافة إلى جروح وسحجات طفيفة. أمَّا محمد الذي عانى من جمجمة مُحطَّمةٍ ونزيف داخلي والعديد من العظام المكسورة، فكانت نجاته غيرَ مُمكِنة. وكان العجيب أن كليهما استعاد قَدرًا من الوعي بعد الحادث. وبعد أشهُرٍ كان بيتر لا يزال في المستشفى بظهره المصاب.

الجزء الأكثر حزنًا بالنسبة لي جاء في صباح اليوم التالي مع ضرورة التواصُل مع زوجة محمد ووالدته. حتى الآن، فيقيني بأن

محمَّدًا قد رحل، وبالحاجة لمساعدة الناجي من الحادث، بالإضافة إلى صدمة الكارثة المفاجئة- كل هذا جعلني أشعر بالخَدَر. أعرفُ الآن أنني يجب أن أذهب لمشاركة الحزن مع أولئك الذين يعانون أكثر من غيرهم من هول هذه المأساة، وهي زيارة خَشيتُها كثيرًا؛ لأنها ستُطلق في نفسي أحزانًا لخسارة «ابني محمد».

أرسِلَ خبرُ وفاة محمد إلى بيته في اليوم السابق عن طريق شيخ قبيلته، الذي كانت مسؤوليته إبلاغ الأسرة ومساعدتها في خسارتها. طلَبتُ هذا الصباح من أحمد أن يذهب معي إلى البيت؛ خوفًا ممَّا يمكن أن أواجهه، ومتوقِّعةً أنني قد أحتاج إلى مترجم. يتمتع أحمد بحضورٍ لافت ودائمًا يلقى الاحترام. ذهبنا إلى سوق الجمعة، وسرنا عبر الزقاق الضيق إلى الباب المطلي باللون الأزرق، والذي دخَلتُ إليه أوَّل مَرَّة لحضور حفل زفاف محمد. أصبح البيت الآن محاطًا بشباب وأطفال فضوليِّين أو حزانى. انتظرَ أحمد في الخارج بينما دخلتُ للانضمام إلى النساء المتجمعات هناك، أقاربه، وأصهاره، وأصدقاؤه، وجميعهم يبكون ويولولون. كان هناك حشدٌ من الأطفال والرُّضَّع، وجوههم تغطِّيها الدموع وأنوفهم تسيل، ولم أتمكَّن من التَّعرُّف على طِفلَيْ محمد.

قمتُ بالمرور عليهم بالقبلات والعناق، حتى أتيتُ إلى والدة محمد العمياء، التي كانت تبكي بمرارةٍ، وفي حالة شبه انهيار. تعرَّفَتْ على صوتي على الفور، وبدأت تقول مرارًا وتكرارًا: «ابن واحد! ابن واحد محمد! محمد مات! محمد مات!»، ثم: «طفلان، لا طعام لديهما! طفلان، بدون طعام! آه، آه، آه!». كانت مُصابةً بالجنون تقريبًا، ولم أستطع إلقاء اللوم عليها. كان رعب اعتمادهم الكامل على شابٍّ صار في عِداد الأموات الآن، لا يمكن التعبير عنه. ومرَّةً أخرى، كما فعلتُ مرَّاتٍ عديدةً من قبل، كنت أتساءل في دهشة عن المسؤولية التي أُجبِر محمدٌ على تحمُّلها في حياته.

عَلِمتُ أنه مع الوقت ستحصل الأم ولطفيّة على أموال التأمين وتعويض الضمان الاجتماعي عن المتوفَّى، لكنني لم أستطع فهم ذلك

بالكامل وشرحه لهم بالعربية. سأطلب من أحمد أن يشرح الجانب المالي للأقارب الذكور الذين كانوا خارج البيت. على أي حال، لا يمكن لهذا أن يعوِّضهم عن الفتى الذي كانوا يتَّكئون عليه جميعًا.

كنتُ قد أحضرت معي أكياسًا كبيرة من السُّكَّر والشاي للمساعدة في طقوس العزاء، والتي يجب إقامتها احترامًا للميت. كما قدَّمتُ مبلغًا من المال للأم ومبلغًا آخر للطفيّة. وَجدتُ لطفيّة جالسة في الكوَّة الصغيرة الخاصة بها، وهو المكان نفسه الذي التقيتها فيها لأول مرة قبل زفافها.

على عكس مَن حولها، لم تكن تبكي ولا تنتحب، بل كانت جالسة على الأرض متربِّعةً وبلا حراك، كما لو أنها في حالة ذهول. تذكَّرتُ العروس الصغيرة التي رأيتها قبل بضع سنين، جالسة بلا حراك في وسط المرح، وهي تحاول إخفاء فرحتها. ها هي اليوم تجلس في ذهول، كما لو كانت الضربة التي تلقَّتها أقوى من اللازم، والعاطفة التي تعصف بها بالِغَة الشِّدَّة، فأذهَلَت كل غرائزها. حتى الآن، كأرملةٍ، وأُمٍّ لطفلين، كانت أكثر بقليل من طفلة منذ سنوات فقط، لكن وجهها أصبح رماديًّا ومقروصًا، وبدا كأنه في غير مكانه بشكل غريب فوق جسدها الطفولي، ومعصميها ويديها الصغيرتين.

ليس هناك ما يمكنني قوله لها، ولا يمكنني منحها أي عزاء. ستكون حياتها الآن حياةَ عَملٍ شاقٍّ مُتواصِل. لقد رحل حبيبها الشاب، وزوجها الذي كان يُقدِّرها، والذي ضحك معها وبادَلَها الحب. لقد أُغلِق الباب الذي كانت تطلّ منه على العالم في الخارج، وانتهى سبب وجودها. بقي ابناها فقط، وهما ينتميان أكثر إلى الجدَّة العجوز، وإلى قبيلتهما أكثر ممَّا ينتميان إلى أمهما. الآن، وهي لا تزال في سِنِّ المراهقة، لم تكن لطفيّة أكثر من السفينة التي كانت تُستَخدَم من قبل ولم تعد صالحة الآن.

محمد كان عائدًا إلى بيته من الصحراء صباح أمس، وعيناه الشابتان مملوءتان بعجائب الصحراء الكبرى، كان قلبه يتغنَّى بأعاجيب العوالم الليبية التي وجدها في لحظة وفاته غنية بأكبر قَدْرٍ

من الرضا... ابني محمد العزيز، أن تحيا يعني أنه مُقدَّرٌ لك أن تموت في وقت ما، وأنتِ يا لطفيّة المسكينة، ستموتين دون أن تعيشي حياتَكِ. بسم الله الرحمن الرحيم.

بعد بضعة أشهر في سويسرا، أنجَبَت مارغريت طفلة جميلة، وتمَّ إرسال بيتر إلى مصحَّةٍ هناك لتَلقِّي العلاج لظهره المصاب، وبعد فترةٍ غادر ليبيا إلى الأبد. لكنه لم يستطع أن ينسى محمَّدًا، الذي أحبَّ الحياة كثيرًا.

أنا أيضًا لن أنسى محمَّدًا. أنا الذي أحببته بطريقة غريبة، وحتى حينما كنتُ أبتهجُ بأفراحه وانتصاراته العابرة، كنتُ أرى خلفه دائمًا ظِلاًّ من العوائق أكبر من أن يَتِمَّ التَّغلُّب عليها. ونظرًا لأننا وُلِدنا جميعًا لنموت في النهاية؛ ربما كان هذا الفتى قد مات في الوقت المناسب.

---

* الأبيات لـ كاليماتشو، أو كاليماخوس القوريني: باحثٌ وشاعر إغريقي وُلِد بقورينا (شحات) في بَرقَة، سنة 305 ق.م، ودرس في أثينا، حيث عمل باحثًا، وتوفِّي بها العام 240 ق.م. المترجم.

34. زيجات غير متكافئة

غيرترود الصغيرة التي جاءت من نبراسكا قبل سبع سنين كزوجةٍ لرجُلٍ ليبي، هي موسوعة معلومات حول موضوع الزيجات المختلطة. ربما تكون مشاكل الزواج المختلط مثل أعراض مرضٍ غريب؛ فأنتَ لا تعرف أبدًا شيئًا عنه حتى تظهر عليك الأعراض بنفسك، وتعرف كم عدد الأشخاص الآخرين الذين يعانون من هذا المرض.

حينما كانت غيرترود في التاسعة عشرة من عمرها، كانت هي وفضل يحيى طالِبَيْن في جامعة الغرب الأوسط. فضل أكبرُ سِنًّا منها، وينحدر من عائلة ليبية معروفة، وانخرط في الجامعة بمنحة دراسية أجنبية، وهو من أوائل الليبيين الذين فعلوا ذلك. ويبدو أن الحكومة قد وعَدَته بإمكانية الحصول على منصبٍ دبلوماسيٍّ حينما ينتهي من الدراسة.

كانت غيرترود فتاةً جذَّابة جدًّا، ذات مظهر أنثوي مثير للغاية، وتَصرُّفات لطيفة، وسرعان ما أصبح فضل مُغرَمًا بها. وقع أسيرًا في حب بشرتها الشفافة وعينيها الزرقاوين الفاتحتين، وشعرها الأشقر الحريري، وشخصيتها الرقيقة، ورأى فيها فتاة أحلامه. أمَّا غيرترود فوجَدَت فضل مثقَّفًا ولطيفًا، ورَجُلًا ينشد زواجًا سريعًا، وربما رأت من خلاله إمكانية الهروب من بيئتها الخاصة، وتزوَّج الاثنان في أميركا. لو كان بإمكانهما البقاء حيث هما في الخارج؛ لسار كل شيء على ما يرام.

على الرغم من أنه عند مغادرته ليبيا حصل فضل على وعدٍ بمنصبٍ دبلوماسي، لكن بعد أن اكتشفت الحكومة زواجه من أجنبية، أُجبِر فضل على التخلِّي عن أحلامه في المنصب المرتَقَب؛ فالقانون لا يجيز لأي ليبي متزوِّج من أجنبية أن يشغل منصبًا دبلوماسيًّا، على

الرغم من أن الزوجة أصبَحَت مواطِنةً ليبية من خلال زواجها- وكذلك لا تُشجِّع ليبيا بشدة الزواج من الأجانب، وخاصَّةً غير المسلمين*.

ضَياع الوظيفة الدبلوماسية كان أحدَ الانتكاسات الكثيرة التي كان على الزوجين مواجهتها، على الرغم من أن فضل بعد سنين طوال استغرقها للقيام بذلك، يشغل الآن منصبًا رفيعًا في الحكومة، التي رأت في النهاية أنها لا يمكن أن تُضيِّع إمكانية الاستفادة من رجُلٍ مُتعلِّم. فبعد انتهاء دراسته عاد فضل إلى ليبيا كزوجٍ عاطِلٍ عن العمل، وفقَدَت عائلته الأمل فيه، وفي ظل هذه الظروف قدَّم زوجته الأجنبية إلى أبَوَيْه وعائلته الليبية.

لم تتطرَّق غيرترود أبدًا إلى تجربتها الخاصة مع زوجها الليبي، لكن يمكن للمرء أن يستخلص بعض الاستنتاجات عنها من التعميمات التي تطوَّعَت بالحديث عنها حول مشاكل الزواج المختلط والزوجات الأجنبيات. حينما قالت لي بشكلٍ واضحٍ لا لَبْسَ فيه: «زواج الليبيين بالأجنبيات لا يمكن أن ينجح!»؛ وبالتالي رأيتُ أنها تتحدَّث مع بعض الخبرة من تجربتها الخاصة.

«لكن بالتأكيد هناك استثناءات لهذا؟» أسألها.

«لا أعتقد بأي حال من الأحوال أن مثل هذا الزواج يمكن أن يكون سعيدًا!». صوتها رقيقٌ وأسلوبها في الحديث لطيف، لكن من الواضح أن هناك صلابة ما داخل هذه المرأة الرقيقة.

«لكن انظري إلى نفسك يا غيرترود. لديكِ ابنان وبنتٌ تعشقينهم أنتِ وفضل. وتقطنين بيتًا جميلًا، وتفعلين الكثير لمساعدة فضل في عمله. وأنتِ نفسك تقولين إن فضل لطيف معك. كما تشغلين منصب سكرتيرة براتب جيِّد لشركة نفطية؛ لذا فأنتِ بالتأكيد لَم تعيشي في عُزلَة. هل هذا زواجٌ غير ناجح؟».

«أنا محظوظة لأن لديَّ قدرة ممتازة على العمل؛ فقدرة المرأة على كسب المال لها تأثير كبير على حريتها».

«هذا يوافق وجهة نظري تمامًا حول كسب المال يا غيرترود! فمزيج الإغراء الأنثوي والدولار العظيم شيئان رائعان، والثاني أكثر قوة ونفعًا من الأول وحده».

«أيضًا، الأزواج يختلفون، حتى في ليبيا».

«هذا ما أعنيه. كل هذا يتوقَّف على الزوج».

«لا! بل هذا يعتمد على عائلة الزوج وقدرته على الصمود في مواجهتهم. ليس لديكِ فكرة عن قوة العجائز الليبيَّات اللاتي يقبعن في الخلفية! يمكنهنَّ جعل الحياة جحيمًا لكل شخص حولَهنَّ حتى الحصول على ما يُرِدن. إذا تخلَّى الزوج مرَّةً فقط عن زوجته الأجنبية لتقع منه في وسط النساء- الحريم، فإنها تصبح مِلكًا للسيدات العجائز في الأسرة مثلها مثل زوجها!».

«حسنًا، السؤال هو: لماذا تتزوَّج من أجنبية، إن كنتَ تريدها فقط أن تنضمَّ إلى الحريم؟ على أي حال، كثيرًا ما أسمع الشباب الليبيين يقولون إنهم يريدون زوجة يمكنها الخروج معهم والمشاركة في حياتهم أكثر ممَّا يمكن أن تفعله معظم الليبيات».

وافَقَت غيرترود على ذلك قائلة: «نعم. غالبًا ما يقولون ذلك. ومن أوائل المطالب الحديثة التي يريدونها هو رؤية زوجاتهم قبل الزواج منهنَّ. وماذا يأتي من خلال ذلك؟ إذا رأوها وأعجبوا بها، فإنهم يقعون على الفور في الحالة الذهنية الليبية القديمة، وهي الشعور بأنها مِلكٌ لهم وحدهم، ويتوقَّعون أن تكون لديهم سيطرة كاملة عليها. يجب أن تقبل كلمتهم حول كل شيء، وسرعان ما يُخْفونها في عالم الإناث الليبيات لتصبح لهم وحدهم. ينسون كلَّ تَطلُّعاتهم وأفكارهم الحداثويَّة، ويصبحون غارقين في غيرة التَّملُّك الذكوري السائدة في العالم العربي».

«لكن هذا يتغيَّر في البلدان العربية الأخرى، مع خروج النساء إلى المجتمع» أقول بإصرار، «ومع قيامهن بدور أكبر في الحياة هنا في ليبيا، يجب أن يتغيَّر الموقف».

«ربما» تردُّ بتشكّك، «لكنني على يقينٍ من أن جميع الليبيين اليوم غير قادرين تمامًا على قبول فكرة أن تكون زوجاتهم على اتصال ودِّيٍّ مع أيِّ رَجُلٍ سواهم. وأعتقد أن الليبيات أنفسهن ما زلن غير قادرات على الدخول في علاقة ودية بريئة مع أي رجل باستثناء أزواجهن. وفي الوقت الحالي، ستُجبَر أيُّ امرأة غربية متزوِّجة من ليبي وتعيش في ليبيا -من أجل السلام والاستقرار في حياتها الزوجية- على قبول مستوى الانقياد نفسه تجاه زوجها مثل أيِّ زوجة ليبية. ولا يمكن للمرء أن يخوض الصراع في الفِراش!».

يبدو أنه لا يوجد ما يُقال ضدَّ هذا الرأي.

بعد دقيقة سألت غيرترود: «هل قابلتِ جوان بلانك من قبل؟ إنها الفتاة الإنكليزية التي تزوَّجَت من السكرتير العام لوزارة الاقتصاد؟ لقد كانت هي نفسها فتاةً ساحرة ومجنونة بحُبِّ زوجها في البداية. لكن أقربَ صديقاتها هنا كانت شابَّةً إنكليزية تعمل سكرتيرة في شركة النفط حيث أعمل. وقد كره الزوج الليبي كثيرًا هذه الصديقة الإنكليزية لزوجته؛ لأنه شعر أنها كانت تشجِّعها على محاولة الحفاظ على استقلاليَّتها. على أي حال، قرَّر الليبي تفكيك تلك الصداقة، وأخبر زوجته أن صديقتها سيئة السُّمعة؛ وعليها التوقُّف فورًا عن رؤيتها.

أخبرت جوان زوجها أن الفتاة هي صديقتها الحقيقية الوحيدة، ولم تكن هناك أي فضيحة تتعلَّق بها على الإطلاق، وأنها لن تتخلَّى عن صداقتها. بعد ذلك استمرَّ النقاش والصراع مع زوجها حول هذا الموضوع لعدَّة أسابيع، وفي الوقت نفسه جعلت نساء العائلة من المستحيل عليها مقابلة صديقتها في بيتها، وأبلغن الزوج بجميع حالات غياب جوان عن البيت. أخيرًا، أُجبِرت جوان حرفيًّا على التخلِّي عن صداقتها.

ثم أدركَت جوان أن سبب المشكلة هو غِيرَةُ زوجها من أي تأثير عليها باستثناء نفسه، ولم تستطع التصالُح مع ذلك. لم يكن الحادث في حدِّ ذاته ذا أبعاد خطيرة، لكنه كان رمزًا بالنسبة لها لإصرار

الزوج الليبي على الهيمنة الكاملة وغير المعقولة على زوجته. على المدى الطويل، بدأ إحساسها بالإحباط والظُّلم يُدمِّر عاطفتها تجاه زوجها، وفي النهاية أثبت إصراره على إنهاء صداقتها مع الفتاة الإنكليزية أنه الخطوة الأولى في إنهاء زواجه».

«وأين هي الآن؟».

«لا تزال هنا في ليبيا، في بيته. وكما ترين، فهي زوجته! ولا يمكنها الحصول على تأشيرة خروج للمغادرة دون إذنه، ولن يأذن لها بالمغادرة».

«ألا تستطيع تقديم طلب إلى مكتب القنصل البريطاني؟».

«ليس تمامًا. هي مواطنة ليبية الآن، وبالطبع كان عليها التنازُل عن جواز سفرها البريطاني للحصول على الجنسية الليبية».

تتابع غيرترود، وهي تتحدَّث الآن بصراحة لا مثيل لها، «صدِّقيني، الرجل الليبي سيِّد بيته بالكامل! وإذا تجرَّأَت زوجته على مواجهته بأي شكل من الأشكال، يمكنه إمَّا ضربها أو تطليقها، وستُعتبر أفعالُه مبرَّرةً تمامًا. لا يعني ذلك التلميح إلى أن الزوج الليبي العادي يقوم بذلك، ولكن فقط أقول إنه يستطيع القيام بذلك- ولن يفقد احترام ومعاضدة أقاربه وجيرانه من خلال فِعله هذا. أحد الليبيين الشباب الذين أعرفهم كان مخمورًا في إحدى الأمسيات، ولأنه يمرُّ بأزمة علاقات مع زوجته؛ قال أمام بعض الأصدقاء: 'زوجتي طالق، طالق، طالق'، أي أنه كرَّر يمين الطلاق ثلاث مرَّات أمام الشهود؛ وبالتالي أصبح نافِذًا وحقيقة واقعة؛ وبهذا تطلَّقَت زوجته.

بالطبع، التفاصيل العملية للطَّلاق ليست سهلةَ التسوية. إذا غضب الرجل من زوجته وأرسلها إلى عائلتها؛ فقد تجد أسرتها إقامتها معهم مسؤولية مُضاعَفةً وعبئًا عليها وتعيدها إلى بيت الزوج، أو قد تطردها من البيت. تسوية الطلاق تختلف اختلافًا كبيرًا وفقًا لثروة ومكانة العائلتين، وأيضًا وفقًا للاتفاقات الشخصية المُبرَمة بين العريس وعائلة العروس، واستعادة المهر والمصاريف هي مسألة جدال دائم عند حدوث الطلاق. وعادة ما يُطلب من أسرة الفتاة إعادة ما

يعادل الذي دفعه الرجل لعائلتها قبل الزواج. بالرغم من أنه كان من المفترض أن يتمَّ إنفاق هذا المبلغ على تجهيزات زفاف الفتاة، ومجوهراتها، وجهازها- لكنه غالبًا ما يذهب إلى جيب الأب!

على أي حال، بحلول وقت حدوث الطلاق، غالبًا ما يكون المال أو الممتلكات قد تبخَّرَت، ويجب إعادته بشكل أو بآخر: الماشية أو المجوهرات أو المفروشات البيتية أو النقود، قبل أن يرضى الزوج السابق. وبحلول هذا الوقت، تصبح الفتاة غير مُرحَّبٍ بها في بيت أهلها، كما كانت في بيت زوجها».

أقاطعُ استرسالها: «قرأتُ في الصحيفة، أن الشباب الليبيين يسعون الآن لفرض مَهْرٍ أقلَّ للعروس. ويقولون إن التكلفة الباهظة للعرائس الليبيات هي أحد أسباب زواج الليبيين من أجنبيات».

«نعم، هذا صحيح. الحكومة نفسها تنصح أُسَر الفتيات المؤهَّلات للزواج بطلب مهور ومصاريف أقلَّ؛ وبالتالي تشجيع جميع الليبيين على الزواج من الوطن».

أخبرتني غيرترود قصة صديقةٍ ليبيةٍ لها في طرابلس كانت على وشك الزواج، وعائلتها قامت باستعدادات ضخمة لأسبوع الاحتفالات المعتاد. وفي الليلة الرابعة، كما تتطلَّب التقاليد، اصطحب الزوج عروسه إلى بيته ووضعها هناك، وألقى عليها أول نظرة خاطفة قبل مغادرته المكان.

الليلة التالية هي الوقت الحاسم، حيث يجب أن يتم البناء بالزوجة، بينما بقية الضيوف ينتظرون النتيجة في الغُرَف الأخرى بالبيت، ثم يجب تقديم الدليل النهائي على الدخول بها وعلى عُذريَّة العروس للضيوف، على شكل ملاءة ملطَّخة بالدماء أو على جِلد خروف. في هذه الليلة خرج العريس، بعد فترة خلوةٍ مع الفتاة، وكان في حال غضبٍ رهيبٍ، وأعلن عن فَضِّ الزواج؛ لأن هناك شيئًا خاطئًا مع الفتاة! ثم غادَرَ البيت في نوبة غضب يمكن تصوُّرها.

عاد العريس في اليوم التالي مع طبيب، كان من المُقرَّر أن يُخضِع الفتاة لفحص طبي. وكانت النتيجة اكتشاف أنها لم تكن عذراء فحسب، بل أنها أنجَبَت طفلًا مؤخَّرًا. هذا الاكتشاف ألغى عقد الزواج تلقائيًّا ثم أعيدت الفتاة إلى بيت والديها ، حيث إن العذرية هي العامل الأساس في عقد الزواج الليبي، وبدون ذلك يكون الزواج باطلًا. ويُستَثنى من ذلك إذا الفتاة قد قُبِلَت كمطلَّقة أو أرملة.. لم يكن الأب يعرف شيئًا عن تجربة الفتاة السابقة، وكان غاضبًا. لكن الأم كانت تعلم الحقيقة وساعَدَت الفتاة في إخفاء ولادة الرضيع».

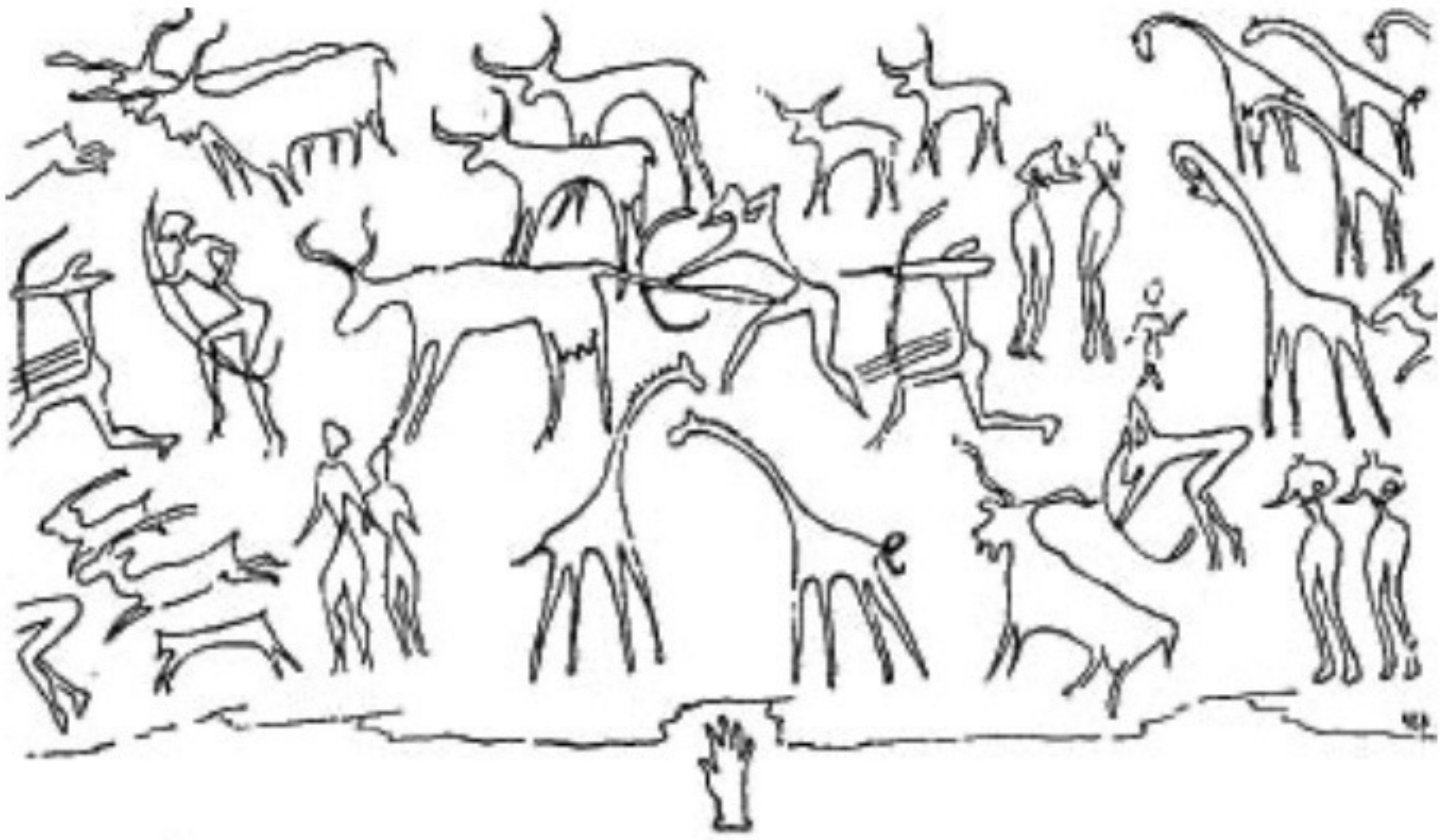

«ماذا حدث للطفل؟» سألتها.

«لا أحد يعلم. أتخيَّلُ أنه تمَّ التَّخلُّص منه».

ليس من الصعب تخيُّل إمكانية إخفاء ولادة طفل بالكامل في ليبيا؛ حيث تنعزل النساء في بيوتهن، وبينما يكاد يستحيل إخفاء الحمل الكامِل بالزِّيِّ الغربي، لكن من السهل إخفاؤه تحت الزي الليبي، حيث يلتفُّ الرداء بشكل كامل عدَّة مرَّات على البطن والوركين. على أي حال، لاحظت في كثير من الأحيان أن صديقاتي الليبيات يَظهَرن لي متشابهات إلى حدٍّ كبير قبل الولادة وبعدها؛ فغالبية الليبيات بدينات وفقًا لمعاييرنا، وبما أن هذا هو الشكل المفضَّل شعبيًّا (أو كان كذلك) فإنهن لا يبذلن أيَّ جَهدٍ للتحكُّم في قوامهن أو عضلات البطن.

وصَفَت غيرترود مثالًا آخر لفتاة سأسمِّيها «ليلى»، التي عاشت في بنغازي، حيث تسود تقاليد البادية، وتملك الفتيات أحيانًا حرية أكبر في الحركة والذهاب، أكثر ممَّا عليه الأمر في طرابلس. مع ذلك، كان يُفترض أنَّ ليلى، البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا، لم تكن أبدًا بعيدة عن أنظار والدتها، أو لم تكن خارج البيت بدون مُرافِق، ومع ذلك تمكَّنَت من مقابلة شابٍّ ليبيٍّ والوقوع في حُبِّه، وكوَّنَت معه علاقة حميمة، ودون أن تعترف لعائلتها بمدى علاقتها بهذا الشاب، طلَبَت من عائلتها ترتيب زواجها به. لكن العائلة رفَضَت، فقد رتَّبَت لها بالفعل زواجًا اعتبروه أفضل لها من الناحية المادية، ثم شعر الوالدان بالقلق من إدراك ليلى المفاجئ للعالم الذكوري؛ فقاموا بترتيبات مُتسرِّعة لحفل الزفاف الذي فضَّلوا أن يتمَّ في المستقبل القريب. وفي هذه الأثناء، واصَلَت ليلى إيجاد طريقة لعقد لقاءات سِرِّيَّة مع عشيقها، وأصبحت حامِلًا، ثم اقترب موعد زواجها من الرَّجُل الآخر، وقبل وقت قصير من بدء العرس ذهبت إليه وأخبرته أنها حامِلٌ من عشيقها. صرخ وأبدى سخطه، وطالب باسترداد أمواله، وألغى الزواج. قام والدا الفتاة بضربها، وهربت ليلى من البيت في حالة يُرثَى لها. استقبلتها قريبةٌ لها كانت تعيش بالقرب منها، ويرجع ذلك أساسًا إلى أن هذه القريبة كانت تحمل ضغينةً ما ضدَّ والِدَيْ ليلى.

حينما حان موعد الولادة دخَلَت مستشفى بنغازي للولادة. في اليوم التالي جاء شقيق ليلى لزيارتها في المستشفى، وبينما هي مستلقية باطمئنان وعاجزة في سريرها، طعنها حتى الموت، ثم هرب واختبأ في بيت أحد الأصدقاء، بينما قامت الشرطة بإجراءات شكليَّة للبحث عنه. في هذه الأثناء، ظلَّ بعيدًا عن الأنظار لبضعة أسابيع، ثم غادر ليبيا إلى مصر بتواطُؤٍ مفْتَرَض مع الشرطة، حيث ظلَّ هناك منذ ذلك الحين. كان تعاطُف الليبيين بالكامل مع الأخ، الذي شعر أنه من حَقِّه تمامًا الانتقام بالقتل، بسبب العار الذي جلبته أخته للعائلة.

أُعلِّقُ على ذلك بالقول: «إذا كان بإمكان الفتيات الليبيات أن يتورَّطن في الكثير من سوء السلوك، وهُنَّ حرفيًّا تقريبًا تحت ‘الإقامة الجبرية’ فقد يكون هناك سببٌ وجيه لعدم رغبة الرجال في خروجهن!

وبشكل عام، يشعر المرءُ أن الأزواج الليبيين لا يثقون بزوجاتهم، وإذا غادر الليبي بين عشيَّةٍ وضحاها في رحلة عمل، فإنه يترك حارسًا شخصّيًا مُنتَظِمًا للأمهات والجدَّات والأخوات لمراقبة زوجته!».

بَدَت غيرترود متشكِّكَةً، وقالت: «لا أعرف ما إذا كان هذا ناتجًا أساسًا عن عدم الثقة في إخلاص زوجته، أو لإصرار نساء العائلة على ذلك. لكنني أوافق على أن الثقة بين الزوج والزوجة قليلة، ولا أحد يخبر الآخر بالحقيقة- إلَّا بالصُّدفة». وتتابع: «سامي ابن عم فضل، سيغادر ليبيا في منحة دراسية إلى الولايات المتحدة لمدة عام، وتخشى الأسرة أنه سيرتكب خطأ فضل، ويتزوَّج هناك» وتطلقُ ضحكة مدوِّية، «سامي يفكر في مصلحته جيدًا، وقال لفضل إنه يريد زوجة أفضل مظهرًا من النساء الليبيات».

«وهل قدَّم له فضل أي نصيحة؟» أسأل بفضول.

«أخبره أنه يجب عليه أوَّلًا أن يُتِمَّ تعليمه ثم يعود إلى الوطن ويحصل على وظيفة، وبعد ذلك يتزوج ليبيَّةً ويُغيِّر من وضعها. أن يُخرِجها إلى العالم، ويصقلها تدريجيًّا إلى الزوجة التي يريد، لكن عليه تجنُّب جلب زوجةٍ غربيَّة إلى الوطن، وأن يحاول إجبارها على الحياة بالطريقة الليبية. وفضل يعرف -كما أعرفُ- أنه لا يمكن فعل ذلك. على أي حال، قد يعتقد سامي الآن أنه يريد زوجةً عصريَّةً، لكنه سيغيِّر أفكاره بسرعة كافية بعد أن يتزوَّجها. سوف يتركها في مقر الحريم. إنها الطريقة الأسهل».

«إذن، ألا تعتقدين أن الفتيات الليبيات يقتربن من التغيير؟».

«لا أعرف. الأمر أصعب ممَّا تعتقدين. لنفترض أن الزوج وافق على خروج زوجته بدون ارتداء الجِرد، وهي الخطوة الأولى، ثم وافق على التخلِّي عن ذلك الحجاب الأسود، وهي الخطوة الثانية. ومع ذلك، يجب أيضًا استشارة والدها ووالدتها وإخوتها. وعلى فرض موافقتهم، فمن المؤكَّد أنه ستكون هناك بقايا أثرية واحدة على الأقل من عجائز العائلة، وهي التي ستثير الجحيم. ثم من أجل السلام وكبرياء الأُسرَة

ستبقى الفتاة قابعة في عالم الحريم. هذا أسهل؛ فهي في النهاية مجرَّد أنثى!».

«ماذا يقصد سامي حينما يقول إنه يريد امرأة أفضل مَظهَرًا؟ وما التغييرات التي يعتقد الرجل الليبي أنها مرغوبة للمرأة هنا؟».

«الليبيون الذين أعرفهم أكثر يقينًا ممَّا لا يريدون أن تكون نساؤهم عليه، أكثر من الشروط التي يرغبونها فيها. فهم لا يريدون أن تتصرَّف الليبيات مثل بعض الزوجات الأميركيات اللاتي يرتدين سراويل ضيقة أو البكِّيني. لا يريدون تضمينهن في جميع الدعوات للأزواج لحضور مناسبات ما. ولا يعتزمون التخلِّي عن أمسياتهم الحرة في صحبةٍ ذكورية في المقاهي أو لعب الورق. إنهم لا ينوون دفع الطفل في عربته، ولا أن يجالسوا الأطفال أثناء خروج الزوجة، ولا يريدون غسل الصحون، أو أن يساعدوا في تدبير شؤون البيت. وهم يعتقدون أيضا أن الأزواج الأميركيين يتعرَّضون للضرب وإهانة رجولتهم، وأن النساء الأميركيات لا يبالين بأخلاقهنَّ وسُمعتهنَّ، وأنَّهنَّ جميعًا لديهنَّ أصدقاء من الذكور، أي نظام 'بوي فرند'. كما يرون أن الزواج الأميركي فاشلٌ بسبب ارتفاع مُعدَّلات الطلاق. في الواقع، هم يريدون الحرية الاجتماعية الكاملة لأنفسهم».

«فماذا يترك ذلك للمرأة؟».

«بالضبط!».

«حسنًا، تغاضَيْ عن الجانب الاجتماعي، وفكِّري في المزايا العملية للأزواج إنْ توفَّر للنساء المزيد من الحرية. بالتأكيد سيسعد الرجل أن تأخذ زوجته الطفل إلى الطبيب إذا كان الطفل مريضًا؟ وأن تتحمَّل المزيد من المسؤولية عن صحة الأطفال ورعايتهم؟».

«نعم. وقد يرغب في قيامها بالتسوُّق، لكن هذا من شأنه أن يستلزم ترك النقود في يديها! الشيء الوحيد المحترم الذي يمكن أن تفعله الزوجة في الوقت الحالي هو أن تكون مُعلِّمَة في المدرسة، وتعود إلى البيت براتب شهري! كل الزوجات اللواتي أعرفهن يرغبن في

التدريس إن استطعن؛ لأنه يمثِّل هروبًا من البيت. وحتى بعد ولادة طفلها، تُسارِع الزوجة إلى التدريس في أسرع وقت ممكن؛ فهي تشعر بالوحدة وترغب في استعادة صِلاتها بصاحباتها مرَّةً أخرى. عندها تتولى الجدَّة رعاية الرضيع، وهذا ليس مرغوبًا دائمًا. على أي حال، فقد اعتنيتُ دائمًا بأطفالي بنفسي!» تقول غيرترود بارتياح.

قلتُ: «ذهبتُ إلى مقْسم الهاتف في ذلك اليوم، ورأيت عددًا من الفتيات الليبيات يعملن هناك، مع عدد قليل من البلدان العربية، لكن معظمهن زنجيات أو يهوديات. وأخبرني المشرف أن الفتيات في العموم مُتميِّزات في العمل، ويستأجر المقسم حافلة لنقلهنَّ من وإلى بيوتهن. وهناك عدد من النساء يعملن في مصنع التعليب أيضًا، لأنَّهنَّ يرضين برواتب أقل من الرجال، لكنهن جميعًا من أدنى فئة اجتماعية. هناك اثنتا عشرة فتاة في مدرسة التمريض هذا العام، وجميعهن تقريبًا لهُنَّ علاقة بالزنوجة بدرجة ما. فليس من اللائق أن تقوم المرأة الليبية بالعمل. وإن كان العمل بشكل عام، ليس مكروهًا، لكن 'ليس لزوجتي!'».

صمتت غيرترود لحظة وقالت: «الأمر ليس ضِيقَ أُفُقٍ من جانب الزوج، فقبل عدة سنوات اجتمعت زوجات عدد قليل من كبار المسؤولين الحكوميين، واتَّفقن على الخروج سافِراتٍ في الأماكن العامة. ثم تسرَّبَت أنباء هذا المخطَّط إلى رئيس الوزراء، فاستدعَى المسؤولين وأخبرهم أنه إذا شرَعَت زوجاتهم في تنفيذ ما ينوين؛ فسيتم فصل الأزواج من الوظيفة».

«أعتقد أنني أعرف مَن هو! فلم يَرَ أحدٌ وجهَ زوجته من قبل! لكن ما سبب قراره ذاك؟».

«السبب سياسيٌّ على الأغلب؛ فقد كان يتمتَّع بشعبية كبيرة في ذلك الوقت. ولطالما أطلَقَت عليه الصحافة الليبية لقب 'أبراهام لنكولن ليبيا'؛ لأنه وعد الجميع بكل شيء: دجاجةٌ في كل قِدرٍ واثنتان لنفسه. يقولون إنه وصل إلى طرابلس قادِمًا من فزَّان حافي القدمين قبل سنوات قليلة، وبعد عامين كرئيس للوزراء، بنى لنفسه بيتًا بمائة ألف

التدريس إن استطعن؛ لأنه يمثِّل هروبًا من البيت. وحتى بعد ولادة طفلها، تُسارِع الزوجة إلى التدريس في أسرع وقت ممكن؛ فهي تشعر بالوحدة وترغب في استعادة صِلاتها بصاحباتها مرَّةً أخرى. عندها تتولى الجدَّة رعاية الرضيع، وهذا ليس مرغوبًا دائمًا. على أي حال، فقد اعتنيتُ دائمًا بأطفالي بنفسي!» تقول غيرترود بارتياح.

قلتُ: «ذهبتُ إلى مقْسم الهاتف في ذلك اليوم، ورأيت عددًا من الفتيات الليبيات يعملن هناك، مع عدد قليل من البلدان العربية، لكن معظمهن زنجيات أو يهوديات. وأخبرني المشرف أن الفتيات في العموم مُتميِّزات في العمل، ويستأجر المقسم حافلة لنقلهنَّ من وإلى بيوتهن. وهناك عدد من النساء يعملن في مصنع التعليب أيضًا، لأنَّهنَّ يرضين برواتب أقل من الرجال، لكنهن جميعًا من أدنى فئة اجتماعية. هناك اثنتا عشرة فتاة في مدرسة التمريض هذا العام، وجميعهن تقريبًا لهُنَّ علاقة بالزنوجة بدرجة ما. فليس من اللائق أن تقوم المرأة الليبية بالعمل. وإن كان العمل بشكل عام، ليس مكروهًا، لكن 'ليس لزوجتي!'».

صمتت غيرترود لحظة وقالت: «الأمر ليس ضِيقَ أُفُقٍ من جانب الزوج، فقبل عدة سنوات اجتمعت زوجات عدد قليل من كبار المسؤولين الحكوميين، واتَّفقن على الخروج سافِراتٍ في الأماكن العامة. ثم تسرَّبَت أنباء هذا المخطَّط إلى رئيس الوزراء، فاستدعَى المسؤولين وأخبرهم أنه إذا شرَعَت زوجاتهم في تنفيذ ما ينوين؛ فسيتم فصل الأزواج من الوظيفة».

«أعتقد أنني أعرف مَن هو! فلم يَرَ أحدٌ وجهَ زوجته من قبل! لكن ما سبب قراره ذاك؟».

«السبب سياسيٌّ على الأغلب؛ فقد كان يتمتَّع بشعبية كبيرة في ذلك الوقت. ولطالما أَطلَقَت عليه الصحافة الليبية لقب 'أبراهام لنكولن ليبيا'؛ لأنه وعد الجميع بكل شيء: دجاجةٌ في كل قِدرٍ واثنتان لنفسه. يقولون إنه وصل إلى طرابلس قادِمًا من فزَّان حافي القدمين قبل سنوات قليلة، وبعد عامين كرئيس للوزراء، بنى لنفسه بيتًا بمائة ألف

دولار، وعلّق على الجدران لوحات بيكاسو وغوغان الأصلية! لقد وجد الإوزّة التي تبيض ذهبًا. حسنًا، أنتَ في النهاية لا تكسب الأصدقاء وتؤثّر على الناس من خلال تعزيز حقوق المرأة في هذا البلد!».

«لكن يوجد الآن تشريع لمنح المرأة الليبية حقّ التصويت!» ذكّرتُها.

«صحيح، لقد تمّ تمريره بالفعل. لكن كم برأيك عدد النساء اللاتي سيخرجن للتصويت؟ وهناك طابع بريدي جديد سيَصدُر للاحتفال بوضع المرأة المتطوِّر في ليبيا. ولكن هذه المرأة الليبية المتطوِّرة لا يمكنها الذهاب حتى إلى مكتب البريد لشراء طوابعها الخاصّة!».

(لإطعام العصافير، يتعيَّن على المرء إطعام الخيول أوَّلًا)

مثلٌ عربي

---

* مثل كل القوانين الليبية، هناك دائمًا استثناءات كثيرة لذلك.

35. طيفك اللطيف يراودني

«قد نذهب إلى قرزة في نهاية الأسبوع» اقترح هاري بشكل غير مُتوَقَّع، بعد أن اعترض على رحلة إلى جزيرة جربة التونسية قبل أيام قليلة. «أريد في الطريق رؤية وادي سوف الجين مرة أخرى. حيث يقول (مازوتشي) إن هناك بعضًا من أفضل أراضي إنتاج الشعير في العالم. وقد ترغبين أنتِ وجورج في رؤية المزارع الرومانية البربرية المحصَّنة القديمة في قرزة وسوف الجين».

وأضفتُ من عندي: «هناك أيضًا بعض أضرحة المعابد الرومانية في قرزة وفقًا لكتاب الآثار، وقد نضيف القليل من الثقافة إلى التمتُّع بالهواء النقي. كم من الوقت ستستغرق الرحلة؟».

«يمكننا الوصول خلال يوم واحد، إذا بدأنا مبكِّرًا. ثم ننام في قرزة، ونقضي يومًا أو يومين هناك. ثم ليلة واحدة في طريق العودة، ونتوقَّف أينما نريد. سنأخذ سيارة الغيبسي».

« بالتأكيد أودُّ الاستفادة منها، إلى جانب مُجرَّد إزالة غبار جورجمبوبلي عنها. ولكنها لن تتَّسِع سوى لشخصين في الخلف».

«سيقود إمبراتوري السيارة 11، وأحمد السيارة 37. أريد أن يصبح أحمد على درايةٍ بالجزء الزراعي من البلاد في الدَّواخل. وإذا تُرك لنفسه، فهو لا يخرج أبدًا من حدود المدينة».

«طرابلسي حقيقي!».

«مرحبًا يا أمَّاه! مرحبًا أبي!». يدخلُ جورج، الذي يقضي معنا عطلة عيد الفصح، بَدَت سحنته داكنةً تلتصق بها الأملاح.

«جورج! حسنًا، حمدو الله، عُدتَ أخيرًا إلى البيت. ظننتُ أنك ستغرق!».

«قلقُ الأمهات الدائم مرة أخرى! ما هذا الذي أسمع عن عطلة نهاية الأسبوع؟».

«سنذهب جميعًا إلى قرزة».

«قرزة... أين تقع؟ حسنًا، بالنسب لي أوافق على أي مكان... فقط دعنا نأخذ دون، وديغبي لإضفاء الحيوية على الرحلة».

«لِمَ لا؟» يوافق هاري. «ثَمَّ مُتَّسعٌ لهما، على ما أعتقد».

«يا إلهي يا أبي، للأسف أن محمَّدًا ليس هنا! كان سيحبُّ أن يذهب معنا!» يقول جورج، وقد ارتسم الحزن على ملامحه فجأة. هذه هي زيارته الأولى لطرابلس منذ وفاة محمد.

نعم، كان سيرحب بمرافقتنا. أتَّفِقُ معه بصمت. كان سيتصرف بتلقائيته المعهودة، يقدِّم لنا النصائح، ويحزم كل الأشياء الخاطئة، ويُسقِط الأشياء الحساسة في غَمرَة حرصه لتقديم المساعدة، ويعيق طريق هاري ليكون لا غِنى عنه، ويتوهَّج وجهه بسعادةٍ حينما ينجح في أمر ما. إنه مليءٌ بالنوايا الحسنة، لكنه مُقيَّدٌ بواقعه الأليم. محمد لا يزال يشغل فكري المُرتَبِط بالحزن على رحيله. لماذا يجب أن يكون محمَّدًا؟ يجب أن يسأل المرء؟ لكنها مشيئة الله.

قلتُ، غير متأكِّدَة إن كنت أحاول مواساة جورج أو نفسي: «مَن يحبه الله، يَموت صغيرًا».

«هل تصدِّقين ذلك حقًّا يا أمَّاه؟».

«حسنًا... لا... لا أصدِّق ذلك بالفعل. أعتقد أننا جميعًا سننتهز بكل سرور فرصة البقاء على قيد الحياة- إذا أتيحت لنا الفرصة. هذه المقولات الفلسفية عن الموت ليس مقصودًا بها الشباب. ومع ذلك، فالموت هو السبيل الوحيد للاحتفاظ بالشباب. سيظل محمد شابًّا دائمًا بالنسبة لنا».

«أجل. لكني أُفضِّل لو أنه لا يزال حيًّا. وكذلك كان محمد سيفضِّل ذلك» قال جورج بحزم.

علّق هاري: «لا خيار في هذا أمامَ المرءِ أبدًا».

يشير اسم لايمز تريبوليتانوس إلى سلسلة بيوت المزارع القديمة المحصَّنة ذات الموقع الاستراتيجي، والتي تُمثِّل أقصى مدىً للتغلغل الروماني خلال القرنين الثالث والرابع الميلادي من قِبَل جيش المزارعين العسكريين المعروفين باسم لايماني. وتمَّ إنشاء المستوطنات الزراعية المحصَّنة دائمًا على المنحدرات العليا لأحواض أو تلال الوديان الخصبة. جنوب هذه المنطقة من البؤر الاستيطانية امتدَّت عبر الصحراء الجامحة، والتي -من هذا المكان وما وراءه- كان الرومان قانعين بتركها لسكان الصحراء.

أقيم خطُّ الصحراء في أقصى الجنوب في منطقة بونجيم، ثم يمتد شرقًا إلى قرزة، ثم إلى وادي سوف الجين شرقًا حتى غدامس، وتمَّ بناء هذه الحصون الزراعية على طول هذا الخط. وقد نجت هذه المزارع الداخلية فقط من مرحلة الإمبراطورية الرومانية وأفولها في ليبيا. كانت أسباب بقائها حيَّةً واضحة؛ فالجنود المزارعون كانوا مستقلِّين عن حياة المدينة الساحلية، وثانيا: كانوا قد تزوَّجوا من أمازيغيَّات؛ الأمرَ الذي منحهم موطئ قدَمٍ في البلاد لا جدال فيه. على الرغم من أن هذا المزج بين العِرقَيْن الروماني- والبربري أدَّى إلى ما يُسمَّى بالعمارة الرومانية «الأقل كفاءة وجَودَة»، إلا أنه أنتج مخزونًا عرقيًّا أكثر إشراقًا.

قرزة، حيث نتَّجِه الآن، هي موقعٌ جغرافي لم يكن في يوم من الأيام يعادل مساحةً أكبر من إحدى مزارع الحمضيات في طرابلس، حيث لا تزال توجد بقايا لنحو ثلاثين مزرعة، ربما يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي.

إنه شهر أبريل، ونحن في منتصف الطريق إلى بني وليد عبر ترهونة، ونسافر عبر أمواج من نبات العيصلان التي تبدو مثل بحرٍ لؤلؤي. هذا عرضُ غنيٌّ لطبيعة مُضنِية لا تحتفي بكل فصل ربيع، بل تُبدي حسنها تمجيدًا لفصل شتاءٍ باذخ مرَّ بها. نعم، كان لدينا هطل أمطار في الشتاء الماضي.

أنا وهاري في سيارة الغيبسي مع الطعام وأواني الطبخ. بينما يسافر جورج وأحمد مع أكياس نوم للجميع وملاءات قماشية. ويقود إمبراتوري العربة 11 مع مكابس النباتات وأكياس العيِّنات وحاويات المياه، ومعه في المقعد الأمامي يوجد دون، وديغبي، وهما صديقا جورج من إنكلترا، الموجودان في ليبيا لقضاء عطلة عيد الفصح. يبدو أن كل فردٍ راضٍ عن موقع السفر الخاص به وعن رفاقه، وعن الطقس الساطع والجاف والعاصف، والهدف من الرحلة.

تقع قرية بني وليد على قِمَّة تَلٍّ في الجانب الشرقي من وادي المردوم. حيث يمتلئ الوادي بأشجار الزيتون المتربة ذات اللون الأخضر الفضي، القديمة والعقديَّة وهي ذات أصلٍ روماني ولا تزال مثمِرَة. تزدهر أشجار النخيل أيضًا في الوادي، الذي يتقاطع قاعه مع سدود الجدار الصخري لمنع تآكل التربة، والاحتفاظ بأي ترسيب. وفي الجانب الغربي من الوادي، فوق تلال منخفضة، توجد ثلاث بلدات قديمة مسكونة جزئيًّا فقط. وهذه تحكي قصة الهجرة من الريف إلى المدن. البيوت مبنية من الحجر والطين، والمستأجَرة منها لها أبوابٌ خشبية أنيقة في مداخل منحوتةٍ ومقوَّسة. أمَّا المباني الشاغرة فبها مداخلُ مفتوحة مظلمة وفارغة.

حدَّد هاري وأحمد مكان مُتصرِّف بني وليد، وهو رجُلٌ وسيم داكن البشرة من طرابلس، وطلبا منه أن يجد لنا دليلًا ليقودنا إلى قرزة؛ حيث لا يوجد طريق واضح المعالم من هنا فصاعدًا. في هذه الأثناء، يتوجَّه البقية إلى مخبز البلدة ويشترون عشرة أرغفة من الخبز العربي المقرمش ليأخذوها معنا، ثم إلى السوق حيث يشترون دلوًا من التمر ويبدؤون في تناوله على الفور.

بينما نقف نمضغ التمر وننظر عبر الوادي، ينضمُّ إلينا هاري وأحمد. طلب المفوض من رجلٍ أن يرشدنا وعرض عليه 75 سنتًا في اليوم بالإضافة إلى طعامه، فرفض الرجل. ثم عرض عليه هاري أربعة دولارات ونصف لمدة ثلاثة أيام، فقَبِلَها على الفور، لكن المتصرِّف المنزعج رفض السماح له بأخذها، وأرسل سيارة لاند روفر تابعة

للشرطة لإحضار شخص ما من الجانب الآخر من الوادي، والذي يُفترض أنه سيرافقنا بأجرٍ أقلّ.

بعد نصف ساعة وصل مرشدنا نوري بينما نحن في السيارات جاهزون للانطلاق. يذكرُ أحمد أن المتصرِّف أبلغ نوري بأن يحضر له معه غزالًا؛ لأن أصدقاءه في طرابلس يريدون ذلك. وعلى الرغم من أنّ صيد الغزال يُعَدُّ انتهاكًا للقانون، الذي من المفترض أن يقوم المتصرِّف بإنفاذه، فلا يبدو أن هذا الأمر يلفت انتباهَ أي شخص باستثناء هاري.

الوقت منتصف النهار. وبعد فترة وجيزة من مغادرة بني وليد، يختفي كل من الطريق والمسار الذي كان أمامنا، والإشارة الوحيدة للاتجاه هي رصيفُ حَجريٌّ يظهر أحيانًا. المنطقة ليست سهولًا ولا صحراء أو كثبانًا، لكنها أشبه بوادٍ واسع متعرِّج، وشعرتُ بالسعادة لأن معنا دليلًا. بعد ساعة نتوقَّف لتناول الطعام المكوَّن من السردين أو السلامي والجبن، وهذا الخبز الرائع اللذيذ.

سرعان ما عُدنا إلى الطريق مرة أخرى، على امتداد سهلٍ خالٍ منبسط مُرصَّع بالصخور البركانية السوداء. القيادة هنا متعِبة، حيث الصخور تُمزِّق الإطارات وتهزُّ المقوَد. أحاول القيادة لبضع دقائق، لكنني أجد أنني لا أستطيع السيطرة على المقود بشكل آمن. ويقود إمبراتوري سيارته دائمًا بثَباتٍ ومَوثوقيَّة. بينما أحمد، الذي معه الدليل وجورج، لديه عذرٌ جيد الآن لتَقدُّم المجموعة، ويفعل ذلك مثل البرق. وكلنا نصبح مُغلَّفين بالغبار وساخنين.

نحن الآن في وادي سوف الجين، ونعبر قاع الوادي. توجد شقوق عميقة في العديد من الأماكن، وحُفر بعمق نحو مترٍ تكوَّنَت بفعل الفيضانات الشتوية؛ فيكون العبور في بعض الأحيان شبه مستحيل، ومع ذلك فالنمو الكثيف لأشجار البَطّوم على جانبٍ ثُمَّ على الآخر، يجعل ذلك مُمكِنًا. ويأخذ الوادي اسمه (سوف الجين) من هذه الأشجار باللسان الأمازيغي، ويُستَخدَم خشبها على نطاق واسع في ليبيا لصنع المحاريث اليدوية وعوارض البيوت.

على طول الجزء العلوي من التلال، يمكننا مشاهدة أنقاض بيوت المزارع المحصَّنة القديمة، التي ربما يعود تاريخها إلى خمسة عشر قرنًا. ويبدو أن هذه تقع دائمًا في أعلى نقطة مُمكِنة؛ من أجل الأمان. هناك مساحات لزراعات الشعير التي تتمايل في الريح، بألوانه: الزبرجدي أو الذهبي، في أدنى مستوى من مجرى الوادي كلما أمكن ذلك. هل يمكن للمرء أن يصدِّق أن هذه الهكتارات ساعدت في إطعام الإمبراطورية الرومانية! نمرُّ أيضًا بقطعان من الأغنام والماعز مع رعاة كسالى يسيرون خلفها، وتنتشر الخيام السوداء في الأفق.

الوقت متأخِّر من العشية الآن، والهواء ساخن مُحمَّل بالرمال. سأكون سعيدة بالخروج من هذا الوادي بينما لا تزال سيارة الغيبسي متماسِكة. لا بُدَّ أن نكون على وشك الخروج منه؛ لشعورنا بالرياح الرملية الجافَّة بقوة. وفجأة نخرج إلى منطقة شاسعة من الصحراء الصخرية وصحراء السرير المنبسطة وعرفت أن سرعة مسيرنا ستزداد خلالها!

حينما نصادفُ واديًا كبيرًا آخر، اسمه زمزم، فإننا نجِدُّ السَّير في اتجاه الجنوب الغربي على أمل العثور على قرزة قبل حلول الظلام. مثلما ينجرف الظلام على طول الوادي، ولا تزال السماء فوقها بلونٍ باهِتٍ، يصنعُ زمزم تقاطعًا مع وادي قرزة. بينما نستمر في طريقنا، نرى عن يميننا صورة جانبية للتلال من فوقنا، ونرى صروحًا حجرية متداعية، ومَعابِدَ متداعية تبدو لنا على خلفية اللون الفيروزي الباهت لسماء شمسٍ غاربة.

السابعة مساءً الآن، فنخيِّم في قاع الوادي هربًا من تلك الرياح الحارة والجافة التي أصبحت باردةً الآن. فوقنا مباشرة، على مرمى حجر، توجد ثلاثة معابد أضرحة، وكما يبدو، فإننا اخترنا المقبرة للتخييم فيها. على الرغم من الإشارة إليها على أنها أمثلة للعمارة الرومانية «المقلَّدة»، إلَّا أن هذه المعابد جميلة بشكل رائع مع أعمدة من الحجر الجيري الوردي، تقف على خلفية سماء ذات لون أزرق وأخضر فاتح.

لكن المناظر الجميلة لا تملأ المعدة الجائعة، وأقوم بإعداد وجبة المعسكر المعتادة من السباغيتي الفاخرة. على الرغم من أن هبوب الرياح يُبعِد الشُّعلة عن الطنجرة، بينما تشتعل نار نوري الصغيرة بالحطب بشكل جيد، تمَّ إنجاز كل شيء أخيرًا، وقد أصبح قدرًا كبيرًا رائعا وجاهزًا مليئًا بالسباغيتي- وتمَّ استهلاك كل لقمة منه بسرعة.

لا أحد يناقش فكرة إطفاء الأنوار والنوم. وكنتُ أوَّلَ مَن يدخل كيس النوم الخاص بي، حيث اندسَستُ فيه بكامل ثيابي، وهي عادة سيئة أكتسبُها الآن خوفًا من ليل الصحراء، أكثر من النوم في رفقةٍ مختلطة. أكاد أغلق غطاء حقيبتي المضاد للماء فوق رأسي، ولا أترك سوى نفقٍ صغيرٍ للهواء يؤدي إلى أنفي، وثُقبٍ لعين واحدة يمكنني من خلالها رؤية الضريح المتداعي الذي يلوح من فوقي.

أفكاري الأخيرة تتعلَّق بمحمد، وكيف كان معجبًا بأكياس النوم هذه! كنتُ أنا وهاري نعتزم دائمًا شراء واحد له من إنكلترا كهدية. ولا بُدَّ أن جورج، الذي لديه لحظاته العاطفية أيضًا، كان يفكر في محمد أيضًا؛ لأنه فجأة يلوح في الأفق شخص طويل القامة وينحني ليهمس لي: «هل سبق وأن فَعَلتِ شيئًا من أجل لطفيّة، زوجة محمد؟».

«نعم، أعطيتها القليل من المال. لكن لا أحد يمكنه مساعدتها حقًّا. عَمَليًّا هي مدفونة بالحياة... ما لم تتزوَّج مرَّة أخرى».

«لطالما قال محمد إنه سيصحبني لمقابلتها في وقتٍ ما. كما تعلمين- لقد كان حقًّا وَلَدًا رائعًا!».

«نعم. ولد رائع. ورجل صالح أيضًا».

«حسنًا... ليلة سعيدة يا أمَّاه».

أثناء انتظار النوم، ما زلتُ أبحث في ذهني عن الجواب الذي لا يبدو أنه موجود، لموتِ شخصٍ في ريعان شبابه.

اضرحة مدينة قرزة الاثرية

أمضينا يومين في اكتشاف بيوت المزارع المُحصَّنة، ووجدنا على الجدران الداخلية بعض اللوحات الرائعة التي تصوِّر مشاهد العصر الحجري نفسها التي في فزَّان. لا بُدَّ وأنها نُسِخَت من الرسومات الأصلية في فترة لاحقة. كانت الألوان لا تزال قوية جدًّا، معظمها بلون الحِنَّاء والأزرق الفاتح. بدت لي مقابر المعبد -التي ربما كانت أماكن دفن عائلية- دليلًا جيدًا على طقوس الجنازات وطقوس متعلِّقة بالموتى. على الرغم من أن العائلات الرومانية-البربرية ربما لم تمارس طقوس عبادة الموتى فعليًّا، فمن الواضح أنهم حرصوا بشدَّة على عدم الإساءة إليهم.

حزمنا أمتعتنا في استعداد للمغادرة في اليوم الثالث، وجدنا أن أمتعتنا أضيف إليها عَدَدٌ من العيِّنات النباتية الجديدة، بينما ازداد مسافرونا بغزالٍ واحد صغير جميل، حصل عليه نوري للمتصرِّف ليعطيه لصديقه في طرابلس. أحمد ونوري وجورج، مع الغزال الخجول الذي يُدعَى الآن الأفندي الصغير، وهو مستلقٍ في حضن جورج وقوائمه مَطويَّة تحته. وقع جورج في حب المخلوق الصغير الجميل على الفور، وأراد منا الاحتفاظ به. رؤيته مع الغزال تُذكِّرني مرة أخرى بمحمد، الذي كان يحثُّني دائمًا على اقتناء غزال أليف.

حينما كنا نسير عائدين عبر السهل الصخري، أوقف أحمد السيارة فجأة، بينما قفز نوري وانقضَّ على شيء على بُعد أمتار

قليلة. ثبت أنه ضبٌّ بطول ثلاثين سنتيمترًا وعرض عشرة سنتيمترات، بلون رملي، أمسكه نوري بيديه العاريتين خلف فكَّيْه ومن ذيله. يقول نوري إن سكان الصحراء يأكلون الضَّبَّ. بينما ينوي هاري نقله إلى حديقة حيوانات سيدي المصري.

نتوقَّف ليلًا في وادي ميموم بالقرب من أحد الرُّعاة وقطيعه، ويقوم نوري على الفور بإحضار عنز منه لإرضاع الغزال الصغير، الذي يَعلَق في ثدي العنز بحماس فوري. كانت فترة الظهيرة شديدة الحرارة، ومياه الشرب لدينا شارَفَت على الانتهاء، والماء البارد من وادي ميموم الذي غرفناه في الدلو مذاقُه رائع.

في صباح اليوم التالي، استيقظت على أحدهم يشدُّ كيس النوم. كشفتُ عن رأسي بسخط وألقيت نظرة على دلوٍ مليء بحليب الغنم الطازج المتخثِّر الذي يمسكه الراعي ونوري تحت أنفي. وبما أن العادة هي أن يشرب الجميع من إناءٍ مُشتَرك فقد شَرِبتُ... ووجدته جيِّدًا.

بعد ذلك انتقل الدلو إلى هاري، وبعد أن تمتم: «يا إلهي، سأمرضُ لا محالة!» ابتلع كمِّيَّة كبيرة على عَجَل، ثم التفت إليَّ وقال: «حقًّا، قد أحبُّ هذه الأشياء بالفعل، لو لم تكن في وقت مبكِّر من الصباح!».

في الأثناء، يتمُّ إرضاع الغزال، ثم يستيقظ الشباب ويبدأ إعداد القهوة. ومرَّةً أخرى يسيطر على ذهني محمد، الذي كان يقول دائمًا: «يا أمي، إذا اصطَحَبتِني معك، يمكنني إعداد قهوتك!».

طوال الخمسين كيلومترًا الأخيرة قبل طرابلس، كان محمد حاضرًا معي طوال الوقت، وكنتُ أفكِّر في الأسئلة الشَّغوفة التي كان سيطرحها عند وصولنا إلى البيت والإثارة التي كان سيشعر بها تجاه الضَّبِّ، واستيائه من عدم إحضار الغزال إلى البيت، وكذلك سروره لمشاركة جورج في الرحلة، ودموعه التي تكاد تفلت منه لأنه فوَّت الرحلة.

حاوَلتُ تذكّر بعض الأبيات التي كانت تخطر بشكل غامض في ذهني من قصيدة يونانية كتبها الحكيم كاليماخوس عن وفاة صديق له:

«ما زال صوتك اللطيف يراودني

مثل تغريداتِ عَندليب

تُشنِّف سمعي

الموت أخذ كلَّ شيء

لكن ليس بإمكانه

طَمسُ ذِكراكَ».

36. كارثة في رمضان

مرَّةً أخرى، أوشك شهر رمضان على الانتهاء، وقريبًا ستُعلن مدافع القلعة أنَّ رَجُل دينٍ ما، من فوق مرتفعٍ ما، في غريان بإمكانه رؤية الهلال الفضي المولود لتَوِّه في السماء الشرقية. بعد ذلك، ووفقًا لكلام النبي، قد يبدأ عيد الفطر.

قبل العيد بثلاثة أيام في بلدة «المرج» الصغيرة في الجبل الأخضر في برقة، كان كلّ المسلمين الطيبين في بيوتهم الصغيرة من الطين والحجر يجلسون لتناوُل الوجبة الأولى في اليوم، بعد صيامٍ دام أربع عشرة ساعة.

بيت محمود نجيب يسوده جوٌّ من السعادة والرفاهية. لقد زُرتُ هذا المكان الصغير عدَّةَ مَرَّات حيث اعتدنا المجيء من بنغازي؛ لأن محمود كان رفيقًا لصديقنا عبد الله من الفويهات، ولديه ثلاثة أبناء: محمد (ست سنوات)، وعليٌّ (أربع)، ومصطفى (سنتان)، ووالدتهم زينوبة الحُبلى من جديد. محمود نجيب يعرف أنه قد أُنعِم عليه بميلاد ثلاثة أبناء، ويأمل بصِدقٍ أن يبقوا معه خلال شبابهم ونضجهم لمساعدته في فِلاحة أرض في سهل المرج يزرعها بالقمح. العديد من سكان البلدة هنا هم أصحاب متاجر أو وسطاء لمزارعي المنطقة؛ لأن المرج هي مركز السوق لهذه المنطقة الزراعية الكبيرة. ومع ذلك، يذهب محمود يوميًّا إلى مزرعته الخاصة على بُعد ثلاثة كيلومترات، ويعود ليلًا إلى بيته الصغير من الحَجَر المبني بالطين، لكن هذا البيت هو كل ما لديه.

زوجته، البالغة من العمر 22 عامًا فقط، راضية عن الحياة أيضًا. تحمل الماء وتساعد في الزراعة، رغم أنها تتعب بسرعة كبيرة الآن بعد أن حملَت من جديد، وتأمل أن يكون صبيًّا آخر إن شاء الله! كما تأمَلُ -بجاه الرسول- أن تَلِدَ الأبناء الذكور؛ للعمل في أرض زوجها.

الليلة، أسعدهم جميعًا أن فترة الصيام الطويلة قد انتهت تقريبًا، وفَرِحون بأيام العيد الثلاثة القادمة. فالجلابيات القطنية الصفراء الجديدة للأولاد جاهزة لليوم الموعود، على الرغم من أن زينوبة ليست لديها ثياب جديدة لنفسها. لكن لا أحد سيراها، وبالتالي (معليش)!

تناولوا طبق الشوربة للتو، التي تأتي أوَّلًا، وهم الآن جاهزون لتناول طبيخ الخضار. في يوم الغد سيُذبح خروف في السوق، ووعدتهم زينوبة بلحم الضأن والشواء في العيد.

الساعة الآن السابعة وعشرون دقيقة، حينما يحدث شيء يتجاوز تجارب هذه العائلة في الحياة. ترتجف أرضية البيت قليلا. فتعتقد زينوبة أنها تحلم، وتنظر إلى محمود بقلق. ثم يحدث انهيار وهدير تهتز معه الأرض بعنف من تحتهم في ثلاث هزَّاتٍ هائلة منفصلة. حينما يظهر الخطر، يحاول المرء الهروبَ منه، ولكن حينما تنشق الأرض من تحتك فلا يوجد مكانٌ للركض!

يحدِّق محمود وزينوبة والأبناء الثلاثة الصغار في بعضهم البعض، وهم عاجزون عن الحركة. مع الهزَّة الأولى بدأت جدران الطين الضعيفة في الانهيار. الآن بينما ترتجُّ الأرضُ مرَّةً أخرى ينهار فوقهم الطين الثقيل، ثم ينهار سقف الصفيح مصحوبًا بدوِّيٍّ عالٍ، وتندفن الأسرة تحت الأنقاض والوحل.

الآن، تهطل الأمطار الغزيرة التي جعلت سهول المرج خصبةً، وتهبُّ الرياح العاصفة التي اشتهر بها الجبل، وتسقط الأمطار على الأنقاض المهتزَّة والمرتجفة لعائلة محمود وزينوبة، وعلى أنقاض بيوت خمسمائة عائلة أخرى تضمُّ أكثر من ألف شخص دُفِنوا أحياء في مدينة الأسواق المزدهرة ذات يوم.

انهارت محطَّة كهرباء البلدة، ودُمِّر المستشفى، وانهارت ستون في المائة من المنازل فأصبحت عبارة عن أنقاض؛ فبيوت الطين والحجر التي تمَّ بناؤها بدون دعامات خرسانية، تعتبر الأسوأ في مقاومة الزلزال.

في غضون ساعةٍ حَضَر الجنود الليبيون من معسكر قريب، وبدؤوا يحفرون في الأنقاض للعثور على الضحايا. وبعد ساعة، وصل جنود بريطانيون ورجال سلاح الجو الملكي البريطاني من بنغازي وقاعدة العدم للمساعدة. استمرَّ الإنقاذ في الظلام وتحت الأمطار الغزيرة، بينما تبثُّ الهزَّات الصغيرة الارتدادية الرُّعبَ بين الناجين. قبل منتصف الليل، تقوم مروحيَّات قاعدة ويلوس في طرابلس بإحضار أطباء وممرِّضي القوات الجوية، الذين أقاموا مستشفى ميدانيًّا متنقِّلًا. ويتمُّ نقل كميات دم جديدة من قاعدة ويلوس، ولكن على الرغم من الحاجة الماسَّة إليه، إلا أن السلطات الليبية ترفضه لاحتمال أن يكون بعضه قد أتى من متبرِّعين يهود.*

ومن بين البيوت الصغيرة المتداعية، نجا العديد من البالغين من الموت، على الرغم من أن الأنقاض التي تصل إلى مستوى الخصر قد دفَنَت أطفالهم تمامًا. محمود هو أول مَن هرب من حطام بيته، وتمكَّن من تحرير زينوبة. لكن لا يزال الأطفال الثلاثة مختفين عن الأنظار. يحفر محمود بشكل محمومٍ حتى يمرَّ به أحد الجنود، ويطلب منه المساعدة. يحفر الاثنان في حُطام البخار. أخذت زينوبة المصدومة تبكي، وبدأت تشعر بآلام الولادة المبكِّرة.

الجندي هو أوّل مَن وصل إلى جثَّة محمد بعد أن فارق الحياة. وبجانبه يرقد مصطفى ميِّتًا. محمود، وهو يحفر في الزاوية المقابلة، يمس يَدًا صغيرة، ثم يجد جُثَّة عليٍّ. على الرغم من احتمال إصابتهم بالسقف المنهار، إلا أن الأطفال ماتوا على الأرجح بسبب الاختناق تحت الأنقاض والوحل. يتحوَّل محمود في يأس إلى زينوبة، التي تنهار فوق أجساد أطفالها، في البداية تبكي من الحزن، ثم حينما يصبح مخاض الولادة أقوى، تصرخ من الألم. ساعدها محمود والجندي في الابتعاد عن الأنقاض الموحِلَة إلى عربة لاند روڤر عسكرية ونقلها إلى مستشفى عسكري صغير على بُعد كيلومترين. هناك وقبل الصباح يولد طفلها الصَّبيُّ... (حمدو لله)! وفي تلك الليلة وُلد ثلاثة أطفال خُدّجٍ آخرين.

طوال الليل واليوم التالي، ظلّ الجيش الليبي يعمل بجهد كبير لانتشال الضحايا، مع الجنود والطيارين الأميركيين والبريطانيين. كما واصَلَت طائرات هليكوبتر تابعة لسلاح الجو الأميركي نقل المصابين بجروح خطيرة إلى مستشفيات مختلفة. في غضون أربع وعشرين ساعة، تمَّ إنشاء مُخيَّم يضمُّ ستة آلاف لاجئ، مع الخيام والبطانيات والمواد الغذائية. وسرعان ما وصل الوزراء لتقديم العزاء والمواساة والوعود المناسبة للمنكوبين ولبناء مدينة المرج، لتكون أكبر وأفضل.

أيضًا الملوك والحكام ورؤساء الوزراء يرسلون برقيات تعاطُف وعروض المساعدة للملك إدريس. وبحسب ما ورد، أرسل الرئيس ناصر برقيَّة، يقول فيها: «يا إخوتي، اطلبوا كل ما تحتاجونه»، لكنه لم يرسل شيئًا. لكن المساعدة وصَلَت بالفعل من «الإخوة» من الدول الغربية، وكان سكَّان المرج يعبِّرون عن امتنانهم إلى زملائهم المنقذين الذين عملوا معهم طوال الليل والنهار. وفي صباح اليوم التالي بثَّ راديو القاهرة أن البريطانيين والأميركيين يستغلُّون «كارثة صغيرة» في ليبيا «لإعادة استعمار الشعب الليبي!». عدد القتلى في المرج وصل إلى ثلاثمئة، والجرحى أكثر من ألف، بينما بقي عشرة آلاف شخص بلا مأوى.

يُقرِّر القمرُ الكشفَ عن نفسه للمسؤولين المسلمين مساء السبت خلافًا لتوقُّعات تقويم المناخ بأنه سيظهرُ لأول مرة في الساعة الثانية صباحًا يوم الأحد. وهكذا عيد الفطر قد حان. العيدُ الذي كان من المقرَّر أن يكون ثلاثة أيام من الفرح، لكن الملك إدريس أعلنه ليكون فترةَ حداد في جميع أنحاء البلاد.

في الظروف العادية، لا يرغب معظمنا من ذوي الموارد المحدودة في التخلِّي عن أموالنا، لكن الكارثة المفاجئة التي تجبرنا على الانتباه إلى مجموعة من الناس الذين فقدوا كل شيء فجأة، بما في ذلك أطفالهم، والذين يعانون من دون ذنب منهم... كل هذا يثير مشاعر التعاطف والرغبة الصادقة في المساعدة.

في وقت وقوع الزلزال، كان بحوزتي -بصفتي أمينة صندوق مجموعة الأمم المتحدة النسائية- حوالي خمسة وخمسين دولارًا. وكان المبلغ مخصَّصًا لشراء مواد خياطة لمشروعٍ خيريٍّ لم ينجح. وحينما علمتُ بالزلزال، فكَّرتُ في المبلغ. وحينما اتَّصَلَت بي كاثلين لمناقشة ما يمكن أن تفعله نساء الأمم المتحدة لإغاثة المتضرِّرين من الزلزال، اقترحت أن نبدأ صندوقًا بخمسة وخمسين دولارًا.

«خمسة وخمسون دولارًا؟ هذا لا شيء!» تقول كاثلين، التي تسبقني في التفكير. «أعتقد أننا يجب أن نرسل على الفور إلى الأمم المتحدة في بنغازي لشراء بطانيات بقيمة مائة وخمسين دولارًا للمرج. وسنخرج الآن معًا لنجمع النقود!».

«حسنًا، سيتعيَّن علينا البدء...» أجبتُ بنوعٍ من الشَّكِّ، «لكن ما أكرهه أكثر من أي شيء آخر هو مطالبة أيِّ شخصٍ بدفع المال! وأُفضِّل أن أعطي أنا نفسي».

«نعم، نعم!» تقول كاثلين بحماس. «سنفعل! ونضع أسماءنا والمبالغ المدفوعة على رأس قائمة مفتوحة، وهذا سيدفعهم للتبرُّع!».

«في الواقع... القائمة المفتوحة هي ابتزاز» أقول، نقلًا عن هاري. لكن كاثلين تؤكِّد لي: «لا تهتمِّي، إنها لسبب وجيه».

بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى بيت كاثلين، كانت زوجتان أخريان من بعثة الأمم المتحدة لديهما الفكرة نفسها، وسرعان ما كُنَّا جميعًا على الطريق مع قائمة بنساء الأمم المتحدة في متناوَل اليد.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا فقط، وهو توقيتٌ سيِّئ للاتصال، حيث لا يزال صيام رمضان قائمًا، والزوجات المسلمات نائمات. كانت السيدة «ن» هي الأولى في القائمة، وقد نهَضَت بوجهٍ مُحتَقِن، مع ابتسامة، حينما أيقَظَتها ابنتها البالغة من العمر عشر سنوات. رحَّبَت بنا بحرارةٍ، وأصرَّت على أن نبقى لفترة كافية لتناول عصير الفاكهة والبسكويت، ولم تشاركنا بالطبع، وقدَّمَت مساهمة مالية كبيرة لصندوقنا. غادرنا ومعنوياتنا مُعزَّزة بشكل كبير

باستجابتها الكريمة. ثم قمنا بزيارة خمسة منازل ليبية أخرى، أيقظناهم جميعًا من الراحة، واستُقبلنا في كل بيت بالكياسة والاستجابة السَّخيَّة نفسها.

بعد ذلك، ذهبنا إلى بيت سيدة إنكليزية، وهي قادمة جديدة إلى البعثة في ليبيا. كانت كلماتها الأولى: «أوه، أنا سعيدة جدًّا لأنكم أتيتم. وسعيدة جدًّا لأنني قادرة على فِعل شيء ما لهذا الصندوق»، ثم تبرَّعَت بسخاء، وواصلنا مرورنا...

استخدمنا قائمة المتبرِّعين بلا أي تردُّد، ووضعتُها أمامهم كلما كانوا يتساءلون عن مقدار ما يقدِّمونه، وما الذي يقدمه الآخرون. على الرغم من رغبة الجميع في إعطاء شيء ما، إلَّا أن القائمة وضَعَت بلا شكٍّ معيارًا مُعيَّنًا. كان كل واحد منهم مهتمًّا بكرم الآخر المقارن! بحلول الليل، كنَّا قد جمعنا ما يكفي من المال بالإضافة إلى المبلغ الأصلي، وهو ما مَكَّننا من التصريح عبر الهاتف بالإنفاق الفوري لثلاثمئة دولار نيابة عن نساء الأمم المتحدة لمساعدة ضحايا الزلزال. كان تحرُّكنا من أولى بوادر المساعدة غير المنظَّمة التي تلقَّتها منطقة الكارثة.

وبشكل يومي تُكرِّرُ الصحافة الليبية شكرَها لكل الدول التي أرسَلَت مساعدات لضحايا الزلزال. وتبدأ القائمة عادةً ببريطانيا وأميركا، اللتين كانت استجابتهما فورية. ثم تأتي أسماء المغرب وتونس واليونان والأمم المتحدة وإيطاليا وألمانيا وفرنسا، وغيرها الكثير... وجميعهم تبرَّعوا بسخاء، وأرسلوا البطاطين والأغذية والأدوية. لكن الصحف تعلِّق في بعض الأحيان على حقيقة أن مصر غائبة عن القائمة.

من آثار الزلزال أن «المرج» التي لم يكن عدد سكانها سوى عشرة آلاف نسمة قبل الكارثة، لديها الآن قائمة مساعدات عامَّة لعشرين ألف نسمة! وهذا لا يشملُ عِدَّة آلاف من البدو المغامرين في المناطق المجاورة، الذين يحضرون بانتظامٍ تَوزيعَ البطانيات والحصص الغذائية، وخاصَّةً الخيام.

* حاولت جاهدًا البحث عن أساس لرواية رفض الدم لاحتمال أن يكون من متبرعين يهود، وسألت من توسّمت فيه المعرفة من سكان المرج، وهو مسقط رأسي وشهدت فيه الزلزال، فلم أجد للرواية سندًا متينًا. المترجم

37. الوجه الآخر للعُملة

هذا هو الصيف الأخير لجورج في ليبيا. إنه أيضًا صيفٌ شديد الحرارة. كنت أستلقي بلا نوم في الفراش عدة ليالٍ، لكن ليس بسبب الحرارة وحدها.

جورج يذاكر دروسه الآن. ويجلس في غرفة نومه في جورجمبوبلي، قدماه العاريتان الداكنتان فوق سطح مكتبه، كتاب الرياضيات مفتوحٌ تقريبًا خارج نطاق رؤيته، ويستمع إلى تسجيلٍ بصوت عالٍ لألبوم بيلافونتي كاليبسو المفضَّل لديه، وكان ينظِّف مسدس صيد السمك الخاص به. كالعادة يوجد فنجان على المنضدة، ودخان السجائر يتصاعد في المنفضة، ونصف زجاجة بيرة فارغة بجانب جورج.

«مرحبًا يا أمَّاه، ما رأيك في هذا السلاح؟ جيِّد، أليس كذلك؟ الوحيد من نوعه في طرابلس. أعطاني إيَّاه فينس».

«اعتقدت أنه من المفترض أن تدرس الآن».

«أنا أدرس بالفعل. وهنا كتاب الرياضيات».

«وهل الرياضيات تقفز إلى رأسك قفزًا؟».

«أوه، فكرة جيدة هذه! وأتمنى لو أنها تقفز بالفعل».

«لن تنجح أبدًا في اجتياز امتحانات السنة الثانية الجامعية بهذه الطريقة!».

«أعلم يا أمَّاه، لكن هذا الطقس الحار ليس للدراسة!».

«وهل كانت لندن شديدة الحرارة بالنسبة للدراسة أيضًا؟».

يئِنُّ جورج ويضع قدميه العاريتين على الأرض بقوة، يشرب بقية البيرة، يقلب الأسطوانة، يمد يده لكتاب الرياضيات، ويقول:

«اتركيني، يا ما. لا يمكنني الدراسة وأنت تتحدَّثين لي! واطلبي من لينا إحضار فنجان قهوة آخر من فضلك».

«إنها مشغولة بالغداء. سأحضر لك فنجان القهوة».

أضع فنجان القهوة جانبًا وأتخلَّى عن محاولات الوعظ باستثناء القول: «لن يكون لديك أي شهية لتناول الغداء بعد كل هذه القهوة والبيرة».

«أوه، بالتأكيد، يا أمي، سأفعل بالتأكيد. أَوَدُّ أن آخذ سيارة الغيبسي هذا المساء، من فضلك؟ نحن ذاهبون إلى الكيلو عشرين لتجربة مسدَّس السمك على الشِّعاب المرجانية هناك».

«حسنًا، لكن كُن حَذِرًا. أنا أكره تلك الشعاب المرجانية».

بعد ساعة، بينما كنت أجلس أقرأ صحيفة لندن تايمز، جاء جورج وعبر غرفة المعيشة نحوي. حينما أنظر إلى هذا الشاب الطويل النحيف، يبدو لي أنه وسيم تمامًا، ببشرته الناعمة الداكنة وعينيه الرماديتين الزرقاوين وابتسامة تلقائية. ينحني ويقبِّلني بحرارة على خدِّي.

«شكرًا جزيلًا على الغيبسي يا ما. سأعود في الوقت المناسب لتناول العشاء. الآن لا تقلقي عليَّ يا أُمَّاه». يلفُّ المنشفة الزرقاء حول عنقه، ويمسك شورت الاستحمام، ومسدَّس السمك، والزعانف، مرتديًا حذاءه الصحراوي، وجاهزًا للرمل والبحر والشمس.

قلتُ لهاري: «جورج يتظاهر بأنه أمرٌ عادي، لكن هناك خطر، وخاصة بين الشعاب المرجانية للغوَّاصين. أتمنى ألا يذهب لتلك الصخور والشواطئ المعزولة. دائمًا تُحذِّر الصحيفة الناسَ من القيام بذلك، وتطلب منهم الاستحمام في الشواطئ حيث يوجد رجالُ إنقاذ».

«تقلقين كثيرًا يا عزيزتي. يبدو لي أنني أتذكَّر السباحة حول نهاية رصيف طويل معك ذات مرَّة حيث كانت السباحة ممنوعة هناك! ناهيك عن السباحة في الحرم الجامعي في منتصف الليل».

«لا بُدَّ أننا كُنَّا حمقى!».

«بالفعل».

«في تلك الليلة حينما مرَرتُ بباب غرفة جورج المفتوح، كان مستلقيًا على بطنه بلا قميص، ويقرأ. هناك خدوش طويلة ودموية للشعاب المرجانية على ظهره.

«جورج! ماذا حدث لك؟».

«أوه، لا شيء يدعو إلى القلق يا أمَّاه. لقد عَلِقتُ تحت الصخور. وأخرجني فينس. حسنًا. لا تنزعجي يا أمَّاه. تصبحين على خير».

بالنسبة لي كأمٍّ، هناك العديد من الليالي الطويلة هذا الصيف أتظاهر فيها بالنوم، بينما أنتظر سماع صوت السيارة التي تعود متأخِّرةً كثيرًا مع تقدُّم فصل الصيف. في إحدى الليالي، علق جورج وصديقته الشقراء الهولندية الجميلة في الرمال عند عودتهما من الملهى في الساعة الرابعة صباحًا، تاركين السيارة وراءهما. من حُسن حَظِّنا أن لدينا سيارتَيْن؛ ففي ليبيا تحتاج إلى سيارتين: إحداهما لسحب الأخرى من الرمال.

«لكن يا جورج، ليس هذا لأنني قَلِقةٌ بشأن قيادتك، أو أي شيء من هذا القبيل؛ ذلك أنه إذا وجد أشخاصٌ ليبيون بعينهم سيَّارةً مُتوقِّفةً بداخلها فتاة ورجل بمفردهما؛ فإن ذلك يثير حفيظتهم؛ لأن لديهم مثل هذه المعايير المختلفة للسلوك الصحيح للمرأة. حيث يفترضون أن الفتاة التي تبقى بمفردها مع رجل هي سيئة السَّمعة. يجب أن تتذكر أنه كانت هناك بعض الأشياء المروِّعة التي حدثت في بنغازي، حينما عثر الليبيون على فتيات ورجال غربيين في السيارات!».

«يا أمي، أنا قويٌّ، ومُلاكِمٌ جيِّد!».

في بعض الأحيان تأتي الأفكار في الليل: حينما كنتُ صغيرة، هل أبقيتُ والدتي مستيقظة طوال الوقت في انتظار عودتي الآمنة إلى البيت؟ وخطر ببالي أنني ربما فعلت ذلك.

حينما سكَنّا طرابلس في المرة السابقة، كانت تتكوَّن من مدينتين منفصلتين ومركزين سكنيَّيْن متميِّزَيْن، لكن يوجد الآن مركزٌ أو حيٌّ ثالث يتكوَّن من العديد من (البيدونفيل) أي الأكواخ المنتشرة على تخوم المدينة، ومدن الأكواخ هذه تمثِّل الوجهَ السلبيَّ والخطأ من عملية الازدهار المرجوَّة.

يأتي اسم بيدونفيل من كلمة «بيدون» الفرنسية، أي الصفيح أو برميل الزيت، وهو يصف بدقَّةٍ الملاجئَ التي تمَّ تشييدها معًا على عجل، وتتكوَّن من براميل الصفيح المهمَلَة والنفايات القديمة. توجد هذه المراكز السُّكَّانية المزدحمة بدون قطرة مياه جارية، أو خزَّانات للصرف الصحي أو قنوات صرف. هذه هي بيوت النازحين الذين يتدفَّقون على المدينة؛ مُطارَدةً لحلم النفط، وتوقُّعًا لتحقيق الثراء.

هنا يعيش العاطلون عن العمل، فتى الواحات الذي غادر واحته، للعمل في حفَّارة نفط ما، ولم يتحقَّق مراده. والراعي الذي استبدل خِرافَه بوظيفة نفطية وتبخَّر العمل. والمُزارِع البدويُّ الذي فقد محصوله حينما حلَّ القَحطُ والجفافُ، ويأمل أن يكون البترول هو الحل لأزمته. هذا البدوي الذي قام بحركته الأخيرة للنجاة، وهو مُفلِسٌ الآن، ولا يستطيع التراجع عن قراره. هنا يعيش المشوَّهون والمكفوفون والمصابون بالزُّهري، والجانحون والمجرمون. كل أولئك الذين كانوا منتشرين في جميع أنحاء المملكة الليبية بأكملها يجتمعون هنا اليوم على أطراف مدينتها العظيمة الفخمة، تجذبهم الحكاية والحلم ورائحة النفط. ولديهم هواية واحدة فقط: إنهم يتكاثرون.

الحكومة الليبية لديها مشكلة الآن، فهي ترغب في تثبيط الهجرة إلى المدينة وفي ترك الناس لأراضيهم. ومع ذلك، إذا قامت الحكومة بتحسين الظروف في هذه الأكواخ، سيأتي المزيد من الناس للسَّكن فيها.

لدينا هنا نهارات من الصيف تشبه الجحيم. ففي اليوم السابق وصلت درجة الحرارة في الظل إلى 44.5 درجة مئوية، وهذا اليوم ظننتُ أنها أسوأ من أمس. الوقت منتصف النهار، وكنت عائدة من

مهمة إنسانية أو هكذا ظننتُ حينما غادرت البيت. أفترضُ أن اللطف لا يخلو من المصلحة الذاتية إذا أظهَرَت لك المرآةُ الشخصَ الذي تودُّ أن تعتقد أنك عليه. على أي حال، حينما قال هاري لاحقًا: «لماذا خرَجتِ في يوم مثل هذا؟» لم أجد مُبرِّرًا معقولًا؛ فالمكان الوحيد للبقاء في مثل هذا الطقس هو بيت المرء الحجري الخاص، مع إغلاق كل الفتحات وتشغيل التهوية.

كنتُ قد أنجزتُ مَهمَّتي في سيدي المصري، سواء اتَّسم ذلك بالحكمة أم لا، وكنت في منتصف الطريق إلى البيت بين سيدي المصري وبيتنا. بالنسبة لرحلة العودة إلى البيت، كان لديَّ خيارٌ بين طريقين متوازيتين على بُعد كيلومتر واحد، تؤَدِّي كلتاهما نحو الساحل في جورجمبوبلي. إحداها ضيقة ومكتظَّة بحركة مرور الشاحنات، وفيها مقبرة من جهة، و «حي الأكواخ» من جهة أخرى. كنتُ قد خرجتُ من هذه الطريق الأخيرة، لكنني قرَّرت الابتعاد عن الأكواخ بالعودة إلى الطريق الأخرى، التي تمرُّ عبر امتداد مهجور من أرضٍ فيها ما يشبه الكثبان الرملية.

الرمل يكاد يطبخ من شدَّة الحرارة، والهواء يتلألأ فوقه، وعجلة القيادة تحرق يدي، ومقعد السيارة مثل الشَّوَّاية، ودوَّاسة البنزين المعدنية أحرقت قدمي داخل الصندل. الآن تسيطر عليَّ فكرة واحدة فقط: العودة إلى البيت وتناول مشروب

بارد يروي الظمأ، حينما رأيت حاجزاً على الطريق أمامي، وعلامة التفاف تشير إلى اليمين فوق مسارٍ رملي. لم تعجبني فكرة ترك الطريق المعبَّدة في سيارتي الصغيرة لمتابعة مسارٍ رَمليٍّ قد يؤدي بي إلى حي الأكواخ، لكنني لم أحب فكرة العودة إلى سيدي المصري من أجل سلك الطريق الأخرى. لذلك بدأت في الانعطاف. لم أرَ أيَّ سيارة في الأفق: ولكن مَن يخرج عند الظهيرة في يوم مثل هذا غير الأحمق! تجاوَزتُ الامتداد الرملي الأول، وتجاوَزتُ عدَّة امتدادات من رمال ناعمة. الشيء المهم في القيادة على الرمال هو عدم التوقُّف أو السير ببطء، وكنتُ غاية في البؤس بسبب الحرارة لدرجة أنني لم أستطع السير بسرعة كافية. صعدت مرتفعًا صعبًا، ثم آخر، ثم مرتفعًا ثالثًا... وفجأة ظهر حي الأكواخ أمامي!

لثانية واحدة فقط كان لديَّ انطباعٌ بأن الحي مهجورٌ تمامًا: أكواخه المصنوعة من الخردة المعدنية تغلي في الشمس، ولا يتحرَّك فيها سوى الذباب. ثم فجأة يعجُّ الحيُّ بالأطفال من جميع الأعمار،

زاحفين، ومنطلقين من أكواخهم الصاخبة على أمل جعل الحياة جحيمًا لأحد المارَّة. كان طريقي الرملي هنا هو شارع الحي الرئيس، والآن يكتظُّ بالأطفال الذين حاولوا القفز على سيارتي من الخلف -أعتقد أن البعض فعل ذلك- ثم اتخذتُ منعطفًا حادًّا لتجنُّب أحد الأشقياء، وغرَقتُ في الرمال. حينما توقَّفَت السيارة، صعد الغوغاء على المبرِّد والمصدَّات، وقفزوا عليها لأعلى ولأسفل لجعلها تغرق أكثر في الرمال.

أعرفُ ما يكفي لعدم تسريع مُحرِّك سيارتي أثناء غوصها في الرمال، في الواقع يجب ألَّا أفعل شيئًا حتى أستطيع تحديد عمق الإطارات في الرمال. أمسكتُ كتاب ملاحظاتي بين يديَّ بإحكام، ثم نزلتُ ونظرت إلى العجلات التي لم تَغُص بعدُ إلى المحاور. لم تكن السيارة ميؤوسًا منها؛ إذ بإمكاني الرجوع إلى الخلف. وحينما استدرت للعودة إلى السيارة، رأيت أن مقعدي يشغله شابٌّ عشريني، والذي حينما رأى مفتاح الإشعال لا يزال في مكانه، بدأ في تسريع المحرِّك بقوَّةٍ؛ فأخَذَت العجلات تدور في مكانها بسرعة شديدة، في حين صفَّق الصِّبيَة الموجودون من جميع الأعمار بسعادة.

«توقَّف! أنت تزيد الأمر سوءًا! أنتَ! اخرُج حالًا» صرختُ فيه. «أوه، اللعنة! لن أتمكَّن من تخليص السيارة أبدًا الآن!»، وهو ما كان يريده بالضبط. لقد دفعتُه إلى مغادرة السيارة بسبب لهجتي الصارمة. كان الأطفال يصرخون ضاحكين ويرقصون حولي، ويقرصون ذراعيَّ العاريتين. ألقيتُ نظرة ثانية على الإطارات الخلفية ورأيت أن السيارة غير قادرة الآن على الخروج بدون مساعدة.

عُدتُ إلى السيارة، رفعتُ زجاج النوافذ، وفكَّرت في الموقف. كان الأشقياء الكبار والصغار، يقفزون بمرح، ويركلون السيارة. كنت أعلم أنه من الممكن بالنسبة لي أن أمشي إلى الطريق الرئيسة التي كنت أسير فيها، وربما أتلقَّى المساعدة هناك من سيارة عابرة، حيث إن المواطن الليبي العادي على الطريق مستعدٌّ دائمًا لتقديم المساعدة. لكنني عَلمتُ أنه بحلول الوقت الذي أعود فيه تكون سيارتي قد تمَّ تفكيكها ولن يعود لها أثر؛ لأن كل جزء صغير له قيمة سوقية جيِّدة

هنا. في هذه الأثناء، كنتُ مُحاطةً بحشد من الجائعين الطامعين ينتظرون بفارغ الصبر مغادرتي.

أنزَلتُ النافذة قليلًا (واو، الجَوُّ شديد الحرارة!) وانتظرتُ عرضًا منهم. الشاب الذي قفز إلى داخل السيارة تحدَّث أوَّلًا: «سيارتك لن يمكنها الحركة الآن، يا ليدي».

«ستتحرَّك إن ساعدتموني جميعًا في إزالة الرمال».

«لا يا ليدي. العمل شاقٌّ للغاية».

«حسنًا، يمكنني السير إلى سيدي المصري وإحضار أصدقائي الليبيين لمساعدتي». لكنني كنتُ أعلم أنني سأفقد سيارتي.

«وهل لديكِ أصدقاء في سيدي المصري؟».

«بالتأكيد... لديَّ أصدقاء ليبيون في قسم الغابات».

وتطلَّب هذا شرحًا للجمع الذين توقَّفوا مؤقَّتًا عن ضرب السيارة. وعلى الرغم من الحرارة، فقد كانت طاقتهم مثيرة للإعجاب.

«هل لديك سيجارة، ليدي؟».

«لا». كان تقديم السجائر أحد الأشياء التي لم أرغب في القيام بها في هذه اللحظة. فجلستُ وانتظرت، تشويني الحرارة وأتصبَّب عرقًا.

الآن الشاب الذي جعل نفسه المتحدَّث الرسمي، أخذ يخاطب الحشد من حولي بالعربية. ثم: «كم معك من المال، يا ليدي؟».

كنتُ أعلم أن بحوزتي مبلغًا قليلًا، حوالي ستة دولارات. كان لديَّ أيضًا ورقتان من فئة الخمس جنيهات (حوالي ثلاثين دولارًا) في محفظتي الصغيرة الأخرى في جيبي. لكن كنتُ مُصمِّمةً على عدم تقديم الجنيهات.

أخرَجتُ محفظة النقود حيث يمكنهم رؤيتها (من خلال الزجاج!) وأحصَيتُها أمامهم، كانت تزيد قليلًا عن ستة دولارات، وقلت: «سأعطيكم كل شيء يا شباب إذا أخرجتموني مجتمعين».

هزَّ الشاب رأسه: «لا يكفي يا ليدي».

«لسوء الحظ... فهذا هو كلُّ ما لديَّ».

مرَّةً أخرى خاطب المتحدِّثُ العصابة التي بَدَت مُستَمتِعةً بالموقف، كما أتوقَّع.

«هذا لا يكفي، يا ليدي».

جلستُ دون حراك، أتدبَّر الموقف، مع العلم أن ست دولارات هي مبلغ كبير بالنسبة لهم. في هذه الأثناء، كنت أتعرَّق وأنشوي من الحرارة. لكنني لا أعتقد أنه خطر ببال أي منهم أن الجوَّ حارٌّ وغير مريح في هذه الشمس الحارقة، وربما كان الوضع أكثر سوءًا في أكواخهم؛ وبالتالي لديهم بالتأكيد مُتَّسَعٌ من الوقت لقضائه معي. حاوَلتُ اتخاذ الموقف نفسه فجلست في مكاني وتساءَلتُ في أي ساعة سيفتقدونني في البيت.

أخيرًا تحدَّث الشاب: «حسنًا، حسنًا، ليدي. تعطيني المال أوَّلًا».

«لا، أخرِجوا السيارة أوَّلًا».

انعقد مؤتمرٌ آخر وبدوا كئيبين إلى حدٍّ ما... ربما اعتقدوا أن باستطاعتهم الحصول على النقود دون تحريك السيارة. كنت أتوق بشدَّةٍ لتدخين سيجارة، لكنني لم أرغب في التدخين بعد أن رفَضتُ إعطاءهم السجائر. ثم فجأة، قبل أن أصدِّق ما يحدث، أحاطوا بالسيارة مثل النمل، ورفعوها بالفعل من موقعها، ثم أداروها بالكامل، ووضعوها على أرض شبه يابسة مرة أخرى. أنزلت زجاج النافذة، ووضعت النقود في يدي المتحدث الرسمي الممدودتين حيث انتزعها أصدقاؤه على عجل، ثم شغَّلتُ المحرِّكَ وصرَختُ: «ادفعوا!». في اللحظة التالية دار الشاب حول السيارة وقفز في المقعد الأمامي بجانبي.

كانت السيارة تسير الآن، ولن يوقفني شيء حتى وصلتُ إلى الطريق المعبَّد. كان الشاب بجانبي يتَمَلمَل في مقعده، إمَّا أنه يخطِّط لفِعلٍ مريب، أو أنه يشعر بالحرارة. وضعتُ دفتر الجيب خاصَّتي في

حافظة الباب. لم أكن متأكِّدةً مِمَّا يدور في خلده، لكنني كنت أعرف ما هي فكرتي: أن أستمرَّ في السير بسرعة، وشعرتُ بالقوة في داخلي.

صعدنا إلى الطريق المعبَّدة، فقال مرافقي: «ليس لديَّ نقود! أعطيني بعض المال!».

«لا، لقد أعطيتُ كلَّ ما لديَّ» كذَبتُ، وقد انتابني شعورٌ بالنصر. «لماذا أنتَ في سيارتي؟ لا أريدك هنا».

«أريد نقودًا».

«لن أعطيك أي نقود».

«أريد دفتر الجيب خاصَّتكِ».

«لا». ودفعتُ الدفتر أكثر إلى تحت، وأنا واثقة الآن أنني على طريق عامَّة مأهولة.

«أريد النقود».

لكنني شعرت بتردُّده. لقد بدأ شيئًا لم يستطع إتمامه. لم تكن لديه الجرأة ليتغلَّب عليَّ، أو يمسك بالمقود، أو أن يجعلني أتوقَّف. كل ما يمكن أن يقوله هو: «أريد النقود!».

«لن أعطيك نقودًا». حتى وأنا أشعر بالأسف على هذا الصبي وأنا أقولها، كان بإمكاني إعطاؤه خمس جنيهات لولا طريقة تهديده لي. يا لها من حياة بائسة. يا له من مستقبل رهيب. وما هي الفرص التي تنتظره؟ لم أكن أرغب في التفكير في الأمر... في ظل هذه الحرارة الشديدة!

قلتُ: «سأتوقَّف الآن، وتغادر السيارة».

«لن أغادر. أريد مالًا».

لم أَقُل المزيد، وحينما وصلنا طريق تونس، استَدَرتُ في الاتجاه المعاكس لمسار بيتي، وتوجَّهتُ مباشرة إلى وسط طرابلس. أوقَفتُ

السيارة في بياصًّا كاستيلو بالقُربِ من شُرطيٍّ، وقُلتُ له: «اخرج من هنا».

نظر الفتى إليَّ، وإلى الشرطي، ثم انزلق من مقعده واختفى مثل حُلمٍ مزعج. وبالفعل شعرت بالأسف الشديد عليه، ثم أسرعت إلى البيت، إلى ڤيلتي الرائعة لأروي ظَمئي بمشروب بارد لن يكون أبدًا في مُتناوَلِ ذلك الفتى، ولا كل أولاد حي الأكواخ.

لم أخبر أصدقائي الليبيين قَطّ بما حدث معي. كانوا سيشعرون بالأسف لما حدث لي، وسيعتذرون لي، وسيساورهم القلق من أن أكون قد ظنَنتُ أن ما حدث هو تصرُّفٌ مُعتادٌ للِّيبيِّين تجاه الأجانب. لكنني لم أظن ذلك أبدًا. وأعتقد أن مثل هذه الحوادث هي من أعراض غزو أسلوب الحياة الغربي لحياة الناس- وإن كان أقلَّ عنفًا من غزو عالَمٍ يُشترى بالمال، ولا يمكن تحقيقه بدونه.

يستغرق أيُّ بيتٍ بعض الوقت للتعافي بعد مغادرة أبنائه الصغار له. وبيتنا الذي تغمره الشمس بجدرانه الخارجية البيضاء، ليست له المرونة الكافية هذه المرة لاستعادة وضعه السابق؛ فهو مليء بأشباح الأحِبَّة، وبصدح آلات البوق والساكسفون، وبأثر المياه المالحة للأقدام العارية المبللة فوق البلاط، مع طقطقة مكعَّبات الثلج في الكؤوس، وزجاجات البيرة المقلوبة، والضحك الصاخب لشُبَّان يردِّدون النِّكات.

حسنًا، سيتعيَّن على البيت أن ينسى، وكذلك أنا... سأركِّز على جمع المزيد من ذلك الصَّبَّار القِزم للشُّرفة، وهو النبات الوحيد الذي سيتحمَّل ضوء الشمس المنعكس من الأسمنت. هناك صبارٌ برتقالي رائع يُزهر الآن وكان جورج يحبُّه دائمًا... والياسمين لم يكن بهيًّا مثل هذه الليلة أبدًا... كم أحبَّ جورج تلك الرائحة! وتتذكَّر لينا أنه كان يحب غسل شَعره بشامبو البيض! وكنتُ أسأل دائمًا: «يا جورج هل يأكل شَعرُك البَيض؟». هناك تقف سيارة الغبسي يغطيها الغبار، لقد انتهت علاقتها بحبيبها جورج، ولم يَعُد مستقبلها مثيرًا. مع صمت مغبر، وتوبِّخني عن كل الليالي التي قُلت له فيها: لا تتأخَّر!

كل الأشياء تسير. والبيت سوف ينسى. لكن ليس الأم.

5

نَفطُ الله

38. تحت النقاب

حينما وصلتُ، كانت الجَدَّتان البدويَّتان تجلسان القرفصاء على أرضية غرفة الجلوس تراقبان أباريق الشاي الزرقاء فوق موقد صغير من الفحم. كلاهما لها وجهٌ داكِن ولطيف إلى حدٍّ ما، لكنَّه شديد التجاعيد، مع وشمٍ أزرق مُخضرٍّ، وخُصلات كثيفة من شَعرٍ أسود مُخضَّب بالحِنَّاء. كانتا ملتفَّتَيْن بأرديةٍ مُخطَّطة باللون الأحمر الصدئ، وتبدوان أشبهَ بتماثيل ثابتة أكثر من كونهما كائنات بشرية حيَّة. من الصعب تخيُّلهما بأَرجُل طبيعيَّة يمكن استخدامها إذا لزم الأمر، وإنما هي الآن مَخفيَّة في ثنايا الملابس. في الواقع، أخبرني عبد الله أنهما بالكاد تستطيعان المشي، لسوء حالة الساقين بسبب طَيِّهما والجلوس عليهما طوال الوقت. وأنه من المؤكَّد الآن إصابتهما بالروماتيزم من جلوس القرفصاء الدائم على البلاط البارد.

البيت الليبي مُقدَّسٌ لنسائه، ولم أكن لأفكِّر أبدًا في التطفُّل على بيت جيراني لو لم يطلب مني عبد الله ذلك، الذي قال إن زوجته تشعر بالوحدة في جورجمبوبلي. يقول عبد الله إنه مشغول كثيرًا في عمله الحكومي، وليس لديه سوى القليل من الوقت للاهتمام بالبيت. لا تزال الحكومة غير مستقرَّة منذ انتقالها هنا. ولن تستقر بصورة تامة قبل أن يحين وقت تحرُّكها من جديد. فالسِّجلَّات ليست في مكانها، والملفَّات ضائعة، والفضائح تتسرَّب، الوزراء يتغيَّرون، والجميع مصابون بالقُرَح مرة أخرى يريدون العلاج في روما! يبدو أنه ليس لديهم الكثير لتعلُّمه من العالم الغربي الآن مع اقتراب أن يحلَّ الرخاء في البلاد. لكن أيهما يأتي أوَّلًا: الثراء أم القرحة؟

عبد الله نفسه شخصٌ لطيف، طويل القامة، يميل إلى الشُّقرة، بعيون عسلَيَّة (أمازيغية على ما أظن) ولياقة بدنية جيدة. يتحدث الإنكليزية بطلاقة، وقد خدم لبعض الوقت في القوات البريطانية أثناء قتال الصحراء خلال الحرب. هو أحد ألطف الناس الذين عرفتهم؛

لذلك حينما طلب مني الاتصال بزوجته فعلتُ ذلك. ولدهشتي الكبيرة وجدته في البيت. وعَلِمتُ فيما بعد أنه كان يواجه مشاكل مع رئيسه الذي طرده من العمل في الوزارة! لكن عبد الله يرفض قرار طرده، ويذهب يوميًّا إلى وظيفته- لكنه لم يَعُد يعمل لساعات إضافية.

نظرًا لأن بيتهم مُشيَّدٌ في منطقتنا نفسها وهو حديث البناء أيضًا، لكن بالمقارنة مع بيتنا يبدو بالفعل وكأنه غير صالح للسكن. فبالنسبة لبيتنا وفي الطقس الجيد نفتح نوافذ بيتنا، كي يدخل النسيم وأشِعَّة الشمس. وفي درجات الحرارة الشديدة، نغلق النوافذ والمصاريع تمامًا فيشعر مَن في البيت بإحساسٍ مُريحٍ بالبرودة القاتمة، وبالأخص للشخص القادم من الحرارة والوهج في الخارج.

لكن بيت عبد الله هو نفسه دائمًا، لا يُفتح أبدًا للترحيب بالطقس الجيد، ولا يُغلَق لاستبعاد السيئ منه. هناك ينتصب كمأوى مؤقَّت، ومكان توقُّفٍ قصير حتى ينتقلوا مرَّةً أخرى. بيتنا ملجأ في كل الأوقات وفي كل الظروف الجوية. وبيت عبد الله مثل خيمة سوداء كبيرة، منتشرة في الوقت الحالي، ولكن بحلول الغد ربما تكون جاهزة للتفكيك وتغيير المكان.

أثاث عبد الله الذي وفَّرَته له الحكومة مُحطَّمٌ في الغالب، ولا عجب في ذلك، مع خمسة أطفال، وعنزين، وخروف، وغزال، وكلب، ودجاج، وأرانب. لدى عبد الله راديو ممتاز، وتلفزيون كبير الحجم، رغم أنه يشكو من أن البَثَّ غير واضح، والصورة كأنها مشوبة بعواصف ثلجية.

زوجته -التي أتيتُ لزيارتها اليوم- تُرحِّبُ بي على الفور، وهو مَن فتح الباب أمامي، يقودني نحوها ويتنقَّلُ بحذر حول السيدتين المُسِنَّتَيْن المُقعِيتين على الأرض، واللتين سبق وأن تبادَلتُ معهما القُبَل والتحايا. ثم يقدِّمها إليَّ: «هذه زوجتي ربيعة. سوف تتحدث معك بالإيطالية».

بالطبع، هي ممتلئة الجسم، برقبة وصدر جميلَيْن، ووجه بيضاوي شبابي تطلُّ منه البراءة، لها بشرة بيضاء، وعيون داكنة لامعة، ووشم

أزرق على الأنف والذقن. ارتسم على وجهها تعبيرٌ عن البهجة الخجولة، كما تخيَّلتُ، لرؤية شخصٍ ما يمكنه كسر رتابة منفاها في جورجمبوبلي، بعيدًا عن بنغازي والسهول الحمر، وبعيدًا عن مدينة طرابلس- وهي على مسافة عشر دقائق على الأقل بالسيارة!

أتبادَلُ معها التقبيل، ثم تنبَّهَت العائلة إلى وجودي ويبدؤون في الوصول واحدًا تلو الآخر، من خلف الستارة المزهرة التي تغلق الجزء الخلفي من القاعة. تظهر الفتاتان التوأمان: فاطمة وفجرة، لهما ملامح ليبية خالِصَة بشَعرٍ أسود مُجعَّد وعيون سود وبشرة داكنة. تصافحانني بحرارة ونقوم بطقوس التقبيل. ثم تأتي الفتاة الثالثة، ليلى، وهي رفيعة القوام، تشبه أليس في بلاد العجائب، لها بشرة ناعمة وشعر كستنائيٌّ حريريٌّ أملسُ، وعينان فاتحتان، تمامًا مثل والدها. وأتبادل معها المزيد من التقبيل.

الآن يأتي محمد (صبيٌ أخيرًا، حمدو لله! وقد وُلد في الوقت المناسب لإنقاذ والدته من عار إنجاب الفتيات فقط!)، أقوم بمصافحته فقط دون تقبيل. فيقول عبد الله بفخر: «هذا ابني. لديه رأسٌ صُلبٌ، كما يقول مُعلِّمه، ولكن معلش!». رأس صلب -كما أفهم- تعبيرٌ إيطالي يعني رأس شخصٍ يفتقر إلى الذكاء. لكن الصبي يبدو ذكيًّا، وهو وسيم كذلك... كما أنه ذَكَر! الطفل الخامس هو صبي آخر، اسمه البدري، ربما في السادسة من عمره، جميل المظهر، لكنه غامق البشرة تمامًا.

لكن أين الصغار، أتساءل في نفسي؟ سِتَّ سنوات بدون إنجاب طفل؟ هل يمكن أن يكون لدى عبد الله أفكار حول تحديد النسل؟ أم أن ربيعة ليست ولودًا بما يكفي للإنجاب؟

يُجلِسُني عبد الله على مقعدٍ قديم من جلد البعير، وتجلس ربيعة بجواري على آخر. بينما يجلس الأطفال على مقاعد متداعية، يمضغون العَلكةَ بصوتٍ عالٍ، وينظرون إليَّ بفرحةٍ دافئة باعتباري نوعًا من الترفيه العابر في طريقهم. تستمرُّ العجوزان في إعداد الشاي، بينما تقول ربيعة إنها تأمل أن يعجبني الشاي الليبي وتُسرِع

إلى المطبخ لإحضار الأكواب. قدماها عاريتان، وباطنهما بُنِّيّ من أثر الحِنَّاء. يستأذن عبد الله في الخروج لسقاية الحديقة وتنظيف الحظيرة، ويتركنا نحن الإناث للترفيه عن أنفسنا على الطريقة الليبية الصحيحة.

تعود ربيعة مع أكواب الشاي. الآن يمكننا تبادل الحديث. كم عدد الأطفال لديَّ؟ أين هم؟ كم سنة زواج؟ ولماذا إذن ليس لديَّ المزيد من الأطفال؟ ألا أريد المزيد؟ أو هل أفهم «السِّرَّ» في عدم إنجابهم؟ هل أعرف طريقةً ما لمنعِ الحمل؟

على الرغم من أن الليبيات في الماضي كُنَّ في العموم يرحِّبن بالحمل باعتباره يُمَكِّنهنَّ من الاحتفاظ بالزوج، إلَّا أنَّ الأوقات تتغيَّر الآن بالنسبة لبعض الأزواج والزوجات. اليوم، كثيرًا ما تسألني النساء الليبيات عن «أسرار» منع الحمل، لكنني لم أفكر مطلقًا في أنه من شأني الخوض في التفاصيل. فإذا رغب الزوج في تحديد النسل يمكنه مساعدة زوجته في تحقيق ذلك، وإن لم يرغب فهي تبحث عن المتاعب بهذه الطريقة.

العجوزان لا تجيدان اللغة الإيطالية، لكنهما تعرفان فحوى حديثي مع ربيعة. الآن والدة عبد الله، التي تبدو لي من النوع المسيطر، تبدأ حديثًا جادًّا بالعربية مع ربيعة وأمها، ويمكنني أن أعرف من ملامح وجه ربيعة أنها غير راضية عن الحديث.

حينما صمتت العجوز قالت لي ربيعة: «أخبرتني أم عبد الله أنه يجب أن أنجب المزيد من الأبناء. وإلَّا فإن عبد الله يجب أن يتخذ زوجة أخرى!»، وتطلق ضحكة هستيرية، من الواضح أنها لا تحبُّ الفكرة. ومع ذلك فهي تتقبَّل ذلك باعتباره من الشَّرع الإسلامي، وأن عبد الله على حَقٍّ، على افتراض أنه يريد ذلك.

تقوم العجوزان بصَبِّ الشاي من سَخَّان إلى آخر لصنع رغوة، وفي هذه الأثناء جهَّزَت ليلى طبقًا مليئًا من اللوز الأخضر المقشور لوضعه مع الشاي. وتمَّ إرسالُ محمد لإبلاغ عبد الله بالحضور لتناول الشاي. هناك أربعة أكواب صغيرة مثل أكواب المشروبات الروحية.

وهـي ممتلئة، النصف العلوي من الرغوة البيضاء، ويُقدَّم كوبٌ لكلٍّ مِنَّا. شرب عبد الله حصَّته بسرعة، وأعاد الكوب إلى ربيعة التي تغطسه في وعاء الماء بجانبها، ثم تملؤه بالشاي لأمها، أمَّا الأطفال فيجب عليهم الانتظار.

سألتُ عبد الله عن رأيه في الثورة الأخيرة في العراق، فأجاب ببيانٍ فلسفي: «التطوُّرات تأتي من الطبيعة، والثورات تأتي من الناس».

«لكن الجيش فرض الثورة على الشعب» أقول له.

«لا. العناصر العسكرية التي ترغب في الانقلاب تراقب مشاعر الشعب، ثم تقوم بضربتها استنادًا إلى ذلك. وطالما هناك أشخاص في القمة، وأشخاص في الحضيض؛ فسيكون هناك دائمًا تطوُّرٌ وثورات. ومن الثورات يخرج رجال أقوياء وديكتاتوريون. سيكون هناك دائمًا شخصٌ ما في القمة! إنها الطبيعة البشرية فقط التي تمكِّن الرجل الذي في القمة أن يأخذ شيئًا إضافيًّا لنفسه».

مثل هذا الرأي والمشاعر يتمُّ التعبير عنه باستمرار في ليبيا. فعند مناقشة قضية فساد ما، يكون رد الفعل عمومًا هو «حسنًا، ألا تفعلين الشيء نفسه إن سنحت لكِ الفرصة؟».

يتلقّى عبد الله كوب الشاي الثاني ويتابع: «سواءٌ كان حُكم الديكتاتور أو الحكومة جيِّدًا أم سيئًا، يعتمد على مقدار ما يأخذه الديكتاتور لنفسه. فإذا أخذ عشرة في المائة لنفسه، ووزَّع بحكمةٍ تسعين في المائة لفائدة كل البلاد؛ فهو جيِّد. لكن إن احتفظ بتسعين في المائة لنفسه، وأعطى عشرة في المائة لأصدقائه المميَّزين، ولم يقدِّم شيئًا للناس بشكل عام؛ فهو حاكم سيئ». ثم يجمع حفنة من اللوز المقشور، ويتركنا للذهاب إلى أغنامه.

حينما أغادر البيت، أسأل ربيعة: «هل ستأتين إلى بيتي لتناول الشاي يومًا ما؟ سأدعو بعض الليبيات الأخريات، ويمكنكم جميعًا التحدُّث معًا».

أبدت سرورها بالفكرة، لكنها ليست واثقة من قدرتها على تلبية الدعوة. «اسألي عبد الله» تخبرني.

وهو ما فعلتُه حينما توقَّفتُ في الحديقة لأقول له وداعًا. ويجيبني: «زوجتي لا تخرج أبدًا. لكن سنرى... سنرى...».

لقد رأينا بالطبع، وانتهى الأمر بقدوم ربيعة والجدَّتَيْن والأطفال جميعًا لتناول الشاي.

في الخامسة والنصف، توجَّهتُ إلى بيتهم لأخذهم بالسيارة. وكنت قد أبعدتُ هاري وبوتشي مؤقَّتًا إلى المكتب في الجزء الخلفي من البيت؛ من أجل منح السيدات حريتهن. كنتُ أعلم أنها مسؤولية كبيرة أن يُعهَد إليَّ بنقل ثلاث إناث، وتَمنَّيتُ أن أكون على قدر المسؤولية!

عند وصولي وجدتُ العجوزين جاهِزَتَيْن، وتنتظران، لكن ربيعة ما زالت تضع زينتها. كان منظر الجدَّتَيْن يُبهر الأنظار حقًّا، حينما أتذكَّر البدويَّتين اللَّتَيْن رأيتهما في ذلك اليوم الجالستين قرب أباريق الشاي! الآن إحداهن ترتدي بلوزة ساتان بيضاء مُزهِرة باللون الأزرق، تحت رداء فيروزي وفضي، وصدرها مزيَّن بشكل كبير بالمجوهرات الذهبية. بينما ترتدي الجَدَّة الأخرى بلوزة من الحرير الأرجواني تحت رداء

أرجواني وذهبي، بالإضافة إلى العديد من السلاسل والأقراط الذهبية الرَّنَّانة. صحيح أن ثروة البدوية -إن وُجِدَت- تَكمُن في مجوهراتها.

حينما ظهَرَت ربيعة أخيرًا، كان لباسها الأساس شيفون أبيض فضيًّا مُزيَّنًا بالأزهار، واسِعًا ومُحتَشِمًا، ربما كان تصوُّرًا لحلٍّ وسط بين الفستان العربي والغربي، وصدرها مُغطًّى بقلائد ليبية ثقيلة من الذهب بأطوال وتصاميم مختلفة، بينما معصماها -وذراعاها الممتلئتان الجميلتان- مُثقَلةٌ بأساور ذهبية. أمَّا أنا فأرتدي سُترةً وتنُّورة من الكشمير. قبل أن تغادر السيدات بيتهنَّ، كانت كلٌّ مِنهنَّ تُغطِّي نفسها تمامًا -بما في ذلك وجهها- بفرَّاشيَّة بيضاء نظيفة.

وجدنا صعوبة في إنزال الجدَّتَيْن أسفل الدَّرج الأمامي وإركابهما في السيارة. قمتُ بمساعدة التوأمين باصطحابهما واحدة تلو الأخرى، ونكاد نحملهما، وفي النهاية ليس سوى الدفع الجسدي الذي يُدخِلهما في السيارة، وأن تكون المؤخِّرة أوَّلًا؛ فكلتاهما تعاني من آلام في القدمين والساقين، كما يذكِّرانني، وأنا نفسي أعاني من ذراعَيْن تؤلمانني. نعود حينها إلى ربيعة، التي بالرغم من رشاقتها النسبية، إلَّا أنها تكاد لا ترى شيئًا تقريبًا، فالفرَّاشيَّة تغطيها تمامًا. (حمدو لله) أننا لم نكن نهرب من بيت يحترق!

إدخالهم إلى بيتنا ليس بالأمر الصعب، حيث نزلت الجَدَّتان من السيارة لتتلقَّفهما أذرعنا، وكانت لينا حاضرة لمساعدتنا في صعود السُّلَّم. في هذه الأثناء، كانت ربيعة، حينما تغيب عن بيتها تُسقِط الفرَّاشيَّة عن وجهها، وتنظر إلى أعلى وأسفل الشارع وفي كل مكان قبل أن تدخل الحديقة. وصل الأطفال الآن، بعد أن ركضوا على طول الطريق من بيتهم إلى بيتنا. كانت التوأمان ترتديان فساتين ساتان وردية عالية الخصر، لكن ليلى ترتدي سُترةً وتنُّورة أنيقتين، وشعرها الناعم يتدلى على كتفيها مثل خيوط الحرير. أما الأولاد فيرتدون سراويل رمادية نظيفة وقمصانًا رياضية.

بمجرَّد دخول البيت يتمُّ التخلِّي عن جميع الإجراءات الشكلية، وتوضع الفراشيات جانبًا، والسيدات يجلسن بهدوء والأطفال يتحرَّكون

بفضولٍ حول الغرفة ينظرون إلى كل شيء، ليس بوقاحة، وإنما باهتمام بسيط بما يرون من أشياء جديدة عليهم. هناك صور أطفالنا، وصورة لبيتنا في ڤيكتوريا محاط بأشجار طويلة، ومزهرية من الكريستال مليئة بالزهور البرية الطازجة، ومَنافض سجائر صغيرة من السيراميك على شكل خميسة فاطمة التقليدية، وأردية مُخطَّطة من السوق مُعلَّقة على النوافذ كستائر، ولوحة كبيرة من الباستيل لأمٍّ بدوية وطفلها، كلاهما يحدق بعينين ثاقبتين لا يعرفان الخوف ويبدو عليهما الجوع، رسمها بهليفاني، وهو فنَّانٌ تركي شاب. لاحظتُ أن كل هذا يثير اهتمام أصدقائي الليبيين، وأعتقد أنهم مندهشون من أنني أُقدِّر الزخرفة المحلِّيَّة. في هذه الأثناء، جلست الجدَّتان على كراسي الصالون، وأقدامهن مطويَّة تحتهن، بعد أن خلعتا نعالهن على الأرض بجانبهما.

تصل زها، ونفيسة زوجة بدر الدين، في سيارة يقودها سائق، ويتخلَّصان من الفرَّاشيَّة بإطلاق تنهيدة ارتياح. والآن أحمد نفسه يوصل بدرية إلى الباب فتدخل وحدها بدون فرَّاشيَّة، حجابها الأسود مدسوسٌ في جيبها، بوجهها الأبيض الجميل وشعرها الذهبي المكشوف.

جميع الليبيات يعرفن بعضهن البعض أو سمعن عن بعضهن، والآن ينطلق وابل من الحديث بالعربية التي لا أستطيع متابعتها، لكنني راضية بمراقبة وجوههن والإيماءات بالأيدي المصاحبة للحديث، والتي تعني الكثير في هذه اللغة الجميلة. من المؤكَّد أن محتوى الحديث هو زوجات الأصدقاء، وولادة أطفال جُدُد، وحالات الحمل الأخيرة، وإشاعات عن الطلاق، وسوء سلوك الأزواج، والخطوبات المتوقَّعَة.

أنجَبَت نفيسة لتوِّها طفلتها الثانية، وأسمَتها سميرة، لكنها ترفض مشاعر المواساة من الحاضرات بشأن جنس المولودة، وتؤكِّد أن لديها بالفعل ولدًا، هو أسامة، وأن بدر الدين أراد فتاة! لكن اليوم هناك ملاحظة جديدة في الحديث الدائر، ربما أثارها وصول بدرية بدون

حجاب. وتناقش السيدات رغبتهن في التخلّص من الفرَّاشيَّة، إن لم يكن الاستغناء عن الحجاب أيضًا! وتترجم لي بدرية هذا النقاش باللغة الإيطالية. وهذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الرغبة العامة المُعَبَّرِ عنها ضمن مجموعة من النساء.

في تقديم الشاي لأصدقائي الليبيين أقوم بكل الأشياء التي لا أهتم بها لنفسي، فالشاي يجب أن يكون شديد الحلاوة. واليوم، لديَّ كيكات عسلية صغيرة من محل حلويات دمشق، وأخرى ناعمة محشوة بجوز الهند المبشور، وكيك حلو محشو باللوز المهروس، وقد صنعت لينا كعكةً من ثلاث طبقات بحشوات كثيفة رشَّتها بالسُّكَّر الناعم. كما وفَّرَت الشاي على الطريقة الإنكليزية بالسُّكَّر والحليب واللوز والكراميل المحلَّى.

بعد الأكل، يشعر الأطفال بالحاجة إلى الحركة، وسرعان ما يندفعون خارج البيت، باستثناء ليلى، التي تجلس حالِمةً على حافة أكبر كرسي، وتحرِّك أصابعها بلطف عبر شعرها الطويل الناعم وتستمع بصمتٍ إلى النميمة التي تدور أمامها.

الآن تنهض ربيعة وتتجوَّل في غرفة الطعام للبحث عن ليلى، وسرعان ما تتبعها الأخريات. فأقترح أنهم قد يستمتعون بالفُرجَة على بيتي، وهذا هو بالضبط ما يأملون فيه؛ لأن طريقة حياتي تهمُّهم بقدر ما تهمُّني طريقة حياتهم. نتفقَّدُ المطبخ، وننظر داخل الثلاجة، وداخل فرن الغاز، وداخل الخزائن، ونذهب إلى الحمام، ونعجب بالبلاط المزيَّن بالأسماك، ونذهب إلى غرف النوم فنجد أحدَ كُتُب جورج القديمة على السرير، وعلى الغلاف صورة امرأة عارية. فتضحك السيدات بتقديرٍ للموقف. وفي غرفة النوم الأخرى، أُعجَبن بستائر الكريتون المشرقة والمزهرة. حينما نتوقَّف في القاعة لننظر في المرآة الكبيرة على الجدار، تلاحظ زها باب غرفة المكتب المغلق.

«ماذا هناك؟» تسألني.

لم أجد مناصًا من الاعتراف لهنَّ: «زوجي والكلب».

تتبادل السيدات حديثًا حول هذا باللغة العربية، ثم يبدأن في الضحك والإيماء برؤوسهن، وتقول زها: «نتمنَّى أن نرى زوجك. ونرجو أن تفتحي الباب».

جرَّبتُ فتح الباب، لكن يبدو أن هاري أغلقه؛ فهو يريد الخصوصية، حتى لو لم تُرِدها السيدات! اللاتي أخذن يضحكن أكثر، وتقول زها بإصرار: «أرجوك... أخبريه أننا نرغب في مقابلته!».

أتحدَّث عبر الباب مع هاري، الذي فتحه على مَضَض. تبدو السعادة عليهنَّ الآن، والجميع يصافحنه، وينظرن باهتمام إلى الرفوف المليئة بالكتب، والآلتين الكاتِبَتَيْن، ومكابس النباتات المكدَّسة بالعَيِّنات المُجفَّفة، ثم يُوَدِّعنه ويتراجعن تغمرهن السعادة.

انتهت الحفلة، وطلبت السيدات فراشيَّاتهنَّ. نفيسة وبدرية ستذهبان مع زها في سيارتها. وبينما كانت الشابة المليحة بدرية بقامتها الرشيقة الطويلة تلفُّ نفسها في فراشيتها أطلقت زفرة مستاءة أثناء تعامُلها مع ثنياتها الكثيرة، ثم همست في أذني: «أرجوك قولي لبدر الدين إن الفرَّاشيَّة غير مناسبة! وأنني أريد ارتداء الحجاب الأسود فقط!».

وبينما تقوم ربيعة بتعديل فراشيتها، قالت: «حسنًا، لقد حلَّ الظلام في الخارج الآن!»، ورأيت أنها لن تغطي وجهها للعودة إلى البيت! بينما تقوم الجَدَّتان بتغطية وجهيهما كالعادة، ولم يتبقَّ سوى إدخالهما إلى السيارة. فتُوَفِّر لينا قوة إضافية للأرجل «العليلة» وتساعدني على إخراجهما من البيت ودفعهما داخل السيارة. أقودهم جميعًا إلى البيت، وأحمد الله طوال الطريق على ساقَيَّ «السليمتين» وعينيَّ المكشوفتين. لم أرَ ربيعة لعدة أشهر، لكن بدرية أخبرتني أنها سمعت أن ربيعة حُبلَى من جديد؛ لذلك أعتقد أن الجَدَّتَيْن قد حصلتا على ما تريدان.

في صباح أحد الأيام كانت لينا في الخارج تسير مع بوتشي، وعادت إلى البيت بوجه متوهِّج. «السنيورة ربيعة أنجبت طفلًا كبيرًا!

خمسة كيلوغرامات ونصف! وعبد الله يقول إنها كادت تموت أثناء الوضع. ويريدك أن تأتي لرؤيتها». في ذلك الصباح ذهبنا للتسوُّق للعثور على هدية مناسبة، فعثرنا على خميسة فاطمة ذهبية صغيرة لدرء العين الشريرة، وقلبٍ ذهبيٍّ صغير كرمز للحب واللطف، وكلاهما مُعلَّق بسلسلة من الذهب الخالص.

ذهبنا بعد الظهر للزيارة، وعلى الفور لاحظنا البيت المرتَّب: لا توجد ملابس مهجورة، ولا أثر لمعِدَّات شاي، ولا سيدات مُسِنَّات يجلسن في المكان؛ فهم يتوقَّعون مجيء الضيوف. بالطبع سيكون هناك بعض الرجال للاحتفال مع عبد الله بمولد ابنه الجديد، فيما تطهو لهم ربيعة والجدَّتان والفتيات وليمةً بالمناسبة.

أخذتنا ربيعة لرؤية الملك المتوَّج الجديد للأسرة، كان نائمًا في سريرٍ أزرقَ مُغطًّى بالساتان بجوار سرير والديه. يبدو رضيعًا كبير الحجم ووسيمًا، مع الكثير من الشَّعر الداكن والحريري، كان مستغرقًا في النوم، ويبدو أنه تناول بعض الأدوية المهدئة طوال الليل.

بدت لي ربيعة نحيفةً على غير عادتها، وقالت إنها كادت تموت لو لم تكن في العيادة، حيث أخرجوا الطفل منها بالملقط. كما أخبروها أنها مُصابَة بداء السُّكَّري. وبعد بضعة أسابيع، أتت ليلى إلى بيتنا في وقت مبكِّرٍ من صباح أحد الأيام لطلب وعاء من مكعَّبات الثلج وتقول إنَّ الطفل مريض. ثم تعود الفتاة عدَّة مرات خلال النهار لطلب مزيد من الثلج. وفي ذلك المساء، ذهبت إلى بيتهم لأستفسر عمَّا إذا كان بإمكاني فعل أي شيء للمساعدة، فيخبرني عبد الله أن الطفل يعاني من «حُمَّى دماغية» ويخشى الأطباءُ مَوتَه.

لعدَّة أسابيع، لم يغادر عبد الله جانب الطفل. أخبرني أنه لا يمكنه المغادرة؛ حيث لا يوجد شخص آخر في تلك الأسرة المكَّونة من ثلاث نساء بالغات وثلاث فتيات صغيرات لديه أدنى فكرة عن النظافة، أو عن كيفية إعطاء الأدوية، أو عن كيفية العناية بشكل صحيح بطفل مريض، أو حتى مَن يمكنه الوثوق به مع الطفل في بيت يؤمن فيه كبارُ السِّنِّ بالعلاج بالكَيِّ. تداول على الرضيع سِتَّة أطباء: مصريون

ويوغوسلاف وإيطاليون، ووُصِفَت له جميع أنواع الحقن، ويتناول التغذية في الوريد. هذا الجسم الصغير المسكين، الغاطس جزئيًّا تحت أكياس الثلج، ليس كبيرًا بما يكفي لتحمُّل ثقوب الإبر. ويقول الأطبَّاء إن لديه إصابة شديدة في الدماغ.

البيت يعجُّ بالأقارب، والجَدَّتان تجلسان مرة أخرى حول مُعدَّات الشاي، وربما يُخطِّطن لكي تحمل ربيعة مرة أخرى إذا مات هذا الابن. ربيعة الآن عبارة عن صورة لامرأة يائسة وعاجزة تبكي باستمرار.

أرى الطفل مرة أخرى بعد بضعة أيام، ولكن جثة هامدة. هذه المرة أشعر بالتأكيد أنني أرى في وجه عبد الله ما يجب أن يراه في وجهي: إن موته أفضل بهذه الطريقة. لكن مظهر ربيعة مختلفٌ. كانت ستفعل أي شيء لتمسك بيديه الصغيرتين...

يؤكِّد عبد الله دائمًا أن بناته لن يرتدين الفرَّاشيَّة أو الحجاب. الفتيات الثلاث، وكذلك الأولاد، يذهبون إلى المدرسة. وهذان الشَّرطان -التعليم ونزع الحجاب- أخَذَا الآن يسيران جنبًا إلى جنب بالنسبة للفتيات.

التحَقَت فاطمة وفجرة بمدرسة للبنات في وسط المدينة. مستوى التعليم هناك هو نفسه كما في مدرسة الأولاد التي يرتادها محمد والبدري، وهي على الأقل خطوة متقدِّمة على عدم وجود مدرسةٍ بتاتًا، أو وجود مدرسة قرآنية للبنين فقط، تدرّس قراءة وحفظ القرآن فقط كما في الأيام الخوالي.

ليلى الصغرى والمفضَّلة لدى والدها، تذهب إلى ثانوية طرابلس، وهي مدرسة يديرها المجلس الثقافي البريطاني ويموِّلها جزئيًّا. يشمل التسجيل فيها كُلًاّ من الأولاد والبنات، والقاعدة المُتَّبَعة أنه يجب تسجيل أعداد متساوية من الطلاَّب الليبيين والأجانب في كل فصل دراسي. عمر المدرسة بضع سنوات فقط، ورسوم التسجيل مرتفعة، لكن ما أدهش الجميع هو أن المدرسة لديها دائمًا قائمة انتظار، سواء

من الليبيين أو غيرهم. على الرغم من أن التدريس باللغة الإنكليزية، إلَّا أن دراسة اللغتين العربية والإنكليزية إلزامية للجميع. وفي محاولة لتحقيق المساواة بين الطلاب؛ ترتدي الفتيات سترات رمادية من الفانيلَّا وبدلات الفانيلَّا الرمادية للطَّلَبة الذكور.

منذ فترة، سأل هاري عبد الله عمَّا إذا كانت الفتيات سيذهبن إلى مدرسة تدريب المعلِّمين في طرابلس، أو إلى الجامعة الليبية في بنغازي. فأجابه أن الوقت لا يزال مبكِّرًا لتغييرٍ جَذريٍّ في ليبيا، وأنه يجب أن تظلَّ الفتيات مجرد فتيات وزوجات. لكن بطريقة ما، أعتقد أنه سيغير رأيه بالنسبة لابنته ليلى.

بعد الاستقلال، وبدفعٍ من اليونسكو، أصبحت الحكومة الليبية الفَتيَّة مُدرِكةً تمامًا للحاجة الكبيرة للتعليم، للنساء والرجال على حدٍّ سواء. لكن غالبية الليبيين اختلفوا مع هذا الرأي. كانت الصحافة الليبية في الأيام الأولى للاستقلال مليئة برسائل الاحتجاج بعبارات مثل «التعليم المختلط عمل شيطاني!». «التعليم المختلط إهانة كبيرة للشريعة الإسلامية!»، وعرفتُ أن إحدى تلك الرسائل تقول: «نحن في ليبيا لسنا بحاجة إلى تعليم، أو تعليم مختلط. بدلًا من ذلك، نحن بحاجة إلى تعلُّم اللغات الأجنبية التي ستُمكِّننا من الحصول على وظائف مهمة على الفور، واكتساب الاعتراف بنا في كل مكان!».

ضمن عائلة عبد الله، يمكن للتوأم الآن الحديث قليلًا بالإنكليزية، أمَّا ليلى فتتحدَّث بطلاقة، وتكتبها أيضًا. وعلى الرغم من أن فاطمة وفجرة غير مُحجَّبَتيْن، إلَّا أنني لاحظتُ أنه لم يَعُد من الممكن رؤيتهما في الحديقة الأمامية، ولم تعودا تأتيان إلى بيتنا لقضاء مَهمَّات مُعيَّنة. وحدها ليلى التي تأتي وتذهب بحرية، وهي بمثابة رسول لطيف في جميع الأوقات. تتحمَّل الفتيات مسؤولية المساعدة في الأعمال البيتية والطهي، ومحاولة المساعدة في صنع الفساتين الخاصة بهن، والتي تتقنها ربيعة بمساعدة نماذج الحياكة التي اشتريتُها لها من المدينة. بينما يشتري عبد الله مواد الحياكة ويعاني

من العُقدة المعتادة للذكور اللِّيبيِّين حينما يضطرُّون لشراء ملابس الأسرة بأكملها.

لاحظت أن الأولاد ليست لديهم واجبات ظاهرة؛ فهم يختلطون مع جميع أطفال جورجمبوبلي، بغَضِّ النظر عن الجنسيات، ويلعبون كرة القدم، يركبون الدراجات، ويمارسون كافة الألعاب المختلفة، ويبدو أنهم دائما أحرار في اللعب كما يشاؤون.

الإنصات إلى وصف مراسم الزواج من شخص ليبي يختلف تمامًا عن سماعها من أجنبي، أو حتى القراءة عنها. لهذا السبب استحوذ عبد الله على انتباهنا بعد العشاء في بيتنا في إحدى الليالي، فهناك أسئلة لا يمكن للمرء أن يطرحها دون الدخول في تفاصيل مثيرة، لكن عبد الله كان يجيب عنها بتلقائيَّةٍ ودون تَردُّد.

يسترسل في حديثه: «في أعراسنا يكون جميع الضيوف حاضرين، أعني قريبين جدًّا، حينما يدخل العريس على العروس في أول اتصال بينهما. يجلس الضيوف في غرفة مجاورة، فيمكنهم من خلالها مشاهدة العريس وهو يسير إلى الغرفة حيث تنتظره العروس. ثم يختفي بالداخل والضيوف ينتظرون في لهفة... قد يضطرُّون إلى الانتظار ساعة واحدة فقط، أو قد ينتظرون خمسة أيام، كما يقال إنهم انتظروا ذات مرة في حفل زفاف أحد أفراد العائلة المالكة هنا! في هذه الأثناء، يشربون الشاي الحلو، ويأكلون الكعك حتى تأتي اللحظة الحاسمة، حينما يخرج العريس مزهوًّا -أو هكذا نأمل- من غرفة الزفاف مع دليل البكارة في يده».

«لكن ماذا يحدث، إن لم يخرج منتصرًا؟».

«يُستدعي الطبيبُ ليفحص الفتاة ويقرِّر ماهية المشكلة. فإذا قال الطبيب إن الفتاة ليست عذراء؛ يمكن عندئذ للزوج أن يفسخ الزواج؛ لأن العقد ينصُّ على أنها عذراء».

«لكن الفتيات والنساء الليبيات يَعِشن في عزلة شبه تامة، وأنت لديك ثلاث بنات لا يغادرن البيت إلا معك أو مع والدتهن. كيف يمكن أن تقع مثل هذه الفتاة في أي مشكلة؟».

أجاب عبد الله بابتسامة خبيثة: «في كل صباحٍ آخُذُ بناتي إلى المدرسة في الثامنة والنصف، وفي كل ظهيرة أعود بهنَّ. كيف أعرف ما يفعلنه في الساعات الفاصلة بينهما؟».

«لكنَّهنَّ يَرْتَدْنَ مدرسة للفتيات فقط».

«نعم، لكن ربما تطلب ابنتي من مُعلِّمها الإذن بالخروج إلى دورة المياه. فكيف أعرف بمن تلتقي في الخارج؟ إذا رَغِبَت فتاة ما في الوقوع في مشكلة؛ يمكنها دائمًا أن تفعل ذلك!» يقول عبد الله، الذي من الواضح أنه غيرُ واهمٍ حيال هذا الأمر.

أتذكَّر جيدًا حينما اقترح عبد الله أن أصطحب زوجته في رحلة بالسيارة لمدة ساعة للترويح عنها، بعد وفاة الطفل، فجاءت كلٌّ من ربيعة وأرملةٌ ليبية أخرى وفاطمة وليلى، السيدتان بالطبع ترتديان الفراشية. كُنَّ يَعِشن في جورجمبوبلي منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، ولم يسبق لهنَّ الذهاب إلى وسط مدينة طرابلس. فاطمة وليلى تذهبان إلى مدرستهما في المدينة، ولكن لم يسبق لهما الذهاب إلى طرابلس الحديثة.

كانت لديهن قائمة طويلة بالأماكن التي يريدونني أن أقودهنَّ إليها، إحداها هي محطَّة السكك الحديدية المهجورة التي كانت مليئةً الآن بالأشخاص، الذين لوَّحوا لهنَّ، ولا أعرف لماذا. على أيِّ حال، قمنا بجولة في المدينة، وكانت المرأتان تكشفان عن وجهيهما، بينما واصلتُ التوسُّل إليهما بتغطيتهما؛ لعلمي أنه ستحدث مشكلة بالنسبة لنا جميعًا إذا تمَّ التعرُّف عليهما. وتخيَّلتُ أن تطلب الحكومة من هاري مغادرة البلاد لأن زوجته تساعد الليبيات على الرذيلة!

لكن ربيعة كانت مُصمِّمةً على رؤية كل شيء، وكان نصف رأسها خارج السيارة معظم الوقت. أسمعُ ضجَّةً مستمرة من المحادثات المثيرة بينهنَّ جميعًا حول كل شيء مررنا به: المباني الجديدة والقديمة، الحافلات، سيارات الليموزين، الجِمال والحمير، وإشارات المرور التي أحببنها، ومقاهي الأرصفة التي سمعن عنها بأنها

مصائد بشرية للأزواج، والمباني الفيدرالية المبنيَّة في عهد إيطاليا وأثارت إعجابهنَّ. قُلن إن شارع كورنيش البحر جميل، لكن لم يُثِر حماستهنَّ لأنَّ لديهم بحرًا في بنغازي أيضًا، لقد أحببن المساجد وأضرحة الأولياء، لكن كاتدرائية الروم الكاثوليك، الشاهقة والمهيبة التي تقف في وسط المدينة، أثارت إعجابهنَّ أكثر. بعد ساعة من الدوران، كان لا يزال لديهنَّ العديد من الأماكن الأخرى التي يُرِدن رؤيتها، لكنني قلت إنني وَعَدتُ عبد الله ألَّا تكون الجولة لأكثر من ساعة.

توسَّلَت إليَّ ربيعة كي أعود إلى جورجمبوبلي بالمرور على فندق ليبي كانت تعيش فيه صديقة لها ذات مرة، وحينما فعلنا ذلك، وجدنا الفندق يبدو متهالكًا ومتداعيًا، وكانت السيِّدتان راضيتين للغاية، لكنني كنتُ حازمة وأعدتهنَّ إلى البيت؛ على أمل ألَّا يكون أحدٌ قد تعرَّف عليهنَّ في المدينة حينما عَرَّت المرأتان وجهيهما. في طريق العودة، قمن جميعًا بتحذيري وهُنَّ يَهززن سباباتهنَّ بجدية في وجهي: «لا تخبري عبد الله!».

أدركَتُ من هذه التجربة أنه إذا تمكَّنَت أي امرأة ليبية من الهروب من البيت؛ فقد تذهب إلى أبعد الحدود.

39. تأثير الملكة

قبل عامين من وصولنا إلى ليبيا، كانت الملكة الليبية فاطمة، ابنة عم الملك وابنة شيخ عربي معروف من أصل جزائري، وحفيدة صوفي إسلامي شهير- قد أنجَبَت طفلًا ووريثًا خديجًا في مستشفى قاعدة ويلوس الميداني. ثم بعد يومين تُوفِّي الأمير السنوسي الصغير، وريث المملكة الليبية الجديدة ووريث حركة الإخوان السنوسيِّين الدينية والسياسية، وكأن عبء هذه القيادة كان بالفعل أكبر ممَّا يمكنه تحمُّله. وهكذا تعرَّضَت السلالة الملكية والقيادة السنوسية والمملكة الجديدة والإخوان السنوسيِّين للخطر من جديد.

كان الملك المولود عام 1889 قد تزوَّج ثلاث مرَّات، وأنجب بالفعل عدة أطفال، جميعهم تُوفُّوا في سن الطفولة. لم تكن هذه مأساةً كبيرةً بالنسبة له كأب فحسب، ولكن أيضًا بصفته ملكًا، كان يعلم أنه طالما بَقيَ بدون وريث؛ فإن العرش سيكون سببًا لطمع عائلة السنوسي وللخلاف السياسي. الآن مرة أخرى، بعد وفاة ابنه الرضيع، كان الملك يتعرَّض للضغط، ويجري حَثُّه من قِبَل المستشارين السياسيين ومستشاري القصر على الزواج من أخرى.

في صيف عام 1955 تزوَّج الملك مرَّةً أخرى في محاولة أخيرة لإنجاب الوريث. كان هذا ضد رغبته تمامًا؛ لأنه كان مخلصًا بشدَّة لزوجته الحبيبة والرائعة فاطمة، التي تصغره بعشرين عامًا، كما أنها كانت ابنةَ عمِّه ورفيقته العزيزة، حيث تزوَّجَته في منفاه في مصر.

مع ذلك، وبضغط من مستشارين مُهمِّين، ذهب إدريس أخيرًا إلى القاهرة وتزوَّج هناك من شابَّة مصرية تدعى عالية لملوم، التي أصبح رَحِمُها بعد ذلك الأملَ الأخير للوريث المفقود. في ليبيا، لم تكن هناك أيٌّ من الفرحة والإثارة المعتادة للاحتفاء بالزواج. كان يشار إلى عالية دائمًا في ليبيا باسم «الملكة المصرية»، بينما يُطلق على فاطمة اسم «الملكة»، على الرغم من القانون الليبي الذي يمنح كلتيهما لقب

«زوجة الملك». كان لكلِّ ملكةٍ قصرٌ منفصل خاص بها في أجزاء مختلفة من البلاد، حيثما يرغب الملك في البقاء، ولم تكن للملكتين علاقة ببعضهما. يمكن للمرء أن يتخيَّل وضع الزوجة والملكة الجديدة، بينما هي تنتظر في بلد غريب، وفي قصر مُنعَزِل، على أمل أن تحبل بوريث للعرش.

سرعان ما انتشرت الشائعات أن الأمر قد تحقَّق. وبعد وصولنا مباشرة إلى ليبيا، ذهبت الشائعات بعيدًا، إلى حدٍّ أن تنسب الحمل إلى الزوجتين في الوقت نفسه، وتوقُّعات بأن سيدخلان مستشفى قاعدة ويلوس معًا لولادة الطفلين، وأن كليهما قد يَلِدُ الوريث!

لكن بمرور الوقت ثبت أن شائعات الحمل غير صحيحة، وعلى الرغم من أن الناس يتحدَّثون وينتظرون، ويتكهَّنون، وينقلون عن الأشخاص الذين يعرفون بالتأكيد- فإن أيًّا من هذا لم يتحقَّق: لم يولد للملك أطفال آخرون، ولا يزال العرش يفتقر إلى وريث.

في هذه الأثناء، كان يُنظر بغيرة مجنونة للدور الملكي من قِبَل فرعٍ من عائلته السنوسية، أي أحفاد ابن عمه المتوفَّى السيد أحمد الشريف، والد فاطمة. وما زاد الأمر تعقيدًا هي حقيقة أن إدريس لم يكن الملك فحسب، بل كان أيضًا زعيمًا للطريقة السنوسية، والذي يتمتَّع بسلطة دينية واسعة. بينما كان ابن الراحل السيد أحمد الشريف هو الخليفة المستقبلي المعترف به كزعيم للطريقة السنوسية، وبهذه الذريعة، ادَّعى بيت السيد أحمد الشريف أنه يجب اختيار واحد منهم كوريث لعرش الملك، ما لم ينجب الملك ولدًا.

لم يعترف إدريس مُطلَقًا بصحَّة هذا الادِّعاء حول عرشه، ورَبْطِه بوراثة الزعامة الدينية للطريقة، فقال بحزم، وبشكلٍ مُتكرِّر إن الملكية كانت امتيازاً علمانيًّا مُنفَصِلًا لا علاقة له بزعامة الطريقة السنوسية؛ فهو ليس زعيمًا للطريقة السنوسية لأنه كان الملك، ولم يصبح ملكًا لأنه كان زعيمًا للطريقة!

كان الملك إدريس مقتنعًا تمامًا -ولسببٍ وجيهٍ- أن نشأة البيت المَلَكي الليبي والنظام الملكي كان بسبب دبلوماسيَّته الذكية. وطوال

الحربين العالميتين، كان إدريس قد ربط بلاده عن عمدٍ مع الحلفاء، وعاد إلى الوطن مع الجانب المنتصر. لم يكن هذا بفضل ابن عم إدريس -السيد أحمد- الذي راهن بنفسه على الحصان الخاسر، حينما وضع بلاده تحت سُلطَة تركيا في حرب خسرها الأتراك!

كان المستشار الأقرب للملك منذ سنوات عديدة هو إبراهيم الشلحي، وهو رجلٌ مُختَلط الدَّم العربي والإفريقي، وصديق طفولة للملك، ومن عائلة جزائرية متميِّزة. الشلحي كان سنوسيًّا مسلمًا متديِّنًا، هادئًا وكريمًا، يتمتع برأي صائب، وإخلاص دائم للمَلِك، وفي العموم هو رجُلٌ يتمتَّع بإحساس قوي بالتفاني في خدمة الوطن والنظام الملكي. كان قد خدم إدريس لمدة أربعين عامًا، بما في ذلك 22 عامًا في المنفى في مصر، حيث تزوَّجَت فاطمة من إدريس في المنفى. ولم تطأ قدما إدريس الأراضي الليبية مرة أخرى حتى عام 1944، حين كانت البلاد تحت الإدارة العسكرية البريطانية.

في عام 1954، تمَّ تعيين الشلحي ناظرًا للخاصَّة الملكية، وكان معروفًا أن له تأثيرًا كبيرًا على الملك أكثر من أي شخص آخر. لقد قال الملك في كثير من الأحيان إن الشلحي هو بمثابة ابن له. لكن لسوء حظ الشلحي، كان الجميع يعلم ذلك، وتأثيره على الملك جعله هدفًا للمستائين من العرش من بين أحفاد السيد أحمد الشريف.

كان الملك حينها يسكن في قصره الأنيق المكوَّن من طابق واحد على الطراز الإيطالي في وسط مدينة بنغازي، ومعه ملكته فاطمة.

في العالم العربي يُعتقد أن القَرابة هي أفضل أساس مُمكِن للزواج، ويُقال إنها تشكِّل اتحادًا مثاليًّا. فاطمة، الأنيقة والذكية والموهوبة، كانت لسنوات الزَّوجةَ المختارة والمخلصة والمُحِبَّة للملك، في علاقةٍ لا تتعرَّض لأي انتقاد. كان كلاهما شديدَ التديُّن، ويقومان يوميًّا في الساعة الخامسة صباحًا لصلاة الفجر. هذا الإخلاص الصادق المتبادَل للزوجين الملكيين جعل الأمر أكثر مأساويَّةً أنهما فشلا في إنجاب أطفال. ومع إدريس في قصره كانت تقيم أعدادٌ كبيرة معتادة من أبناء العمومة والأصهار وأطفال أيتام وصِلات قُربى بعيدة، عادة

ما تعولها كل أسرة ليبية، وبالطبع هناك ناظر الخاصَّة الملكية، إبراهيم الشلحي.

أكتوبر في العادة هو الشهر الذي تكون فيه الشمس صافية، متوهِّجة، وحارَّة، وليالٍ باردة مع بريق النجوم في السماء. لقد ولَّت حرارة الصيف، ولا يزال الغبار الأحمر عالِقًا في هواء صحراء برقة، ونادرًا ما يثور القبليّ في الخريف. كانت شوارع بنغازي حارة وصامتة، وسط أنقاض المباني التي دمَّرَتها الحرب، وليس هناك سوى إبلٍ وحمير البدو تتحرَّك في البلدة الصغيرة...

في ظلِّ هذا الوضع الهادئ، غادَر الشلحي -في 5 أكتوبر 1954- القصرَ المَلكيَّ لوالده بالتبنِّي، وذهب لزيارة مكتب رئيس الوزراء بن حليم. وبعد محادثة قصيرة غادر المكتب متوجِّهًا إلى سيارته التي كانت متوقِّفةً في ساحة الكاتدرائية، وأثناء تقدُّمه باتجاه سيارته، قُتِل برصاص الشاب الشريف بن السيد محيي الدين السنوسي، حفيد السيد أحمد الشريف، وابن شقيق الملكة فاطمة نفسها. كان الدافع الوحيد للاغتيال -كما أعلن القاتل نفسه لاحقًا- هو التخلُّص من كبير مستشاري الملك؛ على أمل أن يستسلم الملك بعد ذلك لمطالب العائلة السنوسية ومنحهم خلافة العرش.

صُدِم الملك لمقتل أعزِّ أصدقائه، وبدلًا من التَّخلِّي عن العرش، وضع على الفور جميع أفراد العائلة السنوسية تحت الإقامة الجبرية الدائمة. بعد أن قيل له إن نفيهم -كما اقتُرِح في البداية- سيكون مخالِفًا للدستور. حوكِم القاتل في المحاكم الجنائية وأدين، كما فشل في استئنافه، وبعد أربعة أشهر من الجريمة تمَّ إعدامه. الاستثناءات الوحيدة للإقامة الجبرية في عائلة السنوسي كانت الملِكَة نفسها، وأبناء عابد السنوسي الثلاثة –الصِّدِّيق، وأحمد وعبد الله عابد، المعروف الآن باسم الأمير الأسود-. هؤلاء الثلاثة تبرَّؤوا من ابن عمهم القاتل، وأعلنوا ولاءهم الدائم للملك. جميع المحرِّضين أو المشاركين في هذه الجريمة هم من أقارب الملك والملكة. وأصبح من الواضح للجميع

أن امتلاك الكثير من النفوذ والحظوة مع الملك كان عملًا محفوفًا بالمخاطِر.

حينما انتقلنا إلى بنغازي أتذكَّر جيدًا رؤية منزل كبير ليس بعيدًا عن بيتنا، كان دائمًا مُحاطًا بحُرَّاس عسكريِّين يرتدون الزِّيَّ الرسمي. وقيل لي إن هذا البيت يؤوي الأسرة السنوسية المسجونة، التي نادرًا ما غامر أفرادها بالخروج إلى حديقة البيت. كما تمَّ إغلاق الشارع المؤدِّي إلى البيت بعلامة ممنوع الدخول، ولم نَرَ أي شخص باستثناء حرَّاس الدوريات.

في السنوات اللاحقة في ليبيا، أدركتُ أن جريمة القتل التي قام بها أفراد الأسرة المالكة تُجسِّد تقريبًا النوع الوحيد من جرائم العنف التي يرتكبها الليبيون: جريمة تُرتكب داخل دائرة الأسرة، أو بين المقرَّبين؛ بدافع الغيرة أو الكراهية الشخصية، وجريمة هدفها الانتقام أو منع بعض الظُّلم أو العار الحقيقي أو الوهمي. وعادة ما تصاحب الفعل حالة من الغضب العادل، ويشعر القاتل دائمًا أن فِعلَه مُبرَّرٌ تمامًا.

لأن الملك رجُلٌ عادلٌ وزوجٌ مُحِبٌّ للغاية؛ لم يسمح للعلاقة بين الملكة والقاتل بإلحاق الضَّرَر بهما. على أي حال، فالملك نفسه ابن عم القاتل. ولم يكن هناك في أي وقت أي سؤال حول الولاء الكامل من «زوجة الملك» لزوجها. كانت سُمعتها -ولا تزال- خاليةً من أي شائبة، ولم يُسمع عنها سوى الثناء عليها.

هذا الحدث العنيف قضى على بنغازي إلى الأبد بالنسبة للملك الذي غادرها غاضبًا، ولن يُقيمَ فيها مرة أخرى. كان دائمًا يفكِّر في رفاهية شعبه وتعليمه، فقد تبرَّع بقصر المنار في بنغازي ليكون مَقرًّا للجامعة الليبية الفَتيَّة. واليوم، يدرس فيها الشباب الليبيون دون كثير من التفكير في الرَّجُل الذي كان موته العنيف سببًا لهدية القصر. وسرعان ما أقام الملك بنفسه مسكنًا في طبرق، التي أصبحت الآن موطِنَه المُفضَّل.

بعد مقتل الشلحي أصبحت مسألة الخلافة الملكية أكثرَ حِدَّة، حيث قام الملك الآن بنفي أو اعتقال جميع الطامحين في العرش! ففي عام 1953، تمَّ تعيين شقيق الملك، محمد الرضا، وليًّا للعهد، ولكن حينما توفي الرضا في يوليو 1955، ثار السؤال مرة أخرى. ومن جديد اقتُرِح على الملك أن يتزوَّج، لكنه رفض.

ثم دار نقاش حول تحويل ليبيا إلى جمهورية، وأن يكون إدريس رئيسًا مدى الحياة. كان الاقتراح هو أنه بعد وفاة إدريس، يتمُّ انتخاب رئيس الجمهورية لولايةٍ مُدَّتها عشر سنوات، لكن هذا سوف يستلزم تغييرًا في الدستور. كما تمَّ اقتراح تغيير الحكومة من شكلٍ فيدراليٍّ إلى شكلٍ مُوحَّد.

حينما سمع شيوخ قبائل برقة الحديث حول نِيَّة تحويل البلاد إلى جمهورية احتشدوا في طبرق؛ للمطالبة بضرورة استمرار النظام الملكي، وأن يظلَّ الملك ملكًا، وأن يظل الدستور دون تغيير، وضرورة أن يستمر النظام الفيدرالي كما كان من قبل. وانحنى الملك مرة أخرى لتعبيرات الولاء له- والأهم من أي وقت مضى، كانت هناك حاجة إلى وريث للعرش، عندها استسلم لضغوط الدولة واتَّخَذ زوجته المصرية.

حينما أصبح من الواضح بعد عدَّة سنواتٍ أن الملك لن يكون له وريثٌ من زوجته المصرية، وأن الأمر يتطلَّب إيجاد مَخرَجٍ آخر من هذه الأزمة؛ طلَّق ملكته المصرية وأعادها إلى مصر في يناير 1958؛ وهذا تسبَّب في انزعاج الدولة المصرية، ومرَّةً أخرى استقرَّ الملك إدريس والملكة فاطمة في فترة من القناعة الزوجية الحقيقية، بدون ذرية.

لكن مشكلة العرش ظلَّت قائمة، وحتى قبل إعادة الزوجة المصرية إلى بلدها، قرَّر الملك ووزراؤه تعيينَ وَليٍّ للعهد. على الرغم من أنه لا يزال عديدٌ من أفراد عائلة السنوسي قَيدَ الاعتقال. وأخيرًا، تمَّ تعيين ابن الأمير محمد الرضا نجل شقيق الملك المتوفَّى وريثًا عام 1956، ليصبح بذلك -ورسميًّا- الأمير الحسن الرضا. وعلى الرغم من أن

الأمير ينتمي إلى العائلة السنوسية، إلا أنه بعيدٌ قدر الإمكان عن فرع السنوسي الذي كان يُمثِّله المطالبون بالعرش والمنفيون الآن.

الأمير الحسن ليس بأي حال من الأحوال رجُلًا منفتحًا على العالم؛ حيث نشأ في عُزلَةٍ نِسبيَّة، وتلقَّى تعليمه في الزوايا السنوسية، وهي جماعة إسلامية في بَرقَة تنتسب للطريقة الصوفية، ولأن تعليمه كان دينيًّا بالكامل؛ فلم يفعل ذلك شيئًا لتوسيع رؤيته للشأن العام. كما يغلب على تصرُّفاته الهدوء الشديد، مثل هذا التصرُّف الهادئ وهو ما دعى صحفيا فرنسيّا لوصف الأمير بأنه «حتى غير محبوبٍ، وأنه ببساطة يتمُّ تَجاهُله!».

في عام 1959 تزوَّج الأمير من شابة ليبية، وابنة عائلة بارزة في طرابلس، ولديه الآن ولدٌ ووريثٌ، عُمرُه خمس سنوات، وابنٌ رضيع، وابنتان توأمان. وقد تَمَّ ترتيب هذا الزواج لانتزاع الوَلاء للنظام الملكي في ولاية طرابلس، وتوحيد الإقليمين المتعارِضَيْن: طرابلس وبرقة. على الرغم من أن كل شيء يسير على ما يرام محلِّيًّا، إلَّا أن هذا الاتحاد بالزواج لم يُحقِّق نجاحًا دبلوماسيًّا ملحوظًا.

حينما تسلَّمتُ أخيرًا الدعوة التالية باللغة العربية كنتُ شديدة الاهتمام للحضور ورؤية جلالتها يُشار إليها بلقب الملكة، وكذلك أردتُ معرفة النشاط الذي كانت تقوم به:

«يَسرُّ لجنة الاستقبال في معرض طرابلس الدولي أن تدعوكم لزيارة المعرض بصُحبَة جلالة الملكة. يجب أن يكون الوصول قبل الساعة 9.30 صباحًا يوم السبت، 9 مارس إلى 16 مارس. سيكون مكان الاجتماع داخل المعرض أمام الجناح الوطني».

التوقيع:

لجنة الاستقبال

سيكون الدخول بالبطاقة فقط.

كانت هذه الدعوة وثيقةً ثوريَّةً من نتاج حقبة أخرى لمن يعرف ليبيا؛ فقد اعترفت الوثيقة بالملكة، واعترفت بأن المرأة تمثِّل رقمًا مُهمًّا

أكثر من كونها مجرَّد أداة للتكاثُر. لقد أظهرت الوثيقة احترامًا وأهمِّيَّةً لظهور المرأة خارج بيتها، كما جعلت حضور النساء للمعرض فِعلًا ينطوي على الاحترام، وهو نشاط كان شيوخ الدين يقفون ضدَّه.

لم تَصِل دعوتي إلَّا بعد أول يوم سبت ذُكِرَ فيها، وهذا نموذج للحياة الاجتماعية الليبية، والتي تَحدُث دائمًا بدافع اللحظة وليس بالتخطيط المُسبَق. شعرتُ بخيبة أملٍ بسبب تفويتي اليوم الأول، وقرَّرتُ أنه لا يوجد ما يمنعني من حضور يوم السبت الثاني. وتوجَّهتُ أنا وكاثلين إلى بوَّابة المعرض في سيارة الأمم المتحدة.

على الرغم من وقوف عقيدٍ في الشرطة خارج بوابات المعرض، إلا أن البوابة نفسها كانت تقف عليها عدة سيدات. وبمجرد الدخول، تجدُ الفتيات الليبيات هناك يرتدين زيَّ المُرشِدات. وكُنَّ تحت إشراف صديقتي القديمة خديجة، التي ترتدي الزِّيَّ الرسمي أيضًا. تشتهر خديجة بأنها أوَّل مذيعة ليبيَّة، وهو ما فعلته في ظلِّ الإدارة العسكرية البريطانية. وتذيع اليوم برنامج المرأة الشهير على الهواء باللغة العربية، ولديها حوالي عشرين فتاة ليبية تحت إشرافها المباشر. خديجة امرأة في منتصف العمر، تتنقَّل دائمًا سافِرَة الوجه في سيارة حكومية مرتدية ملابس أوروبية باهتة إلى حدٍّ ما ولكن مريحة، مع وشاح وردي اللون مربوط دائمًا على شَعرها الأسود الطويل، وهي اللمسة الوحيدة من البهجة التي رأيتُها مُقارَنةً بملامحها الجادَّة.

خديجة تُعتبر حالة شديدة الخصوصية، ومقبولة من الجميع على هذا الأساس. ومع ذلك لا أحد يتذكَّر على الإطلاق ما هي الظروف التي جعلتها ما هي عليه. ربما هي مزيج من شخصية صُلبَة بطبيعتها مع القدرة على الإمساك بكل فرصة تأتي في طريقها دون خوف؛ وهو ما جعلها المرأة الأكثر قوَّةً في ليبيا، وتحظى باحترام كبير.

كان قد سبق لها الزواج، لكنها تعيش الآن كامرأة عَزباء. درَسَت في إنكلترا وألمانيا، وتتحدَّث الإنكليزية والألمانية والإيطالية إلى جانب العربية، وتتواصَل مع الجميع في ليبيا. وتُكرِّس كلَّ مزايا تعليمها

ووضعها المتميِّز بإخلاص لتعزيز تقدُّم بلدها، وتستخدم كل لباقتها لتعزيز تقدُّم نساء بلدها.

يكاد يكون من المستحيل للمرأة الأميركية التي نشأت في مناخ الموافقة التامَّة على تمتُّعها بحريتها كامرأة أن تُقدِّر جوًّا يكون فيه أي قَدْرٍ من الاستقلال للمرأة هو مفهوم تجديفيٌّ ضد مبادئ الدين، ومع ذلك، بطريقةٍ ما، تمكَّنَت خديجة دائمًا من استغلال ولو جزء يسير من التقدُّم للأمام من أجل بنات جنسها، دون إزعاج الجنس الآخر.

بينما نحن نعبرُ المساحة من بوابات الدخول إلى الجناح الليبي، فمَن نرى يتقدَّم لمقابلتنا بأيدٍ ممدودَةٍ وأحر ابتسامات الترحيب غير صديقتي العزيزة ربيعة، زوجة عبد الله، الذي أصبح الآن وكيلًا في إحدى وزارات البلاد.

كانت ربيعة ترتدي معطفًا طويلًا أنيقًا وثقيلًا من الصوف البُنِّيِّ على الطراز الأوروبي، وهو تذكار من عطلتها في ألمانيا مع عبد الله. دائمًا ما تكون هذه المعاطف التي يختارها الزوج بُنِّيَّةَ اللون، كما لو أنها لتغطية الزوجة دون الكشف عن هويتها، بدلًا من الفراشية.

اليوم، يُلاحَظ بشكل خاص الشكل الدقيق لوجه ربيعة، بعينيه البنيتين اللوزيتين المتباعدتين قليلًا، ويُلاحظ بشكل خاص شَعرَها المشوط، المضفور، والملفوف بدقَّةٍ أعلى رأسها. كان وجهها البيضاوي مغطًّى بالبودرة جيدًا، والوشم على وجهها مُغطًّى تقريبًا، وربما تكون قد خضعت لعملية إزالة الوشم في ألمانيا كما تفعل عديد من السيدات الليبيات الآن.

أصبح الجوُّ دافئًا الآن، وكان معطفها يتدلَّى مفتوحًا لإظهار فستان أنيق وبسيط من الصوف البني، ويظهر كاحلاها المكسوَّان بالنايلون فوق حذاءٍ جلدي لامعٍ مع كعب بطول سبعة سنتيمترات.

«أنت أنيقة للغاية اليوم، يا سنيورة» أقول بإعجاب، بالإيطالية.

تبتسم بسعادة وتقول: «عبد الله اشترى لي كل شيء من ألمانيا!».

نقف مع مجموعة من نحو أربعين سيدة ليبية، غالبيتهن يرتدين الفراشيات، ووجوههن مكشوفة الآن، بينما ما لا يقلُّ عن اثنتي عشرة أخريات يرتدين ملابس أوروبية مثل ربيعة. وجميعهن بأحذية الكعب العالي. كنتُ قد ارتديتُ أنا والعديد من النساء الأوروبيات أحذيةً ذات كعب متوسِّط طلبًا للراحة أثناء السير على الطرق الحصوية في المعرض. وظللتُ أتساءل كيف يمكن لِّليبيَّات الوقوف حتى الصباح على هذه الركائز العالية لفترة طويلة، حينما همَسَت لي ربيعة بنظرة ألمٍ إلى قدميها:

«كيف يمكنك ارتداء هذه الأشياء طوال اليوم؟».

أعترف لها: «في الحقيقة لا أتحمَّل ارتداءها طويلًا، وأخلعها لحظة وصولي إلى البيت، ودائمًا ما أمشي حافية القدمين في البيت!».

وصلت الآن زوجات السفراء، اللواتي يُشكِّلن مجموعة خاصة، وتجمَّعن بالقرب من عدد من الليبيات من زوجات مسؤولين حكوميين بارزين. وبينما كنَّا نتطلَّع إلى بعضنا البعض بهدف وضع أنفسنا بشكل مناسب في التسلسل الهرمي المناسب للبروتوكول الذي بالطبع أتذيَّل قائمته، تصل سيارة سوداء طويلة ببطء إلى وسطنا وتتوقَّف.

ينفتح باب السيارة، وتخرجُ امرأة فتِيَّة -أو هذا ما يظهر لي؛ لأنها تبدو أصغر من خمسين عامًا-: إنها الملكة فاطمة، لأكتشف أنها رفيعة القامة ولطيفة المظهر، ومتوسِّطة الطول. تتبعها امرأة ليبية شابَّة ذات شَعرٍ بلون الحِنَّاء وبشرة فاتحة ووجه مستدير وعينين بنيتين كبيرتين، وتتبعها هي نفسها شابَّةٌ صغيرة رشيقة، وهي السكرتيرة الفلسطينية للمكة.

مظهرها اللطيف والودِّيُّ هو أوَّل ما يلاحظه المرء، ومن ثم حقيقة أنها دائمًا تغضُّ بصرها، وهي عادة طبيعية عند جميع الليبيات اللائي لا يرتدين الحجاب. لكن ابتسامتها رائعة، وتُقدِّم لوحة جميلة لوجهٍ جادٍّ بالطبيعة، لا يخلو من مَلاحةٍ وبشرة بيضاء بعض الشيء. جبينها عريضٌ مُنخَفِض قليلًا، ووجهها مُثلَّثيٌّ بذقن مُدبَّب، عظام وجنتيها مرتفعة وفمها واسع وأسنانها بيضاء كبيرة. فقط أنفها يفتقر إلى الأناقة؛ فهو واسع وممتلئ عند الخياشيم. شَعرُها أسود لامع، وكانت تسريحته تغطِّي رأسها بتموُّجٍ مُتصاعِد.

جسمها رشيق ونحيف، وهي صفة تكاد تكون غير معروفة بين الليبيات، اللاتي عادةً ما يَكُنَّ في حالة حملٍ دائم. وربما بسبب عدم وجود وريث؛ ظلَّ الجسم الملكي على رشاقته! ترتدي الملكة اليوم بدلةً من قطعتين من التويد الخفيف بقَصَّةٍ إيطالية من لون البيج، مع بلوزة من الصوف باللون البيج أيضًا، وقلادة صغيرة من اللؤلؤ، وبروش جذاب على الياقة. التنُّورة تصل إلى ركبتيها فقط، وساقاها مستقيمتان وأنيقتان فوق نعلها البيج عالي الكعب. بمجرَّد أن تنزل من السيارة، تبدأ في مصافحة كلِّ مَن حولها أو تقبيلهم أو تحيتهم بطريقة ما. يتم تقديم جميع زوجات السفراء، بعضهن ينحنين بأدبٍ،

والبعض يقبِّلن يدها. كما تُقبِّل الملكة العديد من الليبيات على الخدين، ثم تأخذها خديجة من ذراعها وتبدأ الجولة.

تتبعُ الملكة عن كثب السكرتيرة الفلسطينية الشابة التي ترتفع تنُّورتها فوق ركبتيها، والتي سرعان ما ترزح تحت ثقل مجموعة متنوِّعة من الهدايا التي يتم تقديمها للملكة وهي تتجوَّل بين الأجنحة. تتبع الملكة أيضًا، وتواجه مشكلةً مع حذائها ذي الكعب العالي، شابَّةٌ جميلةٌ شَعرُها بلون الكستناء. وتخبرني ربيعة أنها زوجة شقيق وليِّ العهد وأخت زوجته، وكانت ترتدي معطفًا وفستانًا من الصوف الخزامى.

تتجوَّل الحاشية الملكية على أرض المعرض ويسير خلفها نحو ستين أنثى أو أكثر. أول جناح ندخله هو الفنون والحرف الليبية، فأسعدني ذلك وتفاجَأتُ بالتحسُّن الهائل الأخير في بلاط الزينة المصمَّم محليًّا، حيث يتم استيراد جميع البلاط هنا من إيطاليا، لكن مدرسة الفنون والصنائع تزيِّن الآن مجموعة متنوِّعة من التصاميم المحلية لاستخدامها في الطاولات والجدران. وقبل بضع سنين كانت هذه التصميمات تفتقر تمامًا إلى الخيال أو اللون أو الفن، أمَّا اليوم فيبدو أن الفنان يستخدم موضوعات الصحراء، والإبل، والنباتات المحلية، والأسماك، وكذلك تأثير تصاميم الفسيفساء الرومانية أو اليونانية المبكِّرة، مثل تلك الموجودة في جميع أنحاء ليبيا في الأرضيات والأرصفة القديمة.

هناك عديد من المواد المصنوعة من الجلود المحلية، والتي يتمُّ الآن دباغتها بشكل صحيح بفضل نصيحة خبراء الدباغة في منظَّمة الأغذية والزراعة. وهناك معروضات من الأعمال الفضية المحلية. لقد رأيت مصنوعاتٍ فضيَّةً في الأسواق في جميع أنحاء ليبيا، حتى في أسواق الواحات الصغيرة في الصحراء، لكنني ما زلتُ أعتقد أن أفضل المشغولات الفضية الليبية هي التي قدَّمها الحرفيُّ الإيطالي أنجليني، في طرابلس، ويعمل مع الليبيين في مجال التصميمات.

في الجناح الليبي، تم تقديم هدية للملكة، وهي مرآةُ مِنضَدة زينة يدوية مُثبَّتة بالفضة. وحينما غادرَت المكان، صافحَت كل مضيفة وشكرتهنَّ جميعًا على جهودهنَّ. وكانت أبواب الأجنحة كلها تحت حراسة المرشدات الليبيات.

الجناح اليوغوسلافي في الغالب عبارة عن آلات، ولكن حتى بالنسبة لهذا فالملكة لديها ابتسامة لطيفة دائمًا. كانت المعروضات التشيكوسلوفاكية والبلغارية هي المزيد من الآلات، وهي مَضيَعة كبيرة للوقت في رأيي! فمثل هذه الدول تدفن خصوصيتها وتتخلَّى عن فنونها اليدوية في محاولة لإنتاج المزيد والمزيد من التقليد الرخيص للسِّلَع الغربية. فهنا تجد ملابس النايلون الرخيصة، وثياب الجينز الأزرق المقلَّد، وآلات كاتبة مُقلَّدة، وآلات إضافية، وولَّاعات السجائر، ودرَّاجات مُقلَّدة عن الماركات المشهورة. المرحلة الأخيرة هي دخول الجناح الهندي المليء بالدَّرَّاجات وأنابيب الرصاص والمفاصل وأحواض الاستحمام والمراحيض، لكن لم ألحظ وجود الساري الهندي أبدًا!

ورغم أن الملكة زارت الجناح الروسي يوم السبت الماضي، إلا أنها تعود إليه اليوم مرَّةً أخرى بطلبٍ خاصٍّ من الروس الذين يرغبون في تقديم هديَّةٍ، ثبَتَ أنها باقة ضخمة من الورود الحمراء، مصحوبة بعدد من ربطات العنق الحريرية المصنوعة يدويًّا للملك، وسمعت تعليقًا ينتقد زيارة الملكة للروس مرَّتَيْن، لكنني اعتقدتُ أن الروس كانوا أذكياء في ترتيب ذلك.

تَبيَّن أن المعرض المغربي هو عرض آخر للآلات والسِّلَع المُعلَّبة، مع أمثلة قليلة فقط من السجاد الرائع الذي يصنعونه، والقليل جدًّا من أعمالهم الجلدية المميزة والجميلة. قضيت الوقت هنا أعرُجُ مع ربيعة التي كانت قدماها تؤلمانها وتحاول العثور على شَربَة ماء. تمَّ ترتيب المعرض بحيث لا تتوفَّر مياه الشرب؛ على أمل حثِّ الناس على الذهاب للمطعم ومقهى المشروبات، وهو مُغلَقٌ اليوم. حينما نجتاز

معرض الطاقة الكهرومائية، نرى كُتلةً من الأنابيب المختلفة مع تيارات كبيرة من المياه تتدفَّق، ولكن لا توجد قطرة واحدة للشُّرب!

الملكة لن تذهب إلى الجناح التونسي؛ حيث زارته الأسبوع الماضي. لقد كنتُ هناك من قبل، لكنني أريد لربيعة أن تراه، وندخل معًا القُبَّة التونسية التي تتمحور حول فِناء به نافورة مياه، وهو الجناح الوحيد الذي يتميز بفَرادَته المعمارية. تتدلى من الجدران فُرُشٌ صوفية منسوجة جميلة بتصميمات عربية وألوان بربرية زاهية، وشالات حريرية منسوجة يدويًّا، وسجاد من القيروان، وحصائر من القصب. يتمُّ عرض الأطباق الرائعة المصنوعة يدويًّا من النحاس الأصفر والفضي والأوعية والأطباق الضخمة بشكل كامل، وهناك مجموعة كبيرة ومتنوِّعة من الفضة والذهب والمجوهرات المصنوعة يدويًّا والخرز الملوَّن والأزرق التونسي والأزرق المتوسطي المُشرق للأبواب في تونس، ويتم استخدام اللون الأزرق للنوافذ الشبكية والدرابزينات المصنوعة من الحديد المطلي باللون الأزرق البحري. وهناك أقفاص الطيور الفضية المشهورة المزخرفة مع طيور أو بدونها، موجودة هنا بجميع الأحجام. هناك، بعض نماذج الآلات ومعرض للفاكهة التونسية المعلَّبة. ولا تزال المصنوعات اليدوية التونسية أكثر سِلعَةً تُصدِّرها تونس.

انضممنا مرة أخرى إلى المجموعة الملكية التي تدخل الآن إلى جناح الولايات المتحدة الأميركية، والذي كما يتخيَّل المرء عبارة عن آلات، ولا يحتوي على أي مشغولات يدوية يمكن لآلةٍ أن تفعلها. كنت أشعر بالملل، حينما بدأت تصل إلى أنفي رائحة رائعة. حيث يتمُّ تحضير القهوة في مطبخ آلي بالكامل من قِبَل بعض زوجات السفارة الأميركية، وهنا تَدبُّ حياة جديدة في حشدنا المرهَق، ونحن نقترب أكثر... ليس من الملكة، ولكن من القهوة.

إنه منتصف النهار الآن، ونتساءل جميعًا عمَّا إذا كانت الملكة ستستمرُّ في جولتها لفترة أطول. بنك باركليز لديه معرض صغير من طابقين، حيث تنتظر جان باسيت خارجه، وهي امرأة قوية للغاية، وزوجة مدير البنك البريطاني. يبدو أن الملكة نُصِحَت من قِبَل صديقة

ليبية بأنها لا يجب أن تفوِّت فرصة زيارة بنك باركليز! لذا، وبلُطفٍ كما كانت دائمًا، تستدير نحو البنك. وعند صعود السُّلَّم تعاني المرافقات بينما تقف بقيتنا أسفل درجات.

انتشرت الشائعات بأن شيئًا مُثيرًا ينتظرنا: الجناح الأخير احتلَّته مؤقَّتًا الإيطالية البدينة الشهيرة عالميًّا، دونًّا كانوني، التي تَزِن نحو ثلاثمائة كيلوغرام، وتُعتَبر من أشهر أسباب الجذب في قسم لونا بارك في المعرض. عُرِضَت دونا كانوني، وكإشادةٍ بزيارة الملكة ويوم المرأة في المعرض كانت مشاهدة السيدة دونا بدون مقابل في ذلك اليوم.

تدخل الملكة الجناح أوَّلًا، لكن لا أعرف ما هي ردود أفعالها، حيث أثبتت دونا كانوني أنها تحظى بشعبية كبيرة لدى الليبيَّات، لدرجة أنني لم أتمكَّن من ولوج المدخل، وسرعان ما أتوقَّف عن المحاولة؛ فجلست أنتظر أمام المكان. بعد عشرين دقيقة من الازدحام، تراجَعَت أعداد كبيرة من البشر للخروج من الأبواب المزدوجة للجناح، في قلب هذا الحشد، يُشاع أن دونًّا كانوني نفسها، بعد أن قدَّمَت لهم كل شيء في يوم المرأة، يتمُّ الآن اصطحابها إلى مقرِّها في لونا بارك. وتتدفَّق تلك الكتلة من اللحوم الحية عائدةً نحو وسط المعرض، حيث تكون الملكة الآن مستعدَّةً لتوديعها. وباستثناء الملكة، كانت دونا هي الأكثر نجاحًا ولَفتًا للأنظار في ذلك اليوم.

بابتسامتها الملكية الأخيرة، تصافح الملكة فاطمة كلَّ مَن حولها، وتتبادل القبلات، وتحتضن تلك الهيئات المغطَّاة بالفرَّاشيَّات، المغطاة بالشراشف، وكثيرات منهن مثل جَدَّة لها، وهي بينهنَّ بشخصيتها المتميزة وتلتفت إلى السيدات الغربيات فتصافحهن بابتسامة دافئة. ثم تدلف إلى السيارة السوداء الطويلة التي تنتظرها، وإلى جوارها تقفز الوصيفة ذات الشَّعر الأحمر، والسكرتيرة الصغيرة. وانطلقت السيارة من أرض المعارض بين صفَّيْن من المرشدات. ثم ترتفع يد فاطمة، ملكة الصحراء، مودِّعةً الحاضرين بلطف.

تساءلتُ: هل حدث هذا بالفعل، وماذا يعني ذلك؟

نظَرتُ إلى ربيعة وهي تتنهد بجواري وتتذمَّر: «قدماي!». كانت الآن تحمل حذاءها عالي الكعب في يدها، وترتدي نعلًا قديمًا من القماش المسطَّح الذي استعارته من إحدى المرشدات، صديقة ابنتها. معطفها فوق ذراعها، وشعرها يتدلى في ضفيرتين طويلتين بلون الفحم بجانب وجهها الباهت الآن حيث يظهر الوشمُ الأزرق مرة أخرى. كانت تكافح لارتداء معطفها الطويل على الرغم من الحرارة، وتعديل حجابها الأسود الثقيل لإخفاء وجهها، وتقول: «أنا ذاهبة الآن. فقد أرسل عبد الله السيارة». قبَّلَتني، وتنهَّدَت مرَّةً أخرى؛ ربما لشعورها بالراحة لعودتها إلى البيت، أو من السرور لخلع حذائها، أو لندمها على الاختباء وراء الحجاب مرَّةً أخرى، وتقول: «أرجوكِ تعالي لزيارتي قريبًا».

أتساءل: ما الذي ستتحدَّث عنه الليبيَّاتُ عند وصولهن إلى البيت؟ هل حول المعروضات التي رأينها في المعرض؟ عن الآلات؟ عن المرأة البدينة دونا كانوني؟ أو عن ملكتهم الكريمة التي سارت معهنَّ وتحدَّثَت بحُرِّيَّة، ولو ليوم واحد فقط؟

40. ليلة باردة

«سيارة الغيبسي لن تتمكَّن من أداء المَهمَّة يا سنيورة!» ظلَّ إمبراتوري، السائق الإيطالي لسيارة اللاند روڤر، يخبرني طوال الوقت الذي كنَّا فيه في فزَّان. لكن الغيبسي دائمًا ما تُخيِّب الظن وتؤدِّي عملها بنجاح.

في النهاية، وصلنا إلى اختبار بحر الرمال، وهو أحد الكتل الرملية العديدة في ليبيا. «يجب أن تذهبي يا سنيورة على الطريق بين سبها وبراك، وتقابلينا في براك. اللاند روڤر فقط يمكنها عبور بحر الرمال هذا!».

لكنني أصرُّ على أن الغيبسي قوية مثل اللاند روڤر. لقد ذهبَت إلى كل مكانٍ قَطَعَته سيارة اللاند روڤر حتى الآن. وستعبر بحر الرمال!

كانت ابتسامة إمبراتوري نصفَ مازِحةٍ، وذلك من طبعه. أنا متأكِّدة تمامًا من أنه لا ينوي رؤيتنا نبدأ غدًا مع الغيبسي- وهو ما نعتزم القيام به!

في صباح اليوم التالي، استيقظنا في السادسة، وتمَّ تحميل السيارات الثلاث ووقَفَت الغيبسي في أتمِّ استعداد. مالكولم وعوض في واحدة، وإمبراتوري في أخرى، وأحمد وبدر الدين في اللاند روڤر الثالثة، وهاري وأنا في الغيبسي، مع هاري وراء عجلة القيادة.

قام إمبراتوري بفحص كل شيء من أجل الاستعداد للرحلة في جميع السيارات، والآن يراقبُنا أنا هاري بقلق. بينما ننتظر انتهاء أحمد من تناول قهوته في المطعم، وحينما يخرج أحمد، يسرع إمبراتوري إلينا ويقول متضرِّعًا: «لا يجب أن تأخذا هذه السيارة من فضلكما! إنها ليست قويَّةً بما فيه الكفاية!».

«لكننا اشتريناها للسَّفَر على الرمال. مَن يقول إنها ليست قويَّةً بما فيه الكفاية؟».

«الشرطة هنا يقولون إن سيارتين من النوع نفسه لم تتمكَّنا في العام الماضي من عبور الرمال إلى براك».

«أوه، الشرطة! ربما كان لديهم أنواع قديمة مُعطَّلة! على أي حال، هم لم يحافظوا على صيانة سياراتهم أبدًا. أمَّا هذه فمن موديل مختلف، وبحالة جيدة، ويمكنها إنجاز العبور، وأنا على ثقة من ذلك!» كانت الغيبسي مصدرَ فَخري الخاص، حيث اشتريناها خصِّيصًا لأتمكَّن من مرافقة هاري، وسيارات الفاو في الرحلات الصحراوية.

«ماذا تقول هاري؟».

يردُّ هاري بهدوء: «أوه، سنحاول ذلك».

لكن إمبراتوري لم ينتَهِ بَعدُ، فقال: «دعني أقود السيارة، أو حتى أحمد. أنت لست معتادًا على القيادة في الصحراء يا سنيور...».

«لا!» صرختُ فيه، فلن أرى زوجي الطيب قد تعرَّض لحرمانه من حقِّه في الانضمام إلى نُخبةٍ ممَّن اجتازوا بحر الرمال، أو أن أدع إمبراتوري يقوِّض ثِقَته بنفسه. «هاري سائق صحراوي جيِّد، يا إمبراتوري. سنصل إلى هناك، وسترى!».

يهزُّ إمبراتوري رأسه وقد بدا عاجزًا عن إقناعنا، ثم هزَّ كتفيه بأسى، وتقبل الهزيمة.

يقول هاري: «دعونا نذهب. سوف نتعثَّر جميعًا إذا توقَّفنا هنا وبقينا نتجادل!». نحن نهدف الآن للوصول إلى شريط من بحر أوباري الرملي الذي يجب عبوره في الصباح الباكر بينما لا تزال رطوبة الليل على الرمال لتشكيل قشرة مناسبة، وذلك ما قيل لنا.

نقابل دليلنا في ضواحي سبها، وبقيادة إمبراتوري تتحرَّك سياراتنا الأربع بالتَّتالي، عبر متاهة من حدائق النخيل المهجورة وتتبع العديد من المنعطفات الحادَّة لدرجة أنني أفقد كلَّ إحساسٍ بالاتجاه.

وصلنا إلى حافّة رملة زلاف، وهي بداية المنطقة الرملية التي تُنذِر بالكثبان أمامنا. هنا نتوقّف ونُفرِغ إطاراتنا قليلًا من أجل الحصول على مزيد من الجَرِّ السطحي.

يلقي إمبراتوري نحوي ونحو هاري نظرةَ عتابٍ أخيرة، ونبدأ السير مرة أخرى. الدليل يجلس مع إمبراتوري ويُرشِدنا إلى الطريق الأكثر أمانًا. ولكن بما أن الشيء المهم هو عدم فقدان الزَّخم أو التَّردُّد للحظةٍ؛ فإن السيارات الأربع تنحرف في أي وقت من الأوقات من تلقاء نفسها، غارقة في منظرٍ طبيعي مُشمُشيِّ اللون من الكثبان الرملية المتدحرجة وكأنها منحوتة.

براك، المستهدفة، تقع شمال سبها، والكثبان هنا تقع بشكل عام بين الشرق والغرب، في البداية نسافر شمالًا عن طريق الالتفاف حول نهايات الكثبان، ثم نلقي نظرة خاطفة على الدليل الذي يقف فوق إحداها، ومن الواضح أن فكرته هي أن نتبع نظام صعود وهبوط متتاليًا، فنمتَثِل لفكرته التي تُثبت أنها أكثر إثارة، مثل ركوب الأفعوانية، فقط دون ضمان الوصول بأمان إلى نهاية الرحلة: الكثبان الرملية مرتفعة ومنحدرة، ولا يمكنك رؤية الجانب الآخر حتى تصل إلى القمة، ويجب أن يتمَّ ذلك بأقصى سرعة، وإلا ستغرق في الرمال.

في كثير من الأحيان، يكون الجانب البعيد من الكثبان الرملية أكثر انحدارًا من الجانب الذي تصعده، وبمجرد أن تصل إلى القمة، تنطلق لأسفل بشكل أسرع. وعادة ما يكون القاع هو منطقة الخطر للرمال الأكثر ليونة، حيث قد تلتصق في كومة لُبِّيَّة، قِمَّتها أكثر صلابة، وتتكوَّن من حبيبات الرمل الثقيلة، والتي تقاوم قوة دفع الرياح فتستقر على القمة.

أثناء سفرنا، أشعر بالبرودة الحادة تتصاعد من كتلة الرمال تحت عجلاتنا، قبل أن تدفئَها الشمس وتليِّنها. الرمال المبرَّدة لا ترتبط بالصحاري بالنسبة لي، لكنني تعلَّمتُ أن الرمال الليلية شديدة البرودة، تماثِل الرمال الساخنة بعد أن تلسعها حرارة الشمس.

تئنُّ الغيبسي بهدوء وهي تحثُّ السير، دون اهتزاز أو ضوضاء

ميكانيكية، ويبدو أن كليهما يمتصُّهما اتِّساع سطح الرمال. لا بُدَّ وأنَّ الأصوات الناعمة والخافتة للسفر على الرمال أحد أسباب تسمية هذه الكتل الضخمة بـ «بحار الرمال». إن الإحساس بإطارات سيارتنا السريعة التي تسير في الرمال يشبه الإحساس بقارب عريض وبطيء يندفع برفق وهو يشقُّ تيار المياه.

هاري يقود بشكل جيد؛ فلم نَغُص في الرمال في أي وقت، وهذا هو الاختبار الحقيقي. لا يوجد مجالٌ أبدًا للتردُّد في اتخاذ القرار ولو لثانيةٍ واحدة، ولا حتى لنظر السائق حوله لاستكشاف المكان. هو يتجنَّب استخدام وضعية الدفع الرباعي من أجل الحفاظ على سرعة سبعين كيلومترًا في الساعة، ويبدو هذا مثل وضعية الطيران. ولا يمكننا الحصول على مزيد من السرعة ونحن نقود بإطارات ناعمة على الرمال. وفي الوقت نفسه، تتقارب سياراتنا وتتباعد، ففي لحظة واحدة تُشاهَد مُجتَمَعة، وفي اللحظة التالية تتفرَّقُ جميعها. وهي تبدو مثل أربع خنافس ضخمة مصابة بالجنون.

الكثبان تحيطنا من كل مكانٍ الآن دون أي اختلاف واضح بينها، ونحاول ألَّا نَغفَل عن الدليل، أو إذا حدث ذلك نحاول تتبُّع مسارات إطاراته على الرمال. لكن هذا لا ينجح أحيانًا، فكدنا ذات مرَّة أن نصدم سيارة أحمد لأننا صعدنا التَّلَّة نفسها، وأحمد أيضًا كان «يتبع الدليل»، لكن من الاتجاه المعاكس!

إمبراتوري ومعه الدليل لديه مشكلته الخاصَّة؛ لأنه أيضًا لا يجرؤ على التباطؤ. وعند وصوله أسفل الكثبان الرملية، يختفي عن الأنظار، لكن إذا تمكَّنَّا من تجاوز الكثبان الرملية في الوقت نفسه؛ فسوف نجدهم مرة أخرى. السرعة التي يتمُّ بها كل شيء هي مبعث الإثارة لي. فليس هناك وقتٌ للتفكير في أمرٍ آخر.

بمجرَّد أن يعْلَق أحمد في حوض كثيب رمليٍّ ما؛ لا أحد منَّا يجرؤ على التوقُّف للمساعدة حتى نتمكَّن من الصعود على قِمَّة الكثبان الرملية البعيدة، ثم نعود أنا ومالكولم وعوض وهاري لمساعدته، وحينما يعود إمبراتوري والدليل يجدنا قد خلَّصناه من الرمال. وبعد

ساعتين من القيادة على الكثبان، بدأنا في رؤية ما وراء الرمال المشمشية المتموِّجة، وبانت لنا الخطوط العريضة الصَّلدَة للحجر الرملي النوبي. لون الصدأ هو الأقرب، بينما الأزرق والأسود في الجانب البعيد. الآن نرى هناك المخطَّط الأزرق الغامق لهضبة براك، ووادي الشاطئ حيث تقع براك، مع تلال ورمال شاحبة بيننا وبين الواحة تبدو واضحة تحت الشمس.

يتسلَّق إمبراتوري والدليل قِمَّة مُرتَفَع من الحصى ويشير إلى بقيتنا بالوقوف، فتصطف السيارات والجميع يقفز للخارج، بينما يصرخ الدليل بأننا نجحنا في العبور! يصافح الجميع بعضهم البعض؛ فهذه هي المرة الأولى لأيٍّ مِنَّا في هذا الإنجاز. ويسرع إمبراتوري نحو الغيبسي ويربِّت على هيكلها في استحسان، بدلًا من مصافحة يدها!

كم الجو بارد هنا! الشمس شاحبة فوقنا، والرمل لا يزال رطبًا من تحتنا ويطلق أنفاسًا باردة. في الأثناء، نقوم جميعًا بالتقاط الصور؛ فكلٌّ مِنَّا عازمٌ على تثبيت هويَّته كبَحَّارٍ في بحر الرمال، باستثناء هاري، الذي بعد أن التقط صورة لي مع الغيبسي ابتعد للقيام ببحثه المعتاد. لكن لا وجود لعيِّنات النبات هنا. كان هاري، يشمُّ طريقه على امتداد قمَّة الكثبان الرملية، وظهر لي أن أنفه كان في مستوًى أقلَّ من الركبتين. لكن هاري يعرف أن القِمَّة ليست مكانًا للبحث عن الغطاء النباتي؛ لذلك لا بُدَّ أنه يشمُّ رائحة شيء آخر. إن لم تكن نباتات، أقول لنفسي، يجب أن تكون من القطع الأثرية! بالطبع! هذه هي المنطقة المجاورة حيث أخبرنا هنري لو هورو -من تونس- أنه عثر على أحجار من العصر البليستوسيني. وعلى بُعد مسافةٍ مِنَّا استقام هاري وهو يمسح شيئًا بكُمِّ قميصه. أسرَعتُ نحوه لأجد أنه يحمل قطعة صوَّان بُنِّيَّة على شكل رأس السهم، بطول حوالي اثني عشر سنتيمترًا في ثمانية، وبسُمْك سنتيمترين في المنتصف، لكنه يتناقص ليتحوَّل إلى حافَّةِ قَطعٍ حادَّة في كل مكان، إنه منحوتٌ يدويًا بطريقة ما. وأتساءل إن كان فأسًا من الصَّوَّان؟

«هل هو فعلًا ما أظن؟» أسـأله.

«نعم، هو كذلك».

«كم عمره؟».

«حسنًا، من العصر البليستوسيني الأول أو الأوسط، على ما أعتقد. حوالي مائتين وخمسين ألف سنة قبل الميلاد. سأضطرُّ إلى التحقُّق من ذلك في بلدي من خلال 'جمعية العصر الحجري'، لكنني أعتقد أنه من النوع الأشيلي».

يأتي الآخرون الآن للنظر إلى القطعة الأثرية، لكن عمرها لا يثير إعجاب الليبيين الذين يعيشون في بلاد العصر الحجري، مثلما يثير إعجاب الغرباء، ولا سيَّما أنا؛ ففي بلدي يُعتبر أي شيء صُنِعَ قبل مائة عام من التحف الأثرية.

مع ذلك، ووفق تأكيدات دليلنا على وَفرَة «مثل هذه الأشياء» هنا، بدأنا جميعًا في البحث بين الحصى والرمل. ولكن ربما مسموحُ بالعثور على فأسٍ واحدٍ فقط في اليوم؛ حيث لم يجد أحد شيئًا.

«كيف وجدتَه؟» أسألُ هاري. «هل استخرجته من الأرض؟».

«ليس تمامًا. تذكَّرتُ أن هنري وجد واحدًا هنا؛ لذلك فتحت عيني جيِّدًا. جمَعتُ حفنة من الرمل فقط لأشعر ببرودتها، وهذا كشف لي فأسَ الصوَّان. أفترض أنه بينما تُحرِّك الريحُ الكثبان الرملية، يتمُّ الكشف عن هذه الأشياء تدريجيًّا».

خلال أسبوع. قمنا بزيارة واحات مرزق وتراغن والقطرون. وعقَد كلٌّ من هاري وبدر الدين وأحمد لقاءات مُفيدةً مع مسؤولي فزَّان، وتمَّ التوصُّل إلى اتفاقيات. إنها نهاية شهر نوفمبر الآن، وآخر ليلة لنا في الخارج. كنتُ أرتجف طوال الوقت، باستثناء نوبة عَرَقٍ قصيرة في منتصف النهار في شمس الظهيرة الباهتة. وهذه المرة يتَّفِق الجميع معي على برودة الجو.

نُخيِّمُ الآن في أرض منبسطة تمامًا على الرمال والحصى، أو على ما يبدو أنه سهل منبسط؛ فلا نرى أيَّ أثرٍ لتَلٍّ، ولا كثيب، ولا شجرة أو شجيرة في الأفق، والرياح تجتاحنا. إنه موقع تخييم سيئ، لكن مع حلول الظلام في السادسة، ليس لدينا خيار آخر. لدينا ناران في المخيم: واحدة للشاي، وواحدة لطبيخ لحم الخروف الذي أُعِدُّه مع بدر الدين، الذي اشترى قطعة كبيرة من لحم الضأن المذبوح حديثًا في آخر قرية مَرَرنا بها.

بينما يَجهَز الطبيخ على نارٍ تُغذِّيها الرياح الرملية، نتقاعد مع مشروباتنا إلى أكياس النوم للدفء. هاري ومالكولم وأنا نشرب الويسكي، والليبيون لديهم شاي ساخن. يقوم بدر الدين بتشغيل راديو الترانزستور الخاص به، الذي يبثُّ الأغاني العربية من راديو القاهرة. تنطلق منه أغنية أحبُّها بشكلٍ خاص، ويقول بدر الدين إنها المفضَّلة في ليبيا الآن، وهي «أنا لك على طول». سأحاول شراء شريط الكاسيت في طرابلس لجورج الذي أَحَبَّ الموسيقى العربية هنا. كم مضى من الزمن منذ مغادرته طرابلس! ومع ذلك فالصحراء تجعل حياتنا تبدو وكأنها حلم.

الطبيخ جاهز، وهو أفضل ما طهونا على الإطلاق في هذه الرحلة. لا شك أن بدر الدين طباخ أفضل مني. نقوم بتنظيف الأواني للصباح ووضعها بالقرب من أواني القهوة، ونملأ الغلَّاية بمياه مالحة إلى حدٍّ ما من آخر بئر واحة مَرَرنا بها. ثم تزداد برودة الطقس طوال الوقت، وقرَّرتُ أن أنام مرتديَةً كامل ثيابي، بما فيها كنزة هدسون.

هاري لديه فكرة. حيث أخرَج قطعتين من المشمَّع الثقيل من السيارة، ووضع واحدة على الأرض، من حيث تهبُّ رياح باردة شديدة. والآن نَصُفُّ أسِرَّتنا جنبًا إلى جنب: هاري في الطرف، وأنا بجانبه. وآخر شخص يدخل حقيبة نومه يقوم بوضع قطعة المشمَّع الأخرى ليغطِّي بها ستَّةً منَّا! مع بعض الصعوبة، وبسبب ثيابي؛ أجد صعوبة في الدخول إلى حقيبتي بعد أن دفَعتُ حذائي إلى الداخل لتجنُّب العثور على عقارب فيها في الصباح.

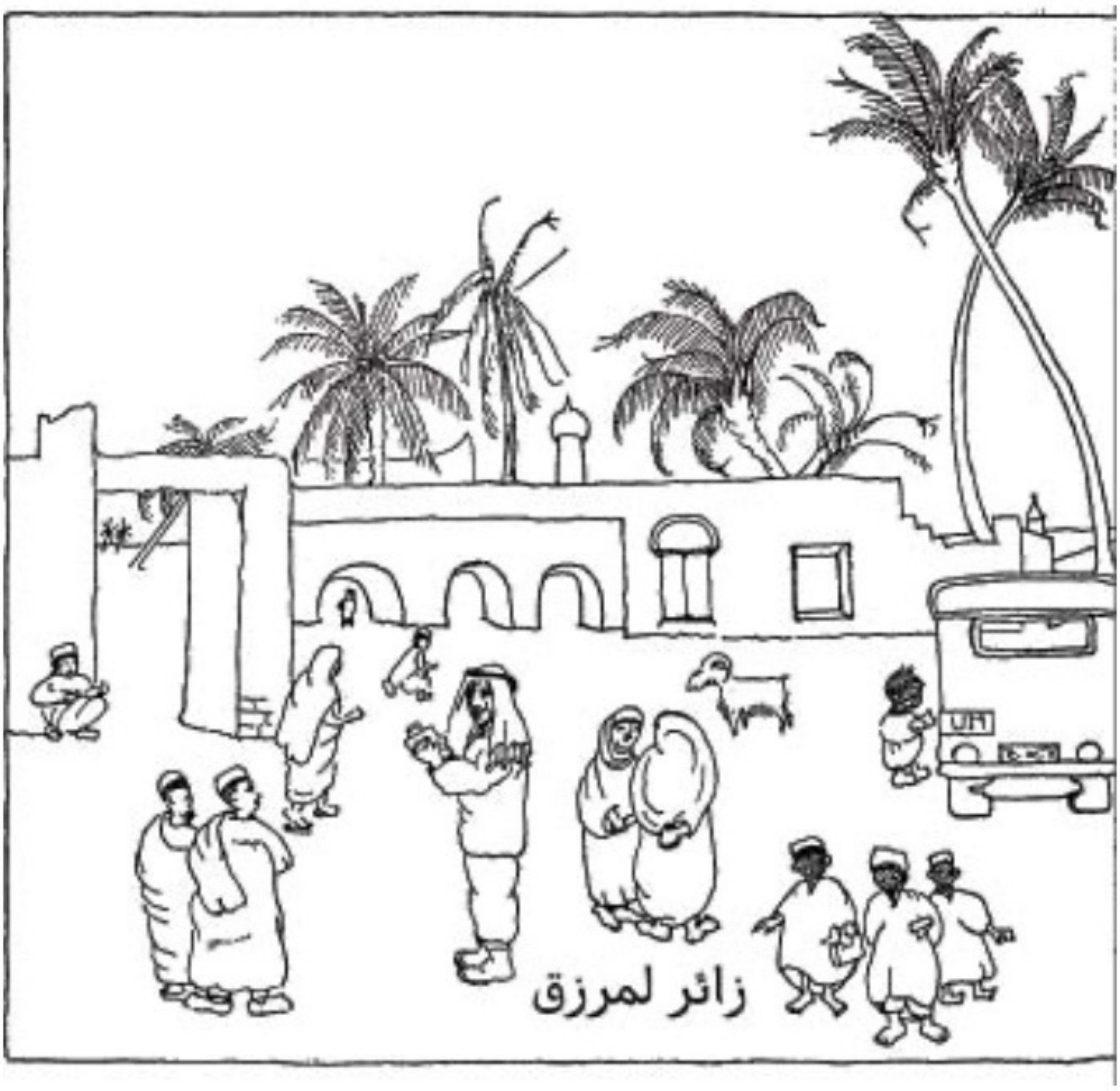

في الصباح يقدِّم لنا أحمد الشاي مرة أخرى. مرتديًا منامة أنيقة مخطَّطةً باللونين الأزرق والأبيض، يرتديها فوق ملابسه. بينما عوض يغسل قدميه. يا إلهي! لم أستطع غسلهما في الليل! ويقوم بدر الدين بتغيير الترانزستور لراديو ليبيا، وفجأة أطلق هديرًا من الإثارة: «يا أبي! لقد سقَطَت الحكومة الفيدرالية! وسقَطَت حكومة فزان أيضًا!».

«يا إلهي!» يقول هاري. «إذن اتفاقاتنا ذهَبَت هباءً! وكل شيء يجب القيام به مرَّةً أخرى!».

«هل تعتقد أن الوزير كان يعلم أن هذا قادمٌ حينما تحدَّثنا معه؟» يسأل هاري.

يجيب أحمد: «ربما. لهذا السبب وافق معنا بهذه السرعة!».

مع وجود الجميع في الفراش الآن، واشتعال النيران دون دفء يُذكَر، يبدأ بدر الدين في التخطيط لرحلة صحراوية أخرى: إلى الكفرة في المرة القادمة، كما يقول، لكنه لا يعرف بعدُ أننا لن نكون موجودين هنا في ليبيا.

هذه ليلة ملتهبة بالنجوم ومتوهِّجة بألوان الأجرام السماوية، ليلة يلقي فيها ضوء النجوم بظلال طويلة على رمال الصحراء، وتخرج حيوانات غريبة من العصر الحجري من مَركَباتنا ومن كل مكان: ليلة تشارك فيها الصحراء عجائبَ ماضيها الخالد مع كل مَن يَمرُّ بها.

بالنظر إلى تلك السماء الباردة المتوهِّجة، أتساءل: كيف يمكن وصف جوهر هذه المحطة الصحراوية؟ إنها مزيج من الإرهاق متبوع بالراحة، أو البرودة التي يليها الدفء، والرمل الذي يختلط بالطعام، والمياه المالحة قليلًا والتي تصبح صالحة للشرب، والظروف البدائية (لا يوجد مرحاض، ولا توجد شجيرة للاختباء خلفها لقضاء الحاجة!)، وكل هذا يمكن تَحمُّله لأسباب موضوعية، وهناك أيضًا روعة المناظر الطبيعية. مع شعور الإنسان بضآلته في وسط هذا المشهد. وكذلك الشعور بالعُزلَة المطلقة... ولكن في صحبة جيدة.

أدعو الله أن يَهَبني هديَّةً قبل أن أنام. أصلِّي من أجل نعمة تذكُّر هذه الليلة: تَذكُّر كل نجم بظلاله، وكل صوت ولحظة صمت، وكل نداء وإجابته، وتذكُّر رائحة الدخان والحساء والعرق، وتذكُّر حتى عظامي المرتجفة، والآن قدميَّ الدافئتين بلُطفٍ (أعتقد أنني أتعرَّق الآن! أكياس النوم المبطَّنة بالصوف المقاوِمَة للماء تُعزِّز الحرارة السريعة!)، وأن أتذكر كل شعور، حزين أو مفرح، في هذه الصحراء.

41. أعمال شغب

ذات صباح التقت مجموعة غاضبة من الطلاب الليبيين الشباب المضطربين في حالة تكاد تكون هستيرية، في قاعات كلية التقنية المتقدِّمة في طرابلس. كانوا يتحدثون بصوت عالٍ، والجو بشكل عام مَشحون بالاضطراب والإثارة، وجوههم الداكنة كئيبة وعَبوسة، وأيديهم تتشابك أثناء تجمُّعهم معًا، من الواضح أنهم كانوا غير قادرين على التزام الهدوء وبدء الدراسة. وحينما أمرهم المشرف والمعلِّمون بالذهاب إلى فصولهم وبدء الدراسة، صرخوا جميعًا وإجابة تكاد تكون موحَّدة بهذا المعنى:

«كيف يمكننا الدراسة؟ وفي جميع أنحاء هذا البلد يُقتَل أقاربنا وأحبَّاؤنا وأصدقاؤنا! كيف يمكننا الدراسة؟ خمسة وستون قتيلًا هنا في طرابلس! خمسون شخصًا قُتِلوا في الزاوية! ومائة سقطوا في ترهونة! وربما مئة قتيل في زليتن! وأنت تخبرنا أن ندرس؟ كيف يمكننا الدراسة؟ واللهِ! واللهِ! واللهِ!».

يجيبهم المشرف مُطَمئِنًا أنه يعتقد أن هذه التقارير كلها مُبالَغٌ فيها إلى حدٍّ كبير؛ فلا يوجد دليل حقيقي على العدد الدقيق للقتلى، وحتى الآن قالت الحكومة فقط إن هناك ثمانية قتلى في أعمال الشغب. ثم تأتي إجابة التلاميذ المُشكِّكة وغير المصدِّقة: «آه، لكننا نعرف أفضل من ذلك! نحن ليبيُّون! آباؤنا، وإخواننا، وأعمامنا، وأبناء عمومتنا، وأصدقاؤنا، كلهم يقولون ذلك! نحن نعلم أفضل منكم!». وبما أن الناس عادة ما يكونون على استعداد لتصديق الأسوأ؛ فإن هؤلاء الطلاب الليبيين الشباب يعتقدون بلا شَكٍّ أنهم يعرفون. لذلك، ولأسباب واضحة؛ فإن المدارس مُغلَقَة الآن لمدة ثلاثة أسابيع.

وهكذا، فإن الاختلافات الدقيقة بين التظاهُرات السلمية وأعمال الشغب العنيفة قد حدَثَت هنا في طرابلس لأول مرة خلال ثماني سنوات من إقامتي في ليبيا. هذا هو اليوم الثالث لرشق الحجارة،

والضرب بالعصي، وإشعال الحرائق، وتحطيم النوافذ، وجميع الأعمال العنيفة في كافة أنحاء ليبيا، والتي أسفَرَت عن مقتل ثمانية شُبَّان، وإصابة عدد كبير من المدنيِّين وأفراد الشرطة. أثناء ذلك تمَّ نهبُ أو تدمير العديد من المتاجر والشركات، وتمَّ تحطيم ما لا يقلُّ عن ألف سيارة أو إشعال النار فيها من قِبل مثيري الشغب. لكن لم يُنشر إلاّ القليل من الحقائق الفعلية لما حدث بالفعل، وتؤدِّي مثل هذه الرقابة إلى مزيدٍ من القلق والمزيد من الشائعات المحمومة.

لفهم هذا العنف غير المألوف في ليبيا، والتي تُعدُّ الأقل عنفًا بين جميع الدول العربية؛ يجب على المرء أن يبدأ بمؤتمر قمة الدول العربية الذي انعقد في القاهرة، حيث بدأت معظم المشاكل، قبل ثلاثة أسابيع في يناير 1964. كان القصد من هذا الاجتماع أن يكون لفتةَ تَضامُن عربي، ولغرض مناقشة الإجراءات المحتملة ضد إسرائيل التي تمضي قُدُمًا بنجاح في مشروعها لتحويل جزء من المياه من بحيرة طبريا إلى صحراء النقب الإسرائيلية القاحلة لجعلها خصبةً وصالحةً للسكن.

من بين القادة العرب الذين حضروا مؤتمر القاهرة: حسين ملك الأردن، الذي نَسِيَ لهذه المناسبة خصومته مع ناصر، والرئيس اليمني السَّلَّال، الذي دفن أيضًا أحقاده، وسعود ملك العربية السعودية، الذي كانت عائدات بلاده النفطية مَحطَّ الأنظار. وهناك الملك الشاب الحسن الثاني، عاهل المغرب، والذي سرعان ما شوهِدَ يعانق رئيس الجزائر أحمد بن بِلَّة. كان هناك أيضًا الرئيس بورقيبة، حيث تمَّ التغاضي عن جريمته المتمثِّلة في كونه ليبراليًّا وعصريًّا تمامًا، بينما وجد رئيس الوزراء السوري أمين الحافظ أن ولاءه البعثي قد تمَّ تجاوُزه مؤقتًا. كما حضر عبد السلام عارف رئيس العراق، حيث أصبح سقوط الأنظمة عادةً في ذلك البلد، وأخيرًا -وربما آخِرًا- كان هناك الحسن الرضا، ولي عهد ليبيا الشاب، وابن شقيق الملك إدريس، برفقة السيد محيي الدين فكيني، رئيس الوزراء الليبي. الملك نفسه في سِنِّ الخامسة والسبعين، نادرًا ما يغادر مملكته، باستثناء للعلاج الطبي- أو هذا ما جاء في البيان الصحفي في ذلك الوقت.

علمنا فيما بعد أن أجهزة الأمن الليبية كشفت للتَّوِّ عن أول ما ثبت أنها سلسلة من المؤامرات المزعومة في الجيش الليبي، حيث تآمر سبعة ضباط ليبيين مع بعض ضباط الجيش المصري والملحق العسكري المصري في ليبيا لتقديم أموال وأسلحة للناصريِّين الليبيين الذين يُعتقد أنهم يخطِّطون لتأسيس جمهورية ليبية؛ بغرض توحيدها لاحقًا مع مصر. وكان اكتشاف هذه المؤامرة بواسطة ضابط بالجيش الليبي انشقَّ عنهم، وأبلغ رئيس الوزراء، وكان هذا هو السبب الحقيقي لعدم حضور الملك إدريس مؤتمرَ القمة العربي الأول في القاهرة في يناير 1964.

في مؤتمر القاهرة، كان من الصعب تصديق أن كل هذه القيادات المتنازِعَة يمكن أن تجتمع في يوم من الأيام. بالنظر إلى عمل هذه المجموعة في انسجام تام، لم يكن مفاجئًا أن يكون مؤتمر القاهرة «نجاحًا كبيرًا»، على الرغم من أنه لم يتِمَّ الكشف عمَّا حقَّقه من إنجاز إلى جانب حديثهم معًا.

وبينما كانت الأنظار تتجه نحو العالم العربي، قرَّر الشباب في ليبيا -مدفوعين بقوى خفيَّةٍ لم يفهموها- التعبيرَ عن عروبتهم وتضامُنهم مع الملك إدريس، الذي أعلن عن دعمه للمؤتمر. في طرابلس، في يوم الاثنين، وهو أوَّل أيام المؤتمر، كنت أقود سيارتي باتجاه بنك باركليز في شارع الحرية حينما سمعت أصواتًا شابَّة تهتف وتغني من بعيد. توقَّفتُ أنا وغيري من المشاة للنظر باهتمام نحو اتجاه الأصوات وقعقعة الأقدام، وفي اللحظة التالية اقتربَ من زاوية الشارع ركضًا نحو ثلاثين فتاةً، جميعهن يُردِّدن أهازيج عربية في انسجام تام، وكُنَّ بقيادة فتياتٍ أكبر سنًّا... جميعهن كُنَّ طالبات في سن العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، يرتدين الزي الأوروبي، وكثيرات منهن يلوِّحن بأوشحة الرأس وهُنَّ يركضن. ممَّا أسمع وأرى من الضحك واللهاث والصراخ، من الواضح أن كل ذلك كان حَسَن النِّيَّة، حتى لو لم يفهم المرء كل الكلمات العربية.

نحن المتفرِّجون ابتسمنا متعاطِفين مع الشابَّات، بينما اجتاحت الفتيات شارع الحرية، ولم يسعني إلا الاعتقاد بأن هذا قد يكون آخِرَ عَهدٍ لهنَّ بالحرية؛ لأن معظم هؤلاء الفتيات سيتم حجرهن قريبًا، وسيلبسن أردية تغطيهن بالكامل، ويقبعن خلف أبواب مغلقة. وعلى الرغم من أن العديد من آباء الكثيرات منهنَّ سيدَّعي الآن أن ابنته لن ترتدي الفرَّاشيَّة ولن تختبئ وراء حجاب، فمع ذلك، وحينما تنضج أنوثتها، ستختفي الفتاة بهدوء عن الأنظار. وفي المرة القادمة التي يسمع فيها المرء عنها، ربما سيعرف أنها مخطوبة أو تزوَّجَت ولم يَعُد يراها أحد، أو أنها على وشك أن تنجب طفلًا. ومرة أخرى يأتي تفاخُر الأب الشاب، «لن تختفي ابنتي وراء حجاب»، ومرة أخرى يأمل المرء، ولكن يتعجَّب أيضًا ويطرح أسئلة حول هذا الأمر.

آباء الفتيات الصغيرات يخشون دائمًا أن تفقد بناتهم السُّمعَة الطيبة؛ وبالتالي تقِلُّ فُرَصهنَّ في الزواج. في هذا البلد الذي يتَّسِم بتقاليد غير قابلة للنقاش أو التحدي، حتى القادة التقدُّميِّون يتردَّدون في السماح بحرّية لزوجاتهم خشيةً من الرأي العام. ومن المؤكَّد أن أيَّ والدٍ لطفلةٍ مجهولة وغير معروفة يشعر بالرعب من السماح لها بإظهار وجهها، واستخدام عقلها، في بلد يُعتبر فيه جسد المرأة هو الميزة الوحيدة للمرأة.

وهكذا، حينما قُمتُ بالتسوُّق هذا الصباح في طرابلس وسمعتُ من بعيد أصوات الفتيات يتردَّد، أعجبتُ بمبادرتهن وحيويَّتهنَّ، وتمنَّيتُ أن يكون مردود ذلك إيجابيًّا عليهن في الوقت المناسب. وعَلِمتُ فيما بعد أن العديد من هؤلاء الفتيات أُجبِرن على التظاهُر ضد رغباتهنَّ من قِبَل مُدرِّساتهن المصريَّات. بالرغم من أنَّ الفتيات أنفسهن ينتمين إلى عائلات تشجب هذه الأفعال.

في صباح اليوم التالي بينما كنت أقود سيارتي في شارع ميزران، الذي يضمُّ عِدَّة مدارس ثانوية، رأيت حركة المرور المتوقِّفة أمامنا، وحشودًا من الفتيان والشبان، وعددًا من سيارات الجيب من الشرطة المسلَّحة المتوقِّفة في الشوارع الجانبية، كما رأيت مجموعة من

شرطة الدراجات النارية يحاولون إدارة حركة المرور. وبفضل كفاءة الشرطة بدأنا الحركة مرة أخرى، وبينما كنَّا نسير بحذاء الأرصفة التي كانت مليئة بالطلاب الشباب، رأيت وجوههم متجهِّمةً ومُتوعِّدة، وخمَّنتُ أنه قد فاتتني تَظاهُرةٌ للتَّوِّ.

كانت المدينة تعجُّ بالشرطة المسلَّحة، ولم يكن هناك سوى القليل من المركبات المدنية، وبالتالي لم أجد صعوبة في العثور على عدَّادٍ شاغر لانتظار السيارات. سرعان ما لاحظتُ أن جميع المحلات اليهودية قد أُغلِقَت، كما يجب على أصحاب المتاجر أن يفعلوا في مثل هذه الأوقات، فتذكَّرتُ المذابح ضد اليهود هنا عام 1948، وقت تقسيم فلسطين، حينما قُتِلَ أكثر من مئة يهودي في مدينة طرابلس*.

اليوم هناك تصميمٌ واضح من جانب الشرطة على عدم السماح بالعنف، ومع ذلك تساءلتُ عمَّا إن كان من الحكمة تفريق المظاهرات الطلابية أم لا: يزعم الليبيون أن هذه المظاهرات تمنح الشباب الفرصة للتعبير عن مشاعرهم، وأنها متنفَّسٌ لغضبهم. لكن هناك هامش ضيق للغاية بين التظاهرة السلمية والعنيفة. وعلى الرغم من أن المدينة بدت مسالمة في هذا الوقت، إلا أنني علمت لاحقًا أن حشود الطلاب قد تشكَّلَت أمام قصر الخلد في تظاهُرة احتجاج على حقيقة أن الملك نفسه لم يذهب للمشاركة في مؤتمر القمة العربية، وهو غيابٌ تَمَّ تنبيههم إليه من قِبَل مُعلِّميهم المصريين. لكن بما أن الملك لم يكن مقيمًا في القصر، بل كان على بُعد ستة عشر كيلومترًا خارج المدينة في سواني بن يادم؛ فلم تُحقِّق التظاهرة أغراضها.

في صباح اليوم التالي وصلتُ إلى مركز المدينة لأجدها مرَّةً أخرى مهجورة جزئيًّا. كانت مَهمَّتي الأولى في متجر إيطالي، حيث استقبلتني السنيورة بنظرة تَعجُّبٍ متفاجِئة: «أنتِ في المدينة!».

«نعم، هل هناك أي سبب يمنعني من التواجُد هنا؟».

«ألم تسمعي عمَّا حدث في بنغازي؟» ثم أخبرتني همسًا القصَّةَ التالية: صاحب المحل الذي تعمل فيه، كان قد حجز تذكرة سفر إلى بنغازي هذا الصباح، لكن صديقًا ليبيًّا اتَّصل به في الليلة السابقة

ونصحه بعدم الذهاب لأنَّ هناك مشكلة خطيرة في بنغازي. ويبدو أن طلاب بنغازي قاموا بتظاهرات لمدَّة يومين للتعبير عن تضامنهم مع القمة العربية. وبدت التظاهرات سلميَّةً، لكنها تحوَّلَت إلى أعمال عنف في اليوم الثاني حينما بدأ الطُّلَّاب في إلقاء الحجارة على الشرطة. في هذا الوقت حاوَلَت قوَّةُ دفاع بَرقَة -وهي منظمة عسكرية تقوم بواجبات الشرطة في بنغازي- تفريقَ حشود الطَّلَبة، ورَدَّ الطُّلَّابُ بإلقاء الحجارة والزجاجات عليهم. وفي الصدام الذي أعقب ذلك، فتحت الشرطة النار وقتَلَت ثمانية شُبَّان، فيما أصيب مائتان أو ثلاثمائة آخرون، وهم الآن في المستشفى.

بَدَت هذه القصة متطرِّفَةً بعض الشيء، لدرجة أنه على الرغم من سردها بحُسن نِيَّةٍ، إلَّا أنني قسَّمتُ عدد القتلى في ذهني على عشرة، ولم أصدِّق تمامًا وقوع أي حالة وفاة. في طريقي إلى جورجمبوبلي، رأيت أن المدينة لا تزال تعجُّ بالشرطة وقوات الأمن، لكن كل شيء بدا هادئًا بما فيه الكفاية. تعرَّفتُ على أصدقاء قدامى من شرطة المرور الذين بَدَوا ودودين أكثر من أي وقت مضى. ومع ذلك، كان هناك العديد من الأشخاص يرتدون بدلات الكاكي، وربما هم من قوات الأمن الخاصة، وكانوا يحملون المسدَّسات.

حينما عاد هاري إلى البيت سألتُه إن كان قد سمع بأخبار بنغازي، فقال إن أحمد أخبره بالقصة. ووفقًا لمصادر هاري المتنوِّعة، تَراوَح عدد القتلى في أعمال الشغب من اثنين إلى اثني عشر، لكن الجميع اتَّفقوا على إصابة عدة مئات من الأشخاص، بمن فيهم الشرطة، وأن الشرطة أطلقت النار واستخدمت الحِراب. كان هناك عدد من المظاهرات في طرابلس أيضًا، لكن الشرطة هنا لم تطلق النار.

تمَّ فرضُ رقابة صارمة على جميع أخبار بنغازي الدموية، ولم يصدر أي شيء من الإذاعة الليبية، ولم يظهر أي شيء في الصحف الليبية. وبما أن الصحف باللغة الأجنبية هنا تخشى طباعة أي شيء مُثيرٍ للجدل إلَّا بعد ظهوره في الصحافة الليبية؛ فلا توجد أخبار

رسمية وإنما عديد من الشائعات حول هذا الحدث الثاني الأكثر وحشية في تاريخ ليبيا الحديث، والأول كان المجازر ضد اليهود منذ عشرين عامًا تقريبًا.

بعد أحداث الشغب القاتلة التي وقعت يوم الثلاثاء، يُعتقد أن وزراء الحكومة من بَرقَة توجَّهوا إلى الملك وسلَّموا استقالاتهم احتجاجًا على إطلاق النار من قِبل الشرطة، مُطالِبين في الوقت نفسه بتشكيل لجنة تحقيق. وقيل إن الوزراء تساءلوا كيف يمكن لجلالة الملك أن يتغاضى عن مقتل الشباب الليبي الذين كانوا يحذون حذو جلالة الملك نفسه من خلال إظهار تضامُنهم مع أهداف مؤتمر القمة. ويمكن للمرء أن يتخيَّل مشاعر الملك في ضوء معرفته بالمؤامرة المصرية الليبية ضده. ومع ذلك، رفض الملك قبول استقالات الوزراء، ووعد بإجراء تحقيق كامل. كان قائد الشرطة الليبية والأمن الداخلي موجودًا في طرابلس وقت مقتل الطلبة، وقد يكون هذا ذريعةً للعُنف غير المنضَبِط الذي حدث في بنغازي.

هناك رواية أخرى، وهي أن رئيس الشرطة كان يأمل في حضور مؤتمر القاهرة، وحينما أرسِل قائد الجيش بدلًا منه؛ كان ساخطًا وفي مزاج سيئ، وأعطى أوامر للشرطة للتعامُل بصرامة مع المتظاهرين. لن يعرف المرء حقيقة ما حدث بدقَّة في هذا البلد الخاضع للرقابة على وسائل الإعلام. ونظرًا لعدم وجود تقرير دقيق عن الأحداث الحيويَّة هنا في ليبيا في كثير من الأحيان؛ يعيش المرء في حالة من الشك، ولا يصدق شيئًا، أو لا يصدِّق كل شيء، وغالبًا ما ينخدع بحدوث الأسوأ.

كان ردُّ فِعلي الفوري على أخبار بنغازي عدم تصديق وحشية الشرطة هناك؛ ربما لأنني كنت دائمًا مُعجَبة بروح الدعابة والصبر والمظهر الرائع والكفاءة المتميزة لقوة شرطة طرابلس. لقد كنت هنا في ليبيا من خلال أعمال الشغب المناهضة لبريطانيا في وقت أزمة السويس، وأعمال الشغب المناهضة للفرنسيين، رغم أن المرء لا يعرف أبدًا سبب اندلاعها، وكذلك شاهَدتُ التظاهرات المناهضة للأجانب التي تحدث باستمرار، ولا أحد يعرف السببَ أبدًا، لكنني لم أرَ قَطّ

شُرطَة طرابلس تستخدم أساليب قمع وحشية، مهما كانت درجة الاستفزاز، وخلال أعمال الشغب المتعلِّقة بحرب السويس وصل الاستفزاز إلى حدِّ إلقاء القنابل. لطالما حافظت الشرطة في طرابلس على التعامل السلمي مع الشعب، وتعمل على التطبيق الحضاري للقانون على الجميع، من الليبيين والأجانب.

أمَّا قوة دفاع برقة التي تتمثَّل مسؤوليتها الشخصية في حماية الملك، فهي أكثر صرامة في أساليبها لإنفاذ القانون، ومن المؤكَّد أن الحكومة الليبية مُصمِّمة على عدم السماح بأن تصبح التظاهرات العنيفة أمرًا مُعتادًا. ويدرك معظم الناس الخوف من أن يؤدي موت الملك إلى قيام ثورة؛ لأنه على الرغم من احترام الجميع للملك، إلَّا أن وريثه ولي العهد، لديه عددٌ قليل من المؤيِّدين المتحمِّسين.

من ناحية أخرى، فإن الأمير الأسود، السيد عبد الله عابد، نجل ابن عم الملك، وهو أسود البشرة ولديه دم زنجيٌّ، ربما عن طريق الأم من خلال سلالة العبيد أو الرقيق، ويتمتَّع بشخصية قوية وصارمة وحينما يظهر في مكان يكون محطَّ الأنظار، كما أنه ذكي بطبيعته، ولديه حسٌّ تجاري عالٍ جعله بالفعل أغنى رجل في بَرقَة، وعلى الرغم من أنه قد يكون راضيًا تمامًا عن كونه من أباطرة التجارة، إلَّا أن الشائعات تقول إنه مستعدٌّ أيضًا لتولي أي مهام ملكية قد يُكلَّف بها.

منذ خمسة أيام، تمَّ إغلاق المتاجر اليهودية. وهذا الصباح زرتُ المدينة مرة أخرى (للمرة السادسة) على أمل أن أتمكَّن من استعادة فنجان وصحن التعميد من الصائغ اليهودي الذي كان سينقشُ عليهما. وعند وصولي إلى أطراف المدينة، توقَّفَت سيارتي في حركة مرور بطيء في شارع عمر المختار، ورأيت الأرصفة تعجُّ بالليبيين. كنت مضطربة، لكنني لم أستطع تجنُّب الزحام المروري. وقبل دخول صفِّ السيارات مباشرة إلى ميدان إسبانيا، تدفَّق حشد من الشبان من الجانب المقابل من شارع عمر المختار وأوقفوا حركة السيارات. تقدَّمتُ ببطء شديد حتى أصبحت محاذيةً للحشود، ورأيتُ أن هؤلاء

الشباب كانوا جميعًا مُسلّحين بعصي المكانس أو الهراوات، ويضغطون بقوة للأمام.

لم يبذل ستة من شرطة المرور في الساحة أيَّ جهدٍ للتدخُّل ضد الفِتية، باستثناء إرشادهم بعيدًا عن تيار حركة المرور، فأخذ الحشد يتدفَّق عبر الميدان الذي دخلتُ إليه ثم انعطفتُ يمينًا إلى شارع الرابع والعشرين من ديسمبر؛ لأنه لم يكن هناك طريق آخر للذهاب إلا إذا توجَّهتُ إلى الحشود. حينما دخلت الشارع، أمكنني أن أرى

أمامي أجسامًا صلبة سوداء اللون تطير في الهواء مثل تحليق الطيور. أثبتت هذه الأشياء الداكنة أنها حجارة تُقذف.

الآن توقَّفَت حركة المرور، وأنا معها، فرفَعتُ نوافذ الزجاج وأحكَمتُ إغلاق الأبواب. ثم بدأت حركة المرور ببطء إلى الأمام مرة أخرى، ورأيت أن نوافذ المتاجر مُغلَقة. بينما الممرَّات الجانبية ممتلئة برجال وشباب في ثياب رَثَّة؛ لا بُدَّ أنه لم يتبقَّ طالب واحد في أي مدرسة في طرابلس إلا وخرج!

الآن تمرُق بجواري سيارة جيب للشرطة مليئة بالجنود، وصارت أمامي على الجانب الأيسر، تسير على الرصيف لتجاوز حركة السيارات المتوقِّفة. وصلتُ إلى إشارة المرور وهي خضراء، لكن الشارع مغلق أمامي. صرتُ أتقدَّم شيئًا فشيئًا، وأرى أن الرصيف مليء بالحجارة والصخور، التي يبلغ قُطرُها ستة أو ثماني سنتيمترات، والتي من الواضح أن الطلاب حملوها لرميها. ثم توقَّفنا خلف سيارة الجيب التابعة للشرطة، التي خرج منها الجنود، لكن ضابطهم -وهو طويل وأنيق المظهر- وقف أمامهم، في مواجهة الحشد، وكان غيرَ مُسلَّح باستثناء عصا الشرف الصغيرة في يده.

كان الضابط غاضبًا من الحشد الذي أمامه ويعنِّفهم بشدة، ويضرب كفَّ يده بعصا الشرف مرارًا وتكرارًا، ثم يهزُّ قبضته في وجوههم، ويضرب العصا في الهواء مرة أخرى، وبالإمكان رؤية أنه يحاول إعادتهم إلى رُشدهم. في الواقع، فإن عنفه المنضبط هو أكثر

إثارة للإعجاب. في هذه الأثناء، يقف الحشد الشجاع من الشباب ومن المشاغبين أمامه مشدوهين، ومُروَّعين نوعًا ما. في هذا الوقت يُفسِح لنا الشرطي طريقًا، وأستمرُّ في صعود شارع 24 ديسمبر، المليء بالحجارة على طول الطريق، حتى أخرج من منطقة التسوُّق وأتوجَّه إلى البيت عبر غاردن سيتي. من الواضح أن اليوم هذا ليس يوم التسوُّق!

حينما وصلتُ إلى البيت، كانت لينا في الخارج تبحث عني بقلق من الشرفة، حيث اتصل هاري للتو بالبيت ليخبرني بعدم الذهاب إلى المدينة اليوم.

رواية هاري لما حدث اليوم جاءت من أحمد الذي يقول إن المشكلة بدأت حينما اصطفَّ الشباب في موكب جنازة وهميٍّ مع نَعشٍ فارغ، كرمزٍ للحداد على القتلى من شباب بنغازي. وقد تردَّدَت الشرطة في البداية في التحرُّك بسبب طبيعة المسيرة، التي سرعان ما وصلت إلى مكتب رئيس الوزراء، وطالَبَت رئيس الوزراء بالخروج إليهم. وظهر السيد فكيني، وعيناه تفيضان بالدمع، وأعرب عن أسفه العميق وأسف الحكومة على قتلى بنغازي. غالبًا ما يكون ذَرفُ الدموع في الأماكن العامة عادةً شرق أوسطية، ويفتخر سكَّان هذه المنطقة بها. وكثيرًا ما أسمع من العرب، وخاصَّة الأردنيين، وهم يصفون بفخر كم من الوقت كانت دموعهم تنساب بمرارة عند وقوع حدثٍ مُحزِن ما. وأنا على ثقة من أنهم يجب أن يعتبرونا أننا بلا قلوب أو مشاعر لأننا لا نتصرَّف مثلهم.

بعد أن توقَّف رئيس الوزراء عن البكاء ومسح عينيه، وخاطب الحشد، تحرَّك الشباب بشكل جماعي، وحاوَلَت الشرطة إقناعهم بالتفرُّق، لكنهم كانوا مُسلَّحين بالعِصيِّ والحجارة، وكانوا مُصمِّمين على العثور على مَن يلقونها عليهم، وفي النهاية لجأت الشرطة إلى قنابل الغاز المسيل للدموع لتفريقهم. أحمد، الذي جاء عبر البلدة بعد إطلاق قنابل الغاز المسيل للدموع مباشرة، كان لا يزال يرشف أنفه بقوة بسبب الغاز، ولأول مرة بَدَا متعاطفًا تمامًا مع المتظاهرين، الذين

عادةً ما يؤكِّد لي أنهم مسالِمون. وكنتُ دائمًا أحمل هذا الاعتقاد، لكن اليوم، حينما رأيت طرابلس بأكملها تتحوَّل إلى غوغاء يقودها شباب ليبيون؛ أدركتُ كم ستكون الشرطة عاجزةً ضِدَّ مدينة عنيدة من الشباب والفتيان الجامحين، إذا ما انقلَبَت ضدَّ الشرطة وتولَّت الحشودُ القيادة. سيكون من المستحيل إذن وقف إراقة الدماء، دون مزيد من إراقة الدماء.

توفِّي طالبٌ آخر في جامعة بنغازي، وهو أحد المصابين بجروح خطيرة في أعمال الشغب هناك. كان قد خضع لعملية جراحية، ومات بسبب الإصابة، كما يُقال بسبب نقص التجهيزات وسوء ظروف التعقيم الصحي في مستشفى بنغازي.

الثامنة من مساء اليوم نفسه عُدتُ لتوِّي من المدينة، حيث جمعت المجلات والصحف الأوروبية التي وصلت حديثًا (والخاضعة للرقابة). لقد أخَّرتُ خروجي عمدًا حتى الساعة السابعة تقريبًا لعلمي أنه في هذه الساعة خلال شهر رمضان سيكون جميع المسلمين في البيت ينتظرون بفارغ الصبر صوتَ مدافع الإفطار، والإشارة من المسجد أن الشمس قد غربت ويمكنهم تناول الطعام. وفعلًا كانت شوارع المدينة مهجورة. فتَح عددٌ قليل من المتاجر أبوابها، لكنها لم ترفع غطاء الفترينات لأن نوافذ المتاجر كانت باهظة الثمن. كان شارع 24 ديسمبر قد نُظّف بالفعل من كل الصخور والحجارة والعصي وعلامات الشغب، ولم يكن هناك ما يشير إلى اضطرابات الصباح. جمعتُ المجلات دون وقوع حوادث. وقرَّرتُ أنه إذا كان بإمكان حشد من الأولاد المسلمين الاختيار بين الذهاب إلى المدرسة أو القيام بأعمال شغب؛ فإنهم يختارون الشغب، ولكن إن كان عليهم الاختيار بين تناول وجبة إفطارهم أو القيام بأعمال شغب؛ فإنهم سيختارون الطعام.

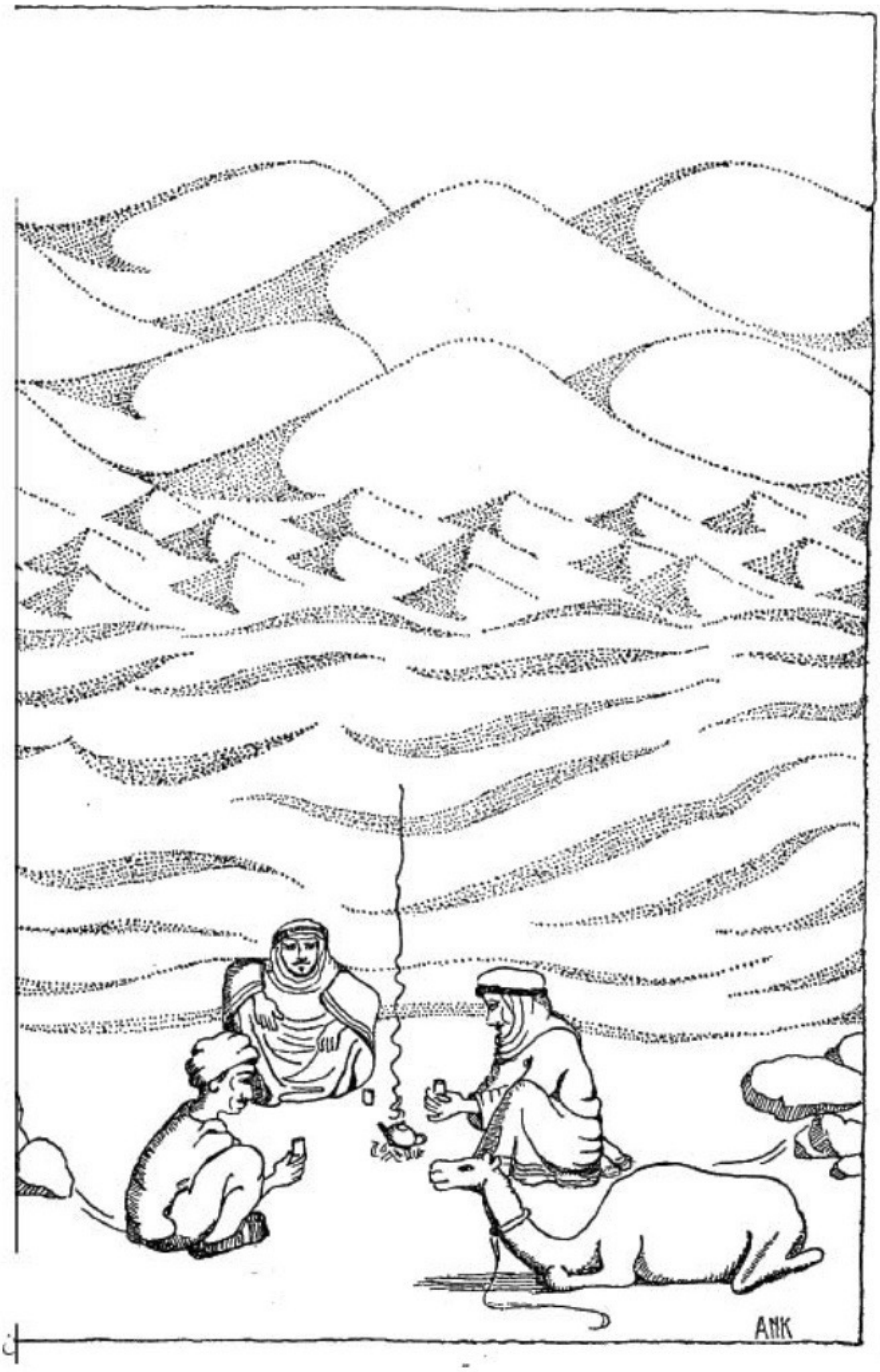

بعد أيام قليلة أحضر هاري صحيفة «أخبار برقة الأسبوعية» الصادرة بالإنكليزية، والتي نُشِرَت بعد خمسة أيام من أعمال الشغب. ولِدَهشتي كانت هناك ملاحظة موجَزة عن أعمال الشغب في بنغازي، مع بيان مُفاده أن عددًا من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة عشر وستة عشر عامًا قُتِلوا بالرصاص، وأن قوات الأمن قد تسبَّبَت في عدد من الضحايا، وأنه جري إيقاف خمسة من أفراد الأمن عن العمل وفي انتظار التحقيق معهم. هذا البيان الذي تطرَّق إلى مأساة

عرفناها جميعًا، كان مطَمئِنًا إلى حدٍّ ما. وفي حالة عدم وجود بيان للوقائع كما حدَثَت بدقَّة، وعدم إعطاء نشرة رسمية، تكتسب الشائعات دائمًا قوَّةً ما. لكن من الأفضل دائمًا الاعتراف بالحقيقة، مهما كانت مرارتها.

---

* تشير عديد المراجع إلى أنها أعمال شغب حصلت بين الطائفتين العربية واليهودية في طرابلس عام1948 خلال الإدارة العسكرية البريطانية لليبيا، وأسفَرَت عن مقتلِ 13-14 يهوديًّا، و4 من المسلمين، وتدمير 280 بيتًا يهوديًّا. المترجم.

42. عُنفُ الغَوغاء

البنادق التي وُجِّهَت إلى صدور الشُّبَّان في بنغازي أطلقت فتيل العنف، واستقالة رئيس الوزراء فكيني أشعلته.

سرعان ما أصبح مفهومًا بشكل عام أن الاستقالة القَسريَّة لرئيس الوزراء سبقتها زيارته للملك، وخلال هذا الاجتماع الليلي في 21 يناير، يُعتقد أن السيد فكيني طالَبَ بإقالة الفريق محمود بوقويطين، قائد قوة دفاع برقة ورئيس الأمن الداخلي الليبي، حيث كان بوقويطين هو المسؤول من الناحية الفنية عمَّا قامت به شرطة بنغازي من إطلاق النار على الطلاب.

هذا الطلب واجه الملكَ بخيارٍ شبه مستحيل، فقد كان بوقويطين مؤيِّدًا مُخلِصًا للملك وتربطه علاقة خاصة مع جلالته بحُكم كَونه زوج ابنة إبراهيم الشلحي، مستشار الملك الموثوق به، الذي اغتيل بعد أن خدم الملك لواحد وأربعين عامًا. وجاء اغتياله على يد ابن شقيق الملكة وابن عم الملك. كان بوقويطين أيضًا صهر البوصيري الشلحي نجل الرجل المقتول * الذي تزوَّج أخته. وكان البوصيري الشلحي في ذلك الوقت هو ناظر الخاصَّة الملكية، وله تأثيرٌ قويٌّ على الملك من خلال مشاعر الملك بالالتزام؛ نظرًا للعاطفة الأبوية التي تربطه بوالد الشلحي المقتول، وهي روابط قوية في العالم العربي.

بوضعية القصر الداخلية هذه كان من الواضح أن إقالة بوقويطين من شأنها أن تُسبِّب اضطرابًا شديدًا في الأسرة المالكة، وبالأخص للمَلِك المُسِنِّ الضعيف، لكنه أبعد ما يكون عن الخَرَف، وقد أصبح الآن ومنذ الكشف عن مؤامرة الجيش الثوري، يقدِّر كثيرًا الأشخاص الذي يحملون له ولاءً شخصيًّا لا يتزعزع. وفي مواجهة الإنذار الذي أطلقه رئيس الوزراء في وجهه «تخلَّص من بوقويطين، أو اقبل استقالتي!»؛ قَبِل الملكُ استقالة السيد فكيني.

سرعان ما تسرَّبَت الشائعات عن سبب استقالة رئيس الوزراء. والحشود التي كانت تصرخ قبل أيام قليلة، «يسقط فكيني!» وكانوا قد تظاهروا ضده على عتبة باب بيته، أصبحوا يصرخون الآن: «يعيش فكيني! فكيني! فكيني الضحية! نريد عودة فكيني!».

وفي اليوم التالي تلقَّى مقرُّ الأمم المتحدة تلميحًا إلى أن مظاهرات كبيرة وأعمال عنف غير عادية كانت متوقَّعَة يومَيْ الجمعة والسبت في منتصف النهار؛ وبالتالي تَمَّ تحذير كل التابعين للأمم المتحدة بالبقاء بعيدًا عن المدينة. ومنتصف نهار الجمعة هو الوقت الذي تغادر فيه أعداد كبيرة من الذكور المسلمين المساجد بعد الصلاة. والمساجد هي أماكن الاجتماعات العامة الرئيسة، وللأئمَّة فيها نفوذ سياسي قوي، كما يبدو أن أعمال الشغب قد تبدأ من المساجد. وكان من المقرَّر أن تكون المظاهرات دعمًا لفكيني، ودعمًا للمطالبة بمحاكمة أفراد الشرطة الخمسة الذين أوقفوا عن العمل بسبب مقتل الطلاب، والمطالبة بمحاكمتهم عَلنيًّا.

الجمعة، وهو يوم العطلة الأسبوعية الليبية، كان هاري في البيت طوال اليوم، وكنَّا نرتاح بهدوء في ضاحيتنا، على الرغم من أننا نسمع عبر الهاتف من الأصدقاء أن هناك أعمال شغب في المدينة بعد الظهر. في صباح السبت، ذهب هاري إلى مكتبه، لكنه اتَّصَل بي بمجرَّد وصوله هناك وحذَّرَني مرَّةً أخرى من الخروج، حيث كانت تظاهرات يوم الجمعة عنيفةً وتستمرُّ حتى اليوم. لقد توقَّفَت عن كونها تظاهُراتٍ طُلَّابيَّة عفويَّة.

كان الغوغاء الآن يرجمون الجميع بالحجارة دون تمييز، بما في ذلك الليبيين والشرطة على حدٍّ سواء؛ وهو ما أزعج الليبيين الذين كانت تجربتهم السابقة مع أعمال الشغب أنها تلك الموجَّهة ضد الأجانب فقط! قُمتُ مع ذلك بالتسوُّق بهدوء في سوبر ماركت جورجمبوبلي، الذي وجدنا أنه مكتظٌّ بالزبائن من خارج المدينة الذين كانوا يخشون دخولها.

بحلول منتصف النهار، وصل هاري إلى البيت، بعد أن أرسل الفتيات من المكتب إلى بيوتهن قبل منتصف النهار لتجنُّب المتاعب. كان قد تجنَّب تجمُّعات المتظاهرين من خلال سلك طريقٍ عبر البلاد من سيدي المصري. وأخبره أحمد أن شعارات المتظاهرين قد تغيَّرَت الآن إلى: «يسقط الملك! فكيني لمنصب الرئيس!».

شكَّل خروج هذا الشعار أكثر صدمةً لي من رمي الحجارة؛ لأنَّ شعار «يسقط الملك!» لم يُسمَع به من قبل في ليبيا، حيث يُنظر إلى الملك إدريس باحترام كبير، ليس فقط كملك، ولكن كزعيم ديني للمسلمين الليبيين. إن سماع عبارة «يسقط الملك!» لا بُدَّ أن يصدم معظم الليبيين، وبالتأكيد يصدم جميع الأجانب الذين تمَّ تقديمه لهم دائمًا باعتباره صمام الأمان المؤكَّد الوحيد، وأنه «لن تقوم في البلاد ثورة طالما كان الملك على قيد الحياة!».

كنَّا نناقش تداعيات ما يحدث حينما دقَّ جرس البوَّابة ودخل أحمد إلى الحديقة ويبدو مضطربًا. وبينما كان يصعد دَرَج الشرفة قال: «أتيت لأخبركم بعدم الخروج إلى المدينة بعد ظُهر اليوم! عليكم البقاء في البيت؛ فاليوم يتسبَّب أشخاص سيئون للغاية في الكثير من المتاعب للجميع!».

جعلناه يجلس ويخبرنا بتفاصيل ما يحدث في المدينة. كان مليئًا بالسخط، ووصف لنا ما حدث معه. «لقد جئتُ عبر البلدة المليئة بالشرطة والجنود الذين ألقوا العديد من القنابل المسيلة للدموع على حشود المتظاهرين. لقد استخدموا أكثر من مئتي قنبلة بالأمس، لكنَّ المتظاهرين هربوا من الغاز المسيل للدموع، ثم تجمَّعوا معًا في مكان آخر. يمكن للشرطة إبقاؤهم خارج المدينة، لكن لا يمكنهم منع المشاكل. كنتُ أقود سيارتي في شارع عمر المختار قبل الليدو (منتجع استحمام في ضواحي المدينة بالقرب من جورجمبوبلي) حينما رأيتُ عديدًا من الفتيان والرجال يرشقون جميع السيارات بالحجارة- حتَّى على سيارتي! فأوقفت السيارة وصرخت فيهم: 'لماذا هذا الغباء؟ ولماذا تفعلون هذا بي؟ أنا ليبيٌّ! قد تحطِّمون لي زجاج سيارتي!'... جعلوني أخرج من سيارتي، وكانوا يسألون: 'هل تحبُّ

فكيني؟ هل تريد عودة فكيني؟'؛ لذلك قلتُ لهم: 'نعم، أحبُّ فكيني. فكيني رجُلٌ طيِّب للغاية. يعيش فكيني!'. وهكذا سمحوا لي بالعودة إلى سيارتي، لكنهم قالوا: 'من الأفضل أن تقود ورأسك خارج النافذة حتى يرى الناس أنَّكَ ليبيٌّ! من الأفضل أن تصيح: يعيش فكيني!'. ورأيت في المكان ذاته بالقرب من الليدو سبع أو ثماني سيارات كلها محطَّمة ومهجورة، وسيارة واحدة للأمم المتحدة رقم 57، لكن لا أثر لسائقها؛ لذلك جئت لأخبركم بالبقاء في البيت اليوم. هؤلاء الناس أشخاص سيئون للغاية. وفقط يحبُّون تدمير أي شيء. هم ليسوا طيبين!».

«الأمم المتحدة رقم 57؟» يتساءل هاري. «هذه سيارة تابعة لمنظمة الفاو... إنها سيارة غاري ڤان هورن! أتساءل أين يكون غاري الآن، وهل هو بخير؟».

«لم أره في المكان، وأعتقد أنه تمكَّن من الهرب».

«وكيف ستنتهي هذه المشكلة يا أحمد؟».

«لا أعرف؛ فالجميع غاضبون جدًّا الآن. أوَّلًا: لأن الشرطة تقتل الشباب في بنغازي، وهذا ليس أمرًا جيِّدًا. ثم هم غاضبون لأن الحكومة لم تَقُم بمحاكمة علنية على الفور لأفراد الشرطة هؤلاء. وقد ازداد غضبهم أكثر الآن، ويريدون طرد الجميع، بمن فيهم الملك... ربما سيقومون بثورة. هؤلاء الناس يتصرَّفون بغباء وسيئون؛ لأنهم يرشقون الحجارة ويشعلون النيران ويؤذون الجميع، بغضِّ النظر عمَّن يكون! وكذلك لا تستطيع الشرطة إيقافهم الآن؛ لأن الشرطة والجنود يخشون إلحاق الأذى بأي شخص!».

«طرابلس لم تكن هكذا من قبل!» يقول هاري.

«لأن الشرطة الآن لا تستطيع فعل أي شيء!».

كنَّا نقف أمام البيت نقول وداعًا لأحمد، حينما توقَّفَت سيارة أجرة بنوافذها المكسورة، وقفز غاري منها.

«لقد انتهت سيارتي اللاند روڤر!» قال بمرح. «تحطَّمَت تمامًا!».

«(حمدو لله) لم تنتهِ أنتَ!» قلتُ له. «تعال وأخبرنا ماذا حدث لك».

«سأترك سائق التاكسي يذهب. يقول إن كل ما يريده هو العودة إلى بيته والبقاء هناك!».

يبدو أن غاري كان في طريقه للعمل في المدبغة، حينما أوقفه وابل من الحجارة والمقذوفات أمام الليدو فحطَّم جميع نوافذه. ومع استمرار سقوط الحجارة فوق سيارته، قفز وركض إلى مركز الشرطة بالقرب من الليدو، على بعد بضع مئات الأمتار من سيارته المعطَّلة.

كان شرطي مرور يقف في المقدمة بهدوء يراقب هذا المشهد حينما قال غاري: «هذه سيارتي! ألا يمكنك فعل شيء حيال ذلك؟»، هزَّ الشرطي كتفيه بطريقة ودِّيَّة، وقال: «لا»، لقد كان عاجزًا تمامًا. انتظر غاري بضع لحظات ورأى الحشد يحاول بصعوبة إشعال النار في كراسي السيارة، والتي يبدو أنها غير قابِلَة للاحتراق بسهولة. بعد ذلك، ولاعتقاده أن الحشد قد يوجِّه انتباهه إليه، ولأن الشرطي لم يكن مستعدًّا للتَّدخُّل؛ بدأ غاري في الركض على جانب الطريق نحو جورجمبوبلي. وعند مفترق الطرق، رأى سيارة أجرة واقِفَة وقد كسر مثيرو الشغب نوافذها، فطلب من السائق إحضاره إلى منزلنا. واختتم حديثه قائلًا: «حسنًا، اللاند روڤر هي بالفعل سيارة حكومية ليبية قُدِّمَت لي بصفتي خبيرًا في منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة؛ لذلك إذا حطَّمَتها الحشود الليبية فهذا من اختصاص الحكومة». لكن الحشود اليوم شريرة حقًّا. إنهم يعرفون أن الشرطة لا تجرؤ على إيذائهم، ولا يمانعون فيما يفعلون!

عندها فقط وصل ڤيرنر غرومبلات في سيارته اللاند روڤر ليخبر هاري أنه قد تجاوَزَ سيارة غاري المهجورة على الطريق، واعتقد أنه يجب علينا بدء مجموعة بحث عنه، لكنه شعر بارتياح كبير حينما وجده معنا.

قال ڤيرنر إنه حينما دخل شارع عمر المختار لأول مرة رأى حشودًا في الشارع أمامه، فاستدار في شارع جانبي وانتظر. في

غضون بضع دقائق، مرَّت به سيارات الچيب التابعة لفرقة مكافحة الشغب وأفرَغَت أفراد الشرطة وراء الحشود التي بدأت تختفي أمامهم. تمركزت فرق مكافحة الشغب والجنود في الساحات المركزية بالمدينة طوال اليوم؛ وبالتالي كانت الحشود تجتمع في أماكن أبعد، ووصلت إلى الضواحي القريبة من جورجمبوبلي.

«هل تعتقد أن هؤلاء الناس لديهم أي فكرة لماذا يفعلون هذا؟ هل لديهم أيُّ هدف؟ أم أنهم يستمتعون فقط بكونهم مدمِّرين؟» سألتُ.

ردَّ ڤيرنر: «أنا متأكِّد من أن معظمهم يتقاضون مالًا مقابل الخروج وإثارة المشاكل. هناك بالتأكيد يدٌ مُنظِّمة وراء كل ذلك!».

قال غاري: «يوم الثلاثاء الماضي، حينما كانوا يرشقون الحجارة في شارع 24 ديسمبر، كنت على الرصيف حينما مرَّ بي الحشد وذهبت معهم قليلًا، وأثناء ذلك سألت العديد من الأولاد بالعربية: 'مِن أجل ماذا تفعل هذا؟ ما الذي تريده؟'، وكل ما يمكن أن يقوله أي شخص هو: 'لا أعرف! لا أعرف! روِّح، روِّح، روِّح! روِّح، روِّح، روِّح! لا أعرف!'. لم يكن لدى أيٍّ منهم أي فكرة حقيقية عمَّا كان يتظاهر بشأنه!».

بينما كنَّا نقف على الطريق نقول وداعًا لغاري وڤيرنر، كانت السيارات بزجاجها الأمامي المحطَّم تمرُّ أمامنا، تقودها نساء بوجوه شاحبة مليئة بمزيج من المفاجأة والخوف والسخط. كانت معظم السيارات أميركية وفي داخلها أطفال ورُضَّع ومُسِنُّون. لولا الزجاج غير القابل للكسر نسبيًّا الذي تستخدمه معظم السيارات لكانت الخسائر جسيمة. بَدَت النساء في حالة صدمة، وكان العديد ممَّن توقَّفوا للتَّحدُّث إلينا في حالة هستيرية. حتى الآن هناك جوٌّ عام من التوتُّر والكارثة في جورجمبوبلي، وبإمكاننا سماع أصوات الارتباك والصراخ في طرابلس.

امتلأت السماء فوق المدينة الآن بحِمَم الدخان الأسود، واعتقدَ هاري أنه يجب أن يكون ناتجًا عن احتراق الزيوت أو رواسب الإطارات المطاطية. على الرغم من أننا لم نتمكَّن من رؤية ألسنة

اللهب، إلَّا أن الدخان استمرَّ لساعات، وفي غضون ذلك اندلعت دفقات جديدة من الدخان واللهب في جميع أنحاء طرابلس. علمنا في اليوم التالي أن الحريق الرئيس جاء من مخازن الإطارات المملوكة لليهود، والتي دُمِّرَت بالكامل، مع خسائر قُدِّرَت بـ 75 ألف دولار. وفي جميع أنحاء المدينة تمَّ قلبُ السيارات وإحراقها، حيثما تمكَّن مثيرو الشغب من إشعال النار فيها.

هناك سحرٌ رهيب عند مشاهدة أفقٍ يعبّر عن كارثة وفي سماع تصاعد العنف البعيد، بينما يمرُّ الضحايا العَرَضيون بالقرب منك، وتتساءل متى، وإذا ما كانت قوى الشر ستتفوَّق عليك. واحدة من أكثر الصفات المخيفة لعنف الغوغاء هو افتقاره التام إلى الحافز أو التوجيه. إذا كانت الغوغاء معقولة إلى حدٍّ ما، حتى لو كانت لديهم أهداف خاصة للانتقام؛ فيمكن للمرء أن يُخمِّن تَحرُّكاتهم ويحاول الهروب، لكن يبدو أن هذه العصابات في طرابلس كانت ترغب فقط في إلحاق الأذى بكل شخص يمكنها الوصول إليه.

استمرَّ ضجيج الفوضى ووميض اللهب في الأفق حتى الفجر تقريبًا، وفي هذه الساعة سارَعَت الجماهير المسلمة إلى البيت لتناول وجبة السحور الأخيرة قبل بدء صيام النهار؛ لأننا في شهر رمضان. قد يكون رمضان هو الذي زاد من المزاج السيئ في ذلك الوقت، حيث يصبح الجميع سريعي الغضب أثناء فترة الصيام. وفي الوقت نفسه كانت شوارع جورجمبوبلي، ولأول مرة في التاريخ، خالية من السيارات. لقد وجد الجميع زاوية أو مخبأً ما يضعون فيه سياراتهم حتى لا تتعرَّض إلى التدمير!

في اليوم التالي، الأحد، قرَّرتُ عدم الذهاب إلى كنيسة الحامية؛ لأنني سأضطرُّ إلى المرور عبر حيِّ الأكواخ للوصول إلى هناك. بدلًا من ذلك، رأينا أنا ولينا ومعنا بوتشي، أن نتجوَّل في جورجمبوبلي ونرى إن بإمكاننا التقاط أي أخبار؛ لذلك تحوَّلنا إلى طريق قرجي الذي يمثِّل الحدَّ الخلفي لجورجمبوبلي، والحد الأمامي هو البحر. ما إن دخلنا إلى قرجي حتى رأت لينا ثلاثة أولاد يقفون بجانب الطريق،

وينتظرون. قامت بسحب رأس بوتشي، الذي يبرز دائمًا من النافذة، تمامًا في الوقت الذي ارتطَمَت بنا الحجارة، ولحُسن الحَظِّ كانت الضربات بهيكل السيارة. انطلقتُ بسرعة وتساقَطَت علينا الأحجار، لكننا هربنا دون أضرار. شعرتُ بالسخط الشديد أن يحدث هذا في حيِّنا جورجمبوبلي، وأردتُ إيقاف السيارة وتوبيخ هؤلاء الأشقياء! لكنني تذكَّرتُ أن امرأة أميركية فعَلَت ذلك في اليوم السابق، وتمَّ رَجمُها بلا رحمة، لدرجة أنها عانت من إصابة خطيرة في الدماغ.

لا أعتقد أن أسوأ أشكال العنف هذه ستستمرُّ لفترة أطول، ما لم تتطوَّر المشكلة إلى ثورة حقيقية، لكنني أعتقد أنه سيمرُّ وقت طويل قبل أن نتمكَّن من السير على الطرق دون خوف من رشق الأولاد لنا بالحجارة. رشقُ الحجارة طبيعيٌّ من قِبل الأولاد بعد أن يروا كبارهم يسمحون بذلك ويؤيِّدونه، وأيضًا يصفِّقون لهذا العمل؛ وعندها يُصبح من الصعب التخلُّص من هذه العادة. تعليق هاري الوحيد حينما أخبرته بما حدث معنا كان: «حسنًا، أعتقد أنك ستستمرِّين في الخروج حتى يكسر شخصٌ ما نافذتك!».

يُقال إن المستشفيات مليئة بالشرطة والمدنيين على حدٍّ سواء. ونظرًا لأنه يُحظر على الشرطة استخدام أسلحتهم؛ فإنهم يحملون الآن الهراوات. ويواصلون التركيز على حماية المدينة، لكن يستمر العنف في الانتشار إلى الخارج.

كان يوم الاثنين هادئًا، ولا أحد يعرف لماذا.

يو ثانت، الأمين العام للأمم المتحدة، على وشك القيام بجولة في إفريقيا، وكان من المقرَّر أن يزور ليبيا، حيث سيصل إلى هنا في 6 فبراير. وقد طلَبَت منه الحكومة الليبية اليوم عدم الحضور؛ إمَّا أنهم يخشون أن الفوضى ستظلُّ قائمة، أو أن الزيارة الآن قد تثير شائعات بأن الأمم المتحدة طُلِبَت للمساعدة. بعد يوم من الهدوء المريب يوم الاثنين، والخالي من الأحداث والشائعات على حدٍّ سواء، قَدَّم يوم الثلاثاء المزيد من التنوُّع. لقد انتهيتُ لتوِّي من قراءة نص البيان الإذاعي في الصحيفة المحلية التي تصدر باللغة الإيطالية الليلة

الماضية من قبل محمود المنتصر، رئيس الوزراء الجديد، وهو ليس خبرًا مثيرًا، ولكنه على الأقل فتح فمه وتَحدَّث. وقال باختصار إنه يناشد الشعب الليبي ألَّا يُلحِقوا العار بأنفسهم في أعين العالم بالسماح لـ «أقلية صغيرة شريرة» بتحريضهم على مزيد من العنف، وأنه يجب أن يتوقَّف هذا، وإلَّا فإن العنف سيُقابَل بالعنف.

تلاه وزير الإعلام والإرشاد في الإذاعة بخطابٍ مُثيرٍ للغاية، أشاد فيه أوَّلًا بحقيقة أن الدستور الليبي كفل حَقَّ التعبير الحر بوسائل ديمقراطية حتى ضد السلطة التنفيذية، طالما كان التعبير بطرقٍ سلميَّة. واستمرَّ يقول إن مواصلة حرق ونهب المحلات التجارية والسيارات والعنف ضد الأبرياء -بما في ذلك قوات الشرطة المحلية- ليست وسائلَ تَعبيرٍ سلميَّة ولا ديمقراطية، ويجب أن تتوقَّف على الفور. وقال إنه يعتقد أن المظاهرات الطلابية الحقيقية الأولى تمَّ تحريفها بسرعة لإخفاء عنصر هدَّام مُتعمَّد هنا يسعى إلى تقويض الحكومة، ودعا جميع أولياء الأمور إلى تحمُّل المسؤولية عن السلوك القانوني المستقبلي لأطفالهم، كما دعا جميع الليبيين إلى الوقوف إلى جانب حكومتهم ضد استغلال المشاعر البريئة، ومكافحة الدعاية الكاذبة.

اعتقدتُ أن هذا نداءٌ عقلانيٌّ لجميع الأشخاص الخَيِّرين الذين يحترمون أنفسهم ويتصرَّفون بشكل لائق مثل الغالبية العظمى من الليبيين. كما أشعر بالأسف بشكل خاص تجاه الشرطة هنا، الذين وجدتُ دائمًا أنهم طيبون وودودون وفعَّالون، والعديد منهم الآن في المستشفى نتيجة لمواجهة الغوغاء دون استخدام العنف بأنفسهم.

بالأمس كان يوم السوق في الزاوية، وهي قرية صغيرة على بعد ثلاثين كيلومترًا من هنا، وكانت ممتلئةً بكل شيء. كل بلدة صغيرة لها يوم سوق خاص بها، حيث يجلب القرويون من المناطق المجاورة الإبل والأغنام والماعز والدجاج والشعير والفلفل الأحمر، وأي سلع أخرى لبيعها والمقايضة بها في السوق المفتوحة.

عادة ما تكون أيام السوق مناسبة لتجمُّعات ودية، ولكن بحلول منتصف النهار في الزاوية، تشكَّلَت مجموعة كبيرة من الشُّبَّان والصبية المشاغبين في الساحة المركزية، وهم يصرخون ويهتفون لإظهار مشاعرهم الحزينة على «شهداء بنغازي من الطلبة»- وفي الواقع، كان تجمُّعهم من أجل بدء معركة. وسرعان ما قاموا بضرب زوَّار السوق، وتخريب السِّلَع المعروضة، وركل الناس، وتعذيب الحيوانات المقيَّدة، وأخيرًا رشقوا الجميع بالحجارة في طريقهم. في البداية حاوَلَت الشرطة بهدوءٍ السيطرة عليهم، وحماية ممتلكات السوق، لكن الغوغاء سرعان ما حوَّلوا انتباههم إلى الشرطة وأمطروها بالحجارة. تجمَّع أفراد الشرطة أمام المركز وألقت قنابل الغاز المسيل للدموع على المتظاهرين، الذين تفرَّقوا للحظاتٍ، لكنهم سرعان ما أعادوا تجميع صفوفهم. هذه المرة تقدَّم المتظاهرون، ورشقوا الحجارة ولوَّحوا بسكاكينهم وصاحوا بالتهديد محاولين اقتحام مستودع أسلحة الشرطة وسرقتها. عند ذلك، فتحت الشرطة النار وقتلوا على الفور رَجُلَين على الأقل، رغم أن معظم التقارير تدَّعي وجود سبعة، وجرح حوالي ثلاثين آخرين. وأصيب عدد من رجال الشرطة، كما أصيب القائد بجروح خطيرة.

وقبل أن تهدأ العاصفة، أُضرِمت النيران في عدد من المنازل المجاورة، أحدها مملوك لمُزارِعٍ إيطالي أصيب هو وزوجته أثناء محاولتهما الدفاع عن منزلهما. الزوجة، التي كُسِرَت ساقها، تمَّ أخذها وإيواؤها من قِبَل عائلة ليبية مجاورة، وربما أنقذت حياتها مساعدة الجيران لها.

نتساءل ماذا سيكون ردُّ الفِعل في طرابلس على عمليات القتل التي قامت بها الشرطة في الزاوية، والتي أثارها المتظاهرون بالتأكيد. ومع ذلك، فإن سكان الزاوية معروفون بتعامُلِهم الخشن، ولا يحظون بشعبية في طرابلس. قال لي شاب ليبي اليوم: «حسنًا، هل تعلم أن أهل الزاوية هؤلاء دائمًا يفتعلون المشاكل. إنهم مثل سكان تكساس في ليبيا!»، ويبدو أن اغتيال الرئيس كينيدي في ولاية تكساس قد ترك بصماته هنا.

ويُقال كذلك إن الملك أصيب بنوبة قلبية في هذه الأثناء، وأنه في مستشفى قاعدة ويلوس. لكنني أشكُّ في ذلك: فلا يوجد زيادة في أعداد رجال الشرطة التي قد تؤيِّد هذه الشائعة.

حينما اتصل بي هاري هاتفيًّا ليقول إن المدينة هادئة هذا الصباح، رأيتُ استغلال الهدوء للإسراع بشراء المجلات الإيطالية. وعلى الرغم من أن بعض الشوارع كانت مليئة بالحجارة، إلا أن كل الاضطرابات قد توقَّفَت على ما يبدو. هناك قِلَّة من الناس في الخارج، ومعظمهم من الليبيين. كما رأيت الكثير من رجال الشرطة يمتشقون الهراوات. بعد الحصول على المجلات مررت أنا ولينا عبر المدينة لنرى كيف تصرَّفَت عائلة غاليانو خلال هذه الأحداث.

أخبرنا زيا ماريا- أنَّهم لم يواجهوا أي مشكلة؛ فقد بقوا داخل الشقة، ولكن كان هناك هرج ومرج دائم حولهم لعدَّة أيام. وتمَّ تحطيم محطة وقود بالقرب منهم. بقينا معهم بضع دقائق فقط؛ لأننا أردنا الابتعاد عن الشوارع بحلول منتصف النهار.

ينتهي شارع غاليانو في الطرف القديم من المدينة بطريق مسدودة، ولا أشعر بالراحة أبدًا حينما أجلس هناك في سيارتي، ومع ذلك لا أجرؤ على تركها متوقِّفةً دون مراقبة؛ فقد اعتاد الأطفال الليبيون في الجوار رميَ الحجارة بالقرب مني، وقرصَ الكلب أثناء مرورهم، والقفز على مؤخِّرة السيارة، والخبط على النوافذ، ويتمُّ تحويل انتباههم عني فقط للتأرجُح على اللوح الخلفي أو مانع الصدمات للسيارات الأخرى التي تمرُّ. وحينما أدوِّر سيارتي للمغادرة، يتجمَّع الأطفال دائمًا بشكل خطير في الأمام والخلف، حتى أتخيَّل بألمٍ وأنا أشعر بطقطقة عظامهم تحت إطارات سيارتي.

اليوم، وعلى غير عادتهم، كانوا عازمين على عدم إزعاجي، وحينما نجحتُ في الاستدارة وتنهَّدتُ بارتياح، نظرت إلى الأمام إلى حيث توجد الطريق السريعة ورأيت أن التقاطع كان مسدودًا تمامًا بتجمُّعٍ من الرجال يرتدون الجرود الليبية ويتدفَّقون خارجين من المسجد القريب. قُضي الأمر! قُلتُ لنفسي. وليس لديَّ خيار سوى

الجلوس هناك وانتظار مرورهم، أو قيامهم بكل ما يخطر ببالهم القيام به. لكن بعد بضع دقائق أدركتُ بارتياحٍ شديد أنني فقط كنتُ أشاهد مَوكِبَ جنازة!

عُدنا عبر المدينة بدون حَدَثٍ يُذكَر، وكان الهدوء المطلق الذي يسود شوارع المدينة الآن مُقلِقًا، تمامًا بمثل ما سادها من الاضطراب.

لعدَّة أيام ظلَّت المدينة هادئة تمامًا، وكما لو كانت تلك العصابات المشاغبة من نسج الخيال. حتى رجال الشرطة الإضافيين بهراواتهم الخشبية اختفوا. لكن هناك عددًا من نوافذ المتاجر المكسورة، ولا تزال أغلبية المحلات التجارية مُغلَقة، لكنَّ صمت المدينة هذا يدعو للريبة.

أحدث الشائعات تقول إن الملك قد مات، وأنَّ جُثمانه في حالة تجميدٍ عميق في قاعدة ويلوس. لا أصدِّق ذلك؛ فقط لأن الشرطة اختفت من الشوارع. وسرعان ما وصَلَت هذه الإشاعة إلى مستويات عالية، ووجَدَت لها موقِعًا في الاعتقاد العام، حتى إن السفير الأميركي ذهب أخيرًا إلى الممثِّل الشخصي للملك وأخبره أنه يتمُّ سؤاله من أطراف عدَّة حول حقيقة هذه الشائعات، وأن الناس يرفضون بعنادٍ تَصديقَ نَفيِه لها، واقترح أن يظهر الملك شخصيًّا، أو على الأقل إلقاء بيان تلفزيوني أو إذاعي؛ لتأكيد حقيقة أنه لا يزال على قيد الحياة.

ومع ذلك، فقد ثبت أنه من المستحيل إقناع الملك بالظهور الشخصي؛ فهو أمرٌ يكره القيام به. تمَّ إقناعه أخيرًا بالإدلاء ببعض التعليقات في الراديو حول الأحداث غير ذات الصِّلَة. وعلى الرغم من أن موضوعه عزَّز بالأحرى الجانب الغرائبي من الأخبار المحلية، لكن في النهاية أدَّى حديثه إلى إنعاش شخص الملك في ذهن الجمهور.

لم تتِمَّ محاكمة أفراد شرطة بنغازي بعد. أحدهم، وحينما تمَّ إحضاره إلى المحكمة لتوجيه الاتهام إليه، اختُطف من بين الشرطة الذين يحرسونه، من قِبَل أفراد قبيلته أثناء مغادرته المحكَمَة، ومع ذلك

فقد أعيد بعد بضع ساعات. لا بُدَّ أن الكثير من المساومة قد دار حول هذا الموضوع، فوق تراب برقة الأحمر!

أعتقد أن هذه هي نهاية أعمال الشغب... لهذا الوقت على الأقل. وبلا شك فقد تسبَّب مقتل طلبة المدارس في بنغازي في أزمة نفسية حقيقية. وكان معروفًا لشرطة الأمن والملك أن المحرِّضين المصريين والثوريين الليبيين كادوا أن يطلقوا شرارة الثورة التي طال الحديث عنها مستغلِّين هذه الأزمة، لكن شرطة طرابلس حافَظَت على هدوئها ووقَفَت حازمة. وفي النهاية، قام رئيس الوزراء الجديد، مع مجلس وزرائه، بجمع أتباعه المخلصين معًا وإجراء الكثير من المساومات في الوقت المناسب. في غضون ذلك، تعلَّمنا كم كانت الثورة قريبة.

الطوارق

وهكذا ينتهي رمضان آخر. السلام والفرحة في عيد الفطر يحلَّان بيننا مرَّةً أخرى. جماعات من الشباب الليبيين يخرجون في ملابس العيد ويبدون مثل الأسماك الاستوائية الملوَّنة الرائعة، يسيرون في

الطرقات، يدًا بِيَدٍ واثقة. كان الله يراقب هناك. وكل شيء على ما يرام هنا!

لقد تمَّ نسيان الماضي، وجرى تنظيف الشوارع من الحجارة، وتمَّ إصلاح الزجاج الأمامي للسيارات (التكاليف على الحكومة!)، وأفراد الشرطة المصابون غادروا المستشفيات، وكل الأولاد -الكبار والصغار- يتصرَّفون بطريقة مثالية.

ربَّما لم يحدث شيءٌ أبدًا!

---

* هذان الرجلان وهما بوقويطين والشلحي، تُوفِّيَا خلال العام، الشلحي في حادث سيارة، وبوقويطين لأسباب طبيعية.

43. رَجُلان قويَّان

«سيد القوم خادمهم».

(مَثَلٌ عربيٌّ)

هنا في ليبيا، كلُّ ما يبثُّه راديو القاهرة، وجميع قنوات الدعاية التي تحرِّض وتُمجِّد، يتلقَّفه آلاف المدرِّسين المصريين والشباب المتحمِّس، فليس من المستغرب أن يُنظر إلى جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية العربية المتحدة على أنه بطلٌ قوميٌّ؛ فهو في العالم العربي معبود الشباب، وهو الديكتاتور الذي يقرِّر سياساته. وللإنصاف؛ فهو يستحقُّ هذه المكانة؛ فلم يفشل في قضية أبدًا، وصورته لم تتصدَّع أبدًا.

وهنا، كثيرًا ما تُعلَّق صورة ناصر بجانب صورة الملك الليبي. هذا المصري العظيم، لديه عينان آسِرتان متوهِّجتان، أسنانه البيضاء تلمع، وبأنفه الضخم البارز، وفكِّه العريض الذي يبرز إلى الأمام فيعطيه هيئة محارب، يبدو كما هو عليه بالفعل: رجل ذو شخصية قيادية، ورجُلٌ يسهُل الانقياد له، وأن يكون مصدرَ إلهام للآخرين. كما أنه يقدِّم تباينًا غريبًا ومهمًّا مع المظهر اللطيف والأرستقراطي للعاهل الليبي.

في كل مبنى ومكتب ومطار ومقهى، في ڤيلا أو في كوخ من الطين، أو في خيمة في عمق الصحراء، وفي كل واحة، تقترن صورة الملك المُجلَّلة بالوقار بصُحبَةٍ شاذَّة مع صورة لابتسامة عبد الناصر العميقة. ومع ذلك، فإن ملامح الوجه الصارمة، المتشدِّدة، النبيلة، تعطي انطباعًا مختلفا عن العالَم الآخر لهذا الدبلوماسي الفَطِن والزعيم الروحي والديكتاتور والملك.

لم تكن مفاجأة لأحدٍ في ذكرى يوم الوحدة وإقامة الجمهورية العربية المتحدة في 22 فبراير 1964 حينما ألقى ناصر خطابًا منمَّقًا وناريًّا في القاهرة. كانت المناسبة تستدعي إطلاق بعض الألعاب النارية، ووجد عبد الناصر موضوعًا يروق للجماهير، حيث قال إن القواعد الأجنبية في ليبيا تُشكِّل تهديدًا للسلام العربي كله، وطالب بالتصفية الفورية لها.

لو تحدَّث أي كائن آخر بهذه الطريقة عن ليبيا لأثار الغضب الشديد. وفي الواقع، كان الأمر كذلك، لكن ناصر كان بمثابة الأخ الأكبر المُهَيمِن؛ وبالتالي ينجو دائمًا بفعلته. تضمَّن خطاب ناصر نقطتين حول هذا الأمر، أوَّلًا: قال إن القواعد الأجنبية ستتعرَّض إلى ضربة انتقاميَّة في حال نشوب أيِّ حرب. وثانيًا: قال إن القواعد الأجنبية في ليبيا ستنقلب على العرب في أي حرب مع إسرائيل، طالما استمرَّت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى في دعم ومساعدة إسرائيل! كان من السهل تجاهُل حقيقة أن القواعد البريطانية الليبية قد ثبت بالفعل عدم جدواها ضدَّ أي دولة عربية أخرى خلال أزمة السويس، حينما قامت بريطانيا، بناءً على طلب ليبيا، بإلغاء تنشيط قواعدها هنا. لكن ناصر كان يعلم أنه يلعب على وتَرٍ حسَّاس؛ لأنه لا يوجد بلدٌ يمكن أن يرغب في رؤية جنود أجانب على أرضه، ثم قال في النهاية إنه لا شيء إلاّ طلبُ التصفيةِ الفورية للقواعد الأجنبية يجعل الإخوة العرب يشعرون بأنهم إخوةٌ بالفعل!

لكن تلخيصًا لما تعنيه القواعد لليبيا، فقد أهمل ناصر الإشارة إلى حقيقة أن هذه القواعد الأجنبية نفسها هي التي منَحَت ليبيا الأمن طوال سنوات نشأتها القصيرة: (أ) ضد الفتنة الداخلية، أو الثورة. و(ب) ضد أعين الجيران غير المطمئِنة. الآن وقد أصبحت ليبيا واحدة من أغنى الدول العربية، فإن هذا السبب الأخير كان بالِغَ الأهمية بشكل خاص.

ربما يكون سرُّ طلب عبد الناصر تصفية القاعدة في ليبيا يكمن في اكتشاف النفط؛ ففي نهاية عام 1963 أصبحت ليبيا ولأول مرَّة

في تاريخها تتمتّع بميزان تجاري ملائم، مع تسجيل صادرات أكثر من الواردات؛ وذلك بفضل عائداتها النفطية الكبيرة، والتي تَعِدُ بالزيادة في السنوات القادمة. وعلى الرغم من أن عائداتها النفطية المستقبلية ستجعل ليبيا مستقلّةً ماليًّا عن اتفاقيات القواعد الأجنبية فيها، إلّا أن تلك العائدات تجعلها بحاجة إلى ضمان أمن حدودها وضمان السِّلم الأهلي أكثر من أي وقت مضى.

ولِفَهم قضية اتفاقيات القواعد الأجنبية يجب على المرء العودة إلى عام 1951، حينما عُيِّن محمود المنتصر في منصبه لأول مرة، ودخل التاريخ الليبي كأول رئيس وزراء للمملكة المستقلّة. استمرَّ محمود المنتصر في منصبه حتى أبريل 1954، وخلال هذه الفترة تفاوض على اتفاقية القاعدة العسكرية البريطانية بموجَب معاهدة الصداقة والتحالف بين بريطانيا العظمى وليبيا، والتي تمَّ التوقيع عليها في نهاية المطاف في عام 1953. وبالمناسبة، فقد قلَّصَت الاتفاقيَّةُ من تَحرُّكات القوات البريطانية التي كانت منذ الحرب منتشرة في جميع أنحاء ليبيا خلال الاحتلال العسكري البريطاني.

بموجب هذه المعاهدة قُدِّمَت المساعدة المالية لليبيا مقابل استخدام القواعد، لكن المعاهدة لم تكن مسألة أموال بالكامل. فقد كانت أيضًا لتحصين وحماية استقلال المملكة الناشئة حديثًا ضد أي عدوان محتَمَل من الجيران، وللمساعدة في الحفاظ على الأمن الداخلي في دولة ذات سيادة تمَّ إنشاؤها بشكل اصطناعيٍّ من ثلاث مجتمعات معادية لبعضها البعض، وهي: طرابلس وبرقة وفزان.

كانت المشكلة الأولى لليبيا تتمثَّل في قمع الطموحات الإقليمية البحتة للأقاليم الثلاثة المنفصلة، والتي أصبحت الآن مُوحَّدة بحُكم القانون. طرابلس، التي كانت مُستَعمَرة إيطالية في السابق، كانت متقدِّمةً إلى حدٍّ كبير، وأوروبية إلى حدٍّ ما. وفزَّان، التي تشمل الصحراء بأكملها، لا تزال تحت الإدارة العسكرية الفرنسية. أمَّا برقة، فعلى الرغم من احتلال إيطاليا لها بشكلٍ سطحي، إلا أنها كانت بدويَّةً أكثر من كونها عربيَّة. ولَطالَما كان الإقليم ساحة صراع للعديد

من القبائل البدوية المتنوِّعة التي ترفع شعار: «سَمعًا، لكن لا طاعة»- واستمرّ الأمرُ على هذا المنوال.

الملك إدريس -بصفته أميرًا على برقة- كان الشخص الوحيد الذي له سلطة على رجال القبائل هناك، وكان قد قضى واحدًا وعشرين عامًا في المنفى في مصر، في انتظار استقلال بلاده. وحينما أصبحت الرؤية حقيقة، وظهرت ليبيا أخيرًا كدولة، لم يكن هناك منافس آخر يمكن أن يجمع المحافظات الثلاث معًا- غير إدريس المهدي السنوسي، الزعيم الروحي الأعلى لجميع الليبيين المسلمين. كان هذا يبدو كموقف مُتسلِّط، استلزم سُلطَةً روحيَّةً استبدادية متشدِّدة؛ فالإسلام هو نهج حياة يتماشى مع العصر، بالإضافة إلى كونه روحانيًّا. وهكذا تجسَّدَت في الملك إدريس كل القوة في ليبيا: الروحية والمادية على حدٍّ سواء.

يرتبط تاريخ اتفاقية القاعدة الجوية الأميركية، التي بموجبها يتمُّ الاحتفاظ بقاعدة ويلوس في ليبيا كأكبر قاعدة جوِّيَّة أميركية خارج الولايات المتحدة، بشكل غير مباشر بالاتفاقية البريطانية. وبينما كان البريطانيون لا يزالون منخرطين في الحرب العالمية الثانية واحتلال الأراضي الليبية، منحوا حليفتهم الولايات المتحدة الحَقَّ في استخدام قاعدة جوية عسكرية بالقرب من طرابلس في الملَّاحة، والتي أصبحت فيما بعدُ قاعِدةَ ويلوس الجوية.

بعد انتهاء الحرب، وحينما تمَّ نقل السُّلطة العسكرية البريطانية إلى الدولة الليبية المستقلّة، وبسبب التهديد السوفييتي لطرابلس طلَبَت الولايات المتحدة من ليبيا مواصَلَة العمل باتفاقية القاعدة. وأجرى رئيس الوزراء المنتصر مفاوضات المعاهدة الأميركيّة من أجل ليبيا، في الوقت نفسه الذي كانت فيه المفاوضات بشأن المعاهدة البريطانية، لكن المعاهدة الليبية الأميركية لم تنتهِ حتى عام 1954، في عهد مصطفى بن حليم، رئيس الوزراء الليبي الثاني. ومقابل حقوق استخدام القاعدة الجوية، تعهَّدَت الولايات المتحدة بموجب هذه المعاهدة بتقديم مساعدة ماليَّةٍ لليبيا على مدى الثمانية عشر عامًا

القادمة، أو حتى عام 1972. كما أدَّى وجودها إلى تعزيز الأمن الداخلي والخارجي لليبيا. كانت هذه باختصارٍ اتِّفاقيات القواعد البريطانية والأميركية مع ليبيا، والتي كانت في عام 1964 مُهدَّدة بالتصفية والإلغاء من قبل الحكومة الليبية، بضغط من مصر.

ثم في أوقات مختلفة، شغلَت العائلات العسكرية البريطانية والأميركية حوالي ألف منزل وشقة في طرابلس. ووظَّفَت القواعد البريطانية عدَّة آلاف من المدنيين الليبيين، بينما وظَّفَت القاعدة الأميركية أكثر من ذلك بكثير. بالإضافة إلى ذلك، يعمل عدد كبير من الفتيان والشبان الليبيين في خدمة المنازل مع أُسَر بريطانية وأميركية.

قدَّم سائق هاري الليبي، حمَّاد، تعليقًا موضوعيًّا على الإلغاء المقتَرَح للقواعد هنا. وحماد أبٌ لسبعة أطفال، ويعمل سائقَ تاكسي بعد الدوام الرسمي. ويقول حماد بكل بساطة: «مَن يوفِّر لي الطعام هو أبي! أريد القواعد أن تبقى!».

عيد قيام الجمهورية العربية المتحدة، أي الذكرى السادسة لاتحاد مصر مع سوريا، تجاهَلَ بلباقةٍ حقيقةَ أن سوريا كانت على مدى السنوات الثلاث الماضية قد انفصَلَت عن مصر. كانت الجمهورية العربية المتحدة مسرورةً بمهاجمة القَذْرة التي في عين ليبيا، وتتجاهل اللوحَ العريضَ الذي في عينها* وبالتالي تطالبها بتصفية القواعد الأجنبية. جاء خطاب عبد الناصر لليبيا عبر راديو القاهرة، وأثار على الفور شريحتين من الشعب الليبي: الشباب والساسة الليبيين، المستعدِّين دائمًا لاستغلال اللحظة. وبين عشية وضحاها، نشأ هنا «مطلب شعبي» للتصفية الفورية للقواعد.

الصحافة الليبية المحلية، التي عادة ما تكون مُقيَّدة بقوانين الرقابة، كانت منفتحةً تمامًا على هذا الحدث، وأطلَقَت صرخات هستيرية مُطالِبَة بخروج الأجانب من البلاد، واصِفةً القواعد بالطُّغاة الأجانب، المستغِلِّين، والمعتدين، وتجار الحروب، والمتنمِّرين، والمغتصبين. وأن هذه هي مطالب الشعب. لكن من بين أصدقائنا الليبيين المقرَّبين، لم نجد مَن يُردِّد مثل هذه المطالب. ومن خلال

الاتصالات مع الوزراء والأُمَناء الدائمين، لم يجد هاري أحدًا منفعلًا حيالَ هذا الأمر. صحيح أن كل ليبي سيكون سعيدًا (وأنا متأكِّدة أن كل أميركي سيكون كذلك في الموقف نفسه) ألَّا يرى جنودًا أجانب على أرضه- لكن المُطَّلِعين على دقائق الأمور هنا يقدِّرون الاستقرار الذي وفَّرَته معاهدات القواعد لليبيا. وما إذا كان بإمكان ليبيا الاحتفاظ بوجودها واستقرارها بإمكاناتها الذاتية هو أمرٌ لا يتعلق بالأماني، بقدر ما يتعلَّق بالقدرة.

في غضون ذلك، كانت قضية تصفية القواعد تلتهب أو تخفُّ وفقًا لمستوى التأجيج أو التغاضي من قِبَل القاهرة وتابعيها، واستمرَّ ذلك حتى موعد اجتماع البرلمان الليبي في العاصمة الصيفية: البيضاء. هنا أصبح «النواب الخمسة المنشقُّون» كما أطلقوا عليهم، يشكِّلون لوبي سياسيًّا نَشِطًا بقوَّةٍ في نقل قضية تصفية القواعد إلى أروقة البرلمان. وعلى مدار يومين، كانت القضية محلَّ نِقاشٍ ساخن، على الرغم من أن كلَّ ما يُقال ومن قد لا يكون معروفًا أبدًا في العالم الغربيِّ، حيث يُعتقد عمومًا أن مجلس الوزراء والأعضاء الأكثر تقديرًا للمسؤولية في كلٍّ من مجلس الشيوخ ومجلس النُّوَّاب لم يرغبوا في المطالبة بالتصفية الفورية للقواعد، لكنهم لم يجرؤوا على اتخاذ موقف عَلنيٍّ للوصول إلى حلٍّ وَسَط في هذه البلاد، والتي باعتبار نظامها الملكي، فهي هدفٌ غير محميٍّ من المدِّ الثوري والفكر العربي الجديد. وفي مواجهة المطالب الدعائية لناصر، يمكن بسهولة أن يبدو أن التصويت ضد التصفية الفورية للقواعد بأنه خيانة للتضامن العربي.

ومع ذلك، قام رئيس الوزراء المنتصر نفسه، بشجاعةٍ، ودون تفكيرٍ في تَدنِّي شعبيته، بإعلان احتجاجَيْن منفصِلَيْن ضد مطالب التصفية الفورية. وفي كل مرة اقترح الوصول إلى تسوية مع تعهُّدٍ بالقيام بدبلوماسيَّةٍ أكثر لـ «فتح مفاوضات لمناقشة مستقبل القواعد»، لكن هذا لم يُرضِ السياسيين، حيث طُلب تصويت بالإجماع، ونُفِّذ -في كلٍّ من مجلسي النوَّاب والشيوخ- لإجبار الحكومة على طلب «التصفية الفورية» للقواعد. في الوقت نفسه، قدَّم المجلسان إنذارًا نهائيًّا

للحكومة: أمام الحكومة من شهر إلى ثلاثة أشهر لاستكمال مطالب تصفية القواعد. بعد ذلك، سيتصرَّف مجلس النُّوَّاب من تلقاء نفسه. يا له من إنذار لتسليمه إلى ملك! وبعد هذا الإجراء وافق رئيس الوزراء على طلب النظر الفوري في التصفية.

تمَّت هذه الأنشطة في مدينة البيضاء، العاصمة الصيفية لليبيا الآن، والتي كانت حتى سنوات قليلة مضت قريةً صغيرةً بالكاد يمكن الانتباه إليها حينما يمرُّ المرء بها على الطريق. في عام 1946 كانت هذه القرية مسرحًا لمشهد ذي أهمية حينما عاد إدريس، الذي كان لا يزال مقيمًا في مصر، حيث كان يُجري مساومة دبلوماسية مع البريطانيين من أجل استقلال بَرقَة الكامل كإمارة، وعاد إلى البيضاء في زيارة قصيرة. بمجرَّد أن عُرف وصوله، أحاطت بالڤيلا الصغيرة على الفور مجموعةٌ من زعماء قبائل بَرقَة الذين توسَّلوا إليه بالبقاء في بَرقَة كزعيم لهم وعدم العودة إلى مصر أبدًا. ومع ذلك عاد إدريس -الذي كان بالفعل مُحنَّكًا وبارعًا في السياسة- إلى مصر لتقوية يده في المساومة مع الحلفاء. وحينما عاد مُجدَّدًا في عام 1947 إلى برقة للإقامة بها، كان ذلك فقط بعد تأكيد بريطانيا العظمى أن بَرقَة يجب أن تحصل على استقلالها. في عام 1949 أصبحت برقة إمارةً مُستقلَّةً تمامًا، وإدريس أميرًا لها، وكانت هذه الخطوة الأولى نحو استقلال ليبيا بأكملها.

سرعان ما كانت التحرُّكات القومية تغلي لصالح الوحدة مع طرابلس، ونيل الاستقلال للجَمعِ بين برقة وطرابلس. وفي الوقت نفسه بدأت فزَّان -التي لا تزال تحت الحُكم الفرنسي- في التمرُّد، وبدأ الوطنيون هناك سِرًّا في التفاوض مع اتحاد برقة وطرابلس من أجل إقامة دولة فدرالية مستقلَّة مُكوَّنة من ثلاث ولايات. وفي الوقت المناسب، بعد المرور عبر مشقَّة التبعية لوصاية الأمم المتحدة، والهروب من حلبة التودُّد السوفييتي، ظهَرَت المملكة الليبية المستقلة، وتمَّ إعلان الاستقلال في 24 ديسمبر 1951.

في 23 مارس 1952 أدى إدريس باعتباره الملك يمين الولاء للمملكة الليبية المستقلَّة. لطالما كان إدريس ملكًا مستنيرًا، لكنه أيضًا

حاكِمُ بعقلية شرقية. ويظهر وعيه بسُلطَته وصِحَّة أحكامه في كل ما يَصدُر عنه من قول؛ فهو يُمثِّل السُّلطة في ليبيا ، على الرغم من عمره وضعفه الجسماني الواضح، وبالرغم من ذلك فهو الرجل القوي هنا ، سواء من خلال مكانته الروحية، أو من خلال التراث التبشيري السنوسي الممتدِّ في المنطقة، وكذلك فإن شخصيته لا يمكن تعويضها ، وطبيعته غير قابلة للفساد- إلَّا بالمساومات التي قد تفيد بلاده؛ لأنه مُخلِصٌ بالكامل لمفهوم الوطن الليبي.

إذا نظرنا إلى الوراء على مدى السنوات العشرين الماضية، نرى أن هذا الرجل شخصٌ فاضل، ومُلهِم، وقوة عظيمة، وباني استقلال ليبيا . والمعروف لدى الجميع أنه لا يوجد شخص بعينه يمكنه الحفاظ على الأقاليم الثلاثة مترابطة معًا باستثناء إدريس، الذي يحكم كزعيم قبيلة، وكفرد من القبيلة، وكملك أيضًا . لكن اليوم، يودُّ عدد قليل من الشباب المعاصرين ذوي الأفكار الثورية -لأغراض أخرى- التدخُّل واستغلال هذه الوحدة الأوَّليَّة التي جلبها إدريس لبلده. ومع ذلك، يتمتَّع الملك بحسٍّ سياسي دقيق يجعل من الصعب عليه المناورة- حينما يتعيَّن عليه، بالإضافة إلى كل ما سبق، الإخلاص الكامل إلى القبائل الليبية. وهكذا فوجود ليبيا التي تتمتع بالكرامة، وبحيوية متنامية واحترام للذات، وثقة متزايدة بالنفس، هو في الحقيقة تكريمٌ لقوة شخصية الملك هذه. وهديته لليبيا اليوم هي بقاؤه على قيد الحياة.

في ظل اكتشاف قوى الأمن الليبية مؤخَّرًا لمؤامرة ثورية لتحويل المملكة الليبية إلى جمهورية بهدف توحيدها مع مصر؛ فليس من المستغرب أن يكون الوطنيُّ الحكيم الملك إدريس متيقِّظًا تمامًا لنبرة النقد التي تبرز الآن... لقد عانى بلا شكٍّ من انزعاج شديد حينما استمع إلى الخطب المسعورة في البرلمان ضد القواعد العسكرية الأجنبية. وبعد عدة أيام من الصراخ العالي، دون أن يتحدث أحد عن الحقيقة

الموضوعية باستثناء رئيس الوزراء. وعلمنا أن الملك الذي اشتهر بالوفاء بوعوده، قد دعا حكومته إلى اجتماع معه وتحدَّث إليهم بحرارة قائلا:

«هذا البلد لا يستحقُّ أن يكون له حاكِمٌ جيِّد، أو حكومة محترمة! لقد سَئِمتُ منه ومن هذا النقد الذي أسمعه ويشمل أيضًا العائلة السنوسية! لقد سئمتُ تمامًا من كل هذه الحماقات! وسوف أتخلَّى عن العرش!»، ثم يُقال عنه إنه أضاف بلَباقَةٍ أن أسبابه هي تدهور حالته الصحية، والشيخوخة!

لم يُعلِّق جلالته على عدم اهتمامه بإملاءات «الأخ» عبد الناصر عليه، ولا حول الأنشطة التخريبية الداخلية، لكن من المعروف أن الملك غيور جدًّا على الحقوق الوطنية الليبية. ومباشرة بعد بيانه الحاسم، جَمَعَ أفراد العائلة المالكة حوله، وقام بوضعهم في السيارات الملكية، وانطلقوا من البيضاء مُتَّجِهين إلى طبرق، مقرِّ قصره المُسمَّى «دار السلام».

كم من تصرُّفات الملك كانت خادعةً؟ وكم كان صبره مبالَغًا فيه؟ وكم يتعلَّق ذلك بحدسه السياسي والمعرفة العميقة بالقبائل التي تُخلِص له؟ وكم كانت الضرورة المُلِحَّة لإبداء الغضب من جانب الرجل الذي عُرف عنه لسنوات عديدة سيطرته على غضبه؟ لن نعرف الإجابة أبدًا؛ لأننا في الحقيقة أمام ملك مُسِنٍّ ومُتعَب...

طبرق هي بلدة ساحلية صغيرة تبعد نحو تسعين كيلومترًا عن الحدود المصرية، وكانت ذات يوم مسرحًا لأكثر المعارك دموية في شمال إفريقيا أثناء الحرب العالمية الثانية، وهي معروفة الآن بشكل رئيس بأنها المقرُّ المفضَّل للملك. في غضون ساعات قليلة، اكتظَّت البلدة الصغيرة برجال القبائل من جميع أنحاء برقة، وبزيارة للشخصيات المهمَّة التي جلبتها طائرةٌ مُستَأجَرة من طرابلس وفزَّان. وسرعان ما امتلأ كل فندق صغير، ومنزل قابل للسكن، وكوخ، ومطعم، ومدرسة- بالبشر، ونام آلاف الأشخاص في سياراتهم أو على الأرض خارج القصر الملكي، حيث انتظروا بقلقٍ على أمل سماع أن

الشائعات حول تنازُل الملك مُزيَّفة، أو إن كانت صحيحة؛ على أمل إقناع الملك بإعادة النظر فيما انتوى.

في الأثناء، ينتقل الملك وأسرته على عجل من قصره إلى مسكنه الخاص الصغير القريب في باب الزيتون. هذه الخطوة تعطي مصداقيَّةً أكبر للتقارير التي تفيد بأنه تنازَلَ عن العرش. فمنذ عدة أيام، يعتقد سُكَّان برقة أنهم بلا رئيس دولة. وهكذا من المحتمل أنه تمَّ إنقاذ البلد من العنف والاضطراب من خلال الشيء نفسه الذي كنت أستنكره في كثير من الأحيان، أي الرقابة على الأخبار- ومنع محاولة التنازُل عن العرش أن تكون معروفة في جميع أنحاء البلاد حتى مرَّت الأزمة بسلام.

صباح يوم السبت، وعقب خروج الملك المتسرِّع من العاصمة، وصل رئيس الوزراء يرافقه الوزراء وقادة الجيش وقوات الأمن، وعمليًّا كلُّ مَن له أهمية في البرلمان، في موكب سيارات إلى بوابات القصر، ومن هناك إلى بيت الملك. وسرعان ما أصبح معروفًا أن مؤتمرًا حاسمًا ينعقد الآن.

وفي الوقت نفسه أخَذَت حشودٌ متزايدة من الليبيين تتجمَّع باستمرار: سكان المدينة، وسكان الصحراء، والبدو، والرعاة، والمزارعون، وكبار السن والشباب، يرتدون الجرود أو الثياب الإفرنجية، وكانوا خارج القصر والمنزل، حيث يقيم الملك، وهم يهتفون بالولاء للملك، ويخلطون وعودهم المخلصة، مع دعوة بعدم التنازُل والدعاء إلى الله أن يحفظ للملك. لم يسبق في تاريخ ليبيا أن أُعلِن مثل هذا الإخلاص والولاء لأي إنسان.

الملك إدريس الأول

لدينا جميعًا قوة كامنة فينا أكبر ممَّا نعرف عن أنفسنا. لدينا جميعًا قدرة تفوق القدرات الجسدية التي تبدو لنا، حينما نطلب المساعدة من إلهنا. وحينما تصلِّي أُمَّةٌ بأكملها إلى الله؛ يجب أن تهزَّ قوَّةُ الصلاة السَّماءَ والأرض. وربما صلَّى الملك إدريس أيضًا طَلَبًا لتوفيق الله، وأن يجد الإجابة لمحنته في صدى صلاةٍ ما. حينذاك وبتلقائية تامَّة يفعل الملك شيئًا هذه الليلة لم يفعله تقريبًا من قبل- حيث يظهر شخصيًّا أمام مواطنيه. يوقف هدير الجماهير المبتهجة بإشارة طفيفة من يديه المرفوعتين وهو يقف أمامهم، كرمزٍ روحي، وكرمز لأخوَّتهم القبلية.

يخاطبهم: «إخوتي المواطنين وأتباع الإسلام. اهتمامي الوحيد بكم يا شعبي. كنت أنوي التنازُل عن العرش على الفور؛ بسبب حالتي الصحية وكِبَر السِّنِّ؛ لأنني كنت أخشى ألَّا أتمكَّن من خدمتكم كما يجب. ومع ذلك...» توقَّف ونظر إليهم بصرامة، قبل أن يضيف اللمسة الملكية الحقيقية، «ومع ذلك، لم يكن الأمر كذلك، ولم يكن أبدًا

لأننا على خلاف مع حكومتنا؛ فحكومتنا مُخلِصةٌ لنا... ولو اعتقدنا خلاف ذلك لأصدرنا أمرًا بحلِّها! وبالمِثل، فإن مجلس نُوَّابنا مُخلِصٌ لنا... ولو كُنَّا نظنُّ خلاف ذلك لقُمنا بحَلِّه!»، وهكذا يؤكِّد لهم مرَّةً أخرى أن شيخوخته فقط هي التي تجعله يطلب الراحة. مع ذلك، وبعد أن رأى هذا الدليل الهائل على ولاء الشعب، وعاطفته تجاهه، ورغبته الشديدة في أن يظل ملكًا؛ غيَّر رأيه. لقد قرَّر البقاء على العرش، بغَضِّ النظر عن شيخوخته وتعبه، وهو يَعِدُهم الآن بتكريس السنوات المتبقية من حياته لخدمتهم.

إن بيان الملك الكريم يصدر بصوت واضح وحاسم. حديثه هذا لا يُعدُّ من فن الخطابة، وإنما هي كلمات وطنيٍّ عجوز شجاع وذكي يُقدِّم نفسه وروحه وجسده لخدمة بلاده، ولم يذكر ولي العهد الأمير حسن الرضا.

أطلق الحشدُ تنهيدات الراحة: حمدو للهّ! حمدو للهّ! لقد تمَّت إرادة الله! رجال الصحراء بكل تشعُّباتهم وأطيافهم يعرفون طريقة وحيدة للتعبير عن فرحتهم؛ فانطلقت ألوف الحناجر الليبية مُعبِّرةً عن عاطفتها، وتشكر الله عزَّ وجلَّ، ربَّ العالمين الرحمن الرحيم، الذي استجاب لصلواتهم.

في هذه الليلة صمت راديو القاهرة، وماذا عن القواعد العسكرية؟ إنها لا تزال باقية في ليبيا، في انتظار خطاب آخر في ذكرى قيام الجمهورية العربية المتحدة، كما أتوقَّع.

---

* عن آية في إنجيل متَّى، تنصُّ على أن الحكم على خطيئة الآخرين بينما نتجاهل خطايانا هو أمرٌ سخيف، مثل انتقاد شخصٍ ما في عينيه غُبار، بينما عينُنا مُخَوزَقة بعصا. المترجم.

44. ازدهارٌ في أرض بارباري*

الله الرحمن الرحيم، هو الذي أنعم في الماضي السحيق على الصحراء الليبية برواسبها الأحفورية المدفونة، واليوم تُشكِّل تلك الرواسبُ النفطَ الليبيَّ الذي لا يُقدَّر بثمن.

في هذه الأوقات، هناك صراع للبقاء على قيد الحياة، والذي كان ديدن أهل هذه الأرض عبر التاريخ كله، لكن هذا تغيَّر في ليبيا بين عَشيَّةٍ وضُحاها. الليبيون الذين رفعوا رؤوسهم أخيرًا كانوا قد خاضوا معاركهم حُفاةً، ألسنتهم تلهج بذِكر نَبيِّهم طوال الوقت، وعبدوا الله في هذه الصحراء مُرتَدين أسمالًا بالية، أصبحوا الآن مُوسِرين فجأة.

الله بيده كل شيء، ولكن المال يساعد إذا استُعمِل بشكل صحيح، لكن هل يمكنهم استغلاله كما يجب؟ وهل يستطيع الليبيون النجاة من عقبات الازدهار المفاجئ؟ أرى أنهم يبذلون جهدًا هائلًا.

قصة النفط الليبي رائعة، وتستحقُّ أن تُروى، ومن المُسلَّم به أن الإله بدأها منذ دهور. لقد انصبَّ الاهتمام الشديد بالصحراء الليبية للمرة الأولى في عام 1947، ثم توقَّف تماما. لم يكن حتى عام 1955، بعد اكتشاف النفط في الصحراء الجزائرية، حينما بدأ استغلال النفط في ليبيا بشكل جدِّيّ. وبعد أربع سنوات فقط، في عام 1959 صادفت (إسُّو ليبيا) تدفُّقًا هائلًا للنفط في بير زلطم في صحراء سِرت، ومنذ ذلك الوقت وصلت شركات جديدة واستكشفَت وحفَرَت وعثَرَت على مخزونات جديدة. الآن هناك توقُّعات للعثور على ثروات هائلة في ليبيا، وأن مستقبلها يُكتب من جديد.

ومع افتتاح خط أنابيب النفط إلى مرسى البريقة، بطول 167 كيلومترًا عبر صحراء سِرت في أكتوبر 1961، بدأ أول نفط خام بالتدفُّق من الصحراء الليبية إلى الأسواق الخارجية، وأصبح حلم الثروات والازدهار حقيقة واقعة. وأن تتحوَّل ليبيا قريبًا من كونها دولة

مُثقَلَة بالديون على الدوام، إلى دولة ثريَّة للغاية. وفي فبراير 1965، وافَقَت ليبيا على بناء خط أنابيب خامس. وحينما تعمل جميع خطوط الأنابيب، ستكون لديها قدرة لتصدير النفط الخام بمقدار مليونين ونصف مليون برميل يوميًّا. واليوم في ليبيا، يشارك الجميع في توقُّعات المستقبل العظيمة.

الفنادق هنا مشغولة دائمًا، ويتمُّ بناء فنادق جديدة، كما يتم إنشاء مباني المكاتب الحديثة لشغل شركات النفط. منازل وشقق جديدة تُبنى، والإيجارات وأسعار المواد الغذائية والأجور ترتفع. ويزداد عدد سكان المدن، بينما الواحات والمناطق الداخلية تُصبح مهجورة جزئيًّا.

مع وجود عائلات موظَّفي النفط والأجانب الذين يأكلون بشهية؛ فإن ليبيا لا تُنتِج ما يكفي من اللحوم والخضروات لإطعامهم. في الواقع، ومع الطلب المتزايد على الغذاء، فإن إنتاج ليبيا من الغذاء متناقِصٌ الآن؛ لأن رعاة الماشية والمزارعين يرغبون في أن يصبحوا عُمَّالًا في صناعة النفط! ويتم استيراد المواد الغذائية الخاضعة لضرائب عالية لصالح الأذواق الأجنبية. آلات النفط والأنابيب ومستلزمات شركات النفط تُستورد من الخارج، وتنهض الأعمال ومشاريع التجارة على مبيعاتها وتوزيعها. كما يتمُّ جني ثروات من النقل بالشاحنات في الصحراء، وفي الوقت نفسه تقوم الشاحنات بتخريب الطرق، وتجعل القيادة على الطرق السريعة خطرًا. كما ألاحظ أن لهجات تكساس في كل مكان. ويهتمُّ غالبية الأجانب فقط بجلب أسلوب حياتهم إلى ليبيا، بدلًا من رؤية الحياة في ليبيا.

الملك إدريس والحكومات الليبية التي تتغيَّر فجأة بين عشية وضحاها، دليلٌ على عدم الاستقرار الذي هو أكبر عاملٍ ضارٍّ في هذه الصورة الواعدة، لكن الملك والحكومات اتَّخذوا موقفًا حازمًا -من حيث المبدأ على الأقل- وهو التعهُّد بإنفاق سبعين في المائة من دخل النفط** على برنامج تنمية وطنية بعيد المدى؛ فالملك كان قد تعهَّد أن يستفيد عموم الناس من ثروة النفط. ومع تضاؤل فرص العمل في مجال النفط، يجب أن تكون هناك وظائف أخرى متاحة للناس، لكن

مثل هذه الوظائف تتطلّب تطوير مهارات جديدة بين الليبيين، وهذا يستغرق وقتاً. ومع ذلك، فالخطوة الأولى هي أن الملك والحكومة (ولكن أي حكومة؟) قد كرَّسَا الأموال لفائدة الشعب. يبقى فقط للشعب أن يستفيد منها!

هاري أيضًا، منخرطٌ في هذه الموجة من الازدهار المتوَقَّع، فالخطة الخمسية للإنفاق القومي للملايين قيد التنفيذ. وتألَّف المخطِّطون من وزراء دولة وأُمَناء دائمين ومستشاريهم المختلفين، الذين من بينهم هاري. وحقيقة أنه تنقَّل في جميع أنحاء ليبيا، من الحدود إلى الحدود، وهو ما فعله القلائل من الليبيين، يمنحه نظرة ثاقبة لمشاكل البلاد، ويعطي نصيحته وزنًا كبيرًا. تُعقد الاجتماعات ثلاث مرات في الأسبوع، وتستمرُّ لعدة ساعات على الأقل.

بعد كل اجتماع يعود هاري إلى البيت في حالة من الاضطراب؛ فالمخطِّطون يعملون الآن منذ عدة أشهر، والخطط شبه جاهزة. وهناك القليل فقط من الخيارات فيما يتعلَّق بما يجب تطويره، حيث يجب تطوير كل قسم: الصِّحَّة، والتعليم، والطُّرق، والنَّقل، والصناعات الجديدة، والزراعة، والغابات، والطاقة الكهربائية، والسياحة: كل جانب من جوانب الحياة الليبية يحتاج إلى مساعدة.

يتوقَّع هاري أنه بحلول الوقت الذي يتمُّ فيه تقديم الخطة إلى البرلمان، ستنهار الحكومة مرة أخرى، وسيطالب الوزراء القادمون بخطة جديدة. يجب أن تكون الخطة الجديدة هي نفسها تقريبًا، مع استمرار الاحتياجات نفسها، لكن كل حكومة ترغب في أن تبدو مسؤولة عن وضع خططها الخاصة، حتى لو كانت متطابِقةً. وبحلول هذا الوقت ستسقط الحكومة الجديدة، والحكومة القادمة ستطالَب بخُطَّةٍ أخرى، وهكذا...

في هذه الأثناء، يعود هاري إلى المنزل في وقت متأخر من كل ليلة في حالة إحباط يتفاقَمُ بسبب الحرقان الذي يسبِّبه الشاي الليبي القوي. ومع ذلك، فهو يشعر أن الاجتماعات كانت ناجحةً لأنها تُجبر المُخطِّطين على دراسة احتياجات البلاد وصياغة أفكارهم الخاصة.

وعلى الرغم من أن الشاي قد يكون غير قابل للهضم، وعلى الرغم من سيل المناقشات الذي لا ينضب، وعلى الرغم من كثرة الحجج- فالحقيقة هي أن النتيجة النهائية ستكون خُطَّة خمسية جيدة للغاية. لكن تكمنُ المشكلة في إبقاء الحكومة في السُّلطَة لفترة كافية لتمرير الخطة ومتابعتها.

هناك خطر آخر يلوح في الأفق، فالليبيون يتنبَّهون الآن لكونهم أغنياء، ومع ذلك حينما يتحسَّس كُلُّ رَجُل جيبه، ما زال لا يجد مالًا، إنه ثري، ولا يزال يعاني من سوء التغذية وسوء المظهر، إنه ثري، بينما تزداد مساحة حي الأكواخ، وتموت مزارع الواحات لشُحِّ المياه، ولا يتمُّ جَنيُ التمور، ولا يتمُّ تنظيف الآبار. الليبي ثريٌّ، لكن يجب أن يعمل بجد أكبر؛ لأن ساعات العمل الحكومية تطول.

فأين هو المال إذن؟ أهو في جيوب الحكومة؟ لذا يجب التخلُّص من الحكومة، والإتيان بأخرى تضع علبة سجائر في كل جيب، وتوفِّر مشروبات كيتي كولا، وجهاز تلفزيون في كل منزل وخيمة، وشقراء جميلة في كل سرير، بينما يبذّر الجميع أرباحهم التي لم يعملوا في الحقيقة على كسبها!

يبذل أصحاب متاجر جورجمبوبلي قصارى جهدهم لإسعادنا جميعًا هنا. يوجد الآن سوبرماركت للأطعمة المجمَّدة، وثلاثة محلَّات جزارة للحوم الطازجة، ومتجر للأسماك والدواجن، وأربعة تجار خضروات، وثلاثة محلات تجميل، ومتجران للخرداوات وأشغال التطريز، ومكتب بريد فرعي، وثلاث محطات وقود سيارات، واثنان من مطاعم الهمبرغر. كلهم يعيشون حالة ازدهار. ومع بدء تدفُّق النفط من رمال الصحراء، يتواجد في البلد عدَّةُ آلاف من فنِّيِّي النفط وأفراد المهن المساعدة وعائلاتهم، يأكلون ويشربون ويمارسون الحياة بشغف؛ الأمر الذي يعني أيامًا سعيدة لأصحاب المتاجر في جورجمبوبلي.

لم تَعُد جورجمبوبلي مقصورةً على الأميركيين، حيث تشغل العائلات الليبية عددًا من المنازل التي تستأجرها الحكومة وتُخصِّصها لكبار مسؤوليها. لكن مساحة المعيشة المريحة في الضواحي التي

يفرح بها الأميركيون غير مُرحَّب بها للمرأة الليبية المنعزلة. ولكونها مُقيَّدة بمنزلها؛ فهي تُفضِّل أن يكون في منطقة مزدحمة حيث توجد زوجات ليبيات أخريات بالقرب منها. وينطبق هذا بشكل خاص على الاسترخاء التدريجي الذي جرى للتقاليد، حيث يُسمح أحيانًا للزوجات الليبيات الأكثر حظًّا بزيارة الأصدقاء القريبين.

الكثير من أراضي جورجمبوبلي مملوكة لليبيين الآن، وعلى الرغم من عدم مصادرة الأراضي المملوكة لأجانب، فقد يتمُّ بيعها للِّيبيِّين، ومالك الأرض الليبي يشيِّد منازله ليؤجِّرها للأجانب، لكنه نادرًا ما يسكنها بنفسه. ولا يزال يعيش -كما فعل لعقود- على ائتمان الشهر المقبل. فقط يعتبر أن رصيده أكبر الآن مع اقتراب الرَّخاء؛ لذا فهو يعيش بشكل أفضل!

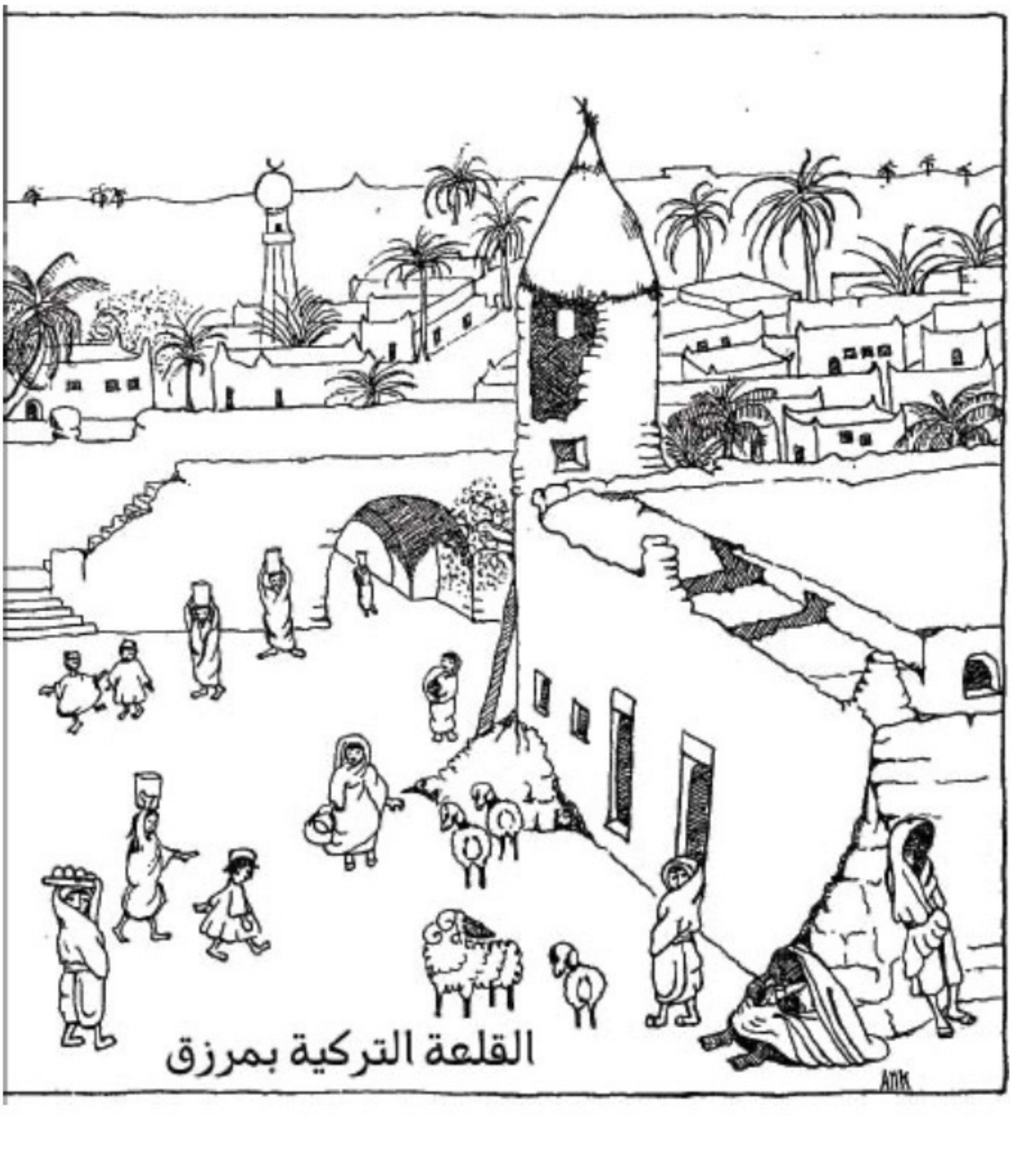

القلعة التركية بمرزق

«لا تبعد إلّا ساعة أو ساعتين من طرابلس، وتقع بالقرب من قرقارش، وهي كهوف مثيرة للفضول وربما كانت تأوي في يوم من الأيام جيشًا من ساكني الكهوف. الجِمال بالتأكيد كانت أفضل وسيلة نقل إليها، ولكن ذات مرَّة كان لدينا حميرٌ ممتازة لقطع تلك الرحلة...». كان هذا وصف لما يُعرف الآن بجورجمبوبلي، كتَبَته عام 1905 الأميركية مابل لوميس تود، في طرابلس الغامضة.

في أيام مابل لم تكن هناك طريق إلى منطقة جورجمبوبلي (المعروفة آنذاك باسم قرقارش). كانت الطريق التي سلكتها مابل هي رمال ساحل طرابلس، وأخذت تتجوَّل بين قبور عدد من الأولياء الصالحين، حيث كان جَمَلُها يتهادى في طريقه بتكاسُل. كما كانت قادرة على قطف سِتَّةٍ وعشرين نوعًا مختلفًا من الزهور في طريقها، حيث كانت بلا شك تترجَّل وتعيد ركوب الجمل في كل مرة!

مرَّت مابل تود بحصنٍ تُركيٍّ قديم مُتداعٍ، لا يزال يحتلُّه الجنود الأتراك، الذين يضعون أوشِحةً باهتة مربوطة فوق ثيابهم، ودرست باهتمامٍ آثار بنايات في بدايات مجيء الإسلام، والتي يعود تاريخها إلى أيام ليون الإفريقي (الحسن الوَزَّان) وقد بدأت تتآكل بهدوءٍ تحت أشعة الشمس الحارقة. وأعلنَت تود آنذاك أن طرابلس نفسها مدينة خالية من السُّيَّاح!

جاءت مابل إلى ليبيا برفقة زوجها الفلكي لدراسة الكسوف الكُلِّيِّ للشمس في عام 1900، ومرَّةً أخرى في عام 1905. وتمَّ وضع تلِّسكوباتهم على شرفة سطح القنصلية البريطانية داخل أسوار المدينة. ومبنى القنصلية هذا، الذي شُيِّد عام 1744 لا يزال قائمًا حتى اليوم كجزء من مساكن المدينة.

أحبَّت مابل طرابلس بشدَّة، وابتهجت بسحرها الشرقي، بين الأقواس والآثار الرومانية، ومن خلال الجنازات وأعراس المسلمين، والمساجد والمآذن، والقوافل، وبرِّيَّة الصحراء، وحرارة الشمس الحارقة، والنقاء الصافي للنهارات، والليالي المظلمة المشرقة بالنجوم... لقد أحبَّت كل شيء جعلها مختلفة عن منزلها في ولاية ماساتشوستس.

وفي نهاية إقامتها كتَبَت عن طرابلس: «لقد بقِيَت طرابلس هادئةً بالمقارنة مع التقدُّم العالمي، لكنَّ سحرها لا يُقاوَم أبدًا... إنها مدينة ساحرة، بيضاء... مثل أحلام الجنة».

وأنا أقول لها: عزيزتي مابل، كم أُحبُّكِ!

أخبريني يا مابل: هل عانَيتِ من نقص شرائح لحم الخنزير المجمَّدة؟ ومن عدم وجود الآيس كريم؟ ألا توجد مناديل مراحيض؟ ولا حليب طازج؟ ولا أضواء كهربائية؟ ولا خبز أبيض؟ هل عانيتِ حينما اضطررتِ إلى تناول لحم الضأن والكسكسي والتمر؟ وحينما ركبتِ الجَمَل بدلًا من التاكسي؟ وهل كنتِ تأملين أن ينتهي نَفيُكِ؟ وتحنِّين لأصدقائك المتحضِّرين؟ هل اشتقت للعودة إلى «بلاد الله» والتَّواصُل مرَّةً أخرى مع الله، بدلًا من المتحدِّثين باسم الله؟ ومع ذلك، هناك القليل من المضايقات في حياة طرابلس الحديثة التي لم تكن مابل مضطرَّةً لتحمُّلها.

في الماضي، كان بإمكاني القيادة إلى السوق المركزي الكبير في طرابلس، وأوقف

سيارتي أمامه. أمَّا اليوم، فلا بُدَّ لي من القيادة حول عِدَّة كُتَل مُربَّعة عدَّة مرَّات للعثور على مكان للتوقُّف.

قبل أيام قليلة عدت أنا ولينا من السوق إلى سيارتي، وحينما جلست في مقعد السائق، شاهدتُ في مرآة الرؤية الخلفية حصانًا في مقعدي الخلفي، ووجهه الودود الحزين يحدِّق برفق من فوق كتفي. لكن بعد التحقُّق ثبت أن الحصان لم يكن في المقعد الخلفي بالفعل، ولكنه اقترب كثيرًا من سيارتي الصغيرة، لدرجة أن صدره كان يستريح على الجانب بينما كان أنفه يفرك النافذة الخلفية ويضبِّبها بأنفاسه. هناك سيارة متوقِّفة أمامي وتلتصق بسيارتي تمامًا، ولم يكن لديَّ أيُّ مَخرَج.

لم أتفاجأ برؤية أن الحصان يعود لسائسٍ ليبيٍّ يقف في مكان قريب مع مجموعة من السُّيَّاس الآخرين يضحكون على مأزقي. طلبتُ

منه أن يحرِّك الحصان، لكن طلبي كان أكثرَ تسليةً له؛ لأنه وضعه هناك عن قصد. هذا مكان وقوف مُفضَّل للعربات التي تجرُّها الخيول، والتي تتطلَّب مساحة مزدوجة أكثر من موقف السيارة، حيث يأمل السائقون دائمًا أن تفقد السائقة الأجنبية صبرها عند إيقاف سيارتها وتُسبِّب ضررًا للحصان؛ وعندها يمكن للسائق المطالبة بالتعويض. والذي يحدث أن معظم الأجانب يقومون بتسوية أيِّ مُطالَبةٍ على الفور، وهذا أفضل من قضاء الوقت في المحكمة، حيث يكون عبء الإثبات على عاتق الأجنبي.

كنتُ مُصمِّمةً على عدم تشغيل سيارتي حتى تتوفَّر مسافة كافية بيني وبين الحصان؛ ولذلك جلستُ وانتظرت، لكن لينا ليست من النوع الذي تجلس وتنتظر؛ فتلك طبيعة إيطالية؛ وعليه قَفَزت من السيارة، وأمسكت برأس الحصان، وسانَدَته بقيادته إلى منتصف الشارع الرئيس وهي تُحدِّثهم بالعربية أثناء ذلك. فَهِمَ السائقون تصرُّفَها تمامًا: لقد انتصَرَت عليهم! وإذا رأوها مرَّةً أخرى، فسيعطونها مساحة كافية، لكنهم لم يفهموا أبدًا جلوسي في السيارة وانتظاري.

العديد من الدراجات الهوائية في طرابلس في حالة متهالكة. وكلُّ ما يأمله أصحابها هو لمسة ما من سيارة أجنبي تطيح بها. كنتُ قد رأيت الدراجة ثلاثيَّةَ العجلات الطويلة التي تحمل الخبز متوقِّفةً أمام سيارتي في وضعيَّةٍ متعامدة مع الرصيف، لكنني اعتقدت أنني أستطيع الخروج بأمان. كان صاحبها قد أوقفها في مساحة العداد الخاصَّة بي واختفى. كنتُ مُتأكِّدةً من أنني بالكاد لمست عجلته الأمامية؛ لأنني لم أسمع أي صوت- حين صرخ فيَّ شخصٌ ليبي حدثَ وأن كان مارًّا في تلك اللحظة. ثم أوقفت السيارة وخرجت للنظر. شعرتُ بالضيق حين رأيت أن الشبكة السلكية لعجلة الدراجة الأمامية مُشوَّهة تمامًا.

بينما كنت أحدِّق في عجلة القيادة بانزعاج، صرتُ مُحاطةً على الفور بمجموعة من الليبيين الذين نظروا إليَّ شزرًا، وبغضب، بينما انطلق أحدهم بحثًا عن صاحبها. ثم ظهر رجُلٌ صغير الحجم بائس

المظهر وبدأ في البكاء. من حيث المبدأ كان مدعومًا من قِبَل جميع المتفرِّجين، الذين ارتفعت أصواتهم بالهرج بالعربية، وأولئك الذين لم يكونوا مستعدِّين لذرف الدموع كانوا يزدادون سخطًا. لقد كان وقتًا سيئًا في طرابلس حينها، حيث كان الشباب يعبِّرون عن ديمقراطيتهم بأعمال الشغب، وعلى الفور شعرتُ بمشاعرهم السيئة تجاهي.

أخيرًا قال لي أحد الشُّبَّان بالإنكليزية: «يريدك أن تشتري له دراجة جديدة ثلاثية العجلات. لقد حطَّمتِ درَّاجته».

«لن أشتري لك دراجة جديدة، ويمكنك إصلاح تلك العجلة المتضرِّرة» قُلتُ كموقف للمساومة، لكن مع القليل من الأمل.

تفقَّد الجميع العجلة المحطَّمة مرة أخرى، وصار الحديث أكثر سخونة وعلوًّا، بينما استمرَّ مالك الدراجة في البكاء وهزِّ رأسه. الآن كرَّر الشاب بالإنكليزية: «يريد دراجة جديدة!».

قلتُ بحزمٍ: «لا، لن أشتري له دراجة جديدة... ربما عجلة واحدة جديدة، وبالرغم من ذلك، لكن لا تهتم بالأمر، أعتقد أنني سأنادي على الشرطي؛ لأنه لا ينبغي أن يوقِفَ درَّاجَته في مكان وقوف السيارة الخاص بي».

عقدوا حلقة نقاش أخرى، ثم قال: «إن اشتريتِ له عجلة جديدة، ودفعتِ له مقابل عمل هذا اليوم الذي فوَّتَه فلا بأس بذلك. هو أفضل لك أيضًا. إذا أتت الشرطة، فإنها ستثير المزيد من المتاعب».

كنتُ أعرف أنه على حَقٍّ. واستقرَّ الاتفاق على الفور على دفع تكلفة العجلة، اثني عشر دولارًا، ودولارين مقابل عمل اليوم. عكس مشهد دفع النقود المتغيِّرة المزاج العام للحاضرين. كانوا سعداء حينها، وقد وقفوا جميعًا إلى جانبي؛ لقد نزف الرأسماليُّ من ماله وأطعم الفقير! وعندها جفَّف الرجل الصغير دموعه وجرَّ دراجته بعيدًا، وانطلقتُ بالسيارة وسط الأجواء الودية وهتافات الجميع.

بالنسبة لي، وحينما أتذكر الأيام الخوالي، أصبحت مدينة طرابلس الآن مليئة بالأجانب. ومع ذلك، هذا أحدث إحصاء:

170.000 ليبي و27.000 إيطالي و6000 يهودي و5000 «آخرون». و«الآخرون» هم الأجانب المتطفِّلون كما أسميهم.

في هذه المدينة تتلألأ محلات المجوهرات بالأضواء والألوان. هناك الزُّمرُّد الأخضر والياقوت الناري والماس المتلألئ في نوافذ البازار الضخمة، وفي متجر المجوهرات الصغير في سانتنوشيتا توجد كنوز من الذهب واليَشم. وفي ركن الممرات الصغير الشهير في بونكورسو هناك ثروة من الذهب من العيار المرتفع، بينما تصطفُّ الأساور المصنوعة من الذهب الأصفر وسلاسل الذهب الطويلة المتدلية في ممرَّات السوق.

منطقة التسوُّق الحديثة المزدهرة هي منطقة مريحة ومغرية، تمتلئ بالواردات من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا الغربية، وقد تنفق ثروة على مستلزمات التجميل، والملابس الداخلية، والعباءات والأحذية. على طول الممرَّات المسقوفة، يتنزَّه المارَّةُ من كل دِين ولون وعِرق وقناعة سياسية. مقاهي الرصيف مزدحمة بعالم من الأجناس المختلفة، ومعظمهم من الذكور، الذين يرشفون الإسبريسو ويتناولون المشروبات الغازية بالليمون الحلو، ويضعون السجائر بين الأصابع التي تتلألأ بخواتم ثقيلة، وأحيانًا تمرُّ السنيورات الرشيقات يتهادين ببهاء.

جوهر طرابلس لم يتغيَّر، فهي تتعلَّق بالشخص «التريبولينو» أو الطرابلسي الأصيل، وهو الرجل الذي يشعر أنه جزء من مدينته أكثر من وطنه الأم، فهو رجل مدينة ومتوسطيُّ النزعة، يحبُّ وسائل الراحة الخاصة به، ومفهومه الخاص للحياة المتحضِّرة، وهو الشخص الذي تعرَّض للتدليل والإفساد من قِبَل نساء العائلة بشكل شنيع طوال حياته، مهما كانت درجة فقره؛ فهو ملكٌ متوَّج في بيته، وطوال حياته هناك امرأة تنتظره وتعمل على راحته، حينما كان رضيعًا: والدته تعشق ذكورته، بينما أخواته يُقبِّلنه ويحملنه طوال الوقت، ويُطعمنه فوق حاجته. كصبيٍّ: كان يتسلَّط على إناث البيت مثل تسلط ديكٍ على دجاجاته. وحينما يصل إلى سنِّ المراهقة، ربما يكون قد واجه صراعات مع الأب، لكن الأم والأخوات يَكُنَّ دائمًا على مقربة للتهدئة.

حينما يصبح شابًّا متزوِّجًا: تتسلّم زوجته دفّة التدليل والإفساد بتعليمات من والدتها. والآن بصفته رجلًا ناجحًا في طرابلس، فهو واثق من نفسه ومتطوِّر، وكسول بعض الشيء، ولطيف، وغالبًا ما يكون حَسنَ المظهر، وعادة ما يكون الآن مُهيَّأ تمامًا وقابِلًا جدًّا للتعامل مع الفتيات الجميلات من جميع الأجناس. بالإضافة إلى ذلك، يتمتَّع التريبولينو بشجاعة رائعة، وحسِّ الفكاهة، ومَرحٍ طبيعي، وسحر استثنائي.

بالمقابل فإن أنثى التريبولينو تلعب دورًا مختلفًا في الحياة، ولها جانب مختلف: الجَمالُ مُكوِّنٌ أساس من حياتها، بالرغم من أن العالَم الخارجي لا يرى هذا الحسن، كما تتميَّز بالخضوع الأنثوي. لكن ليس مثل الخضوع الأنثوي الآسيوي، بل هو خضوعٌ عربي مراوغ، وإذا ما تمَّ إقصاؤها؛ فإنها تمتلك أسلحتها الخاصَّة لاستخدامها في الخداع: البكاء والصراخ وجميع حالات الهستيريا، وحالات الحمل الكاذب، والأهواء الغذائية المُعقَّدة، والإهمال المُتعمَّد للأطفال، ثم الطريقة النهائية للدفاع والانتقام على طريقة ألف ليلة وليلة، وربما مجرَّدُ دَسِّ شيءٍ ما في شاي الزوج!

الأنثى هنا مُستبَعَدة من الحياة الاجتماعية المختلطة، ومع ذلك فهي تعرف ما يجري هناك أكثر ممَّا يعرفه زوجها (أو يدَّعي معرفته!). لديها حقوق محدودة للغاية، لكنها تمكَّنَت في كثير من الأحيان من شَقِّ طريقها بجعل البديل لا يُطاق أبدًا. دموعها هي سلاحها الطبيعي، ولديها مخزون غير محدود منها. لا يُتوقَّع منها غالبًا أن تستخدم المنطق ولا قوى العقل لديها، لكن التجربة تُظهر أنها تمتلك الاثنين. إن احتمالاتها الكامنة تفرض الاحترام، وربما حتى الخوف من جانب الرجال، الذين أصبحوا يدركون أن الوضع القديم بدأ يتغيَّر.

هذه هي طرابلس: مدينة البؤس الخفية، والثروة المجهولة القادمة، كما هي مدينة الوعد اللامتناهي. اليوم، الليبي المتعلِّم ينتقد نفسه، ولديه طموح شديد. باديءَ ذي بدء، فهو يرى أن هناك عملًا يتعيَّن

القيام به، وأنه من أجل تحقيق ذلك يجب على الليبيين العمل بجدٍّ أكبر. لقد تمَّت زيادة يوم العمل الحكومي من سِتٍّ إلى ثماني ساعات، وسبقت الزيادة في ساعات العمل زيادة كبيرة في الرواتب.

اليوم هناك ليبيون متعلِّمون. في الوقت الذي لم تكن هناك طبقة متعلِّمة في عام 1951. الآن، يلتحق حوالي سبعين في المائة من الأطفال الليبيين في سِنِّ الابتدائية من كلا الجنسين بالمدارس الابتدائية، وهي نسبة مرتفعة لبلدٍ نامٍ. والتعليم في المدارس الحكومية الليبية عبارة عن ستَّة أعوام من التعليم الابتدائي: من سن السادسة إلى الثانية عشرة، وثلاث سنوات من المدرسة الإعدادية: من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة، ثم ثلاث سنوات من التعليم الثانوي: من الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة. توجد كلية للتكنولوجيا المتقدِّمة للشباب، ومعهد لتدريب المعلِّمات، وجامعة ليبيا مفتوحة لكلا الجنسين. كما توجد مدرسة للفنون والصنائع الإسلامية، بها مئتا طالبٍ، معظمهم من الأيتام. يوجد عدد كبير من فصول تعليم الكبار في جميع أنحاء البلاد.

توجد مدرسة تمريض ممتازة للنساء في طرابلس، تتخرَّج فيها مُمرِّضات مؤهَّلاتٌ تأهيلًا كاملًا، لكن أغلب طالباتها من الزنجيات بشكل حصري؛ لأن التمريض من وجهة نظر الليبيين هو «عمل قذر»، غير مناسب للفتاة الليبية؛ وبالتالي فالانخراط في هذه المهنة يدمِّر فُرَصَها في الزواج.

أكبر مشكلة تعليمية هي نقص المعلِّمين الليبيين المدرَّبين، وباستثناء المدارس الابتدائية، فجميع المعلمين تقريبًا من المصريين؛ وهذا لأن: (1) المصريون يتحدثون العربية، ومسلمون، و(2) عبد الناصر يبدو راضيًا عن إعارة أساتذته إلى ليبيا من أجل قيمتهم الدعائية وتأثيرهم السياسي. وفي الجامعة أيضًا، الأساتذة والمعلِّمون من غير الليبيين، ومعظمهم من المصريين.

جامعة ليبيا فريدة من نوعها؛ فهي تمنح الرسوم الدراسية المجانية، والكتب المجانية، وبالإضافة إلى ذلك تمنح علاوة شهرية

خاصَّةً لكلِّ طالب مُسجَّل: ستة وستون دولارًا شهريًّا للطالب الذي يعيش خارج منزله، وثلاثون دولارًا شهريًّا للطالب المقيم في بيته. لم أسمع من قبل قَطُّ عن جامعة لا تُدعِّم طُلَّابها فحسب، بل تدفع لهم أيضًا رواتب مقابل حضورهم... حينما يحضرون! لأنه على الرغم من فِراش الورود الظاهر الذي يرقد عليه الطُّلَّاب، فقد أضربوا مُطالِبين بمنحهم مبالغ أكبر، وأضربوا احتجاجًا على قسوة معلِّميهم، وضد شخصيات معلِّميهم، ونفَّذوا إضرابًا لإظهار تعاطفهم السياسي، وإضرابًا لتخفيض ساعات التعليم. حرفيًّا، فهم يرفضون السماح للحكومة بدعمهم وتثقيفهم، إلا بشروطهم الخاصة؛ وهو مفهوم غريب للطالب المتفاني.

ليبيا هي إلى حدٍّ ما صنيعة الأمم المتحدة، وهذه المنظمة مُحِقَّة في الشعور بالتزامها تجاه البلد. ومع ذلك، أرى في ذاكرتي موكبًا طويلًا من الخبراء التقنيين التابعين للأمم المتحدة، على فترات يصلون بتفاؤل- وفي فترات متباعدة يغادرون بتشاؤم، وقد شعروا بالإحباط لأنهم لم يتمكَّنوا من تحقيق ما كانوا يأملونه في استغلال خبراتهم. أعتقد أن الخطأ الوحيد يكمن في الماضي، وكل عام من التعليم يُقلِّل من هذا الخطأ؛ فلا يمكن للمرء أن ينتقل من المدرسة الابتدائية إلى الدكتوراه.

إن سياسة الغابات المتواضعة أصبحت الآن مقبولة من قبل الحكومة من حيث المبدأ، في الواقع، لقد تمَّ قبولها من قِبَل الحكومات المتعاقبة، التي سرعان ما تتغيَّر! تكمن المشكلة في استقرار الحكومة لفترة كافية لدعم السياسات بالتشريعات اللازمة.

لا تزال مزاعم ملكية الأراضي القُبَليَّة مشكلة مستعصية، وهي مشكلة تواجهها جميع البلدان التي تسود فيها قِيَم القبيلة: هناك سبب وجيه لربط صفة «المنشق» برجال القبائل على نحوٍ ثابت تقريبًا! واليوم، يعمل فريق من ثمانية مستشارين ذوي خبرة في محاولة للتوصُّل إلى تسوية للمطالبات القَبَليَّة، بحيث يمكن استكمال المسح اللازم. وفي الوقت نفسه، فإن مرور الوقت كفيل بتعزيز الولاءات

الوطنية، والتي يجب أن تحلّ في نهاية المطاف محلّ الولاءات القبلية، إذا كان للأمة أن تستمر. وقبل تسع سنين كان الليبيون أنفسهم يشككون في البقاء كأمَّة من ثلاثة أقاليم. أمَّا اليوم فيتحدثون بتصميم أن الأمة الموحَّدة ستبقى.

لدى الحكومة الوطنية الآن نِظارةٌ للغابات، يعمل فيها بعض الرجال المتحمِّسين والمُدرَّبين تدريبًا جيِّدًا. تمَّ دمج نِظارات الغابات في الولايات في إطار الإدارة الوطنية العامة؛ وبالتالي تطوَّر الحِسُّ بالغرض والهدف الوطني الموحَّد. لم يتم وقف زحف الصحراء بعدُ في مسيرتها باتجاه البحر، لكن تَقدُّمها تباطأ بشكل كبير. ربما تكون هذه أعظم خطوة ليبية إلى الأمام. يتمُّ إجراء قدر كبير من تثبيت الكُثبان الرملية في جميع المناطق، وستكون زيادة ثروة البترول عونًا كبيرًا هنا. وتُزرع الآن ما لا يقل عن ثمانية ملايين شتلة، معظمها من أشجار الكينا؛ لأنها تتحمَّل المناخ والجفاف، وتُزرَع في كل عام من أجل الغابات الدائمة، وتثبيت الكثبان الرملية، وحطب النار.

قبل تسع سنوات، تذمَّر هاري من عدم العثور على عدد كافٍ من الليبيين المهتمِّين لتدريبهم. واليوم يأتون إليه ويطلبون النصيحة، وهم على دراية كافية لإبداء الرأي، وأحيانًا للجدال حوله.

إلى جانب الحاجة إلى المعلِّمين، فإن النقص الأكثر حِدَّة في ليبيا هو نقص الحرفيين المؤهَّلين والعُمَّال الزراعيين المهرة. وفي خطط التعليم، يجب أن يتلقَّى هؤلاء بشكل مثاليٍّ من سِتٍّ إلى تسع سنوات من التعليم العام، متبوعًا بعامين على الأقل، ويفضَّلُ أربع سنين من التدريب المتخصِّص.

الخدمة المدنية الجيدة ليست مثل شجرة فاصوليا تنبت بين عشيَّةٍ وضحاها. أذكر أنني سمعتُ عن الخدمة المدنية الليبية التي وصفها وزيران بالعبارات التالية، حينما أتيت إلى ليبيا لأول مرة، حيث قال أحدهما: «خدمتنا المدنية تعتني بأبطال المقاومة!»، بينما قال الآخر: «في بريطانيا العظمى، تحافظون على دولة الرفاهية، مع الإعانة

المالية، وإعانات الشيخوخة. أمَّا هنا فلدينا فقط الخدمة المدنية!». لكن يجب القَولُ إن تقدُّمًا ملحوظًا قد تمَّ إحرازه بعيدًا عن هذين المفهومين.

بالنسبة لدولة لا يزيد عدد سُكَّانها عن مليون ونصف المليون نسمة، فإن ليبيا لديها نظام حكم مُتميِّز ومُتطوِّر ومكلف. حتى أبريل 1963 كانت ليبيا اتحادًا فيدراليًّا من ثلاث ولايات، مع شكل حكومةٍ اتحادي مُطوَّرٍ بالكامل، بالإضافة إلى ثلاث حكومات إقليمية منفصلة، كل واحدة منها نسخة مكرَّرة من الحكومة الفيدرالية. كانت هذه آلية مُكلِّفة ومثيرة للجدل. وكانت حكومات المقاطعات مستقلَّةً بذاتها، وأنفقت طاقاتها على: (أ) تكرار قرارات الحكومة الفيدرالية دون داعٍ، أو (ب) العمل على تحدِّيها وإبطالها، أو (ج) تجاهُلها.

في أبريل 1963 وافق مجلسا البرلمان على مشروع قانون لإنهاء الشكل الاتحادي للحكومة، ولجعل ليبيا «دولة مَلَكيَّة وراثيَّة ذات حكومة نيابية». أُلغِي نظام الولايات، وتم تقسيم المملكة إلى عشر مناطق إدارية هي المحافظات.

وعلى الرغم من التبسيط الإداري الكبير الذي أحدثه هذا التغيير، إلا أن الحكومة الليبية لا تزال الأغلى تكلفة في العالم من حيث نصيب الفرد من السُّكَّان. هناك رئيس وزراء، بخمس عشرة وزارة، مع العديد من الإدارات المنفصلة تحت كل واحدة منها. ولم تُبذَل محاولة كبيرة لتعيين وزراء للعملِ الذي يفهمونه أو يكون لديهم خبرة فيه؛ لأن التعيينات عادة ما تكون مكافآت سياسية. وحينما يأتي الوزير فإنه ينضمُّ إلى محفل غريب عنه. وتجري باستمرارٍ تعديلاتٌ وزارية تؤدِّي إلى ظهورهم في مكاتب جديدة، خلف لافتات جديدة، يجب على الوزير نفسه أن يُسرِع ويقرأها قبل أن يعرف ما الذي يُمثِّله، وكيف يتصرَّف.

إن الاحتفاظ بعاصمتين رسميتين، وعاصمة ثالثة هي البيضاء، التي يُفضِّلها الملك، ويأمل أن تصبح العاصمة الدائمة- عمليَّة مكلفةٌ وغير فعَّالة؛ لأنَّ نقل الملفَّات الحكومية والأفراد مع متعلَّقاتهم مُكلفٌ للغاية، ويُضيِّع وقت العمل لمدة أسابيع مع كل عملية نقل.

في الموروث الليبي، تُعتبر كل أسرة أو قبيلة مسؤولة عن تقديم المساعدة للمحتاجين من أفرادها، وهو التزامٌ في دول الغرب تختصُّ به الأعمال الخيرية ومؤسَّسات الرعاية الاجتماعية. ومع ذلك، يبدو أن ليبيا تعترف بوجود ضمير اجتماعي أيضًا، حيث يتلقَّى أكثر من خمسين ألف شخص هنا سنويًّا مساعدة من مؤسَّسة الرعاية الاجتماعية.

كذلك فليبيا هي الدولة الوحيدة في العالم التي تساعد شعبها ماليًّا على أداء فريضة الحج. هذه الرحلة الشاقة والمكلفة هي هدف كل مسلِّم مُتديِّن. ويذهب الكثيرون أكثر من مرة، حيث تضيف الرحلة مكانةً دينيَّةً واجتماعية للحُجَّاج. كبار السن منهم ينفقون مُدَّخرات حياتهم ليذهبوا هناك، والشباب يرهقون أنفسهم بالديون مدى الحياة لأداء فريضة الحج. ويموت الكثيرون من كبار السن في رحلة الذهاب أو العودة إلى الوطن، وهم راضون وسعداء ومُستعدُّون للذهاب مباشرة إلى الجنة. وكذلك قد تذهب المرأة أيضًا. وتمنح ليبيا عددًا كبيرًا من التذاكر المجانية لمن يعتبرون الأكثر استحقاقًا. سمعتُ أن مسؤولًا كانت له علاقة بمنح تذاكر الحج يقول إنَّ عددًا من راغبي الحج كانوا يتجمَّعون ليلًا خارج منزله، وهم يبكون ويتسوَّلون الحصول على التذاكر.

ليبيا لديها الآن برنامج تغذية مدرسية على مستوى الدولة لإطعام 180000 من طلبة المدارس، بتوفير وجبة مجانية تكميلية واحدة كل يوم. وأعتقد أن ليبيا تحتاج إلى استغلال قوتها النسائية أكثر ممَّا تحتاج إلى خبراء الأمم المتحدة، أو نفطها المتدفِّق. أؤكِّد بشكل خاص على حاجة ليبيا المُلِحَّة لاستغلال مواردها الخام، وهي النساء؛ لأن تعليم الإناث في ليبيا عادةً ما يكون أسهل من تعليم الذكور. لقد قيل لي هذا مرارًا وتكرارًا من قِبَل المعلِّمين الذكور الأجانب إن الفتيات بشكل عام يتعلَّمن بسرعة أكبر من الأولاد، لمجرَّد أنهن لا يعانين من الحاجة إلى إثبات أنفسهن دائمًا؛ فغالبًا ما يكون ذلك حاجة ماسَّة للذَّكَر الليبي الشاب الذي سوف يجادل بلا كَلَل حول الموضوع الذي يدرسه المعلم، في محاولة ليثبت له أنه (أي الطالب) يعرف عنه أكثر

من المعلَم. وحينما يبدأ المتدرِّب بفرضية أنه يعرف كل شيء، غالبًا ما يجد صعوبة في تعلُّمه. ومع ذلك، فالفتيات ليس لديهن وجه زائف يتعيَّنُ الحفاظ عليه، وهُنَّ سريعات، ومتحمِّسات للتعلم.

إذا كان على المرء أن يحكم بالكامل من خلال الأخبار الليبية؛ فقد يتصوَّر المرأة الليبية على أنها تقوم بقفزة مفاجئة مذهلة إلى الأمام. على سبيل المثال: يقرأ المرء أنه في عام 1964 حصَلَت الليبيات على حق التصويت، لكن كيف سيصلن إلى صناديق الاقتراع، وكم عدد اللاتي سيشاركن بالفعل في العملية الانتخابية، سنرى ذلك. كانت المرأة الليبية بالفعل موضوع طابع بريدي، على الرغم من أن صورتها على الطابع لا تزال نصف عمياء تحت الرداء. وكما قرأت في الأخبار الآن، تأمل قُوَّة الشرطة في أن يكون لديها مُنتَسِبات من النساء.

قبل بضع سنوات، ألقت زوجة محيي الدين فكيني محاضرات في الولايات المتحدة حول «تقدُّم المرأة الليبية». أمضت السيدة فكيني بضعَ سنوات في الولايات المتحدة كزوجةٍ للسفير الليبي لدى الولايات المتحدة، الذي كان في ذلك الوقت الممثِّلَ الدائم لليبيا لدى الأمم المتحدة. وكانت نَشِطةً للغاية في لجان الأمم المتحدة للمرأة. ثم عادت هي وزوجها إلى ليبيا في عام 1963 حينما أصبح السيد فكيني سادِسَ رئيس وزراء ليبي. وقامت برعاية حَدَثٍ لم يُسمَع به من قبل هنا، حينما ظهرت علنًا وبدون حجاب، لتعمل كمضيفة لزوجها في جميع المناسبات الاجتماعية أثناء تولِّيه منصبه.

كذلك أعرفُ شابَّةً ليبيَّة (من أبوين أردنيَّيْن حصلا على الجنسية الليبية) تدرسُ لتصبح محامية، وأخرى بالوضعية نفسها تأمل أن تصبح طبيبة. الآن الإدارة الجديدة لمعهد تدريب المعلمات، وهو المنصب الذي شغلته لسنوات مديرةٌ مصرية ممتازة، تشغله الآن شابَّة ليبية رائعة. وعيادة رعاية الطفل في سوق الجمعة بطرابلس هي أيضًا مركز لتدريب الفتيات الليبيات على رعاية الطفل؛ وذلك لإرسالهن إلى مراكز أخرى، يتم إنشاء ستين منها في ليبيا. ويوجد في طرابلس

ثلاثة أندية نسائية، أحدها نادٍ ثقافي. ويلتقي أعضاء النادي، ومعظمهن من معلِّمات المدارس شهريًّا، ويصلن مرتديات الفرَّاشيَّة والحجاب، الذي يتخلَّصن منه على عَجَلٍ بعد دخول النادي.

تتمتَّع كلٌّ من المرشدات الدوليات وفتيات الكشافة بشعبية كبيرة هنا، وكلاهما تضمُّ مجموعات كبيرة من الفتيات الليبيات المتحمِّسات. ويظهر الكشَّافة بانتظامٍ بالزِّيِّ الرسمي لمساعدة الشرطة في أعمال مراقبة المرور في أيام المعرض؛ لذلك أرى أن هناك تغييرًا. إنه ليس شيئًا دراميًّا، إلا في حالات فردية قليلة. وربما يكون الأمر متوقفًا بالفعل على الحالات الفردية، كما حدث في حالة ناجية.

كنتُ قد تعرَّفتُ عليها على الفور حينما جلست بجانبي في صالون مُزيِّن الشَّعر، كانت أوَّل مضيفة طيران ليبية، والوحيدة في هذه المهنة منذ أكثر من عام. كنت أشاهدها في كثير من الأحيان وهي تقود مجموعات من الركاب إلى الطائرات بكلِّ حماسة الشَّخص المُخلِص لعمله. لديها شخصيةُ مضيفةٍ حقيقية، وبدت أكثر من أنيقة في بدلتها الزرقاء الرائعة، وتنُّورة قصيرة مشدودة بإحكام من تحت، كانت عيناها تتحرَّكان بجاذبية، وشعرها مُكدَّس عاليًا على الطراز الإيطالي. من الواضح أنها مضيفة أرضية، وكنتُ أراها دائمًا في المطار.

اليوم سمعتُ ناجية تتحدَّث بالإيطالية إلى مُصفِّف الشَّعر، وهو عجوزٌ إيطالي يتحدَّث العربية بطلاقة- لكنها اختارت الحديث بلُغَته. يقوم لها بكافة الأعمال لتحسين شكل شعرها: شامبو، مُبيِّض، صبغة حِنَّة، ثم مكواة شعر للتخلُّص من التجعُّد، وأخيرًا تمشيط خلفي، والتصفيف على شكل عشِّ الطائر.

كنت أنا وهي نبتسم لبعضنا البعض في المرآة التي نواجهها، حيث أعتقد أنها تعرَّفَت عليَّ من زياراتي المتكررة للمطار.

قلتُ لأبدأ حديثًا معها: «سمعتُ أن الطائرة لم تتمكَّن من القدوم أمس بسبب القبليِّ».

«كان يوم أمس سيئًا للغاية، سنيورة. وعادت الطائرات إلى مالطا».

«هل تحبِّين عملك في المطار؟».

«أوه، نعم، العمل هناك لطيف جدًّا. لكنني أُفضِّل أن أطير الآن. ربما أذهب الأسبوع المقبل إلى روما».

«ستحبِّين روما. كل الليبيين يحبُّونها. هل بيتك في طرابلس؟».

«أمي وأبي من فزَّان، لكنني أعيش في طرابلس الآن».

«كيف بدأتِ هذا العمل كمضيفة جويَّة؟».

«صديقي يعمل في المطار. وأخبرني أن شركة 'ليبيافيا' تريد أن تتعلَّم فتاةٌ ليبيةٌ العملَ كمضيفة».

في الأسبوع التالي نلتقي في شارع الحرية. كما هو الحال دائمًا، فهي تبدو رائعة بسبب جسمها الرشيق، وشعرها الأنيق، وشخصيتها المبهجة والحيوية، والابتسامة المشرقة على وجهها ذي البشرة الداكنة. اليوم، كانت ترتدي زوجًا من أحذية البوت الطويلة ذات التصميم الرائع والكعب العالي.

أعلِّق لها: «هذا حذاء جميل يا ناجية. رأيت صورًا لمثله في مجلة غراتسيا. ولا يمكننا شراء مثله في طرابلس».

«شكرًا لك سنيورة. أحضَرَه صديقي من روما».

تتمتَّع ناجية بحرية أكثر تتماشى في ليبيا لكونها ليست بيضاء. في الولايات المتحدة كانت البشرة السوداء عائقًا لمثل هذه الحرية، أمَّا هنا في ليبيا، حيث تسري قيود صارمة على النساء ذوات السحنة السامية، يمكن للسِّحنة السوداء أن تضيف مكانة مختلفة لوضع المرأة. ومع ذلك، فالحرية التي تتمتع بها هذه الفتاة تُظهر التمييز العنصري في ليبيا؛ ما يعني أنه لا يهمُّ ما تفعله الفتاة الإفريقية الملامح؛ لأنها أقلُّ قيمة في المجتمع.

بعد فترة قرأت في صحيفة طرابلس أن فتاة ليبية أخرى، هي فاطمة التواتي، البالغة من العمر سبعة عشر عامًا، كانت تتدرَّب لتصبح وكيلة طيران ومضيفة. وكانت قد سافرت جوًّا إلى لندن، حيث قامت -مثل أي امرأة أخرى- بتسوُّق سريع وشراء فساتين والثياب اللازمة.

أقول لنفسي، ربما كانت من بنغازي. ومن أصولٍ بدويَّة؟

خارج صيدلية جورجمبوبلي الجديدة رأيتُ لافتةً غير تقليدية: «صيدلية نهاد»، وهي مملوكة ومُدارَة من قِبَل زوجة العارف بن موسى.

في الساعة التاسعة صباحًا كل يوم، هناك سيارة حمراء صغيرة قديمة تقودها امرأة ذات عيون مُشرِقة، بدون فرَّاشيَّة أو حجاب، تقف بها خارج الصيدلية. تقفز من السيارة مُسرِعةً إلى كشك الخضار المجاور، تعود بالخضراوات التي تضعها في سيارتها. ثم تبحث في حقيبتها الكبيرة عن مفتاح، وتفتح باب الصيدلية وتدخل. هذه هي المالِكة، السيدة بن موسى، زوجة سفير ليبي في بلد قريب، وهي امرأة عاشت في الخارج، والآن هي مُصمِّمة على استغلال وقتها بشكل جيد.

هنا يمكن العثور عليها كل يوم عدا الجمعة، تبتسم خلف نُضُد البيع الأكثر أناقة وترتيبًا، وتوزِّع مخاليط السُّعال، وعلاجات البرد، وقطرات العين، ومُسكِّنات الألم، والمراهم، والمناديل الورقية، وأملاح الفاكهة، وزجاجات التغذية- لأي زبون. تعمل معها صيدلانية إيطالية مُرخَّصة. كلتاهما لديهما أولاد في سِنِّ المراهقة، وغالبًا ما يساعدون في الصيدلية، حيث يتحدثون ويقرؤون الإنكليزية، بالإضافة إلى الإيطالية والعربية، بينما الأمُّ لا تتحدث الإنكليزية. السيدة بن موسى لا يسري عليها إطلاقًا ما قُلتُه عن الأغلال الاجتماعية التي تُقيِّد الليبيات، لكنها تُثبِت قدرتهن الكامنة على إمكانية التخلُّص منها.

تمَّ افتتاح الصيدلية منذ فترة بحفل كوكتيل أقامه السيد العارف بن موسى نيابةً عن زوجته. تمَّ الافتتاح رسميًّا في تلك الليلة من قِبَل

ناظر الصحة نيابةً عن والي طرابلس، وحضر الحفل عديد من الأجانب من كلا الجنسين. لكن السيدة بن موسى نفسها لم تحضر. أفترض أن هذه كانت نقطة دقيقة من نوع ما، لا أفهمه: فالرحلة إلى الأمام يتخلَّلها أيضًا عديد من الخطوات إلى الوراء. لكن لا يهمُّ؛ فقد كانت السيدة بن موسى بكل إشراقها في صيدليتها، وفي وقت مُبكِّر من صباح اليوم التالي.

قد تدرُّ الصيدلية أرباحًا ضخمة، لكن السيدة بن موسى لا تفعل ذلك من أجل المال وحده؛ فهي تحب صيدليتها وتحبُّ عملها، أستطيع أن أرى ذلك في وجهها المهتم في كل مرة تبيعني فيها معجون أسنان، وتسألني عن ألم الأسبوع الماضي. هذه هي حياتها. إنها الصيدلية الوحيدة في جورجمبوبلي، والموقع يُمثِّل ثروةً؛ فعلى الجانب المقابل يقع أكبر سوبر ماركت، بجانب كشك لبيع الخضار، بالقرب من محل التجميل، وبجوار قسم الشرطة تقريبًا. هناك دائمًا العديد من رجال الشرطة في الداخل، وهم منشغلون بشراء خلطات سعال الأطفال، والحليب المجفَّف، واللهَّايات، والمساحيق، وزجاجات الرضاعة، وما إلى ذلك- بتَفانٍ عائلي واضح.

يقوم الأب الذي ينتظر ولادة طفل بالتسوُّق هنا، ومن المدهش رؤية أنواع مستلزمات الرُّضَّع ومُعدَّات الأطفال التي كانت في وقت من الأوقات تُستَعمَل من قِبل الأمهات الأميركيات فقط، لكنها الآن تُستخدم من قِبَل الليبيين. وتقدِّم السيدة بن موسى الخدمة للجميع على قدم المساواة، بابتسامة، لكنها تولي عناية خاصة في شرح التوجيهات والجرعات للعملاء الليبيين، حتى إنها تُغلِّف الجرعات اليومية في عبوات يومية منفصلة. وعلى الرغم من عدم رغبة الجميع في إدارة صيدلية، لكنها أفضل من العيش في حياة مجتمع الحريم.

رؤية تلك السيارة الحمراء الصغيرة تمنحني الثقة والأمل، وفي كل مرة أراها على الطريق، بسائقتها غير المحجَّبة، نَشِطة ومُبهِجة، تنظر بحرية إلى اليمين واليسار- أعلم أنه لا شيء مستحيل.

وهنا، على الشاطئ الرابع لما كان في يومٍ من الأيام جزءًا من الإمبراطورية الرومانية، سمعتُ زفرات حزن وأسى على عظمة تلك الإمبراطورية الزائلة. هنا كانت صوامع حبوبها وهناك بساتين زيتونها. هنا تبقَّت بعض سدودها، وهناك صهاريجها. هنا كانت طرقها وآثارها ومدنها ومعابدها ومسارحها. ولكن مجد روما قد ولَّى، وأصبح من الماضي.

اليوم، على هذه الآثار الرومانية، تقف ليبيا: أرضٌ قديمة، ومملكةٌ ناشئة. صحراء جرداء، وبلدٌ كان يعاني من الفقر، يصبح اليوم مزدهرًا اليوم بفضل ثرواته الأحفورية ونفطه المدفون تحت الرمال، ولكن ما جعل الإمبراطورية الرومانية عظيمة ليست هذه الثروات الدفينة، بل هم الرومان أنفسهم؛ وبالتالي فالليبيُّون فقط هم الذين سيجعلون ليبيا عظيمة، ونساء ليبيا سيجعلنها دولةً قويَّة.

---

* BARBARY أو أرض البربرية: «الساحل البربري» كما كان يُسمَّى ساحل البحر المتوسط لشمال إفريقيا الذي اشتهر بقراصنته المغاربيين. من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. المترجم.

** اتفاقية النفط تقضي بتقسيم الأرباح المستقبلية مناصَفةً بالإضافة، إلى الإتاوات المرتفعة.

45. آخرُ حُفنَةٍ مِنَ الرِّمال

امرأة ليبية مُحجَّبة تسافر وحدها إلى روما للالتحاق بزوجها! شيء من هذا القبيل لم يكن ليصدَّق قبل ثماني سنوات، لكنه يحدث ذلك اليوم.

كانت نفيسة ترتدي معطفًا بُنِّيًا طويلًا أرسله لها بدر الدين من الولايات المتحدة، حيث كان يدرس لمدة عام بمنحة دراسية في جامعة ميسولا في مونتانا. أرسل أيضًا القُبَّعة البُنِّيَّة الصغيرة التي ترتديها، والحذاء ذا الكعب العالي، وحقيبة التسوُّق الأنيقة التي تحمل فيها جميع أوراقها. اللمسة الليبية الوحيدة هي الحجاب الأسود المعتم الذي تضعه نفيسة بإحكام على رأسها ووجهها بعد تقبيل أسامة البالغ من العمر أربع سنوات وطفلتها سميرة، قبل الخروج من المنزل.

أتساءلُ: كيف سأشعر لو كنتُ أستعدُّ لأول مرة في حياتي للسفر لوحدي، ومغادرة وطني والصعود في طائرة، وإظهار وجهي في الأماكن العامة؟ أعتقد أنني قد أكون مضطربةً أكثر من نفيسة، وهي متوتِّرة بدرجة كافية. لا يمكن لأي رائد فضاء يسافر إلى الفضاء الخارجي أن يواجه اختبارًا أكثر صعوبة من هذا.

وما زاد الطين بلّةً أن هناك مشكلة بشأن حجزها، ولا يزال غير مؤكَّد. لأنه غير معتاد على السفر بالجو؛ لم يتقدَّم نجم الدين، شقيق بدر الدين الذي عهد إليه أخوه شراء تذكرة نفيسة، بطلب للحجز في الوقت المناسب. ولمدة ثلاثة أيام الآن، كنَّا أنا وهاري نمارس الضغط الذي يمكننا القيام به على شركة أليتاليا للحصول على مقعد لنفيسة. كانت ضغوطي تتمثَّل فقط في الحديث لهم بشكل مُثيرٍ للشفقة مع المدير عن مأساة الزوج الليبي الذي سيكون في انتظار زوجته -في أول رحلة لها بالطائرة-، وحول التأثير النفسي على العلاقات الليبية الإيطالية، وما إلى ذلك. أعلم أن لديهم مقعدًا شاغرًا ما -الطائرات دائمًا هكذا- ولكن عليك أن تقوم بالتهديد المناسب للحصول عليه!

هذا الصباح نتَّجِه إلى المطار على أمل ما. كان معنا نجم الدين، وهو مدرِّس شابٌّ لطيف، ومتعلِّم، ويتحدث اللغة الإيطالية، به عرجٌ ناتج عن انفجار قنبلة من مخلَّفات الحرب. جلست أنا ونفيسة معًا في الخلف، وهو يجلس في المقعد الأمامي بجوار السائق إمبراتوري. يدا نفيسة في برودة الجليد، لكن بالنظر إلى الظروف القائمة، أعتقد أنها تتمالك نفسها.

أخبرتها أنها إذا لم تحصل على مقعد اليوم، فسنأتي إلى المطار مرة أخرى غدًا، وفي ذلك الوقت سنكون قد نجحنا بالتأكيد في الحصول على حجز. ونظرًا لعدم وجود عنوان فندق بدر الدين؛ سنطلب من أليتاليا العثور عليه في المطار، حيث سيكون في انتظارها. لكن نفيسة تهزُّ رأسها بقوَّةٍ وتقول: «لا!»؛ إذا لم تستقلَّ الطائرة اليوم، فلن تسافر. وإن شاء الله لها أن تذهب إلى روما؛ سيوفِّر لها مقعدًا شاغرًا!

أنا شخصيًّا كنتُ أناشد الله بشدَّةٍ في صلاتي، أثناء توجُّهنا نحو المطار، لكي يوفِّر لها هذا المقعد. لم أستطع تحمُّل عدم القيام بهذه الرحلة.

عند وصولنا إلى المطار، توجَّهنا إلى مكتب الحجز على الفور، وحتى الآن لا يوجد مقعد. المكتب يغصُّ بمن لهم حجوزات، وعدد غير

قليل على قائمة الانتظار مثلنا، أي أنهم ينتظرون هذا المقعد الإضافي! ألفت انتباه نجم الدين إلى هذا وأقول: «ربما لن تكون الأولى في القائمة! علينا أن نفعل شيئًا! مَن تعرف هنا؟».

يفكِّر مَليًّا، وتأتيه الفكرة: سيتَّصِل برئيس الشرطة، وهو صديق قديم لبدر الدين، وأحد أقارب العائلة البعيدين.

«جيِّد، جيِّد! لماذا لم نفكِّر في هذا من قبل! ولكن بسرعة!».

أجلسُ مع نفيسة وننتظر. إنها لا تدرك -كما آمل- أن كل هذا الصَّفِّ ينتظر ذلك المقعد الوحيد. تهمس لي من خلال حجابها: «شكرًا لمساعدتي»؛ فأضغط على يديها وأمسكها بيديَّ الباردتين. أخيرًا يعود نجم الدين. لم يجد رئيس الشرطة في مكتبه، وسيواصل البحث عنه. لا يزال أقلُّ من نصف ساعة على وقت الرحلة. «هل تَمَّ التأكُّد من جميع وثائقها، وتصريح خروجها جاهز، في حال ذهابها؟».

«نعم، لدينا كل شيء... باستثناء المقعد».

الآن رصدت شابًّا في الحشد، أحد أصدقاء جورج، وهو عائد إلى جامعته في لندن. أغتنم الفرصة وأسرع إليه وأخبره بمشكلتنا. أصف له بدر الدين بدقة، وأقول: الآن هل ترى تلك الشابَّة الليبية هناك؟ إذا لم تستقلَّ الطائرة، من فضلك ابحث عن زوجها في مطار روما وأخبِرْه أنها ستأتي غدًا؛ لكي ينتظرها في طائرة الغد. ويوافق.

عَلِمنا الآن أن الطائرة ستهبط في صقليَّة قبل التوجُّه إلى روما. مرة أخرى أقتربُ من الشاب، الذي يجب أن يندم الآن على معرفتنا، لكنه يظلُّ وَدودًا. أقول له، من فضلك، إذا صعَدَت هذه الشابة الليبية إلى الطائرة، من فضلك راقِبها حينما تهبط في كاتانيا، وتأكَّد من عودتها إلى الطائرة حينما تغادر كاتانيا. مرَّةً أخرى يوافق ويبتسم بفهم. أعتقد أنه حتى الشباب الأجانب في ليبيا متعاطفون مع مشاكل المرأة الليبية المحجَّبة.

نجم الدين يتركنا ليتحدَّث بالهاتف مرة أخرى. نفيسة تبدو هادئة، ولا شكَّ أنها تثق في الله- لكنني أستمر في مراقبة الساعة.

نجم الدين يغيب لبعض الوقت. إنها الساعة المقرَّرة تقريبًا لمغادرة الطائرة. أخيرًا رأيته قادمًا ووجهه يبدو عليه الحبور. (حمدو للّٰه)! لقد انتصَرَت المحسوبية، ونفيسة حصلت على المقعد، وبارك الله في قائد الشرطة!

حانت الساعة واللحظة. تبدو نفيسة رائعة! تمسك بحقيبتها، وثائقها في يدها، وقد أسدَلَت حجابها، ونتحرَّك معها عبر باب التذاكر، وتوفِّر لنا المرأة المحجَّبة ملاذًا لنصحبها، نتجاهل الشرطي الواقف ونذهب معها إلى الطائرة ونرافقها حتى تجلس في مقعدها الذي تستقرُّ فيه بهدوء تام في رعاية الله. نربط لها حزام مقعدها ونرحل، بينما أخذت ترفع حجابها...

الليلة المشهد مختلف؛ لأن نفيسة وبدر الدين على وشك العودة منتصرين إلى أرض الوطن. ها هو رائد الفضاء يعود إلى الأرض بعد عشرة أيام في مدار حول الأرض!

كان ثلاثة من إخوة بدر الدين، وعديد من أصدقائه، وكثيرون آخرون من إدارة الغابات- موجودين في المطار لاستقباله، بعد عودته من عامٍ قضاه في الولايات المتحدة. أنا وحدي في المطار لاستقبال نفيسة، حيث يمكن أن تقابلها أنثى فقط، ومن الواضح أنها ليست ليبيَّةً!

إخوة بدر الدين مجموعة رائعة، كلهم حَسَنو المظهر، لا تنقصهم الفاعلية، أصغرهم ضابط بالجيش الليبي، وهو واحد من ستة خبراء عسكريين ليبيين قاموا العام الماضي بجولة حول العالم لزيارة منشآت الدفاع الأجنبية. كان شابًّا أنيقًا، يحيط به جَوٌّ من الثقة بالنفس، ومع ذلك، فالمُفضَّل لديَّ هو نجم الدين، الذي تشارَكتُ معه في حلِّ مشكلة سفر نفيسة جوًّا.

أحمد كان حاضرًا أيضًا، يبدو أنيقًا للغاية ومزهوًّا بنفسه في معطف من الطراز العسكري. يبدو جميع أعضاء إدارة الغابات

مُرتَدين ملابس لائقة أنيقة. ليس من المبالغة الإقرار بالاختلاف في المظهر بين الموظَّفين اليوم، وقبل تسع سنوات، نادرًا ما ترى أحدًا يرتدي ملابس أنيقة ولائقة. ولا يتعلَّق الأمر في المقام الأول بالفرق في الأموال التي ينفقونها على شراء الملابس قَدْرَ تَعلُّقه بحقيقة إدراكهم الآن لقيمة وجاذبية الحفاظ على المظهر الأنيق والذوق الرفيع.

هاري موجود هنا أيضًا، وكنَّا نستمع إلى الشباب الليبي يناقش التغييرات في الحكومة التي تمَّ الإعلان عنها بعد ظهر اليوم. أخيرًا، هناك تغيير يمكنهم الموافقة عليه كشخصٍ مُفضَّل لديهم، وهو محمد بك درنة، الذي تمَّ تعيينه وزير الزراعة الفيدرالي، وهو خبير زراعي محبوب ومحترم من قِبَل جميع الشباب الذين عمل معهم.

هبَطَت طائرة أليتاليا، وحمل الضابطُ الشاب ابنَ بدر الدين الصغير: أسامة، وسار عبر مدرج المطار إلى الطائرة، مُدرِكًا أن زيَّه العسكري هو جواز مروره، ويؤهِّله لعدم التَّقيُّد بقواعد المطار، وذهبتُ معه لأكون هناك حينما تهبط نفيسة. ننتظر بينما ينزل جميع الرُّكَّاب، وأخيرًا، مرتدية الحجاب الأسود، وتساعدها المضيفة بعناية على نزول السُّلَّم، تأتي الراكبة الليبية الوحيدة: نفيسة، التي تكاد تكون عمياءَ بسبب نقابها الأسود وحلول الظلام، وكانت أيضًا تعاني مع ثِقَل الأكياس والطرود الورقية التي تحملها. وخلفها مباشرة نزل بدر الدين.

يدفع الضابط بأسامة بين ذراعَيْ نفيسة، ثم يرتمي على بدر الدين في حضن أخويٍّ على الطريقة الليبية، بكثير من القبلات والأحضان. بعد الترحيب ببدر الدين، اصطحبتُ نفيسة من ذراعها، ومعها أسامة وأكياس ورقية، وقُدتُها عبر المدرج إلى حيث كانت سيارتنا متوقِّفة؛ وبذلك تتحاشى المرور بدائرة الهجرة والجمارك، التي سيتعامل معها زوجها كما هو معتادٌ مع الليبيات المحجَّبات اللاتي لا يمكن رؤيتهنَّ من قِبَل رجالٍ أجانب.

بدت نفيسة كما كانت تمامًا، ورفعت نقابها داخل السيارة، ورأيتُ أن شعرها مقصوص ومموَّج. سألتها إن كانت سعيدةً في روما،

فابتسمت وأشارت إلى جميع الطرود التي أحضرتها. أتخيَّلُ أن التسوق كان أعظمَ مَلذَّاتها، على الرغم من أن العديد من الطرود هي إمَّا هدايا أو مشتريات بطلب من الأصدقاء والأقارب.

دون انتظار بدر الدين، نقودُ السيارة مباشرةً إلى بيتهما، حيث تنضمُّ مرة أخرى إلى إناثٍ من الأُسرَة: الأمهات، والأخوات، وبنات العمومة، وأصهارهما، وعشرات من الإناث، بالإضافة إلى عددٍ لا يُحصَى من الرُّضَّع والصغار، والجميع يرحِّبون ويضحكون، يقبِّلون، يضايقون، ويعجبون، ويضغطون على نفيسة التي تبدو مبتهجة أكثر من اليوم الذي ودَّعَتهم فيه. ربما تشعر الآن براحة لأن تكون آمِنَةً مرَّة أخرى، وبعيدَةً عن الأنظار؟

شَعرُها القصير المموَّج خطوة نحو الحداثة تُسعدُ صغيرات العائلة وتنبِّه الكبيرات في السِّن. وأتساءل: هل تغيَّرَت من الداخل؟ هل يمكنها أن تنسى العالم الآخر الذي رأته؟

سألتُ بدرَ الدين لاحقًا إن كانت نفيسة قادرة على تناول الطعام الذي لم تعتَدْه في روما. فقال إنها في البداية حاوَلَت أن تأكل معه في المطاعم، لكن منظر الأطعمة الغريبَّة وطعمها ورائحة لحم الخنزير لم يَرُق لها. كما أن حقيقة أنها لم تكن معتادة على الأكل معه، أو مع أي رجالٍ قريبين منها جعَلَها مُتوتِّرةً للغاية، بحيث لا تستطيع تناول الطعام في الأماكن العامَّة. في النهاية، كان يتناول الطعام بمفرده في المطاعم، ثم يحضر لها طعامًا يمكنها تناوله في غرفتها بالفندق.

يبدو أنَّ التخلُّص من النقاب أكثر صعوبة ممَّا نعتقد.

كان بدر الدين يعرض علينا الأفلام الملوَّنة التي صوَّرها في سياتل لابنتنا جين مع زوجها هارولد وأطفالهما الأربعة. في الفيلم الذي يظهر لنا أوَّلًا، يقوم بزيارة جين وهارولد في إجازة عيد الشكر من جامعة ميسولا. بينما الأطفال الأربعة يملؤون الشاشة بحماس.

حينما رأيت مجموعة الأفلام العائلية هذه قلتُ: «لكن أين أنت يا بدر الدين؟»، لم أرَ سوى شابٍّ أميركي غير معروف ممدود على

كرسيٍ كبير بأزياء الأميركيين، مرتديًا قميصًا رياضيًّا من الصوف الملوَّن وبنطلونًا ثقيلًا.

يقول بدر الدين وهو يضع إصبعه على الأميركي المجهول ويقول: «هذا أنا!».

أنظرُ مرة أخرى في حيرة. «لكنَّكَ تبدو أميركيًّا تمامًا! ومع ذلك، حينما تكون في الصحراء وترتدي غطاء الرأس العربي، تبدو تمامًا وكأنك شيخٌ ليبي!»؛ فيضحك بدر الدين ويقول: «الملابس هي التي تصنع الإنسان».

«أخبرتني جين أن الأطفال كانوا يُلحُّون عليك طوال الوقت لتحدثهم بكل شيء عن ليبيا: عن الصحراء والجِمال والناس وما تأكله وترتديه وكل ما يخطر ببالهم!»، فيجيبني: «نعم. لكن الأهم من ذلك كله أنهم أحبُّوا أن أخبرهم عن رمضان. وحينما أخبرتهم أننا لا نأكل أو نشرب على الإطلاق خلال النهار لمدة شهر، رأوا أن الأمر قاسٍ للغاية، ولا بُدَّ أننا نعاني بشدَّة! كان كريس قَلِقًا للغاية، ولا يمكنه فهم كيف يمكننا التعوُّد عليه».

«هل أعدَدتَ لِجين طبق الكسكسي مع لحم خروف؟»، فرَدَّ بدر الدين بجدِّيَّة: «جين طبَّاخة ماهرة. وهي أيضًا أم وزوجة صالحة».

«هل تعتقد أنك ترغب في العيش في الولايات المتحدة؟».

«أوه، لا!» يقول منزعجًا.

كنت أعرف أنه يفكِّر في مناخ ميسولا، حينما تتدلى من أنفه رقاقات ثلجية طوال الشتاء! فسألته: «لِمَ لا يا بدر الدين؟».

«حسنًا»، يتردَّد قليلًا فهو لا يرغب في قول إجابة اعتباطيَّة. «حسنًا، أميركا ليست بلدي».

«ما رأيك في المرأة الأميركية في البيت؟».

«لكنها لا تمكث في البيت أبدًا!».

أضحك لإجابته وأقول: «أعني، ما رأيك في النساء الأميركيات في أميركا؟».

«كلُّهنَّ لديهن أصدقاء من الرجال! وهو ما فاجأني. للزوجات أصدقاء، وللأزواج صديقات. وهذا كل ما يتحدَّثون عنه في ميسولا: صديقي، صديقتي!».

«هذا يفاجئني أيضًا! فقد كنتُ أظنُّ أنَّ الأميركيين أكثر تَحفُّظًا إلى حدٍّ ما. ربما لم أَعُد أعرف الأميركيين تمامًا». ويتابع: «بالطبع، يتصرَّفون كذلك لأن الولايات المتحدة ليست بلدًا مُسلِمًا».

«لا، لكن هناك حرية دينية. يمكنك أن تؤمن كما تشاء». وهنا يضحك، ويقول: «حسنًا، نعم، ربما. في أحد الأيام أتى إليَّ بعض الشُّبَّان يسألونني عن ديانتي، وحينما قلتُ إنني مسلم، قالوا إنهم يودُّون أن أذهب معهم إلى كنيستهم، وأن يتعلَّموا منِّي دينًا آخر».

يسأل هاري: «ومن أيِّ دين هم، هل كانوا يهودًا؟».

«لقد نسيتُ حقًّا. أعتقد أنهم ربما يكونون من طائفة المورمون، أو الأدفنتست، أو شهود يهوه، لكني نسيتً. ولكن قلت لهم: ‘لا، شكرًا لكم، لا أرغب في تَعلُّم ديانة جديدة، وأحبُّ أن أبقى مسلِمًا‘. فيقولون لي إنهم يرغبون في مساعدتي في العثور على الله. أقول لهم إني وجدت الله، وأن الله هو الله. فيقولون: ‘لكنَّك لا تفهم!‘، وأقول لهم: ‘إنكم لا تفهمون معنى الإسلام!‘، وأخذتُ أشرح لهم، لكنَّهم يهزُّون رؤوسهم ويقولون: ‘نتمنَّى مساعدتك! إذا غيَّرتَ رأيك؛ اتَّصِل بنا؛ وسنأتي في أي وقت!‘«.

«لكن يا بدر الدين، هل يفعلون ذلك مع كل الطُّلَّاب الأجانب؟».

«أعتقد ذلك؛ لأن صديقي الباكستاني هناك قال لي إنهم يريدونه أن يجد الله أيضًا».

هذا الحديث كان يدور خلال حفلة وداع أقيمت لنا، نحن الذين أتينا إلى ليبيا لمدة عام واحد، والآن نغادرها بعد ما يقرب من تسع سنوات؛ لأن هاري سيتقاعد من منظَّمة الأغذية والزراعة.

«ولكن لماذا تغادران؟» يسألنا بدر الدين. «نَوَدُّ أن تبقيا هنا إلى الأبد. مناخنا جيد، ولا توجد رقاقات ثلجية مُعلَّقة على أنفك، ولديكما أصدقاء حميمون هنا. أنتما ستصبحان ليبيَّيْن!».

«لكن ليس لدينا بيت هنا، وإنما لدينا في ڤيكتوريا».

«تشترون بيتًا هنا. أحمد يبيعكم أحدَ بيوته».

قال أحمد على الفور: «نعم يا أبي. وبسعرٍ زهيدٍ أيضًا!».

لكن هاري يُذكِّرهم قائلًا: «غير مسموح للأجانب امتلاك عقار في ليبيا».

«آه، لا تقلق حول هذا الأمر! كل هذا سوف يتمُّ ترتيبه!» طمأنه بدر الدين وأحمد.

يردُّ هاري بجدِّيَّة: «أفترض أن إجابتنا واحدة، وكما هي بالنسبة لك يا بدر الدين: هذا ليس بلدنا».

تناوَلنا عشاءً ليبيًّا فَخمًا، أعدَّته نفيسة التي كانت غيرَ مَرئيَّةٍ لنا طوال الوقت، وقدَّم لنا بدر الدين الطعام. كانت هناك الشوربة الليبية الدسمة، والكسكسي مع لحم الضأن والقرع الأحمر والحمص، وكذلك الكفتة، وهي طعامُ ليبي من كرات اللحم الصغيرة، ثم حلوى البودنغ المصنوعة بنشا الذرة، والتفاح والبرتقال الطازج، وطبعًا الشاي الليبي. على الرغم من أننا كنا جميعًا خاملين قليلًا بعد الأكل، إلا أن أفلام بدر الدين أيقظتنا.

أدار بدر الدين الراديو على إذاعة ليبيا، وكان الحديث يدور حول السياسة بشكل أساس. الغريب أن الحكومة لم تسقط! ويتمُّ الاستمرار في تنفيذ الخطة الخَمسيَّة.

الآن ينهض بدر الدين ويصفِّي حنجرته ويبدو متأثِّرًا جدًّا وهو يلقي كلمة لطيفة موجَّهةً لهاري، نيابةً عن إدارة الغابات الليبية. ثم يُقدِّم له لوحةً فضِّيَّةً كبيرة وجميلة للغاية، مُزَخرَفة يدويًّا بتصميمات ليبية، ومحفورة في الوسط باللغتين الإنجليزية والعربية على النحو

التالي: «هدية للسيد هـ. چي. كيث، بواسطة رجال الغابات في ليبيا؛ عربونًا للصداقة المخلِصَة».

قبل أن نغادر، أتوجَّه إلى غرفة نفيسة لأشكرها وأودِّعها. عيونها كبيرة، مبتسمة، زاهية وجميلة، متألِّقة لنجاح العزومة والأمسية، رغم أنها لم تكن حاضرةً مع الضيوف. هي فتاة عاطفية للغاية، مليئة بالحب والمودة، وبالحاجة لمنح هذا الحب لمن يحيطون بها.

كانت تُحرِّر شَعرها الآن من مشبكه الروماني، ويتدلَّى حتى كتفيها فوق ثوب الساتان الوردي الذي أحضره بدر الدين من الولايات المتحدة. وتقول لي كم هي سعيدة للغاية بعودته، وتأمل ألَّا يذهب أبدًا مرَّةً أخرى!؛ فالمرأة تحتاج زوجها في كل وقت.

قُمتُ أنا ولينا بزيارة وداع إلى ربيعة قبل أيام قليلة من مغادرتنا. ربيعة وعبد الله وأولادهما كلهم يحبُّون لينا. لينا التي تكره الكسكسي وكعك العسل والزيت الزَّنخ، واللحوم الدهنية، وصوت الراديو العربي، وأشياء ليبية كثيرة، لكنها تحبُّ عبد الله وربيعة وعائلتهما.

كان عبد الله قد انفصل عن الحكومة لفترة طويلة (مع استمرار دفع مرتبه)؛ بسبب تحدِّيه للوزير الذي يرأسه مباشرة، والآن تمَّ تعيينه وزيرًا بتوصية من قِبَل الملك بنفسه، وهي مكافأة غير عادية. انتقلت العائلة إلى منزل أكبر حجمًا في الحي نفسه، بعد أن ساء حال المنزل الذي كانوا فيه. تمَّت عملية النقل بكل سهولة، حيث تمَّ نقل البضائع والأثاث على الأقدام بواسطة صبيِّ المنزل والسائق والأطفال، وتمَّ حمل الدجاج والأرانب نقلًا باليدين، وتمَّ نقل السيدات والفتيات في سيارة الڤولكس ڤاغن الحكومية.

ربيعة

ذهبنا في زيارتنا الوداعية في العاشرة صباحًا، بعد أن بعثنا رسالة في الليلة السابقة لمجيئنا. استقبلتنا ربيعة مرتديةً ثوبًا من القماش الفضي، بخَصرٍ عالٍ، على الطراز الإمبراطوري (مناسب -كما أتوقَّع- لزوجة الوزير)، وشَعرها الكَثُّ مُكدَّس عاليًا فوق رأسها. بدا وشمُها باهِتًا، وأعتقد أنها تغطِّيه بالمرهم الذي أرسَلتُه إليها. وفيما خلا الوشم، لديها بشرة رائعة وصافية بلون الكريم. إنها امرأة جميلة، كما أراها الآن، ومع ذلك قبل تسع سنوات: هل كنتُ أظنُّ ذلك؟ أم أنني كنتُ أرى سيدة يغطِّي الوشم وجهها؟ لم أَعُد أستطيع الرؤية بوضوح، لأنني أنظر الآن بعينَيْ المَحبَّة.

كنتُ أعلم أنه يجب علينا تناول الشاي، على الرغم من أنني شعرت أنني لن أستطيع تحمُّلَه؛ ليس لأنني لا أحب الشاي الليبي الحلو (على الرغم من أنني لا أحبه بالفعل)، ولكن لأنني أعرف أنني لن أرى مرَّةً أخرى إبريق شاي صغيرًا من المينا الزرقاء يُطبَخ على موقد فحم في غرفة معيشة! لكن في النهاية لم يكن عليَّ تحمُّل ذلك: لقد تناولنا شايًا خفيفًا يُقدَّم في أكواب إنكليزية، وهو ما يليق ببيت وزير!

أحاول أن أَصِف لربيعة الرحلة التي سنقوم بها في طريق العودة إلى الوطن، وطريقنا عبر قناة بنما، وطبيعة مناخ كندا، وأعرض عليها صورًا لبيتنا في فيكتوريا. تهزُّ رأسها لرؤية كل تلك الأشجار القاتمة

حول البيت، وتسأل لينا إن كانت تعتقد أنها ستحبُّ كندا. فتجيب لينا: «السنيور والسنيورة مثل أمي وأبي، وأذهب للعيش معهما لأنهما عائلتي الآن».

«ولكن لماذا تريدين مغادرة ليبيا؟» تسألني ربيعة. «لماذا لا تبقين في ليبيا؟ ألا يعجبك المكان هنا؟» تنظر إليّ في حيرة. وأعلم أن هناك طريقة واحدة فقط تفهمني بها: «لنا ابنة متزوجة، وابننا لا يستطيع العيش في ليبيا. ولرؤيتهم؛ يجب أن نذهب إلى أميركا الشمالية» أُخبِرُها.

«لكنك ستعودين بعض الوقت لرؤيتنا مرة أخرى؟» تصرُّ ربيعة.

«لا أعتقد ذلك» كان عليَّ أن أخبرها.

فجأةً امتلأت عيناها بالدموع وتقول: «لكنَّكِ كنتِ دائمًا معي في جورجمبوبلي، وليس لديَّ أصدقاء غيرك هنا!» ترشف أنفها وتمسح عينيها.

يا للهول! لا أريد أن تبدأ دموعي في الانهمار الآن؛ فهذا هو البلد الذي أتيت إليه مُصمِّمةً على عدم مشاركة مشاعري مع أيٍّ كان!

«لكن لديكِ عائلتك يا ربيعة... ولديَّ عائلتي...».

أومَأَت برأسها، لكنها استمرَّت في البكاء؛ فالدُّموع لا تتبع المنطق.

نودعهم ونتبادل القبلات مع الجميع، بمن في ذلك السيدات المُسِنَّات. اليوم، كلهم أعزاء على قلبي. نتبادل القبلات مرة أخرى ونغادر البيت. ننظر خلفنا لنجد ربيعة واقفة بالباب في ثوبها الفضي، وشعرها يتدلى مثل نهر أسود حول وجهها، وعيناها السوداوان مبلَّلتان بالدموع، ويبدو الأسى على وجهها، تشبك يديها وتفكُّهما من جديد في إيماءةٍ لا معنى لها -من أجل شيء ما خسره كلانا- ولسنا متأكِّدَتَيْن ما هو تمامًا.

يا للهول. يا للهول. يا للهول.

بطبيعة الحال، كان حفلُ وداع أحمد مختلفًا عن حفل بدر الدين، كاختلاف الرَّجُلَيْن عن بعضهما البعض. كان حفل أحمد عبارة عن كوكتيل، وهو الأمرُ الأكثر غرابة بالنسبة لمضيف ليبي.

شقَّته مُرتَّبة بأناقةٍ، بأثاثٍ من طراز لويس الخامس عشر المطلي بالذهب، ومفروشة بالسجاد، تم تصنيع الأثاث في مصر، وكل شيء أصيل، أو هكذا يبدو لي، أنا التي لا أعرف شيئًا عن أثاث لويس الخامس عشر الذهبي باستثناء أن أحمد يحبُّه: كراسٍ ذهبيَّة مُزَخرَفة الأرجُل، وأكوابٌ ذهبية مُدعَّمة بحوافظ، ومرايا رائعة مزخرفة بإطارات ذهبية، ومنافض سجائر مزخرفة بالكريستال ومُذهَّبة، ومزهريات ومصابيح، وثُرَيَّات كريستالية متلألئة فوقنا، وسجادة متعددة الألوان ومُزيَّنة بالأزهار أسفل القدمين: إنه تجسيدٌ كامل لذلك الطراز الفرنسي، متأثِّرًا بألف ليلة وليلة.

أعتقد أنه لا يوجد دار مثلها في ليبيا. أحمد وبدرية فخوران ببيتهما، ويناسبهما بطريقة ما. فقط شَعرُ بدرية الحريري الذهبي يمكنه منافسة مفروشات بيتها الجميلة. أمَّا بالنسبة لأحمد، فإحدى أهم صِفاته هي سعادته الصريحة بمقتنياته الخاصة، والتي لديه الآن الكثير منها. هو شريكٌ في عدَّة وكالات، ومالِكٌ لشاحنة نقل، ويملك أرضًا في جورجمبوبلي. وبدون الخوض في التفاصيل، لا يسعني إلَّا أن أقول إن أحمد صاحب أعمال رائع!

كان من المقرَّر أن يتم حفل الكوكتيل الخاص به بأفضل أسلوب على الطريقة الغربية. تمَّت دعوة جميع أعضاء منظمة الأغذية والزراعة، وعديد من أصدقائنا الليبيين، وجميع منتسبي إدارة الغابات. استشار أحمد لينا بشأن المشروبات التي يجب تقديمها، وكيفية صُنع المُقبِّلات، والمُفضَّلة منها. كان من المقرَّر أن يكون حفل الاستقبال حدثًا مُميَّزًا في تاريخ المجتمع الليبي. وكانت بدرية حاضِرةً كمُضيفة، كما هي دائمًا حينما نأتي إلى بيتها.

خطَّط أحمد كلَّ شيء بشكل مثالي، باستثناء جزئية وحيدة: بدرية كانت حامِلًا، وتنتظر المولود في أي يوم. كان أحمد يأمل بشدَّة

أن تَلِدَ الطفل قريبًا ليُجهِّز للحفل. ثم وُلِد الابن في الوقت المناسب قبل الحفل، وصنَعَت بدرية المئات من المُقبِّلات، وكانت أيضًا مضيفة كريمة، وكان أحمد مضيفًا متوهِّجًا ومنتشيًا؛ فقد وصل كلُّ مَن تمَّت دعوته. بلغ الحفل الذروة حينما دعا أحمد الجميع إلى الصمت، وقرأ كلمة كتبها له بيل مارشال، وهو صديقٌ أسكتلندي من الفاو. لقد أثنى هذا الخطاب على هاري وكان أكثر من لطيف في حديثه عني، وتَبِعَه تقديم هدية لهاري، هي أزرار أكمام من الذهب الثَّقيل العيار، وبالنسبة لي بروش ذهبي مُرصَّع باللآلئ والعقيق.

هذه هي ذاكرتي التي لا تخبو أبدًا عن أحمد وبدرية: منزل به أثاث مُذهَّب، وستائر مُذهَّبة، وفتاة ذات شعر ذهبي، ورَجُلٌ ليس من السهولة سَبْرُ غَوْره، تتحوَّل كل الأشياء تحت أصابعه إلى ذهب، ويمدُّ يده الكريمة الليلة ليوزع الهدايا الذهبية على أصدقائه.

كان هذا تقريبًا آخر ألمٍ شَعرتُ به: مع تقدُّم الإرهاق، يصبح المرء مُخدَّرًا ضد المعاناة. ربما تكون هذه هي أفضل طريقة لمغادرةِ بلدٍ تحبه كثيرًا. يضاف إلى هذا الإرهاق أنني حزمتُ كُلَّ أمتعتنا الليلة الماضية.

نام هاري بهدوءٍ طوال الليل؛ لعلمه أن كل شيء قد تمَّ الاعتناء به وترتيبه والتعامل معه بكفاءة قبل عِدَّة أسابيع، ومنذ ذلك الوقت كانت مسؤوليَّته الأولى هي استعجالي؛ نتيجة لذلك وَصَلتُ هذا الصباح إلى مطار إدريس وأنا شبه مذهولة. وحينما رأيتُ كُلَّ هؤلاء الناس هناك، تساءلتُ: مَن هذا الذي يغادر وجذب مثل هذا الحشد! ثم فجأة عرفت!

أتذكَّر حينما أتينا إلى ليبيا لأول مرة أنني كتبتُ: «صِلاتي وعلاقاتي مع الليبيين لا بأس بها، لكني لا أعرف أيًّا منهم بشكل جيِّد، ولا أعتقد أنني سأعرف أيًّا منهم أبدًا».

المطار اليوم يعجُّ بالأصدقاء، ونصفهم من الليبيين. أولئك الذين نحبُّهم أكثر من غيرهم موجودون هنا، لكن بدون زوجاتهم. ينقل لي عبد الله رسالة أخيرَة من ربيعة: «أرجوك أن تعودي إلينا يومًا ما»، ويضيف من عنده: «ليباركك الله!».

بدر الدين موجود هنا، يدير كل شيء حرفيًّا: أمتعتنا، والجمارك، والهجرة، والتصاريح... لـ «والده»، وهو فخور بإمكانياته.

ثم يتعهَّد لهاري: «ولن ننسى الغابات. سنزرع شتلات أكثر كلَّ عام، لنجعلها جاهزة للوقت الذي تعود فيه!». يبتسم هاري ويربِّت على ذراعه.

يقف أحمد إلى جانبٍ بالقرب من هاري، ويبدو وحيدًا بشكل غريب في الحشد المثَرثِر هذا. إنها نظرة العُزلَة نفسها التي أتذكَّرها دائمًا من وجه «ابني محمد». ومع ذلك، من المؤكَّد أن أحمد هذا، المحظوظ بزوجته الرائعة، وبأطفاله، وأعماله التجارية الكبيرة، ومنزله الذهبي؛ وبالتالي فهو لم يكن وحيدًا أبدًا! لكن مَن يعرف؟ ألسنا جميعًا وحيدين، بشكل أو بآخر؟

«أحمد، هل يمكنك أن تحاول البقاء على اتصال مع زوجة محمد وأولاده؟ وأن تبعث بأخبارهم في بعض الأحيان؟» أومأ برأسه بابتسامة، وأتذكَّر لقاءنا الأول بتلك الابتسامة المتوهِّجة.

هذا يوم رائع في شمال إفريقيا، وكأنه لكسر خاطر المسافرين المغادرين. لينا لديها أصدقاؤها الإيطاليون بالقرب منها، وبعضهم يبكون، لكن ليس لينا. إنها تبدو فخورة بنفسها، وقد أخبَرَتهم بالفعل أن يتوقَّفوا عن البكاء! يقف كلبنا المالطي بوتشي متوتِّرًا بجانب صندوق النقل الجوي من شركة أليتاليا، خائفًا من رفع إحدى ساقيه، ويبدو أن المهدِّئات التي أُعطِيَت له تجعله أكثر يقظة.

حان الوقت الآن حينما يتعيَّن على هاري وأنا ولينا وبوتشي ترك غبار ورمال ليبيا وراءنا. وأن نتخلَّى عن بحرها المغري، ورياحها الصحراوية الصاخبة، وسمائها الصافية، وشمسها الحارقة، وجمالها، وأناقتها، وفسادها السياسي... وشعبها الغامض، المتناقض، السَّخيِّ، هذا الشعب الوَرِع التَّقيُّ الذي أُحبُّه.

لو كان بإمكاني أخذهم جميعًا معي: بدر الدين ونفيسة، وأحمد وبدرية، وعبد الله وربيعة، وماجد وسميرة، وحليمة، ومبروك، والسيد أبو

بابا، لزراعة البرتقال هناك، وبدر الدين للتفلسف، وأحمد ليرسم البسمة على وجوهنا، وبدرية لأنها جميلة وشجاعة، وربيعة لأنها تفتقدني... وأن نجعل إقامتهم جميعًا في «بلاد الله»، كما نحب نحن الغربيين أن نسمِّي ذلك الجزء الخاص بنا من الكرة الأرضية، واثقين تمامًا من أن الله لن يقبل أبدًا بالبقاء في أي مكان آخر!

لكن، الحقيقة هي أن هؤلاء الأصدقاء لا يريدون مغادرة بلاد الله، التي هي موطنهم.

أَوَدُّ أن آخذ معي جميع أصدقائي في الأمم المتحدة من جنسيات عديدة: كاثلين وهارولد، يو هلا ماونغ، وخين ثان تين، وغاري، وكيتي ووايم، ناين وكارست، أنيتا وجوك، وغاي وليونس- وهم أصدقاء من أوروبا ومن المملكة المتحدة والشرق الأوسط، لكنهم لن يأتوا معنا؛ فجميعهم لديهم التزاماتٌ على أراضٍ خاصَّة بهم. للجميع إلههم الخاص، وديانتهم التي تناسبهم تمامًا، ولا يجب أن تستمرَّ بلاد الله بدونهم أيضًا!

أَوَدُّ أن آخذ معي إلى فيكتوريا الڤيلا البيضاء: حَجَرًا حَجَرًا، مع نبات إبرة الراعي الوردي فيها، وشرفتها بنبتات الصبار المزهرة التي طالما استلقيتُ فيها تحت أشعة الشمس، وسورها الحجري العالي للحماية حولها، وبوابتها التي تُفتَح للأصدقاء. لكن فيلًا من الحجر الأبيض في فيكتوريا! ستكون باردةً جِدًّا! ونباتات إبرة الراعي الوردية سوف تتجمَّد في الشتاء، والشرفة سوف تمتلئ بهطل الأمطار، والسور الحجري المرتفع سوف يسيء إلى تقاليد الحدائق المفتوحة هناك، وستكون البوابة الحديدية متناقِضةً مع المكان.

أَوَدُّ أن أصطحب معي فندق المهاري، وأعيد بناءه هناك بساحة فنائه المكسوَّة بالبلاط الأزرق، ثم أذهب إلى هناك يوميًّا وأجلس تحت الجهنمية المزهرة الرائعة وأشرب الشاي أو الجِنَّ. ولكن... لن تكون هناك أي زهرة أرجوانية مُزهِرة في ڤيكتوريا، ولا الشمس الإفريقية الحارقة في الفِناء، أو العدد الهائل من العصافير في عرائش الفِناء،

ولن أسمعَ صوتَ مؤذّنٍ يدعو للصلاة... مع ذلك، سيكون هناك شراب الجِن!

كل إنسان إلى مصيره، في ظل الله أو في ظلِّ الرَّبِّ. مصيري أن أعيش في الغرب، ولكن ليس هؤلاء الأصدقاء.

لا يسعني إلا أن أقول «حمدو لله» أنني عرفتهم. «حمدو لله»، وأشكر الرَّبَّ على نعمة الأصدقاء.

لقد عُدنا مرَّةً أخرى إلى ڤيكتوريا، في المنزل القديم المتهالِك نفسه، الذي يبلغ من العمر ستين عامًا تقريبًا، كما يقولون، ولا شيء جديد فيه سوى الباب الأمامي القرمزي مع المطرقة النحاسية المالطية.

في الطابق العلوي في غرفة النوم المشرقة لدينا، الأشياء متشابهة إلى حدٍّ كبير: لا يزال هناك رسمان صينيَّان طوليَّان بالفرشاة مُعلَّقان فوق الأَسِرَّة، وهناك مطبوعات يابانية قديمة جدًّا من كيوتو مُعلَّقة بجانب المدفأة. الآن هناك لوحة مُقلَّدة للرَّسَّام الفرنسي بول غوغان مليئة بالإشراق وجدتُها في روما أخيرًا، وهي مُثبَّتة على باب الخزانة، المساحة الوحيدة المتبقية.

السرير مريح، على ما أعتقد، حينما أغوص فيه وأقلِّب في كتابي. لكن الغرفة مليئة بالذكريات بحيث لا يمكنني القراءة. أوشك أن أنام حينما أسمع، أو ربما أحلم، بنقر كعب الحذاء على الطريق بالخارج. أصيخُ السَّمع: البوابة تتأرجح، والباب الأمامي يُحدِث صوتًا، وكذلك أسمع صرير الدَّرَج، فأقول لنفسي: إنه بيتٌ قديم، والسلالم تُحدِثُ صريرًا كالعادة حينما تدوسها الخطوات الشابَّةُ المتسلِّلة- على الرغم من أنني أعلم أنه هذه الليلة عبارة عن منزلٍ قديم يَئِنُّ تحت وطأة العمر. فهناك صريرُ قاعة الاستقبال، وصرير باب غرفتي، ثم يظهر شبحٌ مُحبَّبٌ يَبرُز رأسه خلال فتحة الباب، ويقول بابتسامة غير متكلفة: «تُصبحين على خير، يا ماما. لا تقلقي عليَّ، ولا تُحدِثي جلبة!».

أهلُ الله

"لأنهم ولدوا في أرض قاحلة جرداء؛ يجد الليبيون أنفسهم محكومين بثنائية البَحر والصحراء، بهطل المطر أو بحدوث الجفاف، بانطلاق زوابع الرمال أو بفيضانات السيول، بمواسم حصاد الحبوب، أو القحط وتَعرُض ماشيتهم للمجاعة. والآن، في هذا القرن الذي يشهد ظهورَ ثروات باطن الصحراء، يجدون أنفسهم محكومين بتدفُق النفط من تحت رمالهم.

لمدّة شهرٍ من كل عام، يصومون طوال ساعات النهار، ويحتفون بالطعام خلال الليل، ويولُون وجوههم شطر مكّة للصلاة خمسَ مرات في اليوم، مُردّدين أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، في خضوعٍ تام لمشيئته. يقودون سيارات الجاغوار، وألفا روميو، كما يركبون الإبل والحمير. البعض منهم لديه في بيوتهم أثاثٌ من طراز لويس الخامس عشر، بينما آخرون يقطنون الكهوف أو الخيام السوداء. كما يذهب البعض منهم إلى روما لتمضية العطلة، وفي الوقت نفسه يُخفون زوجاتهم في الجُرود والفرّاشيات وتحت النقاب. بعضهم يحصل على منح للدراسة الجامعية، بينما الكثيرون لا يعرفون حتى كتابة أسمائهم.

هذه قصةُ شعبٍ مسلم فخور بنفسه، يناضل ليحظى بحياة عصرية في مملكة حديثة التكوين، وفي أرض لها الكثير من سمات العصر الحجري.

كل ما سيُروَى من أحداثٍ في هذا الكتاب حقيقيٌ، أمّا الأسماء والشخصيات الليبية المذكورة فهي -في بعض الأحيان- من نسج الخيال."

أغنس نيوتون كيث - أغسطس ١٩٦٥

ISBN 978-9-77-549691-1

9 789775 496911

دار الفرجاني